مصرع الإلحاد

ببراهين الإيمان

سماحة الشيخ العلامة

أحمد بن حمد الخليلي

المفتي العام لسلطنة عمان

الجزء الأول

الكلمة الطيبة

جَمِيعُ الحُقُوقِ مَحْفُوظَةٌ



الطَّبْعَةُ الأُولَى
١٤٤١هـ ـ ٢٠١٩م

مصرع الإلحاد

بِبَرَاهِينِ الإِيمَانِ

سَمَاحَة الشَيخ العَلَامَة

أحمد بن حمد الخليلي

المفْتِي العام لسَلْطَنَةِ عُمَانَ

الجزء الأول

بسم الله الرحمن الرحيم

وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ
وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٨﴾ ثَانِىَ
عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ لَهُۥ فِى
ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ
عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٩﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ
وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٠﴾

(الحج: ٨ ـ ١٠)

شكر وعرفان

الحمد لله، والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه، أما بعد:

فشكر المحسن على إحسانه واجب تحتمه الفطرة ويعززه الدين ففي الحديث عن النبي ﷺ: «**من لم يشكر الناس لم يشكر الله**»، ولا يخفى أن عدم شكر الله تعالى إنما هو كفران لنعمته لأن الكفر نقيض الشكر فمن لم يشكر فقد كفر كما هو صريح قوله تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ وهذا ما عرج عليه سليمان عليه السلام في قوله: ﴿لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾.

وإذا كان عدم شكر من أحسن من الخلق هو تركا لشكر الله تعالى فإنه يعد مما يسخطه سبحانه، وسخطه مؤد إلى عقابه والعياذ بالله.

لأجل هذا، أجدني مدفوعًا إلى شكر أصحاب الأيادي البيضاء الذين وقفوا معي في هذا التأليف، وأبدأ بشيخنا الرباني قطب المعارف والعوارف وبحر الفضائل والفواضل حمود بن حميد الصوافي حفظه الله تعالى وأسبغ عليه نعمه ظاهرة وباطنة فقد أبت عليه همته الشماء وإخلاصه لدينه ولإخوانه إلا أن يقرأ هذا الكتاب كله من أوله إلى آخره وأن يمعن فيه نظره الثاقب ويبدي فيه ملاحظاته البناءة مع كثرة ما يحيط به من أشغال وما يضطلع به من

تكاليف، فله الشكر على ذلك شكرًا موصولًا بدعاء خالص من قلب مخلص أن يغدق الله عليه سيوب الخير ويحفه برعايته وتوفيقه ويبوئه مبوأ التكريم في الدنيا والآخرة.

ثم أثني بشكر الأخ الوفي الصفي سعادة الشيخ أحمد بن سعود السيابي الذي أولى هذا الكتاب اهتمامه واعتنى به عناية فائقة فلم يأل جهدًا في التنبيه على كل ما لاحظه فيه من أخطاء شكلية أو جوهرية فجزاه الله خيرًا.

ثم أوجه خالص شكري وتقديري إلى الخبير الفلكي الأخ الدكتور صالح بن سعيد الشيذاني الذي قدم إلي ما لاحظه في الكتاب في الجوانب العلمية لا سيما ما يتعلق بمجال تخصصه، فجزاه الله كل خير على ذلك.

ولا أنسى الدور المهم الذي اضطلع به الابن العزيز الطباع الخبير الماهر الأستاذ أحمد بن حمد بن راشد الذهلي فإنه بذل جهدًا في إخراج الكتاب بهذه الصورة الفنية الحسنة وكان له الفضل في ارتياد المجاهل الغامضة في المكتبات الآلية والخزائن العلمية التي تحتويها شبكة المعلومات وما كان لي لولا خبرته الحصيفة وريادته الأمينة أن أتقدم خطوة واحدة في هذا المجال فجزاه الله خيرا وبارك فيه وفي ذريته.

ولا يفوتني أن أشكر بكل إخلاص دار الكلمة الطيبة وجميع أعضائها وعلى رأسهم الابن العزيز النابغة الشيخ سلطان بن مبارك الشيباني الملقب بقاموس التراث الإباضي ـ وما أجدره بذلك ـ وذلك على متابعتهم المتواصلة لإنجاز هذا الكتاب وحفز همتي من أجل ذلك ولا يفوتني أن أنوه من بين أعضائها بجهد الابن النبيه الفهامة الشيخ حمد بن سليمان المعولي الذي لم يأل جهدًا في تقديم مقاطع مما يتطلع إليه القراء من نصوص الكتاب مع حسن اختياره لها، فجزاهم الله خيرًا جميعا وبارك في أعمالهم.

وإن نسيت فلن أنسى جهود سبطي الكريم مبارك الطلعة ميمون النقيبة الابن عبد الملك بن حميد اليحمدي الذي بذل جهدًا مشكورًا في مقابلة النصوص المنقولة في الكتاب بما يوجد في مصادرها ومراجعها كما هو شأنه في جانب من نتاحي العلمي فبارك الله فيه وجزاه الله خيرًا.

هذا، وإذا كان شكر كل من أحسن منقبة حميدة فلا غرو إن شكرت أولادي البررة على ما قاموا به من جهد مشكور فيما يتعلق بهذا الكتاب بدءًا من تشجيعهم لي وحفزهم لهمتي إبان تأليفي، وإن لي في ذلك سندًا قويًا في شكر الله تعالى لعباده، مع كونه منه مبدأ الإحسان إليهم في كل شيء، فهو الذي أخرجهم من عدم وأسبغ عليهم صنوف نعمه وأغرقهم في بحار كرمه، ولكنه لم يترك شكر من أحسن منهم، وقد سمى نفسه الشكور من أجل ذلك، وأين مقام الربوبية العظيم من قدر العبودية المتضائل؟ فكيف يعاب على والد إن شكر ولده؟! لذلك أشكر أولادي جميعًا على كل ما قدموه لي من إحسان في هذا الأمر، وأخص من بينهم الذين أزجوا لي ملاحظاتهم بحسب ما تسنى لهم، فأشكر أكبرهم سليمان على قيامه بمراجعة الكتاب بقدر ما تسنى له في وقت كان فيه مزحومًا باختبارات الطلبة في كلية العلوم الشرعية ومراجعة بحوث بعضهم، ولكنه جاد بما تيسر له من ملاحظة.

وكذلك ابني خليل، الذي عني بالكتاب فقصه جملة جملة وكلمة كلمة، ووقف عند كل جملة وكلمة فبين لي ما رآه من ملاحظة.

وكذلك ابني أفلح، الذي كان محاطًا بمهمات متعددة وأعمال شاغلة، ولكنه بذل جهدًا في تتبع الجزء الأول وأكثر الجزء الثاني حرفًا حرفًا، وأبدى ملاحظاته في كل ما قرأه وجاد علي بآرائه الحصيفة ونظراته الثاقبة الناشئة عن حنكته ومهارته، فجزاهم الله جميعًا خير الجزاء.

ولا يمكنني أن أغفل دور أصغر الأبناء عمر الذي أولى هذا المشروع اهتمامه الكبير وزودني بأغلب المصادر المعاصرة التي تتعلق به، ولم يكتف بذلك، بل كان أحيانًا يأتيني بالكتاب وينبهني على معلومة مهمة في تضاعيفه ويضع عليها علامة حتى لا تفوتني، فبارك الله فيه وأحسن إليه ووفقه للعلم النافع والعمل الصالح.

وأسأل الله أن يبارك فيهم جميعًا وفي ذراريهم وأن يجعلني وإياهم ممن يصدق عليهم قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ ﴾.

وهناك عدد كبير يستحقون مني جزيل الشكر، بما كانوا يقومون به من تشجيعي على المضي قدمًا، في هذا المشروع الخيري والعمل النافع بإذن الله، سواء من كان داخل الوطن أو أنه من خارجه، وليس بإمكاني أن أستوعب ذكرهم، فإن كثيرًا منهم يند ذكره عن ذاكرتي، ولكني أكلهم إلى من شكره أنفع لهم من شكري، وهو الذي لا يخفى عليه أمرهم، فأسأل الله أن يتولى شكرهم على إحسانهم ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴾ وأسأل الله أن يوفقنا جميعًا للخير.

المؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الخفي بذاتــه، الظاهر بتجلياته، الذي ســبحت بحمده حقائق الوجود، وشهدت بوحدانيته دقائق الشهود، فما من ذرة في تضاعيف الكون، أو جزيئة في طوايا الوجود؛ إلا هي ســفر حافل بكلماتــه التامات، ومعرض زاخر بآياته البينات، فإن ألســنة حالها جميعًا دالة على وجوده، وشاهدة على شــهوده، تجلت صفاته العظيمة على جميــع الكائنات خفاياهــا وجلاياها، وأشــرقت أنواره الباهرة علــى جميع الممكنــات، فغمرت جميــع أنحائها وزواياها، فالكون بكل ما اشــتمل عليه يعلن افتقاره إليه، ويعرب عن تنزيهه وتمجيده، وتقديســه وتوحيده، فهو الإله الحق، وكل ما يُدعى من دونه فهو باطل، وكل ما يُقصد سواه فهو سراب زائل.

أحمده تعالى حمد العارف بجلاله، المعترف بكماله، المفتقر إلى إفضاله، وأشــهد أن لا إله إلا هو، خلق فسوى، وقدر فهدى، وســبح بحمده الملك والملكوت، فغمر كل ما في طواياهما بواسع فضله وعظيم الرحموت، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدًا عبده ورســوله أفضل من سبّح ووحّد، وشكر وحمد، وخضع وعبد، وركع وسجد، وذكر الله بالغدو والآصال، ووصفه تعالى بكل محمدة وكمال، صلى الله وســلم عليه وعلى آله وصحبــه ـ الذين عرفوا الله فســبّحوه وحمدوه، وبكل جلال وصفوه، وعن كل نقيصة نزّهوه ـ وعلى من تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.



تمهيد

بين يدي الكتاب

أما بعد:

فإن أجلّ ما تجلّى للعقول المبصرة النيرة، وجادلت فيه النفوس الحائرة المظلمة وجود الله ﷻ، فإن وجوده أظهر من أن يحتاج إلى بيان، كيف؛ وإن من شيء ـ وإن دق حتى لم يكد يظهر ـ إلا هو دليل عليه، ولو تأمل المجادل فيه فيما انطوت عليه نفسه، واشتمل عليه جسمه، لوجد أن كل جزيئة في جسمه تخاصمه فيما يجادل، وتبدد ظلمات مجادلته الباطلة بأنوار الحجج الدامغة، وآثار الحق اليقين، إذ ما من جزيئة مما انطوى عليه أي جسم، أو اشتمل عليه أي جرم، إلا وهي ديوان حافل بآيات الله البينات، لو تضافرت جهود البشر جميعًا على تلاوته، وتعاقبوا عليه قرنًا بعد قرن، لما أمكنهم استقصاؤه، كيف؛ وجميع ذرات الكون إن هي إلا أسفار زاخرة بكلمات الله تعالى التي قال الله تعالى فيها: ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ﴾ [لقمان: ٢٧]، وما هو إلا مثل ضربه الله تعالى لإدناء الحقائق الغيبية في صورة المشاهد المألوفة، وإلا فأمر الله تعالى أجلّ من ذلك كله، إذ لا يمكن أن يقاس الغيب بالشهادة، أو المطلق بالمحدود، فما من شيء جليّ أو خفيّ يفتح عليه الإنسان عينه، أو يَرِدُ على

فكره، إلا وهو ينادي بلسان حاله أن وجوده ما هو إلا أثر لوجود ربّ الوجود الذي هو واجب الوجود لذاته، ولذلك ألهم الله تعالى المرسلين في مجادلتهم لأقوامهم ـ الذين كانوا يجادلون في الله تعالى ـ أن يقولوا لهم: ﴿ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [إبراهيم: ١٠].

وما معنى هذا إلا أن وجوده تعالى أقوى بدهيات العقول، فإنّ كل ما في الكون ـ سفليّه وعلويّه، ظاهره وباطنه، ملكه وملكوته، مما ظهر منه أو بطن، أو دقّ أو جلّ ـ هو كله شاهد على وجود الله تعالى، وكل ذلك يعجّ بما يصخّ أرجاء الوجود من الآيات الشاهدة بأنّ الله تعالى ـ مع خفائه وعدم تسلط الحواس عليه ـ هو أظهر من كل موجود بتجلياته العظمى، وآياته البينات، ولولا وجوده لم يكن لأي شيء سواه وجود، لا فرق في ذلك بين الأرواح والأجسام، والمعقولات والمحسوسات، والظواهر والبواطن، فلولا وجوده ﷻ لما تردد صدى صوت، أو كان همس، أو تعاقب على شيء حياة وموت، وقد أجاد من قال:

فَيا عَجَبا كَيفَ يُعصى الإِلَهُ ... أَم كَيفَ يَجحَدُهُ الجاحِدُ
وَلِلّهِ في كُلِّ تَحريكَةٍ ... وَتَسكينَةٍ أبَدًا شاهِدُ
وَفي كُلِّ شَيءٍ لَهُ آيَةٌ ... تَدُلُّ عَلى أَنَّهُ واحِدُ[1]

ولله در علامة الشريعة والأدب أبي مسلم رَحِمَهُ ٱللَّهُ حيث قال:

سبحان من وجب الوجود لذاته ... للذات لا لوجود مخلوقاته
وجب الوجود له بما هو أهله ... من مقتضى أسمائه وصفاته
وجب الوجود لذي الجلال بشرط لا ... ولو انجلى بوجود موجوداته

---

(١) العتزي، أبو العتاهية؛ إسماعيل بن القاسم العيني: ديوان أبي العتاهية، ص١١٢، قدم له وشرحه: مجيد طراد، دار الكتاب العربي ـ بيروت، ط١: ١٤٢٥هـ/١٩٩٥م.

وجب الوجود لذي الجلال مقدسًا عن شائبات النقص في سبحاته
وجب الوجود لـه بغير معلل لوجـوده أو موجـب لثباتـه
وجب الوجود لذي الألوهة مطلقًا فـي قدسـه عـن كل تقييداته
وجـب الوجود له غنيًا نفسـه من حيـث وحدتـه ورتبة ذاته
وجب الإلـه ولا تعين ممكن إلا تـعيـنـه بـمـعـلومـاتـه
مـا زاد حـق وجوبـه متعين بوجوبه من جنـس مصنوعاته
لم تصـدر الآثار حـق وجوبه إلا دلالـتـهـا لـتـأثـيـراتـه
إيجابهـا حـدث ولا تأثير في ثبت الوجوب الحق من إثباته
آثـار إمـكان الوجـود لغيره جل الوجود الحـق عن علاته
أعطى الوجود لممكن مختاره فـي حـد علتـه ومعلولاتـه
حقـت لـه أحديـة فـي ذاته وثـبـوتـه ووجوبـه وصفاتـه
بحت القداسة في مقام وجوده عمـا يحـد وجـود مخترعاته
فوجوده للـذات ليس لمقتض ووجودهـن يعـد مـن آياتـه
وجـوده صفـة لعـز كمالـه ينهـى إليهـا مـا يليـق بذاته
ووجوده سـلب لضـد وجوده والشـيء معتبـر بضدياته
ووجوده سـلب انتهاء وجوده يقضي الوجوب محال نفي ثباته
ووجود مبدعه وتـرك وجوده فعـل وتـرك مـن تجلياتـه
وبفيض مرتبة الوجود تقيد الـ إمـكان فـي إيجـاد ماهياتـه
فيض اختيـار ليـس عليًا ولا طبعًـا يؤثـر فـي طبيعياتـه
ما حيلة الإمـكان حيث كمونه وبـروزه من بعـض مقتضياته
في فقره الإمكان تحت وجوبه متـقـيـدًا بقيـود محتملاتـه

ووجود محتمل الوجود بخلقه وبـأمـره أثـر اختـيـاريـاتـه
والفيض بالتعليل يوجب كثرة الـ ـقدماء في نفـس القديم بذاته
والتـرك دون الاختيـار لعاجز في ذاته مـن فعـل مقدوراته
وقضية الإمكان شـاهدة على إتقـان مختـار لمصنوعاتـه
ظهر اختيار الحق في وجه التنا قض والتضـادد بين مخترعاته
وتغايـر الإبداع تحت شـؤنه في حصر «كن» طوعًا لتقديراته
لا قابليـة فـي وجـود ممكن لسـوى اختيار الحق كينوناته
ومعلـل فـردًا يعلـل مفـردًا لا يقتضـي تعليـل معلولاتـه
والنقض والإبرام والتصريف والـ ـتدبيـر للمختـار مـن آياتـه
وتباين الأقدار حسـب شـؤنه من عالم الجبروت في حضراته
للواجب المختار مظهر حكمة عن قدرة وجبـت لوحدة ذاته
يا من تجلّى بالوجوب وجوده في نور حكمته وظـل صفاته
يا مـن تجلّى بالألوهـة واجبًا من حيث مظهـره على كلماته
يا من تجلّـى بالوجوب مدبرًا جـزئـي مـبـدعـه وكـلـيـاتـه
يا من تجلّى من سـنا أخلاقه وعظيـم رحمتـه وتبريكاتـه
يا من تجلّى في سياسـة ملكه واللطف بالمخلوق في حالاته
يا من تجلّى في مشـاهد حبه ببلائـه فـي أهـل تقرباتـه
يا مـن تجلّى في نعيـم عدائه بوجـوب حكمتـه بمقتضياته
يا من تجلّى فـي بدائع صنعه بعجائـب الإتقـان فـي ذراته
يا مـن تجلّى واحـدًا في ذاته وصفاتـه فـي أي تعريفاتـه

يا من تجلّـى بالكمال وجوبه ... فـي فعلـه ولذاتـه وصفاتـه
يا من تجلّـى بالجلال وجوبه ... مـن حيـث هيبته وعـزة ذاته
يا من تجلّـى بالجمال وجوبه ... مـن حيـث رأفتـه بمربوباته
يا مـن تجلّـى بانتفـاء مثيله ... في السـلب عنه وفي إضافياته
يا مـن تجلّى بانتفاء شـريكه ... مـن وجـه قدرتـه وتقديراته
يا من تجلّى فـي مواجد أهله ... بمسـابح الأذواق في سبحاته
يا مـن تجلّى للنُهـى بفتوحه ... وشـوارق العرفان من فيضاته
يا من تجلّـى للسـرائر باطنًا ... بمواهـب الإمداد مـن نفحاته
يا من تجلّى في قلوب شهوده ... بشـهـود عزتـه وتمجيداتـه
يا من تجلّى في مظاهر قدسـه ... عن دركه لـذوي خصوصياته
يا من تجلّى في قلوب العارفيـ ... ـن بما حباهـم مـن لدنياته
يا من تجلّـى للعقـول بنوره ... من حيث أغرقهـا ببحر صفاته
يا من تجلّى للفهـوم فأدركت ... أن ليس تدرك غير تسـبيحاته
يا من تجلّـى بالمحامد مطلقًا ... في جـوده وشـمول تكريماته
أوجدتني بشـرًا سـويًا عاقلًا ... ووهبـت عقلـي كل إدراكاته
عبدًا تقيـده الضـرورة عاجزًا ... في أي طور مـن جميع جهاته
عبـدًا يصرفـه اقتـدار إلهـه ... بسـكونه فقـر وفـي حركاته
أوجدت عبدك واقتضيت نصيبه ... بحياتـه الدنيـا وبعـد مماته
حسبي وجودك من وجود قائم ... بوجـود ذاتك أصله فـي ذاته
لا يقتضي ضـرًا ونفعًا دون ما ... تقضي بـه فـي دفعـه وثباته

أوجد بجاه وجودك الأنوار في قلبي وأسعدني بروح حياته
يا حي يا قيوم عبدك معدم من حسن عيشته ومن حسناته[1]

واعجب ـ مع ذلك كله ـ أن يكون في الجنس البشري ـ الذي أكرمه الله بمنحة العقل، وموهبة التفكير ـ من يتعامى عن مشاهد الوجود الدالة على الله تعالى، ويتصامم عن ألسنة حال الكائنات المسبحة بحمده الشاهدة بوحدانيته الدالة على افتقار كل موجود إليه، كل ذلك بدعوى أنهم لم يشهدوه بأبصارهم، ولم يسمعوه بآذانهم، ولم يلمسوه بأيديهم، ولم يدركوه بحواسّهم، وقد عميت بصائرهم وأبصارهم عن كون الله تعالى ليس كمثله شيء، فلا يدرك بالحواس، وإنما يعرف بآثاره في خلقه، ومشاهد الكون الدالة عليه، وإن تعجب فاعجب من هؤلاء الذين ينكرون الله تعالى لأنهم لم يشهدوه ولم يدركوه بحواسّهم، كيف يدّعون بأن لهم عقولًا مع أنهم لا يشهدون تلك العقول بأبصارهم، ولا يدركونها بحواسّهم، فلو كان كل ما لا يُبْصَر ولا يُدْرَك بالحواس لا حقيقة له لزم أن لا تكون لهم عقول.

وكم تجد في العالم المادي من حقائق لا تُدرك، وإنما تُعرف بآثارها، كالطاقة الكهربائية، والطاقة النووية، فما بالهم يعترفون بهما بما يشاهدونه من آثارهما ويتعامون عن آيات الله الدالة عليه في كل ذرة من ذرات الوجود؟؟!.

وقد نشطت منذ أكثر من عقد من السنين دعوة الإلحاد المشئومة الباطلة في بقاع شتى من أنحاء العالم، وكان صداها في بلاد الإسلام مزعجًا، إذ لم يلبث المرضى الذين فسدت فطرهم، وتعفنت طبائعهم، وأظلمت عقولهم، أن تجاوبوا مع هذا النداء الأحمق الخائب، وتفاعلوا

---

(١) البهلاني؛ أبو مسلم؛ ناصر بن سالم بن عديم الرواحي: **الآثار الشعرية لأبي مسلم**، الشجرة المباركة، ص٣٥٧ ـ ٣٦٠، حققها ووضع حواشيها وقدم لها: محمد الحارثي، منشورات الجمل ـ بيروت، ط١: ١٤٣١هـ/٢٠١٠م.

معه بطرق مختلفة، فمنهم من أسفر عن حقيقته القبيحة الشوهاء من غير استتار ولا حياء. وليت شعري؛ من أين يأتيهم الحياء والنبي ﷺ يقول: «**والحياء شعبة من الإيمان**»[1]؟.

ومنهم من نادى بمبادئ الإلحاد تحت لافتة من شعارات أخرى كشعار الحداثة أو العقلانية أو العلمانية، ومهما اختلفت طرقهم فإنّ الغاية واحدة، إذ الكل حرب على الله ودينه ورسوله والمؤمنين، ومهما حاول هؤلاء مواراة طواياهم بما يرفعونه من شعار، فإنّ الحقيقة تأبى إلا أن تطل برأسها وتكشف ملامح وجهها.

ومهما تكن عند امرئ من خليقة وإن خالها تخفى على الناس تعلم

---

(١) رواه البخاري عن أبي هريرة بلفظ: «الإيمان بضع وستون شعبة والحياء شعبة من الإيمان»؛ **صحيح البخاري**، كتاب (٢) الإيمان، باب (٣) أمور الإيمان وقول الله تعالى...، (رقم: ٩، ص ٣)، ورواه مسلم عن أبي هريرة بلفظ: «الإيمان بضع وسبعون أو بضع وستون شعبة فأفضلها قول لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطّريق والحياء شعبة من الإيمان»؛ **صحيح مسلم**، كتاب (١) الإيمان، باب (١٢) بيان عدد شعب الإيمان...، (رقم: ٣٥ [١٥٢]، ص ٦٨٧)، وابن ماجه؛ **سنن ابن ماجه**، كتاب السنة، باب (٩) في الإيمان، (رقم: ٥٧، ص ٢٤٨٠)، وأخرجه أبو داود عن أبي هريرة بلفظ: «الإيمان بضع وسبعون أفضلها قول لا إله إلا الله وأدناها إماطة العظم عن الطّريق والحياء شعبة من الإيمان»؛ **سنن أبي داود**، كتاب (٣٩) السّنّة، باب (١٤) في ردّ الإرجاء، (رقم: ٤٦٧٦، ص ١٥٦٦)، وأخرجه الترمذي عن أبي هريرة بلفظ: «الإيمان بضع وسبعون بابًا فأدناها إماطة الأذى عن الطّريق وأرفعها قول لا إله إلا الله». قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح، وهكذا روى... عن أبي هريرة عن النبي ﷺ: الإيمان أربعة وستون بابًا؛ **سنن الترمذي**، (٣٨) أبواب الإيمان، باب (٦) في استكمال الإيمان والزيادة والنقصان، (رقم: ٢٦١٤، ص ١٩١٥)، والنسائي؛ **السنن الصغرى**، كتاب (٤٧) الإيمان، باب (١٦) ذكر شعب الإيمان، (رقم: ٥٠٠٧ ـ ٥٠٠٩، ص ٢٤١٠ ـ ٢٤١١)، وابن حبان؛ **صحيح ابن حبان**، كتاب (٥) الإيمان، باب (٤) فرض الإيمان، (رقم: ١٦٦، ١/٣٨٤)، و(رقم: ١٦٧، ١/٣٨٦) و(رقم: ١٨١، ١/٤٠٧)، والبيهقي في شعب الإيمان؛ **الجامع لشعب الإيمان**، باب ذكر الحديث الذي ورد في شعب الإيمان، (رقم: ١، ١/٧ ـ ٨)، ومن حديث أبي هريرة: أخرجه الطبراني في الأوسط؛ **المعجم الأوسط**، باب من اسمه مقدام، (رقم: ٩٠٠٤، ٩/٨٥).

وقد صدق من قال:

ثــوب الرياء يشــف عما تحته فــإذا التحفــت به فإنــك عار

على أنهم بأنفسهم يبدون ما يحاولون أن يكتموه، إذ لا يكاد يموت ملحد إلا وينال منهم من العطف والتقدير والتأبين والدعاء ما لا يكون للمؤمن منه نصيب من قبلهم، وكم انشقت مرارة أحدهم غيظًا واستنكارًا إن لقي أحد من الملاحدة ـ تجنى على مقام الربوبية الأعلى بكل وقاحة وصفاقة ـ شــيئًا من العقاب، ولو كان شيئًا يسيرًا لا يحسب له حساب في موازين شرع الله تعالى، فهم لا يرون أي حــرج في التعدي على الــذات الإلهية المقدســة، وانتهاك حرماتها وإهانة كرامتها، ولا يحرك ذلك منهم ساكنًا، إذ لا يحسون تجاه ذلك حتى بوخز الضمير، وأنى يحســون بذلك وقد مات منهم الضمير، وتبلدت منهم الأحاسيس، وانطمست فيهم البصائر، ولكن لا يكاد يصاب من صدرت منه هذه الجريمة بأي أذى حتــى تغلي منهم مراجل الحقــد، وهذا يعني أن حرمات الملاحدة عندهم هي أعظم من حرمات الله تعالى.

وإن عجبت فاعجب أن من هؤلاء من يدلس على الناس بأنه لم ينفك من الإيمان ولم يخلع طوق الإسلام من عنقه، وهو يتجرأ على انتقاد الإسلام من رأســه إلى قدميه!.. فكل ما يعرض من حقيقة الإسلام يصميه بنقده ويشوهه بتزويره، فلا يطيق لشــيء من ذلك ذكرًا، وكل ما يصدر من أهل الإسلام من تقرير حقائقه وإبراز محاسنه يقابله بالسخرية والاستخفاف والتندر ممن صدر منه ذلك، ومع ذلك لا يلقي بــالًا إلى ما يفيض من صــدور الملحدين مما تغلي به مراجلهم، وتفور به براكينهم من الحقد الدفين على هذا الدين، فإنّ كل ذلك يتلقونه برحابة الصدر، وهدوء الأعصاب والرضى التام، بل يتفانون في الدفاع عمّــن صدر منه ذلك، ويندون بأي عقوبــة تلحقه، ويحاولون أن يســكنوا أي ريح تلفحه، متســترين وراء دعوى الحرية المطلقة للناس، وأن

الخلاف والتعدد في العقائد والأخلاق من سنن الخلق، كأنما الحرية عندهم خصت بهؤلاء المفسدين، ولم يكن منها نصيب للحق وحزبه!!.

فهم يسعون دائمًا إلى أن تلجم أفواه أهل الحق حتى لا تفوه بكلمة تنصر الحق وحزبه، أو تعري فضائح الباطل وأهله، وأن تقطع ألسنتهم وتكسر أقلامهم لأجل أن يأخذ الباطل حريته، فلا ينافسه الحق في الوجود، ولا يشاركه في الظهور، وحسبك هذه المواقف التي لا تنم إلا عن حقدهم الأسود الدفين على الدين ومن تمسك به، ناهيك أن تقوم قيامتهم بسبب عقوبة لا تساوي شيئًا نالت من تجرأ على الذات الإلهية بمحاولة تدنيس قدسها، وأن يروها جريمة في حق الحرية والإنسانية والمجتمع، وأن عليهم أن تتضافر جهودهم من أجل وقفها، وعندما وجدوا بغيتهم بإطلاق سراحه طاروا فرحًا، وملأوا الدنيا ضجيجا بهذا الإنجاز الذي حققوه، وعدوه نصرًا للحرية، وانهالت منهم التهاني على الملحد الأفاك، داعين إياه إلى العودة إلى ممارسة نشاطه فيما يكتبه ضد الحق والدين، ولم يكتف من تولى كبر هذا الأمر بهذا كله، بل أضاف إليه دعوة إلى تعديل القوانين حتى لا تعْرِض لمن تطاول على مقام الربوبية بسوء، لأن العدل والإنصاف عندهم أن لا يكون في النظام والقانون أي اعتبار لحق الله تعالى، وحق دينه، ولا يعترض على من تطاول عليه أو على ما شرعه من الدين، أو ما أنزله من الحق.

وهم مع هذا صم عمي عن المصائب التي تتوالى على أمة الإسلام، وما ينكب به المسلمون من الرزايا العظيمة، والفادح الجلل، حيث أصبح دم المسلم أرخص دم في العالم، وحقه أكثر الحقوق إضاعة، وماله أقل الأموال حصانة، فكم من مصائب رزئ بها المسلمون في بقاع الأرض، فكم سفك من دمائهم في ميانمار (بورما سابقًا)، ولا تسأل عن أنهار الدم التي أريقت في غزو أرض العراق وأفغانستان وغيرهما من بلاد الإسلام.

دع ما يجري في أرض فلسطين العزيزة، وما ينكب به أهلها من قتل ودمار، وطردهم من بيوتهم وإخراجهم من أموالهم، وإبادة رجالهم ونسائهم وأطفالهم، وهذا كله لم يسبب إطلاق كلمة استنكار ـ فيما اطلعت ـ من ألسنتهم أو أقلامهم، بل ظلوا قريري العيون هادئي النفوس، هانئين بكل هذا الذي يجري لأنه وفق رغباتهم وأهوائهم.

ولم يكتفوا بهذا؛ بل كانوا ضد كل انتصار من أهل الحق لأجل حقوقهم، حتى أنهم عدوا جريمة من كبريات الجرائم أن يخترق شاب فلسطيني مواقع إلكترونية لحساب الكيان الصهيوني، فانشقت حناجرهم استنكارًا لهذا الأمر، مع أن هذا لا يعدو أن يكون استردادًا لبعض الحق المغصوب من قبل الصهاينة الغاصبين، والانتصار بأخذ الإنسان حقه بنفسه ـ إن لم يجد من ينصره، ويمكنه من استرداده ـ حق مشروع نص عليه القرآن في قوله تعالى: ﴿ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ۞ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [الشورى: ٤١ ـ ٤٢].

ليت شعري؛ أي دليل أقوى من هذا الدليل على أن هؤلاء يتحركون في خطاهم وفق المخطط الصهيوني الغاشم، ويخدمون المشروع الصهيوني، الذي يهدف إلى احتلال العالم بأسره وفق برنامج بروتوكولات حكماء صهيون، الذي أسفر عنه المؤتمر الذي انعقد بمدينة (بال) بسويسرا في عام ١٣١٤هـ ـ ١٨٩٧م، وتجدهم مع ذلك يعززون المخطط الصهيوني بما يطرحونه من التصورات الباطلة المأفونة، التي لا تصدر إلا عن النفوس المريضة، كنفيهم أن يكون المسجد الأقصى المبارك الذي ذكر في القرآن هو المسجد المشهور بأرض فلسطين المقدسة، وإشاعتهم أنه مسجد بمكة، أو بعض ضواحيها، كترديد بعضهم أنه كان بالجعرانة..! وما هذه الفرية العظيمة إلا خدمة للمخطط الصهيوني بإنكار أن يكون للمسلمين حق في المسجد

الأقصى المبارك، الذي هو بأرض فلسطين الإسلامية، وهذا مما فاقوا به الصهاينة أنفسهم، فما أشبه حالهم هذه بما قاله الشاعر:

وكنت أمرأً من جند إبليس فارتمى ... بي الدهر حتى صار إبليس من جندي
فلو مات قبلي كنت أدركت بعده ... دقائق كفر ليس يدركها بعدي

على أن في اليهود أنفسهم ممن هو حر الضمير من يستنكر ما يصيب المسلمين من قبل الصهاينة مما هو يرضي ضمائر هؤلاء الحاقدين ويقر أعينهم، وماذا عسى أن يرتجى ممن يريح ضميره ويشرح صدره أن يتطاول الأوباش على الذات الإلهية بالقدح والسباب؟ بل لا يكفيهم ذلك حتى يدعوا أن هذا هو منهج النبوة..! غير ملتفتين إلى ما شرع في القرآن من عقوبات رادعة فيما هو دون هذا بكثير.

وإذا كان الإنسان يُردع ويُوقف عند حدّه إن تعدى على إنسان مثله في جميع القوانين البشرية، فكيف يكون شأن الله تعالى أقل من شأن الإنسان؟! وإذا جئنا إلى نصوص القرآن ـ الذي طالما زعموا أن الاحتكام في الإسلام يجب أن يكون إليه دون السنة النبوية المطهرة ـ وجدنا فيها تشريع عقاب يقطع ألسنة السفهاء عن التطاول على النساء المحصنات كما هو صريح في قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ۝ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ ﴾ [النور: ٤ ـ ٥]، فترى أن الله تعالى لم يهمل عقوبة هؤلاء، ولم يرخ لهم الحبل على غاربه، وإنما فرض عليهم عقوبتين صارمتين بدنية وأدبية، فالأولى هي جلدهم ثمانين جلدة، والثانية هي حرمانهم من قبول شهادتهم إلى الأبد، اللهم إلا إن صدقوا في توبتهم بناء على أن الاستثناء مسلط على الجملتين كلتيهما في قوله: ﴿ وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ۝ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ ﴾.

هذا بجانب ما ينتظرهم ـ إن لم يتوبوا توبة نصوحًا ـ في الدار الآخرة من العذاب العظيم الذي توعدهم الله تعالى به في قوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ ﴾ [النور: ٢٣ ـ ٢٥].

ليت شعري؛ أويرى هؤلاء أن حق الله تعالى على عباده هو أقل وأحقر من حق المرأة المحصنة؟!.

هذا إن كان هؤلاء كما يزعمون لا ينكرون نصوص القرآن، وإنما ينكرون السنة وحدها، على أن إنكارهم للسنة إنما هو إنكار للقرآن الذي فرض على المؤمنين اتباعها، ولم يدع لهم في ذلك خِيَارًا، ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴾ [الأحزاب: ٣٦].

وماذا عسى أن تكون حالة الناس عندما يتجرأون على إهانة الذات المقدسة، وهتك حرماتها، والتطاول بقبيح القول عليها، كما يريد هؤلاء أن يتفشى ذلك تحت لافتة الحرية الفكرية والتعددية في الرأي؟! وأي حرية هذه التي تكون بمثل هذه الفوضى في الفكر والاعتقاد والقول والعمل والأخلاق؟ مع أن الله سبحانه لم يدع في الناس مجالًا لمثل هذه الفوضى، فقد أمر بحسمها بحد السيف عندما يتمرد الناس على الله تعالى كما هو صريح قوله تعالى: ﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ﴾ [الأنفال: ٣٩].

وليت شعري؛ أي فتنة أعظم من فتنة التعدي على الجناب الأقدس وانتهاك حرمات الذات الإلهية، أوَيسود الأمن والاطمئنان والاستقرار بهذا عند هؤلاء؟؟! مع أن التعدي على الله بالتطاول على مقام الربوبية العظيم إنما

هو أشد إيذاء وإزعاجًا للذين يؤمنون بالله، فكيف يُسكت عن هؤلاء، ولا ينالهم أي عقاب؟ وكيف يكون الدين لله عندما يتطاول الملاحدة على ذاته المقدسة وينتهكون حرماته العظيمة؟.

فليت شعري؛ إلى أي عقل يحتكم هؤلاء إن كانوا يدعون لهم عقولًا، فضلًا عن نصوص القرآن الدالة على وجوب حسم هذه الفوضى بالجهاد والتضحية بالنفس؟ فقد قال تعالى: ﴿وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾ [البقرة: ١٩١]، وأنتم ترون أن القرآن أمر بحسم فتنة المشركين ـ فيما دون إهانة الذات المقدسة أو إنكار وجوده تعالى ـ بجهادهم عندما قال: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ٥]، وانظروا كيف أنّ الله تعالى لم يأمر بتخلية سبيلهم بما دون التوبة وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، فلو كان قتالهم لكفّ أيديهم عن البطش بالمؤمنين لأَمَرَ بتخلية سبيلهم بمجرد رجوعهم إلى مسالمتهم، ولكنّه ما أذن بتخلية سبيلهم حتى يتوبوا ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة، ودل على هذا المعنى نفسه الحديث الصحيح الذي ثبت عنه ﷺ من عدة طرق أنه قال: «**أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، وأن يستقبلوا قبلتنا، ويأكلوا ذبيحتنا، ويصلوا صلاتنا، فإذا فعلوا ذلك فقد حرمت علينا دماؤهم وأموالهم إلا بحقها، لهم ما للمسلمين، وعليهم ما على المسلمين**»[1]، وجاء

---

(١) أخرجه أحمد؛ مسند أحمد، (رقم: ١٣٢٨١، ١١/١٥٥)، والبخاري؛ صحيح البخاري، كتاب (٨) الصلاة، باب (٢٨) فضل استقبال القبلة، (رقم: ٣٩٢، ص ٣٤)، وأبو داود؛ سنن أبي داود، كتاب (١٥) الجهاد، باب (٩٥) على ما يقاتل المشركون، (رقم: ٢٦٤١، ص ١٤١٨)، والترمذي؛ سنن الترمذي، (٣٨) أبواب الإيمان، باب (٢) ما جاء في قول النبي ﷺ: أمرت أن أقاتل الناس، (رقم: ٢٦٠٨، ص ١٩١٤) وقال: «حسن صحيح غريب»، والنسائي؛ السنن الصغرى، كتاب (٣٧) المحاربة، باب (١) تحريم الدم، (رقم: ٣٩٧٢، ص ٢٣٤٧)، وابن حبان؛ صحيح =

بلفظ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها، وحسابهم على الله»[1].

= ابن حبان، كتاب (٤٦) الذبائح، (رقم: ٥٨٩٥، ٢١٥/١٣)، والدارقطني؛ سنن الدارقطني، كتاب الصلاة، باب (٣) تحريم دمائهم وأموالهم إذا يشهدون بالشهادتين، (رقم: ٨٨٢، ٢٣٨/١)، والبيهقي؛ السنن الكبرى، كتاب الصلاة، باب (٧٠٣) لا يأتم مسلم بكافر، (رقم: ٥١٤٢، ١٣١/٣)، والضياء المقدسي؛ الأحاديث المختارة، (رقم: ١٩١٣، ٢٧٧/٥ ـ ٢٧٨).

(١) من حديث أبي هريرة: أخرجه أحمد؛ مسند أحمد، (رقم: ١٠٤٦٦، ٤٩٣/٩)، والبخاري؛ صحيح البخاري، كتاب (٢٤) الزكاة، باب (١) وجوب الزكاة، (رقم: ١٣٩٩، ص ١١٠)، ومسلم؛ صحيح مسلم، كتاب (١) الإيمان، باب (٨) الأمر بقتال الناس حتى يقولوا...، (رقم: ٢١ [١٢٦]، ص ٦٨٤)، وابن ماجه؛ سنن ابن ماجه، (٣٦) أبواب الفتن، باب (١) الكف عمن قال لا إله إلا الله، (رقم: ٣٩٢٧، ص٢٧١٢)، وأبو داود؛ سنن أبي داود، كتاب (١٥) الجهاد، باب (٩٥) على ما يقاتل المشركون، (رقم: ٢٦٤٠، ص١٤١٨)، والترمذي؛ سنن الترمذي، (٣٨) أبواب الإيمان، باب (١) ما جاء أمرت أن أقاتل الناس، (رقم: ٢٦٠٦، ص ١٩١٤) وقال: «حسن صحيح»، والنسائي؛ السنن الصغرى، كتاب (٣٧) المحاربة، باب (١) تحريم الدم، (رقم: ٣٩٧٥، ص ٢٣٤٨).

ومن حديث أنس: أخرجه تمام؛ الفوائد، (رقم: ٥٣٩، ٢٢٥/١).

ومن حديث أوس بن أبي أوس: أخرجه الطيالسي؛ مسند أبي داود الطيالسي، (رقم: ١١١٠، ص١٥١)، وابن ماجه؛ سنن ابن ماجه، (٣٦) أبواب الفتن، باب (١) الكف عمن قال لا إله إلا الله، (رقم: ٣٩٢٩، ص٢٧١٢)، والنسائي؛ السنن الصغرى، كتاب (٣٧) المحاربة، باب (١) تحريم الدم، (رقم: ٣٩٨٧، ص٢٣٤٩)، وأبو يعلى؛ مسند أبي يعلى، (رقم: ٦٨٦٢، ٢٧٢/١٢)، والطبراني في الكبير؛ المعجم الكبير، باب من اسمه أوس، (٢٣) أوس بن أوس الثقفي، (رقم: ٥٩٢ ـ ٥٩٥، مج (١) ١٧٢/١ ـ ١٧٣)، وأبو نعيم في الحلية؛ حلية الأولياء، (٤٧) أوس بن أوي الثقفي، (رقم: ١٢٢٢، ٤٢٥/١)، وأخرجه أيضًا: أحمد؛ مسند أحمد، (رقم: ١٦١٠٥، ٤٧٣/١٢)، والدارمي؛ سنن الدارمي، كتاب (١٧) السير، باب (١٠) في قتال على قول النبي ﷺ: أمرت أن أقاتل الناس، (رقم: ٢٤٤٦، ١٧٨/٢).

ومن حديث عمرو بن أوس: أخرجه أحمد؛ مسند أحمد، (رقم: ١٦١٠٨، ٤٧٥/١٢)، وابن ماجه؛ سنن ابن ماجه، (٣٦) أبواب الفتن، باب (١) الكف عمن قال لا إله إلا الله، (رقم: ٣٩٢٩، ص٢٧١٢)، والنسائي؛ السنن الصغرى، كتاب (٣٧) المحاربة، باب (١) تحريم الدم، (رقم: ٣٩٨٨، ص٢٣٤٩)، والطحاوي؛ شرح معاني الآثار، كتاب (١٣) السير، باب (٢) ما يكون الرجل به مسلمًا، (رقم: ٥٠٠١، ١١٥/٣)، وابن قانع؛ معجم الصحابة، (٢٩/١). =

ولا غرو فإنّ الإسلام لم يُشرع لتظلّ تعاليمه محنّطة ميّتة تُعرض في متاحف التأريخ، ولكنه شرع ليكون دين الإنسانية، ومنهج الحياة، يصل بين الخلق والخالق، وبين الفكر والعمل، وبين الدنيا والآخرة، وبين المسير

= ومن حديث جرير: أخرجه الطبراني في الكبير؛ **المعجم الكبير**، (٢٣٣) جرير بن عبد الله البجلي، (رقم: ٢٢٧٦، مج (١) ٢٦٣/٢).

ومن حديث أبي بكر: أخرجه البزار؛ **البحر الزخار**، (رقم: ٣٨، ٩٨/١)، والنسائي؛ **السنن الصغرى**، كتاب (٣٧) المحاربة، باب (١) تحريم الدم، (رقم: ٣٩٧٤، ص ٢٣٤٨).

ومن حديث النعمان بن بشير: أخرجه البزار؛ **البحر الزخار**، (رقم: ٣٢٢٧، ١٩٢/٨)، والنسائي؛ **السنن الصغرى**، كتاب (٣٧) المحاربة، باب (١) تحريم الدم، (رقم: ٣٩٨٤، ص ٢٣٤٨)، وقال الهيثمي: «رجاله رجال الصحيح». (الهيثمي؛ علي بن أبي بكر: **مجمع الزوائد ومنبع الفوائد**، ٢٦/١، دار الكتب العلمية ـ بيروت، ط: ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م).

ومن حديث سهل بن سعد: أخرجه الطبراني في الكبير؛ **المعجم الكبير**، (٥٩٢) سهل بن سعد الساعدي، (رقم: ٥٧٤٦، مج (٣) ١١٣/٦).

ومن حديث ابن عباس: أخرجه الطبراني في الكبير؛ **المعجم الكبير**، (٧٧٣) أحاديث عبد الله بن عباس، (رقم: ١١٤٨٧، مج (٦) ١٤٠/١١).

ومن حديث جابر: أخرجه أحمد؛ **مسند أحمد**، (رقم: ١٤٤٩٦، ٤٨٣/١١)، ومسلم؛ **صحيح مسلم**، كتاب (١) الإيمان، باب (٨) الأمر بقتال الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله...، (رقم: ٢١ [١٢٨]، ص ٦٨٤ ـ ٦٨٥)، وابن ماجه؛ **سنن ابن ماجه**، (٣٦) أبواب الفتن، باب (١) الكفّ عمّن قال لا إله إلا الله، (رقم: ٣٩٢٨، ص ٢٧١٢). والترمذي؛ **سنن الترمذي**، (٤٤) أبواب تفسير القرآن، باب (٨٨) ومن سورة الغاشية، (رقم: ٣٣٤١، ص ١٩٩٥)، والنسائي؛ **السنن الصغرى**، كتاب (٣٧) المحاربة (تحريم الدّم)، باب (١) تحريم الدم، (رقم: ٣٩٨٢، ص ٢٣٤٨).

ومن حديث أبي مالك الأشجعي عن أبيه: أخرجه الطبراني في الكبير؛ **المعجم الكبير**، (٧٥٢) طارق بن أشيم الأشجعي، (رقم: ٨١٩١، مج (٤) ٢٦٧/٨).

ومن حديث أبي بكرة: أخرجه الطبراني في الكبير كما في مجمع الزوائد (الهيثمي: **مجمع الزوائد**، ٢٥/١). وأخرجه أيضًا: في الأوسط؛ **المعجم الأوسط**، باب من اسمه سعيد، (رقم: ٣٦٢٥، ٢١٤/٤).

ومن حديث سمرة: أخرجه الطبراني في الأوسط؛ **المعجم الأوسط**، باب من اسمه محمد، (رقم: ٦٤٦٥، ٣٧٩/٦).

والمصير، وما كان أمر الأمة ليستوسق ويجتمع وينتظم إلا بتبصير الناس بالحق وحملهم عليه، وليس كل الناس تقنعهم الحجة ويبصرهم الدليل، ويردهم إلى الرشد.

..... والمصطفى قد كان حلو الكلم
وما أجابه أولو التغشم حتى دهاهم بغتة في الحرم
بجحفل كالليل داج أسحم عليه تسليم السلام الأكرم

وأنت ترى ما في آية التوبة من أن حكم قتال هؤلاء إنما نيط بشركهم، وفي ذلك ما لا يخفى على بصيرة أن الشرك هو علة هذا الحكم، فمما اتفق عليه أن (الحكم على المشتق يؤذن بأن أصل ذلك الاشتقاق علة لذلك الحكم)[1]، ولا غرو فإنّ الله سبحانه لم يرسل رسوله ﷺ ببراهين الحق إلا لرد

---

(١) ينظر؛ الغزالي، أبو حامد؛ محمد بن محمد: **المستصفى في علم الأصول**، ٤٥/١، دار إحياء التراث ـ بيروت، ط١: ١٤١٨هـ/١٩٩٧م، والرازي؛ محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي: **المحصول في علم الأصول**، ١٧٥/١، اعتنى به: عز الدين ضلي، مؤسسة رسالة ـ بيروت، ط١: ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م، وابن السبكي؛ عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي: **رفع الحاجب عن مختصر ابن الحاجب**، ١٣٥/٣، تحقيق وتعليق ودراسة: علي محمد معوض، وعادل أحمد عبد الموجود، عالم الكتب ـ بيروت، ط١: ١٤١٩هـ/١٩٩٩م، والقرافي؛ أحمد بن إدريس بن عبد الرحمن الصنهاجي: **كتاب الفروق أو أنوار البروق في أنواء الفروق**، ٨١٠/٣، دراسة وتحقيق: أ.د. محمد أحمد السراج، وأ.د. علي جمعة محمد، دار السلام ـ القاهرة، ط٢: ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م، والسبكي؛ علي بن عبد الكافي: **الإبهاج في شرح المنهاج على منهاج الوصول إلى علم الأصول للبيضاوي**، ٩٥٦/٣، دراسة وتحقيق: أحمد جمال الزمزمي، ونور الدين عبد الجبار صغيري، دار البحوث ـ دبي، ط١: ١٤٢٤هـ/٢٠٠٤م، والأسنوي؛ عبد الرحيم بن الحسن: **الكوكب الدري فيما يتخرج على الأصول النحوية من الفروع الفقهية**، ص٣٠٨، تحقيق: د. محمد حسن عواد، دار عمار ـ عمّان، ط١: ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م، وأيضًا؛ **التمهيد في تخريج الفروع على الأصول**، ص٢٩٠، تحقيق: القدس للدراسات والبحوث، المكتبة الأزهرية للتراث ـ القاهرة، (بدون ط)، والشرواني؛ عبد الحميد، والعبادي؛ أحمد بن القاسم: **حواشي الشرواني وابن القاسم العبادي على تحفة المنهاج**، =

الناس إلى الحق الذي استنكفوا منه وحادوا عنه، كما قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة: ٣٣]، وهذا الذي يتفق مع قوله تعالى: ﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [البقرة: ١٩٣].

وقد وعى السلف الصالح ﷺ ضرورة رد الناس إلى الحق بهذا المنهج إن جانبوه وكابروا الدليل واستنكفوا الرشد، واستولى عليهم العناد والكبر، فعندما ارتدت العرب في كثير من أنحاء الجزيرة العربية بعد موت الرسول ﷺ، ومنهم من رفض أداء الزكاة، تصدى لهم خليفته أبو بكر ﷺ بإيمانه العميق وعزيمته الثابتة، وهمته التي تطاول الجوزاء، وحسامه المبرق

= ٣٤/١، ضبطه وصححه: محمد عبد العزيز الخالدي، دار الكتب العلمية ـ بيروت، ط١: ١٤١٦هـ/١٩٩٦م، والسيواسي، ابن الهمام؛ كمال الدين محمد بن عبد الواحد: **شرح فتح القدير للعاجز الفقير**، ٢٧٨/٢، دار إحياء التراث ـ بيروت، (بدون ط)، والكفوي، أبو البقاء؛ أيوب بن موسى الحسيني: **الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية**، فصل في المتفرقات، ص٨٨٤، تحقيق: عدنان درويش، ومحمد المصري، مؤسسة الرسالة ـ بيروت، ط٢: ١٤٣٢هـ/٢٠١١م، والدمشقي، ابن عابدين؛ محمد أمين بن عمر بن عبد العزيز: **رد المحتار على الدر المختار**، ١٤٢/٩ ـ ١٤٣، دار إحياء التراث العربي ـ بيروت، ط١: ١٤١٩هـ/١٩٩٨م، والزركشي؛ محمد بن بهادر بن عبد الله الشافعي: **البحر المحيط في أصول الفقه**، ٨٧/٢، دار الصفوة ـ القاهرة، ط٢: ١٤١٣هـ/١٩٩٢م، والعطار؛ حسن بن محمد: **حاشية العطار على شرح الجلال المحلي على جمع الجوامع**، ٢٢٠/١، دار البصائر ـ القاهرة، ط١: ١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م، والألوسي؛ محمود بن عبد الله الحسيني: **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**، سورة الحشر (الآيتان ٧، ٨)، مج (١٥) ٦٧/٢٨، قرأه وصححه: محمد حسين العرب، دار الفكر ـ بيروت، ط: ١٤١٧هـ/١٩٩٧م، والعلائي؛ خليل بن كيكلدي الشافعي: **إجمال الإصابة في أقوال الصحابة**، ص٦١، حققه وعلق عليه: محمد سليمان الأشقر، جمعية إحياء التراث الإسلامي ـ الكويت، ط١: ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م، والسالمي؛ عبد الله بن حميد بن سلوم: **طلعة الشمس شرح شمس الأصول**، ١٧٢/٢، تحقيق: عمر حسن القيام، مكتبة الإمام السالمي ـ بدية، ط١: ١٤٢٩هـ ـ ٢٠٠٨م.

المرعد، فلم يلبثوا أن رجعوا وانتظموا جميعًا في سلك الوفاق، وكانت منهم قوة فتحت آفاق الأرض، وقد قال أبو بكر ﷺ: «والله لأقاتلن من فرّق بين الصلاة والزكاة، فإنّ الزكاة حق المال، والله لو منعوني عقالًا كانوا يؤدونه إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم عليه»[1]، وأدركت الأمة صواب موقفه ﷺ فالتف حوله المهاجرون والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان، ومضوا على رأيه حتى ظهر دين الله، وعلت كلمته، وبسقت دوحة دعوته، فظللت أرجاء الأرض.

وقد سجل خطباء الأمة وبلغاؤها هذا الموقف العظيم من أبي بكر ﷺ بعباراتهم الذهبية الفائقة، ومن بينهم عبد الله بن الأهتم الذي وفد على عمر بن عبد العزيز ﷺ ـ بعدما ولي الخلافة ـ مع الوافدين، فخطب بين يديه من غير أن يستأذنه، وذكر النبي ﷺ وما قام به في هذه الأمة ثم قال: «ثم قام من بعده أبو بكر ﷺ فسلك سنته وأخذ سبيله وارتدت العرب، فلم يقبل منهم إلا الذي كان رسول الله يقبله فانتضى السيوف من أغمادها، وأوقد النيران في شعلها، ثم ركب بأهل الحق أهل الباطل فلم يبرح يفصل أوصالهم

---

(١) من حديث أبي هريرة: أخرجه أحمد؛ مسند أحمد، (رقم: ١١٧، ٢١٦/١)، والبخاري؛ صحيح البخاري، كتاب (٢٤) الزكاة، باب (١) وجوب الزكاة، (رقم: ١٤٠٠، ص ١١٠)، ومسلم؛ صحيح مسلم، كتاب (١) الإيمان، باب (٨) الأمر بقتال الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله...، (رقم: ٢٠ [١٢٤]، ص ٦٨٤)، وأبو داود؛ سنن أبي داود، كتاب (٩) الزكاة، باب (١) وجوبها، (رقم: ١٥٥٦، ص ١٣٣٨)، والترمذي؛ سنن الترمذي، (٣٨) أبواب الإيمان، باب (١) ما جاء أمرت أن أقاتل الناس، (رقم: ٢٦٠٧، ص ١٩١٤)، والنسائي؛ السنن الصغرى، كتاب (٢٣) الزكاة، باب (٣) مانع الزكاة، (رقم: ٢٤٤٥، ص ٢٢٤٥)، وابن حبان؛ صحيح ابن حبان، كتاب (٥) الإيمان، باب (٤) فرض الإيمان، (رقم: ٢١٧، ٤٥٠/١ ـ ٤٥١)، والبيهقي؛ السنن الكبرى، كتاب قتال أهل البغي، باب (٢٧) ما جاء في قتال الضرب الثاني من أهل الردة بعد رسول الله ﷺ، (رقم: ١٦٧٣٠، ٣٠٥/٨ ـ ٣٠٦).

ومن حديث عبيد الله بن عبد الله بن عتبة: أخرجه عبد الرزاق؛ المصنف، كتاب (٨) الزكاة، باب (١٦) موضع الصدقة ودفع الصدقة في موضعها، (رقم: ٦٩٤٦، ٣٨/٤).

ويسقي الأرض دماءهم حتى أدخلهم في الباب الذي خرجوا منه وقررهم بالأمر الذي نفروا منه»[1].

وقد نزل القرآن الكريم مؤذنًا ومنذرًا بما سيكون من شأن هذه الفتنة وإطفاء نارها بالجهاد، وأن الرابح من الناس من استجاب لداعي الحق فانتظم في سلك المجاهدين، والخاسر الخائب هو من تقاعس عن ذلك، وذلك في قوله تعالى: ﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ۖ فَإِن تُطِيعُوا۟ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا ۖ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الفتح: ١٦]، فقد ذهب جماعة من المفسرين إلى أن الآية تنذر بقتال المسلمين للمرتدين من بني حنيفة، رهط مسيلمة الكذاب، ومنهم من ذهب إلى أنها في مقاتلة هوازن وغضفان، وقال آخرون هي في قتال الروم.

ومهما يكن المراد فيها بـ ﴿أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾، فإن الله تعالى لم يجعل محيصًا عن قتالهم إلا أن يسلموا، ومعنى ذلك أن حسم فتنتهم لا يتم إلا بإسلامهم، فأين ما يقوله هؤلاء المتشدقون بأن الناس لا يجوز الاعتراض على حرياتهم، وأفكارهم ولو تنكروا للإسلام وانسلخوا منه، وحاربوا عقيدته، وألحدوا، وسخروا من رب السماوات والأرض وعاثوا في الأرض فسادًا، ودعوا إلى الانسلاخ من الدين، والتعري من كل خيط من لبوسه؟! ويعزون ذلك إلى الإسلام وتعاليمه..!! وهو براء منه.

---

(١) أخرجه الدارمي؛ سنن الدارمي، المقدمة، باب (١٤) في وفات النبي ﷺ، (رقم: ٩١، ٣٣/١)، وينظر؛ الأندلسي، ابن عبد ربه؛ أحمد بن محمد بن عبد ربه: العقد الفريد، ٨٦/٤، حققه وعلق حواشيه: علي شيري، دار إحياء التراث العربي ـ بيروت، ط١: ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م، والشافعي، ابن عساكر؛ علي بن الحسن بن هبة الله: تاريخ مدينة دمشق، ترجمة: عبد الله بن الأهتم، (رقم الترجمة: ٣١٩٦)، ١٠٨/٢٧، دراسة وتحقيق: عمر بن غلامة العمروي، دار الفكر ـ بيروت، ط١: ١٤١٧هـ/١٩٩٨م، وصفوت؛ أحمد زكي: جمهرة خطب العرب، ٤٢٠/٢، المكتبة العلمية ـ بيروت، (بدون ط).

وتالله؛ لولا ذلك الموقف الصامد، والعزيمة المتوقدة، والهمّة الشماء من خليفة رسول الله ﷺ والواقفين وراءه، الشادّين لأزره من المهاجرين والأنصار، والذين اتبعوهم بإحسان ﷺ، الذين انعقد إجماعهم جميعًا على تصويب موقف الصديق من تلك الفتنة، لم يكن من الممكن أن يبقى إسلام على الأرض حتى يصل إلينا في هذا الوقت بعد مضي أربعة عشر قرنًا من ذلك الحدث الجلل؟.

ولعمري؛ ما كان إشراق شمس الإسلام حتى امتد ضياؤها فوصل إلى كل قارة من أرجاء الأرض، بل إلى كل قطر من أقطارها، إلا ثمرة لتلك المواقف الحازمة والجهود المتوثبة التي بدأها رسول الله ﷺ فلم يُعط دنيّة في أي موقف من مواقفه، ثم تواصلت من بعده جهود الخلفاء الراشدين ﷺ الذين شمّروا عن ساعد الجد، وأوقدوا نار العزم، فجاهدوا في سبيل الله حتى انتشر دين الله وكانت كلمته هي العليا، وكلمة الذين كفروا هي السفلى، واجتمع شمل الأمة على الحق والرشد تصديقًا وتحقيقًا لوعد الله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ﴾ [التوبة: ٣٣].

ويا ترى؛ كيف كان يمكن لهؤلاء أن يحافظوا على قيم الدين، وأن يقيموا دعائم الإسلام، ويرفعوا صرحه، لو سرى فيهم داء الاستهانة بما يصدر من مرضى النفوس من التطاول على الحق، والتنطع على الإسلام، والاستخفاف بالله تعالى، وبما أنزل من آياته، وبما أمر به ومضى عليه رسوله ﷺ، حتى يصل الأمر إلى التطاول على مقام الربوبية، والتشكيك في وجود الله تعالى، والاستهزاء بحرماته، بحيث لا تجيش في نفوسهم جائشة من غيرة على الله ودينه، ورسله، وكتبه؟!.

والقرآن في هذا واضح المنهج صريح الدلالة، فقد نص على أنّ نكث العهد بعد الإيمان، والطعن في الدين، موجبان للقتال، فقد قال تعالى: ﴿فَإِن

تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ ۗ وَنُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [التوبة: ١١]، ثم أتبع ذلك قوله: ﴿ وَإِن نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا۟ فِى دِينِكُمْ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ ۙ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴾ [التوبة: ١٢]، ومن الواضح لكل مستبصر بنور الإيمان وهدي القرآن أنّ الارتداد عن الإسلام إنما هو نكث للعهد الذي يؤتيه العبد لربه ﷻ بإسلامه، فإنّ شهادة أن لا إله إلا الله، تعني الخضوع المطلق من العبد لربه سبحانه، والتزامه أن يعبده كما يجب وأن يطيعه فيما أمر به أو نهى عنه، وهو الذي دل عليه قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ [الأنعام: ١٦١ ـ ١٦٣]، وسيأتي بيان ذلك إن شاء الله، وهل هناك من نكث لهذا العهد أعظم من جحد لا إله إلا الله، واعتقاد نقيضها، وهل هناك من طعن في الدين أشد وأنكى من التطاول على الله سبحانه وإهانة ذاته المقدسة؟؟!.

فكيف يزعم زاعم أن للناس حرية مطلقة في ذلك، وأنه لا يسوغ أن يردع المتطاول على الله بأي شيء..!! مع أن القرآن الكريم ينص على وجوب قتالهم إن نكثوا العهد، برجوعهم إلى الكفر أو طعنوا في دين الله تعالى؟!.

وقد سبق إلى استنباط هذا الحكم من الآية الكريمة أئمة الفقه وعلماء التفسير، قال القرطبي: «استدل بعض العلماء بهذه الآية على وجوب قتل كل من طعن في الدين، إذ هو كافر. والطعن أن ينسب إليه ما لا يليق به، أو يعترض بالاستخفاف على ما هو من الدين، لما ثبت من الدليل القطعي على صحة أصوله واستقامة فروعه. وقال ابن المنذر: أجمع عامة أهل العلم على أنّ من سبّ النبي ﷺ عليه القتل. وممن قال ذلك مالك والليث وأحمد وإسحاق، وهو مذهب الشافعي. وقد حُكي عن النعمان أنه قال: لا يقتل من

سبّ النبي ﷺ من أهل الذمة، على ما يأتي. وروي أنّ رجلًا قال في مجلس علي: ما قُتل كعب بن الأشرف إلا غدرًا، فأمر علي بضرب عنقه. وقاله آخر في مجلس معاوية فقام محمد بن مسلمة فقال: أيقال هذا في مجلسك وتسكت! والله لا أساكنك تحت سقف أبدًا، ولئن خلوت به لأقتلنه. قال علماؤنا: هذا يقتل ولا يستتاب إن نسب الغدر للنبي ﷺ. وهو الذي فهمه علي ومحمد بن مسلمة رضوان الله عليهما من قائل ذلك، لأن ذلك زندقة.

فأما إن نسبه للمباشرين لقتله بحيث يقول: إنهم أمّنوه ثم غدروه لكانت هذه النسبة كذبًا محضًا، فإنه ليس في كلامهم معه ما يدل على أنهم أمّنوه ولا صرّحوا له بذلك، ولو فعلوا ذلك لما كان أمانًا، لأن النبي ﷺ إنما وجههم لقتله لا لتأمينه، وأذن لمحمد بن مسلمة في أن يقول. وعلى هذا فيكون في قتل من نسب ذلك لهم نظر وتردد. وسببه هل يلزم من نسبة الغدر لهم نسبته للنبي ﷺ، لأنه قد صوب فعلهم ورضي به فيلزم منه أنه قد رضي بالغدر ومن صرح بذلك قتل، أو لا يلزم من نسبة الغدر لهم نسبته للنبي ﷺ فلا يُقتل. وإذا قلنا لا يُقتل، فلا بد من تنكيل ذلك القائل وعقوبته بالسجن، والضرب الشديد والإهانة العظيمة»[1].

وقال قطب الأئمة في الهميان: «وتدل الآية على أنّ الذميّ إذا طعن في الإسلام فقد نقض عهده، وصار في حكم المحاربين، فيفعل الإمام فيه رأيه من قتل أو بيع أو نحو ذلك، إلا إن أسلم قبل أن يُفعل به ذلك، كذا نقول نحن والشافعي، والمشهور من مذهب مالك أنه إذا كذّب الشريعة أو سبّ النبي ﷺ، أو فعل نحو ذلك قُتل، وقيل إذا كفر وأعلن بما هو معهود من معتقده وكفره، أدّب على الإعلان وتُرك، وإذا كفر بما ليس من معهود كفره كالسب ونحوه قُتل.

---

(١) القرطبي؛ محمد بن أحمد الأنصاري: الجامع لأحكام القرآن، سورة التوبة (الآية ١١)، ٨/٨٢، دار الكاتب العربي ـ القاهرة، ط: ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م.

وقال أبو حنيفة في هذا: إنه يستتاب، وإن سبّ النبي ﷺ وأسلم تقية عن القتل تُرك، وقال بعض المالكية: يُقتل»[١].

وقال في التيسير: «﴿وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ﴾ [التوبة: ١٢] بصريح الكلام، مثل أن يقولوا محمد كاذب، وبتقبيح الأحكام، فمن هذا تعلم أنهم عاهدوا على ألا يصرحوا بالطعن كما عاهدوا على أن لا يقاتلوا ولا يعينوا مقاتلًا، وذكر الطعن بعد ذكر النكث مع أنّ النكث كاف في إباحة القتل، وإيجابه تحريضًا للمؤمنين على قتالهم، ويجوز أن يكون (طعنوا) تفسيرًا (لنكثوا)»[٢].

وإذا كانوا قالوا هذا فيمن تجرأ على سبّ النبي ﷺ، فما بالك بمن تجرأ على سبّ الله تعالى وتطاول عليه بقبيح الكلام؟! تعالى الله علوًا كبيرًا.

ومن المعلوم أنّ النبي عليه أفضل الصلاة والسلام حرص على أن يعطي كلمة التوحيد حقها في الاعتبار، وأن يجعلها واقية لمن قالها ـ ولو نفاقًا ـ من أن يهدد أمنه وتستباح حرماته، فمع خطورة النفاق واستشراء دائه كف يده عن المنافقين، وقال: «**لا يتحدث الناس أن محمدًا يقتل أصحابه**»[٣]، وهذه سياسة اتبعها النبي ﷺ وأقره عليها القرآن، ولكن مع ذلك جاء في الكتاب العزيز

---

(١) اطفيش، قطب الأئمة؛ محمد بن يوسف المصعبي: **همیان الزاد إلى دار المعاد**، سورة التوبة (الآية ١٢)، ٧ (٢) /٣٤ ـ ٣٥، وزارة التراث القومي والثقافة ـ سلطنة عمان، ط: ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.

(٢) قطب الأئمة: **تيسير التفسير**، سورة التوبة (الآيات ٧ ـ ١٢)، ٤١٨/٥، تحقيق وإخراج: إبراهيم بن محمد طلاي، وزارة التراث والثقافة ـ سلطنة عمان، ط ٢: ١٤٣٩هـ/٢٠١٨م.

(٣) أخرجه الحميدي؛ **مسند الحميدي**، (رقم: ١٢٣٩، ٥١٩/٢ ـ ٥٢٠)، وأحمد من حديث جابر؛ **مسند أحمد**، (رقم: ١٥١٦١، ١٠١/١٢)، والبخاري؛ **صحيح البخاري**، كتاب (٦٥) التفسير، (٦٣) سورة المنافقون، باب (٥) قوله تعالى: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ﴾، (رقم: ٤٩٠٥، ص٤٢٠)، ومسلم؛ **صحيح مسلم**، كتاب (٤٥) البر، باب (١٦) نصر الأخ ظالما أو مظلوما، (رقم: ٢٥٨٤ [٦٥٨٤]، ص١١٣٠)، والترمذي؛ **سنن الترمذي**، (٤٤) أبواب تفسير القرآن، باب (٦٣) ومن سورة المنافقين، (رقم: ٣٣١٥، ص١٩٩١) وقال: «حسن صحيح».
ورواه البزار من حديث أسامة بن زيد؛ **البحر الزخار**، (رقم: ٢٥٧٢، ٢٥/٧).

إنذار شديد الوقع بالغ التحذير للذين يتلونون في معاملتهم للمسلمين وللمشركين، بحيث يأتون إلى المسلمين فيظهرون الإسلام، وإذا لقوا المشركين انقلبوا إلى خلاف ذلك، وأبدوا عداوتهم للإسلام وأهله، فقد قال تعالى: ﴿سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا۟ قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱلْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا۟ فِيهَا ۚ فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوٓا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا﴾ [النساء: ٩١].

قال الرازي: «قال المفسرون: هم قوم من أسد وغطفان، كانوا إذا أتوا المدينة أسلموا وعاهدوا، وغرضهم أن يأمنوا المسلمين، فإذا رجعوا إلى قومهم كفروا ونكثوا عهودهم، ﴿كُلَّ مَا رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱلْفِتْنَةِ﴾ كلما دعاهم قومهم إلى قتال المسلمين ﴿أُرْكِسُوا۟ فِيهَا﴾ أي ردوا مغلوبين منكوسين فيها، وهذا استعارة لشدّة إصرارهم على الكفر وعداوة المسلمين لأن من وقع في شيء منكوسًا يتعذر خروجه منه»[1].

ومن المفسرين من قال إن الآية هي في المنافقين الذين بلغت عداوتهم للإسلام إلى تعزيز مواقف المشركين ضد المسلمين، ونسب إلى الحسن[2].

ومثل ذلك ما جاء في سورة الأحزاب من تحذير المنافقين والذين في قلوبهم مرض، والمرجفين في المدينة، إذ قال سبحانه: ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ۝ مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا ۝ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٦٠ ـ ٦٢].

---

(١) الرازي: مفاتيح الغيب، سورة النساء (الآية ٩١)، مج (٥) ٢٣١/١٠ ـ ٢٣٢، دار الفكر ـ بيروت، ط ٣: ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.

(٢) ينظر؛ القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، سورة النساء (الآية ٩١)، ٣١١/٥.

فإن هذه الآيات جاءت بعد ما أمر سبحانه نبيه ﷺ بأن يأمر أزواجه وبناته ونساء المؤمنين بما فرض عليهن من الستر الشرعي، وهذا مما يسوء المنافقين والذين في قلوبهم مرض أسارى الشهوات الذين يبتغون الفتنة بانتشار الفحشاء، فإنهم لو لم ينتهوا عما كانوا يقومون به من الفساد الاجتماعي، ومحاولة نشر الرذيلة، وإشاعة الأراجيف في المجتمع المسلم لأغرى الله تعالى بهم نبيه ﷺ حتى لا يجاوروه في أرض المدينة، وذلك بتقتيلهم لكفّ شرهم عن الناس، وتلك هي سنة الله في الذين خلوا من قبل.

وهو ـ بلا ريب ـ يدل على أن الإسلام لا يقف مكتوف الأيدي عندما ينجم الفساد، ويستفحل الشر، ولكنه يستأصل الشر والفساد في مهدهما، وبهذا يتبين مدى تضليل أولئك الذين يريدون أن تطلق أيدي المفسدين في الأرض يعيثون بفسادهم فيها كما شاؤا، ويخدرون المسلمين بأن دينهم دين سلم وتسامح، وأنه لا يرضى باعتراض الآخرين مهما كان منهم، وما هذه إلا مغالطة للحقيقة ودجل وراءه فساد كبير.

أويسر هؤلاء أن يكون الإسلام مهيض الجناح، مسلوب القوة، لا يحمي ذاته، ولا يدفع عن حرماته، ولا يكفّ يد معتد عليه، مع كون أيدي مناوئيه تمتد إليه لتقطع أوصاله، وتمزع أشلاءه، وتدنس حرماته.

نعم؛ إن الإسلام دين سلم، ولكنه سلم محفوف بالقوة، مبني على العزة، لا يرضى أن يعطي الدنيّة، فهو يحرص على مسالمة من سالموه، كما قال تعالى: ﴿وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الأنفال: ٦١]، ولا تعني مسالمته أن يتطاول المتطاولون عليه وعلى أهله، وهم كافّون أيديهم، أذلاء خانعون، فكم أمر الله تعالى بدفع شر الأشرار، وقطع أيدي المفسدين، وكبح عناد المعاندين، ألم يقل الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ٧٣]، وقال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم

مِن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ﴾ [الأنفال: ٦٠]، وقال: ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ﴾ [محمد: ٤]، وقال: ﴿ فَلَا تَهِنُوا۟ وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ ﴾ [محمد: ٣٥]، وقال: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴾ [الصف: ٤].

ولعمر الحق؛ إن ما يقال من أن الإسلام يقر كل فساد، ويسكت عن كل ضلال لكونه دين سلم، ما هو إلا إفك مفترى لتضليل عقول الناس عن الحق، وتخديرهم عن الدفاع عنه، فإنّ السلم إنما يتحقق باتّباع الحقّ والكفّ عن اتّباع الشيطان، فإنّ الله تعالى يقول: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ [البقرة: ٢٠٨]، وليت شعري؛ هل يدعو إلى الدخول في السلم بفسح المجال للفساد والإلحاد، كلا والله. وإنما يدعو إلى السلم باتباع منهج الحق والاستمساك بالعروة الوثقى من الدين، والوقوف في وجه حزب الشيطان، وهل يمكن أن يتحقق سلم مع الدعوة إلى الفساد ومحاربة الله ورسوله، والتطاول على مقام الربوبية؟! ألم يقل الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُا۟ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓا۟ أَوْ يُصَلَّبُوٓا۟ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ ۚ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهِمْ ۖ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [المائدة: ٣٣ ـ ٣٤]؟!.

وكيف يمكن للمسلم أن تبرد سخيمته، وتقر عينه، ويهدأ باله وألسنة الملحدين، ودعايات المفسدين تملأ الأرض ضجيجًا، وأيديهم تعيث بين الناس فسادًا؟! إنّ هذا منطق لا يقرّه ذو عقل ولا يرضاه ذو ضمير، ونحن نجد

أصحاب كل فكر ينصرون فكرهم بالذبّ عنه بقوة السلاح ولو كان فكرًا باطلًا، فكيف لا يذبّ عن الحق الذي جاء من عند الله؟!.

وإذا كان مما قاله الشعراء حكمة فإن الحكمة في هذا تتجلى في قول زهير:

وَمَن لا يَذُد عَن حَوضِهِ بِسِلاحِهِ يُهَدَّم ومن لا يتق الشتم يُشتم

ولله در الإمام الشاري أبي إسحاق الهمداني رحمه الله، الذي قال مصورًا لحواره مع شريكة حياته وسكينة قلبه التي ربما كانت تعاتبه على تركها، وركوبه الأهوال مجاهدًا في سبيل الله:

أقرحت قلبي يا ابنة القوم احلمي ما بالك اليوم وللتألم
أسرّك المثوى على التهضم والدين يوطا خده بالمنسم
ما يا ابنة الأشياخ ذا من أمم ولا عرفت قط ذا من هممي
إني على ما تعلمين فاعلمي أغض طرفي عنك غض المرغم
وأشتري ديني بدنياي افهمي وأركب الأهوال كالمصمم
إذا عني ديني بذم أو رمي فكيف وهو اليوم كالمهدم
أثوي لديك اليوم كفي واكرمي يكفيك أني ويك كالمسقم
أما ترين كيف لاحت أعظمي مما أقاسيه من التهمم
إذا جفا النوم عيون النوّم لا تطمعي يا هذه فخيمي
ليس الثواء من شعار الأشهم كيف الثوى والكف غير أجذم
والسيف ماضي الحد والأنف حمي وهمتي مقرونة بالمرزم
وعزمتي تصدع صلد الصلدم ومغنمي حتفي وحتفي مغنمي
سلامتي عندي إذا لم أسلم يا نعمة ما مثلها من أنعم

إن أدرجوني في ثيابي بدمي ... لا شرف أعلى من التقحّم
لله في حوض الحمام الأحوم ... أهلًا وسهلًا بالفتى فليقدم
أهلًا به بين القنا المحطم ... لست ألاقيه بوجه أجهم

وإن عجبت فإنّي لا أعجب إلا ممن يتمسح بالإسلام ويدعي الإيمان، ويرفع أحيانًا ـ زورًا وكذبًا ـ شعار المحافظة على القرآن، ومع ذلك يظل بارد العاطفة، جامد المشاعر تجاه ما يصدر من الملاحدة، من تجنٍّ على ثوابت الدين وأصول الإيمان، حتى يصل بهم الاستهتار إلى التطاول على الذات الإلهية، ولا يحرك ذلك في نفوس هؤلاء الأدعياء هاجسًا من غيرة، أو شعورًا من حميّة، أو شيئًا من الغضب لله ولدينه وكتابه ورسوله، وإنما تغلي مراجل غضبهم إذا مس أحدًا من هؤلاء الملاحدة أي كدر؟!!.

وإذا كان الإنسان يتفجر حميّة وغضبًا إن انتهكت حرمات نفسه أو عِرْضُ زوجه أو ولده، فكيف لا يكون على نفسه أثر إن تُعدّي على حقوق الله، وأهينت ذاته المقدسة؟ مع أن النبي ﷺ يقول: «**ثلاثة من كن فيه وجد بهنّ حلاوة الإيمان أن يكون الله ورسوله أحبّ إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يلقى في النار**»[1].

---

(١) من حديث أنس: أخرجه الطيالسي؛ مسند أبي داود الطيالسي، (رقم: ١٩٥٩، ص ٢٦٤)، وأحمد؛ مسند أحمد، (رقم: ١١٩٤٠، ٣٢٨/١٠)، والبخاري؛ صحيح البخاري، كتاب (٢) الإيمان، باب (٩) حلاوة الإيمان، (رقم: ١٦، ص ٣)، ومسلم؛ صحيح مسلم، كتاب (١) الإيمان، باب (١٥) بيان خصال من اتصف بهن وجد حلاوة الإيمان، (رقم: ٤٣ [١٦٥]، ص ٦٨٨)، وابن ماجه؛ سنن ابن ماجه، (٣٦) أبواب الفتن، باب (٢٣) الصبر على البلاء، (رقم: ٤٠٣٣، ص ٢٧٢٠)، والترمذي؛ سنن الترمذي، (٣٨) أبواب الإيمان، باب (١٠) حديث ثلاث من كن فيه، (رقم: ٢٦٢٤، ص ١٩١٦)، وقال: «حسن صحيح»، وابن حبان؛ صحيح ابن حبان، كتاب (٥) الإيمان، باب (٥) صفات المؤمنين، (رقم: ٢٣٨، ٤٧٤/١).

وكيف يمكن لمن آمن بالله واليوم الآخر أن يمحض الود والولاء لأعداء الله المتطاولين عليه، أليس في نذر القرآن ما يردع عن ذلك، ألم يقل الله تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة: ٢٢]، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [التوبة: ٢٣]؟!.

أوليس في مواقف الحزم والشدة التي وقفها أنبياء الله عليهم السلام في وجوه أقرب قرابتهم، وأخص خاصتهم، الذين سفهوا الحق، وجانبوا الرشد، وسكنوا إلى الضلال والكفر، ما يبصر المؤمنين بهذا، وقد خلّد الله تعالى هذه المواقف في كتابه العزيز، ودعا المؤمنين إلى التأسي بهم كما في قوله: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾ [الممتحنة: ٤]، إلى أن قال: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [الممتحنة: ٦]؟!.

فقد تبرأ إبراهيم من أبيه الذي ولده بسبب إخلاده إلى الكفر وإعراضه عن الحق، واعتزله وما يدعو من دون الله، وقد أمرنا الله بالاقتداء به في ذلك.

ومثل ذلك ما قصه القرآن من نبأ نوح عليه السلام وابنه الذي أبى أن يركب معه في السفينة، فعصى الله بذلك، وهلك مع الهالكين، وما كان من نوح عليه السلام إلا

= ومن حديث أبي أمامة: أخرجه الطبراني؛ المعجم الكبير، (٧٣٦) صدي بن العجلان أبو أمامة الباهلي، (رقم: ٨٠١٩، مج (٤) ٢٢٠/٨).

أن استجاب شيئًا ما لعاطفة الأبوة، وعرَّض برجائه من الله أن لا يلحق ابنه بالقوم الظالمين في الآخرة، كما قص الله ذلك في قوله: ﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴾ [هود: ٤٥]، فلم يجامله الله تعالى في ذلك بل أتاه منه الجواب الحاسم الذي يقضي على كل أمل في نجاته، ويحذره أيما تحذير من أن يعود إلى مثل ذلك، ﴿ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ [هود: ٤٦]، فما كان منه إلا أن استكان لأمر الله ورضي بقضائه معلنًا توبته مما بدر منه: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [هود: ٤٧].

وفي تعليل قوله: ﴿ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ﴾ بقوله: ﴿ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ﴾، دليل قاطع على أن عمله غير الصالح كان هو المانع من إلحاقه بأهله، واستحقاقه منه دعاء بنجاته، وقد قرأ الكسائي: ﴿ إِنَّهُۥ عَمِلَ غَيْرَ صَٰلِحٍ ﴾، ورويت هذه القراءة عن جماعة من الصحابة ﷺ، وهي نص صريح في كون عمله غير الصالح سببًا لحرمانه من ألطاف الله تعالى، ومن تعاطف المؤمنين معه وعلى رأسهم أبوه النبيّ الكريم، وقراءة الجمهور ليست بمنأى عن هذه الدلالة، لإن الإخبار عنه بأنه عَمَل غير صالح إنما يفيد إغراقه في التلبس بالعمل غير الصالح، فكأنه أصبح عينه، كما في قول الخنساء:

تَرتَعُ ما رَتَعَت حَتّى إذا ادَّكَرَت ... فَإِنَّما هِيَ إِقبالٌ وَإِدبارُ

فجعلتها بنفسها إقبالًا وإدبارًا.

ولا يخفى على من مارس العربية وأساليب تعابيرها أن الجملة المصدرة بـ (إنَّ) إنْ وليت جملة مشتملة على حكم تفيد تعليلها ذلك الحكم، وعلى ذلك شواهد من القرآن الكريم تصل إلى المئات أو تتجاوزها، وقد أوردت

جانبًا منها في غير هذا الموضع، ولذلك تأصيل عند علماء البلاغة، كما نص عليه إمامها المشهور عبد القاهر الجرجاني في كتابه القيم **دلائل الإعجاز**[1].

وفي هذا أقوى دليل على أن ابن نوح هذا الذي استحق أن ينبذ ويعادى لم يكن من المشركين الذين كذبوا برسالة نوح عليه السلام، إذ لو كان كذلك لما عدل عن تعليل كونه من غير أهله بشركه إلى تعليل ذلك بكونه عمل غير صالح.

وإذا كان هذا حكم الله في ابن نوح ومن كان على شاكلته، فما بالك بالمشرك الصريح أو الملحد العنيد، الذي يجاهر بإلحاده ويحارب الله تعالى بنشره، ويساوم الناس على أن يلحدوا كما ألحد، ويجاهر بتعديه على حرمات الذات الإلهية وإهانتها علنًا، هل يتصور أن يواليه مسلم يؤمن بالله واليوم الآخر؟!.

على أن الله تعالى قطع كل سبب يصل المسلم بغيره فيؤدي به إلى أن يمنحه ولاءه، كما هو منصوص عليه في سور المائدة والتوبة والمجادلة والممتحنة وغيرها، ناهيك أن الله تعالى قال: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾ [المائدة: ٥١]، وقال: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [التوبة: ٢٣]، على أن هذا في موالاة آبائهم وإخوانهم الكافرين، ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الجاثية: ١٩]، وقوله: ﴿فَإِن تَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [التوبة: ٩٦]، وترى أنه تعالى لم يقل هنا (فإن الله لا يرضى عنهم) وإنما قال: ﴿لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾، من أجل التنصيص على أن فسوقهم هو علة عدم رضاه عنهم، وأنه يجب على

---

(١) ينظر: الجرجاني: عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد: **دلائل الإعجاز في علم المعاني**، ص ٢١١ ـ ٢١٢، دار المعرفة ـ بيروت، ط: ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.

عباده المؤمنين أن يتحروا في الرضى ما يرضاه الله تعالى، فلا يرتضوا إلا من رضي الله عنه، وهو مبني على ما تقدم ذكره، من أن الحكم على المشتق يؤذن بأن أصل ذلك الاشتقاق علة لذلك الحكم.

وإذا كان الله تعالى لا يرضى عن القوم الفاسقين، ويجب على المؤمنين عدم رضاهم عنهم، مع أن الفسوق يصدق على كل خروج عن طاعة الله تعالى، فما بالك بالرضى عن الملاحدة ومؤازرتهم على إلحادهم والسعي إلى أن يفسح لهم المجال ليتطاولوا على الله تعالى كما يملي عليهم هواهم، ويدلهم عليه شيطانهم.

ويا ترى هل يمكن أن تُحمى المبادئ وتُصان الأفكار ويُذاد عن الحُرَم إلا بما يقطع أيدي من تسوّل لهم أنفسهم أن يتلاعبوا بها..؟!

وليت شعري؛ لو كان يطبق الرادع الشرعي الذي أنزله الله تعالى هل كان يمكن لهؤلاء ـ الذين ينعقون بانتقاد ثوابت الدين، ويتطاولون على فكره الأصيل وشرعه الحنيف، وأصوله الثابتة بتسفيهها، والمطالبة بنسفها ـ أن ينبسوا ببنت شفة من ذلك؟! نعم؛ ما كان هذا التطاول إلا في حال غياب العقاب الشرعي الرادع، وإن من الحِكَم الشائعة (من أمن العقوبة أساء الأدب)، ويا ترى هل يمكن أن يتعالى ضجيج الأنذال إلا عندما يصمت الأبطال؟ أوَترتع الثعالب ويرتفع عواؤها إلا عندما تهجع الأسود، ويختفي زئيرها؟ أو أن يتطاول الأوغاد على الدين إلا عندما ينام عنه حماته؟.

ولله در حكيم الشعراء الإمام الشاري أبي إسحاق الهمداني الحضرمي رَحِمَهُ اللَّهُ القائل:

السيف أمضى من مناجاة الفم ... من صمّ سمعًا عن عظات الحكم
فالسيف ينفي ما به من صمم ... الدين بالسيف منيع الحرم

الكفر بالسيف عظيم المأثم ضرب كأفواه الكلاب الشبم
أنفذ حكمًا من خطاب محكم طعن كأيدع المخاض الكوم
أمضى قضيات من التكلم ستين شهرًا يا أولي التغشم

هذا؛ وليت شعري أي إيمان يبقى في قلب من يهون عليه أن يُتَعدى على الذات الإلهية بالإهانة والتنقيص، ولا يحس من وراء ذلك بوخز ضمير، أو بهياج الحمية للدين والغيرة على حق الله تعالى، وهو مع ذلك يتميز غيظًا ويتفجر غضبًا إن لحق الملحد الأفاك أدنى ما يتصور من العقاب جزاء تعديه على حرمات الله تعالى وإهانته لذاته الكريمة؟!.

أوليست هذه المواقف دليلًا صارخًا، وبرهانًا ساطعًا بأنّ هؤلاء جميعًا أمة واحدة في الكفر والإلحاد ونبذ الدين والاستخفاف بحرمات الله تعالى، وعدم المبالاة بمشاعر المؤمنين، الذين يغارون على الله تعالى ودينه أكثر مما يغارون على أنفسهم وأولادهم وأهليهم، كيف؛ وكلام الله تعالى صريح ـ ليس عليه قتر ولا غبار ـ ينزل من تولاهم منزلتهم ويلحقه بهم، وهو مما تكرر في القرآن كما في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾ [المائدة: ٥١]، وقوله: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [التوبة: ٢٣].

وكم نادى هؤلاء بفتح باب الحرية للناس في الدعوة إلى الإلحاد أو فساد الأخلاق، فتراهم يملؤن الدنيا ضجيجًا عندما يمنع مفسد أن يبث فساده الذي ينسف الأخلاق ويميع الفضائل؛ بدعوى أن ذلك يتنافى مع التعددية..!! التي يرفعون شعارها، ويلوحون بها في تسويغ نقض أسس الدين، بنسف عقيدته أو تمييع أخلاقه، وقد علمت مما تقدم أن الله تعالى لما علم أن من في المجتمع المدني من المنافقين والذين في قلوبهم مرض والمرجفين لن يترددوا في الاعتراض ـ على ما وجهه الله تعالى من أمر لنبيه ﷺ بأن يأمر أزواجه وبناته

وسائر نساء المؤمنين بأن يصن أنفسهن بالحجاب الشرعي، بسبب ما في ذلك من قطع مآربهم من الشهوات ـ وجه إليهم إنذارًا شديدًا؛ بأنهم إن أقدموا على هذه الخطوة فلن يسكت عنهم، ولن تكفّ عنهم أيدي المؤمنين، وإنما سيقضي الله سبحانه باستئصالهم تقتيلًا وتنكيلًا، ليقي الأمة شرهم كما هو صريح في قوله: ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ۝ مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا ۝ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٦٠ ـ ٦٢].

وهذه هي سنة الله تعالى فيمن خلا من المفسدين من قبل، كما هو واضح من الآية الكريمة، ولا يكابر في هذا إلا كفّار عنيد أو جاهل مستهتر، وقد أدرك المنافقون والذين في قلوبهم مرض والمرجفون في المدينة أن هذا التحذير البالغ والإنذار الشديد من الله لن يعقبه إلا تنفيذ ما توعدهم الله به، فلذلك أمسكوا عن الاعتراض على هذا الأمر الإلهي، فأين ما يدعيه هؤلاء من حرية الرأي والتعددية في مثل هذا؟!.

ولنسمع إلى ما يقوله الله تعالى فيما يزعمه هؤلاء من هذه التعددية، فقد قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: ٣٦]، وقال عز من قائل: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥]، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٠٠]، وقال: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ [يونس: ٣٢]، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [التوبة: ٧٣]، وقال: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ

ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ۚ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [الأنفال: ٣٩]، وقال: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٤]، وقال: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ﴾ [آل عمران: ١١٠]، وقال: ﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ۞ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ۞ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴾ [المائدة: ٧٨ ـ ٨٠]، وقال: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة: ٧١].

وحكى عن لقمان أنه قال في وصيته لابنه: ﴿ يَٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾ [لقمان: ١٧]، فأنت ترى أن الله سبحانه في هذه الآيات وغيرها يفرض على عباده أن يكونوا حازمين صارمين من أجل المحافظة على دينه، ودرء جميع تآمرات أعدائه عليه بما يحضّهم به من الجهاد في سبيله؛ لأجل إعلاء كلمة الدين والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لتكون كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى، وليصان المجتمع من كل ضلال في المعتقد، أو فساد في السلوك، أو انحطاط في الأخلاق.

وكم جاءت السنة مؤكدة كل ذلك ناهيك ما جاء منها فيما يتعلق بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كقوله ﷺ: «**من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده، فإن لم يستطع أن يغيره بيده فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف**

الإيمان»[1]، فترى أن المسلم لا يعذر أبدًا أن يترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولو كان ذلك بقلبه عندما يعجز عن تغيير المنكر بيده أو بلسانه، ويا ترى كيف يمكن أن يجتمع هذا مع موادة الملاحدة والمفسدين في الأرض، ومؤازرتهم بالقول والعمل، وإقرارهم على الإلحاد والفساد؟! ومثله ما جاء عنه ﷺ أنه قال: **«إنّ أول ما دخل النقص على بني إسرائيل كان الرجل يلقى الرجل فيقول: يا هذا اتق الله، ودع ما تصنع، فإنه لا يحل لك، ثم يلقاه من الغد فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده، فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض، كلا والله لتأمرن بالمعروف، ولتنهون عن المنكر، ولتأخذن على يدي الظالم ولتأطرنه على الحق أطرًا، ولتقصرنه على الحق قصرًا، أو ليضربن الله بقلوب بعضكم على بعض، ثم يلعنكم كما لعنهم»**[2].

---

(١) أخرجه من طريق أبي سعيد رضي الله عنه الطيالسي؛ **مسند أبي داود الطيالسي**، (رقم: ٢١٩٦، ص ٢٩٢)، وأحمد؛ **مسند أحمد**، (رقم: ١١٣٩٨، ١٥٤/١٠)، وعبد بن حميد؛ **مسند عبد بن حميد**، (رقم: ٩٠٦، ص ٢٨٤)، ومسلم؛ **صحيح مسلم**، كتاب (١) الإيمان، باب (٢٠) بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان، (رقم: ٤٩ [١٧٧]، ص ٦٨٨)، وابن ماجه؛ **سنن ابن ماجه**، (٣٦) أبواب الفتن، باب (٢٠) الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، (رقم: ٤٠١٣، ص ٢٧١٨)، وأبو داود؛ **سنن أبي داود**، كتاب (٢) الصلاة، باب (٢٣٩) الخطبة يوم العيد، (رقم: ١١٤٠، ص ١٣٠٧)، والترمذي؛ **سنن الترمذي**، (٣١) أبواب الفتن، باب (١١) ما جاء في تغيير المنكر باليد أو باللسان أو بالقلب، (رقم: ٢١٧٢، ص ١٨٧٠) وقال: «حسن صحيح»، والنسائي؛ **السنن الصغرى**، كتاب (٤٧) الإيمان، باب (١٧) تفاضل أهل الإيمان، (رقم: ٥٠١١، ص ٢٤١١)، وابن حبان؛ **صحيح ابن حبان**، كتاب (٦) البر والإحسان، باب (١) الصدق والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، (رقم: ٣٠٧، ٥٤١/١ ـ ٥٤٢). وأخرجه أيضًا: أبو يعلى؛ **مسند أبي يعلى**، (رقم: ١٠٠٩، ٢٨٩/٢)، وأبو نعيم في الحلية؛ **حلية الأولياء**، (٤٦٤) أحمد بن أبي الحواري (رقم: ١٤٣٨٧، ٢٧/١٠)، والبيهقي؛ **السنن الكبرى**، كتاب آداب القاضي، باب (٣) مَا يُسْتَدَلُّ بِهِ عَلَى أَنَّ الْقَضَاءَ وَسَائِرَ أَعْمَالِ الْوُلَاةِ مِمَّا يَكُونُ أَمْرًا بِمَعْرُوفٍ، أَوْ نَهْيًا عَنْ مُنْكَرٍ مِنْ فُرُوضِ الْكِفَايَاتِ، (رقم: ٢٠١٧٩، ١٥٤/١٠).

(٢) أخرجه من طريق ابن مسعود أبو داود؛ **سنن أبي داود**، كتاب (٣٦) الملاحم، باب (١٧) الأمر والنهي، (رقم: ٤٣٣٦، ص ١٥٣٩)، والبيهقي؛ **السنن الكبرى**، كتاب آداب القاضي، باب (٣) =

وليت شعري؛ كيف يكون الدين لله عندما يكون ضجيج الإلحاد يصخ أسماع الناس، ويكون نتن الفساد يزكم المعاطس، عندما تحطم عقيدة الإيمان، وتميع فضائل الأخلاق؟!.

إن هذه الدعوة ـ من هؤلاء الذين يرفعون عقيرتهم مناديين بها في المجتمع ـ لا يمكن أن تكون إلا لأغراض يرمون إليها، توجههم نحوها قوى تسعى إلى الفساد في الأرض، ولم يكن هذا القول مني ادعاء لا تعززه بينة، فإنّ بينة ذلك قائمة مما كشفه أحد الذين كانوا حماة أكبر مؤسسة إلحادية في العالم، وهو العميل السري السوفيتي المنشق **يوري بيزمينوف**، وأترك المجال له ليوضح هذه الحقيقة التي قد يجهلها كثير من الناس، فقد قال في ذلك:

«إنّ زمن الحروب العسكرية لإخضاع الدول، قد انتهى كأولوية، فالانتصار الآن يتم تحقيقه من خلال أربع مراحل لتمزيق أي بلدٍ، تبدأ بأهم مرحلة، وهي (إسقاط الأخلاق **Demoralization**)، وهي مرحلة تحتاج من ١٥ إلى ٢٠ سنة، لتدمير منظومة الأخلاق والقيم لدى المجتمع المستهدَف، لماذا هذه المدة الزمنية تحديدًا؟، لأنها المدة الكافية لتنشئة وتعليم جيل واحد من الصغار على (القيم) البديلة، والأخلاقيات المبتذلة، التي يراد ترسيخها في

= مَا يُسْتَدَلُّ بِهِ عَلَى أَنَّ الْقَضَاءَ وَسَائِرَ أَعْمَالِ الْوُلَاةِ مِمَّا يَكُونُ أَمْرًا بِمَعْرُوفٍ، أَوْ نَهْيًا عَنْ مُنْكَرٍ مِنْ فُرُوضِ الْكِفَايَاتِ، (رقم: ٢٠١٩٦)، وبمعناه عنه أخرجه أحمد؛ مسند أحمد، (رقم: ٣٧١٣، ٥/٤)، والترمذي؛ سنن الترمذي، (٤٤) أبواب تفسير القرآن، باب (٥) ومن سورة المائدة، (رقم: ٣٠٤٧، ص١٩٥٩)، وبمعناه أيضًا أخرجه عن أبي عبيدة (ابن عبد الله بن مسعود مرسلًا) ابن ماجه؛ سنن ابن ماجه، (٣٦) أبواب الفتن، باب (٢٠) الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، (رقم: ٤٠٠٦، ص٢٧١٧)، والترمذي؛ سنن الترمذي، (٤٤) أبواب تفسير القرآن، باب (٥) ومن سورة المائدة، (رقم: ٣٠٤٨، ص١٩٥٩). وأخرجه أيضًا: الطبراني في الكبير؛ المعجم الكبير، (٧٧٢) عبد الله بن مسعود الهذلي، (رقم: ١٠٢٦٨، مج (٥) ١٢٣/١٠).

وأخرجه من طريق أبي موسى الأشعري بمعناه الطبراني كما في مجمع الزوائد (٢٦٩/٧) قال الهيثمي: «رجاله رجال الصحيح».

المجتمع، وتفصيل الرؤية والعقيدة والشخصية المطلوبة، والتي من شأنها نسف المجتمع ومحو هويّته بمرور الأيام.

يتم هذا الهدف، من خلال تدمير الدين بالسخرية منه ومِن رجاله، وتهويل المآخذ عليه، وتلميع من يهاجمونه، ووصفهم بالمفكّرين، واستبداله بالعقائد الباطنية المنحرفة، التي يتم تسويقها على أنها أكثر (إلهامًا) للناس، مهما كانت ساذجة أو بدائية أو متناقضة، وتمجيد أصحابها، وإبرازهم كرموز للرأي الحر والفكر المختلف، بالإضافة إلى استبدال المؤسسات الدينية المحترمة، بمنظمات وهميّة تسهم في صرف انتباه الناس عن الإيمان الحقيقي، وجذبهم لأنواع العقائد الدخيلة.

تكتمل هذه الخطوة بإفساد التعليم، من خلال صرف الناس عن تعلّم أي شيء بنّاء وواقعي وفعّال، والعبث بالنسق الاجتماعي، بخلق منظمات وهميّة، تهدف لنزع الإحساس بالمسؤولية لدى المجتمع، وإضعاف الحس الوطني والولاء للبلد وحكومته، وفي الغالب، يتم ذلك بواسطة دعم رموز إعلامية لم تكن معروفة سابقًا، ولا تحظى بقبول الناس، لكنها وَجَدت دعمًا غير معلوم، وأصبحت ذات تأثير كبير في الحياة الاجتماعية، بطريقة تتفق مع من يحرك الخيوط سرًا!

المرحلة الثانية، هي (زعزعة الاستقرار)، وتأخذ من سنتين لخمس سنوات، ويتم ذلك بإذكاء النعرات الطائفية والعصبيات في المجتمع المتماسك لتمزيقه، وتقديم قدوات زائفة، لتسطيح الفكر المجتمعي، ونقل المجتمع من التركيز على المهمات، إلى البحث عن سفاسف الأمور، والجري وراء الموضة والملذات، وفقدان الحس بأهمية احترام الوطن وأُسسه ورموزه، في هذه الخطوة، يتم البحث عن الخونة المندسين، عن أصحاب الأجندات المريبة والمطامع الشخصية، عن أتباع العقائد المناقضة والمنافرة

لعقيدة البلد، وغير المتعايشة معها، عن عملاء دول معادية، يمكن شراؤهم وتجنيدهم، ثم دعم الجميع بطريقة غير ملحوظة، لجر البلد إلى المرحلة الثالثة، وهي (مرحلة الأزمة)، التي تستمر من شهرين إلى ستة أشهر، تنتج عنها فوضى سياسية وانفلات أمني، ودخول البلد لنفق مظلم، أو حرب أهلية، تؤدي للمرحلة الرابعة، بتقديم شخصيات مُلمَّعَة تتصدر المشهد السياسي، وتدين بالولاء للعدو!».

يقول يوري بيزمينوف: «إن أقوى علاج لهذا السيناريو، يبدأ بإيقاف أخطر خطوة، وهي الأولى (إفساد الأخلاق)، وذلك لا يتم بطرد العملاء الأجانب، أو إضاعة الجهد والوقت والمال للبحث عمّن يحرك خيوط اللعبة، ولكن أنجح وأنجع حلّ لإفشال الخطوة الأولى، هو بـ (إعادة المجتمع للدين)، لأنّ الدين هو ما يحكم علاقات المجتمع، ويجعله يتناغم بطريقة سلسلة، ويحفظ تماسكه، حتى في أكثر الأيام سوادًا!»[1].

وهذا أمر غني عن التعليق، فقد سقط القناع عن وجه هذه الحركة المشتبهة المشؤمة من قبل هؤلاء الذين يقفون في وجه كل حق، ويساندون كل باطل، ويحاربون كل فضيلة، ويمجدون كل رذيلة، ويسعون إلى أن تقوم في بلاد الإسلام منابر للدعوة إلى الإلحاد، وفساد الأخلاق، وهتك الفضائل ونشر الرذائل، ومع ذلك يصخون العالم باستنكارهم أن تكون بين المسلمين أي دعوة إلى الحق، ولو كانت همسًا، لأنهم يدركون أن الحقّ عزيز الجانب قوي الحجة جلي البرهان، لا يلبث همسه أن ينقلب إلى هدير، فلذلك يزعجهم أدنى صوت منه، ولا يكون منهم في مواجهة الحقّ تسامح من أجل

---

(١) ينظر؛ مقال بعنوان كيف تدمّر بلدًا؟ لعوض بن حاسوم الدرمكي، نشر يوم الأربعاء ٣ ربيع الآخر ١٤٤٠هـ ـ ١٢ ديسمبر ٢٠١٨م (مؤسسة دبي للإعلام، مجلة البيان).
https://www.albayan.ae/opinions/articles/2018-12-16-1.3435368

التعددية التي يدّعونها، فشعار التعددية إنما يرفع عندهم لأجل تعزيز الباطل، وتسفيه الحقّ، وإشاعة المنكر، وكتم المعروف، ونشر الفساد وطيّ الصلاح.

أوليس هؤلاء يستنكرون حتى نشر الكتب الإيمانية في المدارس أو غيرها، ويصادرون كل رأي يجنح إلى التمسك بشرع الله تعالى؟.

ومما يزيدك يقينًا بما ينطوون عليه ـ من تآمر ضد هذه الأمة وعقيدتها وفكرها وآدابها واستقلالها ـ ما كتبه أحد رادة هذه الفئة في بث الفكر الإلحادي تحت ستار العقلانية، إذ يقول في إحدى تغريداته: «القرآن.. لا يضفي أية هوية خاصة إلى الجماعات البشرية التي تؤمن به، إذ هو يقرر بأنه جاء للناس كافة، ولذلك لا معنى أن يقول المسلمون: (نحن لنا هويتنا الخاصة، أو يجب أن نحافظ على هويتنا) فكل ما يقولونه في الهوية هو جانب اجتماعي من خارج الهدي القرآني».

فماذا يريد من وراء هذه الفكرة التي تسلخ الأمة من هويتها، سوى أنه يسعى إلى إذابة هذه الأمة حتى لا تبقى لها شخصية تميزها عن غيرها، كيف يمكن لأمة من الأمم أن تعيش بغير هوية؟!.

ومن العجب أن يظل هؤلاء يتطاولون على القرآن، فينسبون إليه ما تهوى أنفسهم، ويجردونه من كل ما لا يوافق هواهم، مع انقطاع صلتهم بالقرآن عقيدة وشريعة وآدابًا وأخلاقًا، فليت شعري؛ كيف يمكن لقوم نبذوا القرآن وراء ظهورهم وهم يسعون دائمًا إلى أن تنفلت أيدي المسلمين من التمسك بعروته ليذوبوا مع الذائبين أن يتحدثوا باسم القرآن، أو أن يبينوا للناس ما جاء به من الهدى والخير؟! فما كان لغير أهل القرآن المتمسكين بحبله العاضين بالنواجذ على تعاليمه أن يتحدثوا بشيء مما يتعلق به إثباتًا أو نفيًا، وليست الدعوة إلى فقدان الأمة لهويتها إلا دعوة سافرة إلى ذوبانها، لتكون أمة حقيرة مهينة، يسهل على خصومها ازدرادها.

ولنسمع إلى القرآن الكريم ماذا يقول في هذه الدعوة الآفكة التي يدعيها هذا المتآمر على القرآن وأمته، فإنّ الله سبحانه ميّز الناس بعضهم عن بعض، وجعل لكل طائفة منهم هوية يتبعها حكم تلك الطائفة، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ [الحج: ١٧]، فقد قسّم الله سبحانه الناس فيها إلى ست طوائف لكل طائفة حكمها، وهي المعروفة بالملل الست، التي استلهم فقهاء الأمة أحكامها، بحسب ما جاء في القرآن وما جاءت به السنة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام، وما مضى عليه السلف الصالح، وقد سمى الله هذه الأمة التابعة للقرآن الذين آمنوا أو المؤمنين أو المسلمين أو الذين أسلموا، وكانت هذه التسمية تسمية عريقة في التأريخ الديني النبوي، فقد حكاها الله تعالى عن إبراهيم عليه السلام وامتنّ بها على هذه الأمة عندما قال: ﴿هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ۚ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ [الحج: ٧٨]، فانظر كيف امتنّ الله تعالى على هذه الأمة باجتبائه تعالى لها ورفع الحرج عنها، وهدايتها إلى ملة إبراهيم، وأنه هو الذي سمّاها بتسمية الإسلام ليبوئها بذلك مبوّأ عظيمًا، بحيث تكون شهيدة على غيرها، كما أنّ النبي ﷺ شهيد عليها.

وكم نيط بها من أحكام في القرآن نفسه، كتحريم تزويجها لنسائها بغير أبنائها، وتحريم تزوجها بغير نسائها إلا أن يكن كتابيات، كما هو واضح في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُواْ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُواْ ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢١]، وكذلك قوله: ﴿فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ ۖ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾ [الممتحنة: ١٠]، وإنما

استثنى تزوجهم للكتابيات في قوله: ﴿ ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ ۖ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ۖ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ﴾ [المائدة: ٥].

ويا ترى كيف يمكن أن تخصّ بهذه الأحكام أمة لا هوية لها؟!.

وترى أن الله سبحانه أمر بحسم كل خلاف وشقاق يكون بين هذه الأمة بالإصلاح بينها، وإن تعنت منها متعنت ردّ إلى الإصلاح كرهًا، كما في قوله: ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾ [الحجرات: ٩].

وبيّن تعالى أنه لا يستوي في موازينه من استجاب لداعيه فآمن بما أنزل واتبعه، ومن ظل سادرًا في غيّه غارقًا في ضلاله عندما قال: ﴿ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴾ [ص: ٢٨]، وفي قوله: ﴿ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ۝ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ [القلم: ٣٥ ـ ٣٦]، وحكم سبحانه بأن العزة لعباده المؤمنين، لأن عزتهم مستمدة من عزة الله، الذي آمنوا به واتبعوا حكمه، حيث قال: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [المنافقون: ٨].

وبيّن الله سبحانه فضل هذه الأمة على غيرها من الأمم بما حملته من مواريث رسالات الله، بدعوة الناس إلى الحقّ، وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر عندما قال: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ﴾ [آل عمران: ١١٠]، وبيّن أنّ ذلك مع إقام الصلاة وإيتاء الزكاة وطاعة الله ورسوله سبب للترابط بين هذه الأمة جميعًا، رجالها ونسائها، برباط الولاية التي تشد بعضهم إلى بعض، حيث قال: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ

ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة: ٧١]، وعندما حذرهم الله سبحانه أن يتولوا من لم يستجب لدعوتهم، ولم يؤمن بما آمنوا به بيّن كيف تكون الولاية فيما بينهم، إذ قال: ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴾ [المائدة: ٥٥]، فترى أنه عطف الذين آمنوا على نفسه وعلى رسوله، وبيّن عاقبة هذه الولاية في قوله: ﴿ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾ [المائدة: ٥٦]،

وبيّن سبحانه كيف يكون الانسجام بين أفراد الأمة وتعاضدهم جميعا على الخير عندما قال: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ [الحجرات: ١٠]، ومَثَّلَ هذه الأخوة وثمارها الطيبة حديث النبي ﷺ عندما قال: «**ترى المؤمنين في تراحمهم وتوادهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى عضو تداعى له سائر جسده بالسهر والحمى**»[1].

وكم من أحكام خوطبوا بها من قبل الله تعالى في القرآن أو في توجيه نبيه ﷺ أن يخاطبهم بها كما في قوله: ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ

---

(١) رواه البخاري عن النّعمان بن بشير؛ **صحيح البخاري**، كتاب (٧٨) الأدب، باب (٢٧) رحمة الناس والبهائم، (رقم: ٦٠١١، ص٥٠٩). وأخرج مسلم عن النّعمان بن بشير قال: قال رسول الله ﷺ: مثل المؤمنين في توادّهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسّهر والحمّى؛ **صحيح مسلم**، كتاب (٤٥) البرّ والصّلة والآداب، باب (١٧) تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم، (رقم: ٢٥٨٦ [٦٥٨٨]، ص١١٣٠).
وأخرج أحمد عن النّعمان بن بشير قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: مثل المؤمنين في توادهم وتعاطفهم وتراحمهم مثل الجسد إذا اشتكى منه شيء تداعى له سائر الجسد بالسّهر والحمّى؛ **مسند أحمد**، (رقم: ١٨٢٨٧، ١٥٤/١٤).
وأخرج الطيالسي عن النّعمان بن بشير قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ألا إن مثل المؤمنين ومثل توادهم وتحابهم وتراحمهم مثل الجسد إذا اشتكى بعضه تداعى سائره بالسهر والحمى؛ **مسند الطيالسي**، (باب) النعمان بن بشير، (رقم: ٧٩٠، ١٠٧/١).

وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ۝ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُو۟لِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ ۖ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [النور: ٣٠ ـ ٣١]، وقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٥٩].

وكذلك قوله: ﴿ لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [آل عمران: ٢٨]، وقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [التوبة: ٢٣]، وقوله: ﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [المجادلة: ٢٢].

والآيات في هذا أكثر من أن نحصيها في هذا المقام، وقد كان ﷺ الذي تلقى عن ربه ﷻ هذه التوجيهات العظيمة يحرص في جميع أحواله على تربية هذه الأمة تربية تحافظ على هويتها، وتنمي هذه المحافظة في نفوسها، وتجعل شخصيتها شخصية مستقلة، تملي على الأمم إرادتها،

وتقودها في مسالك الحقّ من غير أن تنقاد لها في فكرها وسلوكها، وتؤثر عليها ولا تتأثر بها، لأنها هي المسئولة عن توجيه الإنسانية بأسرها، وتبصير كل من تعامى عن الحقّ منها، فقد آتاها الله تعالى مواريث النبوات وجعلها مؤتمنة عليها ومسئولة عنها، وهذا واضح في مواقفه عليه أفضل الصلاة والسلام، فعن عبادة بن الصامت قال كان رسول الله ﷺ إذا اتبع جنازة لم يقعد حتى توضع في اللحد فعرض له حبر، فقال: هكذا نصنع يا محمد، فجلس رسول الله ﷺ وقال: «**خالفوهم**»[١]، وعن أبي هريرة رضي الله عنه عنه ﷺ أنه قال: «**جزوا الشوارب وأرخوا اللحى خالفوا المجوس**»[٢]، وعن ابن عمر رضي الله عنهما بلفظ: «**خالفوا المشركين أحفوا الشوارب وأوفوا اللحى**»[٣]، وعن شداد بن أوس رضي الله عنه مرفوعًا: «**خالفوا اليهود فإنهم لا يصلون فى نعالهم ولا خفافهم**»[٤].

---

(١) أخرجه ابن ماجه؛ سنن ابن ماجه، (٦) أبواب الجنائز، باب (٣٥) ما جاء في القيام للجنازة، (رقم: ١٥٤٥، ص ٢٥٦٩)، والترمذي؛ سنن الترمذي، (٨) أبواب الجنائز، باب (٣٥) ما جاء في الجلوس قبل أن توضع، (رقم: ١٠٢٠، ص ١٧٤٨ ـ ١٧٤٩)، والبزار؛ البحر الزخار، (رقم: ٢٦٨٥، ١٣٢/٧ ـ ١٣٣)، والبغوي؛ شرح السنة، كتاب الجنائز، باب القيام للجنازة، (رقم: ١٤٨٧، ٣٣١/٥).

(٢) رواه مسلم؛ صحيح مسلم، كتاب (٢) الطهارة، باب (١٦) خصال الفطرة، (رقم: ٢٦٠ [٦٠٣]، ص ٧٢٣)، والديلمي؛ فردوس الأخبار، (رقم: ٢٣٩٢، ١٧٤/٢).

(٣) رواه البخاري؛ صحيح البخاري، كتاب (٧٧) اللباس، باب (٦٥) إعفاء اللحى، (رقم: ٥٨٩٣، ص ٥٠١)، ومسلم؛ صحيح مسلم، كتاب (٢) الطهارة، باب (١٦) خصال الفطرة، (رقم: ٢٥٩ [٦٠٢]، ص ٧٢٣).

(٤) أخرجه أبو داود؛ سنن أبي داود، كتاب (٢) الصلاة، باب (٨٨) الصلاة في النعل، (رقم: ٦٥٢، ص ١٢٧١)، والبزار؛ البحر الزخار، (رقم: ٣٤٨٠، ٤٠٥/٨ ـ ٤٠٦)، وابن حبان؛ صحيح ابن حبان، كتاب (٩) الصلاة، باب (١٤) فرض متابعة الإمام، (رقم: ٢١٨٦، ٥٦١/٥)، والحاكم؛ المستدرك، كتاب (٤) الصلاة، (رقم: ٩٥٦، ٣٩١/١) وقال: «صحيح الإسناد»، والبيهقي؛ السنن الكبرى، كتاب الصلاة، باب (٥٢٧) سنة الصلاة في النعلين، (٤٣٢/٢، رقم ٤٠٥٦).

وليت شعري؛ هل كل هذا الذي في القرآن والسنّة لا يكفي ـ عند ذلك الأفّاك المتآمر ـ لتحديد هويّة أمّة القرآن، والتمييز بينها وبين غيرها، أو أنّ ما يغلي به مرجله من الحقد الدفين جعله يتعامى عن هذا كله لأجل تنفيذ مؤامرته الدنيئة القذرة على أمة القرآن؟!.

وهل يبقى في نفسك ـ أيها القارئ الكريم ـ أي ارتياب في الأهداف التي يسعى إليها هؤلاء أو شكّ في الأيدي التي تحركهم من وراء الستار، من أجل تحقيق هذه الأهداف السيئة الوبيلة، وإن كنت لم تتضح لك الحقيقة الغامضة في ذلك، فارجع إلى ما يسمى ببروتوكولات حكماء صهيون التي أسفر عنها المؤتمر الصهيوني الأول الذي انعقد في مدينة بال بسويسرا في عام ١٣١٤هـ ـ ١٨٩٧م، وقارن بينها وبين ما يهدف إليه هؤلاء، وهذا مما يدعو حتمًا إلى اليقظة والحذر منهم وإحباط مؤامراتهم بالجهود الرسمية والشعبية، وإلا فالأمر خطير، فإنّ معظم النار من مستصغر الشرر، وقد أجاد من قال:

أرى خلل الرماد وميض نار ... ويوشك أن يكون لها ضرام
فإن النار بالعودين تذكى ... وإن الحرب أولها كلام

هذا؛ وإن شئت أن تعجب فارجع إلى تناقض هذا الذي تولى كبر الاستنكار من معاقبة الملحد المتجرئ على ذات الله تعالى بالتطاول والتنقيص، الذي يملأ الدنيا ضجيجًا منددًا بما اتخذ من الإجراء تجاه ذلك، مدعيًا أن ذلك يعد مصادرة لحرية الإنسان فيما يقول وما يفكر..!! ومع ذلك تجد أن هذا الرجل نفسه هو الذي ملأ الدنيا أيضًا ضجيجًا منددًا بكلمة قالها أحد العلماء المسلمين الوافدين إلى البلاد في إحدى المؤسسات العلمية في حق أحد الذين منحوا كل ولاء وتبعية لأعداء الإسلام، الذين يشنون عليه وعلى أتباعه حربًا لا هوادة فيها، وكان ـ هذا العالم ـ في كلامه معتمدًا على نصوص القرآن، ومستهديًا ببصيرته، فتفجر ـ هذا المدافع عن الملاحدة

المتطاولين على الله ـ غيظًا واستنكارًا لما قاله هذا العالم، وطالب أن تعاقب المؤسسة كلها بطرد كل من فيها من الهيئة الإدارية والتعليمية. فاعجب من موقفه الذي لا يرى فيه التطاول على الله أمرًا مهمًا يستوجب العقاب.!! بينما يرى إنزال أحد من الناس في منزله الذي أنزله الله فيه يستوجب مثل هذا الإجراء الخطير!!.

أولا يكون هذا دليلًا على أنه في موازينه يرى أن حقّ الله تعالى لا يساوي شيئًا بجانب حق أي أحد من خلقه، مهما كان خطؤه الذي ركبه؟!.

وإن كان هذا لا يكفي دليلًا على سقوط هؤلاء في دركات الكفر وحضيض الإلحاد فليس يصح في الأذهان شيء.

وإن تعجب فاعجب أن يكون هؤلاء الذين يتهاوون في هذه الدركات ويتساوقون إلى هذه المهالك يزجون بأنفسهم مع المتحدثين باسم الدين، ويتطاولون على تفسير القرآن الكريم وشرح حقائق الدين كما يملي عليهم هواهم، أولا يكفيهم أن يكونوا مع أراذل الملحدين وسقطة الكفار، فما لهم وللإسلام؟ وما لهم وللقرآن؟. أولا يكفيهم ما يشنونه من حرب علانية عليهما وارية نارها مزمجر هديرها حتى يضيفوا إلى ذلك هذه الحرب المبطنة في محاولة إفساد الدين باسمه والفتك به بسلاحه.

وليت شعري؛ أويظنون أنهم يخدعون الناس، أو أنهم يغرون المؤمنين بهذا الأسلوب الملتوي، كلا؛ إنما هم يخدعون أنفسهم، ويُرْدُونَها بذلك في المهالك، فإنّ الله كفيل بفضحهم وهتك أستارهم: ﴿ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ۝ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ ﴾ [البقرة: ٩ ـ ١٠]، أوليست هذه الفلتات من ألسنتهم وما يفيض عليها مما تغلي به صدورهم من الحقد الدفين على

الحقّ والدين كافية بتعرية دخائلهم، وفضح طواياهم؟! ﴿ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴾ [النور: ٤٠].

وليست هذه الحمية للباطل، والهجمة على الحقّ؛ إلا دليلًا واضحًا على ما يضمرونه من عداوة للديـــن، وحقد على المؤمنين، وتربص بهم ليشـــنوا عليهم حربًا لا هوادة فيها متى ســـنح لهم ذلك، وصدق الله القائل فيهم وفي أمثالهم: ﴿ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ﴾ [آل عمران: ١١٨].

ناهيك بهذا الضجيج من أجل ملحد لقي شـــيئًا من الجزاء على تطاوله على مقام الربوبية، ومناداتهم بإلقاء الحبل على الغارب، وعدم الاكتراث بما يتطاول به المتطاولون على الله ســـبحانه، ولو وصل بهم الأمر إلى إهانة ذاته المقدسة والاســـتخفاف بحرماته العظيمة، مع أن التدافع بين الناس سنّة من ســـنن الحياة، وبها يتحقق الكثير من الخير كما قال الله تعالى: ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [البقـــرة: ٢٥١]، بل نص القرآن أن هذا الدفع من الناس بعضهم لبعض به تحمى حرمات الأماكن التي يذكر فيها اســـم الله تعالى، وذلك في قولـــه ســـبحانه: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴾ [الحج: ٤٠]، فكيف يســـوغ في موازين أولئك أن يُعطى الناس حريتهم المطلقة في انتهاك حرمات الله سبحانه، وإذا كانت حرمات العباد يجب عقلًا وشـــرعًا صونها، وقطع الألسنة عن التطاول عليها، والأيدي عن التلاعب بها، فكيف بحرمات رب العباد الذي: ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ [الإســـراء: ٤٤]؟! وأي عقل يتقبل هذا المنطـــق؛ إلا العقل المحجوب عن درك الحقيقة بما ران عليه من الضلال، وتراكم عليه من الظلام؟!.

جرائم الإلحاد:

إنّ هؤلاء المستهترين بحرمات الله تعالى وحقوق دينه الحنيف ـ الذين يدعون إلى فسح المجال لكل من تسول له نفسه أن يتطاول على الله بالسباب والسخرية والتهكم، وعلى دينه الحنيف بالطعن والاستخفاف، ويرون أن أي عقوبة تلحق الملاحدة (إن جاهروا بالتطاول على الله وعلى دينه) هي جريمة لا تغتفر، وحدث يجب أن يجلبوا عليه بخيلهم ورجلهم من أجل إنكاره وتغييره؛ ليتمتع الملحدون في بلاد الإيمان بمطلق الحرية من غير تقييدها بشيء ـ يتعامون عن جرائم الملحدين في معاملتهم للمؤمنين، فالكل يعلم أن أهل الزيغ والإلحاد يعززون أفكارهم الفاسدة الضالة التي يعتنقونها بقوة الحديد والنار، والبطش الشديد، بكل من وُجّهَ إليه أدنى اتهام بالمساس بها أو عدم قبولها، أو رفض أي شيء منها، وهذا مما لا يخفى على أحد درس شيئًا من التاريخ الجهنّمي المستعر للنّظام الشيوعي البغيض، فما كادت تقوم لهم دولة في بقعة من الأرض إلا وجرت أنهار من الدم من أجل حماية مبادئهم، وكانت تهمة التدين أخطر ما يلصق بمن يراد التخلص منه، حتى لا يبقى للإلحاد ما ينافسه، فعندما نجحت الثورة البلشفية وأطاحت بقياصرة الروس سيق عشرات الملايين من الناس إلى المجازر ليلقوا حتفهم، لا لشيء إلا أنهم في نظر أولئك الملاحدة الغلاة متهمون بأنهم أعداء الثورة لأنهم ينزعون نحو الرجعية الدينية، أو نحو اعتقاد وجود إله للكون، وذلك عندهم من الخرافة التي لا تنجح الثورة إلا بالقضاء عليها.

وقد اجتاحوا فيما اجتاحوا مساحات واسعة من البلاد الإسلامية، التي نشأ من تربتها كبار عباقرة علماء الإسلام من المفسرين والمحدثين والفقهاء والأصوليين، وعلماء العربية الذين لا يشق لهم غبار في علوم اللغة والنحو والتصريف والبلاغة، كبلاد آسيا الوسطى فساقوا جماهير

لا تحصى من هذه البلاد إلى الموت الأحمر الزؤام، لا لشيء إلا أنهم يتصورونهم حجر عثرة في نشر مبادئ الإلحاد، لأنهم لا يزالون يتشبثون بالدين، ويؤمنون بالله سبحانه.

وبعدما استقرت لهم الأحوال عندما أمسكوا البلاد بيد من حديد، ونشروا الرعب بين الناس جميعًا فرضوا على الناس القوانين الصارمة التي تحول بينهم وبين التدين، بحيث أصبحت تعاليم الدين محظورة حتى داخل البيوت في الأسر، فلا يسمح لأب أن يلقن ابنه شيئًا من عقيدة الإسلام، أو يأمره بشيء من العبادات، وقد ذكر لي شيخ زارني ـ من دوشنبة عاصمة جمهورية طاجكستان ـ أنه درس القرآن على أيدي العجائز في سراديب الأرض خشية أن يكتشفوا أنهم يهتمون بدراسة القرآن من قبل السلطات وأجهزة مراقبتها الحساسة.

وقد ذكر الداعية الكبير الشيخ العلامة محمد الغزالي في كتابه القيم **الإسلام في وجه الزحف الأحمر**، كيف كان تشدّد السلطات الشيوعية في محاربة الإسلام وسائر الأديان في النظام الشيوعي الرهيب فيما كان يسمى بـ (الاتحاد السوفيتي)، ومن ذلك: «أنّ هذا المتدين لا يجوز له بتة أن يعلّم ابنه إيمانًا أو صلاة فذلك محظور. أجل ذلك محظور، مع أنّ وسائل الإعلام ـ وهي جميعًا في يد الدولة ـ تعمل عملًا متواصلًا على سحق الدين، واجتثاث جذوره، وذلك يقع بعد التخرّج من مدرسة غرست الإلحاد في دمه، وجرأته على احتقار كل ما يتصل بالسماء...

وتنص المادة (٥٨) من قانون الاتحاد السوفيتي على أمور ذات بال. إنّ هذه المادة وضعت جميع المتعبدين تحت باب (أعداء الثورة) وأباحت لرجال الشرطة في شتى الظروف السياسية أن يقتحموا بيوت هؤلاء المتعبدين، ويتولوا أمورهم الخاصة.

وتنص المادة (١٢٢) من قانون الجنايات المذكور على تحريم تلقين الأطفال الأحداث العقائد الدينية سواء في مدارس الحكومة أو المدارس الخاصة أو المعاهد التعليمية المختلفة، وجعلت كل مخالفة في هذا الشأن جريمة عقوبتها الحبس الإصلاحي مع الأشغال مدة لا تزيد على سنة»[١].

«وفي رسائل فلادمير لينين الرسمية ـ التي تعد الآن من وثائق الحكومة الروسية السوفيتية سابقًا ـ يقول لينين حين وصل لرئاسة الإتحاد السوفيتي السابق في إحدى تلك الرسائل: يجب علينا الآن سحق رجال الدين بكل حزم وبلا هوادة، وإخماد كل مقاومة لهم بحيث لا ينسون ذلك عبر السنين.

وقال أيضًا: في هذا الاجتماع أصدر قرارًا بإزالة ملكية رجال الدين والكنائس بلا رحمة ولا ندع لهم شيئًا، ويجري هذا القرار في أسرع وقت ممكن، وبمنتهى الكفاءة وكلما زاد عدد من نطلق عليهم النار كان أفضل»[٢].

ونتيجة لهذا القرار الرسمي من لينين بإعدام المتدينين يقرر المؤرخ أورنالدو فيجز (Orlando Figes) أن قرابة ٨٠٠٠ كاهن تم إعدامهم، وعشرات الآلاف من المتدينين بسبب رسالة لينين[٣]، وقد قُدّرت أعداد الذين قُتلوا على يديه في تلك الحقبة القصيرة بقرابة مليون نسمة من أبناء الشعب الروسي[٤].

ثم جاء من بعده جوزيف ستالين الجزّار الدموي، فلم يكن أقل ضراوة من سلفه المتعطش إلى الدماء، فقد قتل بين عامي ١٩٣٧ و١٩٣٨ أي في سنة

---

(١) الغزالي؛ محمد السقا: **الإسلام في مواجهة الزحف الأحمر**، ص٢٧ ـ ٢٨، المكتبة العصرية ـ بيروت، (بدون ط).

(٢) سرور؛ هيثم طلعت علي: **الإلحاد يسمم كل شيء**، ص٤١، نيو بوك للنشر والتوزيع ـ القاهرة، ط١: ١٤٣٦هـ/٢٠١٥م.

(٣) ينظر؛ المرجع السابق؛ ص٤١.

(٤) ينظر؛ المرجع السابق، ص٤٢.

واحدة أكثر من مائة ألف رجل دين، وقبل وفاته بأيام قليلة أكد أوامره باضطهاد المسلمين والرومان الكاثوليك والمعمدانيين، وتم اعتقال وقتل الآلاف، وهدمت المعابد والكنائس والمساجد، وقد جعل من مهمة رابطة الملحدين العسكرية إبادة وتعذيب أصحاب الديانات، فهدمت ٤٢ ألف مؤسسة دينية ومسجد وكنيسة عبر دول الاتحاد السوفيتي فيما بين ١٩٣٠ ـ ١٩٤١ حسب الوثائق الرسمية، وقتلت مائة ألف أسقف والآلاف من الرهبان وعشرات الآلاف من رجال الدين الأرثوذكسي، وقد وصل عدد الدوريات الخاصة بالرابطة في عام ١٩٤٠ إلى ٤٥ ألف دورية تدعو إلى الإلحاد وتنفر الناس عن الدين[١].

ولا تسأل عما قام به السفاك الملحد ماو تسي تونج الزعيم الصيني الإرهابي، ففيما بين عامي ١٩٤٠ ـ ١٩٧٥ قتل ٢٦ مليون مسلم صيني من الأتراك الأغور، وفي عام ١٩٦٤ نشر تهديداته قائلًا: «جميع الحيوانات السفلية سوف تعدم»، وكان يعني بهذا معارضيه ممن قد يخالفه في عقيدته الإلحادية، فهو يسلخهم من الإنسانية كلها، ويعدهم بهائم كما قال جيمس رفي رسي (James Revee Rusey) بالنسبة لماو فإنّ أعداء الشعب ليسوا بشرًا، وليس لهم أدنى حق بالمعاملة الإنسانية[٢].

ولأجل الإمعان في قمع الدين وإماتة أثره في النفوس حولت في البلاد الشيوعية دور العبادة إلى متاحف وإلى اصطبلات للخيول، وحرم المسلمون فيها من الاطلاع على القرآن، وهكذا كان النظام الإلحادي جهنّمي الطبع، يفرض فكره على الناس بقوة الحديد والنار، وينتزع منهم كل ما علق بنفوسهم من الفكر الإيماني.

---

(١) ينظر؛ المرجع السابق، ص٤٢.

(٢) ينظر؛ المرجع السابق، ٤٢ ـ ٤٣.

«وكان فيما احتواه الدستور السوفيتي الجديد سنة ١٩٧٧م في مادته (٥٢) هذا النص: (الدولة ترعى الإلحاد العلمي وتحرم تلقين الدين من أية جهة).

وتمت تسوية معابد أصحاب الديانات بالأرض بمجرد وصول ملحد للحكم كما حصل في ألبانيا المسلمة، إذ تم هدم وإغلاق ٢١٦٩ مسجدًا وكنيسة، وتم تحويل كاتدرائية شكودرا الكبيرة (Shkoder Cathedral) إلى قاعة للألعاب الرياضية بعد وصول الملحد أنور خوجة[1] للحكم في ألبانيا»[2].

ومع انحسار الشيوعية وتبخر مبادئها في بلاد العالم؛ ظلت إلى الآن كوريا الشمالية متمسكة بها أي تمسك ـ على الرغم مما تعانيه من خسارة مالية لا تقدر بسبب فشل نظامها ـ ولا يزال نظامها أقسى نظام في العالم في محاربة الدين والتدين، بحيث «يعتبر الاحتفاظ بأي كتاب مقدس جريمة وفق القانون الكوري الشمالي، وينص القانون على أن أي شخص يحتفظ بأي نسخة من كتاب مقدس يتم إعدامه في ميدان عام، ويشهد هذا الإعدام الآلاف من الكوريين، حيث يجري الإعدام غالبًا في ملاعب كرة القدم»[3].

ولم يكن نصيب البلاد العربية التي لفحها أوار الشيوعية اللاهب أقل سوءًا أو أخف ضررًا مما عاناه منها غيرهم، فقد سمعت ـ من ألسنة الذين عاصروا هذه الفتنة وكابدوا هذا الشر ـ كثيرًا مما يدهش النفوس ويطير بالألباب، ففي عام ١٤٢٣هـ تحققت لي أمنية أن أزور بلاد حضرموت، ذات التأريخ الإسلامي العريق، بعدما كدت أيأس من اكتحال عيني برؤيتها إبان سيطرة الحكم الشيوعي على الشطر الجنوبي من بلاد اليمن السعيد، وقد

---

(١) أصوله النسبية إسلامية.

(٢) المرجع السابق، ص٤٠. «بتصرف»

(٣) د. هيثم طلعت: مناظرة الملحدين، تقديم: د. عمر شريف، ص٥٤، نيو بوك ـ القاهرة، ط١: ١٤٣٧هـ/٢٠١٦م.

تجولت مع لفيف من الأخوة الأعزاء من أهل حضرموت في أرجائها، وأوقفوني على واد من أوديتها، وأخبروني أن الطغمة الشيوعية المتسلطة كانت تخرج المصلين من المساجد إلى ذلك الوادي، فتربطهم من أقدامهم إلى سيارات تجوب بهم أنحاء الوادي، والزبانية من ورائهم يطرقون رؤسهم بأعقاب بنادقهم، وهم يرددون (موت موت يا كهنوت بالرصاص والباروت... إلخ) حتى يلفظوا أنفاسهم لأجل أن يكونوا عبرة لغيرهم، فلا تحدث أحدًا نفسه أن يدخل مسجدًا أو يصلي.

وجاء في تلخيص **الكتاب الأسود للشيوعية** أن ضحايا الشيوعية في القرن المنصرم بلغوا مائة مليون نسمة من البشر ٢٠ مليون في الاتحاد السوفيتي المنهار[1]، ٦٥ مليون في الصين ومليون في فيتنام ومليونان في كوريا الشمالية ومليونان في كامبوديا ومليون في الدول الشيوعية في شرق أوروبا و١٥٠ ألفا في إمريكا اللاتينية ١,٧ مليون في إفريقيا ١,٥ مليون في أفغانستان و١٠ آلاف بسبب الحركة الشيوعية الدولية والأحزاب الشيوعية التي لم تصل إلى السلطة.

وقد اطلعت في بعض الوثائق التي نشرت في الشبكة العنكبوتية على ما يدل على أن عدد هؤلاء الضحايا كانوا أكثر من ذلك بكثير، فقد اشتملت هذه الوثائق على أن ضحايا **ماوتسي تونغ** وحده في الصين بلغ رقمها ١٠٠ مليون، وهذه الأعداد كلها من غير الذين هلكوا بالتجويع، فقد بلغوا في مجموع الدول الشيوعية عشرات الملايين أو ما يزيد على ذلك، ناهيك أن

---

(١) هذا الإحصاء تنقصه الدقة؛ فإن ضحايا الجزار المجرم جوزيف ستالين أثناء حكمه للاتحاد السوفيتي كانوا وحدهم بلغوا أربعين مليون ضحية، كما أثبت ذلك د. هيثم طلعت في مناظرته للملحد سمير سامي، وقد ذكر ذلك في هذه المناظرة كما في كتابه مناظرة الملحدين، ينظر؛ المرجع السابق، ص٥٣.

الذين هلكوا في المجاعة التي كانت فيما يسمى بالاتحاد السوفيتي في عهد لينين وحده أكثر من خمسة ملايين مع قصر فترة حكمه.

وجاء في نفس هذا المصدر أن «الجرائم التي ارتكبها أتباع الفكر الإلحادي اليهودي المتمثل في الشيوعية الماركسية تعتبر هي الأبشع والأشنع والأكثر وحشية وهمجية ضد الإنسانية جمعاء، فلا يخفى على أحد الدور الذي لعبه اليهود في نشوء الفكر الشيوعي الماركسي، الذي يعتبر تجسيدًا للتوجه الدنيوي المادي لليهود، فجرائم الشيوعيين ضد المسلمين لا تعد ولا تحصى، سواء في القوقاز منذ مطلع القرن العشرين أو في البوسنة والهرسك في نفس المدّة، أو في دول البلقان الشيوعية مثل ألبانيا يوغوسلافيا وبلغاريا، أو أثناء الغزو الوحشي لأفغانستان من طرف الإتحاد السوفياتي، أو من طرف النظام الشيوعي في الصين ضد مسلمي تركستان الصينية، أو في الشيشان من طرف روسيا وريثة الشيوعيين، أو داغستان وأنغوشيا وأبخازيا وغيرها من مناطق القوقاز أو في البوسنة والهرسك حديثًا من طرف الصرب حلفاء روسيا والسوفيات سابقًا أو من طرف الأنظمة الشيوعية المتبقية في آسيا الوسطى وبالأخص أوزبكستان وطاجاكستان، أو من طرف الأنظمة العربية اليسارية التي كانت حليفة للإتحاد السوفياتي سابقا ولروسيا حاليًا».

وكما كانت الشيوعية وبالا على المتدينين وعلى كل من لم يمحضها الولاء والإخلاص فإنّ نارها المضطرمة أتت على كثير من الملاحدة أنفسهم، فلا يكاد رأس السلطة يخيل إليه الشيطان أن من حوله من أعوانه ونصرائه غير مخلصين له في الطاعة والولاء، حتى يبيدهم جميعًا، ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٩]، فقد أباد كل من لينيين وستالين وماو تسي تونج وغيرهم كثيرًا من أتباعهم ونصرائهم، لا لشيء إلا الشك في إخلاصهم وولائهم لهم.

وإليكم نموذجًا من ذلك ففي لينينغراد أبيد كثيرون من الموظفين الحزبيين دون محاكمة، وكان يجري لهم تحقيق على أساس اتهامات كاذبة ملفقة، وكانت الإبادة تشمل عائلاتهم حتى الأطفال الأبرياء، وكانت أعمال القمع تنفذ بأوامر من ستالين أو بمعرفته وموافقته.

وكانت عملية التطهير في لينينغراد مقرونة بالعنف الذي تجاوز ما اعتاده السوفيت، وقد تناول هذا التطهير قادة القوات المقاتلة، وكبار الصناعيين، ورؤساء بقية المشاريع الكبيرة.

وفي أوائل عام ١٩٣٨م أصدر ستالين تعليمات تدعو إلى تطهير جديد في القوات المسلحة من الذين لزموا الصمت، ولم يقوموا بنصيب عملي في التطهير السابق، وبدأت الحملة بإقالة واعتقال عدد من كبار الضباط الجنود، الذي حلوا محل الضباط السابقين الذين تمت تصفيتهم في عام ١٩٣٧م.

وفي أواخر شهر ١٩٣٨/٧م حدثت مجزرة تناولت عددًا من القادة العسكريين الكبار، وكانت هذه العملية واسعة النطاق في ١٩٣٧/٦م، تناولت أيضًا إعدام كبار شخصيات الحزب، وكان يكفي ليقرر ستالين إعدام أقدم الرفاق إليه وأعظم الشخصيات لمجرد مخالفته في الرأي، فإذا قرر إعدامه سلط عليه جهاز المباحث، فلفقت له تهمة يتم على إثرها إعدامه كما حصل لـ **يوسف فارسيكيس** الذي كان موضع ثقة ستالين، وسكرتيرًا أولًا في فورونزت، وستالينغراد، ثم غدا سكرتيرًا أولًا في الشرق الأقصى، إذ لفقت له المباحث تهمة سيق بها إلى الإعدام، لأنه استوضح من ستالين عن أسباب اعتقال بعض الشيوعيين في محادثة هاتفية!!.

ومتى صار العضو الحزبي ـ مهما كانت مكانته ـ غير مرغوب فيه من قبل ستالين توجهت له التهم وأطلق عليه وصف عدو الشعب، وكانت تتم إعدامات كثيرة دون محاكمة ودون القيام بالتحقيقات الضرورية[1].

هذه صورة مما عاناه الناس من ثورة البلاشفة على قياصرة الروس، فقد كانت نارًا حامية التهم سعيرها كل من كان مشكوكًا في ولائه لهذه الثورة، بل امتدت ألسنة ضرامها إلى الذين كانوا حول الطاغية يذللون له الصعاب، ويفتحون له الأبواب ويوطئون له الأمر، وهكذا شأن النار، فقد تلتهم موقديها، وكل هالك في سعيرها تلفق ضده التهم بأنه غير مخلص في ولائه للثورة وقائدها، وقد أوضح الأستاذ حبنكة في كتابه **الكيد الأحمر** كيف كان يكاد للناس من أجل استئصالهم باسم الثورة حتى لا تبقى لهم باقية في عهد **ستالين**، وقد استمد كثيرًا من هذه المعلومات من روبرت كونكوست، ومما ذكره ما يلي:

«التطهير الكبير المرعب الذي أقام به **ستالين** نفسه طاغية مستبدًا، لا يسمح لأحد داخل الاتحاد السوفايتي مهما كان شأنه أن يرى رأيًا غير رأيه هو، ولا أن يعمل عملًا ما على خلاف أوامره ونواهيه، وإلا حل به الانتقام الأليم حتى الموت، وهذا التطهير الكبير العجيب في تأريخ البشرية يتميز بثلاثة أمور:

الأمر الأول: سعة نطاقه، إذ أبيدت به الملايين، وعاش به كل مواطن تحت وطأة الوعيد المباشر.

الأمر الثاني: وسائله التي منها وسيلة محاكمات الاعتراف الناشيء عن عمليات التعذيب، التي يرى فيها المعذب الاعتراف الذي ينتهي به إلى القتل

---

(١) ينظر؛ الميداني؛ عبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكَة الدمشقي: **الكيد الأحمر، دراسة واعية للشيوعية وجذورها وأفكارها**، ص ٣٠٤ ـ ٣٠٥، دار القلم ـ دمشق، ط ٢: ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.

أهون عليه مما يعانيه من آلام التعذيب، لذلك هو قد يعترف على نفسه كاذبًا ليقتل ويتخلص مما هو فيه، وفي هذه الاعترافات كان منتقدو السلطة يعترفون على أنفسهم بالخيانة الوطنية، أو خيانة الحزب، وكان كثير منهم من قادة الحزب الشيوعي، ومن الذين أقاموا الثورة الشيوعية، وقاتلوا لإسقاط الحكم القيصري السابق.

الأمر الثالث: سرية التطهير، إذ لم يكن يصدر شيء عن الدولة يكشف عمليات التطهير الواسعة، وقد بقيت الحقائق عن هذا الإرهاب العظيم أمدًا طويلًا في الكتمان، واستمرت لعدة سنوات مصدرًا رئيسيًا للشكوك والأباطيل.

وقد استمر الروس طوال عشرين سنة لا يعرفون عن التصفيات في عهد ستالين إلا على الشكل التالي.

(مؤامرة واسعة قادها أعضاء خائنون من قيادة الحزب، دبرت بالتعاون مع الدول الرأسمالية لاغتيال القيادة السوفايتية، وإلحاق الهزيمة بالاتحاد السوفياتي في الحرب، وتجزئة البلاد، وإعادة النظام الرأسمالي، وتخريب كل مرافق الحياة القومية بدءًا بالمناجم، ووصولًا إلى الوزارات، وقد اكتشفت المؤامرة وقبض على زعمائها الذين اعترفوا بما نسب إليهم، فجرت محاكمة عادلة لهم، وأنزل بهم القصاص الذي يستحقونه، فلاقى ذلك ارتياح الشعب السوفياتي كله).

مع أنّ المؤامرة المزعومة ـ التي تعطى صيغتها بهذا الشكل على ألسنة الناطقين باسم الدولة ـ ليست سوى حلقة واسعة من الاختلاقات والأكاذيب التي لفقها ستالين وحاشيته.

والإرهاب قد اجتاح البلاد كلها مخلفًا فيها نقمة لم يسبق لها مثيل، والإعدام الجماعي قد عزز بنظام واسع من معسكرات العمل في المناطق

النائية من البلاد، ونزلاء هذه المعسكرات أرقاء مستذلون مستعبدون، وحالهم أسوأ من حال أي مجموعة من رقيق العصور الهمجية المظلمة.

وقد ظهرت هذه الحقائق عن طريق الذين خرجوا على الحزب والحكم فيما بعد، أو عن طريق الذين فروا من نظام الاتحاد السوفياتي.

وخلال عهد خروتشوف لا سيما في الأعوام من (١٩٦١م ـ ١٩٦٤م) نشرت في الاتحاد السوفياتي مقادير كبيرة من المعلومات المتعلقة بالموضوع.

لقد ثبت وجود فترة اضطهاد جماعي ذهب ضحيته العديد من الأبرياء، واتضح أنّ بعض الاعترافات كانت باطلة تمامًا، وتأكد وجود نظام معسكرات العمل على نطاق واسع بما فيها من أحوال مريعة»[1].

وجاء في كتاب **الإلحاد يسمم كل شيء** ما نصه: «كان للإلحاد الأثر الأكبر على تصرفات ستالين ورؤيته للوجود، فقد رأى ستالين البشر كجماعات وظيفية تأكل لتنتج، ورأى أنّ الحركة الصراعية هي الصيغة التحليلية الوحيدة للوجود الإنساني ـ رؤية إلحادية داروينية ـ.

وقام ستالين بتطبيق رؤيته تلك على الملحدين رفاقه، وبالفعل قتل ستالين مجموعة من أكبر القيادات الإلحادية على الإطلاق في الاتحاد السوفيتي، حيث قام الملحد ستالين باغتيال الملحد **ليون تروتسكي** (**LeonTrotsky**) أكبر منظر للفكر الماركسي على الإطلاق، ومؤسس وقائد الجيش الأحمر السوفيتي، حيث أرسل ستالين العميل **رامون ماركادير** (**Ramon Mercader**) الذي اغتال تروتسكي في منفاه في المكسيك ومنح ستالين رامون نجمة لينين مكافأة.

---

(١) المرجع السابق، ص٢٦٩ ـ ٢٧١.

وفي مرحلة لاحقة قام ستالين بالقبض على عائلة تروتسكي وأعدمهم جميعًا.

أيضًا أمر الملحد جوزيف ستالين بإعدام الملحد أليسكي ريكوف (Alexei Rykov) وأليسكي ريكوف هذا من أكبر أعمدة الاتحاد السوفيتي، وكان رئيسًا للاتحاد السوفيتي في الفترة (١٩٢٤ ـ ١٩٢٩م) وقرر ستالين إعدامه بعد محاكمة صورية في عام ١٩٣٨م.

وقد أعدم الملحد ستالين ما لا يحصى من ملاحدة الاتحاد السوفيتي، حتى أعز رفاق عمره، مثل نيكولاي بوخارين (Nicolai Ivanovitch Boukharine) الأمين العام للجنة التنفيذية للكومنتيرن، ورئيس تحرير مجلة الملحدين السوفيت برافادا (Pravda)، وحليف ستالين الأكبر، وقد أرسل بوخارين رسالة إلى ستالين قبل أيام من إعدامه، يقول فيها لستالين: (كوبا لماذا تريدني أن أموت)، وكوبا هو اسم ستالين السري أثناء شبابهما وقد عثر على هذه الرسالة في مكتب ستالين بعد وفاته، ولم تمض أيام حتى أعدم بوخارين على يد كوبا أو ستالين، وبعدها تم نفي زوجة بوخارين إلى معسكرات الاعتقال.

وإذا أردنا أن نسرد جرائم ستالين مع الملحدين رفاق حياته، ربما لا تسعنا الأوقات، فمن إيغودا (Aagoda) إلى راكوفسكي (Rakovsky) إلى كريستينسكي (Cristinesca) إلى ميخائيل تومسكي (Mikhail Tomski) إلى ليفكامينيف (Lev Kamenev) صهر تروتسكي إلى جريجوري زينوفايف (Grigory Zinoviev) القائمة تطول جدًا برفاق العمر الملحدين الذين قتلهم الملحد ستالين حين أصبحت في يده القوة والسلطة.

وهذا الأخير جريجوري زينوفايف (Grigory Zinoviev) قال: إن إعدام الملحدين رفاق ستالين جريمة، وفي اليوم التالي مباشرة تم إعدامه بسبب هذا التصريح.

وكان ستالين لا يكتفي بقتل الملحدين رفاق عمره، بل كان يقتل زوجاتهم وأولادهم، وكل عوائلهم، وهو نفس ما حدث مع مارشال ميخائيل توخا جفسكي قائد الجيش الأحمر السوفيتي ومن أشهر رفاق ستالين، وقد جرى اعتقاله بإشراف رئيس الشرطة السرية نيوكولاي يزوف (Yezhov) ثم قاموا بتعذيبه حتى أن ورقة اعترافاته كانت ملطخة بالدماء، وحين وقف لاحقا أمام المحكمة العسكرية المكونة من ضباط تحت إمرته في ١١ يونيو ١٩٣٧م قال: أشعر كأني في حلم.

ولم يكتفوا بإعدامه إذ أرسلوا شقيقاته وزوجته وابنته إلى الكولاج وأعدموا أشقاءه.

المفارقة؛ أنه بعد مدة قصيرة على إعدام توخا جفسكي تم إعدام خمسة من الضباط الكبار الذين كانوا قضاة محاكمته.

وفي فترة لاحقة سأل ستالين قائد شرطته نيكولاي يزوف ماذا كانت آخر كلمات توخا جفسكي قبل أن يعدم؟ فقال: الثعبان ـ يقصد توخا جفسكي ـ كان يقول إنه خادم للدولة والرفيق ستالين، وكان يطلب الرأفة.

هكذا كان ستالين مع رفاقه الملحدين، هكذا يفعل الملحد عندما يطبق إلحاده، وما كنا لنطلق لقب الملحد على ستالين لو لم يفعل ما فعل، فمن خلال الإلحاد فحسب يمكنك قتل الجميع، وإبادة أقرب الناس إليك طبقًا لقانون البقاء للأصلح، ولا يجوز لملحد أن ينتقدك وإلا فهو لا يفهم الإلحاد»[1].

وهكذا كانت نار الإلحاد تلتهم كل شيء فهي تقضي على أبنائها كما تقضي على أعدائها، طبقًا لما قاله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا

---

(١) د. هيثم طلعت: الإلحاد يسمم كل شيء، ص ٤٥ ـ ٤٨.

﴿كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٩]، على أن هؤلاء الذين أعدمهم ستالين لم يكونوا أقل ضراوة منه أو أدنى منه في التعطش إلى دماء الناس، بل من الناس من يعزو إليهم أنهم كانوا أقسى قلوبًا، وأشد عنفًا، وأكثر جرمًا، فقد كانوا أحرص منه على فرض الشيوعية على العالم بقوة الحديد والنار، وإبادة أكبر عدد من البشر، وما كان يثنيه عن مجاراتهم في طموحهم وتحقيق مآربهم في تدمير العالم، والقضاء على أكبر عدد من سكانه، إلا ما كان يخشاه على الاتحاد السوفيتي أن تجتمع قوى الدنيا ضده ـ لو فعل ذلك ـ فتستأصل هذا الكيان من جرثومته، كما فعلت ذلك بهتلر وكيانه النازي، عندما غالى في نشر شره المستطير في الأرض، فما كانت النتيجة إلا أن بادت قوته وانمحت دولته من خارطة الوجود، وهذا ما ذكره بعض المحللين، كما أثبته د. هيثم طلعت في كتابه الذي سبق ذكره، حيث قال:

«ومن عجيب ما يقال هنا: إنّ الملحد ستالين لم يقتل هذا العدد من الملحدين إلا لأنهم كانوا يرغبون في التبشير بالإلحاد الشيوعي في كل العالم، ويرغبون في احتلال أكبر عدد من الدول الأوربية، وكان ستالين يرى أنّ هذه الخطوة قد تدمر الأمة السوفيتية الوليدة، فخاف ستالين أن يطبق أحد هؤلاء الملاحدة رؤيته الإلحادية تلك واقعيًا، ولذا كان يبادر باستئصال شأفة أي ملحد يظهر مثل هذه الدعاوى أولًا بأول.

وقد كان تروتسكي يصب جام غضبه على ستالين فالفرصة الإلحادية لن تتكرر كما يرى تروتسكي، والتبشير بالإلحاد الشيوعي لا يجوز لستالين أن يتوقف عنه ـ عبء الدعوة ـ وكان هذا سبب الصدام الرئيس بين ستالين وكل الذين قتلهم، لقد كانت القضية صراع حفنة من الملحدين المجرمين، بعضهم يريد الاحتفاظ بالمكتسبات أولًا ـ ستالين ـ والبعض الآخر يريد التعجيل بتدمير العالم ـ تروتسكي ـ أقصد تبشير العالم بالإلحاد.

أقول هذا الكلام حتى لا تأخذكم رأفة بالملحدين الذين قتلهم ستالين، فهؤلاء لو كانت السلطة في يد أحدهم ربما لم تكونوا اليوم لتجدوا أوربا على الخريطة من الأساس! فلم يكن هؤلاء الملاحدة يختلفون إلا في الزمن المناسب لتدمير العالم بالإلحاد، وجاءت الحرب العالمية الثانية لتوقف طموحات ستالين التي أراد أن يعجل بها رفاقه الذين قتلهم.

إذن عندما نحاول تحليل الصورة في إطارها الصحيح، فإننا نقول إنّ الذين قتلهم جوزيف ستالين كانوا أكثر إلحادًا منه، وكانوا أقرب للرؤية الصحيحة للإلحاد، حيث تعتمد رؤيتهم على التغذية الشمولية لكل دول العالم بالإلحاد (الصراعات الداخلية) وبالأخص دول أوربا، وهذا يعني فتح كل الجبهات وإشعال الفتن في كل الدول وتغذية الصراعات وإبادة كل المعارضين بأسرع ما يمكن، وهذا هو لب النظرية التروتسكية التي قاومها جوزيف ستالين بكل قوة ورأى فيها الجنون بعينه، ورأى أن مجرد تطبيقها ينسف الاتحاد السوفيتي ويسقط فلسفتهم الإلحادية للأبد.

فطبقًا للفلسفة التروتسكية الإلحادية عليك أن تشعل الصراعات في كل مكان ـ صراع من أجل البقاء بمنظوره المادي الداروينى ـ فما الماركسية كما يقول بليخانوف (Plekhanov) إلا تطبيق للداروينية في العلوم الاجتماعية، فالإلحاد صحيح ما كان الإنسان حيوانًا يعيش في صراع دائم، ولذا كان تروتسكي أقرب للإلحاد بكثير من ستالين»[1].

نعم؛ قد يكون هذا داخلًا في الأسباب التي أدت إلى مقتل هذا العدد الكبير من أنصار وأعضاد ورفاق الطاغية ستالين، ولكن بجانب ذلك فإن التنافس على السلطة من الأسباب التي كان الحكام الشيوعيون يتكئون عليها

---

(١) المرجع السابق، ص ٤٨ ـ ٥٠.

في إبادة من حولهم من الأعوان والرفاق، وهم ـ بلا ريب ـ عندما يدور ببال أحدهم أي شك في أي أحد لا يترددون في إبادته، ولو كان مجرد وهم لا نصيب له من الصحة، فإن الإنسانية لا قيمة لها في موازينهم، وكل منهم يرى أنه الأصلح والأنسب للحكم، فلذلك يسارع إلى إزاحة وتصفية كل من يخيل إليه أنه يريد أن ينافسه في السلطة، وليس ذلك فحسب؛ وإنما هم يرون أنهم أرباب لكل من امتد إليهم نفوذهم ووقعوا تحت سلطتهم، فعليهم أن يخضعوا لهم خضوع العبودية الذليلة للربوبية العزيزة، وإلا فلا يستحقون البقاء في الحياة، وهذا مما يفهم من سيرة الطاغية **ماو تسي تونج** كما سيأتي بيانه إن شاء الله.

جرائم الملحدين ضد المسلمين خاصة:

إذا كانت هذه هي تصرفات الشيوعية الملحدة ضد أبنائها المخلصين، الذين أججوا بأيديهم سعيرها اللاهب الذي التهم جميع قيم الإنسانية، فأتى أولًا على الدين ثم الأخلاق، ثم أموال الناس وحياتهم، فلا تسأل عما كان وراءها من شر رهيب ـ يفوق كل تصور ـ بُيِّت لمن رزئ من المسلمين بوجوده بينهم، ووقوعه في أسرهم، وبما أنّهم لا يقيمون وزنًا للإيمان، ولا يعرفون معنى للأخلاق، بدأت علاقتهم مع المسلمين بخداعهم واستمالتهم إليهم وإطماعهم أنهم سيتمتعون في ظل ثورتهم بالاستقلال التام، وسينعمون بممارسة تعاليم دينهم بكل حرية وكرامة، وكان المسلمون يقاسون في ظل الحكم القيصري العنيد الشديد ما يقاسون من جور وظلم واضطهاد، وقد منتهم الوعود التي بسطها لهم الثائرون أنهم سيتحررون من ذلك كله، وسيعيشون حياة كريمة تنسيهم ما كانوا يقاسون من عنت وشدّة.

فعندما أطاحت الماركسية البلشفية بالإمبراطورية القيصرية أصدر مجلس فوميسيري الشعب البلشفي نداء موجها للمسلمين (سنة ١٩١٧م) بتوجيه من

لينين جاء فيه: «إن إمبراطورية السلب والعنف الرأسمالية توشك أن تنهار، والأرض التي تستند عليها أقدام لصوص الاستعماريين تشتعل نارًا.

وفي وجه هذه الأحداث الجسام نتجه بأنظارنا إليكم أنتم يا مسلمي روسيا والشرق، أنتم يا من تشقون وتكدحون وعلى الرغم من ذلك تحرمون من كل حق أنتم له أهل.

أيها المسلمون في روسيا، أيها التتر على شواطئ الفولجا وفي القرم، أيها الكرغيز والسارتيون في سيبيريا والتركستان، أيها التتر والأتراك في القوقاز، أيها التشيشيون، أيها الجبليون في أنحاء القوقاز، أنتم يا من انتهكت حرمات مساجدكم وقبوركم، واعتدي على عقائدكم وعاداتكم، وداس القياصرة والطغاة الروس على مقدساتكم.

ستكون حرية عقائدكم وعاداتكم وحرية نظمكم القومية، ومنظماتكم الثقافية مكفولة لكم منذ اليوم، لا يطغى عليها طاغ، ولا يعتدي عليها معتدٍ.

هبوا إذن فابنوا حياتكم القومية كيف شئتم، فأنتم أحرار لا يحول بينكم وبين ما تشتهون حائل. إن ذلك من حقكم إن كنتم فاعلين.

واعلموا أن حقوقكم شأنها شأن حقوق سائر أفراد الشعب الروسي، تحميها الثورة بكل ما أوتيت من عزم وقوة، وبكل ما يتوافر لها من وسائل، جندًا أشداء، ومجالس للعمال، ومندوبين عن الفلاحين.

وإذن فشدوا أزر هذه الثورة، وخذوا بساعد حكومتها الشرعية.

أيها المسلمون في الشرق، أيها الفرس والأتراك والعرب والهندوس، أنتم جميعًا يا من وطئ الأوربيون القراصنة أرضكم، وتاجروا بأرواحكم وأملاككم وحرياتكم قرنًا بعد قرن، أنتم جميعًا يا من يحاول اللصوص الذين أشعلوا نار الحرب أن يقتسموا بلادكم بينهم.. اخلعوا عن أعناقكم نير هؤلاء اللصوص.

أولئك الذين يستعبدون أهلكم، ويستبيحون دماءكم وأرواحكم، فإنّ من المستحيل عليكم بعد الآن أن تظلوا قابعين لا تحركون ساكنًا، في وقت تهز فيه الحرب عرش النظام القديم، وتشتعل فيه نفوس العالم كله حنقًا على الغاصبين المستعمرين، وتمتد فيه شرارة الغضب فتصبح ثورة تأتي على كل شيء.

حذار أن تضيعوا وقتكم دون أن تلقوا عن كاهلكم نير المستبدين والظالمين الذي استبدوا بكم وبأوطانكم.

إياكم أن تدعوهم يسلبونكم ما أوتيتم من خير بعد اليوم، وعليكم من اليوم أن تشيدوا صرح كيانكم بأنفسكم وبطريقتكم الخاصة، وفق ما تحبون وما تختارون فإنّ من حقكم أن تفعلوا وإنكم لفاعلون، وها هو مستقبلكم في أيديكم.

أيها الرفاق؛ أيها الأخوة، لنتقدم سويًا في عزم وصلابة نحو سلم عادل ديمقراطي، إنّ رايتنا تحمل معها الحرية للشعوب المظلومة في أرجاء العالم»[1].

كانت هذه الكلمات الخادعة بمثابة ما يقدم للصيد من طعام ليندفع نحو المصيدة فيقع في فخها، وبسبب ما في نفوس كثير من الناس من الثقة بما يقال لهم بجانب ما كان المسلمون يعانونه تحت وطأة الحكم القيصري العنيف من عسف وجور لا مثيل لهما استجابوا لهذا النداء، وقدموا أنفسهم وقودًا لهذه الثورة على أمل أن يكون ذلك لصالحهم، وأعلنوا استقلال بلادهم وأنشأوا جمهوريات إسلامية على ترابها، وهم يشعرون بالسعادة ـ مهما قدموا من تضحيات ـ بنعمة الاستقلال والتحرر من ربقة الاستعباد،

---

(١) الميداني: الكيد الأحمر، ص٢٥١ ـ ٢٥٢.

ولكن لم تكد الفرحة تنعشهم ولم يكد السرور يمسح آثار أحزانهم، حتى شعروا بهجمة من الأتراح والأحزان تنسيهم كل سرور لامس شغاف قلوبهم، وتبدد فرحتهم باستقلالهم، إذ طوقهم الجيش الأحمر بمعداته الجهنمية وعتاده الناري مباغتة من غير أن يحسبوا لذلك حسابه، ويعدوا له عدته، وأدع المجال هنا ليراع الداعية الكبير والكاتب البليغ الشيخ محمد الغزالي ليصور هذه المآسي العظيمة.

فقد قال: «في إبريل سنة ١٩١٨م أصدر لينين أمرا بالزحف على البلاد الإسلامية دون إنذار سابق، فأخذت الدبابات تحصد المدن حصدًا وتدك الحصون والقلاع، والطائرات تمطر البلاد سيلًا من قنابلها دون تمييز بين عسكريين ومدنيين.

وفي نهاية هذا العام كان الروس قد استولوا على جمهورية (ايديل أورال)، وشمال القوقاز، وحكومة (خوقند) في تركستان، وتأخر الاستيلاء على شبه جزيرة القرم لعنف المقاومة فيها.

وفي سنة ١٩١٩ استولت روسيا على جمهورية (ألاش). وفي إبريل سنة ١٩٢٠ انتهت من احتلال القرم، ثم استأنفت الهجوم على جمهورية (أذربيجان) واستطاعت إخضاعها، ثم حاصرت جمهورية (خيوه) من ثلاث جهات فدافع عنها أهلها التركمان دفاع المستميت ولكنها سقطت في نهاية عام ١٩٢٠.

وفى سنة ١٩٢١ استأنف الروس الهجوم على جمهورية (بخارى) ودار بينهم وبين أهلها قتال مرير، ودافع أحفاد البخاري عن وطنهم بكل ما لديهم من بأس، فلما انهزمت جيوشهم المنظمة شنوا حرب العصابات نحو سنين، ولكنهم فشلوا في إدراك النصر لعدم وجود أية مساعدة خارجية من العالم الإسلامي!!.

هذا هو الوصف السريع للقتال الذي نشب بين المسلمين والجيش الشيوعي المكلف بإخضاعهم والسيطرة على بلادهم.. وهو وصف لا نقف طويلًا عنده لأن المحزن المبكي هو ما وقع بعده.. فإن الروس الحمر شرعوا يوجهون جهودهم لنقل البلاد بما عليها ومن عليها إلى المذهب الجديد، وهنا بدأت الكوارث الشداد. فالمسلمون حراص على دينهم متمسكون بتعاليمه في ظاهر أمرهم وباطنه.. ولقد صابروا الليالي في ظل الصليبية المدبرة وهاهم أولاء يلقون عدوًا أكفر بالله، وأجحد لشرائعه فهل يستسلمون؟ كلا.. وعاد الصراع الجائر مرة أخرى.

والثورات حين تريد فرض نفسها وإثبات وجودها على واقع مخالف لا ينبض قلبها برحمة إزاء معارضيها. فكيف إذا كانت هذه الثورات لا تعرف ربًا، ولا ترجو آخرة، ولا تخشى حسابًا؟!.

إنّ الشيوعيين يعبدون هذه الدنيا، ويرونها وجودهم الأوحد.. وهم يرون أعداءهم وكأنهم عوائق دون ثورات يجب أن يستمتعوا بها وخيرات يجب أن يضعوا أيديهم عليها.. ومن ثم ترى الواحد منهم يقاتل وكأنه يسترد حقًا شخصيًا سُلب منه، فمن وراء قتاله نهمة للحياة لا تشبع وثأر عند الآخرين لا يهدأ..

فإذا كان الإسلام ينتصب سدًا منيعًا أمام هذه المآرب، وإذا كان المسلمون يشكلون باسم دينهم مجتمعًا أبعد ما يكون عن هذه الأفكار فهيهات أن يلقوا من الشيوعيين مهادنة أو رحمة. وذلك ما وقع في أسلوب تقشعر منه الجلود.

كان التعذيب قديمًا يشبه أسلحة الحرب التقليدية من بنادق ومدافع، أما التعذيب الذي اخترعه الشيوعيون أو افْتَنُّوا في تطبيقه فهو يشبه القنابل الذرية يمتد دمارها إلى نطاق بعيد.. لقد قرر الروس الحمر أن يغيّروا البلاد

الإسلامية ويحوّلوا تاريخها كله من مجرى إلى مجرى آخر. فكانت الأوامر تصدر بهجرات جماعية واسعة المدى يتحول بها الناس من وطنهم الأول إلى بلاد لا يعرفونها..»[1].

هذا الذي جناه المسلمون من ثقتهم بوعود الشيوعيين الملاحدة، وأنى يكون للملحد عهد أو ذمة، وهو الذي كفر بالله واليوم الآخر، فما الذي يجعله يفي بعهده هل خوف الله تعالى، وهو لا يعترف بوجوده، أو الإشفاق من العذاب في اليوم الآخر، وهو يرى أن الإيمان باليوم الآخر من الخرافات التي لا أثر لها إلا على الحمقى والمجانين؟؟!.

وقد كانت رزية المسلمين بما نكبوا به من الشيوعيين الملاحدة تفوق بكثير ما رزئوا به من قبل القياصرة الطغاة من قبل، فإنهم لم يكتفوا باستعبادهم والاستيلاء على كل ما في بلادهم من خير وثروات تجري على ظهر الأرض أو في باطنها، وإنما سلبوهم أولًا الإيمان، وسلبوهم نعمة العيش في بلادهم، ويصور الأستاذ حبنكة هذه المآسي في كتابه **الكيد الأحمر** فيقول:

«بعد أن استولى الشيوعيون الروس على هذه البلدان الإسلامية شرعوا يخضعونها وأهلها للنظام الشيوعي، ويفرضون عليها العقائد الكافرة والأعمال الفاجرة، وبدأت النكبات القاسيات والكوارث الشداد تتساقط على رؤس المسلمين بكل عنفها وقسوتها والجلاد اليوم هو الروسي الأحمر وكل الشيوعيين التابعين لهم، الذين يدينون بدينهم ويخضعون لقيادتهم، بعد أن كان جلادهم بالأمس الروسي القيصري النصراني المستعمر لبلادهم والناهب لخيراتهم.

---

(١) محمد الغزالي: **الإسلام في وجه الزحف الأحمر**، ص١٣١ ـ ١٣٢.

لقد قرر الروس الشيوعيون أن يغيّروا البلاد الإسلامية تغيّيرًا كليًا ويحولوا تأريخه كله من مجرى إلى مجرى آخر، فكانت الأوامر تصدر بنقل سكان البلاد نقلًا جماعيًا من أوطانهم العامرة ذات الخيرات الوفيرة إلى مواطن أخرى لا يجدون فيها إلا الذلّ والجوع والحرمان والتشرد، وتم بذلك تغيير معالم البلاد الإسلامية، وقطع الصلات بين حاضرها وماضيها، ووقعت بذلك مجاعات هلك فيها ملايين من الناس المنكوبين.

وفي خطة التهجير القسري طرد السكان المسلمون من أذربيجان وتركستان والقرم إلى فيافي سيبيريا وأواسط آسيا، وقاوم المسلمون دون أرضهم وأموالهم، وفي هذه المقاومة فني منهم خلق كثير على أيدي الشيوعيين الكفرة، واستقدم لاحتلال بلدان المسلمين هذه روسيون وسلافيون وأوكرانيون.

واستولت روسيا على خيرات هذه البلاد ذات الثروات الضخمة، فمن جمهورية أذربيجان الإسلامية شرعت روسيا تستخرج البترول بالكميات الضخمة التي تغنيها، ومن جمهورية تركستان الإسلامية شرعت تستخرج المعادن المختلفة، وقد ذكر الباحثون أنه يوجد في هذه الجمهورية الإسلامية وحدها ما يلي:

٢٥ منجمًا للذهب، و١٦ منجمًا للفضة، و٤٦ منجمًا للحديد، و٣٢ للرصاص، و٢٤ للبترول، و٧٠ للفحم، و١٣ للكبريت، و٦٣ للصوديم ما عدا مناجم المعادن الأخرى...»[1].

وكانت الشيوعية في ثورتها على القياصرة تعد جماهير الناس بأنها ستنقلهم من البؤس إلى النعيم، ومن ضنك العيش إلى رغده، بحيث ينعم

---

(١) الميداني: الكيد الأحمر، ص٢٥٤ ـ ٢٥٥.

الكل بالرفاهية والسعادة، وذلك بتوفير الإنتاج وعدالة التوزيع بين الجميع، ولكن كانت النتيجة خلاف ذلك كله، فقد ازداد البؤس حتى ما عاد الناس يتصورون معنى النعيم، واشتد الضنك حتى هلك جمهور من الناس جوعًا.

وقد صور الكاتب الأمين **عبد الرحمن حسن حبنكة** هذه المآسي التي نكب بها المسلمون وغيرهم، وإنما سلط الضوء على الوضع الذي حل بالبلاد الإسلامية جاعلًا من شبه جزيرة القرم نموذجًا، وإليك نص كلامه:

«تقع شبه جزيرة القرم على الشاطئ الشمالي للبحر الأسود، وكان سكانها المسلمون يبلغون خمسة ملايين، وقد ظفروا باستقلالهم بعد النداء الشيوعي للمسلمين، وإبان الثورة الشيوعية في روسيا.

ثم إنّ الزحف الروسي الشيوعي على البلدان الإسلامية قد شمل شبه جزيرة القرم، وقاوم أهلها العدوان الروسي الجديد ببسالة عظيمة، واعتصم جيشها بالجبال، ودافع دفاع الأبطال، وكانت جماهير المسلمين تؤازر المقاتلين بما تستطيع من مؤازرة، ولما رأى الروس الشيوعيون أن المقاومة عنيدة شديدة، لجأوا إلى حرب التجويع، فنقلوا ما في الجزيرة من أقوات، وحاصروها ومنعوا الأرزاق أن تصل إليها.

وتعرض أهل البلاد لبلاء عظيم أشرف فيه العسكريون والمدنيون والأطفال والرجال على الهلاك من الجوع.

وقد نشرت جريدة **أزفستيا** في عددها الصادر في ١٥ تموز سنة (١٩٣٣م) تقريرًا للرفيق **كالينين** عن مجاعة القرم جاء فيها:

بلغ عدد الذين أصابتهم محنة الجوع في شهر (يناير) كانون الأول (٣٠٢٠٠٠) مات منهم (١٤٤١٣) وارتفع عددهم في شهر (مارس) آذار إلى (٣٧٩٠٠٠)، مات منهم (١٩٩٠٢)، وبلغ في (إبريل) نيسان (٣٧٧٠٠٠)، مات

منهم (١٢٧٥٤)، وفي شـــهر (يونيه) حزيران بلغ (٣٩٢٠٧٢)، ولم يذكر هنا عدد الموتى!!.

وجاء في التقرير أنّ أكل لحم الإنســـان لم يكن من الحوادث المستغربة، أو تبدو عجيبة في بابها.

وجرد الشـــيوعيون الروس المســـلمين من أملاكهم وثرواتهم، وشرعوا يهدمون مساجدهم ومعاهدهم الدينية، حتى لم يبق من (١٥٥٨) مسجدًا بالقرم إلا عدد قليل جدا يعد بالآحاد، أما سائر المساجد فقد أزيلت، أو حولت إلى أندية ومقاهي ودور لهو واصطبلات للخيل، وحظائر للماشية.

وكان سكان القرم في سنة ١٩١٧ قرابة خمسة ملايين مسلم، فأمسوا في سنة ١٩٤٠ نتيجة أعمال الإبادة والنفي والتهجيرات الشـــيوعية (٤٠٠٠٠٠) مسلم فقط، وكان المفروض في أحوال طبيعية أن يتكاثروا ويصلوا إلى قرابة عشرة ملايين.

أين ذهب هذا الجم الغفير والعدد الوفير من المسلمين؟! ما هذه المبادئ الإنســـانية التي قمتم من أجلها أيها الشـــيوعيون؟ أهكذا تريدون أن تسعدوا الإنسانية بإبادة شعوبها، وكل هذه الشعوب التي تبيدونها من الفقراء والعمال الكادحين؟

ما أتعس العمال والكادحيـــن وكل الناس على أيدي الشـــيوعيين الذي لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر!!»[1].

هذا هو الإلحاد وهذه ثماره التي يجنيها البشر منه، فهل من معتبر؟!.

وقد عـــرج الداعيـــة الكبير الشـــيخ **محمـــد الغزالي** على هذه المآســـي المذكورة، مبينًا أن شـــبه جزيرة القرم لم تكن وحيدة في هذه المعاناة بل كل

---

(١) المرجع السابق، ص ٢٥٥ ـ ٢٥٧.

المستعمرات الإسلامية لقيت هذا المصير، وواجهت هذا الشر، وتضمن كلامه أن بعض الهاربين من هذا الجحيم قدم بواسطة وكيل الأزهر في ذلك الوقت شكوى إلى سكرتير الأمم المتحدة من هذه المآسي البالغة، ولكنها لم تجد أذنًا صاغية، لأن المصيبة قد حلت بالمسلمين، والحرب التي تشن ضدهم هي غاية الجميع، وأدع بيان هذا للشيخ نفسه، فقد قال:

«والقرم نموذج لشتى المستعمرات الإسلامية التي تعرضت لمثل ذلك المصير الأشأم. وإذا كانت المساجد رمزًا للعبادة الإسلامية فقد تجاوز ما دمر منها عشرات الألوف، أما بقية ما يكوّن الشخصية الإسلامية فقد تلاشى أو هو في طريقه إلى الفناء..

وليس هذا حال المسلمين تحت الشيوعية الروسية وحدها، كلا، ففي كل دولة فيها الحكم على هذا النحو الكفور؛ تعرض الإسلام وأمته للذوبان والمحق وراء ستار حديدي من الصمت. إنه تنافر حقيقي بين نزعتين ووجهتين، وشرعتين!! ولم يكن عجبًا أن ينجو بنفسه من يستطيع النجاة من هذا الجحيم.

ومن عشرات السنين ونحن نرى مسلمين ممن استولى الشيوعيون على بلادهم يعيشون بين إخوانهم في القاهرة ودمشق وبغداد ومكة والمدينة.. كانت قلوبهم تبكي وألسنتهم تروي، وعنهم سجلنا ما سجلنا من حقائق.

وفي أحد الأيام اتفق الشيخ **محمد عبد اللطيف دراز** مع نفر من هؤلاء المهاجرين أن يبعثوا بشكاة موجزة إلى هيئة الأمم المتحدة كي تحقق فيها وتنصف ذويها. وكتبت الشكوى وأرسلت إلى **مستر تريجلفي** سكرتير الأمم المتحدة. وتلقى السياسي العالمي الشكوى ثم أرسل إلى الشيخ دراز هذا الرد:

(تلقينا شكواكم غير المؤرخة وأمرنا بتوزيع نصها على الأعضاء) لكن الهيئة التي أكلت عرب فلسطين مستعدة لأن تأكل مسلمي آسيا وإفريقيا جميعًا. إن مستر تريجفلي نفسه رجل صهيوني. والأعضاء الكبار في هيئة الأمم المتحدة هم دهاقين الاستعمار العالمي والصليبية الحاقدة. فأي خير يرتجيه المسلمون من هؤلاء؟.

وإلى القراء نص الشكوى التي أرسلها وكيل الجامع الأزهر السابق ورئيس جماعة الكفاح الإسلامي:

«نتشرف برفع هذه الشكوى إلى هيئتكم الموقرة، باسم الشعوب الإسلامية التي ترسف في أغلال الذل والعبودية تحت وطأة الحكم الشيوعي الذي امتدت سلطاته حتى شملت البلاد الواقعة بين جزيرة البلقان والمحيط الهادي.

ويقيم على هذه الرقعة أكثر من مائة مليون من المسلمين في أحوال وظروف تفوق في فظاعتها وقسوتها أظلم عصور التاريخ الغابرة.

حتى أنّ الأجيال المقبلة ستستحيي وتخجل من مدنيتنا الحديثة المعاصرة، ومن نظمنا السياسية والخلقية والفلسفية جميعًا، عندما تذكر هذه الظروف القاسية التي يعيش فيها مائة مليون من بني الإنسان، دون أن تتحرك الهيئات العالمية لنجدتهم. تلك الهيئات التي أسست لحماية الكرامة الإنسانية، ولضمان أبسط الحريات التي نؤمن وتؤمنون معنا بوجوب توفرها للناس أجمعين، من غير نظر إلى دينهم أو جنسهم أو لونهم أو لغتهم.

فإنّ هناك قاسمًا مشتركًا بين بني البشر جميعًا، وهو الإنسانية.. إننا نجأر بالشكوى لدى هيئتكم الموقرة ضد الحكم المفروض بقوة السلاح على هؤلاء الناس.. وهو نوع من الحكم يسعى إلى هدم كل ما بنته يد الإنسان منذ

آلاف السنين، ويحاول أن يدوس بأقدامه كل ما قدسته الإنسانية منذ القدم، ليخلق عالمًا جديدًا خاليًا من الاعتقاد بالله! لا عبادة فيه إلا للقوة الغاشمة والمادة الفانية..!!» اهـ[1].

وقد أرفق بهذه الشكوى المرة بيان لأنواع القمع وضروب الإهانة التي كانت تمارسها الشيوعية ضد المسلمين في هذه البلاد التي احتلتها، وأعداد الضحايا الهائلة مسجلة بتواريخها المعلومة[2].

ولا تسأل عن أساليبهم في تعذيب المسلمين، وإليك نموذجًا من ذلك، فقد ذكر الأستاذ حبنكة أن: «من جرائمهم الوحشية ما ذكره العميل الروسي الشيوعي الخائن لبلاده وأمته **برهان شهيدي** في بيان أذاعه صباح اليوم الأول من كانون الثاني عام ١٩٥٣م؛ جاء فيه ما يلي:

١ ـ تم إعدام أكثر من ١٣٠,٠٠٠ شخص من أعداء النظام الشيوعي.

٢ ـ عدد المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة ٢٦٨٠٠٠ منهم:

أ ـ ٤٥٠٠٠ لإنشاء الطرق الداخلية.

ب ـ ١٣٠٠٠ لإنشاء طرق تركستان إلى التيبت.

جـ ـ ٣٠٠٠٠ لإنشاء السكك الحديدية بين الصين وروسيا.

د ـ ٥٠٠٠٠ لإنشاء مدينة ذريّة وسط الصحراء.

هـ ـ ١٣٠٠٠٠ لحفر القنوات والبحث عن المعادن.

ومن جرائمهم الوحشية صور التعذيب وأفانينه العجيبة، فمن صور التعذيب التي حلت بمسلمي تركستان الشرقية على أيدي الشيوعيين الصور التالية:

---

(١) محمد الغزالي: **الإسلام في وجه الزحف الأحمر**، ص ١٣٧.

(٢) ينظر؛ الميداني: **الكيد الأحمر**، ص ٢٥٨ ـ ٢٦٣.

١ ـ دقّ مسامير طويلة في رأس المعذب حتى تصل مخه.

٢ ـ صب البترول على المعذب ثم إشعال النار فيه حتى يحترق.

٣ ـ جعل المسجون المعذب هدفًا لرصاص الجنود الذين يتمرنون على تسديد الأهداف.

٤ ـ حبس المعتقلين في سجون لا تدخل إليها الشمس، ولا ينفذ منها الهواء، وتجويعهم حتى الموت.

٥ ـ وضع خوذات معدنية على رأس المعذب، وإمرار تيار كهربائي فيها لاقتلاع العيون.

٦ ـ ربط رأس المعذب في طرف آلة ميكانيكية، وربط باقي الجسم في آلة أخرى، ثم تحريك كل من الآلتين في تباعد وتقارب شدًا وضغطًا على المعذب، حتى يعترف على نفسه وغيره، أو يموت.

٧ ـ كيّ كل عضو من الجسم بقطعة من الحديد المحمى إلى درجة الإحمرار.

٨ ـ صب زيت مغلي على الجسم.

٩ ـ دق مسامير حديدية أو إبر في أجسام المعذبين.

١٠ ـ إجلاس المعذبين جلسات خاصة فيها ألم شديد، إذ يستطيع فيها المشرفون على التعذيب الضرب على الأعضاء التناسلية.

١١ ـ إدخال شعر الخنزير في الإحليل (فتحة العضو التناسلي).

١٢ ـ إدخال قضيب من الحديد المحمى في مكان شديد الحساسية في الجسم.

١٣ ـ دق المسامير في رؤس الأصابع حتى تخرج من الجانب الآخر.

١٤ ـ ربط المسجون المعذب على سرير حديدي ربطًا محكمًا لا يستطيع معه التحرك، وذلك لعدة أيام قد يتفطر بها جسمه.

١٥ ـ إجبار المسجون المعذب على أن يمد جسمه عاريًا على قطعة من الثلج أيام الشتاء والبرد القارس.

١٦ ـ وضح لوح من الخشب فوق رقبة المعذب وكتفيه، ليظل منحنيا لا يستطيع حركة.

١٧ ـ نتف خصل من شعر الرأس بعنف يسبب اقتلاع جزء من جلد الرأس.

١٨ ـ تمشيط جسم المسجون المعذب بأمشاط حديدية حادة.

١٩ ـ صب المواد الكيماوية الكاوية في أنوف المسجونين المعذبين وفي أعينهم بعد ربطهم ربطًا محكمًا.

٢٠ ـ وضع صخرة ثقيلة على ظهر المسجون المعذب بعد ربط يديه وراء ظهره.

٢١ ـ ربط يدي المسجون وشدهما إلى أعلى، وتعليقه منهما حتى يكون متدليا في الهواء بثقل جسمه، وتركه كذلك ليلة كاملة أو أكثر.

٢٢ ـ ضرب المتهم بعصا بها مسامير حادة.

٢٣ ـ سجن المتهم في سجن انفرادي ضيق.

٢٤ ـ ضرب المعذب بالكرباج، وهو شيء يشبه أذناب البقر حتى يتفطر جسمه وتسيل الدماء منه.

٢٥ ـ تقطيع جسم المعذب إلى قطع صغرى بالسكاكين.

٢٦ ـ إحداث ثقب في مكان ما من الجسم، وإدخال حبل ذي عقد فيه، ثم استعمال هذه الحبل بعد يومين كمنشار لقطع أطراف الجلد المتآكل.

٢٧ ـ تثبيت المعذب واقفًا إلى جدار بمسامير تدق في أذنيه على الجدار، ليظل واقفًا معذبًا أطول مدة.

٢٨ ـ وضع المسجون المعذب في برميل مملوء بالماء في فصل الشتاء.

٢٩ ـ خياطة أصابع اليدين والقدمين ووصل بعضهما ببعض.

إلى غير ذلك من فنون تعذيب مستحدثة، لا تخطر على بال أخبث المجرمين وأقذرهم» اهـ[1].

هذا هو الإلحاد وهذه هي ثماره التي جنتها الإنسانية، فلا أعجب إلا ممن يتعاطف مع الإلحاد والملحدين! ويدفع في صدور المؤمنين عندما يردون على الملاحدة انتصارًا لدينهم وغيرة على حرمات ربهم ﷻ.

هذا؛ ولم يكن الأمر في البلاد العربية التي غزاها الإلحاد ووقعت تحت نير الإرهاب الشيوعي بأحسن حالًا، ففي الشطر الجنوبي من القطر اليمني العزيز كم قاسى هنالك الشعب المسلم الشقيق من الظلم والبطش وانتهاك الحرمات ما يفوت مدارك العقل، ويتعدى مسارح الخيال، وأترك المجال في هذا لابن اليمن كي يحدثنا عن معاناتهم من هذا الحكم الجهنّمي الذي رزئوا به برهة من الزمن، فقد نقلت مجلة المجتمع الكويتية الصادرة في (يوم الثلاثاء ١٣ شعبان من عام ١٣٩٨هـ الموافق ١٨ يوليو ١٩٧٨م العدد: ٤٠٤) عن ابن اليمن قوله:

«الشيوعيون اليمنيون ارتبطوا بالتبعية الكاملة للشيوعية التي يقودها الاتحاد السوفياتي، وساروا على الطريق التي سارت عليها الشيوعية في كل

---

(١) المرجع السابق، ٢٦٣ ـ ٢٦٦.

مكان، وكانوا أداة لأسيادهم في الخارج، وأذاقوا شعبهم الذل والهوان، وفتحوا له السجون والمعتقلات ومراكز التعذيب، وجلبوا لهم الجلادين من كوبا وروسيا وألمانيا الشرقية، ليتفننوا في قهر الشعب المسلم وتعذيبه، وليدبروا المؤامرات ضد الدول العربية الإسلامية المجاورة لهم، وليقوموا بحراسة أجرائهم الحاكمين في عدن، كما يقومون بإملاء التوجيهات والتعليمات واتخاذ القرارات.

واتخذوا أسلوب المخادعة ليوهموا العرب أنهم يريدون الوفاق والعلاقات الطيبة مع جيرانهم بغية أن يبتزوا أكبر قدر ممكن من المساعدات التي يقومون بها نظامهم، ويخففون العبء بها عن سادتهم، وذلك لانتظار الفرصة المواتية حتى ينقضوا على المنطقة كلها بمساعدة قوات الدول الشيوعية.

لدى كل مسئول في الحكم العدني مستشارون من الاتحاد السوفيتي وكوبا وألمانيا الشرقية، فلا يبتوا أمرا إلا بتعليم منهم.

دخلت عدن قوات شيوعية كوبية مسلحة وسفن عسكرية سوفياتية وطيارون سوفيات، وكوبيون، وضباط مخابرات من ألمانيا الشرقية متخصصون في التعذيب والإرهاب، وأمَّ عدن الإرهابيون الدوليون من أمكنة مختلفة في العالم، وحملوا جوازات سفر يمنية.

إن عناصر الجبهة القومية الشيوعية الحاكمة الآن سبق أن عرفت بعمالتها للمخابرات البريطانية أيام الاستعمار البريطاني، وكان كل نضالهم قائمًا على اغتيال الوطنيين المخلصين، والسطو على البنوك والمؤسسات التجارية، حتى سلمتهم بريطانيا الحكم نكاية بالعرب، والمنظمات الوطنية.

الحكام الشيوعيون الملاحدة في عدن أسسوا المدارس والمعاهد التي تنشر الإلحاد والكفر بالله، فتحت اسم (المدارس الاشتراكية) و(التوعية

الثقافية والإيديولوجية) يعلمون الأجيال أن لا إله وأن الحياة مادة، وينشئونها على الحقد والكراهية ضد الآخرين، لاعتبار أعدائهم الطبقيين، وأن كلمات الرحمة والأخلاق والمثل العليا ليست سوى ألفاظ رجعية لا مجال لها في الفكر الماركسي والاشتراكية العلمية التقدمية.

العدنيون اغتالوا المقدم الغشمي كبداية للزحف على اليمن الشمالي لإخضاعه لنظام الحكم الشيوعي والتبعية للروس، ثم الزحف على الخليج العربي والسعودية والمناطق العربية الأخرى»اهـ[1].

وما أشبه الليلة بالبارحة، فملاحدة اليوم لا يختلفون عن ملاحدة الأمس، فلو أن هؤلاء تسلطوا لكانوا أنكى وأخطر على أسرهم ومجتمعاتهم وأوطانهم، إذ لا يبقى في نفس الملحد ضمير يؤنبه ولا قلب ينبض بالرحمة أو يفيض بالحنان، وإنما الإلحاد مسخ لطبيعة الإنسان حتى يصبح أقسى من الوحش الضاري والسبع الفتاك، فلا يعنيه في حياته إلا المبالغة في القتل والإفراط في النكاية بالناس، واختراع أنواع العذاب التي ينزلها بهم، لا فرق في ذلك بين أن يكون ضحاياه من قرابته أو من الناس الأبعدين، وبهذا يفاخر ويباهي ويزدلف إلى الذين اتخذهم أربابًا من دون الله الذين هم قادة فكره، لأن نجاحه عندهم موقوف على ما يرتكبه من جرائم، وما يتصف به من وحشية.

وخبرتي بهذا كله لم تكن عن اطلاع على ما دُوِّن ونشر من الأنباء التي تحتمل الصدق والكذب، وإنما هي عن مشاهدات ومعرفة بحقائق رأتها عيني وسمعتها أذني ووعاها عقلي، فقد كنت بجزيرة زنجبار لما رزئت بالثورة التي قادها الشباب الشيوعيون الذين كان أغلبهم من العنصر العربي، وذلك في

---

(١) ينظر؛ مجلة المجتمع الكويتية، العدد ٤٠٤، الصادرة في ١٣ شعبان ١٣٩٨هـ ـ ١٨ يوليو ١٩٧٨م السنة التاسعة.

(٢٦ شعبان ١٣٨٣هـ ـ ١١ يناير ١٩٦٤م) فقد كانت مصيبة العرب الموجودين هنالك لا سيما العمانيين من أبنائهم الذين لم يحسنوا تربيتهم، ولم يتعهدوهم بدروس الإيمان أكثر من مصيبتهم من قبل الزنوج الذي غذوا بالعنصرية، وملئت صدورهم حقدًا وكراهية ضد العرب، فمن بين أولئك الثائرين شاب أبواه عمانيان أصلًا ومنبتًا، وينحدر من عشيرة عمانية معروفة، وقرابته موجودة بسلطنة عمان إلى اليوم (ولولا خشية إحراجهم لنصصت على اسمه ونسبه وعشيرته)، وقد كان أشد الثائرين حقدًا وسخيمة ضد أبناء جلدته، فكان يخرجهم جماعات ووحدانًا بالقهر من بيوتهم، ويأخذهم إلى بعض الميادين، فيصوب نحوهم رشاشه ويطلق النار عليهم بكل وحشية، من غير أن يكون من قبلهم ما يبعث هذا الحقد والبغضاء.

وقد كان من ضحاياه شابان كانا يدرسان بمصر، وقد رجعا في إجازة إلى جزيرة زنجبار ليلتقيا بأهلهما، وهما نجلان للشيخ سليمان بن سلطان الريامي، فما كان من ذلك الوحش الضاري إلا أن أخرجهما قسرًا من مسكنهما إلى حيث كان ينحر ضحاياه، فألحقهما بمن أودى بهم قبلهما، وقد حدثني شقيقه الأصغر أنه جاء إلى بيتهم فأخرج منه شقيقه الأكبر قسرًا، ولطمه لطمة عنيفة أمام أهله، ثم دعه بعنف في مركبته وسار به، وقال: بأن الجميع كانوا يظنون بأنه سيضحي به فيمن ضحى، ولكن لحسن حظه ذهب به إلى السجن، ودفعه هنالك إلى السجانين ليتولوا تعذيبه.

وهكذا كانت المبالغة في النكاية بالأهل والقرابة والعشيرة بالقتل والتعذيب ثمنًا يقدمه هؤلاء إلى ساداتهم رؤساء الإلحاد، ليرضوا عنهم ويدنوهم إليهم زلفى.

ويا ترى هل يتورع الذين يتقربون اليوم إلى كبار الملاحدة ـ بالسخرية من الدين، والاستخفاف بشعائر الله تعالى، ولمز المتدينين وتحقيرهم، والتكذيب

بثوابت الدين ـ عن شيء من هذا لو تمكنوا كما تمكن المجرمون الذين من قبلهم؟! كلا. وألف كلا. فإن مدرسة الإلحاد واحدة وإن تشعبت مناهجها، وتنوعت أساليبها، ﴿إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا۟ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ﴾ [الممتحنة: ٢]، وكفى شاهدًا بهذا ما يجري على ألسنتهم اليوم مما ينم عن حقدهم الدفين، وكراهتهم المتأصلة ضد الحق وأهله، ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ ۞ وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ [محمد: ٢٩ ـ ٣٠].

وليس ما يجري على ألسنتهم من تسفيههم الحقّ وتحقيرهم له ولأهله إلا غيظًا من فيض مما تكتظ به صدورهم حتى تكاد تتفجر من حقدها على من قال ربي الله ثم استقام.

على أن هؤلاء لو فكّروا في سلامتهم في الدنيا ـ فضلًا عن السلامة الأخروية ـ لسلكوا غير هذا المسلك، إذ الإلحاد ـ وإن أدنى بعضهم من بعض، وجعلهم يشد كل منهم أزر إخوانه وأوليائه من الملاحدة ـ فإنه لا يلبث أن يفرقهم كما جمعهم، وفيما ذكرته مما فعله بعض الشيوعيين ببعض عبرة لمن كان له قلب، ولكن قلوب هؤلاء عميت بما تراكم عليها من الضلال، وما توالى عليها من ظلمات الكفر والإلحاد، ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠].

وكم وقع في زماننا من انقلاب الملاحدة بعضهم على بعض، فالذين ذكرناهم من الملاحدة العرب الذين أطاحوا بالحكم العربي الإسلامي في زنجبار لم يكادوا يقطفون ما كانوا يتأملونه من ثمار مكرهم، حتى انقلب مكرهم عليهم فانقلب عليهم أولياؤهم، وزجوا بهم في السجون، وأذاقوهم مرارة الكأس التي كانوا يجرعونها الآخرين، ومثل ذلك ما كان في الشطر

الجنوبي من أرض اليمن، فقد تعاقب علـى حكمه طغام، كلما جاءت طغمة أبادت سـابقتها، وهذا أمر عايشناه بأنفسـنا، وكنا نراقبه من بعد، آخذين من ذلك العبرة.

وقد كان الملاحدة الشـيوعيون ينادون بتحرير الإنسانية من أغلال الذل والاستعباد، وبرفعهم هذا الشعار غرروا بكثير من الناس الذين كانوا يطمعون أن يتذوقوا طعم الحرية، وأن يعيشوا عيشة تعطى الإنسانية فيها حقها، ولكنهم لم يكادوا يصلون إلى السلطة حتى أبادوا ما بقي للناس في حياتهم من حرية وكرامة، فقد نصبوا أنفسهم آلهة لشعوبهم، ولكل من وقع تحت سلطتهم، فهم نفوا ألوهية الرب البر الرحيم، الذي أسـبغ على عبـاده نعمه ظاهرة وباطنة، وادّعوها لأنفسـهم، وأعطوا لها الحق في القضاء على كل من تصوروا أنه لم يقدّر ألوهيتهم قدرها، ولم يخضع لها الخضوع المطلق من العبودية الحقيرة للألوهية العظيمة، فكانوا يفرضون على الناس أن يبالغوا في التسبيح بحمدهم وتقديسهم، وعظيم الثناء عليهم حتى في توافه الأمور، ويا ويل من لم يحتط لنفسه بما يكيله لهم من الثناء العظيم الخالص، الذي يبلغ مبلغ الرضا منهم.

من ذلك ما جاء في ذكر جرائم **ماو تسي تونج** أن وزير خارجية باكستان أهدى إليه عربة من فاكهة المانجو (الأمبا) وهي غير معروفة في الصين، فوزع منها على حاشـيته ووزرائـه الذين كانـوا مخلصين له ويتفانـون في تعزيز سياسته، فانطلقت ألسنتهم جميعًا تكيل له من الثناء ما يفوق كل تصور، حتى أنهم قالوا بأنه ملك جاء من السماء لينشر خيره في الأرض، وذكرت صحيفة الشـعب الصينية التي كانت مدعومة منه بأن سـرورهم بما قسمه بينهم من الهدية فجر دموع الفرحة من مآقيهم، فتدفقت على خدودهم، ولكن يا للحظ السيء المشؤم الذي نكب به طبيب أسـنان، ما كان عارفًا بهذه الفاكهة، ولا كان مدركًا لما يراد بها، فعندما دخل بها داخل عليه قال: إنها تشـبه البطاطا،

وبسبب كلمته هذه أودع السجن فورًا، وما كاد يستقر به حتى نفذ فيه حكم الإعدام باعتبار أنه عدو للثورة..!.

ومما ذكره د. **هيثم طلعت** من جرائم السفاح الملحد **ماو تسي تونج** أنه «قام بتصفية أقرب المحيطين به من الملاحدة، فقد أخذ في قتلهم بلا هوادة، حتى اتهم النظام الملحد في الاتحاد السوفيتي حليفه القديم بمحاولة اغتياله.

فالاتحاد السوفيتي الملحد في تلك الفترة لم يسلم من جرائم **ماو تسي تونج** وصنف الاتحاد السوفيتي على أنه عدو للشعب الصيني الملحد، ووقع خلاف شديد بين الملحدين السوفيت والصين الملحدة، وكادت تحدث معركة نووية كبرى إلحادية بين **نيكيتا خروتشوف** (**Nikita Khrushchev**) رئيس الإتحاد السوفيتي **وماو تسي تونج**، وقد قال **ماو تسي تونج** لخروتشوف مستهزئًا بالحرب مع الاتحاد السوفيتي: (لا يهم أن تفقد الصين ٣٠٠ مليون في حرب نووية، المهم أن يصمد الباقون للنصر).

بل على الصعيد الشخصي لم تسلم زوجة **ماو تسي تونج** في معركته مع الملحدين، فقد حبس **ماوتسي تونج** زوجته مع ثلاثة من قادة الملحدين في الحكومة الصينية تمهيدًا لإعدامهم فيما يعرف بعصابة الأربعة (**Gang of Four**)، إلا أن الموت عاجله».

ثم قال: «يرى النقاد أنه لا فرق جوهريًا في طرق الإبادة الشمولية، ولو قتل المليوني بدواعي مادية إلحادية بين ماو تسي تونج والإتحاد السوفيتي وألمانيا النازية، فجميعهم كانت تحركهم رؤى إلحادية فجة ولو كان ملحدًا مثلهم.

يقول **ريتشادر فيكارت** (**Richard Weikart**): (لقد نجحت الداروينية أو تأويلاتها الطبيعية في قلب ميزان الأخلاق رأسًا على عقب، ووفرت الأساس

العلمي لهتلـــر وأتباعه لإقناع أنفســـهم ومن تعاون معهم بأن أبشـــع الجرائم العالمية كانت في الحقيقة فضيلة أخلاقية مشكورة).

فقد خلف الإلحـــاد وارءه فكرة أن زوال الجنس البشـــري في أي معركة قادمة هي فكرة قائمة، ولم يعد حتى للملحديـــن مكان في العالم الإلحادي، فالإلحاد يسمم الملحدين قبل أن يسمم غيرهم، وهذا هو الإفراز المتوقع من الإلحاد المادي منزوع القيمة والمعنى»[1].

ولا تسأل عن جرائم الســـفاح الملحد جيفارا الذي كان متعطشًا إلى دماء الناس أكثر من تعطش الظمآن فـــي النهار القايظ إلى المـــاء البارد، فما كان يروي ســـعاره إلا ســـفك الدماء كيف ما كانت، دماء صديقة أو عدوة، وأدع المجال لرسم صورة من جرائم هذا المجرم البشع للدكتور هيثم طلعت الذي يقول: «تشـــي جيفارا (١٩٢٨ ـ ١٩٦٧) (Che Guevara) أو الرفيق جيفارا ملحد أرجنتيني قائد حروب عصابات (guerrilla leader) أصبح اسمه وصورته شارة عالمية للتمرد في الثقافة الشعبية.

اقترنت شهرته الأساسية بدوره الفعّال في الثورة الكوبية مع فيدل كاسترو وبعد نجاح الثورة كان مســـئولًا عن تشـــكيل فرق الإعدام (firing squads) للنظام القديم.

اعتبر جيفارا أنّ ســـبب عناء العالم يكمن في الرأســـمالية والسياســـة الأمريكية التـــي تدعم التكتـــلات الإمبريالية ـ الاســـتعمارية ـ والانظمة القمعية عبر العالم، ومن أجل ذلك غالبًا ما تعود صورة جيفارا للظهور في أوساط الشـــباب مع أي مظاهـــرة ضـــد الإمبريالية الأمريكية في أي مكان في العالم.

---

(١) د. هيثم طلعت: الإلحاد يسمم كل شيء، ص٥١ ـ ٥٢.

وقد كان لنجاح الثورة الكوبية الأثر التفاؤلي الكبير على جيفارا، فحاول تصدير الثورة إلى الخارج، فذهب إلى الكونغو، لكنه فشـــل فشلًا ذريعًا، ثم اتجه إلى بوليفيا فكان أيضًا الفشل حليفًا له، وقامت القوات البوليفية بالقبض عليه وإعدامه.

الصفة اللصيقة بجيفارا طيلة حياته كانت هي العنف والقسوة، وربما يعود سبب قسوته إلى كراهيته الشديدة للأثرياء، وقد طاف جيفارا في مطلع شبابه بدراجته البخاريـــة في عمق قارة أمريكا الجنوبية، ورصـــد بعينه الفقر ومدى البؤس الـــذي يعاني منه الفلاحون وعمـــال المناجم، فعاد ناقمًـــا حانقًا على الأثرياء والرأسماليين.

وأحد صور البطش الذي مارســـه جيفارا يعترف به في مذكراته بنفســـه، فيقول إنه في أثناء الثورة الكوبية وحين كان يقود المتمردين اكتشف أن أحد الفلاحين قد أخبـــر الجيش الكوبي بالمـــكان الذي مروا منـــه، فقام جيفارا بالقبض على الفلاح، وكان يدعـــى إيتيمو غيـــرا (Eutimio Guerra) وعلم الفلاح أن الإعـــدام هو مصيره، فطلب من جيفارا القتل ســـريعًا (end his life quickly) وبالفعل قفز جيفارا للأمام ثم أخرج الطلقة النارية في رأس الفلاح، وكتب يقول: (لقد أنهيت المشكلة بطلقة من مسدس عيار ٣٢ مل في الجانب الأيمن من دماغه، وخرجت الطلقة من الفص الصدغي).

وقد اشتهر جيفارا بتشكيل فرق الإعدام السريع ومن بين ما قاله: (الإعدام رميًا بالرصاص ليس ضرورة للشعب الكوبي وإنما مطلب بشري).

وقد أعدم جيفارا المئات من الشـــعب الكوبي، ونظرًا لهذه القسوة وصفه جاكوبوما كوفر (Jacobo Machover) مؤلف معارضة في المنفى بأنه الجلاد الذي لا يرحم (ruthless executioner)، واعتبر كثيـــر من الكوبيين - ومنهم

أرماندو فاياداريس (Armando Valladares) الشاعر والناشط الحقوقي الكوبي ـ أن جيفارا هو رجل امتلأ كراهية (a man full of Hatred) فهو الرجل الذي أعدم العشرات دون محاكمة (who executed dozens without trial)، ويقرر الأديب والكاتب الكوبي كارلوس ألبرتو مونتانير (Carlos Alberto Montaner) أن جيفارا يمتلك عقلية روبسبير (Robespierre mentality) حيث القسوة تصبح فضيلة.

بل يرى ألفارو فارغاس لوسا (Alvaro Vargas Llosa) ـ الناشط والكاتب في شئون أمريكا اللاتينية الخارجية ـ أن أتباع جيفارا مخدوعون لأبعد حد، فهم يتعلقون بأسطورة وهميّة (delude themselves by clinging to a myth). فطبقًا له لم يكن جيفارا أكثر من آلة تقتل بدم بارد. ويلقب جيفارا في كثير من الأحياء الكوبية والكوبية الأمريكية باسم جزار لا كابانا (The Butcher of La Cabana)، وكان جيفارا سببًا مباشرًا في استمرار النزعة العسكرية الوحشية والصراع الداخلي في أمريكا اللاتينية لسنوات عديدة بسبب حالة التمرد التي بثها في الشعوب اللاتينية.

وعلى الرغم من كل ذلك، وعلى الرغم من كل ما سبق! ستظل صورة جيفارا تطبع على ما لا حصر له من التيشيرتات والقبعات والملصقات، وستظل تلك الصور مصدر ربح للشركات الرأسمالية التي حاربها بكل ما أوتي من قوة!.

وسيظل جيفارا الثوري الذي يحلم بإنهاء البؤس مقترنًا بجيفارا الدموي السفاح! فهو جيفارا واحد ولكنه يقتل الأثرياء ليطعم الفقراء، وحتمًا هو أخطأ في معادلته تلك بسبب إلحاده، وبسبب بعده عن الدين، فالدين يضبط المعادلة أفضل من الإلحاد حتى ولو كان هذا الدين وثنيًا، فأي دين يقرر أن الغاية تبرر الوسيلة؟! وأن قتل الثريّ ليس هو الحل الوحيد لإطعام الفقير،

لكن رؤية جيفارا الإلحادية الاختزالية القاصرة جعلت منه قنبلة موقوتة تنفجر بغرض الإصلاح فتفسد أكثر!.

ثم إنّ جيفارا يرى الإنسان مجرد كائن اقتصادي لا يعنيه إلا لقمة عيشه، وهذا تصور اختزالي إلى أقصى درجة، لكنه للأسف التصور الساذج الوحيد الذي يتيحه الإلحاد المادي الفج!.

فالإلحاد لن يستوعب الإنسان، فالإنسان ظاهرة متعددة الأبعاد، والفقير قد تكون كرامته أغلى من غناه، وقد تكون حريته الشخصية التي حرمه منها جيفارا ـ حين كان وزيرًا للصناعة ورئيسًا للبنك المركزي الكوبي ووزيرًا للمالية في نفس الوقت ـ أغلى من اللقمة التي أراد أن يسدّ رمقه بها، فليس بالخبز وحده يحيا الإنسان.

لكن للأسف هذه هي الرؤية الإلحادية التي أدخلت جيفارا وأدخلت الآلاف مثله من الشباب الرومانسيين الحالمين في حالة من الفوضى والقتل البارد، لتحقيق معادلة اعترف هو نفسه في آخر حياته بخطئها، خاصة بعد تجربته مع ثورة الكونغو. فقد تبيّن له أن شعب الكونغو يقبل بشيء من الفقر على حساب القتل البارد الذي كان يريد جيفارا أن يشعله في بلادهم، وخرج جيفارا هاربًا ومعلنًا فشل ثورة الكونغو بعد أن فقد ستة من رجاله الـ ١٢ الكوبيين، وقد اعترف صراحة أن **الشعب أفشل الثورة**»[1].

وهكذا كان يباد البشر من قبل طغام الشيوعية من غير أي سبب من الأسباب، إلا ما في نفوس أولئك المتسلطين على رقاب الناس من شهوة سفك الدماء، والتعطش إلى سفحها، هذه هي صورة مصغرة، ونموذج يسير

---

(١) المرجع السابق، ص٥٢ ـ ٥٦.

من الإلحاد الذي يدافع عنه أولياؤه، ويحرصون على أن لا يخدش بشيء، وأن لا تثار حوله زوبعة تزعجه.

وأنا أتساءل هل هؤلاء الذين يملأون الدنيا ضجيجًا ـ بسبب عقوبة طفيفة عوقب بها أحد الملحدين من أجل تطاوله على الله تعالى بالقول البذئ ـ هم آمنون على أنفسهم لو تسلط الملحدون على رقابهم أن يفعلوا بهم كما فعل أولئك الملحدون المتسلطون بأعز رفاقهم وأخلص أنصارهم؟ هبهم جمع بينهم جميعًا الإلحاد، وآخى بينهم الكفر، حتى توحّدت مشاعرهم كما تناغمت شعاراتهم التي يدعون فيها الحرية، ولو خرجت بصاحبها إلى الكفر والإلحاد؟ فإنّ الإلحاد لا يلبث أن يفكك كما جمع، وأن يبغض كما حَبَّبَ، وأن يقطّع كما وصل، كما تبيّن ذلك من سلوك الملحدين تجاه بعضهم، وكيف أنهم لم ينظروا إليهم نظر شفقة ولم تحركهم تجاههم مشاعر رحمة، وإنما عاملوهم بأقسى غلظة عاملوا بها خصومهم، فكيف يأمنون شرهم لو تسلطوا عليهم، أو أنهم تهون عليهم أرواحهم في سبيل تحقيق الإلحاد وتفشيه في الأرض، وغلبته على العقول والأفكار؟!.

على أن الإلحاد يغرس أول ما يغرس ـ فيما يقوم به من دعوة ـ التعطش إلى الدماء، وعشق التدمير والإبادة، حتى في نفوس أولئك الذين كانوا في غرة من أمرهم، بحيث لم يكونوا يدركون ما يدعون إليه، ولا يتصورون الطريق التي يسلكونها، وإنما يقادون فينقادون كالأعمى الذي يسلس قياده لقائده، ولو سلك به طرقًا وعرة مفروشة بأشواك القتاد، بل ولو كان يقوده إلى الجحيم، وهذا أمر قد خبرته عندما لفحت بلادنا العزيزة قبل نصف قرن عواصف حارة من الفكر الشيوعي الملتهب، فكم غرر برجال ما كانوا يدرون ما هي الشيوعية؟ وما هي مبادئها وأهدافها؟ ولكنهم قيدوا فانقادوا كما تقاد البهائم إلى الذبح، فتتبع جزاريها، وكان من بين هؤلاء رجل كهْل يؤم

المساجد، وهو يؤذن أحيانًا في مسجد حارته، وربما أمّ المصلين إن لم يجدوا إمامًا، ولكنه غرر به بدعوى تحرير بلاده من سلطات المستبدين، وتخليصها من نفوذ المستعمرين، فاستهواه ذلك، وقد جلست إليه أكثر من مرة لأثْنِيه بعض الشيء عن اندفاعه وراء من محضهم الطاعة والإخلاص، وإن كنت غير قادر أن أكاشفه بأن النهج الذي يسير عليه هو نهج شيوعي، لأن كل من صرح بذلك كانوا يثبتونه في القائمة السوداء، وينادون عليه بأنه من عملاء الإمبريالية العالمية، فلذلك كنت أخاطبه بترفق، وأتمناه أن يكتشف الخبايا التي خفيت عليه بنفسه، ولكن هيهات ذلك.

وقد وجدته مع محافظته على الصلاة لا يهذي إلا بالإعدام في كل من خالف النهج الذي يسيرون عليه، وكثيرًا ما يصرح بأسماء أشخاص بأعيانهم، من بينهم عدد من الفقهاء قائلًا: (أقل ما ينبغي أن يحكم به على هؤلاء إعدامهم..!) وما ذلك إلا لأنه برمج عقله على ثقافة الإعدام، فكانت نفسه تهفو إلى ذلك، وتعد هذا من الإنجازات الوطنية المهمة..!.

وبعدما دارت دورة الأيام، وانتكست مؤامراتهم، وحصحص الحق، رجع إليه وعيه، وقد أخبرني أحد الرجال ـ الذين أُثْبِتُوا عندهم في القائمة السوداء، وكانوا يتربصون بهم الأيام ليقضوا على حياتهم ـ أنه اجتمع به في مناسبة وسأله: ما رأيك الآن فيما لو نجحتم في حركتكم تلك؟.

فرد عليه: «إنني أحمد الله على فشل تلك الحركة وعدم نجاحها، فإنّ فشلها هو عين النجاح، ولو تحقق نجاحها لكانت فتنة لا يعلم مداها إلا الله، ولجرت في البلاد أنهار من الدم، ودارت علينا رحى الفتنة الطحون فسحقتنا فيمن تسحق من الناس».

ولهذا؛ كنت آنذاك أراقب بقلق شديد شبح الفتنة الشيوعية المرعب الموحش، وكان ـ مع الأسف ـ أغلب الناس في غفلة من ذلك، ولم أكن أجد

من المسئولين الكبار من أفضي إليه بما في قرارة نفسي إلا ناظر الشئون الداخلية، السيد **أحمد بن إبراهيم الداهية العملاق**، الذي حلب الدهر أَشْطُرَهُ[١] وامتطى منه صهوتي ذَلُولِه وجَمُوحِه[٢]، فكان في حاليه الفارس المجلي[٣] والمقدام المصدام، ومع الفارق الكبير في العمر بيني وبينه، إذ كان ما تقدمني به من العمر يناهز نصف قرن، فقد كنت آنذاك لم أصل الثلاثين من عمري وهو كان يناهز الثمانين، غير أنه رغم شيخوخته الناضجة وفتوتي الناشئة كان يستمع مني عندما أجلس إليه، بكل حواسه ومشاعره، ويشعر بما أشعر به من الخطر الداهم من قبل الإلحاد الشيوعي الكالح المكفهر، وكنت مما أفضيت به إليه أن الشيوعية لا تقاوم إلا بيدين، يد من ذهب ويد من حديد، وقد استحسن هذه النظرة، ونقل ما قلته إلى مسامع شيخنا العلامة **إبراهيم بن سعيد العبري** في أمسية جمعتنا جميعًا، ولكنه أبدى أسفه على أن الأيام لا تسمح بذلك، لأنه لم يكن قادرًا على إقناع ولي الأمر بهذا، وقال: «من أين لنا باليد الذهبية وصاحبنا لا يعترف بجدوى غير اليد الحديدية؟!».

ولكنه رغم ذلك فإنه في الأيام الأخيرة ـ قبل حدوث التغيير ـ كان كأنما يستروح نسائم الفتح، ويتطلع إلى مستقبل واعد، وهذا كثيرًا ما كان يتردد في كلامه.

ولم يزل ذلك الشبح البغيض يقلق نهارنا ويؤرق ليلنا بنذره المشئومة؛ فقد بدأت عواصفه الحمراء تلفح وطننا العزيز من الجهة الجنوبية، وما لبث أن بدأ لهيبه يظهر علنا في شمال عمان بعد أن كان يسري في الخفاء، ففي

---

(١) أي: نال خيره وشره، ينظر؛ المصري، ابن منظور؛ محمد بن مكرم الإفريقي: **لسان العرب**، مادة (حضر)، ١٤٩/٤، دار صادر ـ بيروت، ط١: ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م.

(٢) أي: ركب منه سهولته وصعوبته.

(٣) أي: السابق في ميدان التسابق.

ليلة ٧ ربيع الثاني ١٣٩٠هـ ١١ يونيو ١٩٧٠م هاجمت فرقة من الشيوعيين المركز العسكري بإزكي، وقصفته بالمدفع المحمول ثم انسحبت إلى أطراف ولاية إزكي، وخرجت على أثرهم كتيبة من العسكريين، ولما التقى الجانبان تبادلا إطلاق النار بعنف، وقتل جماعة من المهاجمين من بينهم قائد الفرقة الذي أبدى مقاومة شرسة وشجاعة فائقة في الدفاع، ولكنه هلك مع الهالكين.

ومن المفارقات العجيبة أن ورثة أحد الشباب ـ الذين غرر بهم، فكانوا ضحايا هذه الهجمة ـ أطلعوني على وصيته التي أعدها قبل مقتله ببضعة أيام، وهذا لا يدل إلا على أن الرجل كان على بقية من الإيمان، ولم يكن عارفًا بالشيوعية وأهدافها السيئة، وإلا فكيف يستعد للقاء الله بوصية شرعية، ولكن الجهل بغوامض الأمور هو الذي أوقع الناس في هذه المصايد، وهو راجع إلى الانغلاق وعدم انتشار العلم في البلاد في ذلك الوقت.

هذا؛ وقد كان المهاجمون وأشياعهم في نفس الليلة بثوا منشوراتهم التي تتحدث عن ثورتهم، وتتوعد كل من لم يكن على نهجهم، فعمت المدن والمؤسسات حتى وجدها بعض الضباط العسكريين في أدراجهم..! وأخذوا بعد هزيمتهم في جمع فلولهم ولملمة شتاتهم؛ من أجل أن يشنوا غارتهم على جهة لم يفصحوا عنها، وقد نما إلينا أنهم يريدون إثارة الرعب في مسقط ومطرح بنسف محطة الكهرباء التي كانت تمد المدينتين بالطاقة، وهي بينهما في منطقة ريام، فنقلت هذا الخبر إلى من يعنيه الأمر، وأُخِذ مأخذ الجد، فطوقت المحطة فورًا بالجنود المدججين بالسلاح.

وظل ذلك الشبح يلاحقنا بالوساوس والرعب؛ حتى أطل علينا الأمل السعيد بنهضة عاهل عمان الكبير، وطودها الأشم، السلطان قابوس بن سعيد، الذي تولى مقاليد الأمر في يوم الجمعة ١٩ جمادى الأولى ١٣٩٠هـ ـ ٢٣ يوليو ١٩٧٠م، وبعد أيام قليلة أتى إلى مسقط ليضفي على شمال عمان

فرحة توليه زمام الأمر، وكنت إبـان هذا الحدث في أفياء سـمائل الفيحاء الظليلة لقضاء أيام الصيف، فدعيت للمشـاركة في اسـتقباله من قبل السيد ناظر الشئون الداخلية.

واحتشـد جمهور كبير لاسـتقبال قائد عمان الجديد الشاب الطموح في مطار الفلج، وعمت البهجة الجميع، كما شملهم التفاؤل بمستقبل باهر مزدهر بنهضة مباركـة تعيد إلى عمان مجدها التليد، وتلبسـها لبوس العز والفخار، وتدفع بها إلى مصاف الدول المتقدمة في شتى المجالات، وكان جلالته في أول خطاب وجهه إلى شـعبه آذنهم فيه برفع القيود غير اللازمة التي كبل بها هذا الشعب، فتنسم الشعب العماني نسائم الحرية من هذا الوعد العزيز.

ولكن لما كان السواد الأعظم من العمانيين غارقًا في جهل عميق ـ بحيث لم يكن يفرق بين التمرة والجمرة، ولا يميز بين الدرة والبعرة، وذلك من آثار تلك الحقبة الكادحة المكفهرة، التي تقضت سـنوها مسـنتة عجافًا ـ أساؤا اسـتغلال ذلك، فظنوا أن هذه الحرية التي أعطوها تعنـي تحررهم من قيود الدين والأخـلاق، وتجردهم مـن الآداب التي كانوا يتحلون بها، فسـرعان ما اندفعوا إلى معاطاة الدخان بشـكل لافـت للنظر بعد مـا كان ذلك أمرًا محجورًا، حتى على الوافد غير المسلم، وهذا ما جعل هيئة الإذاعة البريطانية تُعَرِّج على هذه الظاهرة في سياق أخبارها عن وصول عاهل البلاد إلى عاصمة سلطنته، لأنها ظاهرة تشد الانتباه.

وقد ظن هؤلاء الجهلة أنهم باندفاعهم هذا يواكبون التطور، ويخلعون عن أنفسهم سرابيل التخلف الشوهاء، مفكرين أنّ ما كانوا عليه ما هو إلا من آثار الرجعية والتخلف والانحطاط، فأرادوا مسـابقة الشعوب الحضارية المتقدمة بمشـاركتها في تعاطي الدخـان، مع أنّ التقـزز من تعاطيه عنـد العمانيين ـ بجانب كونه تربية دينية وسلوكًا تربويًا ـ هو إرث حضاري وثقافي، ومظهر

أخلاقي، ولذلك كان المبتلى من بينهم بهذه العادة السيئة يتوارى عن الناس في حين ممارستها استحياء وخجلًا، ولكنهم لم يكادوا يستنشقون نسائم الحرية حتى صار المتخفي بها يباهي بالمجاهرة بها، ومن لم يكن متلبسًا بها من قبل اندفع إليها بدون روية، لئلا يتخلف عن الركب الحضاري، وليأخذ نصيبه من التمتع بالحرية إلا من رحم الله..!.

وقد فات هؤلاء الأغبياء أن ما كانوا عليه إنما هو قمة الحضارة، ومنتهى التقدم في السلوك الإنساني، فكم يجر التدخين على المدخنين وأسرهم وذويهم وشعوبهم من مصائب وبلاوى فكم يسبب من أمراض كلها أو جلها تؤدي إلى الوفاة، حتى تعالت صيحات الأطباء محذرة من خطر هذا العدو المحبب إلى النفوس، ومنذرة بأسوأ العواقب التي تعود على المدخن وأسرته وبيئته مما يوزعه من سموم الدخان الذي ينفخه فوه كما يخرج من فوهة مصنع، فكم يشيع إلى المقابر في العالم من ملايين البشر في كل عام ما كانوا إلا ضحايا هذه العادة السيئة.

وقد أخذت أولئك المفتونين بهذه العادة أريحية بالغة بهذه الحرية التي تخيلوها، فكانوا يتعمدون نفث دخانهم المسموم في وجوه الذين يكرهون التدخين[1]، وقد آلمني هذا وكدر علي صفو الفرحة الكبرى التي ملأت قلبي

---

(١) إنّ من فضل الله تعالى على عمان وأهلها أنه لم يطل أمد اغترارهم بأن التدخين مظهر حضاري وعادة حسنة، إذ أدركوا على الفور خطورته وعواقبه، ومنافاته للدين والأخلاق، فتراجعوا عنه بسرعة حتى أصبح الشعب العماني يعد أقل الشعوب العربية تدخينًا، لا سيما الإباضية منهم، وذلك يعود إلى إجماع علمائهم في المشرق والمغرب على حرمة تعاطي التبغ سعوطًا أو مضغًا أو تدخينًا منذ بداية ظهوره بلا خلاف بينهم، واستهجانهم هذه العادة ونبذهم لمن يقع فيها، حتى أنّ أهالي وادي ميزاب بالجمهورية الجزائرية يعلنون البراءة في المساجد ممن يتعاطى الدخان، ويقاطع حتى من قبل أهل بيته وأقرب قرابته، ولهذا أصبح التدخين شاذًا نادرًا بين الشباب الإباضي العماني، والحمد لله.

وهزت مشـــاعري، فعدت من المطار إلى مدينة مطرح وأنا أجمع بين السرور البالغ بوصول قائد النهضة إلى عاصمة بلاده ســـالمًا منصورًا، محفوفًا برعاية الله، وبما تحقق من تحول الوضع السياسي بهدوء، من غير فوضى ثورية كما كنا نخشى ونحذر، وبين الاســـتياء من حال الناس الذين أساؤا استغلال هذه المناسبة، وبينما كنت على هذه الحالة يتجاذبني السرور والحزن، ويتقاسمني التفاؤل والتشاؤم، إذا بسمعي يشنفه صوت النداء إلى صلاة المغرب يصدح به مؤذن مسجد الشجيعية في وســـط مدينة مطرح، فما كاد ذلك النداء الروحي يصل إلى مسامعي حتى تفاعلت معه مشـــاعري الباطنة، فأحسست بالسكينة تغمر قلبي، وبالطمأنينة تملأ جوانبي، فانسجم ظاهري مع باطني، إذ تجاوبت مع هذا الشـــعور عبرات مقلتي معبرة عن إحســـاس لا يقـــاوم، يفوق جميع تصورات النفس وتخيلاتها.

فقد اســـتل ذلك الصوت العذب المؤنس كل ما في نفسي من الشعور بالكدر مما شاهدته من كثير من العوام الذين لم يقدروا هذه النعمة قدرها، ولم يوفوا هذه المناســـبة حقها، إذ تفاعلت في نفسي هواجس الخوف من الشـــيوعية البغيضة؛ التي كان يطاردنا شـــبحها الأســـود الكريه، ومشـــاعر الابتهاج بهذا اليوم الزاهر؛ الذي نتطلع إلى ما بعده من خير كبير، فانطلقت لساني حامدة وشـــاكرة لله تعالى وقلت في نفسي: «الحمد لله الذي أبقى لنا هذا النـــداء إلى أقدس عبادة، فليت شـــعري؛ هل كان ســـيبقى لنـــا لو أنّ الشـــيوعيين هم الذين قاموا بتغيير الحال في البلاد؟ ويا ترى أين سنكون اليوم لو أنهم وصلوا إلى مبتغاهم؟».

= ولا ننسى ما كان لليقظة العالمية وإدراك الناس جميعًا مخاطر التدخين من دور إيجابي في ذلك، حيث اشتركت وزارات الصحة ومنظمات الصحة العالمية في التحذير من مغبة التدخين وسوء عاقبته.

وقد تصدى عاهل البلاد الجديد للشـــيوعية بحزم وعزم، وخبرة ودراية وهمّة لا يدرك مداها، فسخّر لمقاومتها كلتا اليدين اللتين كنا نحلم بهما من أجل دفع شـــرها، فلوح أولًا باليد الذهبية التي عمّ نوالها سحًا مدرارًا، وكان أول ما بدأ به دعوة جميع المتمردين إلى العودة والمشـــاركة في بناء الوطن من أجل مســـتقبل زاهر، ونهضة تعيد إلى وطننا العزيز ما كان مدفونًا تحت الأنقاض من أمجاد غالية عزيزة، فاستجاب له من كانت فيه بقية من روية أو أثارة من رأي، فوجدوا كل ترحاب وحفاوة وتكريم، وتصامم عن هذا النداء الذين اســـتبد بهم الصلف فامتلأت نفوســـهم غرورًا، بل واجهوه بالسخرية والاســـتخفاف والاعلان عن مضيهم قدمًـــا من أجل الوصـــول إلى غاياتهم التعيســـة، وهنا شـــمر عن اليد الحديدية، فلطمهم بها لطمة هشمت أنوفهم، وشدخت يافوخهم، فأوجفت قلوبهم، وأرجفت أركانهم، فخروا صرعى على الأرض، وتمرغت وجوههم في أوحالها، وغاصت أنوفهم في رغامها، وهنا أدركوا أن الأمر جدّ وأنهم سيواجهون خطبًا جللًا، فتراجع منهم من تراجع، وأصر من أصر، أولئك الذين لم يكونوا يلوون قط على نداء عقل أو ضمير، ولا يصغون إلى وعظ واعظ أو نصح ناصح، فاستظهروا بأوليائهم، فأمدوهم بكل مدد مادي أو معنـــوي، إذ وقفت وراءهم القوى الشـــيوعية ـ من بكين شـــرقًا إلى هافانـــا غربًا ـ تمدهـــم بالعدّة والعتـــاد، كما تمدهـــم بالخبرات العسكرية والتوجيهات المعنوية، ولكن بحمد الله اندحرت كتلة الشر وعصبة الشـــيطان بعد معركة حامية الوطيس استمرت خمس ســـنوات، كابدت فيها عمان ما كابدته في سبيل دينها وحريتها واستقلالها، وجنت ثمرة ذلك نصرًا عزيزًا وفتحًا مبينًا.

وكانت هي الدولة الأولى التي تصدت للشـــيوعية وهزمتها، فكان ذلك شرفًا عظيمًا قلده الله تعالى هذا القطر المسلم العزيز، كما شرفه من قبل بشرف

هزيمة الحملة الصليبية الحاقدة المسعورة، التي كانت تقودها دولة البرتغال، وقد اكتسحت سواحل بلاد الشرق، ما بين شرقي آسيا وإفريقيا وبلاد الخليج، فيسّر الله سبحانه هزيمتها على أيدي العمانيين، الذين لم يكتفوا بسحقها في أرض عمان، وإنما أخذوا يلاحقون فلولها في السواحل الإفريقية الشرقية وبعض بلاد آسيا، وهو فضل من الله سبحانه، يجب على الشعب العماني المسلم أن يقدره حق قدره ويؤدي ضريبة شكره، ويظل دائمًا شامخ الأنف مرفوع الهامة لا يطأطئ رأسه إلا للحق، ولا يحني ظهره إلا للإيمان، وأن تظل عمان دائمًا نصيرة لكل حق وعونًا لكل مظلوم.

وما يدرينا إلى أي مدى ستمتد طلائع الانتصار لو لم ينشب الخلاف الحاد بين أسرة الإمام المجاهد سلطان بن سيف بن مالك اليعربي، حتى وري بينهم الشقاق، فكان له أثره السلبي على مواصلة الجهاد ضدّ الحملة الصليبية البرتغالية، ثم كان ذلك الشقاق المشئوم بعد موت الإمام سلطان بن سيف الثاني الذي أعاد البلاد إلى الخلف مراحل كثيرة، فلعله لولا ذلك لأمكن للمجاهدين العمانيين أن يوالوا حملات الجهاد ضد العدو الغازي، إلى أن يوصلوه إلى عقر داره، ويتمكنوا ـ بعون الله ثم بتكاتف إخوانهم المسلمين معهم ـ أن يحرروا من ربقة الاحتلال بلاد الإسلام التي اكتسحها هؤلاء الصليبيون من قبل، وكانت قبل احتلالهم لها مهدًا للحضارة الإسلامية الإنسانية، التي تألق نورها فيها فاقتبست منه أوربا قبسًا تنورت به بعد الإظلام، من أمثال قرطبة وغرناطة وإشبيلية وغيرها من حواضر بلاد الأندلس العزيزة، ولكن لله في خلقه شئون، ولا تجري الأمور إلا وفق الأقدار.

وجاء على أثر هزيمة الشيوعية في سلطنة عمان دور الجهاد الأفغاني الذي لم يقتصر على هزيمة الشيوعية في بلاد الأفغان وحدها، وإنما سدد في وجهها ضربة شدخت يافوخها، فرجعت على أعقابها تترنح ذات اليمين وذات

الشمال، حتى انتهت إلى مركزها، فانهارت صريعة في الأرض، وما لبثت أن لفظت أنفاسها، ثم توالت أفراخها تتهاوى معها في كل مكان تتجرع كأس الموت الزؤام، وأخذت جثتها النتنة العفنة تتهرى، فدفنت في مزبلة الأفكار، وأصبحت عارًا ونقيصة على أهلها في مدار التاريخ.

وكم كنت أود من الشعب الأفغاني المسلم الشقيق ـ الذي آتاه الله تعالى هذا الخير العظيم، وساق إليه هذا النصر العزيز والفتح المبين ـ أن لا يضيع المكاسب العظمى التي أحرزها ـ بجهاده الميمون المبارك ـ بالنزاع والشقاق بين فئاته، وأن لا يلووا على نداء الشيطان وحزبه، الذين يريدون أن يكونوا شيعًا وأحزابًا يذوق بعضهم بأس بعض، فكم تمنيت كما تمنى سائر إخواني المؤمنين أن يجتمعوا على كلمة سواء تؤلف القلوب، وتستل منها السخائم والأحقاد، وتجمع شتاتهم على ما يحبه الله تعالى ويرضاه، وأن يأتلفوا على قائد مخلص ماهر محنك، يقيم فيهم كتاب الله وسنة نبيه ﷺ، ويحيي شرعه ويبسط عدله، لا تأخذه في الله لومة لائم، ولا يلوي إلا على رضاه.

فما لهم وللشقاق وللنزاع بعد أن أراهم الله تعالى آيته الكبرى في ذلك النصر الذي دحر أشرس عدو بيده كل وسائل الإبادة والدمار، فرجع على أعقابه خاسئًا ذليلًا يجر أذيال الخيبة والعار، وقد أمكنهم الله ﷻ من زلزلة أركانه، وزعزعة بنيانه حتى هوت أنقاضه على الأرض؟!.

أبعد هذا كله يصغون إلى نداء ماكر خبيث يسعى إلى إضعافهم بعد القوة، وتشتيتهم بعد الاجتماع، وضعضعتهم بعد الشموخ والإباء، ألم يحذرهم الله تعالى من الإصغاء والالتفات إلى أولئك الأشرار، كما في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤٩].

وبين أيديهم فرصة للوفاق والائتلاف فليهتبلوها ولا يفوتوها، فمن العار عليهم أن يكون منهم امتداد ذراع لنصرة العدو الدخيل بعد أن كانت سواعدهم هي التي حملت السلاح لمواجهة ذلك العدو المجرم الملحد، فما أجدرهم أن يستجيبوا لداعي الحق وصوت العقل، وأن لا يبلبل أفكارهم ضجيج العواطف الرعناء، فما كان ينبغي لرجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ـ وسطّروا بمداد من نور على صفحات التأريخ أبهى وأصدق آيات الجهاد ـ أن يقوموا إلى ما سطروه فيمحوه بأكفهم، بشقاقهم وتدافعهم فيما بين أنفسهم، حتى يتمكن عدوهم من عرينهم فيدوس حماهم، وفيما قاله شاعر الإسلام الناصح الأمين عبرة وموعظة لهم حيث قال:

ذروا الضغائن تذروها الرياح فما ... تبقى على خالص الإيمان أضغان
إن الحظوظ التي ترجى بألفتكم ... في الدين في محكم التنزيل فرقان
وما شفاء حزازات الصدور سوى ... أن يستبد بطب القلب إيمان

....

لا تشعلوا الحرب إلا في مواقدها ... حيث الجهاد على الباغين موتان[1]

وأعود مرة أخرى إلى عمان الغالية العزيزة ـ التي كساها الله تعالى تلك المنقبة الفاخرة في تأريخها الغابر ومجدها الحاضر ـ فأذكرها بأنّ عليها أن تقدّر هذه النعمة حق قدرها، وأن لا تقابلها إلا بما تستحق من حمد الله تعالى وشكره، والقيام بواجب دينه وتطبيق شرعه، وعدم الاحتكام إلا إليه، فإنّ الله تعالى وحده له الحكم في عباده، ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٤٠].

---

(١) البهلاني: الآثار الشعرية لأبي مسلم، الفتح والرضوان في السيف والإيمان، ص ٥٤٣.

وأن تحرص دائمًا على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومحاربة سفاسف الأمور واعتناق معاليها، فإنّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في مقدمة أسباب النصر والتمكين، ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ۝ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ [الحج: ٤٠ ـ ٤١].

وأن تسعى دائمًا إلى جمع شتات الأمة على ما يحبه الله تعالى ويرضاه، وإلى الوقوف في وجه كل عدو لها يتربص بها الدوائر ويريد إذلالها، وأن لا ترضى إلا باسترداد الأمة جميع حقوقها السليبة، وتحرير جميع أراضيها المحتلة ـ لا سيما مهد الأنبياء؛ الأرض التي باركها الله، وبارك ما حولها، واختارها لأن تكون مسرى لخاتم أنبيائه وطغراء رسله ﷺ ـ وأن لا تساوم على شيء من ذلك قط، وأن لا تعطي الدنية ولا ترضاها ممن سواها، فإنّ هذه هي رسالتها في الحياة ومسئوليتها في التاريخ، وأمانتها التي يجب أن ترعاها في الحاضر كما رعتها في الغابر، وأن تقف من جديد في وجه الإلحاد الذي أخذت بوادره تلوح في الأفق، ويسعى إلى أن يرزأ الأمة عقيدتها ومقوماتها كما وقفت من قبل في وجه الشيوعية الملحدة.

فإنّ هذه هي سمة عمان ومفخرتها، فما أصدق من وصفها بقوله:

سقى الله أرضًا تنبت القسط سوحها ... وبين رباها العلم والحق راتع
ربوع بحمد الله نور «محمد» ... عليها بنور الله أبلج ساطع
وحيّت يمين الله بالروح والرضا ... رجالًا لهم تلك العراص مرابع
رجال سعوا لله سعيًا مباركًا ... فما قطعتهم عن رضاه القواطع
أنابوا إلى الله اتباع سبيله ... فما صدعتهم في السبيل الصوادع
وقاموا بمفروض القيام عليهم ... فما عز جبار ولا ذل ضارع

فمـا جمعـوا مـا فـرق الله جمعه ... ولا فرقـوا في الدين مـا الله جامع
ولا شـرفوا إلا بخالصـة التقـى ... حظوظهـم منها البحـور الجوامع
بهم يقتدى في العلم والهدي والهدى ... وعن خلقهم تروي النجوم السواطع
عليهم وقار الرسـل أرسـت جباله ... وهـم لكمـالات النفـوس مطالع

إلى أن قال:

أولئـك أهـل الله رحمـة أرضـه ... بهم تمطر الأرض السحاب الهوامع
أولئـك أوتـاد الوجـود وغوثـه ... وأحوالهـم فـي الاعتبار شـوافع
أولئـك أهل الحق مـا ضل مقتف ... هداهم ولا يغـوى عليهـم متابع
أولئك أهل الفهم مـا جار فهمهم ... عن الله مـا يقضي وما هو شـارع
أولئـك أهل الخيـر أمـا حياتهم ... فغنـم وأمـا ذكرهـم فذرايـع
أولئك أهل الفضـل حتى ولو فنوا ... لهـم بـركات فـي الدنـا ومنافع
أولئك أشـياخي فجئنـي بمثلهم ... إذا جمعتنـا يـا جريـر المجامـع
ولسـت بجاء في الوجـود بمثلهم ... وللقـوم شـأن في الولاية شاسـع
وللقوم إرث صادق مـن «محمد» ... لكل هدى للرسـل لا شك جامع
وماذا عسـى أن يبلغ الحمد فيهم ... وهـم لضيـاء المرسـلين مطالع
نعم إن نور الرسل في قلب ختمهم ... وفي القوم نور الختم أبلج ساطع[1]

وقال أيضًا:

لعمري لنعم المعهـد المهتدى به ... وقـد مـلأ الدنيـا ظـلام وظالم
هو المعهـد الميمـون أرضا وأمة ... وان زمجـرت للجور حينـا زمازم

---

(١) المرجع السابق، أفيقوا بني القرآن، ص ٦٧٥ ـ ٦٧٧.

هو المعهد الممطور بالرحمة التي ... سقت من إمام المرسلين المراحم
سيكثر ورادًا على الحوض أهله ... إذا جاء يوم الحشر والكل هائم
لقد صدّقوا المختار من غير رؤية ... وتكذيب جلّ الشاهدين مقاوم[1]

الإلحاد غايته واحدة وإن تعددت شعاراته:

بعد هذا الاستطراد الطويل الذي أملته ذكريات الماضي وشجون الحاضر، أعود إلى درء ما عسى أن يقال أو يتصور من الفرق بين الإلحاد الشيوعي والإلحاد الناجم الآن، فقد يتصور من لا يدرس الأمر من أعماقه بأن ما ذكرته من ذلك التصرف الأرعن الأهوج ليس هو من نتاج الإلحاد، وإنما هو أثر للنظام الشيوعي الذي لا يقوم إلا على سفك الدماء، وعدم الاعتداد بقيمة الإنسان، حتى أنه عندهم يساوى بالآلات الصمّ، التي تباد بعد استهلاكها واستنزاف منافعها.

ذلك أن الواقع يشهد بأن الإلحاد هو الإلحاد سواء ارتدى جلابيب الشيوعية أو غيرها، إذ لا تبقى في الملحد رحمة بالإنسانية أو رفق بشيء، فأنت تعلم كيف كان تصرف الطاغية أتاتورك عندما نجح في القضاء على الدولة العثمانية، وكيف سلب الناس حرياتهم مع أنه لم يرفع شعار الإلحاد علانية، وإنما واراه تحت غطاء العلمانية أو القومية الطورانية، ولكنه لم يكد يمسك بزمام الأمر حتى كشر عن أنيابه العصل للقضاء على كل ما له صلة بالإسلام، وبلغت به عداوته للدين وأهله أن حرّم اللغة العربية على الإطلاق التي هي لغة القرآن، ولسان النبي عليه أفضل الصلاة والسلام، ووعاء التراث الإسلامي العظيم، وشدّد في كل مظهر من مظاهر الإسلام، واستمر أثره المشئوم بعده في بلاد تركيا الإسلامية العزيزة ردحًا من الزمن، حتى أنه قبل

(١) المرجع السابق، وطني، ص ٦٥٥ ـ ٦٥٦.

ما لا يزيد على عقد من السنين من الآن حوكمت نائبة في البرلمان التركي بسبب تغطيتها للرأس وطردت من البرلمان، وقوضيت مُدَرِّسَةٌ في مدرسة إعدادية بسبب القضية نفسها، وفرض عليها نزع الغطاء، ولكن مع ذلك كله أبى الله إلا أن يشرق على تركيا نور الإسلام من جديد، ويهفو شبابها وفتياتها إلى تعاليم الإسلام وتطبيقها بكل اعتزاز، وهذا مما يجعل قلوب أعداء الإسلام في كل مكان تزداد غليانًا وغيظًا: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠].

وقد جاء شرح بعض ما عاناه المسلمون الأتراك بعد تسلم الملاحدة الحكم في تركيا في الرسالة المعنونة **بالعالم يتصفح رسائل النور** ويراد بها الرسائل التي كتبها **بديع الزمان سعيد النورسي**، عندما وجد الناس يوجهون بقوة إلى التخلي عن الإسلام، فكتب رسائله سرًا، وكانت تتناقل بالأقلام في منتهى السرية، لأن السلطة كانت في منتهى الشدة والعنف ضد الإسلام ومن تمسك به، وكانت تخشى كل صوت ينبعث من حناجر المؤمنين داعيًا إلى الإسلام أو مشيدًا به، وقد جاء في الرسالة المذكورة ما نصه: «منع تدريس الدين في المدارس كافة، وبدلت الأرقام والحروف العربية في الكتابة إلى الحروف اللاتينية، وحرم الأذان الشرعي، وإقامة الصلاة باللغة العربية، وجرت محاولات إحلال ترجمة القرآن الكريم في العبادات، ومنع القيام بأي نشاط أو فعاليّة في صالح الإسلام، إذ حظر طبع الكتب الإسلامية، وأرغم الناس على تغيير الزي إلى الزي الأوروبي، فالرجال أرغموا على لبس القبعة والنساء على السفور والتكشف.

وشكلت محاكم زرعت الخوف والإرهاب في طول البلاد وعرضها، ونصبت المشانق لعلماء أجلاء، ولكل من تحدثه نفسه بالاعتراض على السلطة الحاكمة، فساد جو من الذعر والرعب والإرهاب في أرجاء البلاد

حتى أصبح الناس يخفون القرآن الكريم عن أنظار موظفي الدولة، ونشطت الصحافة في نشر الابتذال في الأخلاق والاستهزاء بالدين، فانتشرت كتب الإلحاد»[١].

وقد أقلق الإلحاد وحزبه انتشار رسائل النور التي أعدّها بديع الزمان النورسي، رغم أن نشرها كان بطريقة سرية جدًا، وما كانت ثم وسائل لنشرها إلا كتابتها باليد، وقد تكتب بقلم الرصاص، ومع تضييق الخناق والتشديد البالغ كتب الله لها البقاء، ولكن مؤلفها النورسي تعرض لمضايقات كثيرة وأودع السجن مرارًا، ونقل من محكمة إلى أخرى، ونفي إلى بلاد قاصية، ولما وافته المنية ـ في ٢٥ رمضان ١٣٧٩هـ الموافق ١٩٦٠/٢/٢٣م، ودفن في مدينة أورفة ـ توجست السلطات الإلحادية خوفًا أن يكون ـ وهو تحت أطباق الثرى ـ رمزًا للشعب التركي المسلم، فلم تتركه في مرقده، إلا أربعة أشهر، وبعدها نبشوا قبره وحملوا رفاته بطائرة خاصة إلى جهة لا تعلم حتى يطمسوا آثاره، ولا يبقى له خبر[٢]، وقد أخبرني بعض المطلعين على أحوال تركيا أنه في يوم واحد حوكم ثلاثمائة عالم من علماء المسلمين، وأعدموا جميعًا ما عدا بديع الزمان النورسي الذي استبقي ليعذب وينكل به في حياته، ولكن رغم هذا التضييق فقد كانت رسائله تتناقل سرًا، وهي كاسمها رسائل النور كان ينبعث منها النور في تلك الدياجير الموحشة المطبقة، وقد كتب الله لها الظهور والخلود، فقد طبعت بلغات شتى وفي أنحاء مختلفة من العالم، وقد قرأت قبل بضع سنوات أن اللغات التي ترجمت إليها بلغت (٥٤ لغة) وهي تتنامى باطراد.

---

(١) سوزلر للنشر: العالم يتصفح رسائل النور: مؤلف رسائل النور بديع الزمان سعيد النورسي، لمحات من حياته وآثاره، ص١٢ ـ ١٣، شركة سوزلر للنشر، مدينة نصر ـ القاهرة، (بدون ط).

(٢) ينظر؛ المرجع السابق، ص١٨ ـ ١٩.

هذا؛ ولا يخفى أن نابتة الإلحـــاد اليوم في بلاد الغرب لا تقل ضراوة وعنفًا عن الشـــيوعية، فنجد من بين المنظرين للإلحاد من ينادي بضرورة نشر الإلحاد بالقوة، وأن لا يترك للناس مجال للتشبث بالإيمان.

ناهيك أن ســـام هاريس أحد أركان الإلحاد فيما بعد الشيوعية، يقول في كتابه **نهاية الإيمان**: «بعض المسائل من الخطورة بمكان بحيث يمكن قتل من يعتقدها أخلاقيًا»، وبناء على ذلك يقرر في الكتاب نفسه أن قتل المسلمين بقنبلة نووية تستأصل شأفتهم إلى الأبد أمر غير مستبعد[1].

وهذا مما يثبـــت أن الإلحاد لا يســـالم الدين قط، ســـواء لبس ثوب الشـــيوعية أو ظهر بلبوس آخر، فهو حرب على فكرة وجود الله وعلى كل من يعتنقها.

وبيّن أحد الذين درســـوا الإلحاد وأبعاده ـ في هذه السنين المتأخرة، وما يتمخض عنه من شـــرور لا يعلم حدهـــا إلا الله ﷻ، وهو العجيري صاحب كتاب **ميليشـــيا الإلحاد** ـ كيف تطورت فكرة الإلحاد في الغرب أخيرًا إلى العنف وعدم مسالمة الدين بعد ما كانت تنزع إلى نشر مبادئها بطريق الإقناع، فكان مما قاله: «كان الإلحاد في ســـياقه التأريخي إجمالًا، يمثل خطابًا ميالًا نســـبيًا إلى قدر من الحيادية مـــن الموقف الديني، ولم يكن لديه تلك الحماسة الكبيرة بممارسة الدعوة والتبشير لقضية الإلحاد، بل كانت قضية الإيمان في حســـه قضية شخصية متعلقة بالأفراد لا تستفز الملاحدة كثيرًا، ولسان حال الواحد منهم أن قضية الإيمان والكفر مسألة شخصية ما دام هذا المتدين لم يكســـر لي رجلًا أو يفقأ لي عينًا، فليؤمن وليتدين كيف شـــاء، ولكن من لحظة اصطدام الطائرتين ببرجي التجارة العالمية تغيرت المعادلة تمامًا، وترســـخ في وعي كثير من الملاحدة أن

---

(١) د. هيثم طلعت: **الإلحاد يسمم كل شيء**، ص ٤٣.

قضية الإيمان والتدين باتت مهددًا حقيقيًا للبشرية، وأن التزام ذلك الهدوء والحيادية من الدين لم يكن خيارًا مقبولًا، وأنه من المتعين على الملاحدة اليوم السعي جديًا في استئصال مبدأ التدين من الحياة البشرية، وإحلال قضية الإلحاد كخيار منقذ»[1].

وإذا كان الملاحدة يعتقدون أن الدين هو العدو الأول وأن استئصاله ضرورة بشرية لأجل تأمين حياة البشر من مخاطر الدين والمتدينين، فهل ترى أن من يحمل هذا الفكر وينادي به بين الناس لو تسلط على رقاب المتدينين ـ والعياذ بالله ـ هل سيكف يده عن إيذائهم، وسيدع لهم حرية معتقداتهم وممارساتهم الدينية كما يفرضه عليهم تدينهم، أو أنه سيبادر إلى حز غلاصمهم وإبادتهم شر إبادة، فكيف يطلب مع هذا من الدين وأهله أن يقفوا موقف الخانع الذليل من الملاحدة كيف كان اجتراؤهم على الله ﷻ ؟؟!.

أولا ترون أن هؤلاء ـ الذين ينادون بعدم اعتراض الملحدين في كل ما يقولونه أو يكتبونه ضد الألوهية وضد الإيمان وضد الوحي وضد الأخلاق مع دعوتهم إلى أن يكفّ المؤمنون ألسنتهم وأيديهم عن هؤلاء، ويدعوهم يعبثون بقيم الأمة وعقيدتها وفكرها ـ هم أخطر من الملاحدة مهما كانت الشعارات التي يرفعونها، فإنهم بهذه الدعوة المشئومة إنما يخططون لانتشار الإلحاد، ويمهدون لقبوله من جميع فئات الناس؟.

على أنّ الإلحاد كيفما كانت صورته وبأي مظهر بدا صاحبه لا يقيم وزنًا للإنسانية، ولا يعدها شيئًا، فهذا الملحد الفيزيائي ستيفن هوكينج الذي

---

(١) العجيري؛ عبد الله بن صالح: مليشيا الإلحاد، مدخل لفهم الإلحاد الجديد، ص٢١، تكوين للدراسات والأبحاث ـ المملكة العربية السعودية/الخبر، ط ٢: ١٤٣٥هـ/٢٠١٤م.

دوت حناجر المعجبين بـه بالدعاء له بالرحمة والرضـوان، وأن يبوئه الله منازل الأبرار[1].

---

(١) شاع عند كثير من الناس الدعاء بالرحمة لمن مات ولو كان كافرًا كنودًا أو ملحدًا معاندًا، وهذا مما يأباه القرآن ناهيك أنّ الله سبحانه لم يجامل عبده نوحًا عليه السلام عندما أشار إلى الدعاء لابنه بالرحمة ـ مع معصيته له ـ بتعريض من غير تصريح، إذ قال: ﴿رَبِّ إِنَّ ٱبْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ [هـود: ٤٥]، فكان الرد من قبـل الله صارمًا، ﴿قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [هـود: ٤٦]، فترى أنّ الله سبحانه عاتبه على هذا التعريض عتابًا شديدًا، وبيّن له أنه ليس من أهله، وعلل ذلك بعمله غير الصالح، وأتبع ذلك موعظته أن يكون من الجاهلين، فما كان من نوح عليه السلام إلا أن أدرك خطأه، وخطورة ما أقدم عليه، فأذعن لله تعالى خاضعًا مبتهلًا، متوسـلًا إليه بأن يجنبه شر ما أقدم عليه، كما حكاه الله تعالى في قوله: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [هود: ٤٧].

ولربما جادل في ذلك غمر أو معاند بدعوى أن رحمة الله وسعت كل شيء فلماذا تحصر في أصحاب دين بعينه؟ وجواب ذلك: أنّ الله الذي أخبر بسعة رحمته هو الذي حصرها في فئة مخصوصة من النـاس، عندما قـال: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ۝ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٦ ـ ١٥٧]، وأين هذه الصفات التي وصف الله تعالى بها المسـتحقين لرحمتـه، الذين آثرهم بها دون من سواهم، من صفات الملحدين والمشركين والمفسدين في الأرض، قد بيّن الله تعالى في أكثر من موضع من كتابه بأنه لا يمكن أن يتساوى البررة والفجرة في مصيرهم كما لم يتساوو في مسـيرهم، فقد قال تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِي ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾ [ص: ٢٨]، وقـال: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الجاثية: ٢١]، وقال سبحانه: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ۝ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [القلم: ٣٥ ـ ٣٦].

وكم في القرآن الكريم من تحذير بالغ للمؤمنين أن يتولوا من لم يكن مؤمنًا راسخ الإيمان، ولو كان من آبائهـم أو إخوانهم أو أبنائهم، كما في قولـه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا =

يقول بنفسه: «الجنس البشري ليس إلا حثالة كيميائية على سطح كوكب متوسط الحجم»[1].

= ﴿ تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمۡ وَإِخۡوَٰنَكُمۡ أَوۡلِيَآءَ إِنِ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡكُفۡرَ عَلَى ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [التوبة: ٢٣]، وقال ﷻ: ﴿ لَّا تَجِدُ قَوۡمٗا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ يُوَآدُّونَ مَنۡ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوۡ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ أَوۡ أَبۡنَآءَهُمۡ أَوۡ إِخۡوَٰنَهُمۡ أَوۡ عَشِيرَتَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٖ مِّنۡهُۖ وَيُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴾ [المجادلة: ٢٢]، ونص تعالى في أكثر من موضع على أن من تولى أحدًا فله حكمه: ﴿ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [المائدة: ٥١].

وأمر الله المؤمنين بأن يقتدوا بإبراهيم والذين معه في مفاصلتهم لمن جانب الحق واستكبر وبراءتهم منهم، عندما قال: ﴿ قَدۡ كَانَتۡ لَكُمۡ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذۡ قَالُواْ لِقَوۡمِهِمۡ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمۡ وَمِمَّا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرۡنَا بِكُمۡ وَبَدَا بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةُ وَٱلۡبَغۡضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥٓ ...﴾، إلى أن قال: ﴿ لَقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِيهِمۡ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَۚ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ﴾ [الممتحنة: ٤ ـ ٦]، والقول في هذا قد يطول، وقد بسطته في مواضع أخرى، والحمد لله.

هذا! وقد يجادل مجادل بأن ستيفن وليام هوكنج لم تقم عليه الحجة بما أنزل الله من الحق، وقد قال تعالى: ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا ﴾ [الإسراء: ١٥]، فهو بسبب ذلك لا يحرم من رحمة الله، ولا يمتنع الدعاء له بها.

والجواب: أن الحجة بوجود الله قائمة على كل إنسان من تلقاء نفسه، ولذلك احتج رسل الله تعالى على الذين شكوا في الله بقولهم: ﴿ أَفِي ٱللَّهِ شَكّٞ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾ [إبراهيم: ١٠]، والإيمان به تعالى وباليوم الآخر فطرة مركوزة في الطباع حتى أن الأطفال يولدون بها، كما أثبتت ذلك دراسة قامت بها جامعة أوكسفورد على مدى ثلاث سنوات، شارك فيها ٥٧ باحثًا، وسيأتي بيان ذلك إن شاء الله في الباب الثالث.

على أنّ هوكنج هذا بجانب هذا الدليل الفطري قد قامت عليه الحجة بوجود الله تعالى بما وجهه إليه من خطاب دعاه فيه إلى المناظرة في ذلك أ.د. محمد باسل الطائي الفيزيائي العربي المسلم العبقري الفذ، كما ذكره في كتابه **أوهام الإلحاد**.

(١) ينظر؛ العجيري: **شموع النهار، إطلالة على الجدل الديني المعاصر في مسألة الوجود الإلهي**، ص٥٩، تكوين للدراسات والأبحاث ـ المملكة العربية السعودية / الخبر، ط١: ١٤٣٧هـ/٢٠١٦م، =

وإذا كان لا يرى النـــاس إلا حثالة كيميائية فماذا عســـى أن تكون قيمتهم عنده؟ وكيف يعاملون؟ أولا يكون فكره قائمًا على ضرورة تطهير هذا الكوكب من هذه الحثالة، لا سيما أولئك الذين يختلفون معه في المبدأ والفكر؟.

وإذا كان الإلحاد بدأت زوابعـــه في الهياج من جديـــد مصحوبة بلهيب شرورها تثيرها الأحقاد الدفينة على دين الله تعالى وعلى أهله، فإنه مما يتحتم على جميع الغيورين علـــى الدين أن يقفوا صفًا واحـــدًا لمواجهة هذا الخطر وصدّ هذا الزحف وكشـــف زيف الإلحاد، وتبصير الجماهير بعيوبه، وإذكاء روح الإيمان في نفوسها، فإنّ من الضرورة بمكان أن تتضافر الجهود لإحقاق الحق ودحر الباطل من قبل حزب الحق المنصور.

وقد ظهرت ـ بحمد الله ـ جهود مشكورة من أبناء الأمة لصد هذه الهجمة على الإيمان، وتعريـــة هذا المخطط الـــذي يهدف إلى ســـلخ المؤمنين من إيمانهـــم، وتجريدهم من مقومـــات حياتهم الإيمانية، وجـــاءت الردود على الإلحاد والملحدين متفاوتة في صورها ومحتوياتها، وفي كُلٌ خير إن شاء الله.

ومما ظهر أخيرًا بوطننا العزيز ـ من إنجاز بعض شبابنا الغيور على دينه، الســـاعي إلى دفع كيد الكائدين عن حماه ـ دراسة مســـتفيضة بعنوان **مناجزة الإلحاد** جادت بها قريحة الشابين الموفقين **أحمد التميمي ومحمود المسلمي**، ولعمري إنها من أوسع ما دبجته الأقلام وجادت به القرائح في هذا المجال، فقد بذلا في ذلك جهدًا يشكر ولا ينكر، وألما بكل جوانب الموضوع، إلماما يبعث على الاعتزاز والفخر، وحسن التفاؤل بمستقبل واعد ينصر فيه الإيمان، ويدحر فيه الإلحاد، ويقـــوم فيه قائم الحق ليجتث الباطـــل من أعراقه، وإنما

= وأحمد حسن: **الكل مبتلى.. ولكن، نظرات في الحالة الإلحادية من الناحية النفسية**، ص٦٥، دار مركز براهين لدراســـة الإلحاد ومعالجة النوازل العقدية، الكاتب للنشر والتوزيع، ط٢: ١٤٣٧هـ/٢٠١٦م، نقلًا عن: Stephen Hawking, Reality on the Rocks: Beyond Our Ken, 1995.

اطلعت على بعض ما يلاحظ في كتابهما القيم وأرجو أن يراجعاه بدقة في طبعاته القادمة، وأهم ما ينبغي أن يلاحظ فيه ما ذكراه من أنّ الله هو علة لوجود مخلوقاته، وهذا هو الذي درج عليه الفلاسفة، كما هو شائع عند متقدميهم ومتأخريهم، وقد تأثرا في ذلك بابن كمونة الذي عزيا إليه هذا القول، وهو قول باطل، لأن العلة تؤثر في معلولها بذاتها من غير اختيار، وهذا مما يسلب الاختيار عن الله ﷻ، ومن ناحية أخرى، فإنّ المعلول يقترن بعلته وجودًا وعدمًا، وقد دل العقل والشرع عن أن وجود الله تعالى أزلي أبدي، فلو كان علة لوجود مخلوقاته لكانت مقارنة له في الأزلية، وهذا ينفي وصف الخلق عنها، إذ يجعلها كمثله في الاتصاف بالقدم، ولأجل هذا أصر الفلاسفة على القول بقدم الكون، وتمسك بهذا نصير فكرهم ابن رشد في كتابه المشهور الذي يرد فيه على أبي حامد الغزالي، الذي تعقب في هذا الفلاسفة في كتابه القيم **تهافت الفلاسفة**، وسمى ابن رشد رده عليه **تهافت التهافت**، وقد تعقبت تهافت ابن رشد فيما جاء به هنا في الجزء الثاني من **برهان الحق**، وبينت ـ والحمد لله ـ زيف كلامه وكلام الفلاسفة الذين ينتصر لهم.

على أنّ ابن كمونة الذي اعتمدا كلامه في هذا تعزى إليه ضلالات كثيرة حتى أنه لقب **بافتخار الشياطين**[1]، وقد صدق ـ لعمر الله ـ من قال:

وقل ما أبصرت عيناك من رجل إلا ومعناه إن فكرت في لقبه

---

(١) ينظر؛ الألوسي: **روح المعاني**، سورة الأنبياء (الآيات ٢٠ ـ ٢٦)، مج (١٠) ٤٠/١٧، والشيرازي؛ صدر الدين محمد: **الحكمة المتعالية في الأسفار العقلية الأربعة**، ١٣٢/١، دار إحياء التراث ـ بيروت، ط: ١٤١٠هـ/١٩٩٠م، والطباطبائي؛ محمد حسين: **نهاية الحكمة**، ٢٢٧/٢، صححه وعلق عليه عباس علي الزارعي، مؤسسة النشر الإسلامي ـ قم، ط ٤: ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م، وأيضًا؛ **بداية الحكمة**، ص ١٩٥ ـ ١٩٦، صححه وعلق عليه عباس علي الزارعي، مؤسسة المعارف الإسلامية، ط: ١٤١٨هـ/١٩٩٨م.

فماذا عسى أن يرتجى من افتخار الشياطين إلا ما يرضي الشياطين ـ والعياذ بالله ـ ؟.

ومهما كانت سعة الإنجاز ووفرة الحجج والدراسات في التصدي للإلحاد فإنما هي جهود بشرية، وكل ما كان من عند غير الله هو قابل للإضافة والزيادة، وقد قالوا: «يوجد في النهر ما لا يوجد في البحر»، «وكم ترك الأول للآخر».

لهذا؛ رأيت أن أدلي بدلوي في هذا المجال، لعلي أنال شرف خدمة الإيمان، ونصرة عباد الرحمن، وفضح حزب الشيطان، فقد وعد الله حزبه المنصور بالغلبة والفلاح، فهو القائل: ﴿ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾ [المائدة: ٥٦]، والقائل: ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [المجادلة: ٢٢]، وتوعد الذين استحوذ عليهم الشيطان وضمهم إلى حزبه بالخسران في قوله: ﴿ ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ [المجادلة: ١٩]، فلذلك حرصت على تقديم هذه الدراسة المتواضعة التي أرجو أن تكون مشاركة فاعلة في مصرع **الإلحاد**؛ الذي أرجو أن يحققه الله علانية، فينتعش به المحقون ويكبت به المبطلون، ﴿ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝ بِنَصْرِ ٱللَّهِ ۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [الروم: ٤ ـ ٥].

وقد قسمت هذا العمل إلى خمسة أبواب، في كل منها العديد من الفصول، وإلى خاتمة للكتاب، كل هذا بعد هذا التمهيد الذي تصدر الكتاب، والله ولي التوفيق، وعليه الاتكال فهو حسبي ونعم الوكيل.



الباب الأول

في تعزيز الإيمان بالغيب وبيان ضرورته في حياة الناس

وهو يشتمل على فصلين:

- الفصل الأول: في إثبات أن الإيمان بالله واليوم الآخر ضمان لانتظام حياة الناس في الدنيا وسعادتهم في العقبى.
- الفصل الثاني: في ضرورة الناس إلى الدين.



الفصل الأول

في إثبات أن الإيمان بالله واليوم الآخر ضمان لانتظام حياة الناس في الدنيا وسعادتهم في العقبى

وفيه ثلاثة مباحث:

- المبحث الأول: في تأسيس القول بضرورة الإيمان.
- المبحث الثاني: مكانة الإنسان في هذا الكون.
- المبحث الثالث: في طبيعة الإنسان التي لا تهدأ إلا بسكينة الإيمان.

المبحث الأول

في تأسيس القول بضرورة الإيمان

إن الإيمان بالله واليوم الآخر هو أساس كل خير يعود إلى الناس في دنياهم وآخرتهم، ومصدر استقرارهم النفسي والاجتماعي، وسبب انتظام شملهم ودوام ألفتهم، ومهما فُقد الإيمان بالله أو الإيمان باليوم الآخر في حياة الناس هاجت الشرور من نفوسهم، وماجت حياتهم بالفتن التي تهلك الحرث والنسل، وتقلق النفوس، وتوجف القلوب، وتقضي على كل راحة وسكينة.

فإنّ الإيمان بالله إنما هو إيمان بالخالق العظيم، الذي أوجد هذا الوجود من العدم، وأبدعه في هذا النسق العجيب والنظام الرتيب الذي ألّف بين دقائقه وجلائله، فانتظمت ذراته ومجراته، وتناسقت حركاتها، وتآلفت طبائعها، حتى غدت كل ذرة منها آخذة بحجزة أختها، وانتظمت مع ذلك جزيئاتها وعناصرها، وائتلفت مركباتها، وشمل ذلك نظام الوجود كله، حتى وسع المجرات العظمى التي تسبح في خضمها تلك الأجرام الهائلة التي لا يحصى لها عدّ، ولا يدرك لها حدّ، فانتظم هذا الوجود كله ـ بأبعاده المترامية وآماده السحيقة ـ فأصبح يشكّل وحدة متكاملة ينعم بالعيش به كل ما انخرط في نظامه، واندرج في تضاعيفه، إذ لا يجد فيه نشازًا ولا اضطرابًا، ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ [الملك: ٣ ـ ٤].

المبحث الثاني

مكانة الإنسان في هذا الكون

قد شرف سبحانه الإنسان من بين سائر مخلوقاته؛ بما آتاه من الملكات الظاهرة والباطنة، واختصه به من آلائه الروحية والمادية، ومنحه بفضله منافع الأرض وما اشتملت عليه، وسخّر له ما انتظمه الوجود سفليه وعلويه، ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ [البقرة: ٢٩]، ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ﴾ [الجاثية: ١٣].

وكما خلق هذا الوجود كله بقدرته دبره بحكمته، فساده النظام والوئام، وقد انفرد تعالى فيه بالخلق والأمر، فإنّ هذا الكون كله إنما هو مملكته تعالى، تستجيب فيه كل ذرة لأمره، وتنقاد لحكمه، وتسبح بحمده، وتعلن بلسان حالها افتقارها في كل حال إليه، وهذا يعني شمول لطف رعايته تعالى لجميع أرجائه، ولو تخلى عنه في أقل من لحظة لهوى إلى غير قرار، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ [فاطر: ٤١].

وما هذا الإنسان إلا نقطة في تضاعيف هذا الكون اختصه الله بألطافه الغامرة فهو يسبح في خضم هذا الوجود، تحوطه عناية الله وتحرسه رعايته، مر بمراحل وأطوار حتى برز في صورته الجمالية البهية، واستمرت رحلته منذ كان خلية مهينة إلى أن صار بشرًا سويًا مكرمًا، ثم تدرج بعد ذلك في مدارج

الأطوار، وتنقل بين ضروب الأحوال، بدأ فيها ضعيفًـــا، ثم تحول إلى القوة والفتوة، ثم انتكس إلى الضعف والشيبة.

ولا ريب أن دراســته لجميع أحواله هذه وإيمانه بالخالق العظيم يحفزان فيه همم الخير ويكبحان منه نوازع الشر، ويدفعانه إلى أن يعمر الأرض التي اســتخلفه الله فيها باســمه تعالى، ويراقب في كل إقدامــه أو إحجامه أَمْرَ الله تعالى ونهيه، فهو في كل حال لربه عبد مطيع مخلص، ولبني جنسه أخ وفيٌ محب، وهو لسائر أجناس المخلوقات شريك ناصح أمين.

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

المبحث الثالث

في طبيعة الإنسان التي لا تهدأ إلا بسكينة الإيمان

بما أن الإنسان كائن اجتماعي يشترك مع بني جنسه ـ في الأخذ والرد والعطاء والمنع ـ قد تطغى عليه الآثار السلبية للنزعات الاستبدادية، التي تهيجها في نفسه قوى الشر الثائر بتأثير الشهوات والرغبات، أو بتأجيج النزعات والنزغات، حتى ينسى عهد الله أو يكاد، فلا يبالي بحقوق الله أو حقوق عباده، إلا أنه مع إيمانه الحق باليوم الآخر ـ بجانب إيمانه بالله ـ يدكر فينثني من غيّهِ إلى رشده، ومن عماه إلى بصيرته؛ فيكبح نوازع الشر ودوافع السوء المحركة له إلى الشر والإجرام، ويعود إلى الفطرة السوية التي فطره الله عليها حياء من الله، وخشية من سوء المصير عندما ينقلب إليه.

وهذا لأن الإيمان باليوم الآخر هو الإيمان بالمنقلب إلى الله ومجازاة النفس على ما قدمت وأخرت، وجنيها ثمار غرسها في الدنيا خيرًا كان أو شرًا، كما قال تعالى: ﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ۝ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [النمل: ٨٩ ـ ٩٠]، وقال سبحانه: ﴿ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِىِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴾ [النساء: ١٢٣ ـ ١٢٤]، فهو بالطبع باعث على الإشفاق والوجل من سوء المصير فيتعزز بذلك

ما يثمره إيمانه بالله من مراعاته لحق الله، واستحيائه أن يعصيه، وهو الذي أوجده من العدم، وأغدق عليه فيوض كرمه، وسيوب نعمه، إذ يتوجس بهذا الإيمان خيفة منه تعالى أن يجد منه الجزاء الأوفى على ما يقدم عليه من سوء، وما يأتيه من شر، مع يقينه بأنه محاسب ومجزي بكل ما يعمل، وأن المحاسب محيط بكل شيء، وخبير بكل أمر، وبصير بكل إقدام أو إحجام منه، وعليم بكل ما توسوس به النفس أو يجيش به الخاطر، وبجانب ذلك هناك رقباء لا يلهون ولا يغفلون، يسجلون كل خفي وجلي من حركاته أو سكناته، أو وساوس نفسه وخواطر ضميره، ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ۝ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ۝ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٦ ـ ١٨].

فلا يلبث ـ عندما يوحي إليه إيمانه بالله واليوم الآخر بهذه الحقائق، ويذكره بما كان عنه منها في غفلة ـ أن يتراجع، ويسرع خطاه إلى ربه تائبًا منيبًا، وتتجدد في نفسه عزائم الخير القاهرة لنوازع السوء الماحية لبواعث الشر، حتى يظل في أحواله أواهًا أوابًا، يروق له الخير وإن شقّ عليه، ويشفق من الشر وإن زينه له شيطانه.

أما الذي حرم نعمة هذا الإيمان، فإنّه محروم من هذا الخير كله، فهو أسير هوى نفسه الأمارة بالسوء، ينقاد للشيطان الذي يأمره بالفحشاء والمنكر، ويغريه بانتهاك حرمات الله تعالى وعدم المبالاة بحقوق عباده، ولو كانوا أقرب قرابته، وأكثر الناس نصحًا له وبرًا به، ولأجل هذا كان الإيمان بالله واليوم الآخر هما مناط الاستقامة على سواء الصراط، وبنورهما يستضاء ويستبصر في مسالك الحياة، فتؤدى بسببهما الحقوق وتلتزم لأجلهما الواجبات، وهذا واضح جلي لكل من استبصر بضياء القرآن ونور السنة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام.

فكم نجد فيهما في معـــرض الأمر والنهي من بعـــث عزائم الخير وكبح نوازع الشـــر بذكرهما كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [البقرة: ٢٢٨]، وقوله سبحانه: ﴿فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُم بِالْمَعْرُوفِ ۗ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [البقـــرة: ٢٣٢]، وقوله: ﴿فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [النســـاء: ٥٩]، وقوله: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [النور: ٢]، وقوله: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ [الأحزاب: ٢١]، وقوله: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ [الممتحنة: ٦]، وقوله: ﴿وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [الطلاق: ٢].

وكم تكرر نحو هذا في حديث الرسول ﷺ تأكيدا على الأوامر والنواهي كما في قوله: «**من كان يؤمن بـــالله واليوم الآخر فليكرم ضيفـــه جائزته يومًا وليلة**»[(١)]، وقوله: «**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليصمت ولا يؤذي جاره أبدًا**»[(٢)]، وجاء بلفظ: «**فليقل خيرًا أو ليسكت**»[(٣)]، وقوله: «**من كان**

---

(١) رواه الربيع بهذا اللفظ؛ **الجامع الصحيح**، باب (٤٩) في الضيافة والجوار وما ملكت اليمين واليتيم، (رقم: ٦٨١، ص ١٧٥ ـ ١٧٦).

(٢) رواه الربيع بهذا اللفظ؛ **الجامع الصحيح**، باب (٤٩) في الضيافة والجوار وما ملكت اليمين واليتيم، (رقم: ٦٨٣، ص ١٧٦).

(٣) الحديث بهذا اللفظ أخرجه أحمد عن أبي هريرة؛ **مسند أحمد**، (رقم: ٩٩٢٩، ٣٦٢/٩). والطبراني عن ابن مســـعود عن فاطمة؛ **المعجم الكبير**، (رقم: ١٠٢٤، مج (١٠) ٢٩٠/٢٢)، وأبو داود بلفظ: «ليصمت»؛ **ســـنن أبي داود**، كتاب (٤٠) الأدب، بـــاب (١٢٢) في حق الجـــوار، (رقم: ٥١٥٤، ص ١٦٠٠). وقد أخرجه البخاري عن أبي هريرة مع تقديم وتأخير في جمله وبلفظ «ليصمت»؛ **صحيح البخاري**، كتاب (٨١) الرّقاق، باب (٢٣) حفظ اللّســـان، (رقم: ٦٤٧٥، ص ٥٤٣). كما أخرجه مســـلم عن أبي هريرة مع تقديم وتأخير في جمله؛ **صحيح مسلم**، كتاب (١) الإيمان، باب (١٩) الحثّ على إكرام الجار والضّيف...، (رقم: ٤٧ [١٧٦]، ص ٦٨٨).

يؤمن بالله واليوم الآخر فعليه الجمعة إلا عبدًا أو امرأةً أو صبيًا ومن استغنى بلهو أو تجارة استغنى الله عنه والله غني حميد»[١]، وقوله: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يقعدن على مائدة يدار عليه الخمر ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يدخل الحمام إلا بإزار ومن كانت تؤمن بالله واليوم الآخر فلا تدخل الحمام»[٢]، وقوله: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يأخذن إلا مثلًا بمثل»[٣] يعني الذهب بالذهب، وقوله: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يسق ماءه زرع غيره، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يأت ثيبًا من السبي حتى يستبرئها، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يبيعنّ مغنمًا حتى يقسم، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يركبنّ دابة من فيء المسلمين حتى إذا أعجفها ردها فيه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يلبس ثوبًا من فيء المسلمين حتى إذا أخلقه رده فيه»[٤]، وقوله: «من كان يؤمن بالله

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة؛ مصنف ابن أبي شيبة، كتاب (٣) الصلوات، باب (٣٣٩) في من لا تجب عليه الجمعة، (رقم: ٥١٤٩، ٤٤٦/١)، ولا يخلو إسناده من مقال، والطبراني في الأوسط؛ المعجم الأوسط، باب من اسمه محمد بن عبد الرحمن، (رقم: ٧٧١٠، ٨/٨)، والدارقطني؛ سنن الدارقطني، كتاب الجمعة، باب (١) من تجب عليه الجمعة، (رقم: ١٥٦٠، ٣/٢)، وأبو نعيم في الحلية؛ حلية الأولياء، (٣٣٣) مسعر بن كدام، (رقم: ١٠٥٣٣، ٢٨٣/٧).

(٢) أخرجه أحمد بلفظه؛ مسند أحمد، (رقم: ١٢٥، ٢٢٠/١)، والبيهقي في شعب الإيمان؛ الجامع لشعب الإيمان، الشعبة (٥٤) من شعب الإيمان وهو باب في الحياء، فصل في الحمام، (رقم: ٧٣٨٠، ٤٢٠/١١)، قال الهيثمي: «فيه رجل لم يسم» (الهيثمي: مجمع الزوائد، ٢٧٧/١).

(٣) رواه مسلم؛ صحيح مسلم، كتاب (٢٢) المساقاة، باب (١٧) بيع القلادة فيها خرز وذهب، (رقم: ١٥٩١ [٤٠٧٩]، ص ٩٥٤).

(٤) أخرجه ابن أبي شيبة؛ مصنف ابن أبي شيبة، كتاب (٣٦) المغازي، باب (٣٣) غزوة خيبر، (رقم: ٣٦٨٧٣، ٣٩٥/٧)، والدارمي؛ سنن الدارمي، كتاب (١٧) السير، باب (٤٧) النهي عن ركوب الدابة من المغنم ولبس الثوب، (رقم: ٢٤٨٨، ١٨٨/٢)، وأبو داود متفرقًا؛ سنن أبي داود، كتاب (١٢) النكاح، باب (٤٣، ٤٤) باب في وطء السبايا، (رقم: ٢١٥٨، ص ١٣٨١)، وكتاب (١٥) الجهاد، باب (١٣١) في الرجل ينتفع من الغنيمة بشيء، (رقم: ٢٧٠٨، ص ١٤٣٤)،

واليوم الآخر فلا يلبس حريرًا ولا ذهبًا»[١]، وقوله: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليؤد زكاة ماله، ومن كان يؤمن بالله ورسوله فليقل حقًا أو ليسكت، ومن كان يؤمن بالله ورسوله فليكرم ضيفه»[٢].

وبيّن الله تعالى الفرق الشاسع بين أحوال من آمن ومن كفر، إذ ذكر أثر الإيمان في نفوس الذين آمنوا ورسخ فيهم الإيمان في العديد من الآيات، كما في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ۝ أُوْلَـٰٓئِكَ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَـٰبِقُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٧ ـ ٦١]، بينما وصف الذين كفروا بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَـٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ۝ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ وَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ﴾ [النمل: ٤ ـ ٥]، وقوله: ﴿فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾ [النحل: ٢٢]، وقوله: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [النحل: ٦٠]، وقوله: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَـٰكِبُونَ ۝ وَلَوْ رَحِمْنَـٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّواْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [المؤمنون: ٧٤ ـ ٧٥]، وقوله: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ

= والطبراني في الكبير؛ المعجم الكبير، باب الراء، (٤٣٤) رويفع بن ثابت الأنصاري، (رقم: ٤٤٨٢، مج (٣) ٢١/٥ ـ ٢٢)، والبيهقي؛ معرفة السنن والآثار، كتاب (٣٥) السير، باب (٢١) أخذ السلاح وغيره بغير إذن الإمام، (رقم: ١٧٨٨٨، ١٩٢/١٣).

(١) أخرجه أحمد بلفظه؛ مسند أحمد، (رقم: ٢٢١٤٩، ٢٤٨/١٦)، قال الهيثمي: رجاله ثقات (الهيثمي: مجمع الزوائد، ١٤٧/٥)، والطبراني؛ المعجم الكبير، (٧٣٦) صدي بن العجلان أبو أمامة الباهلي، (رقم: ٧٧٦٩، مج (٤) ١٥٤/٨)، والحاكم؛ المستدرك، كتاب (٣٦) اللباس، (رقم: ٧٤٠٢، ٢١٢/٤)، وقال: صحيح الإسناد، وأخرجه أيضًا: الحارث؛ بغية الباحث عن زوائد مسند الحارث، كتاب (٢٠) اللباس والزينة، باب (١٣) ما جاء في الذهب والحرير، (رقم: ٥٨٤، ٦١٥/٢).

(٢) أخرجه الطبراني؛ المعجم الكبير، (٧٧٤) عبد الله بن عمر بن الخطاب، (رقم: ١٣٥٦١، مج (٦) ٢٨٤/١٢).

﴿ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [الزمر: ٤٥].

وما كان الاقتصار على ذكر الإيمان بالله واليوم الآخر في مقام الحث أو التحذير ـ مع أنّ كل عنصر من عناصر الإيمان له أبلغ الأثر وأعمق التأثير في تهذيب النفوس والارتقاء بها ـ إلا لأجل ما للإيمان بالله واليوم الآخر من ميزة وقدر وعمق في تطهير النفس من أكدارها، والارتقاء بها من حضيضها، فكأن من آمن بالله واليوم الآخر استجمع خصائص الإيمان، وانطوى على جميع جزئياته وكلياته.

وقد تبين بهذا أنهما يتتاممان، فلذلك يخلفان هذا الأثر في النفس والحياة عندما يجتمعان، وبفقدهما أو فقد أحدهما تُظْلِم النفس وتنحرف الحياة، حتى يغدو الإنسان سبعًا فتاكًا، يطأ على جميع القيم، وينبذ كل الفضائل في سبيل إرواء غليله، وإشباع سعاره من الشهوات الدنيئة، أو في سبيل إرضاء نزعاته في التشفي والانتقام.

وهو مما لا يخفى على من درس أحوال الأمم وتحولها من النقيض إلى النقيض في فترتي إيمانها وجحودها، فكم تحولت أمم من الناس عما كانت عليه، فبعد أن كانت في جاهليتها أضرى من السباع الفتاكة، وأضر من الزواحف السامة، وأرجس من الشياطين الموسوسة، وأوحش من الليالي المدلهمة، تحولت بإيمانها بالله واليوم الآخر إلى أن صارت أبر بالناس، وأنفعهم لهم وأطهر قلوبًا من كل ما يتصور كأنهم من ملائكة الرحمة، وغدوا ألطف من نسيم السحر، وآنس من إشراق رابعة النهار، فهؤلاء العرب كم كان ضررهم في جاهليتهم على أنفسهم وعلى إخوانهم وعلى أهليهم وعلى أولادهم وآبائهم وأمهاتهم، لا يعرفون رقة في الطبع، ولا لطفًا في المعاملة،

ولا رأفة في المعاشرة، ينزعون إلى العدوان، ويستأصلون البرئ كالمذنب، كما قال قائلهم:

أَحْيا أَباه هَاشِمُ بْنَ حَرْمَله ... يومَ الهَبَاءَاتِ وَيَوْمَ اليَعْمَله
تَرَى الملوكَ حَوْلَه مُغَرْبَلَه ... ورُمْحَه لِلْوَالِدَاتِ مَثْكَلَه
يَقْتُلُ ذَا الذنبِ وَمَنْ لَا ذَنْبَ لَهْ

وكانوا يعدون هذا من أعظم المفاخر، وأسنى المحامد، وأجل المدائح، وقد أولعوا بسفك الدماء حتى لم تسلم منه دماء قرابتهم عندما لا يتسنى لهم أن يسفكوا دماء الآخرين، كما قال القطامي التغلبي في وصف خيلهم:

وكُنَّ إذا أَغَرنَ على جَنابٍ ... وأَعوَزهُنَّ كوزٌ حيث كانا
أغرنَ من الضَّبابِ على حِلالٍ ... وضبةَ إنَّهُ مَن حانَ حانا
وأحيانًا على بَكرٍ أخينا ... إذا ما لم نَجِد إلا أخانا

ولم يكد الإيمان يخالط بشاشة قلوبهم حتى تحولوا إلى أمة أخرى، كأنما خلقوا خلقًا جديدًا بأخلاق غير التي كانوا يتخلقون بها، وبأفكار مناقضة لأفكارهم السابقة، وبطبائع نورانية راقية مناقضة لتلك الطبائع الظلمانية الهابطة التي كانوا متلبسين بها، فتحولت عداواتهم إلى مقة خالصة، وفجورهم إلى بر وإحسان، وقطيعتهم إلى صلة وأمان، وتحولت حروبهم من البغي والعدوان إلى جهاد مقدس لإعلاء كلمة الله تعالى، ورفع الظلم عن عباده، كما قال ربعي بن عامر ﷺ في جوابه لرستم القائد الفارسي: «الله ابتعثنا والله جاء بنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام»[1].

---

(١) الطبري؛ محمد بن جرير: **تاريخ الأمم والملوك**، ٤٠١/٢، دار الكتب العلمية ـ بيروت، ط ٢: ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م، والكلاعي؛ أبو الربيع سليمان بن موسى الأندلسي: **الإكتفاء بما تضمنه من** =

فكانوا أمّة مثالية استحوذت على أفكار الأمم التي حارت في مثالية أخلاقهم وطيب معاشرتهم ورقيهم في أفكارهم وأحوالهم، ولا أريد أن أعزز هذا الذي قلته بما قاله المسلمون، وإنما أدع المجال لغيرهم ليدلوا بشهاداتهم لهم، كما في قول العالم الاجتماعي الفرنسي غوستاف لوبون: «ما عرف التاريخ فاتحًا أعدل ولا أرحم من العرب»[١].

وقول لويس سيديو: «لقد حلّ الوقت الذي توجه فيه الأنظار إلى تاريخ تلك الأمة التي كانت مجهولة الأمر في زاوية من آسية فارتقت إلى أعلى مقام فطبق اسمها آفاق الدنيا مدة سبعة قرون. ومصدر هذه المعجزة هو رجل واحد، هو محمد [ﷺ]..»[٢].

وقول ول ديورانت: «إذا ما حكمنا على العظمة بما كان للعظيم من أثر في الناس قلنا إن محمدًا [ﷺ] كان من أعظم عظماء التاريخ، فلقد أخذ على نفسه أن يرفع المستوى الروحي والأخلاقي لشعب ألقت به في دياجير الهمجية حرارة الجو وجدب الصحراء، وقد نجح في تحقيق هذا الغرض نجاحًا لم يدانه فيه أي مصلح آخر في التاريخ كله، وقلّ أن نجد إنسانًا غيره

= مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء، ١٩٢/٤، تحقيق: محمد كمال الدين عز الدين علي، عالم الكتب ـ بيروت، ط١: ١٤١٧هـ/١٩٩٧م، والدمشقي، ابن كثير؛ إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي: البداية والنهاية، ١٣٤/٧، حققه وخرج أحاديثه وعلق عليه: رياض عبد الحميد مراد، ومحمد حسان عبيد، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ـ قطر، ط: ١٤٣٦هـ/٢٠١٥م، وصفوت: جمهرة خطب العرب، ٢٤٢/١.

(١) محمد رشيد رضا: الخلافة، ص١٢١، الزهراء للإعلام العربي ـ القاهرة، (بدون ط)، وأبو شُهبة؛ محمد بن محمد بن سويلم: السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة، ١٦٨/٢، دار القلم ـ دمشق، ط٥: ١٤١٩هـ/١٩٩٩م، والميداني: أجنحة المكر الثلاثة وخوافيها: التبشير ـ الاستشراق ـ الاستعمار دراسة وتحليل وتوجيه، ص١٨٦، دار القلم ـ دمشق، ط٥: ١٤٠٧هـ/١٩٨٦م.

(٢) م. ل. سيديو: تاريخ العرب العام، ص١٥، ترجمة: عادل زعيتر، دار إحياء الكتب العربية ـ القاهرة، ط: ١٩٤٨م.

حقق ما كان يحلم به.. ولم يكن ذلك لأنه هو نفسه كان شديد التمسك بالدين وكفى، بل لأنه لم يكن ثمة قوة غير قوة الدين تدفع العرب في أيامه إلى سلوك ذلك الطريق الذي سلكوه.. وكانت بلاد العرب لما بدأ الدعوة صحراء جدباء، تسكنها قبائل من عبدة الأوثان قليل عددها، متفرقة كلمتها، وكانت عند وفاته أمة موحدة متماسكة. وقد كبح جماح التعصب والخرافات، وأقام فوق اليهودية والمسيحية، ودين بلاده القديم، دينًا سهلًا واضحًا قويًا، وصرحًا خلقيًا قوامه البسالة والعزة القومية. واستطاع في جيل واحد أن ينتصر في مائة معركة، وفي قرن واحد أن ينشئ دولة عظيمة، وأن يبقى إلى يومنا هذا قوة ذات خطر عظيم في نصف العالم»[1].

وقول أستاذ التاريخ سانتيلانا: «ما كان من محمد [ﷺ] إلا أن تناول المجتمع العربي هدمًا من أصوله وجذوره وشاد صرحًا اجتماعيًا جديدًا.. هذا العمل الباهر لم تخطئه عين (ابن خلدون) النفاذة الثاقبة. إن محمدًا [ﷺ] هدم شكل القبيلة والأسرة المعروفين آنذاك، ومحا منه الشخصية الفردية Gentes والموالاة والجماعات المتحالفة. من يعتنق دين الإسلام عليه أن ينشئ روابطه كلها ومنها رابطة قرباه وأسرته، إلا إذا كانوا يعتنقون دينه (إخوته في الإيمان). فما داموا هم على دينهم القديم فإنه يقول لهم كما قال إبراهيم [عليه السلام] لأهله: (لقد تقطعت بيننا الأسباب)..»[2].

وقول م. ج. دُرّاني: «.. وأخيرًا أخذت أدرس حياة النبي محمد [ﷺ] فأيقنت أن من أعظم الآثام أن نتنكر لذلك الرجل الرباني الذي أقام مملكة

---

(١) ول ديورانت: **قصة الحضارة**، ٤٧/١٣، ترجمة: محمد بدران وآخرون، لجنة التأليف والترجمة ـ القاهرة / دار الجيل ـ بيروت، ط: ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.

(٢) أرنولد؛ سير توماس: **تراث الإسلام**، ١٠٦/٢، عربه وعلق حواشيه: جرجيس فتح الله، منشورات الجمل ـ بيروت، ط١: ٢٠١٢م.

لله بين أقوام كانوا مـن قبل متحاربين لا يحكمهم قانـون، يعبدون الوثن، ويقترفون كل الأفعال الشـائنة، فغير طرق تفكيرهم، لا بـل بدل عاداتهم وأخلاقهم، وجمعهم تحـت راية واحدة وقانون واحـد ودين واحد وثقافة واحدة وحضارة واحـدة وحكومة واحدة، وأصبحت تلـك الأمة، التي لم تنجب رجلًا عظيمًا واحدًا يسـتحق الذكر منذ عـدة قرون، أصبحت تحت تأثيره وهديه تنجب ألوفًا مـن النفوس الكريمة التـي انطلقت إلى أقصى أرجاء المعمورة تدعو إلى مبادئ الإسلام وأخلاقه ونظام الحياة الإسلامية وتعلم الناس أمور الدين الجديد»[١].

وقول **جاك ريسـلر**: «.. كان لزامًا على محمـد [ﷺ] أن يبرز في أقصر وقت ممكن تفوّق الشـعب العربي عندما أنعم الله عليه بدين سام في بساطته ووضوحـه، وكذلك بمذهبه الصارم فـي التوحيد في مواجهـة التردد الدائم للعقائد الدينية. وإذا ما عرفنا أن هذا العمل العظيم أدرك وحقق في أقصر أجل أعظم أمل لحياة إنسانية فإنه يجب أن نعترف أن محمدًا [ﷺ] يظل في عداد أعظم الرجال الذين شرف بهم تاريخ الشعوب والأديان»[٢].

وقول **مايكل هارث**: «.. ليس توسع العرب شيئًا محتومًا أو آليًا وكذلك إنشاء الأمة الإسـلامية. ولولا هذا المزيج الرائع من الصفات المختلفة الذي نجـده عند محمـد [ﷺ] لـكان من غيـر الممكـن أن يتم هذا التوسـع، ولاستنفذت تلك القوى الجبارة في غارات على سوريا والعراق دون أن تؤدي لنتائج دائمة.

---

(١) العشي؛ عرفات كامل: رجال ونساء أسلموا، ص ٣٠٤، المكتب المصري الحديث ـ القاهرة، ط: ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م.

(٢) جاك. س. ريسلر: الحضارة العربية، ص ٣٧، ترجمة: غنيم عبدون، الدار المصرية ـ القاهرة، (بدون ط).

ونستطيع أن نميز ثلاث هبات مهمة أُوتيها محمد [ﷺ]. وكانت كل واحدة منها ضرورية لإتمام عمل محمد [ﷺ] بأكمله. لقد أوتي أولًا موهبة خاصة على رؤية المستقبل. فكان للعالم العربي بفضله، أو بفضل الوحي الذي ينزل عليه حسب رأي المسلمين، أساس فكري (إيديولوجي) حلت به الصعوبات الاجتماعية، وكان تكوين هذا الأساس الفكري يتطلب في الوقت نفسه حدسًا ينظر في الأسباب الأساسية للاضطراب الاجتماعي في ذلك العصر، والعبقرية الضرورية للتعبير عن هذا الحدس في صورة تستطيع إثارة العرب حتى أعمق كيانها.

وكان محمد [ﷺ] ثانيًا رجل دولة حكيمًا. ولم يكن هدف البناء الأساسي الذي نجده في القرآن، سوى دعم التدابير السياسية الملموسة والمؤسسات الواقعية. ولقد ألححنا خلال هذا الكتاب غالبًا على استراتيجية محمد [ﷺ] السياسية البعيدة النظر على إصلاحاته الاجتماعية ولقد دلّ على بعد نظره في هذه المسائل الانتشار السريع الذي جعل من دولته الصغيرة إمبراطورية، وتطبيق المؤسسات الاجتماعية على الظروف المجاورة واستمرارها خلال أكثر من ثلاثة عشر قرنًا.

وكان محمد [ﷺ] ثالثًا رجل إدارة بارعًا، فكان ذا بصيرة رائعة في اختيار الرجال الذين يندبهم للمسائل الإدارية. إذ لن يكون للمؤسسات المتينة والسياسة الحكيمة أثر إذا كان التطبيق خاطئًا مترددًا. وكانت الدولة التي أسسها محمد [ﷺ] عند وفاته، مؤسسة مزدهرة تستطيع الصمود في وجه الصدمة التي أحدثها غياب مؤسسها، ثم إذا بها بعد فترة تتلاءم مع الوضع الجديد وتتسع بسرعة خارقة اتساعًا رائعًا»[1].

---

(١) مونتكمري وات: محمد في مكة، ص ٥١٠ ـ ٥١١، تعريب: شعبان بركات، المكتبة العصرية ـ صيدا / بيروت.

ولا يخفى أن نجاح النبي ﷺ ـ في تحويل العرب عما كانوا عليه من أخلاق الجاهلية؛ التي أذكت فيهم روح العدوان فمزقتهم كل ممزق، وجعلتهم شيعًا وأحزابًا متناحرة، لا تعرف الهدوء ولا تتصور الوئام ـ إلى أن أصبحوا خير أمة أخرجت للناس في حملهم مشاعل الهداية لإخراج الناس من الظلمات إلى النور، ما كان إلا بدعوتهم إلى الإيمان الخالص واليقين الصادق، وقوة صلتهم بالله، وثقتهم بوعده ووعيده، فارتقوا إلى أن تبوأوا مكان الصدارة بين الأمم، وتمكنوا من قيادتها إلى الحق وإلى الطريق المستقيم، فالإيمان هو وحده بمشيئة الله كان العامل في هذه النهضة، والطاقة التي تضاءلت أمامها طاقات الخلق جميعًا، ولو كان ﷺ عني بالإصلاح الاجتماعي والسياسي، والارتقاء بالعرب أدبيًا وفكريًا من غير أن يعنى بغرس الإيمان في نفوسهم، لما استطاع أن يحول طباعهم، ويرتقي بنفوسهم إلى هذا المقام العالي، وإنما الإيمان بالله واليوم الآخر كان هو العامل الأوحد في هذا الانقلاب العظيم الذي كان في حياتهم.

وقد سجل شهادة بذلك الشاعر الأديب الفرنسي لامارتين (Lamartine) في قوله: «إنّ إنسانًا لم ينهض أبدًا ـ متطوّعًا أو غير متطوّع ـ لمثل هذا الهدف الأسمى، لأنّ هذا الهدف كان فوق طاقة البشر، لقد كان تحطيم تلك الحواجز من الأوهام والأحلام، التي حالت بين الإنسان وخالقه، والأخذ بيد الإنسان إلى عتبة ربّه، وتحقيق عقيدة التوحيد النقية العقلية المعقولة الساطعة، في ضباب هذه الوثنيّة السائدة والآلهة المادية، هو ذلك الهدف الأسمى والأعلى، إنّه لم يحمل إنسان مثل هذه المسؤولية الضخمة، والمهمّة العظيمة الجليلة، التي تخرج عن طوق البشر، بمثل هذه الوسائل الحقيرة الضئيلة».

إلى أن قال: «وأروع من ذلك أنّه هزّ تلك الأصنام والآلهة، والأديان، والتصوّرات، والعقائد والنفوس الإنسانية هزة عنيفة، إنّه بنى على أساس ذلك

الكتاب الذي يعتبر كلّ كلمة منه مصدر التشريع، قومية ربانية، ألّفت بين أفراد كلّ جيل، وسلالة، ولغة.

إنّ الميّزة الخالدة لهذه الأمـــة، التي كوّنها لنا محمد ﷺ أنّها شـــديدة المقت والتقزز من الآلهة الباطلة، شـــديدة الحبّ لله الواحد الذي يتنزّه عن المادة وشوائبها، وهذا هو الحبّ الذي يدفعه إلى الثأر والانتصاف من كلّ إهانة توجّه إلى الذات الإلهيّة، وهذا الحبّ يعتبر أساس سائر الفضائل عند هذه الأمّة.

لقد كان إخضاع ثلث العالم لهذه العقيـــدة الجديدة من مأثرته بلا ريب، لكنّ الأصحّ أنّه كان معجزة العقل لا معجزة فرد واحـــد، إنّ الإعلان بعقيدة التوحيد في زمن كانـــت تئنّ فيه الدّنيا تحت وطأة أصنـــام لا حصر لها، كان معجزة مستقلة بذاتها.

وما لبث محمّد ﷺ أن أعلن هذه العقيدة أمام الملأ، حتى أقفرت المعابد القديمة من عبادها فلا داعي فيها ولا مجيـــب، وتكهرب ثلث العالم بحرارة الإيمان»[1].

ولا يمكن الاستغناء عن هذا الإيمان بأي مؤثر آخر من أنواع الفلسفات، أو العلوم أو الحضارات، فها أنتم أولاء تبصرون عالم اليوم وما يزخر به من أنواع العلوم والفلسفة، وما يلتطم بين جنباته من حضارة مادية آتت من الثمار ما لم يعرف في التاريخ البشـــري كله، ولكن مع ذلك انقلبت هذه الحضارة ـ بكل ما تزخر به من علوم وفلسفة، وما تفرزه من إنجازات بلغت الغاية في

---

(١) الندوي؛ أبو الحسن علي الحسني: السيرة النبوية، ص ٨٣ ـ ٨٥، دار الشروق ـ جدة، ط ٧: ١٤٠٧هـ/١٩٨٦م، نقلًا عـــن: (لامارتيـــن) Lamartine (في كتابـــه) Histoire de la Turquie، ٢٧٦/٢ ـ ٢٧٧.

الإتقان ـ إلى جحيم متأجج تصلى الإنسانية سعيره وتكابد ويلاته، فكم أنتجت من وسائل للدمار لا تبقي ولا تذر، وما خطر السلاح النووي منا ببعيد، وكم أشيع بين الناس من رعب يوجف القلوب ويرجف الأرض بما يصدر من الدول الكبرى من تآمر على الإنسانية، واستخفاف بحقوقها، وعدم المبالاة بمصيرها، فكم أبيد من شعوب، وكم هتك من حرمات، وكم أزهق من أرواح، لا لشيء إلا الرغبة في فرض السيطرة وإذلال الأمم، وكثيرًا ما يكون ذلك باسم الديمقراطية والمحافظة على حقوق الإنسان، وما غزو أفغانستان والعراق من نفوسنا ببعيد، وجراح الشعب الفلسطيني العزيز لا يزال ينزف باستمرار، دعك من مآسي الشعوب المسلمة في مشارق الأرض ومغاربها كالشعب الروهنجي، والمسلمون أنفسهم لم يتركوا لحالهم، فالخطط لم تكف عن إيقاد نار الفتنة بينهم بأيديهم.

على أن الأمم المتغلبة القاهرة قد اصطلت نفسها ضرام فتنة لم تبق ولم تذر، وكانت معطيات الحضارة وقودها الذي يذكيها، فقد شبت نار الحرب العالمية الأولى بين دولتين عظميين بينهما قواسم مشتركة في التاريخ والدين والمذهب، والأسرتان اللتان كانتا حاكمتين فيهما تنحدران من أصل واحد وبينهما علاقة النسب والصهر، ولكن الأهواء السياسية دفعتهما إلى أن تطآ على هذا كله، وتنبذ كل ما بينهما من حقوق، وما كادت تشب نار الحرب بينهما حتى امتدت ألسنة ضرامها إلى أنحاء العالم، فأحست الدنيا كلها بوهج أوارها، وظلت سنوات تكابد من الخوف والمآسي ما تشيب منه الولدان، وقد خلفت هذه الحرب من الضحايا ما يفوت الحصر، ومن الخسارة ما لا يدخل في الحسبان.

ولم تكد تضع أوزارها ويستروح العالم نسائم السلام، وتمسح الثكالى والأرامل واليتامى دموع المآسي عن خدودهم حتى أفاق العالم من جديد

على حرب ثانية، كانت أشد ضراوة من سابقتها، فالتهمت في جوفها المنهوم ملايين الضحايا، وشردت من الشعوب والأمم ما يفوت الحصر، ودكدكت من العمران ما يثير الأسى والحسرة في كل نفس.

فليت شعري؛ أين كان صوت الحضارة الإنسانية؟ وأين كان نداء الفلسفات؟ بل أين كان نداء الفطرة عن هؤلاء جميعًا؟! ويا ترى هل كان هذا كله إلا ثمرة من ثمرات الخواء الروحي، وفقدان الإيمان بالله واليوم الآخر؟ فأي خسارة تعانيها الإنسانية من فقدان هذا الإيمان؟! وبأي شيء يمكن أن يسد الفراغ الذي يخلفه هذا الفقدان؟ أولا يكفي هذا كله دليلًا قاطعا وبرهانًا ساطعًا بأنّ أعدى الأعداء للإنسانية أولئك الذين ينادون بينها بنسف الإيمان واستبدال الإلحاد به؟!! أولا يكون هذا دليلًا على ضرورة التصدي لهؤلاء بما يقطع دابرهم ويستأصل شأفتهم ويجعلهم عبرة للآخرين؟!.



الفصل الثاني

في ضرورة الناس إلى الدين

وفيه ثمانية مباحث:

- المبحث الأول: في كون الدين مطلبًا فطريًا ملحًا.
- المبحث الثاني: في طبيعة الإنسان التي تضطره إلى التدين.
- المبحث الثالث: في ارتباط الأخلاق بالدين.
- المبحث الرابع: في كون الدين لا يمكن أن يخترع بالتجربة البشرية أو مقاييس العقول المحدودة.
- المبحث الخامس: إنّ الدين عند الله الإسلام.
- المبحث السادس: في سعة الشريعة الخاتمة التي جاء بها النبي ﷺ وعمقها وإعجازها.
- المبحث السابع: في حقيقة الدين والإسلام اللغوية والشرعية.
- المبحث الثامن: في مزايا الإسلام.

المبحث الأول

في كون الدين مطلبًا فطريًا ملحًا

كل لبيب مفكر يدرك أن الدين إنما هو استجابة لنداء الفطرة الذي ينبعث ملحًا من أعماق كل نفس، وكل إنسان بلا دين يشعر بأنه يعيش في خواء فكري وفراغ روحي، لا يملؤه إلا التدين، فلذلك بحث الناس عن الدين، وحاولوا في حال عدم وجدانهم له أن يخترعوه وفق ما تراءى لهم مما يلائم عقولهم، فعبدوا معبودات شتى، فمنهم من عبد الظواهر الكونية من الأجرام الفلكية، كالشمس والقمر والنجوم، أو البحار والأنهار، أو الجبال والأحجار والأشجار، ومنهم من عبد القوى الطبيعية كالرياح والأنواء، ومنهم من عبد الكائنات الخفية كالملائكة والجن، ومنهم من عبد الحيوانات سواء ما كان منها نافعًا كالبقر، أو ما كان منها ضارًا شديد الضرر كالحيات والعقارب، بل منهم من عبد حتى الضفادع والحشرات، ورمز كثير منهم لما يعبدونه بأصنام نحتوها بأيديهم، وصوروها بحسب خيالاتهم.

ولربما تحولوا من معبود إلى معبود آخر، كما كان شأن العرب، ففي **صحيح البخاري** ما نصه: حدثنا الصلت بن محمد، قال: سمعت مهدي بن ميمون، قال: سمعت أبا رجاء العطاردي، يقول: «كنا نعبد الحجر، فإذا وجدنا حجرًا هو أخير منه ألقيناه، وأخذنا الآخر، فإذا لم

نجد حجرًا جمعنا جثوة من تراب، ثم جئنا بالشاة فحلبناه عليه، ثم طفنا به»[١].

وقال الكلبي: «واستهترت العرب في عبادة الأصنام فمنهم من اتخذ بيتًا ومنهم من اتخذ صنمًا ومن لم يقدر عليه ولا على بناء بيت نصب حجرًا أمام الحرم وأمام غيره مما استحسن ثم طاف به كطوافه بالبيت، وسموها الأنصاب، فإذا كانت تماثيل دعوها الأصنام والأوثان وسموا طوافهم الدوار، فكان الرجل إذا سافر فنزل منزلًا أخذ أربعة أحجار فنظر إلى أحسنها فاتخذه ربًا وجعل ثلاث أثافي لقدره وإذا ارتحل تركه، فإذا نزل منزلًا آخر فعل مثل ذلك، فكانوا ينحرون ويذبحون عند كلها ويتقربون إليها»[٢].

وقد وصل الضلال ببعض العقول أن أصحابها ألَّهُوا العورات، فكانوا يعبدونها من دون الله تعالى، فقد ذكروا في تاريخ الهند أن رجال بعض الفرق الدينية كانوا يعبدون النساء العاريات، والنساء يعبدن الرجال العراة[٣].

وهو يدل على أن الدين الصحيح لا يهتدى إليه بالعقل وحده ولو سما، حتى غدا صاحبه من العباقرة الأفذاذ، وإنما يهتدى إليه بوحي الله تعالى، كما سيأتي إن شاء الله، ولكن ذلك في عمومه يدل على أن الإنسان يشعر من أعماق نفسه بأن الدين من ضرورات حياته، وأنه إن لم يكن له دين كانت حياته ضائعة، وأحواله مضطربة، ونفسيته غير مستقرة.

---

(١) رواه البخاري؛ صحيح البخاري، كتاب (٦٤) المغازي، باب (٧١) وفد بني حنيفة، وحديث ثمامة بن أثال، (رقم: ٤٣٧٦، ص ٣٥٨).

(٢) الكلبي؛ أبو المنذر هشام بن محمد بن السائب: كتاب الأصنام، ص ٣٣، تحقيق: أحمد زكي باشا، دار الكتب المصرية ـ القاهرة، ط ٣: ١٩٩٥م.

(٣) ينظر؛ أبو الحسن الندوي: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، ص ٤٥، المكتبة التوفيقية ـ القاهرة، ط ٢: ١٤٣٥هـ/٢٠١٤م، نقلًا عن: ستيارته بركاش لديالند سرسوتي الهندكي ص ٣٤٤.

المبحث الثاني

في طبيعة الإنسان التي تضطره إلى التدين

المتأمل في حياة الإنسان وحياة غيره من الكائنات الحية التي تشاركه الوجود على ظهر هذا الكوكب المظلم، يجد فارقًا كبيرًا بين الإنسان وغيره، فمع كون الإنسان لا يفوق جميع هذه الكائنات قوة في بنيته البدنية، ولا امتدادًا في عمره، ولا سعة في حجمه، ولا ثقلًا في وزنه، ولا جرأة في إقدامه، إلا أنه يفوقها بقوة تدبيره، وسعة تفكيره، وتنوع ملكاته، حتى أنه قوي على تسخير هذه الحيوانات جميعًا لمصلحته حتى ما كان منها أعظم بنية وأوسع قوة وأشد جرأة وأخطر بطشًا، فقد استطاع أن يسخر لمصلحته الأسود الضارية، التي هي أجرأ منه على الفتك والبطش، والفيلة المخيفة؛ التي هي تفوقه بمسافات في عظم أحجامها، وقوة أبدانها، وقل مثل ذلك في هوام البحر الضخمة كالقرش والحيتان، وكذلك الزواحف السامة المهيبة كالثعابين الضخمة وسائر هوام البر، فإنّ يد الإنسان مطلقة في تسخيرها لمصالحه، والانتفاع بها في حياته.

وقد جاء الإنسان بهذه الحيوانات على اختلافها من أبعاد براريها وأعماق بحارها، وأغوار جحورها، وكذلك من سعة أجوائها بالنسبة إلى الطيور، فقيد حركاتها في حظائر وأقفاص، ولم تستطع هي ـ مع ما أوتيت من القوى ـ أن تخرج الناس من مدنهم وقراهم، وتسيطر عليهم في أدغالها وبراريها أو في شطوطها وبحارها، وإنما ظل الإنسان حرًا طليقًا.

ومع هذا فإنّ يد الإنسان مطلقة تمتد إلى أي منفعة من منافع هذه الأرض، وما في أعماقها، وما فوق ظهرها، وما يحيط بها من الغلاف الهوائي لينتفع بكل شيء من ذلك، لأن الأرض كلها وكل ما اشتملت عليه إنما هي مخلوقة له، ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ [البقرة: ٢٩]، وبجانب ذلك سخرت له منافع الكون بأسره، فما من شيء من مخلوقات الله تعالى في هذه الآفاق الواسعة إلا وللإنسان منفعة فيه، ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ﴾ [الجاثية: ١٣].

وهذا يرجع إلى ملكاته العقلية وسعة أفقه الفكري، فبهذا كان الكون بأسره مسرحًا لاعتباره ومتحفًا لنظره وتأمله، ومجالًا لدراسته وتجربته، وقد جعل الله تعالى في طبيعته القدرة على التطور، ففي كل عصر يأتي بجديد من الوسائل التي تمكنه من الانتفاع بما خلق الله تعالى، وهذا ما لا يحتاج إلى دليل عليه، فقد تدرج الإنسان في وسائل النقل فأصبح يطوي المسافات ـ التي كان يقطعها في شهور وأعوام ـ في ساعات أو دقائق، وبعد أن كان تواصله مع بني جنسه يستغرق زمنًا ليس بالقصير ـ عندما تكون المسافات بينه وبينهم متباعدة، لأنه يتوقف على نقله بأيدي البشر المسافرين بتلك الوسائل البدائية ـ أصبح التواصل الآن ميسرًا بتسخير الأثير الذي ينقل الصورة والصوت في نفس اللحظة.

ولم يكن في شيء من ذلك نصيب للكائنات الحية الأخرى، ولو تفوقت على الإنسان في خصائصها التي تتميز بها، لأنها لم تمنح العقل الذي منحه، ولم تكن لها المزايا التي أوتيها، وهل يمكن أن يكون قد أوتي ما أوتي من هذه المزايا والخصائص لتكون حياته كحياتها، ينشره الميلاد ويطويه الفناء، كلا؛ وإنما أوتي هذه الخصائص وأفيضت عليه هذه المواهب لأن الله اختاره من بين مخلوقاته، ليكون خليفة في الأرض وسيدًا في الكون، بل اختاره لأن

يكون القطب الذي تدور عليه رحى الكون، ومعنى ذلك أن صلته بالله تعالى صلة متميزة، فقد استخلفه في الأرض ليقوم بعمارتها بأمر الله تعالى ولينظم حياته وحياة بني جنسه فيها بما يتواءم مع سنن الفطرة وطبيعة الحياة.

والمستخلف ـ بلا ريب ـ إنما ينفذ أمر من استخلفه، فهو مطالب أن ينفذ في حياته هذه أمر الله الذي استخلفه، ولم يكن الله ليدعه مع هذا لأهوائه المتقلبة ومزاجه المضطرب، وإنما لا بد له من دين يكون له حبلًا يصله بالله ﷻ، ويصله بنظام هذا الكون بأسره، فيكون هو الذي ينظم علاقته بربه سبحانه، ويصله بمحيطه الأسري والاجتماعي والقومي والجنسي، وبالمنظومة الكونية بأسرها، ومما يؤكد ضرورته إلى هذا أن كل فرد من أفراد جنسه لا بد من أن يكون موصولًا بغيره، والمصالح بينهم مشتركة، والمنافع متداخلة، وهذا مما يوجد بينهم التجاذب والتدافع، فإن لم يكن لهم دين يرجعون إليه ويُحَكِّمُونه في علاقاتهم هذه أدى ذلك إلى فتنة في الأرض وفساد كبير، حيث تصبح الحياة سعيرًا لا يطاق.

وبهذا كان الشعور بالحاجة إلى الدين يتصاعد من كل نفس، ويجلجل صوته في كل سمع، فوجد الناس أنفسهم مدفوعين إلى التدين إلا من شذّ منهم، ومعنى ذلك أن رفض التدين شذوذ وانحراف عن الفطرة، وقد أدرك حتى الملاحدة الضرورة إلى الدين من أجل انضباط أحوال الناس ـ لا سيما الدهماء منهم ـ فيما يتعلق بعلاقاتهم، واستقامة تصرفاتهم، كما نجد ذلك في تصرف **روبرت داروين** والد **تشارلز داروين** الذي اشتهر بنظرية النشوء والارتقاء ـ فإنه مع كونه ملحدًا، وقد ورث الإلحاد من والده **إرازموس داروين** صاحب كتاب **زونوميا**، حرص على أن يدخل ابنه المذكور في مدرسة لاهوتية ليصبح قسًا، كما أنه ساند الكنيسة الأنجليكانية لأنه رأى فيها ضابطًا للعامة، فبدون دين سيصبحون همجيين، كما حدث في الثورة

الفرنسية، أما الفكر الإلحادي فهو يرى أن يتداول في محيط النخبة وحدها، دون العامة والنساء[١].

فتبين بهذا أن الكل يدرك بأن الدين صمام أمان للبشر، يقيهم التردي في مهاوي الشقاق والنزاع، ولا فرق في ذلك بين النخبة من الناس وغيرها، فالجهلة والعلماء في ذلك سواء، وكذلك الملوك والسوقة، وإنما الحرمان من الإيمان هو الذي يسوق أمثال روبرت داروين إلى هذا التخبط في إدراك مكانة الدين في حياة الناس.

هذا؛ ولكن بما أن أكثر الناس تقاصرت هممهم عن البحث عن الدين الحق من مظانه من خزائن الوحي الإلهي تفرقت بهم السبل وهامت بهم الأفكار، فتصوروا الدين بحسب ما يتلاءم مع عقولهم القاصرة، وفكرهم المحدود، فسلكوا طرائق قددًا، وانقسموا شيعًا وأحزابًا ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٣]، لأجل هذا كان الدين لا بد من أن يكون مستمدًا من أمر الله، هو الذي يحدده ويرسم منهجه، ويبيّن مبدأه وغايته.

وقد تناول العلامة النحرير الشيخ **علي سرور الزنكلوني** ضرورة حياة الإنسان إلى الدين، في محاضرة ألقاها ـ بعنوان **الدين ضروري للسعادة والنظام** ـ في مساء يوم الأربعاء ١٤ رمضان ١٣٤٣هـ بدار الرابطة الشرقية بالقاهرة، ونشرها صديقه الحميم شيخنا العلامة أبو إسحاق إبراهيم اطفيش، في مجلته **المنهاج** في أول عدد يصدر منها، وذلك في شهر المحرم ١٣٤٤هـ، وقد كانت محاضرته هذه أمام جمهور من الناس مختلفة أديانهم، ولذلك لم يركز على الدين الإسلامي وحده، وإنما اهتم بإقناع الناس بأنهم مضطرون في انتظام أمرهم واستقرار حياتهم إلى قوة رادعة تحول بينهم وبين الوقوع في

---

(١) ينظر؛ الشايع؛ خالد بن عبد الرحمن: **معبد داروين، صفحات من التاريخ المنسي لأفكار داروين**، ص٨١، مركز دلائل ـ الرياض، ط ٢: ١٤٣٧هـ/٢٠١٦م.

الفتنة والشقاق، تسمى هذه القوة ـ عند الكل ـ دينًا، ولا ريب أن هذه المحاضرة إنما كانت محاولة لصد هجمات الأفكار التي بدأت تتسرب إلى أمة الإسلام، والمجتمع المسلم، الذي يضم شتيتًا من الناس يدينون في الأصل بأديان مختلفة، تلك الأفكار التي تدعو إلى التحلل من الدين، وترى أن التحرر منه هو السبيل إلى الترقي في مراتب الحضارة المعاصرة، وكان ذلك نتيجة رجوع البعثات التعليمية التي ابتعثت إلى الغرب، وهي خلو من تعاليم الإسلام وأصول الإيمان، فعادت إلى أوطانها يتردد على ألسنتها صدى تلك الدعوة إلى التخلص من الدين من أجل النهوض والرقي.

وقد كانت المحاضرة عميقة التصور، غزيرة الفائدة مهما كانت فيها من فقرات ينبغي الوقوف معها، لتصحيح بعض المفاهيم التي اشتملت عليها، ولأجل هذا أورد منها مجموعة من فقراتها مصحوبة بما بدا لي من الآراء التي قد تكون لها وجهة أخرى، فقد جاء فيها ما نصه:

«إن الدين الذي يدور عليه البحث الآن، والذي نتحدث عنه بأنه ضروري للسعادة وعنصر قوي في بناء الحياة هو الدين السماوي، الذي جاء به الوحي الصادق، سواء أيد بالمعجزات والخوارق لوجود التمرد الإنساني أو لا، وليس للمعجزات دخل في الشعور بالحاجة إلى الدين، بل الشعور بالحاجة إليه قد علم من قضايا العقل الصحيحة، وإن خفيت هذه القضايا عند تحكم النفس وإفراطها في الجنوح، وهنا يضعف بجانبها ذلك الشعور، وليست المعجزات إلا محض ضمان من الله على صدق رسله، وإعلان منه بأن ما جاؤا به من التشريع هو من عنده، لا من المفتريات والأكاذيب، ولا من مستنبطات العقل بمعونة حركته وتردده في محيط الوجود، وليس موضوع البحث الآن دينًا بعينه، وإنما موضوعه ما يثبت أنه دين سماوي، ولهذا أطلب مشاركة العقلاء والمفكرين من أهل النظر عمومًا في هذا الموضوع.

وأرجو الاستعانة بهم في بحث هذه المسألة الهامة التي هي في الواقع أهم مسائل الحياة، لتعلقها بمبدع الوجود، ومقدار صلة الإنسان به، ولأن لها وحدها القول الفصل في تقرير المصير، حيث إن دار الجزاء والخلود لا تعلم إلا من طريق الأديان، وليس في مقدور العقل وحده أن يصدر فيها حكمه الصحيح».

ثم عرج بعد هذا إلى ـ ما تقدمت الإشارة إليه في كلامنا من ـ ضرورة تميز حياة الإنسان على حياة غيره من الكائنات، بما تميز به من مواهب وما أوتيه من ملكات، وما ينوء به من تكاليف؛ بسبب هذا الذي اختص به، فقال: «ومن الجهالة الفاضحة أن يعيش الإنسان في هذه الحياة عيشة الأنعام، غير مهتم بالوقوف على أصل نشأته، وتقرير مصيره، ولا مفكر فيما يجب أن يكون عليه في هذه الحياة القصيرة المحصورة، بين النشأة والمصير، إنّ مسألة الأديان ليست من المسائل التافهة التي يصح أن تمر على العقل من غير بحث، ولا مما يجوز للعقل أن ينصرف عنها متلهيًا بالحياة المادية، فالأديان لها وجود بارز في كل زمان ومكان، وأكثر شعوب الأرض مطمئنة إلى ما يسمى دينًا، وحوادث الأنبياء والخوارق مملوء بها الوجود، والمذهب المادي ـ وإن كان قديمًا في التاريخ إلا أنه ـ ضعيف الوجود وضعيف الأثر معًا، ومحال أن تقاوم ظنونه الهائجة في أدمغة أهله ـ القليلي العدد المبعثرين في الفضاء ـ يقينيات الأديان المتواترة والممتزجة بدماء الشعوب والأفراد من آلاف السنين».

ثم انتقل بعد هذا إلى ما أصاب كثيرًا من الناس من الاشتغال بما لا أثر له في حياتهم، ولا تأثير منه على ما سينقلبون إليه بعد انتقالهم عنها إلى مصيرهم الذي يتحدد بحسب مسيرهم فيها، ويدعون الاهتمام بما يضبط مسيرهم ويحدد مصيرهم، مما يصلهم بربهم الذي خلقهم، ويصل بين

دنياهم وآخرتهم، فقال في ذلك: «إنّ من غريب أمر الإنسان، وتفريطه في أهم شئونه أن يحدث وأن يفاخر باستطلاع حياة كبار الرجال، وقد لا تمسه أبحاثهم ونتائج أفكارهم، ثم هو يهمل البحث عن وظيفة الأنبياء، وتاريخ حياتهم، وكيفية نشأتهم، وطريق دعوتهم، وعن الآثار التي خلفوها للعالم هل هي آثار نبوغ وتفوق، بحيث يشملها قانون الحياة، أم هي محض فيض إلهي تقف العقول أمامه عاجزة حائرة؟! مع أن البحث عن ذلك كله يمس الإنسان في كل أدوار وجوده، فقد جاؤا للعالم بنظام قالوا إنه من عند الله، ويرفعون أصواتهم بوجوب السعادة الأبدية لمن اتبعهم، وبسوء العاقبة لمن خالفهم، وسواء كان هذا القول منهم في ذاته صحيحًا أو فاسدًا فإنّه قد ترك أثره في الحياة لهذا كان من حق الإنسان أن يعنى ببحث هذا من طريق النظر الصحيح».

وهو يعني بهذا أن الإنسان قد يتردد بين أن يصدق هذا الذي جاء به الأنبياء، وأن لا يصدقه، وهو على كلا الحالين قد قامت عليه الحجة بما وصله من دعوتهم، فوجب عليه أن يعنى ببحث موضوع ما يدعون إليه، ودلائله ومقدماته ونتائجه، حتى يصل إلى عين اليقين، ولا يعني أن دعوة الأنبياء قد تكون غير حق في ذاتها، إذ الله تعالى هو الذي أرسلهم لتقوم بهم الحجة على خلقه، كما قال سبحانه: ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ﴾ [النساء: ١٦٥]، ولا يعذر من بلغته دعوة أحد منهم ـ سواء كان ذلك في زمانهم أو بعد زمانهم ـ إن لم يتقبلها ويستمسك بها ويَسِر في حياته على نهجها.

ثم بيّن بعد ذلك ضرورة تفكير الإنسان في نفسه مسيرًا ومصيرًا، لأن إهمال ذلك ينتهي به إلى هاوية لا قعر لها، فهو يدرك بأن هذا المسير له حد ينتهي إليه، ولا يدري متى ينقطع سيره، وتتوقف خطاه بوصوله إلى منتهى

أمده في هذه الحياة، والمصير غيب لا نافذة يمكن أن يطل منها عليه إلا ما جاء به الأنبياء من عند الله، الذي يعلم السر في السماوات والأرض، وله الآخرة والأولى، وفي هذا يقول: «إن أبحاث الإنسان كلها في هذه الحياة تدور حول نفسه، وأهم ما يتصل بنفسه علمه بما يجب أن يكون عليه في هذه الدار، وما يصير إليه بعدها، فإذا أهمل الإنسان ذلك البحث الخطير وجب أن يجرد من شرف الإنسانية الرفيع، لأن عقله وهو مناط ذلك الشرف قد شَلَّ في أهم جوانب الحياة وأشدها خطرًا، ومساسًا بالسعادة، وليس كل إنسان مكلفًا بهذا البحث الهام من طريق الاستدلال».

ولما كان السواد الأعظم من الناس ليسوا أولي قدرة على النظر في هذه الدقائق والتمييز بين حقها وباطلها، وصحيحها وسقيمها، لأنهم في غالب أمرهم تبع لمن يأتمون به، ويقتنعون بفكره من ساسة الدين أو قادة الفكر أو السياسة، كانت المسئولية العظمى في هذا تنوء بها كواهل قادتهم، الذين إن انحرفوا انحرف معهم جماهير من الناس لا تحصى، وإن اهتدوا اهتدت هذه الجماهير بهداهم، وفي مثل أولئك قال الله تعالى: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ۖ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [العنكبوت: ١٣]، ولذلك كتب النبي ﷺ لهرقل عظيم الروم: «**فإن توليت فعليك إثم الأريسيين**»[(١)]، ومثل ذلك ما كتبه لكسرى بن هرمز: «**وإن أبيت فإن إثم المجوس عليك**»[(٢)]، وقد بين المحاضر هذا في قوله: «وإنما المكلف به والمسئول عنه من هذا الطريق هم قادة الأفكار وزعماء الأمم، فحياة الجماهير دائمًا تابعة لحياة القادة، إذا

---

(١) رواه البخاري؛ **صحيح البخاري**، كتاب (٥٦) الجهاد، باب (٩٩) هل يرشد المسلم أهل الكتاب أو يعلمهم الكتاب، (رقم: ٢٩٣٦، ص ٢٣٦)، ومسلم؛ **صحيح مسلم**، كتاب (٣٢) الجهاد والسير، باب (٢٦) كتاب النبي ﷺ إلى هرقل يدعوه إلى الإسلام، (رقم: ١٧٧٣ [٤٦٠٨]، ص ٩٩٣).

(٢) الطبري: **تاريخ الأمم والملوك**، ١٣٣/٢.

ضل الأئمة الطريق أو أهملوا هذا الأمر فقد أوقعوا العالم في هاوية الشقاق والاضطراب.

وهنا يكون عليهم إثمهم وإثم العالم معهم، وليست المسألة صعبة المراس، بل هي من المسائل التي يستعرض العقل أشباهها بكثرة في خلال جهاده الفكري، كما أنها بعيدة عما يسمى تحكمًا دينيًا لأن كل دين لا يؤازره العقل في قواعده وما يرمي إليه من الأغراض فهو باطل، لأن الله تعالى لا يتخاطب إلا مع العقول ولا يطالب بالحجة غير العقول، وإذا علمنا أن العقل نصير الأديان ومؤازرها الوحيد، فلا بد لنا من الوقوف على مميزات هذا العقل وخصائصه، لأن العقول كثيرًا ما تضطرب وتتنازع بحكم انفعالات النفس وتأثيرات المادة فالعقل الذي يجب أن نتحاكم إليه هو العقل الذي يستمد حياته ونشاطه من محيط الوجود كله غير مقيد بجانب دون جانب، وغير متأثر بطابع الزمان والمكان لأنه في تلك الحالة يكون محيطًا بحقيقة الموضوع الذي يبحث عنه، وبصيرًا بعناصر قوته وضعفه، فالعالم الديني الذي لم يتعرف أسرار دينه ومراميه البعيدة ولم يشرف على كثير من ظواهر الحياة العامة غير صالح للنظر والتحكيم في هذه المسألة، وأبعد منه صلاحية بل أشد اجتراء على الله وعلى أهم قضايا الحياة من يجهل الأديان ثم يطلب الدخول في معركتها على غير هدى، وليس هذا من التحكم في شيء لأن علماء المنطق والفلسفة ـ وهم أحرص الناس على التمسك بالعقليات ـ يقولون في قواعدهم المسلمة: (الحكم على الشيء فرع عن تصوره) ولأن ما يجده الإنسان في نفسه بحكم المؤثرات الخاصة لا يبنى عليه نظام عام ولا يصلح أن يكون قوة دفاع في جهاد العقول، ولأن البحث إذا سار في طريق منظم تلذذ العقل بجهاده فيه وأثمر ثمراته الطيبة التي تعود على الإنسانية بالخير الكثير، أما إذا تأثر البحث وتمسك كل باحث بطابعه فالويل كل الويل للباحثين والمفكرين».

وهو بهذا يعني أن العقل السليم المنفتح على حقائق الوجود، القادر على تنسيق القضايا المتباينة في صورها وحقيقتها تنسيقًا يوائم بينها ويبوئ كل شيء منها مكانه اللائق به في نظام رتيب هو القادر على النظر في اختلاف الأديان، ونزاعها وشقاقها، والتمييز بين ما هو صحيح وما هو باطل فيها، هذا مع جعل الوحي الرباني الثابت بالدلائل القطعية هو المحور الذي يدور عليه بحثه، ومنه يستمد وجهته ونظره.

«وإذا تبين لنا أن بحث الأديان يجب أن يكون في مقدمة الأبحاث وأن القادة في كل عصر هم المسئولون عما يصيب العالم من جهالة واضطراب، فمن هم المفكرون الذين تلقى على عواتقهم تبعة هذا الأمر الخطير؟ أنلقيه على رجال الدين وهم أشد أهل الأرض حرصًا على شخصيتهم الدينية؟ أم على علماء المادة وهم ينكرون أساس الأديان ولا يعترفون بالمبدأ والمعاد؟.

وإذا كان كل فريق غير مأمون الميل إلى مذهبه الخاص ـ ومن خير الإنسانية أن يقدم لهذا البحث بريئًا من كل تعصب ـ فمن العدل أن يشترك أهل النظر جميعًا في هذا الموضوع وكل يدلي فيه بحجته في ثوبها النضير وطريقها المستقيم، ويجب أن يكون الشرق منار هذا البحث وفاتحة الكلام فيه، لأنه مهبط الوحي وتربته صالحة لاستثماره مع ما تقلب فيها على تعاليم الأنبياء من الحشائش والسموم، لأن استخراج السموم وتنقية الحشائش إذا عني بالأمر أيسر على الناظر من معالجة تيار المادة القوي، فالحياة الغربية كلها مادية مع ما فيها من عبقرية ونضوج لا يوجدان في الشرق، والذكاء وحده لا يكفل سعادة، وكذلك العلوم بمجردها بل قد يكون الكل شرًا على العالم ما دام محرك الذكاء شهوة ولذة، والغاية إلى العلوم استكمال حياة المادة. ولأن القاعدة في الحوادث الهامة أن ينتقل القضاء إلى مكان الحادث إذا اشتبه عليه الأمر، والشرق في هذا المعنى أقوى من الغرب وأوضح دلائل وأمارات».

وقد كان في خطابه هذا يخاطب العقول المتنوعة التي تنتسب إلى ديانات شتى، فلذلك أرخى العنان ووسع المجال في بحثه هذا مستلهمًا هذه السعة في النقاش والبحث، مما يوحي به قوله تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٦]، ومن حيث إنّ أمم الشرق ـ وإن طرأ عليه ما طرأ من اضطراب التفكير واختلال المعايير ـ هم أقرب إلى منابع الدين وأقوى على تصور حقائقه وإدراك مضامينه، وهم أسلم من الغرق في خضم المادية من الغربيين، كان تركيزه عليهم لعلهم باجتماعهم وتعاونهم على النظر والبحث يصلون إلى فهم الدين الحق، الذي يجمع ولا يشتت، ويؤلف ولا ينفر.

ثم بيّن ما عسى أن يكون من رأي معاكس في هذا من قبل الذين تأثروا بالغرب وانبهروا بمعطياته الحضارية المعاصرة، فقال في ذلك: «ورب قائل يقول: إنّ الغربيين في نشاطهم المادي لا يهملون مسائل الحياة الروحية، ولا يفرطون في البحث عن الكمال الأدبي بجانب الكمال المادي، بل عنايتهم بالروحيات والحياة الخلقية أقوى من عناية الشرق بها، وإذن يكون جو الغرب أصلح وأهله أقدر على البحث والتمحيص.

فالجواب: أنّ هذه الأبحاث وإن تناولتها عقولهم وفاضت بها مؤلفاتهم؛ فليس الباعث عليها الغرض الأسمى الذي جاءت به الأديان من تحصيل السعادة الأبدية، وإنما الباعث عليها أغراض تدور حول المادة وتنتهي إليها حتى في فلسفتهم وتصوفهم وتدينهم الخاشع، وكل ما يطلبون من حياة فاضلة، وكمال خلقي، فإنّما يحصلون به لذة نفسية أو شهوة عقلية حتى ما يسمونه خدمة الإنسانية بحسب تقديرهم، لأن الأديان لا تعرف إلا العبادة الخالصة لله ولا تتجه للحياة المادية في جواهرها وأغراضها إلا كوسيلة للسعادة الأبدية

والنعيم المقيم، ولـــو أن في هذه الحياة الغربية الراقية شـــعورًا قويًا بالله وبدار الجزاء ولو في علمائهم ومتدينيهم لانتشرت الدعوة إلى الله، بجانب الدعوة إلى المادة، وخفت ويلات الحياة، ولما رزئ العالم كله بهذا البلاء العظيم.

لهذا كان من حق الشـــرق أن يتولى هذا البحث، ومن حق مصر أن يتسع له صدرها ومن حق الرابطة الشرقية أن تخوض غماره وتسابق فيه لوفرة الشروط في رجالها، وقيام وحدتهم على الإخاء وحســـن التفاهم، وخدمة الشرق والإنسانية معًا، ولولا ذلك ما قدمت عليه في هذا المجمع المتواضع، على أن الله تعالى قد يخلق من الضعف قوة ويفتح من الإجمال بابًا واسعًا للباحثين والمفكرين، لأن هذا الموضوع في الواقع بعيد الغور ومتســـع الأطـــراف، إذ الكلام على الأديان السماوية تفصيلًا يستتبع الكلام على أسسها وأغراضها وتطوراتها، والعناصر التي يجب أن تبقى ما بقيـــت الحياة، لأنها روحها وقوتهـــا، والعناصر التي يجب أن تتخلف عند الظروف والأسباب، وتحفظ في نفائس الآثار.

والكلام علـــى هذا الموضوع أيضًـــا يتفرع عنه البحث عن أثر التشـــريع السماوي في التشريع الوضعي، وعما أصاب الأديان من الضعف والانحلال، وما عرض لهـــا من الجمود إلى غير ذلـــك مما تتجلى فيـــه الحقيقة ويتم به التمحيص، وكل هذا لا يكفي له محاضرة أو محاضـــرات من ضعيف مثلي وإذا تم البحث على هذا الوجه فأنا على يقين من أن أهل الأديان ســـيتفقون ويتلاقون جميعًا في طريق الله الواضح المستقيم» اهـ[1].

وأنت ترى فيما ذكره في محاضرته هذه يركـــز على جمع كلمة المتدينين في الشرق؛ حتى لا تتشعث فيتبع ذلك تنازع أصحاب الديانات وشقاقهم حتى

---

(١) المنهاج: مجلة علمية سياسية اجتماعية نصف شهرية، العدد الصادر في غرة محرم ١٣٤٤هـ، ١٩/١ ـ ٢٣، تصدر بالقاهرة غرة كل شـــهر عربـــي، صاحبها: أبو إســـحاق؛ إبراهيم اطفيش الجزائري، المطبعة السلفية ـ مصر.

تنجم بينهم الفتن، وتتفرق بهم الأهواء، وقد توسع في خطابه وكان مداره على العقل، لأنه هو الذي يمكن أن يلتقوا عليه، وأن يرجعوا في اختلافهم إليه، هذا مع إشاراته المتعددة إلى أن الوحي هو الموجه الأول في مجال الدين، وعليه يجب أن يكون معوَّلهم، لأنه صادر عن الله تعالى الذي يعلم السر في السماوات والأرض، وقد توسع في التعبير عن الدين السماوي، فذكر أديانًا سماوية، مع أن الدين السماوي لا يتعدد، كما سنبينه إن شاء الله تعالى.

ومهما يكن فإنّ ما أورده جميعًا يؤكد أن الدين هو أهم ضرورات الحياة، فبدونه تكون الحياة معتمة الجوانب، متشعبة المسالك، متناقضة الأحوال، ضائعة الأهداف.

وقد تعرض د. **عبد القادر بخوش** في بحثه **مفهوم الدين بين الفكر الإسلامي والمسيحي** لكون الدين ضرورة بشرية، لا تستقر بدونها حياة الناس، ولا تطمئن نفوسهم إلا به، وأن تدين الناس جميعًا استجابة لمطلب فطري في نفوسهم، وأنه لا فرق في ذلك بين العالم والجاهل، والفطن والغبي، والمتحضر والمتخلف، وذلك في قوله: «إن نزعة التديُّن نزعة مغروسة في أعماق النفس البشرية، فالغريزة الدينية مشتركة بين الأجناس البشرية حتى أشدها همجية وبدائية، وإنّ التطلع فوق الطبيعة هو إحدى النزعات العالمية الخالدة الإنسانية، لقد وُجدت جماعات إنسانية بدائية من غير علوم وفنون وحضارات ولكن لا نكاد نعثر على جماعة بشرية بغير ديانة.

فالدين ظاهرة إنسانية عامة شاملة ملازمة للإنسان حيثما وجد، أقرت به معابد وأهرامات ودور مقدسة، كما شهدت به بقايا ما قبل التاريخ بما حوته من نقوش ورموز وآثار ذات صبغة دينية»[1].

---

(١) بحث بعنوان **مفهوم الدين بين الفكر الإسلامي والمسيحي** للدكتور عبد القادر بخوش، ينظر؛ موقع إسلام أون لاين: https://archive.islamonline.net/?p=324

المبحث الثاني

في ارتباط الأخلاق بالدين

لا يخفى ما للأخلاق من أثر في حياة الناس النفسية والاجتماعية، وهي ـ بلا ريب ـ ميدان فسيح واسع، تتبارى فيه الأمم كما تتبارى في مضماره أفرادها، فكل أحد بفطرته يحب أن يكون متميزًا بين أقرانه بمحاسن الأخلاق ومكارمها، ولذلك يسوء الإنسان أن يوصف بالبخل، والجبن، وخمول الهمّة، وسوء المعاملة للآخرين، ويسره أن يوصف بأضدادها، وكما أن ذلك مطلب فطري بالنظر إلى حال الأفراد، فإنّه بالطبع ينعكس على أحوال المجتمعات والأمم، فتجد كل عشيرة وكل جنس من الناس وكل مجتمع من المجتمعات تحرص جميعًا على إشاعة اتصافها بمكارم الأخلاق، ويسوؤها أن توصف بعكسها، فإنّ الأمم ـ بلا ريب ـ تقاس بأخلاقها تقدمًا وتأخرًا، ورقيًا وانحطاطًا، حتى تعد إن فنيت أخلاقها أممًا فانية، كما قال أمير الشعراء أحمد شوقي:

وَإِنَّما الأُمَمُ الأَخلاقُ ما بَقِيَت ... فَإِن تَوَلَّت مَضَوا في إِثرِها قُدُما

ولما كانت الأخلاق ميزة في الناس وميزانًا قسطًا لقيمهم وأقدارهم كان الناس يتنافرون ويتفاخرون بتعداد مزاياهم في الأخلاق، حتى ولو كانوا منغمسين في الضلالات، فنجد العرب ـ في جاهليتهم الجهلاء ـ كانوا يعدون مكارم الأخلاق من أسنى المفاخر التي بها يتباهون، فمع عدم إيمانهم باليوم

الآخر كانوا يعدون الإيثار والعفة من أحسن ما يتصف به الناس ويتباهى به الرجال والنساء، كما في قول الطفيل الغنوي:

وَلا أَقولُ لِجارِ البَيتِ يَتبَعُني نَفِّس مَحَلَّكَ إِنَّ الجَوَّ مَحلولُ
وَلا أُخالِفُ جاري في خَليلَتِهِ وَلا اِبنُ عَمّيَ غالَتني إِذًا غولُ

وقول جساس بن مرة:

إِنَّما جاري لَعَمري فَاِعلَموا أَدنى عِيالي
وَأَرى لِلجارِ حَقًّا كَيَميني مِن شِمالي
وَأَرى ناقَةَ جاري فَاِعلَموا مِثلَ جِمالي
إِنَّما ناقَةُ جاري في جِواري وَظِلالي
إِنَّ لِلجارِ عَلَينا دَفعَ ضَيمٍ بِالعَوالي
فَأَقِلّي اللَومَ مَهلًا دونَ عِرضِ الجارِ مالي
سَوفَ أَقضي حَقَّ جاري وَيَدي رَهنٌ فِعالي

وقول حاتم الطائي:

إِذا ما بِتُّ أَختِلُ عِرسَ جاري لِيُخفِيَني الظَلامُ فَلا خَفيتُ
أَأَفضَحُ جارَتي وَأَخونُ جاري مَعاذَ اللَهِ أَفعَلُ ما حَيِيتُ

وقول هبيرة المري:

جارَكَ يا مَضاءَ فَإِنَّ جاري حَرامٌ عِرضُهُ حَتّى يَبينا

ولا غرو أن تكون الأخلاق هي مناط التفاخر عند أمة لا تزال تحتفظ ببقية من سلامة الفطرة، وزكاء الطبع ولأجل ذلك زكى الله ﷻ رسوله عليه أفضل الصلاة والسلام بما وصفه به من كريم الخلق عندما قال:

﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]، وكم نوه النبي ﷺ بمكارم الأخلاق، وجعلها هي ميزان التفاضل بين الناس، فقد ثبت عنه قوله: «**خياركم أحاسنكم أخلاقًا**»[١]، بل بين النبي ﷺ ـ فيما روي عنه ـ أن رسالته جاءت متممة لمكارم الأخلاق، كما جاء من قوله: «**بعثت لأتمم صالح الأخلاق**»[٢]، لأجل ذلك ظل الناس في الإسلام يتفيأون مكارم الأخلاق ويعدونها من أحسن المزايا التي ترفع الناس بعضهم فوق بعض ويعتزون بها في مساجلاتهم الأدبية، كما كان ذلك من مسكين الدارمي في قوله:

لا يرهب الجيران غدرتنا ... حَتىّ يواري ذكرنا القَبرُ
لسنا كأَقوام إذا كلحت ... إحدى السنين فجارهم تمرُ
مَولاهم لحم على وضم ... تَنتابه العقبان وَالنسرُ

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة من طريق ابن عمرو؛ **مصنف ابن أبي شيبة**، كتاب (١٩) الأدب، باب (١) ما ذكر في الرفق والتؤدة، (رقم: ٢٥٣٠٨، ٥/٢١١)، وأحمد؛ **مسند أحمد**، (رقم: ٦٨١٨، ٦/٣٢٣)، والبخاري؛ **صحيح البخاري**، كتاب (٧٨) الأدب، باب (٣٩) حسن الخلق والسخاء وما يكره من البخل، (رقم: ٦٠٣٥، ص ٥١٠)، ومسلم؛ **صحيح مسلم**، كتاب (٤٣) الفضائل، باب (١٦) كثرة حيائه ﷺ، (رقم: ٢٣٢١ [٦٠٣٣]، ص ١٠٨٧)، والترمذي؛ **سنن الترمذي**، (٢٥) أبواب البر والصلة، باب (٤٧) ما جاء في الفحش، (رقم: ١٩٧٥، ص ١٨٥٠) وقال: «حسن صحيح»، والبزار؛ **البحر الزخار**، (رقم: ٢٤١٧، ٦/٣٩٥)، وابن حبان؛ **صحيح ابن حبان**، كتاب (٦) البر والإحسان، باب (٧) حسن الخلق، (رقم: ٤٧٧، ٢/٢٢٥ ـ ٢٢٦).
ومن طريق ابن عباس: أخرجه عبد بن حميد؛ **مسند عبد بن حميد**، (رقم: ٦٢٧، ص ٢١٢)، والخطيب؛ **تاريخ بغداد**، ترجمة: محمد بن عبد الرحمن الطبري، (رقم الترجمة: ٨٠٤)، (٢/٣١٦)، والديلمي؛ **فردوس الأخبار**، (رقم: ٢٦٨٢، ٢/٢٧٤).

(٢) أخرجه من طريق أبي هريرة الحاكم؛ **المستدرك**، كتاب (٢٨) تواريخ المتقدمين من الأنبياء والمرسلين، (رقم: ٤٢٢١، ٢/٦٧٠) وقال: «صحيح على شرط مسلم». والبيهقي؛ **السنن الكبرى**، كتاب الشهادات، باب (٤٠) بيان مكارم الأخلاق ومعاليها، (رقم: ٢٠٧٨٣، ١٠/٣٢٣)، والديلمي؛ **فردوس الأخبار**، (رقم: ١٩١٩، ٢/١٣).

نـاري ونـار الجـار واحـدة ... وَإليـهِ قبلـي تُنـزل القـدرُ
مـا ضَـرَّ جـاري إذ أَجـاوره ... أَن لا يَكـون لبيتـه سـترُ
أَعمى إذا مـا جارتي خرجت ... حتىّ يـواري جارتـي الخدرُ
وَيصـم عمـا كان بينهمـا ... سَـمعي وَما بـي غيـره وقرُ

وقبل الاستطراد في هذا المجال لا بد من تحديد الأخلاق ما هي؟

ففي **العين** ما نصـه: «الخليقة: الخلـق، والخليقة: الطبيعـة. والجميع: الخلائق»[١]، وفي **اللسان**: «والخلق الخليقة أعني الطبيعة. وفي التنزيل: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]، والجمع أخلاق، لا يكسـر على غير ذلك. والخُلْق والخُلُق: السـجية. يقال: خالص المؤمن وخالق الفاجر. وفي الحديث: (ليس شيء في الميزان أثقل من حسن الخلق)»[٢].

وقال أيضًا: «والثواب والعقاب يتعلقان بأوصاف الصورة الباطنة أكثر مما يتعلقان بأوصاف الصورة الظاهرة، ولهذا تكررت الأحاديث في مدح حُسـن الخلق في غير موضع كقوله: (من أكثر ما يدخل الناس الجنة تقوى الله وحسن الخلـق)، وقوله: (أكمل المؤمنين إيمانا أحسـنهم خلقًـا)، وقوله: (إن العبد ليدرك بحسـن خلقه درجـة الصائم القائـم)، وقوله: (بعثـت لأتمم مكارم الأخلاق)؛ وكذلك جاءت في ذم سوء الخلق أيضًا أحاديث كثيرة. وفي حديث عائشـة رضي الله عنها: (كان خلقه القرآن)، أي كان متمسكًا به وبآدابه وأوامره ونواهيه وما يشتمل عليه من المكارم والمحاسن والألطاف»[٣].

---

(١) الفراهيدي؛ الخليل بن أحمد الأزدي: العين، باب الخاء والقاف واللام معهما، ١٥١/٤، تحقيق: مهدي مخزومي، وإبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال، (بدون ط).
(٢) ابن منظور: لسان العرب، مادة (خلق)، ١٤٠/٥.
(٣) المرجع السابق، مادة (خلق)، ١٤٠/٥.

وقد عرفت الأخلاق أو الفلسفة الأخلاقية بأنها: «دراسة أفعال الإنسان من حيث إنها صالحة أو طالحة، ويتعلق موضوعها بما يقوم به الأفراد والجماعات من أفعال»[١].

هذا؛ ولا يخفى ما لتدين المرء من أثر على خلقه، فإنّ الأخلاق ثمرات لعقيدة الإنسان بحسب استقامتها أو اعوجاجها، فقد يتفاوت النظر إلى قضية واحدة بين الناس، فتستحسنها فئة منهم، وتستقبحها فئة أخرى، بحسب ما يكون من تصوراتهم الراجعة إلى قدر إيمانهم بالغيب، وإيمانهم بالجزاء على الخير أو الشر، ولذلك فإنّ الإنسان بمجرد إيمانه بالله واليوم الآخر يكف نفسه عن كثير مما تدعوه إليه من التدني في الأخلاق، ويرتقي بها إلى أوج مكارمها، فكأين من أحد نشأ في بيئة إلحادية مادية كان يتباهى بإعطاء نفسه أمانيها مما تهواه من المتع ولو كانت على حساب الفضائل، فما كان يبالي أن يرى بين جماهير الناس وهو يتأبط معصم امرأة أجنبية منه، وهي أشبه بالعارية تمامًا، بل ربما لم يكن يبالي أن يبادلها القبل، ويتعانقا كأنهما زوجان على فراش الزوجية وراء الأستار، ولكن لا يكاد يلامس الإيمان شغاف قلبه حتى يرعوي عن ذلك كله، ويرى أن هذه دنايا تنحط بالإنسان إلى أسفل الدركات.

وكذلك قد يصدر من الإنسان في غياب إيمانه بالله واليوم الآخر أنواع من قبائح الأقوال، من غير أن يقيم وزنًا لما تقتضيه الأخلاق من ضبط اللسان، وتنزيه الكلام عن الخنا والفجور، ولكن عندما يغدو في عداد المؤمنين يأبى ذلك كله على نفسه، فيكون كلامه كله موزونًا بموازين الفضيلة، ومضبوطًا بضوابط الإحسان.

---

(١) مجموعة باحثين: الموسوعة العربية العالمية، حرف (أ) ـ الأخلاق، ٣٥٠/١، مؤسسة أعمال الموسوعة ـ الرياض، ط ٢: ١٤١٩هـ/١٩٩٩م.

ولهذا تجد الملاحدة لا يقيمون وزنًا للأخلاق، لأن الإنسان عندهم لا يتدنى إلى قدر البهيمة العجماء فحسب، بل لا يتعدى قدره قدر الآلة الصماء التي لا تعنيها الأخلاق، ولا تهمها الفضيلة، فلا يبالون فيما يأتون أو يذرون من الأقوال والأفعال بمحمودها أو مذمومها، وهذا ما جاهر به الملاحدة، إذ لم يبالوا بهتك حرمات الأخلاق ـ سواء في الأقوال أو الأفعال ـ استجابة لنزعات أنفسهم ومسايرة لرغباتها، ذلك لأن في الكون الإلحادي لا توجد غير الأعراض الفيزيائية، وكل ما عدا ذلك فوهم[١].

وقد اعترف الفيلسوف الملحد **ألكسندر روزنبرج** «أن المادية الفلسفية يلزم منها القول بالإلحاد، ويلزم من الإلحاد القول بالعدمية، ومنها العدمية الأخلاقية، غير أنّ الملاحدة ـ كما يقول ـ يفرون من لازم المادية لأنهم يرون كارثية هذه النتيجة، كما أنهم يخشون مواجهة الناس بها، إذ إن القول: (إنّ كل شيء مقبول) هو عين العدمية، والعدمية سيئة السمعة»[٢].

ويلخص روزنبرج حقيقة العدمية وأعراضها القيمية بقوله: «ترفض العدمية التمييز بين الأعمال المقبولة أخلاقيًا والممنوعة والمطلوبة، لا تخبرنا العدمية أنه ليس بإمكاننا أن نعرف أي الأحكام الأخلاقية صحيح، وإنما تخبرنا أنها كلها خطأ، وبصورة أدقّ، تزعم العدمية أنّ كل الأحكام الأخلاقية مؤسسة على افتراضات لا أساس لها وخاطئة، تقول العدمية إنّ فكرة **المباح أخلاقيًا** بأكملها لا يمكن الدفاع عنها وهي بلا معنى، بالإضافة إلى ذلك تنكر العدمية على الحقيقة وجود شيء يسمى القيمة الجوهرية الأخلاقية، كما تنكر وجود أي شيء جيد في نفسه أو قبيح في نفسه»[٣].

---

(١) ينظر؛ عامري؛ سامي: **براهين وجود الله في النفس والعقل والعلم**، ص٢٣٢، مركز تكوين ـ المملكة العربية السعودية/الخبر، ط١: ١٤٤٠هـ/٢٠١٨م.

(٢) المرجع السابق، ص٢٣٣، نقلاً عن: Alex Rosenberg, The Atheist's Guide to Reality, p. 95

(٣) المرجع السابق، ص٢٣٣ ـ ٢٣٤.

ومعنى ذلك أن موازين الإلحاد لا يوجد فيها فرق بين الحق والباطل، والصلاح والفساد، والنفع والضر، والإنصاف والظلم، فلا يرجح حق على باطل، ولا صلاح على فساد، ولا نفع على ضر، ولا إنصاف على ظلم، وإنما كل أحد حر في تصرفه بحسب ما يتسنى له، ومن كان أنفع الناس للناس لا يعدو قدره قدر من كان أضرهم للناس.

وقد اعترف روزنبرج أنه يلزم من العدمية ثلاثة أمور:

«**أولها**: العجز عن إدانة (هتلر) أو (ستالين) أو (ماو) أو (بول بوت) أو أي مجرم من مجرمي التاريخ الحديث؛ لافتقاد أرضية أخلاقية، لأنه ليس كائنًا أخلاقيًا.

ثانيها: أن لا يثق الناس في العدمي، لأنه ليس كائنًا أخلاقيًا.

ثالثها: العدمية مدمرة للمجتمع، والقول بالعدمية سيرد الإنسان إلى الطابع الأناني والوحشي كما صورهم الفيلسوف (هوبز) في الإنسان العاري من مجملات الحضارة، ومن المؤكد أننا نحب أن لا نكون عدميين إذا استطعنا تفادي ذلك، كما لا نحب لغيرنا أن يكون عدميًا»[1].

هذا؛ وقد علمت مما تقدم أن الأخلاق هي سجايا نفسية حميدة تفرزها فطرة سليمة في نفس الإنسان، يميل إليها الطبع ويتقبلها العقل وما كان بخلافها، فهو مرفوض لدى العقول، ولهذا فإنّ سيء الأخلاق يظل منبوذًا مقليًا حتى من أخص خاصته وأقرب قرابته، وإنما تتغلب عوامل على هذه السجايا في النفوس فتنحرف بها حتى تحمد المذموم، وتذم المحمود، وتألف المنكر، وتتنكر للمعروف، وقد نشأ عن ذلك ما نشأ عند الذين تخلوا عن الدين، مما كان منهم من استساغة الجرائم وجنوحهم إلى

---

(١) المرجع السابق، ص ٢٣٤.

الفساد، وإنكارهم للخير، ودعمهم للشر، فقد تتغلب عصبية مقيتة لفكرة باطلة يترتب عليها تأييد الإجرام بكل أنواعه، كما كان ذلك من الملاحدة الذين تمكنوا من بسط نفوذهم في الأرض، وقد سبق بيان صور من أنواع الفساد الذي مارسوه، وكانت الجماهير المؤمنة بفكرهم المنحرف تؤيد بقوة وحماس كل ما يصدر عنهم من إجرام وإن كانت تشمئز منهم النفوس وتتقزز منهم الطباع.

ولربما قام هاجس في نفس أحدهم يستنكر ما يجري ولكن على الرغم مما يكون من اضطراب النفس بسبب هذا الهاجس، فإنّ العصبية للفكر الضال المنحرف تجعل صاحبها يتجاهل الهاجس الذي يؤرق ليله ويشغل نهاره حتى يموت ذلك الهاجس في نفسه، ويمضي قدمًا في طريق الشر غير لاو على شيء ومثل هذا الهاجس قد ينتاب النفوس التي بلغت مداها في التعنت والعناد، كما تجد هذا في كلام ريتشارد دوكينز الملحد العنيد المتعنت، حيث يقول: «أنا ـ كعالم طبيعة أكاديمي ـ أعد نفسي داروينيًا متحمسًا لذلك، مؤمنًا أنّ الانتخاب الطبيعي إن لم يكن القوة الدافعة الوحيدة في التطور فهو بالتأكيد القوة الوحيدة المعروفة القادرة على إنتاج وهم الغاية (purpose) الذي تمكن من عقل كل من يفكر في الطبيعة، ولكن في الوقت نفسه الذي أدعم فيه الداروينية ـ كعالم طبيعة ـ أنا معاد للداروينية بحماسة (Passionate anti-Darwinian) عندما يتعلق الأمر بالسياسة، وكيف ينبغي لنا أن ندير شئوننا الإنسانية»[1].

ومعنى ذلك أنّ نفسية الملحد المتنكر للأخلاق تظل في صراع مع هاجسها الفطري بسبب هذا التنكر، لأن الأخلاق تنشأ من الفطرة وإن تفاوتت معاييرها عند الناس.

---

(١) المرجع السابق، ص٢٣٥، نقلاً عن: Richard Dawkins, A Devil's Chaplain, pp.10-11

ويعلق د. سامي عامري على كلام دوكينز بأن: «سبب هذا القهر النفسي الذي تمارسه الأخلاق الموضوعية على النفس أنها من المباديء الأولى الضرورية للعمل السوي للنفس، ورفض هذه المسلمات ينتهي بالإنسان إلى أن يتصرف بصورة غير طبيعية، فيلتذ بتعذيب الرضع لمحض المرح، أو يأكلهم كما يفعل (Psychopath Cannibals) وهي أمور يرفضها الناس لا لأنها مما لا يميل إليه المرء أو لا يرضاه لنفسه، وإنما لأنها فعل قبيح في ذاته، بشع في نفسه، غير إنساني في جوهره.

إنّ كل قول للملحد: (إنّ الأخلاق مجرد تواضع اجتماعي على قبول قيمة ما، وإنّ الإنسان مجرد حيوان مترق عن شبيه قرد) لا يملك أن يدفع عن نفس الملحد النكارة الجوهرية لقتل رضيع بسكين حادة، واللهو بأشلائه ليلة مرح.

إنّ برهان الأخلاق لا يسعى لقهر الملحد أن يقول بموضوعية الأخلاق من خلال برهان علمي، أو كشف كوني، وإنما هو يدفع الملحد إلى أن يواجه نفسه بأن يجمع في تناسق بين رؤيته الكونية ومذهبه الأخلاقي، وسبيل ذلك رفع مضمراته الأخلاقية إلى سطح وعيه، ليفحص العقل الفلسفي تجانس هذه المضمرات، مع صريح رؤيته الكونية، إنه برهان يضع الإنسان أمام نفسه، هل هو نسيج واحد أم شتات مبعثر»[1].

وقد وقع الملاحدة في اضطراب غريب بين ما يقتضيه إلحادهم من عدم إقامة وزن للأخلاق في الحياة ـ ذلك لأن الأخلاق لا بد لها في الحياة من معايير ثابتة تستلهم من خارج النفس ـ وبين ما يحسونه في أعماق نفوسهم من عدم تساوي الخير والشر، وتعادل الإحسان والإساءة، وقد عُرف من فلسفة الإلحاد وسلوك الملحدين أنه لا يوجد حاجز يمنع الإنسان من أن

---

(١) المرجع السابق، ص ٢٣٥.

يسعى إلى مصلحة نفسه على حساب مصالح الآخرين، فلا يقام وزن للنفع والضر إلا بقدر ما يعود منهما على الإنسان نفسه، ولكن يبقى الهاجس النفسي يعارض بشدة هذه الفلسفة لأنها مرفوضة من قبل الفطرة، وهذا ما عبر عنه الكاتب الملحد بيتر كاف بقوله: «مهما كانت الحجج الشكوكية التي يؤتى بها ضدّ إيماننا أنّ قتل البريء أمر قبيح أخلاقيًا، يبقى الأمر أنّ ثقتنا في أنّ القتل أمر قبيح أخلاقيًا أعظم من ثقتنا في أن الحجة المعارضة سليمة... تعذيب طفل برئ لمجرد المتعة أمر خاطئ أخلاقيًا»[١].

وهذا يعني ـ بلا ريب ـ أن سلطان الأخلاق في الفطرة الإنسانية مكين، ولكن ينسفه الإلحاد الذي يقتضي اتباع شهوات النفس وتوفير حظوظها في الحياة على حساب الآخرين، فإذا ثار في النفس الإنسانية هاجس الفطرة أدركت مساوئ اللاأخلاقية التي تقتضيها فلسفة الإلحاد، وقد عبر عن ذلك راسل في آخر ما انتهى إليه في فلسفته الأخلاقية، حيث قال: «لا أعرف كيف أنقض حجج ذاتية (subjectivity) القيم الأخلاقية، لكنني أجد نفسي عاجزًا أنّ الشيء الوحيد المنكر في الوحشية القاسية هو أنني لا أحبها»[٢].

ولا يخفى ما تسببه معاكسة هذه الهواجس من اضطراب نفسي بالغ، فالإلحاد بفلسفته الضالة، وأخلاقه المنحطة، يكابر ما فطرت عليه النفس البشرية، وتبقى النفس بين جواذب هذه الفلسفة ودوافعها وبين جواذب الفطرة ودوافعها، لا تجد ما تقوى به على آثار الفطرة إلا العناد في الإلحاد، والرغبة في التخلص من سلطان الأخلاق الذي يقيد سلوك النفس ويضبطها،

---

(١) المرجع السابق، ص٢٣٦، نقلاً عن: Peter Cave, Humanism (Oxford: One World, 2009). p.146

(٢) المرجع السابق، ص٢٣٧، نقلاً عن:
Bertrand Russell, Notes on Philosophy, Collected Papers, Volume 11, 310 – 1 (Cited in: Michael K. Potter, Bertrand Russell's Ethics, London: New York: Continuum, 2006, p.173).

وفي هذا يقول د. سامي عامري: «فالنفس ترفض الشر بحس البداهة، لأنه شـر لا يملك أن يكون في حس الآخرين ـ مهما اختلفـوا عنا واختلفنا معهم ـ خيرًا.

تلك هي النفس حين توقفها سدود القلب والروح، فتمنعها مجاوزة الحد والطغيان في اللجج والجـدل، وتلك هي براعة برهان الأخلاق، إذ يسـلب الإنسان القدرة على المعارضة، ليرخي سـلاح المعاندة، فهو في الخيار بلا خيار، إذ إنه بين أن يقف موقف الحرب مع نفسه فيقتلع قلبه من بين الأضلع، أو أن يعلم نهاية المناجزة فيقر للأخلاق بالعلو فوق الذوق والاختيار، وذلك برهان الإيمان الذي منه يفر.

وقد كشفت حقيقة موضوعية الأخلاق أزمة العقل الإلحادي أو المجتمع الغربي ـ عامة ـ الذي يقول بالشيء ويعمل بضده، ويدعو إلى الشيء ويضمر نقيضه، وقد كشف الفيلسوف الشهير ريتشارد تيلر ذلك في مقدمة كتابه عن الأخلاق بقوله: (إنّ المجتمعات الحديثة تخلت بدرجات متفاوتة عن الإيمان بإله، ومع ذلك اسـتبقت فكرة الأخلاق، حتى أنّ مثقفينـا يعلنون في بعض الأحيان أنّ أشـياء مثل الحرب أو الإجهاض أو انتهاك بعض حقوق الإنسان هي خطأ أخلاقيًا، وهـم يتصورون أنهم قالوا شـيئًا حقيقيًا ومهمًا، لا يحتاج المثقفون إلا أن يقال لهم: إنّ مثل هذه الأسـئلة لم تتم الإجابة عنها البتة من خارج الدين).

وأضاف: (الكتاب المعاصرون الذيـن ألفوا في الأخلاق، والذين تحدثوا ببلاغة عن الحـق والباطل الأخلاقيين، والواجب الأخلاقـي دون إحالة إلى الدين لا يعدو فعلهم أن يكون نسـجًا لشـبكة فكرية من الهواء الرقيق، وهو ما يعني أنهم يتحدثون بلا معنى).

تلك أزمة التناقض المهيمن على الإلحاد، وسببها الإمعان في مخالفة بداهات العقول والنفوس.. وانحراف الألف ميل يبدأ بعناد يرفض السير في الطريق المستقيم»[١].

وهذا كله مما يؤكد أن علاج هذه المشكلة النفسية والاجتماعية لا يمكن أن يكون إلا بالدين، فإنّ الإيمان بالله وبالجزاء على العمل خيرًا أو شرًا هو الذي يضبط الأخلاق، ويسوس النفس حتى تتكيف وفق مقتضى إيمانها، كما تقدم بيانه، وإذا تخلت النفس عن الإيمان تجردت عن جميع معاني إنسانيتها، وتحولت إلى مسعورة لاهثة وراء شهواتها غير ملتفتة إلى تأنيب الضمير أو عذل الناس، لأنها لا تقيم وزنًا للضمير، ولا تراعي حقوقًا للناس، ويتساوى في موازينها المدح والذم، والخير والشر، وهذا ما صرح به غير واحد من أساطين الإلحاد، كما في قول **مايكل روس**: «لا توجد أدنى أسباب ليكون المرء صالحًا... الأخلاق لغو. الآن وقد علمت أنّ الأخلاق وهم صنعته جيناتك لتجعلك فردًا متعاونًا مع غيره في المجتمع، ما الذي يمنعك أن تتصرف مثل الرومان في القديم؟ حسنًا؛ لا شيء، بالمعنى الموضوعي للكلمة»[٢].

وتجد ممن يصرح بذلك الملحد الإباحي **بول سارتر** الذي كان ضد كل شيء يتصف بالأخلاق، ويتباهى بالتجرد من كل فضيلة، ويدعو إلى ممارسة كل فحشاء، وهو إمام الوجوديين أي الإباحيين المعاصرين، الذين يتصورون أن الإباحية المطلقة هي لذة وجود الإنسان، فإنه ربط فلسفته هذه بإنكاره وجود الله سبحانه، حيث قال: «كل شيء مباح إذا لم يكن الله موجودًا» واعترف أن: «كل شيء حقيقة مباح إذا لم يكن الله موجودًا.. ولا يملك

---

(١) المرجع السابق، ص ٢٣٧ ـ ٢٣٨.

(٢) المرجع السابق، ص ٢٤١، نقلاً عن:
Michael Ruse, God is Dead. Long Live Morality, Uk Guardian in March 2010.

الإنسان أن يجد أي شـــيء يعتمد عليه من داخل نفسه أو خارجها، فلا يوجد شيء يعطي شرعية لأفعالنا في وجود بلا قيمة أخلاقية ذاتية، وإذا كان وجودنا يســبق ماهيتنا ـ لأننا في العالم الإلحادي نصنع قيمنــا في عماء ـ فلا يمكن للإنسان أن يضفي شرعية لفعله من داخله أو من خارجه»[١].

وهذا الذي جعل سارتر يشن حملة صاخبة على فلاسفة فرنسا الذين كتبوا في أواخر القرن التاسع عشر أنهم في زعمهم يسعون إلى «الوصول إلى القيم الأخلاقية الدينية ذاتها، مــع إلغاء الإيمان بوجــود الله، فالوجودي كما يقول سارتر يعارض بشدة نزعة إلغاء الإيمان بوجود الله بأقل تكلفة، وعلى الملحد أن يواجه حقيقة العالم بلا إله كما هي، وهــو وإن كان (يجد عدم وجود الله أمرًا محرجًا للغاية لأنــه تختفي مع اختفائه كل إمكانيــة لإيجاد قيم) إلا أنه ملتزم أن يتعايش مع ذلك»[٢].

وقد صرح أيضًا بالتناقض بين الإلحاد والتمســك بالأخلاق الفيلســوف الملحد جويل ماركس، فقد نشــر مقالًا في عام ٢٠١٠م جاء فيه: «لقد تخليت عن الأخلاق تمامًا،... أنا الآن اعتقد أنه لا يوجد شيء من ذلك، لقد أصبحت مقتنعًا أنّ الإلحاد يقتضي اللاأخلاقية، وبما أنني ملحد فلا بد علي أن أعتنق اللاأخلاقية... لقد عشت الكشف الصادم أنّ الأصولية الإنجيلية مصيبة: بدون الله، لا توجد أخلاق»[٣].

---

(١) المرجع السابق، ص ٢٤٠، نقلاً عن:
Jean-Paul sartre, Existentialism, in Jean-Paul Sartre: Basic Writings (Psychology Press, 2001), p.32.

(٢) المرجع السابق، ص ٢٤٠ نقلاً عن:
Jean-Paul Sartre, Existentialism, is a Humanism (New Haven, Conn.: Yale University Press, 2007), p.28.

(٣) المرجع السابق، ص ٢٤٠ نقلاً عن:
Joel Marks, An Amoral Manifesto.

وقريب منه كلام الملحد البريطاني الفيلسوف **جوليان بجيني**، وصرح زعيم غلاة ملاحدة العصر **ريتشارد دوكينز** في كتابه الإلحادي الوقح الذي سماه **وهم الإله**، بمثل هذا إذ قال: «من الصعب أن ندافع عن الأخلاقيات المطلقة على أسس غير دينية»[١]، وهذه شهادة منه ـ على رغم أنفه ـ بأنّ الأخلاق لا تنضبط إلا بتعاليم الدين، ولكن **دوكينز** بسبب عقدته من الدين ومحاربته للإيمان بالله أبى إلا أن يبحث عن منافس للدين في ذلك، فأضاف إلى ما تقدم: «والمنافس الوحيد الذي أستطيع التفكير فيه هو الوطنية، وخصوصًا في أوقات الحرب، كما قال المخرج الأسباني المميز **لويس بونيل**: (الله والوطن فريق لا يمكن الفوز عليه يحطمون كل الأرقام القياسية للظلم وإراقة الدماء)»[٢]، وهذه المحاولة لا تجديه شيئًا، فأين تأثير الوطنية في الأخلاق من تأثير الدين، فكم كانت الوطنية سببًا للعدوان والظلم، وعدم المبالاة بقتل الأبرياء، وإفساد مرافق الحياة، أولم تكن وطنية **هتلر** وعصبيته لبلده ألمانيا السبب الوحيد لإيقاده نار الحرب العالمية الثانية؟! فإنّه ما أراد بذلك إلا أن يغسل العار عن جبين بلده مما أصيبت به من هزيمتها النكراء في الحرب العالمية الأولى، حيث اجتيحت إمبراطوريتها التي كانت أجل مفاخرها، ولم يبال في سبيل ذلك بسفك الدماء البريئة، وانتهاك حرمات الإنسانية، وإنزال الدمار بالعالم، فهل صانته وطنيته عن الوطء على قيم الأخلاق، أو أنه دفعته إلى ذلك دفعًا، حتى عد مثالًا لممارسة جرائم الحرب؟!.

وقد أكد **دوكينز** ما ذكره في كتابه فيما يتعلق بارتباط الدين بالأخلاق عندما قال: «يمكن لمفكر ديني أن يعطينا تفسيرًا أخلاقيًا صادقًا، قد يكون

---

(١) دوكينز؛ ريتشارد: الكتاب المسمى **وهم الإله**، ص ٢٣٤، ترجمة: بسام البغدادي، حقوق الطبع محفوظة، ط ٢: ٢٠٠٩م.

(٢) المرجع السابق، ص ٢٣٤.

على النمط التالي: (بما أنك لا تؤمن بالله فإنك لا تؤمن بأنّ هناك أي قواعد أخلاقية نموذجية، وربما تحاول أن تكون إنسانًا صالحًا بكل الصدق الموجود في الأرض، ولكن كيف يمكنك التمييز بين ما هو جيد وما هو سيء؟ الدين وحده يستطيع تأمين القواعد النموذجية للصالح والطالح، وبدون الدين عليك أن تخترعها من خلال ممارساتك، وتلك أخلاق بدون نظام، وهذا ينقض الأخلاق برمتها، فلو كانت الأخلاق مسألة اختيارية لاستطاع هتلر الزعم بأنه أخلاقي بالقياس بنظريته المتعلقة بتحسين النسل، ويستطيع كل الملحدين أن يختاروا شخصيًا قواعد ليعيشوا في ضوئها بعكس اليهود والمسيحيين والمسلمين، الذين يستطيعون الزعم بأنّ الشر له معنى حقيقي وأزلي وواحد في كل مكان، وبناء عليه فإنّ هتلر هو شرير بالتأكيد)»[1].

ولا يخفى ما في هذا الكلام من تصوير حجة الدين في وجوب الالتزام بالأخلاق، وربطها بالإيمان بالله واليوم الآخر، ولكن دوكينز بغلوه في الإلحاد وتأصل نزعة الشر في نفسه، يحاول أن يطمس هذه الحجة بوهمه الإلحادي فيتعقب ما سبق ذكره بقوله: «حتى ولو كان حقيقيًا أننا بحاجة للإله لنكون أخلاقيين، فذلك لن يجعل بأي شكل من الأشكال وجود الإله أكثر احتمالًا ولكن أكثر رغبة في وجوده (الكثيرين لا يستطيعون ملاحظة الفرق). ولكن ليس هذا هو المهم. أنّ متديني المتخيل لا يحتاج للاعتراف بأنّ تملقه للإله هو الدافع لعمل الخير في الدين، بل زعمه كالتالي: لا يهم من أين أتى الدافع لعمل الخير ولكن بدون الدين لن يكون لدينا قواعد لتحديد الصالح والتصرف على أساسه. حيث كل واحد فينا بمفرده يعطي تعريفه الخاص به عن الأخلاق ويتصرف على ضوئه. المبادئ الأخلاقية المبنية فقط على الدين (على خلاف القاعدة الذهنية مثلًا والتي تعتبر غالبًا متعلقة بالدين ولكن

---

(١) المرجع السابق، ص٢٣١ ـ ٢٣٢.

يمكننا استخلاصها من مكان آخر) نستطيع تسميتها بالمبادئ المطلقة. الخير خير والشر شر، وليس علينا أنّ نقرر بحسب الحالات كمعاناة فرد ما على سبيل المثال. ومتديني الخيالي يزعم بأنّ الدين وحده يستطيع أن يكون القاعدة لتحديد ما هو صالح»[١].

ولم يكن هذا الذي ذكره مجرد زعم، وإنما هذه هي الحقيقة التي تستسيغها العقول، ويصدقها الواقع، فإنّ الناس لو تركوا وما يختارونه لأنفسهم من الأخلاق بحسب ما يلائم طباعهم؛ لتفرقت بهم السبل، وأساؤا من حيث يظنون أنهم محسنون، وكان ما يستحسن عند طائفة هو أقبح ما يكون عند طائفة أخرى، ولكن الأخلاق النابعة من الدين الحق الذي حدده الوحي الإلهي هي ـ بلا ريب ـ الأخلاق المثلى، التي يمكن أن يحتكم إليها، وأن يتقبلها الكل، فيكفي كل متدين أن يكون بهذا ينقاد لأمر ربه ﷻ الذي له السلطان المطلق في كل الوجود، وهو الذي يعلم ما تنطوي عليه طبائع خلقه، كما يعلم كيف يكون الانسجام ما بينهم وما بين المنظومة الكونية، لتكون جميع حركاتهم في الوجود وفق ما يقتضيه نظام الكون، كما سيأتي ـ إن شاء الله ـ في المبحث الآتي.

هذا؛ وقد يكابر الملحدون الحقيقة وينكرون الواقع عندما يدعون أن الدين هو الذي يحول الإنسان من الخير إلى الشر، كما ذكر ذلك المفكر الأمريكي **ديفيد بيرلنسكي** الذي يصف نفسه في مقدمة الطبعة الأولى لكتابه **وهم الشيطان**؛ بأنه يهودي علماني، وأن تعليمه الديني لم يثمر كثيرًا، ولا يستطيع الصلاة[٢]، فقد قال في كتابه المذكور: «في عام ٢٠٠٧م التقى جمع من

---

(١) المرجع السابق، ص٢٣٢.

(٢) ينظر؛ بيرلنكسي؛ ديفيد: **وهم الشيطان، الإلحاد ومزاعمه العلمية**، ص١٩، ترجمة وتعليق: عبد الله الشهري، مركز دلائل ـ الرياض، ط ٢: ١٤٣٧هـ/٢٠١٦م.

العلماء في مؤتمر بعنوان: **ما وراء الإيمان العلم والدين والعقل والبقاء**، لكي يهاجموا الفكر الديني ويهنئ بعضهم بعضًا على جسارتهم في القيام بذلك، ألقى فيه الفيزيائي **ستيفين واينبرج** خطابًا ـ وهو شخصية ذات مكانة كبيرة باعتباره أحد واضعي نظرية توحيد القوة الكهربية الضعيفة، وهو العمل الذي حصل به على جائزة نوبل ـ أكد **واينبرج** فيه أنّ (الدين إهانة للكرامة الإنسانية)، وأنه (بالدين أو بدونه سيكون هناك أناس خيرون يفعلون أشياء خيرة، وأناس شريرون يفعلون أشياء شريرة، ولكن لكي يفعل الخيرون أشياء شريرة؛ فهذا يتطلب الدين)».

وعلق على ذلك **ديفيد بيرلنسكي** بقوله: «قوبل **واينبرج** بتصفيق حار لقاء كلامه هذا، من غير أن يسأله أحد من أعضاء جمهوره السؤال الذي ربما خطر على بال أحدنا وثيق الصلة من الذي أذاق الجنس البشري المكروب ويلات الغاز السام، والأسلاك الشائكة، والمواد الشديدة الانفجار، وتجارب تحسين النسل، ووصفة تحضير زيكلون بـ(غاز سام)، والمدفعية الثقيلة، وتبريرات القتل الجماعي المستندة إلى حجج علمية زائفة، والقنابل العنقودية، والغواصات الهجومية، والنابالم، والصواريخ البالستية العابرة للقارات، والمنصات الفضائية العسكرية، والأسلحة النووية؟!»[1].

وهو يعني أن ارتكاب ضروب من العدوان ضد الجنس البشري، وابتكار الأسلحة المدمرة للمجتمعات البشرية لم يكن ذلك من منطلق التدين، وإنما كل ذلك من الذين نبذوا الدين وراء ظهورهم، وارتكبوا ما ارتكبوه في حق الإنسانية، وعيونهم قريرة، ونفوسهم مطمئنة لأنهم أرضوا بذلك نزعاتهم التي تدفع بهم نحو الشر بسبب عدم إيمانهم بالله واليوم الآخر.

---

(١) المرجع السابق، ص ٥٠ ـ ٥١.

وقد استطرد بعد ذلك ديفيد بيرلنسكي في تعقبه ما كان في ذلك الاجتماع معلقًا على قول ستيفين واينبرج بأن: «شيئًا ما في الحداثة ومؤسساتها الثقافية قد جعلنا أكثر نبلًا»، وقوله أيضًا: «على مستوى عقود من الزمن ترسم المعلومات الشاملة مرة أخرى لوحة سعيدة على نحو مدهش»، ومما تضمنه تعليقه على هذا الكلام الخائب؛ ذكره لقائمة ضحايا الحروب التي شنت بدءًا بالحرب العالمية الأولى وانتهاء بالحروب التي أُججت في الصومال، وقد عنون لهذه القائمة بالعنوان الآتي (**لوحة سعيدة على نحو مدهش وفق الزيادة في الوفيات**)[1].

واستطرد بعد ذلك في تفصيل شيء من الجرائم التي ارتكبت ضد الإنسانية من قبل النازيين أو الشيوعيين، معقبًا في ذلك على مغالطات بعض الملاحدة من أمثال **سام هاريس وريتشارد دوكنز**.

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى

(١) ينظر؛ المرجع السابق، ص٥١ ـ ٥٥.

في كون الدين لا يمكن أن يخترع بالتجربة البشرية أو مقاييس العقول المحدودة

لا ريب أنّ الدين ـ وإن كان استجابة لداعي الفطرة، ومتوائمًا مع قضايا العقل السليم ـ لا يمكن أن يكون اختراعه من قبل البشر أنفسهم، إذ لم يؤتوا من القوى العقلية ما يمكنهم أن يهتدوا به من تلقاء أنفسهم إلى الدين الذي يرضي الله عنهم، ويضمن لهم السلامة، والاستقرار في مسيرهم، والسعادة والفلاح في مصيرهم، فإنّ الإنسان وإن ميز عن غيره بموهبة العقل، إلا أنه يظل من كل جانب محدودًا بمحدودية مخلوقيته، فعلمه بحقيقة نفسه، وطبيعة فطرته، وعلاقته بالمنظومة الكونية، علم محدود لا يحيط بكل شيء، بل لم ينكشف له إلا النزر اليسير من ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥].

على أنّ طبيعة الإنسان غريبة في تكوينها، فهو روح وجسم، وفي طيه عقل وقلب، يتولد منهما فكر ووجدان، ويتفاعل في نفسه إدراك وعواطف، ويتجاذبه إلهام وغرائز، ولكل من ذلك تأثير في الجذب والدفع، هذا بالنظر إلى كل فرد من أفراد جنسه، أما بالنظر إلى الجنس البشري بأسره فإنّ كل فرد من أفراده له مصالحه الذاتية، ونظرته الشخصية، وبعده الخاص في شئون الحياة بأسرها مع تداخل المصالح وتشابك المنافع بين أفراد هذا الجنس، لأن حياتهم جميعًا مدنية بطبعها، اجتماعية بتكوينها، لأجل هذا كانت حياة

كل فـرد بحاجة إلى التنسـيق بين جوانبـه المختلفة، وقـواه المتعددة، وما يلابسـها من منافع أو مضار، كما أنّ حياة المجتمع البشري هي بحاجة إلى المواءمة بين مصالح جميع الأفراد والفئات حتى لا يطغى بعضها على بعض، وحتى لا يتحكم القوي في مصالح الضعيف.

والعقل ـ وإن كان هو فيضًا نورانيًا من الله تعالى ـ هو محدود الطاقة، ولذلك كان محدود الإدراك، فلا يحيط بمنافع الخلق جميعًا، بل لا يحيط حتى بمصلحة صاحبه، وشأنه شأن الحواس الظاهرة، فكما أن حاسة البصر لا تحيط بجميع المبصرات، وحاسة السمع لا تحيط بجميع الأصوات، بل تحجب كلًا منهما حجب تحول دون الإدراك، فالبصر لا يصل إلى ما وراء الحجاب، على أنه يرى الظاهر دون الباطن، والقريب دون البعيد، والسمع لا يصل إلى الخافت من الأصوات أو ما يأتي من بعيد منها، وكذلك سائر الحواس، كذلك قوة العقل؛ لا يمكن أن تنفذ إلى بواطن الأشياء وأعماقها، وجوانبها وأبعادها على أنّه تؤثر عليه مؤثرات شتى بعضها نفسي، وبعضها اجتماعي.

فتجد البيئـات المختلفة لهـا أثرها علـى العقول، فتستحسـن بيئة ما تستقبحه بيئة أخرى، ويسري ذلك على كل من يكون في أجوائها، على أنّ للنفس في نزعاتها وأهوائها تأثيرًا أيضًا على مدارك العقل، فتجد قريبين ناشئين في بيئة واحدة عائشـين في محيط واحد يتباينان في استحسانهما واستقباحهما؛ بحسب مؤثرات نفسـيهما بتأثير نزعاتهما وأهوائهما، وما يلائم كلًا منهما وما يعاكسه.

وإذا كان العقـل محدود الطاقـة محصور المدارك فأنّى لـه أن ينفذ إلى ما وراء هذه الحواجز جميعًا، فيصل إلى الحقيقة والحق، ويتمكن من إعطاء كل شـيء حكمه، وإنزال كل أمر منزله؟! وهو في إشعاعه لا يعدو أن يكون

ذبالة بين التيارات المتباينة، قد تعصف بها عواصف من الأهواء، والمؤثرات النفسية والبيئية، فتطفئ جذوتها ولا يبقى منها إشعاع.

على أنّ الدين يرعى جميع الخصائص والمصالح في البيئات المختلفة، بل وفي العصور المتعاقبة زمنًا بعد زمن، ولكل زمن ضروراته ومطالبه ومشكلاته ومحاذيره، وأنى لعقل كان في بيئة مخصوصة وزمن مخصوص أن يمتد تصوره عبر هذه الأزمنة والأمكنة، حتى يضع نظامًا للناس جميعًا فيه رعاية خصوصياتهم وعمومياتهم، وما يحتاجون إليه من المنافع، وما يجب أن يتقوه من المضار؟!.

لا ريب أن هذا كله لا يمكن أن يتسع له نظر مخلوق، ولو كان نوراني الفكر، رباني الموهبة، مخلصًا لربه، ومصلحًا لنفسه ولأمته، وإنما يسعه علم الخبير البصير، الذي يعلم السر في السماوات والأرض، ويحيط بدقائق الأشياء وجلائلها، وبواطنها وظواهرها، ويعلم من كل إنسان ما تنطوي عليه فطرته، وما يشتمل عليه خلقه، وما يحتاج إليه في نفسه ومن أجل علاقته بأسرته ومجتمعه وأمته وجنسه، وبيئته الزمانية والمكانية، ومحيطه الكوني، كما يحيط بالكون كله بجميع آفاقه المترامية، وأزمنته السحيقة الواسعة، وكل ما يحدث فيه، وكل ما يفنى من كل دقيق وجليل، ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤].

ولذلك كان الدين ضريبة تؤديها عبودية العباد لرب العالمين، الذي له الخلق والأمر، والحكم والقهر، ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٤٠]، وهو مع كونه صلة خاصة بين العباد وبين ربهم، هو الراعي لمصالح العباد وعلاقاتهم فيما بينهم، وما لكل منهم أو عليه من الحقوق والواجبات فيما بينه وبين غيره.

والأرض التي هي مستقر الناس في هذه الحياة ما هي إلا جزء يسير في مملكة الله الواسعة، وهي هذا الكون العظيم الذي لا يحيط به إلا من خلقه، ولا بد من أن ينفذ في هذا الجزء من أمر الله وحكمه ما يكون به استقراره واستقرار من عليه وما عليه من خلق الله تعالى، وذلك لا يتم حتى يكون الدين كله لله، ويكون الناس المستخلفون في الأرض عبادا لله، أخلصوا لله حياتهم ومماتهم، ودنياهم وآخرتهم، فلا دخل لأحد من عباد الله في أمر الدين، لأن تدخل العباد في ذلك اقتحام على حمى الله المصون، وتعد على حرمه المقدس، وتجاوز لحدود المخلوقية إلى منازعة الله تعالى في خصوصياته، ولهذا تجد الإنكار الشديد والتقريع البالغ لأولئك الذين يستمدون وجهتهم في الحياة من غير ما شرع الله لهم من الدين، كما في قوله تعالى: ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ﴾ [الشورى: ٢١].

ولم يجعل الله سبحانه لأحد منهم سبيلًا إلى تجاوز هذا الحد المرسوم، بإباحة شيء أو حظره من تلقاء نفسه، فقد قال تعالى: ﴿ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴾ [النحل: ١١٦]، وقال سبحانه: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴾ [يونس: ٥٩]، وجعل اندفاع الناس إلى هذا من الشرك الذي هو أعظم الظلم وأبلغ الفساد، فقد قال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾ [النحل: ٣٥].

وبسبب هذا؛ لم يختلف المسلمون قط في أنّ الدين إنما هو «وضع إلهي سائق لذوي العقول باختيارهم المحمود إلى ما هو خير لهم بالذات»[١].

---

(١) ينظر؛ الفخر الرازي: **مفاتيح الغيب**، سورة الصف (الآيتان ٨، ٩)، مج (١٥) ٣١٦/٢٩، والبخاري، علاء الدين عبد العزيز بن أحمد: **كشف الأسرار عن أصول فخر الإسلام البزدوي**، ٢٦/١، ضبط وتعليق وتخريج: محمد المعتصم بالله البغدادي، دار الكتاب العربي ـ بيروت، ط ٢: ١٤١٤هـ/١٩٩٤م، والرملي؛ أبو العباس أحمد الأنصاري: **حاشية الرملي على أسنى المطالب شرح روض الطالب**، ٤/١، دار الكتاب الإسلامي ـ القاهرة، (بدون ط)، والمناوي؛ محمد عبد الرؤوف: **التوقيف على مهمات التعاريف**، باب الدال، فصل الياء، ص ٣٤٤، تحقيق: محمد رضوان الداية، دار الفكر المعاصر ـ بيروت، ط ١: ١٤١٠هـ/١٩٩٠م، والخادمي؛ أبو سعيد محمد بن محمد: **بريقة محمودية**، تحقيق: محمد أمين عمران، ٧٥/١، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده ـ مصر، ط ١: ١٣٤٨هـ، والشرواني والعبادي: **حواشي الشرواني والعبادي على تحفة المنهاج**، ٣٤/١، والخفاجي؛ شهاب الدين أحمد بن محمد بن عمر المصري الحنفي: **حاشية الشهاب علي تفسير البيضاوي = عناية القاضي وكفاية الراضي**، ١٦٠/١، ضبطه وخرج آياته وأحاديثه: عبد الرزاق مهدي، دار الكتب العلمية ـ بيروت، ط ١: ١٤١٧هـ/١٩٩٧م، وينظر أيضًا؛ السفاريني: غذاء الألباب شرح منظومة الآداب، ٣٢/١، تحقيق: محمد عبد العزيز الخالدي، دار الكتب العلمية ـ بيروت، ط ١: ١٤١٧هـ/١٩٩٦م، والزبيدي؛ محمد مرتضى بن محمد الحسين: **تاج العروس من جواهر القاموس**، باب النون، فصل الدال، مادة (دين)، ٢٩/٣٥، اعتنى به ووضع حواشيه: عبد المنعم خليل إبراهيم، وكريم سيد محمد محمود، دار الكتب العلمية ـ بيروت، ط ١: ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م، وملكاوي؛ محمد أحمد محمد عبد القادر خليل: عقيدة التوحيد في القرآن الكريم، ص ٩٦، دار الزمان ـ المدينة المنورة، ط ١: ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م، ونور الدين السالمي: **مشارق أنوار العقول**، ص ٤٦، تعليق: أحمد بن حمد الخليلي، دار الحكمة ـ دمشق، ط ١: ١٤١٦هـ/١٩٩٥م، والتونسي، ابن عاشور؛ محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور: **التحرير والتنوير (تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد)**، سورة آل عمران (الآية ١٩)، ٤٦/٣، مؤسسة التاريخ ـ بيروت، ط ١: ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م، ورضا؛ محمد رشيد: **تفسير القرآن الحكيم (الشهير بتفسير المنار)**، سورة الأعراف (الآيتان ٣١، ٣٢)، ٣٤٨/٨، خرج آياته وأحاديثه وشرح غريبه: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية ـ بيروت، ط ٢: ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م.

وجميع رسالات الله تعالى ناصة على هذا، فما كان للناس أن يتدخلوا في أمر الدين بالتعديل أو التغيير من تلقاء أنفسهم، وإنما كانت هذه أهواء انحرفت بالدين، وصيرته تبعًا لأهواء الناس ورغباتهم، بدلًا من أن يكون خالصًا لوجهه تعالى، وقد عدّ الله تعالى هذا من الإشراك به عندما قال: ﴿ اتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة: ٣١]، وأخرج الترمذي وابن جرير وغيرهما عن عدي بن حاتم أنه سمع النبي ﷺ يتلوها ـ وكان امرأ قد تنصر ـ فقال له: إنهم لم يعبدوهم، قال: «**بلى، إنهم حرموا عليهم الحلال، وأحلوا لهم الحرام فاتبعوهم فذلك عبادتهم إياهم**»[1].

---

(١) أخرج الترمذي عن عديّ بن حاتم قال: أتيت النبي ﷺ وفي عنقي صليب من ذهب، فقال: يا عديّ اطرح عنك هذا الوثن، وسمعته يقرأ في سورة براءة ﴿ اتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾، قال: أما إنهم لم يكونوا يعبدونهم ولكنهم كانوا إذا أحلّوا لهم شيئًا استحلّوه وإذا حرّموا عليهم شيئًا حرّموه. قال أبو عيسى: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث عبد السّلام بن حرب، وغطيف بن أعين ليس بمعروف في الحديث؛ سنن الترمذي، (٤٤) أبواب تفسير القرآن، باب (٩) ومن سورة التوبة، (رقم: ٣٠٩٥، ص ١٩٦٤)، والبيهقي بمعناه؛ السنن الكبرى، كتاب (٨١) آداب القاضي، باب (١٩) ما يقضي به القاضي ويفتي به المفتي فإنه غير جائز له أن يقلد أحدًا...، (رقم: ٢٠٣٥٠، ١٠/١٩٨).

وأخرج ابن جرير الطبري عن عدي بن حاتم قال: أتيت رسول الله ﷺ وفي عنقي صليب من ذهب فقال: يا عدي اطرح هذا الوثن من عنقك، قال: فطرحته وانتهيت إليه وهو يقرأ في سورة براءة، فقرأ هذه: الآية ﴿ اتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ قال: قلت: يا رسول الله إنا لسنا نعبدهم، فقال: أليس يحرمون ما أحل الله فتحرمونه ويحلون ما حرم الله فتحلونه؟ قال: قلت: بلى، قال: فتلك عبادتهم؛ ينظر؛ الطبري: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، سورة التوبة، الآية (٣١)، (رقم: ١٢٩٢٥، مج (٦) ١٠/١٤٧)، ضبط وتوثيق وتخريج: صدقي جميل العطار، دار الفكر ـ بيروت، ط: ١٤١٥هـ/١٩٩٥م، والطبراني مثله؛ المعجم الكبير، (رقم: ٢١٨، مج (٧) ١٧/٦٧).

وسوف يأتي إن شاء الله ما يدل على اعتراف أصحاب الديانات أن أهواء الناس تدخلت فيها فانحرفت بها وأفسدتها.

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى

= وأخرج من طريق آخر عن عدي بن حاتم قال: سمعت رسول الله ﷺ يقرأ سورة براءة، فلما قرأ ﴿اتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ قلت: يا رسول الله أما إنهم لم يكونوا يصلون لهم، قال: صدقت، ولكن كانوا يحلون لهم ما حرم الله فيستحلونه ويحرمون ما أحل الله لهم فيحرمونه؛ الطبري: جامع البيان، سورة التوبة، الآية (٣١)، (رقم: ١٢٩٢٦، مج (٦) ١٠/١٤٧).

المبحث الخامس

إنّ الدين عند الله الإسلام

إنّ الله تعالى اختار لعباده أن يكون الإسلام دينهم الذي يصلهم به، ويقيم علاقتهم فيما بينهم بالذات، وفيما بينهم وبين غيرهم من الناس، وسائر الخلق، فقد قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ [آل عمران: ١٩]، وقال سبحانه: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [آل عمران: ٨٥]، وأكد ﷻ في كثير من نصوص كتابه أنّ هذا الدين هو الذي جاء به المرسلون جميعًا، كما في قوله: ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ﴾ [الشورى: ١٣]، وحكى عن نوح عليه السلام أنه قال: ﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ [يونس: ٧٢]، وقال تعالى: ﴿ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [آل عمران: ٦٧]، وحكى عنه وعن ولده إسماعيل عليهما السلام أنهما كانا يقولان عندما كانا يرفعان قواعد البيت العتيق: ﴿ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ ﴾ [البقرة: ١٢٨].

وقال تعالى: ﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [البقرة: ١٣٠ ـ ١٣١]، ثم بيّن أنّ هذه هي وصية إبراهيم ويعقوب عليهما السلام لذريتهما: ﴿ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم

مُسْلِمُونَ ۝ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾ [البقرة: ١٣٢ ـ ١٣٣].

وحكى عن يوسف عليه السلام أنه قال: ﴿ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [يوسف: ١٠١]، وقال سبحانه في موسى عليه السلام: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴾ [يونس: ٨٤]، وذكر عن سحرة فرعون أنهم قالوا: ﴿ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴾ [الأعراف: ١٢٦]، بل حكى عن فرعون نفسه أنه ادعى الإسلام عندما أدركه الغرق، حيث قال: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ [يونس: ٩٠]، وقال في التوراة التي أنزلها على موسى عليه السلام: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ ﴾ [المائدة: ٤٤].

وذكر قرية لوط، فقال: ﴿ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ [الذاريات: ٣٥ ـ ٣٦]، وذكر أهل الكتاب الذين تمسكوا بكتابهم حتى جاءهم الحق المصدق لما معهم فيما أنزل على النبي ﷺ فآمنوا به واتبعوه فقال: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ۝ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴾ [القصص: ٥٢ ـ ٥٣]، فهم كانوا على الإسلام قبل أن ينزل هذا القرآن على نبينا عليه الصلاة السلام، وذلك بما نزل عليهم من الحق وأوتوه من الهدى.

وهذا أمر تدركه الفطرة ويقتضيه العقل، فإنّ ما جاء به النبيون من الدين هو كله من عند الله تعالى، ويستحيل أن يبعث الله الرسل متناقضين في رسالاتهم يكذب بعضهم بعضًا، وإنما كان كل منهم مصدقًا لمن قبله، وممهدًا

لمن بعده، فجاءت رسالاتهم جميعًا منسجمة متوائمة، وإنما اختلفوا في الشرائع دون الدين، لأن الشرائع يسوغ فيها التعديل والتبديل فتكون شريعة الرسول ناسخة لما قبلها، لأن التشريع إنما هو بحسب المصالح، والمصالح تختلف وتتباين بين أمة وأخرى، أو بين عصر وغيره، أو بين بيئة وأخرى.

فقد يربي الله تعالى بعض الأمم بالتشديد في التشريع، ويربي آخرين بالتيسير والتخفيف، ولذلك جاء في الحديث عن النبي ﷺ قوله: «**أنا أولى الناس بابن مريم، والأنبياء أولاد علات، ليس بيني وبينه نبي**»، وفي لفظ: «**أنا أولى الناس بعيسى ابن مريم في الدنيا والآخرة، والأنبياء إخوة لعلات، أمهاتهم شتى ودينهم واحد**»[1]، يعني بذلك اتحاد دينهم، وتعدد شرائعهم، فهم ـ وإن اختلفت بينهم الشرائع بحسب ما رأى الله سبحانه من حاجة عباده، وما يصلح أنفسهم مما يشرعه لهم في العبادات أو المعاملات أو غيرها من الأحوال ـ إلا أنّ أصل دينهم واحد، إذ ليس من المعقول أن يرسل الله سبحانه رسولا داعيًا إلى توحيد الله تعالى، ويرسل غيره بما ينقض ذلك من عقيدة التثنية أو التثليث، وكذلك لا يعقل أن يرسل الله رسولًا داعيًا إلى تنزيه الله ﷻ عن الصاحبة والولد، ويرسل غيره داعيًا إلى اعتقاد أنه تعالى اتخذ صاحبة أو ولدًا.

وقد نصّ القرآن الكريم على أنّ دعوة جميع المرسلين إنما كانت دعوة توحيد، كما في قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وقوله سبحانه: ﴿ وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ

---

(١) رواه البخاري في صحيحه؛ صحيح البخاري، كتاب (٦٠) أحاديث الأنبياء، باب (٤٨) قول الله تعالى: ﴿ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ ﴾، (رقم: ٣٤٤٢ ـ ٣٤٤٣، ص٢٨١)، ومسلم في صحيحه؛ صحيح مسلم، كتاب (٤٣) الفضائل، باب (٤٠) فضائل عيسى عليه السلام، (رقم: ٢٣٦٥، [٦١٣٠ ـ ٦١٣٢]، ص١٠٩٣).

رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ [النحل: ٣٦]، وحكى سبحانه مجادلات الرسل في كتابه، وكانت جميعًا تدور حول محور توحيد الله تعالى، فإنّه الأصل لكل ما كانوا يدعون إليه، وينذرون به.

وبهذا تدرك أنّ ما طرأ على الدين الذي ينسب إلى المسيح عليه السلام من عقيدة التثليث أو كونه لله تعالى ولدًا، ليس ذلك من الحق في شيء، وإنما هو مما ألصق بهذا الدين، وتسرب إليه من عقائد الوثنية، فإنّ المسيح عليه السلام نفسه كان يبرأ من ذلك، كما قال تعالى: ﴿ لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ۝ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا۟ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [المائدة: ٧٢ ـ ٧٣].

وقال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ۝ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [المائدة: ١١٦ ـ ١١٧]، وهذا بعينه ثابت في أصح الأناجيل وأقربها إلى الحق الذي أنزله الله تعالى على المسيح ابن مريم عليه السلام، كما تجده في هذا النص: «وإني وإن كنت بريئًا لكن بعض الناس لما قالوا في حقي إنه الله وابن الله كره الله هذا القول»[1].

---

(١) ينظر؛ إنجيل برنابا، الفصل العشرون بعد المئتين (١٩)، ص ٢٦٧، ترجمه من الإنجليزية: د. خليل سعادة، دراسة وتحقيق: أحمد عبد الرحيم السايح، وتوفيق علي وهبة، مكتبة النافذة ـ الجيزة / مصر، ط ١: ٢٠٠٦م.

وما القول بعقيدة التثليث وأنّ المسيح عليه السلام ابن لله تعالى إلا أثر من آثار تنصر قسطنطين الذي حمل إلى النصرانية أوزارًا من العقائد التي نقلها إليها مما كان عليه سابقًا من الدين الوثني الذي كان سائدًا في المجتمع الرومي، وقد دلت على هذا نصوص مما كتبه الكاتبون من المنصفين المتحررين من النصارى أنفسهم، كالذي سجله الشاعر القروي رشيد سليم الخوري في وصيته التي حررها في أواخر عمره، فقد جاء فيها ما نصه:

«تذكر المراجع التاريخية المعتمدة أنّ الكنيسة المسيحية ظلّت حتى القرن الرابع الميلادي تعبد الله على أنه الواحد الأحد، وأنّ يسوع المسيح عبده ورسوله، حتى تنصر قسطنطين عاهل الروم وتبعه خلق كثير من رعاياه الرومان واليونان الوثنيين، فأدخلوا بدعة التثليث، وجعلوا لله تعالى أندادًا شاركوه منذ الأزل في خلق السموات والأرض وتدبير الأكوان، ومالأهم الأسقف الأنطاكي مكاريوس ملقبًا نفسه الأرثوذكس أي: مستقيم الرأي، فثار زميله الأسقف آريوس على هذه البدعة ومؤيديها ثورة عنيفة، فانشطرت الكنيسة، واتسع نطاق الجدل حتى أدى إلى الاقتتال وسفك الدماء، فعقدت المجامع للحوار، وفاز آريوس بالحجة القاطعة فوزًا مبينًا، وأقيمت له مهرجانات التهنئة والتكريم في إنطاكية والإسكندرية، ولكن انحياز السلطة بقوتها وإرهابها وبطشها أسكتت صوت الحق، واستمرت الكنيسة ستة عشر قرنًا إلى اليوم عامهة في ظلامها الوثني، تنتظر مجيء آريوس جديد، وكم أتمنى وأنا أرثوذكسي المولد، أن يكون هذا الآريوس حبرًا أرثوذكسيًا عظيمًا ليصلح ما أفسده سلفه القديم، ويمحو عنّا خطيئة أوقعها فينا غرباء غربيون، ولطالما كان الغرب ولا يزال مصدرًا لمعظم بلايانا في السياسة وفي الدين على السواء».

ثم قال: «لقد كان في نيتي إعجابًا مني بمعجزة القرآن الكريم، وإيمانًا بصدق نبينا العربي الذي أنزل على روحه، وبوضوح سيرته منذ ولادته حتى

وفاته، أن أكون قدوة لإخواني أدباء النصرانية، فأدخل في دين الله، ولكنني بدا لي أنّ الدعوة إلى تصحيحنا خطأً طارئًا على ديننا تكون أكثر قبولًا وشمولًا من الدعوة إلى عدولنا عنه إلى سواه، فقررت أن تكون لي الخطوة الأولى في هذا السبيل، إيقاظ الآريوسية الموحدة من نومها الطويل ليعود الحق إلى نصابه، وتزول العقبة الوحيدة المفتعلة الفاصلة بين الدينين، ونغدو بعدها إخوانًا على سرر متقابلين، فيتيسر لنا تحقيق وحدتنا الكبرى، وبعث حضارتنا الأخلاقية التي طالما ملأت دنيا الناس عدلًا وسلامًا، أما خطواتي المبتكرة المشار إليها فهي أني أذيع على الملأ عزوفي عن أرثوذكسيتي المكاريوسية إلى الأرثوذكسية الآريوسية، وأطلب في وصيتي هذه أن يصلّي على جثماني شيخ وكاهن فيقتصران على تلاوة الفاتحة والصلاة الربانية لا أكثر ولا أقل، ثم أوارى الثرى في بقعة طيبة حددتها قرب منزلي وينصب على قبري شاهد خشبي متين وبسيط في رأسه صليب وهلال متعانقين رمزًا للوحدة التي جاهدت في سبيلها طول حياتي، هذه وصيتي التي أريد تنفيذها بعد وفاتي، وأصب لعنتي على من يخالفها، ورحم الله حيًا وميتًا كل من يذكرني بالخير ويترحم عليَّ» اهـ[1].

وذكر المعلم بطرس البستاني ـ وهو من كبار مثقفي النصارى العرب ـ الأطوار التي مرت بها هذه العقيدة حتى استقرت على الوضع الذي هي عليه في كتابه **دائرة المعارف**، فقال:

---

(١) القروي؛ رشيد بن سليم بن طنوس الخوري: **الشاعر القروي الأعمال الكاملة**، النثر، ص٣٩٦ ـ ٣٩٧، جمعه وبوبه وضبطه وشرحه وقدم له: محمد أحمد قاسم، منشورات جروس برنس ـ لبنان، ط١: ١٩٩٦م، وينظر؛ **مجلة الداعي الشهرية الصادرة عن دار العلوم ديوبند**، جمادى الثانية ـ رجب ١٤٣٤هـ أبريل ـ يونيو ٢٠١٣م، العدد: ٦ ـ ٧، السنة: ٣٧، دراسات إسلامية، بقلم: صلاح عبد الستار محمد الشهاوي تحت عنوان: **إنجيل برنابا حلقة الوصل المفقودة بين المسيحية والإسلام**.

«(ثالوث Trinite-y) كلمة تطلق عند النصارى على وجود ثلاثة أقانيم معًا في اللاهوت تعرف بالأب والابن والروح القدس، وهذا التعليم هو من تعاليم الكنيسة الكاثوليكية والشرقية وعموم البروتستانت إلا ما ندر، والذين يتمسكون بهذا التعليم يذهبون إلى أنه مطابق لنصوص الكتاب المقدس، وقد أضاف اللاهوتيون إليه شروحًا وإيضاحات اتخذوها من تعاليم المجامع القديمة وكتابات آباء الكنيسة العظام. وهي تبحث عن طريقة ولادة الأقنوم الثاني وانبثاق الأقنوم الثالث، وما بين الأقانيم الثلاثة من النسبة، وصفاتهم المميزة وألقابهم. ومع أن لفظة ثالوث لا توجد في الكتاب المقدس، ولا يمكن أن يؤتى بآية من العهد القديم تصرح بتعليم الثالوث، قد اقتبس المؤلفون المسيحيون القدماء آيات كثيرة تشير إلى وجود صورة جمعية في اللاهوت؛ ولكن إذ كانت تلك الآيات قابلة لتفاسير مختلفة كانت لا يؤتى بها كبرهان قاطع على تعليم الثالوث بل كرموز إلى الوحي الواضح الصريح الذي يعتقدون أنه مذكور في العهد الجديد. وقد اقتبس منه مجموعان كبيران من الآيات كحجج لإثبات هذا التعليم (أحدهما) الآيات التي ذكر فيها الأب والابن والروح القدس معًا (والآخر) التي ذكر فيها كل منهم على حدة والتي تحتوي على نوع أخص صفاتهم ونسبة أحدهم إلى الآخر.

والجدال عن الأقانيم في اللاهوت ابتدأ في العصر الرسولي، وقد نشأ على الأكثر عن تعاليم الفلاسفة الهيلانيين والغنوسطيين فإنّ ثيوفيلوس أسقف إنطاكية في القرن الثاني استعمل كلمة (ترياس) باليونانية، ثم كان (ترتليانوس) أول من استعمل كلمة (ترينيتاس) المرادفة لها ومعناها الثالوث، وفي الأيام السابقة للمجمع النيقاوي حصل جدال مستمر في هذا التعليم وعلى الخصوص في الشرق؛ وحكمت الكنيسة على كثير من الآراء بأنها أراتيكية ومن جملتها آراء الأبيونيين الذين كانوا يعتقدون أن المسيح

إنسان محض (والسابيليين) الذين كانوا يعقتدون أن الأب والابن والروح القدس إنما هي صور مختلفة أعلن بها الله نفسه للناس (والآريوسيين) الذين كانوا يعتقدون أن الابن ليس أزليًا كالأب بل هو مخلوق منه قبل العالم، ولذلك هو دون الأب وخاضع له، و(المكدونيين) الذين أنكروا كون الروح القدس أقنوما.

وأما تعليم الكنيسة فقد قرره المجمع النيقاوي سنة ٣٢٥ للميلاد، ومجمع القسطنطينية سنة ٣٨١ وقد حكما بأنّ الابن والروح القدس مساويان للأب في وحدة اللاهوت، وأنّ الابن قد ولد منذ الأزل من الأب، وأن الروح القدس منبثق من الأب، ومجمع طليطلة المنعقد سنة ٥٨٩ حكم بأن الروح القدس منبثق من الابن أيضًا، وقد قبلت الكنيسة اللاتينية بأسرها هذه الزيادة وتمسكت بها، وأما الكنيسة اليونانية فمع أنها كانت في أول الأمر ساكتة لا تقاوم قد أقامت الحجة فيما بعد على تغيير القانون حاسبة ذلك بدعة.

وعبارة (ومن الابن أيضًا) لا تزال من جملة الموانع الكبرى للاتحاد بين الكنيسة اليونانية والكاثوليكية، وكتب اللوثيريين والكنائس المصلحة أثبتت تعليم الكنيسة الكاثوليكية للثالوث على ما كان عليه من دون تغيير، ولكن قد ضاد ذلك منذ القرن الثالث عشر جمهور كبير من اللاهوتيين وعدة طوائف جديدة كالسوسينيانيين والجرمانيين والموحدين والعموميين وغيرهم حاسبين ذلك مضادًا للكتاب المقدس والعقل، وقد أطلق (سويد تيراغ) الثالوث على أقنوم المسيح معلمًا بثالوث. ولكن لا ثالوث الأقانيم بل ثالوث الأقنوم. وكان يفهم بذلك أن ما هو إلهي في طبيعة المسيح هو الأب، وأن الإلهي الذي اتحد بناسوت المسيح هو الابن، وأن الإلهي الذي انبثق منه هو الروح القدس، وانتشار مذهب العقليين في الكنائس اللوثرية والمصلحة أضعف مدة من الزمان اعتقاد الثالوث بين عدد كبير من اللاهوتيين الجرمانيين.

وقد ذهب (كنت) إلى أنّ الأب والابن والروح القدس إنما تدل على ثلاث صفات أساسية في اللاهوت، وهي القدرة والحكمة والمحبة، أو على ثلاثة فواعل عليا وهي الخلق والحفظ والضبط، وقد حاول كل من هيجين وشلنغ أن يجعلا لتعليم الثالوث أساسًا تخيليًا وقد اقتدى بهما اللاهوتيون الجرمانيون المتأخرون، وحاولوا المحاماة عن تعليم الثالوث بطرق مبنية على أسس تخيلية ولاهوتية؛ وبعض اللاهوتيين الذين يعتمدون على الوحي لا يتمسكون بتعليم استقامة الرأي الكنائسية بالتدقيق كما هي مقررة في مجمعي نيقية والقسطنطينية المسكونيين، وقد قام محامون كثيرون في الأيام المتأخرة لعضد آراء السابيليين على الخصوص» اهـ[١].

وقد عظم الجدل واشتد الخصام بين الفريقين الفريق المكاريوسي أو الفريق الذي أيد مكاريوس على اعتقاده التثليث حسب ما كان يهوى إمبراطور الروم، والفريق المؤيد لآريوس الذي رفض هذه البدعة التي ألصقت بالدين، وبما أنّ الفريق الأول كان يعتمد على نفوذ الدولة وسيطرة الحكم، كانت الغلبة له، وقد أبيد عدد لا يستهان به من الفريق الآخر حتى بلغ عدد الضحايا ١٢ مليونًا، كما أوضحته في **برهان الحق** موثقًا[٢].

وبهذا تدرك أن ما شاع على ألسن الناس من عبارة الأديان السماوية هو خطأ تعبيري، إذ الدين السماوي واحد كما هو صريح القرآن، ويعتضد بدلائل العقل ومقتضيات الفطرة.

---

(١) البستاني؛ المعلم بطرس: **دائرة المعارف**، ٣٠٥/٦ ـ ٣٠٦، مؤسسة مطبوعاتي اسماعليان، تهران ناصر خسرو ـ باسار مجيدي.

(٢) ينظر؛ الخليلي؛ أحمد بن حمد: **برهان الحق (دراسة معمقة في تأصيل العقيدة الإسلامية ودرء الشبه عنها بالأدلة العقلية والنقلية)**، ٣٢٣/٢ ـ ٣٣٠، الكلمة الطيبة ـ مسقط، ط٢: ١٤٣٨هـ/٢٠١٧م.

وإذا كان الإسلام الذي بعث به النبيون جميعًا متحدًا غير متفرق في عقيدته وفيما يدعو إليه من الأخلاق العالية والفضائل السنية، فإنّه في الشرائع مختلف باختلاف الأحوال كما ذكرت.

وإذا كان الدين من ضرورات الحياة البشرية لتقويم اعوجاج الناس، وملء فراغهم النفسي والروحي بوصلهم بالله ﷻ، وإقامة العلاقات الحسنة فيما بينهم، فإنّ ذلك كله لا يمكن أن يتحقق إلا في دين الإسلام الحق عندما يطبق تطبيقًا دقيقًا في حياة الناس الفكرية والعملية، وكم اعترف مفكرون من غير المسلمين بهذه الحقيقة، عندما درسوا الإسلام فبهرتهم مزاياه العظيمة، كما كان ذلك من المفكر الأمريكي **ديفيد بيرلنكسي**، فقد قال ما نصه: «في قرون ازدهار الإمبراطورية العربية، امتدت على طول أرخبيلات فتوحاتها سلسلة مهيبة من المراصد النجمية المتلألئة كالجواهر. كان للمراصد أهمية كبرى في الحياة الدينية للمسلمين المخلصين. لم تكن ـ ولم تكن على الإطلاق ـ تعبيرًا عن فضول متبلد، كان المسلمون مطالبين أكثر من اليهود والمسيحيين بتنظيم أوقات عباداتهم على نحو دقيق، وعرف الفن الذي اعتنى بهذا الأمر بعلم الميقات، وكان فنًا بالفعل، في العصور الوسطى، لم يحظ العالم الإسلامي، على ما فيه من رفاهية وتطور بساعات أكثر تطورًا عما كان موجودًا في العالم المسيحي. تعرّف الناس في الغرب المسيحي على الوقت بطريقة اتسمت بقدر كبير من الإهمال، لدرجة أنّ قدوم عطلة عيد الفصح كان موضع شك كبير. أما الخلفاء في بغداد فقدروا الوقت بواسطة الساعة المائية أو الساعة الرملية، ومع ذلك أمر القرآن بخمس صلوات كل يوم، كما أمرهم أن يمموا وجوههم شطر الكعبة أثناء صلواتهم، وهي مهام تتطلب براعة ذهنية عالية. كان التقويم الإسلامي مبنيًا على منازل القمر. لقد كان على الجماعة التي تستعد لاستقبال شهر رمضان

الكريم، والذي يؤرخ لبداية السنة القمرية[١]، أن ترصد الهلال فور ظهوره في سماء المساء.

قبل صنع الجدول الفلكي المتقدم، كان يبعث الرجال الذين يتمتعون بحدة إبصار استثنائية إلى قمم الجبال البعيدة لرصد ظهور القمر، ومن هناك تعود أصداء صرخاتهم عبر الوديان متسلسلة إلى بغداد نفسها ـ في فرنسا، ما زالوا يطلقون على ليلة الهلال (**la unit de doute**) أي ليلة الشك ـ، بحلول القرن الثالث عشر كانت قد أوكلت هذه الترتيبات العلمية لأشخاص محترفين يدعون المؤقتين. لقد كان هؤلاء مسؤولين عن تنظيم أوقات الصلاة من مكان وجودهم بالمساجد. وكما أشار المؤرخ ديفيد كنج: (في الإسلام خلافًا لأي دين آخر كان أداء مختلف أوجه الشعائر الدينية مدعومًا بإجراءات علمية)»[٢].

---

(١) أخطأ في توقيت بداية السنة القمرية بدخول شهر رمضان المبارك، وإنما تدخل السنة بدخول شهر المحرم، كما وقع الإجماع على ذلك في عهد عمر ﷺ، وعليه فإنّ شهر رمضان يكون الشهر التاسع في سلسلة الشهور القمرية، بحسب التأريخ الهجري.

(٢) ديفيد بيرلنكسي: **وهم الشيطان**، ص ٤٢ ـ ٤٣.

في سعة الشريعة الخاتمة التي جاء بها النبي ﷺ وعمقها وإعجازها

جاءت الشـــريعة الخاتمة التي بعث بها الرســـول ﷺ أكثر شمولًا وأغزر عطاء وأعم فائـــدة، فقد شـــملت كل ما تحتاج إليه الإنســـانية فـــي أطوارها المختلفة وأحوالها المتباينة، فوسعت كل مشكلة حلًا، وأوجدت لكل معضلة بيانًا، فهي الشريعة الجامعة المانعة، لا توصم بنقص، ولا يتسرب إليها خلل، أتت على مشـــكلات الإنســـانية النفســـية والخلقية والثقافيـــة والاجتماعية والسياسية والاقتصادية، فأنزلت كل شـــيء منزله، وبوأت كل حادث مكانه، وهذا من إعجازها الذي بهر العالم، إذ لا يمكن أبدًا في عقول البشـــر ـ ولو اجتمعت وتضافرت ـ أن تأتي بمثله.

ومن المعلوم في التاريخ التشريعي أنّ القوانين البشرية هي نتيجة دراسات متعاقبة عبر القرون في الأحوال النفســـية والاجتماعية، يتعاقب عليها الخبراء الملمون بأحوال الناس، ولكنها مع ذلك لا تكاد تنقضي عليها برهة من الزمن حتى يتكشـــف ما فيها مـــن العيوب، ويظهر للكل ما لابســـها مـــن التقصير والخلل، لأنها نتيجة جهد بشري، وأنى للبشـــر أن يحيطوا بالطبيعة الإنسانية في أطوارها، ويلموا بما يحدث للإنســـان من أحوال، فهم كمـــا قال تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥].

أما الشريعة الربانية فهي ممن يعلم السر في السماوات والأرض، ويحيط بخفايا الطبيعة وجلاياها، وقد شاء الله سبحانه أن يكون كل ذلك في تضاعيف ما جاءت به خاتمة رسالاته إلى الخلق، فقد أتت على الدقائق والجلائل مما يحتاج إليه البشر في صلتهم بربهم المعبود وعلاقاتهم فيما بينهم، وعلاقاتهم بجميع مخلوقات الله سبحانه، وفي كل حين يتكشف إعجاز هذه الشريعة بما لا يدع مجالًا للشك في كونها حجة الله القاطعة، وآيته الساطعة التي يتجدد إشراقها على العالمين.

وكم جرب الناس من نظم وقوانين، فلم تعد عليهم إلا بالوبال والنقمة، ولا يكادون ينتقلون من تجربة إلى أخرى حتى تكون الأخرى هي أنكى ضررًا وأعظم فشلًا، وأسوأ عاقبة، فعندما قامت في أوربا الثورة الصناعية تمخضت عن النظام الرأسمالي الذي أطلق يد الفرد في كسب المال، ولم يقم وزنًا لمصالح الجماهير، فاتسعت الهوة بين طبقتي الأغنياء ذوي رؤس الأموال والفقراء الكادحين العاملين، فكان جهد العمال تعود نتيجته إلى الأغنياء أصحاب المؤسسات، فتتضخم ثرواتهم، بينما العمال الكادحون يزدادون فقرًا وبؤسًا.

ثم جاء ماركس بفكرته الشيوعية التي علقت جماهير الأمم عليها رجاءها أن تنقذها من معاناة الحرمان ومقاساة الظلم والاستبداد، وقد تفجرت أولى ثوراتها في ممالك روسيا القيصرية، التي كان يعاني جماهير الناس فيها من ظلم القياصرة وبطشهم واستئثارهم واستبدادهم ما كان تضرب به الأمثال، واندفع الناس في روسيا بالذات وفي مستعمراتها التي طوقتها بنفوذها وقوتها إلى تأييد هذه الثورة راجين بها أن يتحولوا من البؤس والشقاء إلى النعيم والسعادة، ولكن ما كاد قادة الثورة يضعون أيديهم على أزمة الحكم، ويتربعون على سدته، حتى كانوا هم أعظم بطشًا وأسوأ حكمًا وأشد ظلمًا من

سلفهم القياصرة، حتى تعلقت النفوس بالعهد القيصري على ما فيه من بطش وظلم وحرمان، وتمنوا أن يعود إليهم؛ لأنه إذا ما قيس بعهد البلشفيين كان جنة ونعيمًا.

ولذلك عندما فشلت الشيوعية، وتعثرت خطاها في عقر دارها وفي منطلقها الأول ومركزها الأصيل، فيما كان يسمى بالاتحاد السوفيتي، وارتفع عن الناس كابوسها الثقيل، واختفى من أمامهم شبحها الرهيب، تطلع الناس إلى عودة القيصرية من جديد، فقد زار موسكو عاصمة روسيا أحد حفدة القياصرة الذين كانوا هاربين من جحيم الشيوعية بعيدًا في الدول الغربية، وحضر احتفالًا في الكريملن فدخل قاعة الاحتفال بصحبة يالتسين الذي كان آن ذاك رئيسًا لروسيا الاتحادية وما كادا يبدوان للجماهير حتى دوت القاعة هتافًا، لا للرئيس ولكن لحفيد القياصرة، فارتفعت الأصوات من الجميع: (عاش القيصر.. عاش القيصر..).

ولكن يا ترى هل بعد ذلك الكبت الشيوعي العنيف سعدت الجماهير هناك بتنفس نسيم الحرية، وتذوق حلاوة العدالة والإنصاف، أو أنهم انقلبوا إلى جحيم آخر؟ نعم تحولوا إلى صبغة أخرى من الحرمان والفساد، فما مر عقدان على هذا التحول الذي حصل في روسيا ودول شرق أوربا إلا وبدأ الاستياء والتململ من جديد، بسبب ما نجم عن إطلاق الحرية الاقتصادية من التباين بين طبقات الشعب، وانتقال القلة إلى الغنى المطغي ومقاساة الجماهير الفقر المدقع، ففي شهر ذي القعدة عام ١٤٢٩هـ اطلعت في جريدة عمان على تقرير أخباري عن الأوضاع في أوربا الشرقية، واستطلاع عن رغبات الناس هناك ما بين الأوضاع الحاضرة وعودة الشيوعية إليهم، ففي بعض البلاد كانت نسبة الذين صرحوا بالرغبة في عودة الشيوعية ٦٠٪ وفي بعضها ٧٠٪، وليست هذه الرغبة بدافع حب الشيوعية، ولكن بسبب معاناتهم من الحرمان، ففي

عهد الشيوعية كانت على الأقل لقمة العيش مضمونة لهم مع الملبس والمأوى، وإن كان كل ذلك في ضنك وتقشف، أما في عهد الانفتاح فكل مسؤل عن نفسه، ولا يجد أحد ما يسد رمقه أو يستر سوأته، أو ما يأوي إليه إلا بجهده الشخصي، وعندما لا يحالفه الحظ يظل في حرمان ومشقة.

ومن ناحية أخرى؛ فإنّ المطلب الثاني في الحياة وهو الأمن أصبح معدومًا، بسبب احتقان الصدور بالأحقاد الناجمة عن الشعور بالحرمان، فقد كانوا في عهد الشيوعية لا يخشون إلا السلطة وحدها ذات القوة والبأس، والعنف والبطش، وبسبب اشتراكهم في رهبتها ما كانوا يعتدي بعضهم على بعض، أما الآن فالخارج من بيته يظل يترقب من الخوف حتى يعود إليه لا يدري من أين يُبْطش به.

وهذا لا يدل إلا على أنّ منهج الله تعالى وحده هو الذي يشفي صدور الناس ويكفيهم ما يحتاجون إليه، وقد أدرك هذا قادة الشيوعية بأنفسهم، فبعد انهيار الاتحاد السوفيتي أجري حوار مع آخر رئيس لهذه الاتحاد، وهو **جورباتشوف**، الذي احتضرت الشيوعية ولفظت أنفاسها في عهده، وكان هذا الحوار في إحدى الفضائيات البريطانية، سئل فيه عن استمرار النظام الشيوعي في الصين وفيتنام ـ وكانتا تتمسكان بمبادئ الشيوعية إلى ذلك الوقت ـ فأجاب باستحالة استمرارها، وسئل عن البديل فأجاب: لا أعتقد أن البديل يكمن في الرأسمالية ولا في الاشتراكية ولا في الديمقراطية، وإنما هو في نظام آخر، فعلينا أن نتكيف وفق حضارة جديدة.

وقد علقت على كلامه آنذاك؛ بأنّه لا يعني بهذه الحضارة إلا حضارة الإسلام، فهو وحده البديل الصالح الذي ينتشل الإنسانية من ضياعها، ويؤمن لها الخير في مسيرها ومصيرها، ولكنه لم يكن جريئًا على التصريح بذلك، غير أنه لم يمض على تصريحه هذا إلا بضع سنين حتى جاء من بعده الرئيس

الشيوعي المتعصب العنيف كاسترو فصرح بما أخفاه جورباتشوف في طوايا ضميره، إذ قال: إنه لم يبق أمام العالم إلا النموذج القرآني.

وهو مما يدل قطعًا أنّ الكل يدرك أنّ الإسلام وحده هو الذي يملأ كل فراغ من الخير، ويسد كل ثلمة ويضمن الاستقرار النفسي والاجتماعي، ويكفل لأتباعه سعادة المسير والمصير، وبجانب ذلك يحل ألغاز الوجود ويكشف السر المعمى من هذه الحياة، ولكن العقد النفسية هي التي تعد العائق دون التسليم لهذه الحقيقة واتباعها.

وفي فترة شموخ الشيوعية وكبريائها وقوتها وجبروتها كانوا يرون أن العالم كله هو بين أيديهم ينفذون فيه إرادتهم، ويفرضون عليه فكرهم ونظامهم، ومنذ خمسين عامًا من الآن حدثني من لا أشك في صحة ما يقول بأنّه اطلع على بعض ما ينشره الشيوعيون، وفيه أن عام ١٩٨٠م لا تبقى فيه بقعة في الأرض إلا ونار الثورة الشيوعية تضطرم فيها، وأن عام ١٩٩٠م هو العام الذي تصبح الشيوعية فيه قابضة على أزمّة العالم بأسره مطبقة لأفكارها ومبادئها في كل جزء من ترابه، ولكن القدر النفاذ جاء بعكس ما قالوا، فقد كان ذلك العام هو العام الذي احتضرت فيه الشيوعية ولفظت فيه أنفاسها.

ومن عجيب تصاريف القدر أنني ظللت ردحًا من الزمن أقاسي فيه الخوف من الشيوعية لما أعلمه من شرورها، ولم يكن الناس في بلادنا على خبرة بها، فالسواد الأعظم من الناس عندما أحدثهم بها وبخطورتها كنت كمن يصرخ في واد حيث لا سامع ولا مجيب، وفي العام الذي أَصْبَحَت فيه جثة هامدة انتشر فيها العفن وبدأ فيها التهري ساقني القدر إلى أن أحضر مواراة جثمانها وإهالة الترب عليها في مركزها الأول ومعقل قوتها ومصدر أمرها ونهيها، فقد دُعيت إلى ما يسمى بالاتحاد السوفيتي ـ إبان الانفتاح الذي كان في آخر عهد زعيمه جورباتشوف ـ لحضور مؤتمر عن الإمام الترمذي بمناسبة

مرور ١٢٠٠ عام عليه، فحضرت أولًا إلى موسكو التي كانت هي العاصمة الكبرى للشيوعية، ومركز قوتها وجبروتها، ومنطلق مؤامراتها على العالم، ومنها سافرت إلى طشقند عاصمة الأزبكستان، وهناك كان انعقاد المؤتمر، وكان نفس انعقاد المؤتمر فتحًا مبينًا ونصرًا عزيزًا للمسلمين بعدما مروا هنالك بأحلك الأحداث وأسوأ الظروف، قاسوا فيها الأشدين وتجرعوا الأمَرَّين، وقد وفقني الله لأن أشارك بكلمة الحق في صميم المؤتمر، فقد وجهت كلمة إلى الحاضرين قلت فيها ما معناه:

«إنّ هذه البلاد ـ أي بلاد ما وراء النهر ـ كانت للمسلمين في فترة من الفترات من أغزر الروافد العلمية في علوم المعقول والمنقول، فقد كان هنا كبار أئمة التفسير وعلوم القرآن، من أمثال الطبري والزمخشري والرازي والنيسابوري، وكبار المحدثين كالبخاري ومسلم وأبي داود والنسائي والترمذي وابن ماجة، وكبار الفقهاء والأصوليين كإمام الحرمين والغزالي والرازي والشيرازي، وكبار أئمة العربية من النحاة واللغويين والبلاغيين، كسيبويه والكسائي وتلامذتهما، والجرجاني والزمخشري، وبعد هذا العطاء المدرار الذي كان ينبجس نبعه الفياض من هذه الأرض المباركة رزئت هذه الأرض وأهلها بتسلط الإلحاد والكفر عليها، وضرب بينها وبين سائر العالم الإسلامي بستار حديدي حال بين المسلمين هنا وبين تواصلهم مع إخوانهم في أنحاء المعمورة، ولكن بحمد الله سقط هذا الستار وبدأ التواصل من جديد ـ على رغم الإلحاد وأهله ـ وكفى بهذا المؤتمر شاهدًا على هذا التواصل والتلاحم، فقد جئنا من بقاع شتى لنشارك إخواننا هنا فرحتهم الكبرى بهذه الحرية؛ التي يتنسمون عبقها الشذي بعد ما كانت الأجواء مسممة بسموم الكفر والإلحاد المفروضين على الناس بقوة الحديد والنار، ولنشاركهم في الاحتفاء بذكرى علم من أعلام الأمة الإسلامية أنجبته هذه الأرض الطهور.

وإنني لأناشد إخواني المسلمين هنا بأن يعودوا إلى سابق عهدهم وسالف مجدهم المرْتَبِطين بالعناية بالعلوم الإسلامية والعربية، فقد كانت هذه هي بضاعتهم التي يصدرونها إلى إخوانهم من المسلمين، فما عليكم إلا أن تنتهزوا الفرصة لتعودوا إلى مجدكم التليد، وتضموا إليه طارفه الغالي، وتصلوا حلقات تاريخكم العظيم بعضها ببعض، فإن هذه هي ثروتكم فلا تضيعوها، وهذا هو شأنكم فلا تهملوه».

وما كدت أنهي هذه الكلمات حتى دوت القاعة بالتكبير، فقد أثارت هذه الكلمات كوامن الأحاسيس، وأطلقت من نفوسهم المشاعر التي ظلت مكبوتة ردحًا من الزمن، وهيجت النخوة الإيمانية فأطلقتها من عقالها بعدما كانت أسيرة الطغيان والظلم والحمد لله.

وعقد على هامش المؤتمر مؤتمر صحفي حضره لفيف من الصحفيين من أنحاء الجمهوريات التي كانت منضوية تحت جناح ما يسمى بالاتحاد السوفيتي، وطرحوا العديد من الأسئلة على الوفود التي حضرت مؤتمر الإمام الترمذي، وكانت الأسئلة معروضة عليهم ليجيب كل منهم على ما يختار منها، وكان من بينها سؤال عن البديل المتصور عن الشيوعية، فاخترت هذا السؤال من بين الأسئلة المطروحة لأجيب عليه، وكان جوابي بما حاصله:

«لا يمكن أن تكون الرأسمالية هي البديل عن الشيوعية، لأنها هي مصدر البلاء، وأساس المشكلة، إذ لم يكن انفجار الثورات الشيوعية إلا ردة فعل للظلم الرأسمالي الضاغط، فقد تولدت هذه الثورات نتيجة مقاساة الحرمان؛ الذي عانت منه الجماهير الكادحة، التي كانت ثمار كدحها المتواصل تجنيها طبقة الأغنياء المتسلطين، التي لم يكن يعنيها تضور الجماهير جوعًا، ولم يكن يؤرقها ما يتصاعد منها من أنات الألم الناتج عن الفقر والحرمان، ولو

صخت زفراتها أرجاء الخافقين ـ وذكرت ما أوردته قرينة ماركس منظر الشيوعية من الشكاوى المرة في رسائلها ـ».

ثم أضفت إلى ذلك: «أن أساس المشكلة في هذا ليست مشكلة مادية فحسب، وإنما أساسها غياب التصور الصحيح، وفقدان الفكر النير، وانعدام الأخلاق الفاضلة، وأنّ هذا كله متوافر في تعاليم الإسلام دين الله تعالى الحق، وقد تكفل بها القرآن الكريم، ففي تضاعيف آياته البينات ما يحل كل مشكلة من هذه المشكلات، بل تكفي آية واحدة من آياته ـ لو طبقت ـ لأن تكون علاجًا ناجحًا، ودواء شافيًا لجميع هذه الأمراض، وهي قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧]، فأنتم ترون أن الآية الكريمة بدأت بوصل الإنسان بخالقه تعالى، ذلك الخالق العظيم؛ الذي تتجلى آياته وتتكشف حججه وبيناته في كل ذرة من ذرات الكون، وقد تعامت عنه الشيوعية وكفرت به، وتناست أن وجود كل إنسان بل كل شيء في الوجود شاهد على وجوده تعالى، وإحاطته بكل شيء، وتدبيره لكل أمر، وقهره لكل موجود، وتصريفه لكل شأن وأنى للإنسان سعادة أو طمأنينة أو استقرار إن كان مقطوع الصلة به ومحرومًا من نعمة التشرف بالعبودية له؟! فالإيمان به تعالى إيمانًا يمتلك شغاف القلب، ويسيطر على الفكر والوجدان، وعلى كل حركة يتحركها الإنسان هو مبعث الطمأنينة، وينبوع السعادة، وضمان الاستقرار، وأساس كل رقي في الحياة.

ثم يليه الإيمان بالمنقلب إليه وهو اليوم الآخـر، الذي يجزى فيه كل أحد بما عمل ويحصد مـا زرع، ويبوء إلى ما قدم، ثـم الإيمان بملائكته العظام؛ الذين يسبحون بحمده، ولا ينفكون عن ذكره، وينقادون له في كل ما أمرهم به أو نهاهم عنه، فلا يعصونه لحظة، ولا يجترئون عليه قدر لمحة، ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٠٦]، ﴿ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴾ [الأنبيـاء: ٢٠]، ﴿ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ۞ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴾ [الأنبياء: ٢٧ ـ ٢٨].

ثم الإيمان بكتبه التي أنزلها؛ التي هي مصـدر هداية الخلق إلى الحق، وتعريفهم بما يرضي الله أو يسخطه من أقوالهم وأفعالهم وأخلاقهم، ليتجسد هذا الإيمان فيمـا يأتونه أو يذرونه فـي صلتهم به تعالـى، أو صلتهم بأبناء جنسـهم، أو صلتهم بسـائر مخلوقات الله تعالى في جميع أرجـاء الوجود، فيكون بسبب ذلك كل منهم مقيدًا بقيود الطاعة والاستقامة والصلاح والرشد، ثم الإيمان بالنبيين؛ الذين هم رموز الخير، وعناوين الصلاح والرشد، ومعادن الفضيلة والاستقامة، لأنهم أفضل قدوة وأكرم أسوة لمن آمن بهم حقًا.

وبعد هذا حلت الآية المشكلة المالية التي عانت منها الشعوب، وهامت فيها العقول، وفشلت في حلها الأنظمة، وتعددت فيها التجارب، ما من تجربة إلا وتبوء بالفشل الذريع وتتكشف عن عيوب فاضحة وخلل واسع، فقد جعل الله تعالى من البر إيتاء المال ذوي القربى واليتامى والمسـاكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب، وهذه حقوق مفروضة في كل مال عندما يكون فائضًا عن حاجة صاحبه من غير التفات إلى نـوع المال، أو قدره، أو قدر ما يخرج منه، أو الزمن الذي يجب أن يخرج فيه، وإنما ذلك عندما تعن الحاجة ويتعذر سدادها إلا بهذا الإنفاق.

وبجانب ذلك يتعين الإنفاق بقدر معلوم عندما يبلغ المال قدرًا مخصوصًا، ويمر عليه زمن مخصوص ـ وهو الحول ـ، وذلك في أصناف مخصوصة من المال تشتد إليها حاجة الناس كلهم، من الأغنياء والفقراء، فهذا إنفاق منظم يجب على الأغنياء أن يدفعوه إلى فقرائهم، ليسدوا به عوزهم ويقضوا به حاجتهم، ومع ذلك يطهرون به أنفسهم من أثر الشح، ويحررونها من قيد شهوة المال؛ التي تأسر صاحبها عندما تطغى في نفسه؛ حتى لا يبالي بما يطأ عليه من الفضائل، ويدوسه من الحرم، ويقطعه من الأواصر، فلا يكون له همّ إلا المال والاستكثار منه، كما هو حاصل في حياة الناس؛ الذين فقدوا نعمة هذا الخير، وحرموا من القلوب الرحيمة، التي لا يريحها إلا كشف الضراء عن المحرومين.

وهذا الحق الواجب المنظم في إنفاق المال بقدر مخصوص عندما يبلغ حدًا مخصوصًا، وبعد مرور زمن مخصوص، هو غير الحق الذي وكل إلى ضمائر الأغنياء ليؤتوه الفقراء عندما يرون حاجة لمحتاج، وثلمة يجب أن تسد في الحياة، ويدل على التغاير بينهما العطف الذي في قوله: ﴿وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [البقرة: ١٧٧]، فإنّ العطف يدل على التغاير بين المعطوف والمعطوف عليه، ثم والت الآية بعد ذلك ذكر صنوف البر التي تكون في العلاقات الاجتماعية والشئون الأخلاقية التي يجب أن تسود حياة الناس جميعًا، ليسود الخير والرفق والرحمة والوئام والانسجام.

وهذه من كنوز الإسلام الثمينة التي تضمنها القرآن الكريم، فلو طبقت هذه الآية وحدها بما فيها من فكر نيّر ومنهج رشيد وأخلاق رفيعة وعلاقات متينة، لساد الأرض الاستقرار والرحمة والشفقة والوئام، واستغنوا بذلك عن مناهج الناس؛ التي يستوحونها من أفكارهم المحدودة وعقولهم الضيقة وتجاربهم الفاشلة، وما بقي على ظهر الأرض عائل محتاج، ولا

كان بين الناس متســـول أو محتال، ولانعدمت الجريمة وتمكنت الفضيلة في النفوس جميعًا».

وكانت هذه ـ بحمد الله ـ كلمة حق قلتها ورســـالة صـــدق أبلغتها، وكان الذي يترجم إلى اللغة الروســـية من اللغة العربية شابًا لبقًا فطنًا، يتقن العربية كأنه أحد أبنائها، وكان ـ فيما يظهر من حاله ـ معجبًا بماركس مُنَظِّر الشيوعية وإمامها، لأنه كان يتشبه به في هيئته، في لحيته ومقدارها وشعره المرسل إلى كتفيه، وسميته ماركس من أول ما وقعت عليه عيني، وقد صحبنا من موسكو إلى طشـــقند، وكذلك صحبنا في عودتنا إلى موسكو، وســـألته عن هويته؟ فأخبرني بأنه روســـي، وســـألته من أين تعلم العربية؟ فأجاب أنه خريج أحد معاهد الاستشـــراق، وقد تخصص في اللغة العربية، ثم اتضح لي أنه يهودي من روســـيا، إلا أني أخبرت من قبل بعض الإخوة الأوزبكيين بأنه كان أمينًا في ترجمته، إذ لم يخل في الترجمة بشـــيء مما قيل حتى ما قيل ضد اليهود ودولتهم الصهيونية.

وفي أثناء جولتنا في أنحاء أوزبكســـتان وصلنا إلى مدينة ترمذ العريقة، مســـقط رأس الإمام الترمذي، ووقفنا فيها على شـــاطئ نهر جيحون العظيم، الذي يفصل ما بين أرض الأوزبكيين وأرض الأفغان، وكنا ننظر في الجانب الآخر إلى بلاد الأفغـــان المجاهدة الصلبـــة، التي دحرت القوى الشـــيوعية الروسية الغازية، فتهشمت بأيديهم كما يتهشم الزجاج عندما يصطدم بجلاميد الصخر الصلاد، فتتطاير شظاياه هباء منبثًا، إذ كانت أيدي أبنائها المجاهدين، أصلب وأصلد من تلك الصخور، وأقدامهم وعزائمهم أثبت وأرسخ من تلك الشم الرواســـي في أرض تورابورا، فخرجت فلول القوى الشيوعية من هناك خاســـئة مدحورة، تجر وراءها أذيال الخيبة والعـــار، وعبرت النهر إلى أرض الأوزبكيين التي كانت واقعة تحت نير الاحتلال الشيوعي البغيض، وما كادت

قواهم تطأ بلاد الأوزبكيين، حتى انهار قائدهـا عندما رأى رفاقه الذين جاؤا لاستقباله، واستقبال الغزاة المدحورين، فأجهش بالبكاء، لأنها كانت هزيمة تؤذن بأفول شمسهم واضمحلال مجدهم، وانفلات ما بأيديهم مما احتلوه من أرض الإسلام في بلاد ما وراء النهر.

وقد سقت هذا كله ليدرك الناس أنّ الشر ـ وإن وقفت وراءه القوى وساندته بكل ما تملك من مال وعتاد، وما يتوفر لها من وسائل الدعاية والإعلام، وأسباب الترهيب والترغيب ـ لا يلبث أن يندحر، ويتهاوى وتفشل جميع خططه، وتتكشف للناس عيوبه، بل ينقلب القائمون عليه والمناصرون له إلى أعداء مناوئين، وأن الحق لا بد من أن ينتصر ولو بعد حين، وأنّ الناس جميعًا يدركون بفطرتهم ما هو الحق، وأنه هو المبدأ والملاذ، وإن كابروا ذلك بسبب عتوهم واستكبارهم، فكم كان لوسائل الإعلام الهدامة من قبل الشيوعية وأذنابها ـ من ترويج لأفكارها وتلميع لمبادئها ـ من تأثير بالغ على الذين كان يروق لهم كل ما يسمعون، ويتسارعون إلى التقاط الأفكار مما يبث ويذاع، ولو كانت بالغة في القذارة إلى أسوأ حال، وفي الانحطاط إلى أسفل الدركات.

فلست أنسى ما كان قبل زيارتي لما كان يسمى بالاتحاد السوفيتي ـ بنحو عقدين من السنين ـ من حديث كنت قلته في بعض المساجد هنا بسلطنة عمان تحذيرًا من الشيوعية وشرورها، وعرجت فيه إلى قادتها المجرمين من أمثال **لينين وستالين وماو تسي تونج** وغيرهم، فوصفتهم بأنهم أعداء الإنسانية، وقد فجر ما قلته الغيظ في نفس أحد الشباب الحاضرين، فغضب أيما غضب من هذا الكلام، وقال لي: كيف تصفهم بأنهم أعداء الإنسانية، وهم الذين قدموا للإنسانية الخير، وقاموا بتحريرها من الظلم؟!.. فرددت عليه: بأن أول ظلم قام به هؤلاء، هو قطع صلة الناس بربهم تعالى وإنكارهم

لوجـــوده، ودعواهم أنّ الديـــن أفيون الشـــعوب، لأجل تردية الإنســـانية في المهالك، وإغراقها في الضلال، فضلًا عما كان منهم من ســـفك دماء البشر، وحرمانهم من التمول وهو حق فطري لهم، إلى غير ذلك من الجرائم الكبرى.

وبعد حوار سكت الشاب وعلامات الغضب تلوح في وجهه، وإن عجبت فاعجب أن يكون هذا الشاب ينحدر من سلالة علم، وأبو جدَّيه لأبيه وأمه هو أحد أقطاب العلم المشهورين بالفضل والعبادة، ولكن الظروف المحيطة التي كانت تغذيها الوســـائل الإعلامية العالمية حجبت الحقائق عن السواد الأعظم من الناس، مع أن البيئة لم تكن مساعدة على العناية بغرس العقيدة الصحيحة والمفاهيم الإســـلامية العالية في نفوس الناس، فكان كثير من الشباب عرضة للدعايات الفاجرة التي تبثها وسائل الإعلام الموجهة من قبل أعداء الإسلام، كل ذلك هو الـــذي أدى إلى انحراف هذه العقـــول، وانطماس هذه الأبصار، وزيغ هذه الأفهام، فكانت هذه النكسة في التصور والسلوك والأخلاق.

ومن المفارقات العجيبة أن يكون هذا الشـــاب خرج بصحبة أسرته فرارًا من جحيم الثورة الشـــيوعية في زنجبار، بعد أن كانوا مستقرين بها، فإن كان قادة الشيوعية ـ كما يزعم ـ هم الذين حرروا الإنسانية وارتقوا بها في معارج الخير، فلماذا هرب من هذا الخير، ولم يستمر على اشتياره حيث عمّ وطمّ؟!.

وإذا كان قادة الفكر الشـــيوعي في نهاية المطاف اعترفوا بأنّ الإسلام هو الحل لمعاناة الإنسانية ومشكلاتها، ســـواء من صرح بذلك كالزعيم الكوبي الشـــيوعي كاســـترو، أو مـــن ضَمَّـــنَ هـــذا المعنى ضمْـــن إشـــارات كلامه **كجورباتشوف**، فإنّ قادة الغربيين الذين يدركون أزمتهم في الفكر والأخلاق، ومشـــكلتهم في جانب الاجتماع والاقتصاد والثقافة والأدب؛ كثيرًا ما تصدر منهم بيانات تُعَرّج على قيم الإسلام وتعرف شعوبهم وأممهم بأنهم لا بد في النهاية أن يستمدوا من هذه القيم حل مشـــكلاتهم التي ينوؤن بها، ومن بين

هؤلاء من انتهى به الأمر إلى اتباع الإسلام كالأستاذ فاروق عبد الحق الذي كان يدعى قبل إسلامه روبرت كرين.

وليس هذا الرجل من الأغمار الذي لا يعبأ بما يقولون، فإنه رجل راسخ القدم في السياسة، وقد تقلد قبل إسلامه العديد من المناصب السياسية، ومن بينها أنه كان كبير مستشاري الرئيس نيكسون في السياسة الأمريكية الخارجية، وقد تضمنت محاضرته ـ التي ألقاها بمجمع أبي النور بدمشق أمام المفتي الراحل للجمهورية السورية، في شهر ذي الحجة من عام ١٤١٥هـ ـ رؤيته لمشكلات الغرب، لا سيما الولايات المتحدة الأمريكية، وكانت محاضرته بعنوان **القيادة الإسلامية في القرن الحادي والعشرين** وقد تناول فيها هذه المشكلات المعقدة التي ترزح تحتها الولايات المتحدة الأمريكية، وبيّن أنه لا حل لها إلا في تعاليم الإسلام.

وقد يتصور الإنسان أن ما قاله نابع من عاطفته الإسلامية تجاه دينه الجديد، التي قد تكون طاغية على فكره ونظرته إلى الأمور، ولكن الرجل لم يكتف بطرح أفكاره، وإنما عززها بما نقله عن القادة الأمريكيين ومن بينهم الرئيس نيكسون نفسه، فقد كان مما قاله في تلك المحاضرة ما يلي:

«مع نهاية الحرب الباردة يلح نيكسون أن نسأل أنفسنا ماذا نريد بالإضافة إلى القوة والازدهار القوميين، فالديمقراطية والرأسمالية هما مجرد أساليب فنية ما لم يوظفها الذين يسعون لها نحو هدف أسمى من أجل أنفسهم ومن أجل المجتمع، ويعارض نيكسون أولئك الذين يرون الصدام الحتمي للحضارات فهو يؤكد قائلًا: «عدونا اليوم في داخلنا» وما يهدد العالم فعلًا كما ذكر نيكسون لزملائه الأمريكيين «هو أنّ بلدنا قد يكون غنيًا بالبضائع، ولكننا فقراء في الروح» فالتربية والتعليم الرديئان والجرائم المتزايدة والعنف المتصاعد والانقسامات العرقية النامية والفقر

المستشري وآفة المخدرات والثقافة المنهارة في وسائل التسلية والانحدار في تأدية الواجب المدني والمسئولية وانتشار الفراغ الروحي؛ ساهمت جميعًا بفصل الأمريكيين وتغريبهم عن بلادهم ويصرح نيكسون واضعًا نصب عينيه أولئك القديسين من المسلمين والمسيحيين قائلًا: «إنّ أزمتنا في القيم في الداخل مشفوعة بفقدان سياسة منسجمة في الخارج فقد خلقت للروح ليلًا مظلمًا».

ومع هذا؛ عرج أيضًا إلى ما قاله أحد كبار الساسة الأمريكيين، بل يمكن أن يعد المهندس الأول لصياغة السياسة الأمريكية المعاصرة، وهو **بريجنسكي** الذي كان مستشار الأمن القومي في عهد الرئيس كارتر، فقد قال بعد ما تقدم ذكره: «وهناك قائد بارز آخر يحمل نفس هذه الرسالة وهو **زبينجيو بريجنسكي** والذي كان مستشار الرئيس كارتر لشئون الأمن القومي في البيت الأبيض وقد نال شهرته كمتنبئ بالتغير الحضاري حيث ألف كتابًا قبل عشر سنوات يتنبأ فيه أن الشيوعية ستختفي قريبًا كقوة في العالم، وهو الآن يحذر أن نفس القدر قد يصيب التجربة الأمريكية الكبرى، والتي بدأت قبل قرنين من الزمان، وهذا المنظور الجديد عن العالم وعن أمريكا وعن الإسلام قد تطرقت إليه قبل سنتين وللمرة الأولى إحدى الصحف الأمريكية الواسعة الانتشار وأسمها (**New Perspectives Quarterly**)، وفي إصدار خاص لهذه الصحيفة قدم **بريجنسكي** ما يسمى بـ (عقيدة بريجنسكي) والتي تؤمن «بأن المجتمع المنغمس في الشهوات لا يستطيع أن يسن قانونا أخلاقيا للعالم، وأن أي حضارة لا تستطيع أن تقدم قيادة أخلاقية سوف تتلاشى».

... وأن المحرر لهذه الصحيفة **ناثان جارولز** قدم لهذا الإصدار الخاص بمقال افتتاحي تحت عنوان **روح النظام العالمي** يوحي فيه أن روح الإسلام قد تصبح قريبًا روح القرن الواحد والعشرين وقد تكون العلاج الوحيد للمشاكل

المستعصية، والتي سببتها علمانية الحضارة الغربية وكتب قائلًا: «وربما ساعد الصدام مع الدين الإسلامي على إيجاد عصر ما بعد العلم في الغرب، والذي يفسح المجال ثانية للوجود الروحي بعد ما حذف من القائمة، وربما أدى الانهماك بسبب السعي المجنون وراء مستقبل أجوف إلى نظرة فورية ثانية إلى قيم الإسلام في التوازن والاعتدال والتبصر».

وهذا كله لا يدل إلا على التجربة المريرة التي مرت بها الإنسانية في ظل الحضارة المادية البحتة، التي لا تقيم وزنًا للإيمان، والصلة بالله ﷻ، ولا تدرك معنى للفضائل والأخلاق، وهي هائمة في هذه الحياة غير عارفة بالمصير، وبسبب ذلك سلكت مسالك ملتوية مظلمة موحشة في مرحلة المسير.

وكم دوت بهذا نداءات بحت بها حناجر العقلاء في الغرب الذين أقلقهم فساد الأخلاق، وضلال التصور، وتردي النظم الاقتصادية، وانعدام العدل والمساواة فيها، وكلهم يرنو ببصره نحو الإسلام، الذي يعد المنقذ الوحيد لهذه الإنسانية التعيسة، التي لم يجدها العلم ولا القفزات الحضارية شيئًا مع الفساد الذي استشرى فيها، فقد نادوا بهذا في محاضراتهم وبحوثهم ومؤلفاتهم، وفيما نشروه من مقالات في صحفهم السيارة، ففي إبان الأزمة الاقتصادية الناجمة طالعتنا افتتاحية مجلة **تشالينجز Challenges** الفرنسية بما قاله رئيس تحريرها **بوفيس فانسون** تحت عنوان **البابا أو القرآن** مشيرًا إلى أنّ هذا الوضع الاقتصادي السيء أدى بالبشرية إلى الهاوية.

وتساءل الكاتب بأسلوب يقترب من التهكم من موقف الكنيسة مستسمحًا البابا بنديكيت السادس عشر قائلًا: «أظن أننا بحاجة أكثر في هذه الأزمة إلى قراءة القرآن بدلًا من الإنجيل لفهم ما يحدث بنا وبمصارفنا، لأنه لو حاول القائمون على مصارفنا احترام ما ورد في القرآن من تعاليم وأحكام وطبقوها

ما حل بنا ما حل من كوارث وأزمات، ومـــا وصل بنا الحال إلى هذا الوضع الكارثي؛ لأن النقود لا تلد نقودًا»[١].

على أن هذه الفكرة ليســـت وليدة اليوم ففي أوج طغيان النظامين الماليين العالميين ـ الرأسمالية والإشتراكية ـ نادى كثير من خبراء الاقتصاد في الغرب بضرورة الرجوع إلى الإســـلام لاســـتلهام المنهج الاقتصادي السليم من أجل العدالة بين الناس وإنقاذ العالم من المســـتقبل الأســـود المظلم، الذي ينتظره، فنجد مثلا **جاك أوستروي** أستاذ الاقتصاد الفرنسي ـ في كتابه المعنون **بالإسلام والتنمية الاقتصادية** الذي نقله للغة العربية **نبيل صبحي الطويل**، ونشـــرته دار الفكر بدمشق عام ١٩٦٠م ـ يرى في الإســـلام نظامًا للحياة التطبيقية والأخلاق المثالية الرفيعة معًا، وأنّ هاتين الوجهتين مترابطتان لا تنفصلان أبدًا، وذكر أنه من هنا يمكن القول: إنّ المسلمين لا يقبلون اقتصادًا علمانيًا، والاقتصاد الذي يســـتمد قوته من وحي القرآن يصبـــح ـ بالضرورة ـ اقتصـــادًا أخلاقيًا، ويؤكد **أســـتروي** انبهاره بالاقتصاد الإســـلامي لما يتضمنه من توفيـــق بين المصالح الخاصـــة والمصالح العامـــة، لذا يـــرى أنّ التنمية الاقتصادية وطرقها ليســـت محصورة في الرأسمالية والاشتراكية فقط، وإنما هناك اقتصاد ثالث هو الاقتصاد الإسلامي الذي سيسود المستقبل، وذلك لأنه أسلوب حياة كامل[٢].

ولم تكن هذه النظرة إلى الإســـلام والانبهار بنظامه الاقتصادي من قبل علماء الاقتصاد فحســـب، بل جميع المنصفين يؤكدون ذلك، سواء كانوا من الساسة أو خبراء في مجالات الحياة المختلفة، فقد عرج **أمير ويلز** في خطابه الموجه إلى المنتدى الاقتصادي الإسلامي العالمي بلندن في ٢٩ أكتوبر ٢٠١٣م

---

(١) مقال بعنوان **الاقتصاد الإسلامي في عيون الغرب** لضياء الناروز، ينظر:
https://www.sasapost.com/opinion/islamic-economics-in-the-eyes-of-the-west

(٢) المرجع السابق.

إلى مشكلات الاقتصاد العالمي المعاصر، ثم بعد تطوافه الطويل قال ما يلي: «أين إذن قد تكمن الحلول؟ من الواضح مـــن القرآن، ومن الكتاب المقدس أيضًا، أنّ البشرية تتحمل مسؤولية مقدسة عن إدارة الأرض. لقد حان الوقت بالتأكيد لكي تدرك مؤسســـاتنا المالية أن الأرض ليســـت موردًا لا حدود له يمكن نهبه حسب الرغبة، ودمج مبدأ الإشراف على هياكلنا المالية. هنا أعتقد أن المنتدى الاقتصادي الإســـلامي العالمي والتمويل الإســـلامي أو التمويل البديل يمكن أن يساهما بشكل كبير. ما يهمني هو أنه يقوم على تعاليم مهمة جدًا في قلب الإســـلام مفاهيم (الوحـــدة من خلال التنـــوع)، من الإنصاف والتعاطف، فضلًا عن ضرورة الاعتراف بشكل صحيح برأس المال الطبيعي.

إنّ المخاطر التي تواجهها المنظمات المالية والتجارية ليســـت محصورة بشكل أو بآخر عن بقية السكان، لذا فمن المؤكد أنها فكرة جيدة لاستكشاف كيف يمكن للروح المتأصلة في (الاقتصاد الأخلاقي) للإسلام أن تساعد في اتباع نهج عادل وأخلاقـــي نحو إدارة المخاطر الشـــاملة فـــي الاقتصاد، في الأعمال التجارية والتمويل بطريقة تقاسم المخاطر ضمنًا في المشاركة، يعمل على ســـبيل المثال مـــع المقرضين تقاســـم مخاطـــر المقتـــرض[1]، ومفهوم المضاربة، وتقاســـم الربح. وهذا يختلـــف كثيرًا عن الطريقـــة التي ينقل بها التمويل التقليدي المخاطر بسرعة وبشكل متكرر إلى شخص آخر مع تحقيق الربح بطريقة واحدة فقط.

هناك أيضًـــا تركيز جدير بالاهتمـــام في التمويل الإســـلامي على الاقتصاد الحقيقي، وفكرة أن التمويل لا يمكن فصله عن قوانين أخلاقية وأخلاقية أوسع.

---

(١) ليس في الإسلام إلزام المقرض أن يحمل عن المقترض شيئا من الخسارة التي تلحق تجارته، فما هو ذنب المقرض حتى يحمل ذلك، على أن الخســـارة قد تكون ناشئة عن سوء تصرف المقترض في الاتجار، وقد يكون ذلك عائدا إلى عدم خبرته.

لذا، أتساءل، هل من الممكن بناء نماذج مالية وتجارية تسعى إلى مشاركة المخاطر بشكل أكثر عدلًا، بين أجيالنا وأجيال المستقبل، بين الأغنياء والفقراء، وبين المنظمات المالية والمجتمع؟ كما هي عليه، أظن أنه إذا تم تطبيق أمر قضائي صارم ضد الربا على النظام الاقتصادي السائد في الوقت الحالي، فإنّ الدين الذي تحملناه فعليًا للأجيال القادمة بسبب نضوب رأس المال الطبيعي للأرض من المؤكد أنه سيكون ربويًا وغير مقبول إلى حد كبير[1].

هذا هو السبب في أنّ المنظمات المالية والتجارية التي تحافظ على المبادئ المضمنة في الإسلام يمكن أن تكون مفيدة في صياغة نهج أكثر أخلاقية يؤدي إلى نتائج منصفة، مما يحسّن من فرص نجاح الأعمال والاستقرار المالي كما يفعل ذلك. في الواقع، فإنّ هذه الأفكار يمكن أن تساعد العالم على تحقيق إعادة ترتيب مهمة للغاية حيث تؤدي الإدارة الفعالة للتهديدات العديدة التي تحدق بنا الآن إلى منظمات أكثر نجاحًا، وأكثر أهمية، وأكثر مرونة.

لذا، أتمنى أن تتمكنوا من رؤية سبب أملي القليل في أن تمتلك المنظمات التي تمثلها الفرصة لاستخدام رأس المال للحصول على توازن أفضل. تخيل، على سبيل المثال، إذا تم بذل جهد كبير بالفعل للبحث والاستثمار في التقنيات المتجددة، مثل الهضم اللاهوائي، على سبيل المثال، على نطاق واسع. في الوقت الحالي، مقابل كل دولار يستثمر في الطاقة المتجددة في O. E. C. D. الدول، يتم إنفاق سبعة دولارات على الوقود الكربوني. ومع ذلك، فقد أخبرني الخبراء أن ٥٠٠ مليار دولار على الأقل يمكن أن يتم تعبئتها بشكل واقعي كل عام إذا قررت صناديق الثروة السيادية ومديرو الأصول الآخرين إعادة تركيز استثماراتهم بطرق قد تتجنب الأصول.

---

(١) كل جيل يحمل وزر خطئه ولا يحمل وزر خطأ غيره، ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام: ١٦٤].

في الوقت الحالي، تذهب عدة مليارات من الدولارات إلى قطاع النفط والغاز كل عام، على الرغم من أن الخبراء يحذرون من أنهم سيصبحون، تقريبًا، (أصولًا محصورة). وهذا لأن استخدامها بالجملة سيدمرنا في النهاية، لا يمكن أبدًا أن تتحقق قيمة.

إذا جاز لي أن أقول ذلك، لا يسعني إلا أن أشيد بجهودك هذا الأسبوع لتحسين الأفكار وتصور الاستراتيجيات التي ستكون جيدة لمستقبل الأعمال والتمويل، ولكن في الوقت نفسه، بالتأكيد، يجب أن تركز أيضًا على هؤلاء الأشخاص وعلى المجتمعات التي تخدم الأعمال والمالية. وهكذا، ومع أخذ ذلك في الاعتبار، أود أن أترك لك سؤالين إذا جاز لي ذلك.

وبالنظر إلى أنّ رأس المال الطبيعي المستنزف بالفعل في العالم خاضع لارتفاع الطلب، أتساءل أولًا، ما إذا كان لديك المعايير المعمول بها، والهياكل والأدوات، لتمكين الإدارة الفعالة من التهديدات الناشئة التي ذكرتها؟ وثانيًا، هل يمكنك أن تنظر بفعالية في كيفية نشر أفضل الموارد المالية التي تديرها منظماتك للحد من المخاطر الشاملة وتقديم تعليم أفضل وتدريب مهني لخلق فرص عمل ومؤسسات صغيرة؟».

ثم قال: «لقد كانت واحدة من نقاط القوة العظيمة للإسلام على مر القرون وهي مجبرة على إقامة مجتمع عادل. لم تكن هناك حاجة أكبر لرفع مستوى هذا الطموح إلى مستوى عالمي. كل منّا لديه واجب مقدس للعناية تجاه الأرض. يناشدنا أن نتحمل هذا العمل معًا. إنّ اجتماعكم هنا في لندن يمكن، بل يجب أن يكون، جزءًا حيويًا من هذا المسعى»[1].

---

(١) خطاب أمير ويلز أمام المنتدى الاقتصادي الإسلامي العالمي بلندن يوم ٢٩ أكتوبر ٢٠١٣م، ينظر: https://www.princeofwales.gov.uk/speech/speech-prince-wales-world-islamic-economic-forum-london

ويؤكد المفكر الفرنسي **ماسينيون** أن الإسلام يمتاز بأنه يمثل فكرة مساواة صحيحة بفرض الزكاة التي يلزم بها الأغنياء تجاه الفقراء وبتحريمه للربا والضرائب غير المباشرة على ضرورات الحياة، إلى جانب تمسكه الشديد بحقوق الأولاد والزوجة والملكية الفردية، فهو بذلك يتوسط الرأسمالية والشيوعية.

ويقول **ليون روشي** في كتابه **ثلاثون عاما في الإسلام**: «إنّ دين الإسلام الذي يعيبه الكثيرون هو أفضل دين عرفته، فهو دين طبيعي اقتصادي، أدبي، ولقد وجدت فيه حل المسألتين الاجتماعية والاقتصادية اللتين تشغلان بال العالم:

الأولى: في قول القرآن ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ [الحجرات: ١٠]، فهذه أجمل المبادئ للتعاون الاجتماعي.

والثانية: فرض الزكاة في مال كل ذي مال، بحيث يحق للدولة الإسلامية أن تستوفيها جبرًا إذا امتنع الأغنياء عن دفعها طوعًا»[1].

وقبل بضع سنوات انعقدت ندوة في مدينة مسقط عاصمة سلطنة عمان عن الاقتصاد العالمي ومشكلاته المعاصرة، لا سيما أزمته الكبرى التي يعاني منها الكل في هذا العصر، ولم أتمكن من حضور هذه الندوة لأنني كنت مغادرًا السلطنة إلى بعض الدول، ولكنني أخبرت من بعض من حضرها أن أحد الخبراء الاقتصاديين بكندا بيّن رؤيته في هذه المشكلة، وكيف يمكن حلها، فكان مما قاله: «نحن لا نطالب بترقيع نظام فاسد، فإنّ ذلك لا يغني

---

(١) مقال بعنوان **الاقتصاد الإسلامي أمل البشرية** للكاتب د. زيد الرماني، نشر بتاريخ ٢٠١٥/٩/١٤م، مجلة المجتمع الإلكترونية:
https://mugtama.com/articles/item/23849-2015-09-14-16-00-11.html

شـــيئًا، فالنظام الرأسمالي أصبح الآن منكشـــفًا عواره بادية عيوبه، فلا يمكن استصلاحه وإنما يجب أن نبحث عن البديل عنه، وعندما سئل هل تشير إلى البديل الإسلامي؟ رد بقوله: ولماذا جئنا إلى هنا إلا لأجل هذا..!!».

وهل يخفى بعد هذا أنّ الإســـلام هو الحل الأوحد، وأنّ القرآن والســـنة النبوية الرشيدة هما وسيلتا الاســـتبصار من العمى، والاستهداء من الضلالة، والاســـتقامة من الاعوجاج والانحراف، وهل أدركت أمّة الإسلام هذا لتعود إلى الله عودة كريمـــة تحمد عاقبتها في الدنيا والآخـــرة وتجني ثمارها الطيبة وتقدمها إلى الإنسانية بأســـرها وتنال بذلك هذه الأمة شرف القيادة والإمامة بين البشر، فتصبح هي الآمرة التي يأتمر بأمرها الناس والداعية التي تستجيب لها ضمائر الأمم وأرواحهم فتلتحم معها وتسير بها في منهج الرشد وترقى بها في معارج الخير عندما تتطهر من رجس الأدران التي تفرزها الأفكار المادية وأنظمتها الإلحادية؟؟!.

وقد حاورت فـــي هذا الأمـــر جماعة مـــن الغربيين فلم يكـــن منهم إلا السكوت والتسليم، ومن بينهم أسقف بروتستانتي قبرصي وقس بريطاني وهو بروتستانتي أيضًا، فقد زاراني قبل عقود من السنين، وكان بيني وبينهما حوار فيما يتعلق بالدين وعقيدته، ثـــم عادا إليّ بعد خمس ســـنوات من زيارتهما الأولى، وقد تواصل حوارنا في نفس الموضوع، ولكن الأسقف عندما بدا له أنه لم تبق له حجة فيما يحاور استأذنني في صرف الحديث إلى موضوع آخر، فأجبته بأنه لا مانع عندي من ذلك، فسألني عن مؤتمر السكان الذي كان على وشـــك أن يعقد في القاهرة، وما هو رأيي فيه؟ فأجبته: بـــأن بابا الكاثوليك بروما صرح برأيه ولا أظن أنه يخفى عليكم، فرد علي: وكيف إذًا تحل قضية الســـكان مع تناميهم المطرد؟! فقلت: إن الحل في آية من كتاب الله، وذكرت له آية البر التي سبق ذكرها.

ثم بيّنت له أنّ هذا مبني على أصل أصيل في الإسلام، وهو أن المال هو مال الله تعالى، والناس إنما هم عباد الله، فكل منهم مستخلف فيما بيده من المال، والله سائله عنه، كما جاء في حديث أبي برزة الأسلمي ﷺ عن النبي ﷺ قال: «**لا تزول قدما عبد حتى يسأل عن أربع عن عمره فيما أفناه وعن علمه ما عمل فيه وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه وعن جسمه فيما أبلاه**»[1]، وذلك يعني أنّ الإنسان ليس له أن يتصرف في المال الذي تحت يده كما يملي عليه هواه، وإنما عليه أن يتقي الله تعالى في إنفاقه كما عليه أن يتقيه في كسبه، فيكون في كل ذلك متقيدًا بقيود الفضيلة والأخلاق، ومراعيًا حقوق الآخرين، ولكن أين هذا التوجيه الرباني والنبوي مما يجري في العالم اليوم، من تبذير الأموال فيما يعود بالشر على الناس، مع حرمانهم من نفعها؟!.

وقلت له: بأنّ في ذهني أمثلة توضح هذه الصورة.

أولها: ما ينفق من أجل التسلح، خصوصًا عند ساسة الدول الكبرى، فكم ينفق في كل عام في السباق المحموم في إنتاج الأسلحة المدمرة؟! فرد علي: بأنّ هذه أرقام خيالية، فقلت له: أرأيت لو أنفقت هذه الأموال في استصلاح الأرض وزرعها من أجل أن يطعم الجائعون من الناس، ويكسى العارون، هل كان سيبقى على ظهر هذه الأرض من محتاج؟ فرد علي: لو كان ذلك كذلك لما بقي على ظهر الأرض جائع أو عار أو محتاج.

ثانيها: المحاصيل الزراعية؛ كم يتلف منها من أجل المحافظة على أسعارها؟ أرأيت أن لو وزع هذا الفائض منها على المحتاجين، أكان يبقى

---

(١) أخرجه الترمذي؛ سنن الترمذي، (٣٥) أبواب صفة القيامة، باب (١) في القيامة، (رقم: ٢٤١٧، ص١٨٩٤) وقال: «حسن صحيح»، وأبو يعلى؛ مسند أبي يعلى، (رقم: ٧٤٣٤، ٤٢٨/١٣)، وأبو نعيم في الحلية؛ حلية الأولياء، (٥٦٨) حمدون بن أحمد، (رقم: ١٥١٠٩، ٢٤٧/١٠).

على ظهر الأرض جائع؟ فقال: لا، وأضاف إلى ذلك بـ: أن بحيرات من الألبان تراق في كل عام من أجل المحافظة على سعر اللبن!.

ثالثها: حرمان البشر من الأموال التي هم محتاجون إليها مع إيثار الحيوانات التي هي غنيّة عنها، بهذه الأموال دون البشر، وضربت له مثلين في هذا.

أولهما: أنني اطلعت في إحدى الصحف أنّ امرأة أمريكية كان لها رصيد من المال، يصل إلى قدر ٣٠٠ مليون دولار، وقد أوصت بمالها هذا كله لكلابها، ولم تفكر في حاجة البشر إليه! مع أن الكلاب لا يعنيها من هذا المال شيء، إذ ليس عليها التزامات مالية ورزقها مكفول تبحث عنه فتجده في كل جزء من الأرض، ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦]، ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ﴾ [العنكبوت: ٦٠]، فلو أعطيت هذه الكلاب حريتها لوجدت رزقها مكفولًا بمشيئة الله، وكم كانت هذه الملايين تتسع لإشباع أمعاء جائعة وكسوة أجسام عارية، وإيواء أسر ضائعة؟!.

ثانيهما: أنني قرأت في إحدى الصحف المحلية خبرين متناقضين، في صفحة واحدة، في عمودين متجاورين؛ أولهما: أنّ خبيرًا اجتماعيًا دوليًا يقترح أن يسن قانون يُلْتَزم بموجبه أن لا يسمح للأسرة أن تخلف إلا طفلًا واحدًا، وهذا يؤدي أن يتناقص الجنس البشري من الأرض حتى ينعدم، فإن كان عدد الناس الآن أربعة مليارات ففي الجيل الآتي يصبحون مليارين ثم ينقصون إلى مليار ثم إلى خمسمائة مليون، وهكذا يتناقصون إلى أن يضمحل هذا الجنس من خلق الله تعالى، هذا لو كان جميع الناس مؤهلين للنسل، كيف وفيهم العقيم الذي لا يلد؟!.

والخبر الثاني: عن أغنى كلب في العالم يملك المليارات، وعنده جيش من الخدم، منهم المعنيون بنظافته وتعهد أسنانه وسائر جسمه، ومنهم معنيون

بتهيئة الفرش الوفيرة له، ومنهم الطباخون، ومنهم السواقون، وغيرهم من المعنيين بخدمته..!! فما الذي يستفيده هذا الكلب من كل هذا؟ أوليس البشر المحتاجون هم أولى بهذه المليارات، ولو أطلق لهذا الكلب سراحه لنعم بالعيش في حرية بحسب ما تقتضيه طبيعته، فلو روعي في الأموال هذا كله ونميت تنمية سليمة، وأخرج منها حق الله وحق العباد، لكان جميع الناس في غنى، ولم يجد ذلك الأسقف مناصًا عن التسليم لهذا.

ولا يخفى أنّ أمة الإسلام قبل أن تسوق هذا الخير إلى غيرها يجب عليها أن تنساق إليه بإقبالها على القرآن والسنة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام تتطهر بنهرهما الطهور من الأرجاس وترتوي به من الظمأ، وتتغذى بطيباته من المسغبة، وتكتسي بحلله من العري، وتهتدي بمعالمه من الضلالة لتصبح هي قرآنية المصدر والمورد، ومحمدية المنهج والمبدأ، وراشدية النظام والهمّة.

هذا؛ وإنّه لمن العجيب أن تكون أمة الإسلام في غفلة عن هذا الواجب الملقى على عاتقها، وأن تظل هي التي تلهث وراء الأنظمة الفاشلة للأمم الأخرى ترجو بها حل مشكلتها والنجاح في حياتها، وأن تتعامى عما بيدها من نور القرآن الذي يشق الدياجير المظلمة ليهدي به البصائر وتحيا به الأمم بعد حَيْنِها، وأن تتصامم عن نذره وبشائره، وإن تعالى نداؤها حتى صخّ الوجود، وأن تبقى ظانة نجاحها في ترسم خطوات الآخرين، وإن نادى أولئك بأنهم فاشلون وأنهم هم المحتاجون إلى ما بيد هذه الأمة من خير يتمثل في تعاليم القرآن.

وقد أدرك أولو البصائر الذين غاصوا في أعماق بحار القرآن وأشرقت على بصائرهم أضواؤه، فتحدثوا عن واقعنا كأنهم يبصرونه رأي العين، ومن أمثلة ذلك الخطاب الإلهامي الذي ألقاه مؤسس الجماعة الإسلامية في شبه القارة الهندية العلامة السيد أبو الأعلى المودودي ببشاور، في ربيع الأول

١٣٦٥ ـ فبراير ١٩٤٦م، وبيّن فيه فشل الشيوعية والرأسمالية معًا، وحيرتهما وتعثرهما في المستقبل، مع إشارته إلى بقاء المسلمين في حيرتهم، بيدهم القوة والحل ولكنهم لا يدرون، فقد جاء في خطابه هذا قوله: «سيأتي بلا شك اليوم الذي تَتَحَيَّر فيه الشيوعية في موسكو نفسها بدون أي ملجأ، وتتعثر فيه الرأسْمَالية في واشنطن نفسها من دون أي مَنْجَى، وتَهِيمُ فيه المادية في جامعات لندن وباريس، وتَتَلاشَى فيه العنصرية حتى عند البراهمة والألْمَان، وإنَّما تبقى عِبْرَة في التاريخ قصة من يَحْمِل عَصَا موسى تحت إبطه وهو يَخْشَى مِن الحبال والخشب».

لقد كانت هذه الكلمات شعاعًا من النور شق غياهب الغيب المظلمة لاستجلاء المستقبل، الذي كان عند الناس بعيدًا وعند الله قريبًا، ولم تكن ناشئة عن اطلاع على الغيب، فإنّ الله وحده هو علام الغيوب، ولم يجعل لأحد من خلقه في ذلك نصيبًا إلا أن يوحي إلى أحد رسله بما يريد كشفه له من الغيب الخفي، ولكنها كلمات ناشئة عن الاستبصار ببصيرة القرآن، واستلهام الحقائق منه وتطبيقها على الواقع بالنظر إلى المقدمات ونتائجها بحسب فطرة الله التي فطر الناس عليها.

فالنظام الشيوعي بنفسه مصادم للفطرة، ولا يمكن أن تتحمله لأنه يسلب الإنسان خصائصه الفطرية، فكل فرد من أفراد الجنس البشري مطبوع على الطموح والرغبة في التملك، والاستقلال بثروته، فتحطيم هذه الرغبات في الأفراد، وإذابة هوية الأفراد جميعًا في هوية المجتمع، وسلب الناس هذه الحقوق التي تقتضيها فطرتهم أمر غير طبيعي، وهو يؤدي إلى الاصطدام بنواميس الفطرة الحادة الصلبة، فيؤدي ذلك إلى تحطم هذا المبدأ وتلاشي هذا النظام، وهو مما وعد الله تعالى به من إحقاق الحق وإبطال الباطل، كما نصت عليه الآيات العديدة كقوله تعالى: ﴿لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ

﴿ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [الأنفال: ٨]، وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ [الرعد: ١٧]، وقوله: ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١]، وقوله: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ [الأنبياء: ١٨].

ومثل ذلك وضع النظام الرأسمالي فإنّه مبني على تجاهل الجوانب الاجتماعية التي فطر عليها الناس، إذ الإنسان إن لم يكن موصولًا ببني جنسه يشتار معهم شهد الحياة وعلقمها كان كالغصن المقطوع من الشجرة مآله الذبول لانقطاع مدد الحياة عنه، والإنسان قليل بنفسه كثير بغيره، فإن استقل الفرد بمصالحه ضاع، ولو توفر له الثراء، فهذا النظام الذي يتجاهل الروابط الاجتماعية التي تشد الناس بعضهم إلى بعض، يؤدي بطبيعة الحال إلى فقدان الثقة بين الناس وضياع المصالح وتقطع العلاقات، فلذلك كان لا بد من أن يصطدم بالواقع.

وكذلك المادية الجامحة التي تنسي الإنسان أنه بشر فيه نفخة من سر الله الغيبي، وهو الروح، التي تستوجب أن تكون للإنسان صلة بالله وأن لا تكون المادة وحدها هي هدفه الأسمى، وهي محيطه الذي لا يتجاوزه إلى ما وراءه.

وهكذا العنصرية المفرطة التي تجعل من الناس أربابًا يتصرفون كما شاؤا، وأن تحط من عداهم حتى تجعلهم كالحيوان الأعجم لا يملك في الحياة قرارًا، وإنما يفرض عليه ما يراد به أو له.

على أنّ هذا الخطاب الذي التفت إلى هذه الأبعاد كان بعدما وضعت الحرب العالمية الثانية أوزارها، وكان الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة الأمريكية هما أكبر منتصر في هذه الحرب، وأعظم رابح منها، فقد اجتاحت روسيا أوروبا الشرقية، وفرضت عليها إرادتها وبسطت عليها جناحها، فضمتها

إلى دائرتهـا، وكذلك الولايات المتحدة الأمريكيـة خرجت من هذه الحرب مظفرة منصورة بعدما اجتاحت ألمانيا المتحدة التي كانت قاعدة دول المحور المناوئة، وانتصرت على اليابان، فمدت جناحها نحو شـرق آسيا فأصبحت ذات القرار الذي لا ينازع والقوة التي لا تدفع.

ويا ترى كيف كان شعور الناس الذين سـمعوا أو بلغهم خطاب العلامة المـودودي، وما عرج عليه من مسـتقبل النظاميـن العالمييـن، اللذين كانا مفروضين على العالم من هاتين القوتين العظميين؟ لا أشـك؛ أن من الناس الذين لا يتجاوز نظرهـم أجفان أبصارهم من عد مثل هـذا الخطاب هذيانا، لا يصدر إلا عـن الحمقى والمغفلين؛ اغترارًا بمظاهـر النصر والظفر اللذين فازت بهما هاتان القوتان السائدتان في العالم.

والشيء يقاس بنظيره كما قال الشاعر:

ولـلـشـيء عـلـى الـشـ ـيء مـقـاييـس وأشـبـاه

فلست أنسى قصة مرّ عليها الآن ستة وأربعون عامًا، وذلك أنه في ليلة من ليالي رمضان من عام (١٣٩٣هـ) اجتمع ببيتي ـ بحارة الميابين بمدينة مسقط العتيقة ـ لفيف مـن العلماء والقراء، جاؤا موفدين من الأزهر الشـريف، من بينهم شـيخ المقارئ المصرية آنذاك محمود خليل الحصري، والشيخ حسن الجوخ، وكان من بينهم الشـاب الفطن الشـيخ أحمد زكي، الذي كان يتوقد حماسًـا ـ وهو من أترابي ـ وكان آنذاك مديرًا بمكتب الداعية الكبير الشيخ محمد الغزالـي، وحضر هذا اللقـاء الميمون المفتي الراحل لسـلطنة عمان شيخنا العلامة إبراهيم بن سعيد العبري.

وكانت الشيوعية آنذاك شبحًا يلوح في كل أفق فيملأ قلوب عارفيها رعبًا، ونفوس المعجبين بها غرورًا، وكان الحضور يتجاذبون أطراف الحديث عنها،

فانبرى الشاب المتحمس الشيخ أحمد زكي لإشعاع جذوة الأمل في وسط هذه الدياجير الموحشة المدلهمة، وقال ما معناه: إنّ الشيوعية تتآكل من الداخل وإن بدا مظهرها في الخارج صلبًا قويًا، ولن تلبث حتى تتفجر، ويدوي انفجارها فيسمعه من بالعالم، وتكون في ذلك عبرة للناس، وقال: بأنّ الاتحاد السوفياتي هو نفسه الذي سيبدأ منه هذا الانفجار.

وكان قد حضر سمرنا هذا أحد الشباب العمانيين، الذين كانوا على قدر من الثقافة والاطلاع على الأحوال المعاصرة، وكان له زميل من إحدى الدول الشقيقة، وكانا جميعًا يجمعهما الإعجاب البالغ برائد القومية العربية الزعيم المصري الراحل جمال عبد الناصر، وينزعان بقوة إلى هذه القومية، فنقل إلى زميله ما دار في مجلسنا من الحديث عن الشيوعية وانهيارها، وتصدع دولتها الكبرى الاتحاد السوفياتي، فسخر ذلك الزميل من هذا الكلام، وعده دليلًا على تخلف الذين اصطلحوا على تسميتهم برجال الدين، وأنهم لا يفقهون من السياسة شيئًا. وانعكس أثر ذلك على ذلك الشاب العماني، فكان يستشهد دائمًا على التخلف الفكري عند علماء الدين بهذا الذي سمعه، غير أنه نسي المتحدث بذلك فكان يعزو هذا الحديث إلى عالم آخر كان متقدمًا في السن.

وما هذا إلا دليل على أن الناس تغرهم المظاهر، ولا يفكرون في مآلات الأمور، وانقلابها من حال إلى حال، وأنّ الله وحده الذي يولج الليل في النهار، ويولج النهار في الليل، هو الذي يصرف كل شيء بحسب إرادته، وأنه يعز من يشاء بقدرته، ويذل من يشاء بقهره، له الخلق والأمر، ومثل هذه السخرية سبقت عندما قرع مسامع الناس ما نزل من الوحي على النبي ﷺ يؤذنه ومن معه من المؤمنين بانقلاب الأمر، وتحول المنتصر إلى منهزم والمنهزم إلى منتصر، في الحرب الدائرة بين الفرس

والروم، وقد كان ذلك في العام الخامس من بعثة النبي ﷺ، وهو العام السادس عشر من القرن السابع الميلادي، وكانت إمبراطورية فارس قد اجتاحت ممالك إمبراطورية الروم في ذلك العام، فما بقي لهرقل عاهل الروم إلا مدينة القسطنطينية الحصينة، التي عجز الجيش الفارسي عن اقتحامها، ولكن ما مضى على ذلك إلا بضع سنين كما قال الله تعالى، حتى انقلبت الأمور رأسًا على عقب، ودخل إمبراطور الروم بجيشه المظفر المنصور أرض المدائن، ورفع أعلام النصر على القصور الإمبراطورية هنالك، فتحقق بذلك وعد الله تعالى الصادق في قوله: ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الروم: ٢ ـ ٥]، وكان ذلك هو العام الثاني الهجري، الخامس والعشرين بعد ستمائة للميلاد، وهو العام الذي تحقق فيه أول نصر للمؤمنين في غزوة بدر، التي كانت فتحًا مبينًا لأمة الإسلام.

ولا ريب أنّ العلامة المودودي بنظرته هذه التي كان بعيدًا مداها ـ إذ كان يدرك فيما ذكره من تصدع وتساقط هذين النظامين الماليين، بجانب انهزام المادية وتقلص العنصرية ـ كان ينظر أيضًا إلى وضع الأمة الإسلامية المزري التي تخلت عن رسالتها، ونسيت مسؤليتها فيما بينها وبين الله، وفيما بينها وبين الناس، فاعتزلت قيادة الناس إلى الخير وتبصيرهم به ودعوتهم إليه، وبذلك صار يصدق عليها أنها تحمل تحت إبطها عصى موسى، ولكنها تخشى من الحبال والخشب، فهي تحمل القوة الحقيقية لأنها بيدها القرآن، ولكنها تتضاءل أمام الأوهام، وترتعد فرائصها من خيالات الأشباح المزورة، فلذلك ظلت عبرة في التاريخ.

وليتها تفيق يومًا من هذه السكرة، وتنهض من هذه الرقدة؛ لتهز هذه العصى التي بيدها أمام هذه الأوهام السحرية المتلاشية، من أجل أن تنبه الناس بالحق وتدعوهم إليه، وتبصرهم بمعالمه، كم كنا نتمنى ذلك ـ وهي أمنية كل غيور على دينه، محب لأمته ـ ولكن الأمة فاقدة من يجمع شتاتها، ويقودها إلى الأمام وإنما ظل لسان حالها يلهج بقول الشاعر محمود غنيم:

لاهم قد أصبحت أهواؤنا شيعا فامنن علينا براع أنت ترضاه
راع يعيد إلى الإسلام سيرته يرعى بنيه وعين الله ترعاه

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى

المبحث السابع

في حقيقة الدين والإسلام اللغوية والشرعية

الدين لغة: هو الانقياد والإذعان، يقال: دان يدين إذا انقاد، ولهذا فسر بالطاعة، وشاهد ذلك قول عمرو بن كلثوم:

وأيام لنا غر طوال عصينا الملك فيها أن ندينا

ويأتي لمعاني: منها الحساب والجزاء، ومنه قول الله تعالى: ﴿ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ [الفاتحة: ٤]، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ ﴾ [النور: ٢٥]، وقوله في حكاية ما يقوله المكذبون بالبعث: ﴿ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴾ [الصافات: ٥٣]، أي مجزيون محاسبون، ومنه قول لبيد:

حَصَادُكَ يَومًا ما زَرَعتَ وإنّما يُدَان الفَتَى يومًا بِما هو كائِنُ

وقول كعب بن جعيل:

إذا ما رَمَوْنا رَمَيْناهُمُ ودِنّاهُمُ مثلَ ما يُقْرِضونا

وقول غيره:

واعلم يقينا بأن ملكك زائل واعلم بأن كما تدين تدان[1]

---

(١) البيت بهذا اللفظ مذكور في تفسير القرطبي (١٤٤/١)، وذكره بهذا اللفظ أيضًا الأزهري في التهذيب (١٢٨/١٤)، وأورده ابن سيده في المخصص (٢٢٨/٥) بلفظ:

ويطلق الدين على معاني متضادة فيقال دان الرجل إذا أطاع ودان إذا عصى، ودان إذا عز، ودان إذا ذل، ودان إذا قهر، ويطلق على العادة والشأن كما في قوله:

كدينك مِن أُمِّ الحُوَيرِثِ قَبلَها وَجارَتِها أُمِّ الرَبابِ بِمَأسَلِ

وروي:

كَدَأبِكَ مِن أُمِّ الحُوَيرِثِ قَبلَها وَجارَتِها أُمِّ الرَبابِ بِمَأسَلِ

ومثله قول المثقب العبدي يخاطب ناقته:

تَقولُ إِذا دَرَأتُ لَها وَضيني أَهَذا دِينُهُ أَبَدًا وَديني

والمعنى المتفق مع الدين المعروف شرعًا هو الانقياد والطاعة والإذعان، وقد عُرف عند المسلمين بأنه وضع إلهي سائق لذوي العقول باختيارهم المحمود إلى ما هو خير لهم بالذات، كما سبق بيانه.

وأما الإسلام لغة: فهو الانقياد والخضوع، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَهُۥٓ أَسۡلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهًا﴾ [آل عمران: ٨٣]، وبمعناه الاستسلام قال في اللسان: «والإِسْلامُ والاسْتِسْلامُ: الإِنْقِيَادُ»[1]، والإسلام الشرعي مأخوذ من هذه الدلالة اللغوية، وهو إسلام المرء نفسه لربه ﷻ، ولا يتحقق ذلك إلا بإسلام ظاهره وباطنه، جسمه وروحه، قلبه وعقله، فكره ووجدانه، ليكون كله لله تعالى وحده، وهذا ما دل عليه القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّنِي هَدَىٰنِي

= واعلم وأيقن أن ملك زائل واعلم بأن كما تدين تدان

وكذلك ذكره العوتبي في **الإبانة** (٣١٥/٢)، وابن دريد في **الجمهرة** (٦٨٨/٢) وأبو بكر الأنباري في **الزاهر** (٢٧٨/١)، وتقي الدين الدقيقي المصري في **اتفاق المباني وافتراق المعاني** (ص ١٧٥).. ولم نجده في دواوين الشعراء إلا بألفاظ بعيدة عما هو مذكور هنا..

(١) ابن منظور: **لسان العرب**، مادة (سلم)، ٢٤٣/٧.

رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ دِينٗا قِيَمٗا مِّلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ۝ قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝ لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرۡتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴾ [الأنعام: ١٦١ ـ ١٦٣]، ففي هذه الآيات بيان لحقيقة الإسلام الشرعي المعتد به في موازين الحق، وهو الذي يكون حجة لمن تمسك به يوم القيامة بين يدي الله تعالى، وتتحقق به نجاته من الهلكة، ويستحق به ألطاف الله تعالى ورعايته في الدنيا والآخرة، وفي المحيا والممات.

وذلك بأن يسلم وجهه لله، وما الوجه هنا إلا حقيقته الروحية والجسمية والظاهرة والباطنة، بحيث يكون خالص العبودية لله تعالى، ومخلصًا له عبادته، يتزاحم في قلبه الخوف والرجاء، يشفق على نفسه من عذابه تعالى، كما يطمع أن ينقلب إلى فضله فيفوز برحمته، وفي هذا يقول شيخ المفسرين الطبري: «﴿ مِمَّنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ ﴾ [النساء: ١٢٥]، يقول: ممن استسلم وجهه لله فانقاد له بالطاعة، مصدقًا نبيه محمدًا ﷺ فيما جاء به من عند ربه، ﴿ وَهُوَ مُحۡسِنٞ ﴾ [النساء: ١٢٥]، يعني: وهو عامل بما أمره به ربه، محرم حرامه ومحلل حلاله»[1].

وقال الرازي: «فاعلم أن دين الإسلام مبني على أمرين: الاعتقاد والعمل: أما الاعتقاد فإليه الإشارة بقوله ﴿ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ ﴾ وذلك لأن الإسلام هو الانقياد والخضوع. والوجه أحسن أعضاء الإنسان، فالإنسان إذا عرف بقلبه ربه وأقر بربوبيته وبعبودية نفسه فقد أسلم وجهه لله، وأما العمل فإليه الإشارة بقوله ﴿ وَهُوَ مُحۡسِنٞ ﴾ ويدخل فيه فعل الحسنات وترك السيئات، فتأمل في هذه اللفظة المختصرة واحتوائها على جميع المقاصد والأغراض، وأيضًا فقوله ﴿ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ ﴾ يفيد الحصر، معناه أنه أسلم نفسه لله وما أسلم لغير الله،

---

(١) الطبري: جامع البيان، سورة النساء (الآية ١٢٥)، مج (٤) ٤٠١/٥ ـ ٤٠٢.

وهذا تنبيه على أنّ كمال الإيمان لا يحصل إلا عند تفويض جميع الأمور إلى الخالق وإظهار التبري من الحول والقوة، وأيضًا ففيه تنبيه على فساد طريقة من استعان بغير الله، فإنّ المشركين كانوا يستعينون بالأصنام، ويقولون: هؤلاء شفعاؤنا عند الله، والدهرية والطبيعيون يستعينون بالأفلاك والكواكب والطبائع وغيرها، واليهود كانوا يقولون في دفع عقاب الآخرة عنهم: إنهم من أولاد الأنبياء، والنصارى كانوا يقولون: ثالث ثلاثة، فجميع الفرق قد استعانوا بغير الله»[١].

وقال السيد محمد رشيد رضا: «هذا الدين دين التوحيد والاستقامة والإخلاص لله وحده في العبادة، هو الدين الذي بعث الله به جميع رسله وقرره في جميع كتبه، وإنما عبر عنه بملة إبراهيم لأنه عليه الصلاة والسلام وعلى آله هو النبي المرسل الذي أجمع على الاعتراف بفضله وصحة دينه وحسن هديه العرب ومن حولهم من أهل الكتاب اليهود والنصارى، وكل يدعي الاهتداء بهداه»[٢].

وقال أيضًا: «فتذكر أيها المؤمن أنّ الذي يوطن نفسه على أن تكون حياته لله ومماته لله، يتحرى الخير والصلاح والإصلاح في كل عمل من أعماله ويطلب الكمال في ذلك لنفسه، ليكون قدوة في الحق والخير في الدنيا، وأهلًا لرضوان ربه الأكبر في الآخرة. ثم يتحرى أن يموت ميتة مرضية لله تعالى، فلا يحرص على الحياة لذاتها، ولا يخاف الموت فيمنعه الخوف من الجهاد في سبيل الله لإحقاق الحق وإبطال الباطل وإقامة ميزان العدل، والأخذ على أيدي أهل الجور والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. فهذا مقتضى الدين يقوم به من يأخذه بقوة، ولا يفكر فيه من يكتفون بجعله من قبيل

---

(١) الرازي: مفاتيح الغيب، سورة النساء (الآيتان ١٢٥، ١٢٦)، مج (٦) ٥٧/١١.

(٢) محمد رشيد: المنار، سورة الأنعام (الآيات ١٦١ ـ ١٦٥)، ٢١٠/٨.

الروابط الجنسية، والتقاليد الاجتماعية، فأين أهل المدنية المادية من أهل الدين إذا أقاموه كما أمر الله؟ أولئك الماديون الذين لا همّ لهم في حياتهم إلا التمتع بالشهوات الحيوانية، والتعديات الوحشية. يعدو الأقوياء منهم على الضعفاء لاستعبادهم، وتسخيرهم لشهواتهم ومنافعهم. ولكن المنتمين إلى الدين في هذه القرون الأخيرة قد تركوا هدايته، وفتنوا بزينة أهل المدنية المادية وقوتهم، ولم يجاروهم في فنونهم وصناعاتهم، فخسروا الدنيا والآخرة وذلك هو الخسران المبين، ولو اعتصموا بحبله المتين، وعادوا إلى صراطه المستقيم لنالوا سيادة الدنيا وسعادة الآخرة وذلك هو الفوز العظيم، وعسى أن يكون الزمان قد أيقظهم من رقادهم، وهداهم إلى السير على سنن أجدادهم، وما ذلك على الله بعزيز»[1].

وهذا ما أدركه اللغويون بحذقهم اللغوي، وذوقهم البلاغي، ففي **اللسان** ما نصه: «والإسلام من الشريعة: إظهار الخضوع وإظهار الشريعة والتزام ما أتى به النبي ﷺ»[2].

وبهذا تدرك أنّ الإسلام لا يتحقق إلا بالإيمان الصحيح، إذ لا قيمة لأي عبادة كانت، ولا لأي التزام كان إن لم يكن ذلك قائمًا على الإيمان بالله، وإخلاص الدين له وحده، كما قال تعالى: ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ [البينة: ٥]، وأنى يتحقق الإخلاص إن لم ترسخ في النفس عقيدة صحيحة تجمع بين أصول الإيمان؟.

وبهذا يتبين لك أنّ الإيمان والإسلام صورتان لحقيقة واحدة، فإنّ الإيمان لا يتحقق إلا باستجماع خصال الخير من الأعمال الصالحة، والأخلاق

---

(١) المرجع السابق، سورة الأنعام (الآيات ١٦١ ـ ١٦٥)، ٢١٤/٨.

(٢) ابن منظور: لسان العرب، مادة (سلم)، ٢٤٣/٧.

الفاضلة، كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الأنفال: ٢ ـ ٤]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١١١].

ثم بيّن من هم هؤلاء المؤمنون الذين رقوا في درجات الخير، وتبوأوا مراتب الإحسان فكانوا مجسدين لإيمانهم بأفعالهم وأخلاقهم، ولأجل ذلك استوجبوا هذا الجزاء العظيم من الله سبحانه فقال: ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّآئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١١٢].

وبيّن سبحانه خصال الإيمان في قوله: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٧١].

وهذا ما تضافرت عليه الروايات الصحيحة عن النبي ﷺ كالذي ثبت من طريق أنس رضي الله عنه أنه ﷺ قال: «**ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحبّ إليه مما سواهما، وأن يحبّ المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار**»[1]، فأنت تراه بيّن أنّ الإيمان الحق يتجسد في الحب الراسخ المكين لله تعالى ورسوله، حتى يفوق حبهما كل ما يكون من حب بين الناس، ولو كان بين الوالد وولده، أو الزوج وزوجه.

---

(١) سبق تخريجه.

وأنت تدري أنّ الحب أقوى العوامل وأمكنها في توجيه المحب، وضبط جميع تصرفاته حتى تكون مرضية لمحبوبه، إذ الحب لا يتحقق حتى فيما بين الناس، حتى يذوب المحب في هوى محبوبه، فيؤثر هواه على هواه، ورغبته على رغبته، ويحرص دائمًا على أن لا يطلع منه على ما يسخطه أو يجانب رضاه، وإذا كان هذا في الحب بين الناس فما بالك بحب الله تعالى ذي الجلال والإكرام، والإحسان والإنعام، فإنّ من شأن الإنسان أن يمتلكه حب العظماء، الذين لا يتصور أن يرقى إلى مراتبهم في العظمة، وحبّ المحسنين الذين راشوه بخيرهم وفضلهم، وأغدقوا له إحسانهم، وعلى كلا الأمرين فإنّ حب الله ﷻ يجب أن يفوق كل حب، لأنه رب الوجود، وكل ما في الوجود يسبح بحمده ويخضع لجلاله، ولأنه المنعم بالنعم الظاهرة والباطنة، فمن أحبه هو أجدر ما يكون أن يكون حريصًا كل الحرص على أن لا يطلع منه على ما يكره، وأن يكون في كل أمر ساعيًا إلى الفوز برضاه، الذي هو غاية مبتغاه، ومنتهى مأموله.

ثم تأتي مرتبة الرسول ﷺ الذي هو أزكى البشر عنصرًا، وأكرمهم معدنًا، وأسماهم نفسًا، وأوفرهم عقلًا، وأجلهم قدرًا، وأحسنهم خلقًا، وأكثرهم علمًا، وأغزرهم خيرًا، وأرفعهم شأنًا، وأكثرهم برًا وإحسانًا، فهو الحريص على أن ينقذ الناس جميعًا من النار، وأن يردهم إلى الله ليفوزوا برضوانه، وما أتتهم الهداية إلا من طريقه، ولم يكتشفوا طريق الحقّ إلا بنوره، وعليه فإنّ المؤمن يحرص على طاعته ﷺ في كل ما أمر به أو نهى عنه، وعلى حسن الاقتداء به في عبادته، وأفعاله، وأقواله، وأخلاقه.

وبيّن ﷺ أن الإيمان واسع الأرجاء ظليل الأفياء، يشمل كل جانب من جوانب الخير، في الاعتقاد والأقوال والأفعال، وفي النوايا والأخلاق، فقد جاء من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**الإيمان بضع وسبعون شعبة،**

فأفضلها قول: لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان»[1]، وفي هذا الحديث ما يبيّن أنّ الإيمان يندرج فيه الاعتقاد الصحيح والكلم الطيب، وهما يتضمنهما قول: لا إلـه إلا الله، وكذلك العمل الصالح، ويدل عليه ذكر إماطة الأذى عـن الطريق، فقد رمز إليـه ﷺ بذكر ما هو من محقرات الأعمال عند الناس، كما رمز إلى الأخلاق الفاضلة بذكر الحياء.

وبهذا كله تدرك أيها القـارئ الكريم صواب قول من قـال بأنّ الإيمان والإسلام وإن اختلفا في أصلهما اللغوي فإن حقيقتهما الشرعية واحدة، ولكن الإيمان كثيرًا ما يكون ملتفتا فيه إلى ما تنطوي عليه النفس مما يفرز الاستقامة في الظاهر، والإسـلام ينظر فيه إلى هذه الاسـتقامة، ولكن بشرط أن تكون مبنية على ما في طوايا النفس من الاعتقـاد الصحيح، فيتبين بهذا أن الإيمان هو الحقيقة الباطنة للإسلام، والإسلام هو الصورة الظاهرة للإيمان.

وأما قوله تعالى: ﴿ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ﴾ [الحجرات: ١٤]، فلا ينافي هـذا الذي ذكرته، لأن الآية لم تدل على أنّ أولئك كان إسـلامهم حقًا، وقصارى ما دلت عليه أنهم كانوا منقادين لتعاليم الحق في الظاهر، ولكن ما يبطنونه كان منافيًا لذلك.

ويدل على هـذا ويؤكده ما ثبت فـي حديث النبي ﷺ مـن قوله: «**بني الإسـلام على خمس: شـهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسـول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والحج، وصوم رمضان**»[2]، فقد دل الحديث الشـريف

---

(١) سبق تخريج طرفه.

(٢) أخرج أحمد مثله؛ مسند أحمد، (رقم: ٦٠١٥، ٥/٣٤٤ ـ ٣٤٥)، والبخاري عن ابن عمر؛ صحيح البخاري، كتاب (٢) الإيمان، باب (٢) دعاؤكـم إيمانكم، (رقم: ٨، ص٢)، والترمذي مثله؛ سنن الترمذي، (٣٨) أبواب الإيمان، باب (٣) ما جاء بني الإسلام على خمس، (رقم: ٢٦٠٩، ص١٩١٤).

على أنّ الإسلام بني على ما ذكر وأنّ تلك هي أركانه، وأركان الشيء هي أجزاء حقيقته التي يتكون منها، فإن اختل أي ركن منها لم يتم البناء، فلم يختلفوا أن «الركن ما يقوم به الشيء وينعدم بانعدامه»[١]، وهذا يعني أن كل شيء إنما تتحقق ماهيته بوجود أركانه، فإذا اختل منها شيء انهدم وانعدم، وكل ركن من أركان الإسلام له أثر بالغ في حياة المسلم الشخصية والاجتماعية وتكييفها وفق مقتضى أوامر الله تعالى ورسوله، حتى تصاغ حياته صياغة ربانية تجسد قيم الإيمان ومثل الإسلام، وإليك شيئًا من بيان ذلك.

الركن الأول: شهادة أن لا إله إلا الله وأنّ محمدًا رسول الله ﷺ:

هذا الركن هو أهم ركن يقوم عليه بناء الإسلام الشامخ وتتحقق به ماهيته المتميزة، ولذلك يطالب به من دخل الإسلام قبل أن يطالب بأي شيء آخر، إذ لا يمكن أن تنقطع علائقه بعقيدة الكفر، ويتحرر من آثارها إلا به، فلذلك لا تغني عنه أركان الإسلام الأخرى، ولو أتى بها مجتمعة، إذ لا يتحقق بها انتماؤه إلى الإسلام حتى يأتي بهذا الركن العظيم، ولذلك جاء في الحديث الشريف الذي ثبت من عدة طرق: «**أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها، وحسابهم على الله**»[٢]، وقد بلغ بكثرة

= وأخرجه مسلم عن ابن عمر بلفظ: «وأن محمدا عبده ورسوله». وله عن ابن عمر بألفاظ أخرى؛ صحيح مسلم، كتاب (١) الإيمان، باب (٥) بيان أركان الإسلام ودعائمه العظام، (رقم: ١٦ [١١١]، ص٦٨٣). وأخرجه النسائي بدون قوله (وأن محمدا رسول الله)؛ السنن الصغرى، كتاب (٤٧) الإيمان وشرائعه، باب (١٣) على كم بني الإسلام، (رقم: ٥٠٠٤، ص٢٤١٠). وأحمد مثله؛ مسند أحمد، (رقم: ٤٧٩٨، ٤/٤٠٣ ـ ٤٠٤).

(١) السُّغْنَاقي؛ الحسين بن علي بن حجاج بن علي: الكافي شرح البزدوي، ٤/١٩٤٤، تحقيق: فخر الدين سيد محمد قانت، مكتبة الرشيد ـ الرياض، ط١: ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م.

(٢) سبق تخريجه.

طرقه مبلغ الشهرة القاطعة بصحته، على أنه روي أيضًا بألفاظ أخرى من عدة طرق.

ففي مسند الإمام الربيع بن حبيب رَحِمَهُ اللَّهُ عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله ﷺ: «**أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها**»[1]، وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ قال: «**أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فمن قال لا إله إلا الله عصم مني ماله ونفسه إلا بحقه وحسابه على الله**»[2]، ومن طريقه أيضًا بلفظ: «**أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا: أن لا إله إلا الله، ويؤمنوا بي وبما جئت به، فإذا فعلوا ذلك فقد عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله** عَزَّ وَجَلَّ»[3]، ومن طريقه كذلك: «**أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فمن قال: لا إله إلا الله؛ فقد عصم مني ماله**

---

(١) رواه الربيع بن حبيب في مسنده؛ الجامع الصحيح، باب (١٧) جامع الغزو في سبيل الله، (رقم: ٤٦٤، ص ١٢٢).

(٢) أخرجه أحمد؛ مسند أحمد، (رقم: ١١٧، ٢١٦/١)، والبخاري؛ صحيح البخاري، كتاب (٨٨) استتابة المرتدين، باب (٣) قتل من أبي قبول الفرائض، (رقم: ٦٩٢٤، ص ٥٧٧)، ومسلم؛ صحيح مسلم، كتاب (١) الإيمان، باب (٨) الأمر بقتال الناس حتى يقولوا...، (رقم: ٢٠ [١٢٤]، ص ٦٨٤)، وأبو داود؛ سنن أبي داود، كتاب (٩) الزكاة، باب (١) وجوبها، (رقم: ١٥٥٦، ص ١٣٣٧ ـ ١٣٣٨)، والترمذي؛ سنن الترمذي، (٣٨) أبواب الإيمان، باب (١) ما جاء أمرت أن أقاتل الناس، (رقم: ٢٦٠٧، ص ١٩١٤)، والنسائي؛ السنن الصغرى، كتاب (٢٣) الزكاة، باب (٣) مانع الزكاة، (رقم: ٢٤٤٥، ص ٢٢٤٥)، وابن حبان؛ صحيح ابن حبان، كتاب (٥) الإيمان، باب (٤) فرض الإيمان، (رقم: ٢١٧، ٤٥٠/١ ـ ٤٥١)، والبيهقي؛ السنن الكبرى، كتاب القسامة، باب (١٦) قَبُولِ تَوْبَةِ السَّاحِرِ، وَحَقْنِ دَمِهِ بِتَوْبَتِهِ، (رقم: ١٦٥٠٣، ٢٣٥/٨).

(٣) رواه مسلم؛ صحيح مسلم، كتاب (١) الإيمان، باب (٨) الأمر بقتال الناس حتى يقولوا...، (رقم: ٢١ [١٢٦]، ص ٦٨٤)، وابن حبان؛ صحيح ابن حبان، كتاب (٥) الإيمان، باب (٤) فرض الإيمان، (رقم: ١٧٤، ٣٩٩/١ ـ ٤٠٠).

ونفسه إلا بحقه، وحسابه على الله»[١]، ومن طريق جابر ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله. فإذا قالوا: لا إله إلا الله. عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها، وحسابهم على الله»[٢] ثم قرأ: ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ۝ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴾ [الغاشية: ٢١ ـ ٢٢]، وعن أنس ﷺ أنّ النبي ﷺ قال: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا: أن لا إله إلا الله، وأنّ محمدًا رسول الله، وأن يستقبلوا قبلتنا، ويأكلوا ذبيحتنا، ويصلوا صلاتنا، فإذا فعلوا ذلك فقد حرمت علينا دماؤهم وأموالهم إلا بحقها، لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين»[٣]، وعنه عن أبي بكر ﷺ بلفظ:

---

(١) رواه مسلم؛ صحيح مسلم، كتاب (١) الإيمان، باب (٨) الأمر بقتال الناس حتى يقولوا...، (رقم: ٢١ [١٢٥]، ص٦٨٤)، والنسائي؛ السنن الصغرى، كتاب (٢٥) الجهاد، باب (١) وجوب الجهاد، (رقم: ٣٠٩٢، ص٢٢٨٦).

(٢) أخرجه أحمد بلفظ: «فإذا قالوها عصموا مني بها»؛ مسند أحمد، (رقم: ١٤١٤٣، ٣٨٤/١١ ـ ٣٨٥)، ومسلم؛ صحيح مسلم، كتاب (١) الإيمان، باب (٨) الأمر بقتال الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله...، (رقم: ٢١ [١٢٨]، ص٦٨٤ ـ ٦٨٥). وابن ماجه؛ سنن ابن ماجه، (٣٦) أبواب الفتن، باب (١) الكفّ عمّن قال لا إله إلا الله، (رقم: ٣٩٢٨، ص٢٧١٢). والترمذي بلفظ: «فإذا قالوها»؛ سنن الترمذي، (٤٤) أبواب تفسير القرآن، باب (٨٨) ومن سورة الغاشية، (رقم: ٣٣٤١، ص١٩٩٥). والنسائي بلفظ: «فإذا قالوها منعوا»؛ السنن الصغرى، كتاب (٣٧) المحاربة (تحريم الدّم)، باب (١) تحريم الدم، (رقم: ٣٩٨٢، ص٢٣٤٨).

(٣) أخرجه أحمد؛ مسند أحمد، (رقم: ١٣٢٨١، ١٥٥/١١)، والبخاري؛ صحيح البخاري، كتاب (٨) الصلاة، باب (٢٨) فضل استقبال القبلة، (رقم: ٣٩٢، ص٣٤)، وأبو داود؛ سنن أبي داود، كتاب (١٥) الجهاد، باب (٩٥) على ما يقاتل المشركون، (رقم: ٢٦٤١، ص١٤١٨)، والترمذي؛ سنن الترمذي، (٣٨) أبواب الإيمان، باب (٢) ما جاء في قول النبي ﷺ: أمرت أن أقاتل الناس، (رقم: ٢٦٠٨، ص١٩١٤) وقال: «حسن صحيح غريب»، والنسائي؛ السنن الصغرى، كتاب (٣٧) المحاربة، باب (١) تحريم الدم، (رقم: ٣٩٧١ ـ ٣٩٧٢، ص٢٣٤٧)، وابن حبان؛ صحيح ابن حبان، كتاب (٤٦) الذبائح، (رقم: ٥٨٩٥، ٢١٥/١٣)، والبيهقي؛ السنن الكبرى، كتاب الصلاة، باب (٧٠٣) لا يأتم مسلم بكافر، (رقم: ٥١٤٢، ١٣١/٣)، وأخرجه أيضًا: الضياء المقدسي؛ الأحاديث المختارة، (رقم: ١٩١٣، ٢٧٧/٥ ـ ٢٧٨).

«أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا: أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله، ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة»[١]، وفي رواية عنه وعن حسن: **«أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها»** قيل: وما حقها؟ قال: **«زنا بعد إحصان، أو كفر بعد إسلام، أو قتل نفس فيقتل بها»**[٢].

ومهما اختلفت ألفاظ هذه الروايات فإن مؤداها واحد، وقد جاء في بعضها الاختصار على ذكر «لا إله إلا الله» وحدها، وهي ترمز إلى جملة التوحيد كلها، كما ثبتت في بعض الطرق، وكلها تدل على أن هذه الجملة هي عهد وميثاق بين العبد وبين ربه تعالى أن يعبده سبحانه حق عبادته، بأداء ما فرض عليه، واجتنابه ما نهاه عنه، والتزامه حدوده، فإنّ الإله هو المعبود بحق، وإذا كان العبد يعلن بلسانه معتقدًا بقلبه أنه لا معبود له إلا الله، فإنّ عليه أن يخلع كل معبود سواه، ولو كان نبيًا مرسلًا أو ملكًا مقربًا، أو عبدًا من عباد الله الصالحين، فضلًا عن الشياطين، وطغاة البشر، وما جرت العادة عند أهل الجاهلية الغابرة أو الحاضرة بأن يعبد من دون الله أو معه من الأوثان أو الأشجار أو الأحجار أو العيون أو الأنهار أو النجوم أو الكواكب أو الرياح أو غيرها من مظاهر الطبيعة، أو ما تتصوره الأنفس أو تتخيله الأوهام، وأن يخلص عبادته وعبوديته لله تعالى وحده، وأن يعصي كل ما سواه من أجل طاعته، ولا يطيع أحدًا في معصيته، وأن يفرده بالخوف والرجاء، ويخلص لوجهه جميع الأعمال والأقوال.

---

(١) أخرجه ابن ماجه؛ سنن ابن ماجه، كتاب السنة، باب (٩) في الإيمان، (رقم: ٧٢، ص٢٤٨١)، وحديث أبي بكر أخرجه الحاكم؛ المستدرك، كتاب (١٤) الزكاة، (رقم: ١٤٢٧، ٥٤٤/١) وقال: «صحيح الإسناد».

(٢) أخرجه الطبراني في الأوسط؛ المعجم الأوسط، باب من اسمه بكر، (رقم: ٣٢٣٢، ٤٣٣/٣).

فبهذا كله يكون قد وفّى هذه الجملة حقها، والتزم مضمونها، وصدق فيما عاهد الله تعالى بقولها واعتقادها، ذلك لأن كلمة لا إله إلا الله هي منهج حياة المسلم، فكل ما يصدر عن المسلم في رضاه أو غضبه وفي سلمه أو حربه، وفي عطائه أو منعه، إنما ينبثق من قول: «لا إله إلا الله»، واعتقاده ذلك، ولأجل هذا قال علماؤنا بأنّ هذه هي جملة التوحيد، وهي مفسرة بتفسيرين، تفسير اعتقادي وهو كل ما يندرج في الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله وباليوم الآخر، وبالقدر خيره وشره من الله، فإن جزئيات ذلك كله تقتضيها شهادة «أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله» فإنّ انفراد الله تعالى بالألوهية إنما هو يعود إلى انفراده بالربوبية وكل ما في الملك والملكوت؛ من الماديات والروحانيات، وما يعقل وما لا يعقل، سواء كان حيًا أو ميتًا، إنما هو من خلق الله سبحانه، وهو مصرفه ومدبر أمره، ينشره بالخلق ويطويه برده إليه، لا فرق في ذلك بين إنسان وملك وجن وحيوان ونبات وجماد وغيرها مما لا يدرك بالحس، ولا يوصل إليه إلا بالعقل مما أودع الله ﷻ في هذا الخلق من قوى روحية ومادية، فإنّ كل ذلك مبدؤه ومعاده إلى الله، وله تعالى خلقه وأمره، وتصريفه وقهره، ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤].

ولم يكن انفراده تعالى بالربوبية والألوهية إلا لأنه مباين لجميع خلقه في الوصف، فهو أزلي أبدي، كان قبل وجود الكون، ولم يكن لوجوده بداية، وهو باق بعد كل شيء، ليست لوجوده نهاية، وهو متصف بالكمال المطلق، ومنزه عن جميع صفات النقص، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص: ٣ ـ ٤]، والشهادة له تعالى بأنه لا إله إلا هو تستلزم في طيها الإيمان بكل هذا ويتعزز ذلك بشهادة أن محمدًا رسول الله، فإنّ هذه المعتقدات كلياتها وجزئياتها مما دعا محمد ﷺ الناس إلى اعتقاده.

ولهذه الجملة أيضًا تفسير عملي، وهو الطاعة المطلقة لله تعالى الذي انفرد بالخلق والأمر، وذلك كما بيناه فيما سبق، فمن التزم ما تقتضيه هذه الجملة من الاعتقاد الصحيح والعمل الصالح، وتقوى الله في السريرة والعلانية كان بهذا مسلمًا حقًا، ومؤمنًا صدقًا، لا يشوب إيمانه وإسلامه نفاق عقدي أو عملي، أما إن أظهر الموافقة بلسانه وأبطن خلاف ذلك في نفسه فقد نافق نفاقًا عقديًا، وهو وإن جرت عليه أحكام المسلمين في ظاهر الأمر، فإنّ له عند الله أسوأ الجزاء، ومنقلبه إلى شر مصير، فقد قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِي ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٤٥].

وإن باين جملة التوحيد هذه بأفعاله كان نفاقه عمليًا، كما يدل عليه ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**آية المنافق ثلاثة وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتمن خان**»[1]، وعن ابن عمرو أنه ﷺ قال: «**أربع من كن فيه كان منافقًا خالصًا، ومن كان فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها، إذا ائتمن خان، وإذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر**»[2].

---

(١) أخرجه أحمد؛ مسند أحمد، (رقم: ٨٦٧٠، ٣٨٨/٨)، والبخاري؛ صحيح البخاري، كتاب (٢) الإيمان، باب (٢٤) علامات المنافق، (رقم: ٣٣، ص٥)، ومسلم؛ صحيح مسلم، كتاب (١) الإيمان، باب (٢٥) خصال المنافق، (رقم: ٥٩ [٢١١ ـ ٢١٤]، ص٦٩٠)، والترمذي؛ سنن الترمذي، (٣٨) أبواب الإيمان، باب (١٤) في علامة المنافق، (رقم: ٢٦٣١، ص١٩١٧)، وقال: «حسن غريب»، والنسائي؛ السنن الصغرى، كتاب (٤٧) الإيمان، باب (٢٠) علامة المنافق، (رقم: ٥٠٢٤، ص٢٤١١)، وأخرجه أيضًا: أبو يعلى في مسنده؛ مسند أبي يعلى، (رقم: ٦٥٣٣، ٤٠٦/١١).

(٢) رواه البخاري؛ صحيح البخاري، كتاب (٢) الإيمان، باب (٢٤) علامات المنافق، (رقم: ٣٤، ص٥)، ومسلم؛ صحيح مسلم، كتاب (١) الإيمان، باب (٢٥) خصال المنافق، (رقم: ٥٨ [٢١٠]، ص٦٩٠)، وهو عند أحمد؛ مسند أحمد، (رقم: ٦٧٦٨، ٣٠١/٦ ـ ٣٠٢)، وأبو داود؛ سنن أبي داود، كتاب (٣٩) السنة، باب (١٥) الدليل على زيادة الإيمان ونقصانه، (رقم: ٤٦٨٨، =

وإذا أدركت أنّ جملة التوحيد هي أهم ركن من أركان الإسلام ووعيت ما تقتضيه من الطاعة المطلقة لله سبحانه أدركت أن الإسلام الحق هو الذي يجعل المسلم يؤثر رضى الله تعالى على هوى نفسه ووسوسة شيطانه، فينقاد لأمر الله في سريرته وعلانيته ومكرهه ومنشطه، وهذا ما تقتضيه آيات الأنعام التي أوردناها كما يقتضيه مفهوم الإسلام في اللغة، وهو الانقياد والإذعان.

وبقية الأركان تؤدي هذا الغرض، وتصون هذه المكاسب؛ التي يصل إليها الإنسان بهذا الميثاق العظيم الذي يكون بينه وبين ربه.

الركن الثاني: إقام الصلاة:

إن لإقام الصلاة أثرًا بالغًا في الرقي بحياة المسلم في فكره وسلوكه، وفي وصله بالله تعالى أولًا في سريرته وعلانيته، ووصله بإخوانه المسلمين ثانيًا، في تعامله معهم بمكارم الأخلاق، ووصله بالجنس البشري في حرصه على مصلحتهم وإنقاذهم من الهلاك وفي تعامله مع كل الكائنات ـ لا سيما الكائنات الحية منها ـ فإنّه يتدفق نحوها رحمة وإحسانًا، وأنت ترى كيف كان التعبير عن هذا الركن العظيم، إذ لم يكن التعبير عنه بكلمة الصلاة أو فعلها، أو ممارستها، وإنما كان التعبير عن ذلك بإقامتها؛ وهو الذي يأتي في مقام الأمر بها أو التحذير من التهاون بها في الغالب، كما في قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ [المائدة: ٥٥]، وقوله: ﴿ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ [البقرة: ٣]، وقد تكرر قوله تعالى: ﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ [البقرة: ٤٣]، وما ذلك إلا لأن المطلوب أن يؤتى بالصلاة على أحسن وجهها، بحيث تكون صلاة حية

= ص١٥٦٧)، والترمذي؛ سنن الترمذي، (٣٨) أبواب الإيمان، باب (١٤) في علامة المنافق، (رقم: ٢٦٣٢، ص١٩١٧) وقال: «حسن صحيح»، والنسائي؛ السنن الصغرى، كتاب (٤٧) الإيمان، باب (٢٠) علامة المنافق، (رقم: ٥٠٢٣، ٢٤١١).

روحًا وشكلًا، ومظهرًا ومخبرًا، كالجسم القائم الذي لم ينخرم شيء من أعضائه، ولم يعب بشيء يخلّ باعتداله وانتصابه، فإنها الصلاة التي يسري أثرها في النفس ويقوى سلطانها عليها، حتى ينعكس ذلك في كل ما يصدر عنها فيما بينها وبين ربها، وفيما بينها وبين عباده.

وقليلًا ما يذكر الله تعالى الصلاة غير مصحوبة بذكر إقامتها، اللهم إلا أن يردف ذلك بما يدل على قوة المحافظة عليها، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ۝ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ۝ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ﴾ [المعارج: ١٩ ـ ٢٣]، وقد تذكر المحافظة عليها بدلًا من ذكر الإقامة، لأنها بمعناها كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ [المؤمنون: ٩]، وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ [المعارج: ٣٤]، ولربما ذكر المصلون في مقام الذم والوعيد، كما في قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ [الماعون: ٤ ـ ٥]، فإنّ هؤلاء لم يأتوا بالصلاة وهم يقيمونها كما أمروا، ويحافظون عليها كما فرض عليهم، وإنما يأتون بها مهملين لها، ولذلك كانوا عنها ساهين.

ولإقامة الصلاة بحسب نظامها الشرعي ـ بحيث تكون مستوفية لهيئتها المطلوبة، ولما شرع فيها من الأقوال والأفعال، وتكون أيضًا مستوفية لسرها المصون من الخشوع والإخلاص لله تعالى ـ أثر بالغ في تربية نفس المسلم وتزكيتها وإحياء ضميرها؛ حتى تغدو نفسًا ربانية ترعى الله تعالى، وتحرص على كل ما يرضيه، فلا يصدر عنها إلا الصلاح والبر والتقوى، وقد دلت على هذا نصوص القرآن، وأحاديث الرسول ﷺ، فمن القرآن قوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥]، فقد بيّن الله تعالى الغاية من مشروعية إقام الصلاة، وهي أنها تنهى عن الفحشاء والمنكر، وذلك إذا أداها الإنسان على وجهها الشرعي، غير مخل بمظهرها

ولا مقصر فيما يتعلق بروحها، وهو الخشوع فيها وإخلاصها لله تعالى ولذلك علل الأمر بإقامتها بأنه من أجل ذكـــر الله، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾ [طه: ١٤].

وكذلك قوله تعالـــى: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ۝ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلۡخَيۡرُ مَنُوعًا ۝ إِلَّا ٱلۡمُصَلِّينَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ دَآئِمُونَ﴾ [المعـــارج: ١٩ ـ ٢٣]، فقد ذكر الله تعالى هنـــا ما للصلاة من أثر فـــي تطهير النفس مـــن ذميم صفاتها، وتخليصها من أسوأ خصالها، فالنفس البشرية طبعت على الهلع، والجزع عند الشـــر، والمنع عندما تراش بخير، وإنما يتحرر الإنسان من ذلك كله بالتزامه طاعة الله تعالى، وفـــي مقدمتها المداومة على الصلاة على الوجه الشـــرعي، فلذلك صدرت صفات عباد الله تعالى الصالحيـــن الذين صفت صفاتهم من هذه الشوائب، وتخلصت من هذه الأكدار، بذكر المداومة على الصلاة، وبعد التعريج على ســـائر أوصافهم الحســـنة أعيد ذكر القيام بحـــق الصلاة بلفظ المحافظة عليها في قولـــه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ يُحَافِظُونَ﴾ [المعارج: ٣٤]، فكان الابتداء في سرد أوصافهم بذكر مداومتهم على الصلاة واختتمت بذكر المحافظة عليها، وذلك لعمق أثرها وقوة تأثيرها، فهي السياج الذي يقي بقية الأعمال ما يخشى عليها من المؤثرات التي تزعزعها وتفقدها آثارها، ولذلك صدرت بذكرها واختتمت بذلك.

وقد أشـــار القرآن الكريم إلى ما يصيب الإنسان من فتنة في دينه، وفساد في أخلاقه وانحراف في سلوكه، ويجعله لا يرقّ لضعيف، ولا يبالي بمنكوب بسبب استهانته بالصلاة، وعدم الإتيان بها كما أمر الله تعالى، وذلك في قوله: ﴿أَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ۝ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِي يَدُعُّ ٱلۡيَتِيمَ ۝ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ ۝ فَوَيۡلٞ لِّلۡمُصَلِّينَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمۡ عَن صَلَاتِهِمۡ سَاهُونَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمۡ يُرَآءُونَ ۝ وَيَمۡنَعُونَ ٱلۡمَاعُونَ﴾ [الماعون: ١ ـ ٧]، فإنّ كل هذه المصائب منشؤها

السهو عن الصلاة، كيف وقد ذكر ذلك على أثر ما سبق ذكره من التكذيب بالدين، ودع اليتيم، وعدم الحضّ على طعام المسكين بما يدل على أنه السبب لها، وذلك بالربط بينهما بالفاء التي تدل على السببية، وارتباط ما ذكر قبلها بما ذكر بعدها.

وقد كان السياق يقتضي أن يقال: (فويل لهم) ولكن عدل عن الضمير إلى الاسم الظاهر، وكان هذا الظاهر المصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون، لأجل التأكيد بأن سهوهم عن الصلاة هو الذي جرّ عليهم كل ما سبق ذكره أو لحق، فما كانوا يولون الصلاة ما تستوجب من عناية، وما تستحقه من الحرص على أن تؤدى على الوجه المشروع.

وبهذا تدرك أنّ الذين يؤدون الصلاة حسبما شرعت، من غير إخلال بأقوالها وأفعالها وهيئاتها، مع استيفائها ما يجب فيها من إخلاص وخشوع، تقيهم صلاتهم كل ما ذكر في هذه السورة من التكذيب بالدين، ودع اليتيم، وعدم الحض على طعام المسكين، كما تقيهم المراءاة، ومنع الماعون، وسائر الصفات المرذولة، والأخلاق المذمومة، والأفعال المستنكرة.

وهذا؛ لأن للصلاة روحًا دافقة تأتي على خصال السوء في الإنسان فتجتاحها، كمثل النهر الدافق الذي يأتي على الشوائب والأقذار فيقضي عليها، وقد نبه النبي ﷺ على ذلك عندما قال: «**أرأيتم لو أنّ نهرًا بباب أحدكم يغتسل فيه كل يوم خمسًا، ما تقول: ذلك يبقي من درنه؟**» قالوا: لا يبقي من درنه شيئًا، قال: «**فذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بها الخطايا**»[1]،

---

(١) أخرجه أحمد؛ مسند أحمد، (رقم: ٨٩٠٨، ٩/٤٧)، والبخاري؛ صحيح البخاري، كتاب (٩) مواقيت الصلاة، باب (٦) الصلوات الخمس كفارة، (رقم: ٥٢٨، ص٤٤)، ومسلم؛ صحيح مسلم، كتاب (٥) المساجد، باب (٥١) المشي إلى الصلاة تمحى به الخطايا، (رقم: ٦٦٧ [١٥٢٢]، ص٧٨٢)، والترمذي؛ سنن الترمذي، (٤١) أبواب الآداب، باب (٨٠) ما جاء مثل =

وما كان هذا من النبي ﷺ إلا تمثيلًا لتقريب الحقائق العظمى إلى الأذهان في صورة المحسوسات المألوفة، وإلا فإنّ بين الصلاة والنهر أبعادًا مترامية، فالنهر إنما ينقي ظاهر الجسم، بينما الصلاة تتغلغل في أعماق الروح، وأبعاد النفس فتنقيها من كل ما يشوب صفاءها ويكدر شفافيتها.

وإنما كان للصلاة هذا الأثر العميق والشأن الواسع في تهذيب النفس وترقيتها في معارج الفضل، وصقلها من كل ما يغشاها من شوائب الطبع، مع الحيلولة دون مقارفة السيئات والإخلاد إليها، لأنها صلة بين العبد وربه، عندما يمثل بين يديه متجردًا من أهوائه، متحررًا من أسر نزعاته ونزغاته، شاعرًا أنه أمام المبدئ المعيد، الذي له ما في السماوات وما في الأرض، وما من ذرة في الوجود إلا وهي تسبح بحمده، وتخضع لأمره، تتذلل بين يديه، مع ما يأتي به في صلاته من الذكر والتسبيح والتحميد، وكل كلمة يقولها تفتح له آفاقًا من المعاني المقدسة، وتفجر في نفسه ينابيع من خشية الله تعالى؛ بما توحي إليه من الدلالات التي تزيد إيمانه رسوخًا، ومعرفته اتساعًا، فيكون موصولًا بأرجاء الوجود، شاعرًا بتفاعل ذرات الكون معه، وتفاعله معها في الركوع والسجود لله، والمثول بين يديه، وتسبيحه وحمده، وتوحيده وتمجيده، فيدرك أن الملك لله، ويوقن بأنّ مبدأه منه، ومعاده إليه، فلا غرو مع هذا أن تكون صلاته هذه معراجًا يعرج به إلى حضرة القدس، فيتجاوب مع

= الصلوات الخمس، (رقم: ٢٨٦٨، ص١٩٣٩)، والنسائي؛ السنن الصغرى، كتاب (٥) الصلاة، باب (٧) فضل الصلوات الخمس، (رقم: ٤٦٣، ص٢١١٦)، والدارمي؛ سنن الدارمي، كتاب (٢) الصلاة، باب (١) في فضل الصلوات، (رقم: ١١٨٣، ١٨٤/١)، وأبو عوانة؛ مسند أبي عوانة، كتاب (٤) الصلاة، باب (٩) بيان إيجاب المؤذن مثل ما يؤذن وإجابة النبي ﷺ المنادي، (رقم: ٩٩٠، ٢٨٢/١)، وابن حبان؛ صحيح ابن حبان، كتاب (٩) الصلاة، باب (٩) فضل الصلوات الخمس، (رقم: ١٧٢٦، ١٤/٥)، والبيهقي؛ السنن الكبرى، كتاب الصلاة، باب (٣) فرائض الخمس، (رقم: ١٦٩٣، ٥٣١/١).

الملأ الأعلى الذين يسبحون الليل والنهار لا يفترون، ويشعر بتنامي خوفه من الله، ورجائه له، كما يشعر باستحيائه أن يقدم على معصيته، مع أنه مغمور ببحار نعمه، ومحاط من كل جانب بفيض كرمه، فيقوى في نفسه الوازع الذي يزعه أن يقدم على معصيته تعالى في أي شيء، فينفلت في صلاته طاهر النفس، سامي الروح، زكي الأخلاق، ينضح صلاحًا، ويتدفق برًا وإحسانًا، لا يروق في نفسه زخرف الدنيا، وإن سبى رونقه ألباب الأغمار، فصاروا أسارى لفتنتها.

ولا يكاد يتأثر بمحيط الحياة الذي يزخر بالمغريات فيجتذبه إلى فتنتها الخلابة إلا ويقرع مسامعه نداء الله تعالى من جديد، الذي تنشق به حناجر المؤذنين داعيًا له إلى الصلاة والفلاح، فيتجدد عهده مع الله مرة أخرى، ولا يجد الشيطان سبيلًا إلى إغوائه، وترديته في المهالك، فما أعظم النعمة التي يحظى بها المصلون، الذين هم في صلاتهم خاشعون، والذين هم عن اللغو معرضون، الذين يسارعون إلى الخيرات، ويتوقون الموبقات، فيحافظون على الدين كما شرع، ويجعلون طاعة الله تعالى نصب أعينهم وملء فكرهم ووجدانهم، لا تملهم ولا يملونها، لأنهم خلقوا لها.

الركن الثالث: إيتاء الزكاة:

كم للزكاة من أثر في تزكية النفس وإحياء الضمير، وإماتة الأضغان والأحقاد بين الناس، واستلال السخائم من صدورهم، وتفجير مشاعر الحب والحنان والرأفة والرحمة فيما بينهم، حتى تغدو قلوبهم كقلب واحد، تتدفق بمشاعر متحدة، وتتأثر بعواطف منسجمة فلا يكون بين الناس إلا الوئام والألفة، والودّ والشفقة، فإنّ آثارها على صاحب المال المخرج لها، وعلى من تعطى له فيأخذها آثار ليست لها حدود في الخير ولا غاية في الإحسان.

فأمّا معطيها فحسبه من خيرها العظيم وأثرها الواسع العميق أن تكون وسيلته إلى التحرر من شهوة المال التي هي من أخطر الشهوات في الحياة، وأضرها على النفس وأسوؤها على المجتمع، فإنّ المال محبوب بالطبع آسر للنفس، مقيد لحركاتها في الخير، ناهيك ما قاله الله تعالى في مقام تقريع عباده وزجرهم عما هم فيه من الضلال والفساد: ﴿وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ [الفجر: ٢٠]، وقال في وصف الإنسان: ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ [العاديات: ٨].

هذا الحب إن أهمل وترك وشأنه كان له أثر في تعمية النفس عما فيه مصلحتها وعن كل خير، وإصمامها حتى لا تسمع صوت الحق ونداء الرشد، وإغلاظ حجابها حتى يحول بينها وبين كل ما يزكيها، فإنّ من شأن الإنسان أن يحب الاستكثار من المال وسعه، والاستئثار بخيراته، فلا يبالي في سبيل ذلك بأحوال البؤساء المحرومين، من الفقراء والمساكين واليتامى والأرامل والمرضى والمنكوبين، فلا يؤرقه أنينهم وزفراتهم، ولا يلتفت إلى أحوالهم وما تنم عنه من معاناتهم، ولا يهتم بجوعهم إن شبع، ولا بعريهم إن اكتسى، ولا ببؤسهم إن تنعم، إذ لا يفكر إلا في نفسه، وكم تدفع شهوة المال إلى ما هو أخطر من ذلك وأنكى عندما تكون دافعًا قويًا إلى الإجرام، الذي يؤدي إلى قتل الأنفس وسفك الدماء، لأجل الاستئثار بما بيد أهلها من الأموال.

ولا سبيل إلى التحرر من هذه الآثار السيئة التي لا تولد إلا الجرائم، ولا يعقبها إلا الحقد والحسد والقطيعة والشنآن، إلا أن يتعود ذو المال على بسط يده بالمعروف، واقتطاع نسبة من ماله لأجل مصلحة المحتاجين والمعوزين، ولأجل سد ثغرات المجتمع والرقي بأحواله، مع الشعور بأنّ ما يدفعه إنما هو حق معلوم وفريضة محتومة، ليس له فيها خيار، إذ المال في الأصل هو مال الله تعالى، وقد آتاه إياه ليكون خليفة فيه بالعدل، كما قال تعالى: ﴿وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ﴾ [النور: ٣٣]، وقال: ﴿وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ [الحديد: ٧].

والله تعالى سائله عن وجوه إنفاقه كما يسأله عن طرائق كسبه، كما جاء في الحديث الذي رواه أبو برزة الأسلمي ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: «**لا تزول قدما عبد حتى يسأل عن أربع، عن عمره فيما أفناه، وعن علمه ما عمل فيه، وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه، وعن جسمه فيما أبلاه**»[1]، فإنّ اعتياده على بذل المال لمن احتاج إليه ومراعاة أحوال البؤساء والمحرومين، يفجّر في نفسه مشاعر الرحمة، ويعودها على حب الإحسان، حتى لا يقر لها بال، ولا تطمئن بحال عندما تبصر بائسًا أدقعه الفقر، أو أقعدته الزمانة، حتى تريشه بالإحسان الذي يدفع بأساءه، ويخفف من وطأة زمانته، ليشارك ذوي النعمة نعمتهم، ويستنشق نسيم الحياة العليل بعدما لفحته بهجيرها اللاهب.

وإذا كان هذا الأثر الحميد لمطلق الإنفاق في الخير يعود على المنفق بهذه العوائد التي لا تقدر بثمن، فإنّ إيتاءه الزكاة المفروضة التي حددها الشرع الحنيف بحدود مضبوطة، وأوجبها في أصناف مخصوصة من المال ـ وهي أصناف يشترك الناس جميعًا في الحاجة إليها ـ مع مراعاة بلوغه النصاب الشرعي ومضي حول عليه، يكون له ـ بلا ريب ـ أحسن الأثر في تزكية نفسه، ولذلك سمّى الله تعالى هذه الفريضة المالية زكاة، فإنّ الزكاة ـ لغة ـ إما أن تدل على الطهارة، وإما أن تدل على النماء، والمعنيان يتحققان في نفس المزكي وماله، فنفسه تتطهر من آثار الشحّ البغيض، وبذلك يوقى ما يترتب عليه في علاقاته بالناس من الحسد والبغضاء، والحقد والشنآن، وهي بذلك ـ أيضًا ـ تنمو فيها خصال الخير بتعودها الإحسان حتى يغدو مَلَكَةً لها، تسارع إليه بطبعها عندما تبصر معاناة محتاج.

وأما المنفق عليه؛ فإنّ النفقة التي تصله من يد أخيه الغني كما تسد حاجته وتجبر كسره هي أيضًا لها أثر نفسي عليه، باستلالها سخيمة صدره،

---

(١) سبق تخريجه.

وما يطفح به قلبه في حال إحساسه بالحرمان، من حسد ذوي اليسر وشنآنهم، وإضمار الحقد لهم.

وبأداء هذه الزكاة ودفع سائر النفقات التي تقتطع من أموال الأغنياء لإخوانهم الفقراء تردم الهوة بين الجانبين، وتكون العلاقة بينهما علاقة مقة خالصة، ورحمة دافقة، وانسجام ووئام، وتسود هذه الحالات المجتمع جميعًا، وتقوى بين أفراده الصلة، ويتوافر بينهم التعاون، ويتعاضدون جميعًا على الخير، وتفيض ألسنة الفقراء بالدعاء الخالص المحض لإخوانهم الأغنياء، بما نالوه من خيرهم، وما تنعموا به من رفدهم، وهو مما يقوي بين الناس جميعًا تكاتفهم على الخير، واجتماعهم على التآمر بالمعروف والتناهي عن المنكر، والحفاظ على حدود الله وإقامة عمود دينه، فيكون الدين لله، والناس إخوة فيه تجللهم الرحمة، ويزكيهم البر والتقوى، ويجمعهم الفضل والإحسان.

والقرآن الكريم يشير إلى هذه الحكم العالية، التي تتحقق بإيتاء الزكاة، كما تتحقق ببذل المعروف كيفما كان، عندما يخاطب الله تعالى عبده ورسوله ﷺ بقوله: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣]، فإنّ الصدقات تطهر النفوس من أرجاس الطبع، وترقى بها في معارج الخير، فتتحول إلى نفوس ربانية الوجهة، نورانية الطبع، زكية الخصال مسددة الأقوال والأعمال تراقب الله تعالى في كل ما تأتي وما تذر، وتجعل رضاه غاية ما تطمح إليه، وتسعى من أجل الحصول عليه.

الركن الرابع: صيام رمضان:

الصيام عبادة مقدسة، ترقى بروح العابد في معارج القرب، ومراقي الفضل، وذلك بما جعل الله تعالى لهذه العبادة من طاقة روحانية تزكي باطن النفس وتهذب أخلاقها، وتسدد ما يصدر عنها من الأقوال والأفعال، وقد

كشف الله هذا الأثر الكبير الذي يخلفه الصيام في نفوس الصائمين، إذ قال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ١٨٣]، فالصيام فريضة محتومة فرضها الله تعالى؛ لأجل ترسيخ روح التقوى في نفوس الصائمين، والارتقاء بأخلاقهم وضبط ما يصدر عنهم من الأقوال والأعمال، وما ينتج عنهم من جميع الأحوال.

إذ الصيام مقاومة للشيطان وترويض للنفس على ضبط شهواتها، حتى تغدو أسيرة إرادتها، ولا تكون هي الآسرة لها، وفيه من التربية للضمير الإنساني ما لا يخفى على من راضه وجربه بإخلاص لله ﷻ، وهذا لأن للشيطان وسائل من نفس الإنسان، يسعى دائمًا إلى أن يجرها بها إليه، فيتمكن من إغوائها لتصبح من حزبه الخاسرين، وأهم هذه الوسائل وأخطرها على الإطلاق هي شهواتها التي إن قويت واستفحلت أصبحت موجهة للنفس لا تقف ولا ترتد إلى أن ترديها في دركات الشقاء والعياذ بالله.

ولكن إن ضيقت مسالكها وحوصرت بما يكبحها ذلّت وتطامنت وأسلست لصاحبها القياد، فيروضها في الخير بدلًا من أن تَدُعَّه في الشر، والصيام بلا ريب أقوى مروض لها وكابح لطغيانها، فهو آسر لشهوة الطعام والشراب، وقضاء الوطر فيما بين الرجل والمرأة، إذ يظل الإنسان سحابة نهاره أسير هذه الطاعة المقدسة، تفطمه عما اعتاده من تناول الطعام والشراب متى شاء، وقضاء الوطر بينه وبين أهله كما يريد، وهذا مما يقوي إرادته ويعزز جانبها، لتغدو هي التي توجه هذه الشهوات بدلًا من أن تتجه كما تملي عليها، فمنذ طلوع الفجر إلى إقبال الليل يمنع الصائم نفسه من أن يستجيب لأي رغبة من هذه الرغبات، فيتخلق بأخلاق الملائكة الذين يسبحون الليل والنهار لا يفترون، والذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، فيغدو ملكي الطبع روحاني النزعة، لأن الطاقة الروحانية تكون هي الغالبة على الجسم، وما يطمح إليه.

ومع هذا فإنّ الصيام لا يعني الكف عن الأكل والشرب والجماع فحسب؛ وإنما يعني الكف عن جميع معاصي الله تعالى، بحيث يقيد كل جارحة من جوارحه عن مقارفة أي معصية لله تعالى، وهو مما يوحي به قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾، وصرح به قول النبي ﷺ: «... **ولا صوم إلا بالكف عن محارم الله**»[1]، بل نص الحديث الشريف على أن ترك الأكل والشرب في حال الصيام لا قيمة له عند الله إن لم يكف الصائم عن فعل السوء وقول الباطل، فقد صح عنه صلوات الله وسلامه عليه أنه قال: «**من لم يدع قول الزور والعمل به والجهل فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه**»[2]، وكافيك هذا القول منه عليه أفضل الصلاة والسلام، زجرًا شديدًا، وتحذيرًا بالغًا من مقارفة أي معصية حال الصيام، فإنّ مثله لا يقال إلا في مقام التهديد والوعيد.

ولا يخفى ما في تعود ذلك أثناء الصيام من أثر على النفس تستصحبه في جميع الأوقات، حتى تغدو دائمًا مشمئزة من المعصية، مستهجنة لفعلها،

---

(١) رواه الربيع من طريق ابن عباس؛ **الجامع الصحيح**، باب (١٥) في آداب الوضوء وفرضه، (رقم: ٩١، ص٣٠).

(٢) أخرجه من طريق أبي هريرة أحمد؛ **مسند أحمد**، (رقم: ٩٨٠٠، ٣٢٧/٩)، والبخاري؛ **صحيح البخاري**، كتاب (٣٠) الصوم، باب (٨) من لم يدع قول الزور والعمل به، (رقم: ١٩٠٣، ص١٤٩)، وابن ماجه؛ **سنن ابن ماجه**، (٧) أبواب الصيام، باب (٢١) ما جاء في الغيبة والرفث للصائم، (رقم: ١٦٨٩، ص٢٥٧٨)، وأبو داود؛ **سنن أبي داود**، كتاب (١٤) الصيام، باب (٢٥) الغيبة للصائم، (رقم: ٢٣٦٢، ص١٣٩٨)، والترمذي؛ **سنن الترمذي**، (٦) أبواب الصيام، باب (١٦) ما جاء في التشديد في الغيبة للصائم، (رقم: ٧٠٧، ص١٧١٦) وقال: «حسن صحيح»، وابن حبان؛ **صحيح ابن حبان**، كتاب (١٢) الصوم، باب (٥) آداب الصوم، (رقم: ٣٤٨٠، ٢٥٦/٨ ـ ٢٥٧)، وأخرجه أيضًا: النسائي في الكبرى؛ **السنن الكبرى**، كتاب (١٦) الصيام، باب (٩٢) ما ينهى عنه الصائم من قول الزور والغيبة، (رقم: ٣٤٣٠، ٤٠٦/٥)، والبيهقي؛ **السنن الكبرى**، كتاب الصيام، باب (٨٨) الصائم ينزه صيامه عن اللغط والمشاتمة، (رقم: ٨٣١١، ٤٤٩/٤).

تأنس إلى الطاعة وتستوحش من الذنوب، على أنّ أثر الصيام لا يقف عند هذا الحد، بل يتعداه إلى التخلق بأخـلاق عالية في ضبط النفس، وتعويدها على الحلم، وكفّها عما جبلت عليه من حب التشفي والانتقام، والنزوع إلى مقاومة العدوان ومقابلة الإسـاءة بمثلها، إذ الصيام يحول بيـن الصائم وبين معاملة المسـيء بمثل صنيعه، كمـا هو صريح قولـه ﷺ: «**الصيام جنّـة فلا يرفث ولا يجهل وإن امرؤ قاتله أو شاتمه فليقل: إني صائم، مرتين**»[1].

وهذا إن دل على شـيء فإنما يدل على أنّ الصيام مدرسـة في الأخلاق عالية لا تسـامى، فأي خلق أرفع من هذا الخلق الـذي يجعل صاحبه يكبح جماح الطبع، ويقهر نزعات النفس، حتى لا يدع لها مجالًا لأن تتشفى ممن أزعجها وآذاها، إنما حسب الصائم أن يقول عندما يتعرض لشيء من ذلك إني صائم، ليذكر نفسه بقدسـية صيامه التي تتنافى مع إعطاء النفس رغباتها في التشـفي والانتقام، ثم يُذَكِّرُ الطرف الآخر الذي صدر منـه الظلم بأنّ ما أتاه مخالف لما يقتضيه صيامه إن كان هو أيضًا مـن الصائمين، فعليه أن يتراجع ويحاسب النفس ويكبح نوازعها، هذا إن كان من المسلمين، وإن لم يكن من المسـلمين كان هذا الجواب وحده كافيًا لأن يوقظ ضميره، ويشد انتباهه إلى مزايا الإسـلام الدين الحق، لعله يدفعه ذلك إلى دراسة هذا الدين، وما يطبع عليه أتباعه من الأخلاق الرفيعة، ويعودهم عليه من المعاملة الحسنة.

وليت شـعري؛ أي مدرسـة في الأخلاق ترقى إلى هذا الشـأو العالي، وتوجه النفس الإنسـانية هذه الوجهة التي تحررها من أسر طباعها؟ إنّ هذه

---

(١) رواه من طريق أبي هريرة الربيع بن حبيب؛ **الجامع الصحيح**، باب (٥٤) في فضل رمضان، (رقم: ٣٣٠، ص٨٤)، ومالـك؛ **الموطـأ**، كتاب (١٨) الصيـام، باب (٢٢) جامـع الصيام، (رقم: ٧٠٣، ص١٣٢)، وأحمد؛ **مسـند أحمـد**، (رقـم: ٧٤٨٤، ٢٩٠/٧)، والبخاري؛ **صحيح البخاري**، كتاب (٣٠) الصوم، باب (٢) فضل الصوم، (رقم: ١٨٩٤، ص١٤٨).

الأخلاق لا يتصور وجودها قط إلا في هذا الدين، ولا يتوصل إليها إلا بالمحافظة على أداء العبادات وفق ما شرعت، وإخلاصها لله سبحانه.

وهذا ـ بلا ريب ـ يعني أن من لم يحافظ على هذه المكاسب الغالية التي يحرزها من صيامه ليس له من صيامه إلا الجوع والظمأ، وبهذا يتفاوت الصائمون في بلوغ درجات القرب بحسب تفاوتهم في تأثير صيامهم على أنفسهم، وما يخلفه في سلوكها وأخلاقها، وكل ما يصدر عنها من رقي أو انحطاط.

الركن الخامس: حج بيت الله الحرام:

إن الحج هو القصد، والمحجوج إليه في الحقيقة هو الله ﷻ، الذي استأثر بذلك البيت المعظم، فجعله أول بيت له تهفو إليه قلوب المؤمنين، وترتاح إليه نفوسهم، وتحن إليه أفئدتهم، وقد جعل الله تعالى له خصوصية دون غيره من البيوت المقدسة في الأرض، ومن هذه الخصوصية أنه جعل ما حوله من الأرض حرمًا آمنا يجد فيه كل مخلوق أمنه وطمأنينته فلا ينفر صيده، ولا يختلى خلاه، ولا يزعج قاصده، ولا يروع من يأوي إليه.

وقد جعله الله أجمع بيت لشتيت الناس، يأتون إليه من كل فج عميق، فلا يخلو عام من الأعوام من قصد وفود الرحمن إليه يأتون من بقاع شتى وأصقاع متنائية، بحيث لا يكاد يخلو قطر من الأقطار في كل عام من وفد يسعى إليه، ملبيًا لنداء الله تعالى الذي أطلقه إبراهيم عليه السلام بأمره تعالى: ﴿ وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴾ [الحج: ٢٧]، وقد تكفّل الله تعالى بإيصال هذا الصوت إلى جميع الناس في أنحاء الأرض حتى أولئك الذين كانوا في أصلاب الآباء وأرحام الأمهات، فكتب الله تعالى لمن وفق إلى إجابة هذا الداعي أن يستجيب في الحالة التي كان عليها عندما أطلق

النداء كما روي عن ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جُبَير، وغير واحد من السلف، كما رواه عنهم ابن جرير وذكره غير واحد[1].

ولأجل هذا شرعت التلبية تحقيقًا لهذه الاستجابة، وهي ترمز إلى أكثر من معنى، أهم هذه المعاني أنها ترمز إلى الإخلاص لله تعالى وحده، بقطع جميع العلائق، والتحرر من جميع المؤثرات، والتوجه إليه ﷻ وحده توجهًا يجعل الوجهة خالصة له تعالى وحده، ومعنى ذلك أنّ هذه الاستجابة ليست باللسان وحده، وإنما هي بالقلب من أعماقه، ومن هناك تفيض على اللسان، وتعمّ جميع الجوارح، وكل جارحة تستجيب لداعي الله، بل كل خلية في الجسم أو جزيئة في طواياها تشارك في هذه الاستجابة، فتتجاوب مع هذه التلبية بالانضمام إلى هذا الوفد المبارك.

وبجانب هذا قد جعل الله ﷻ مجالًا لعمارة بيته هذا في كل جزء من العام، فالناس يتوافدون إليه ملبين بالعمرة التي هي صورة مصغرة من مناسك الحج العظام، إذ ليس للاعتمار ميقات زمني محدد، وإنما الفرصة له مواتية في كل زمان، بخلاف الحج الذي وقّت له الله تعالى مواقيت محددة، إذ جعل أشهره معلومة، كما دل عليه قوله تعالى: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ﴾ [البقرة: ١٩٧]، وهي شوال وذو القعدة وذو الحجة، وقيل: شوال وذو القعدة وعشر من ذي الحجة، وقيل: بل عشرون منه، والاختلاف من أجل اعتبارات مذكورة في مظانها.

ورحلة الحج هي رحلة إلى الله تعالى لذلك كان من شروطها التخلي عن الرفث والفسوق والجدال واستصحاب التقوى في جميع الأحوال، كما قال تعالى: ﴿فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ وَمَا

(١) ينظر تفسير الطبري، ٦٠٦/١٨.

تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ [البقرة: ١٩٧]، والمتدبر لما ذكره الله تعالى عند وصف المناسك العظام، والمشاعر المقدسة يتبين له التنصيص على ضرورة التقوى في جميع الأحوال عندما يكون الإنسان في هذه الرحلة، فقد ذكرت التقوى مع ذكر مناسك الحج أكثر مما ذكرت في معرض الحديث عن أي عبادة أخرى، فالله تعالى يقول: ﴿ وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ ... ﴾ إلى أن قال: ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ [البقرة: ١٩٦]، ثم أكد على ذلك بالتحذير من الرفث والفسوق والجدال لمن قصد الحج، وقال بعد ذلك: ﴿ وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَى وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ [البقرة: ٢٠٣]، وقال: ﴿ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴾ [الحج: ٣٢]، وقال في الهدي وسوقه إلى أرض الحرم: ﴿ لَنْ يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ ﴾ [الحج: ٣٧].

ولما كان ذكر الله تعالى هو الذي يذكّر بالله سبحانه ولقائه، وبوعده ووعيده، وأمره ونهيه، وفضله ونعمته، وبكمالاته العظيمة وجلاله المهيب، كان التأكيد على الذكر في الآيات التي تتحدث عن مناسك الحج كما سلف وكما في قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ ۝ ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ۝ فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ ۝ وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ۝ أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ [البقرة: ١٩٨ ـ ٢٠٢].

وكذلك عندما ذكر البدن أتبع ذكرها بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الحج: ٣٧]، وفي هـذا ما يدعو إلى أن يكون الحاج ليس عازبًا عن ذكر الله تعالى في حال، مع استصحابه للذكر في جميع أحواله بعد حجه، ليستديم بذلك تقوى الله تعالى في سريرته وعلانيته، وليتقوّى على حمل أمانة الله تعالى وأدائها على الوجه الذي يرضيه.

وإذا أدركت أنّ الحج كله عامر بالذكر زاخر بالتقوى، كان ذلك داعيًا لك إلى الإمعان في أسرار مناسكه العظيمة، إذ كل منسك منها داع إلى التمسك بحبل التقوى، واستدامة الذكر والتحرر من أسر الهوى، والازدجار عن اتباع ما يمليه الشيطان من وساوس مردية، والتيقظ في جميع الأحوال لأساليبه ووسائله، حتى يظل الإنسان على بصيرة من أمره وصلة بربه.

فإنّ الحاج بمجرد خروجه من داره يودع ما كان عليه من ركون إلى الدنيا واغترار بزخرفها، واهتمام بحطامها، ويقبل إلى ربه مسلمًا له وجهه، ومخلصًا له دينه، فلذلك يبدأ قبل شدّ رحله بمحاسبة نفسه، والتخلص من تبعاته، والاستيثاق من وصيته، فيودع أهله ويصل أرحامه، ويحسن إلى جيرانه، ويأتي إلى ما كان بينه وبينهم مما يكدر صفو علاقته بهم، ويستبدل بكل إساءة بدرت منه إحسانًا إلى من أساء إليه، وهو وداع من غلب على ظنه أنه لا يعود إليهم، هذا فيما بينه وبين الناس.

أما فيما بينه وبين ربه؛ فإنه يحرص على أن يجبر كل ما كان من تقصير في دينه، فيؤدي ما تعلق بذمته من الكفارات، ويقضي ما عسى أن يكون مقصرًا فيه من العبادات ليقلب صفحته من الشر إلى الخير، ومن الفساد إلى الصلاح، ومن الفجور إلى البر، ومن الغش إلى النصح، فإذا تسنّم مركوبه بدأ بذكر الله تعالى فكبره تكبيرًا، ثم أتى بدعاء السفر، ويستصحب الذكر في

منحنيات طريقه ومنعرجاتها، وفي مرتفعاتهـا ومنخفضاتها، إذ كل ما يمر به يذكره بالله فيتجدد له ذكره، وتقوى به صلته، فيستديم تقواه.

وإذا أزف ميقاته اغتسـل لإحرامه كغسـل الموتى، ليتجدد في نفسه ذكر الموت وغصته، والقبر ووحشـته، فيعد لذلك عدته ويتزود له زاده، ويتخلى من زينته المعهـودة وزيه الذي كان يتميز به، فيتجرد فـي ثوبي إحرامه، كما يجرد الموتى من زينتهم وأزيائهم، ويلبسون الأكفان، وبعد أن يصلي فريضة حاضرة أو سنة الإحرام يبدأ في التلبية، رافعًا بها صوته مستديمًا لها في حله وترحاله، قائلًا بلسـانه ومسـتحضرًا معانيها بقلبه، ومستشعرًا ذلك بمشاعره وحسه: «لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك، لا شريك لك».

وإذا كانت هـذه التلبية تفيض على قلبـه معناها العظيـم، وتغدق على مشاعره إحساسًا بالغًا بأنه يتوجه إلى الله مخلصًا له قصده، عارجًا في معارج الفكر إلى حضرة قدسـه، مسـتلهمًا بها ما يفيض على نفسـه فيوض لطفه، ويشعشـع في جنباتها أشـعة أنسـه، فإنه ـ بلا ريب ـ تقتضيه أن يخلص له عبادته، وأن يسلس له في كل أمر قياده، فلا يقدم ولا يحجم إلا ببينة من ربه، وبصيرة من دينه، لأنه له الطاعة المطلقـة، ومنه المبدأ وإليه الرجعى، فيجب أن يخلص له عبوديته وعبادته.

وإذا بلغ حرم الله الآمن وبلده الأمين فاضت مشـاعره بهيبة الله تعالى الذي أزف إلى بيته المحرم، ومع هذا يستوحي من ملامسة تراب الحرم المقدس ما مر بهذه الأرض الطهور من عراك بين الحق والباطل، وتدافع بين الهدى والضلال، فينفتح لذهنه سجل التاريخ الماضي السحيق الذي يكتنف بيت الله الحرام، الذي أشار إبراهيم عليه السلام إلى أنه كان له وجود من قبله، حيث قال: ﴿ رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ [إبراهيـم: ٣٧]،

وهذا يعني أنه كان له وجود في العهود السابقة السحيقة، كيف وهو أول بيت وضع للناس بنص القرآن الكريم، والنـــاس لم يكونوا في عهودهم المتقدمة ليخلوا من مكان مقدس تهفو إليه نفوســـهم، وتطمئن إليه قلوبهم، وتسكن إليه ألبابهم.

فإنّ الله سبحانه رب الناس ورب كل شـــيء تقدس عن المكان والزمان، فقد كان قبل خلق الزمان والمكان وهو على ما عليـــه كان، جل عن الأينية، وتقدس عن الآنية، والناس ـ كسائر الخلق ـ لا ينفكون عن الزمان والمكان، فلذلك كانوا بحاجة إلـــى بيت يكون رمزًا لتوجههم إلـــى الله وتضرعهم إليه ودعائهم له، فكان من فضل الله عليهم أن هيأ لهم ما يلائم فطرهم، ويملأ هذا الفراغ النفسي الذي يشـــعرون به، وإذا كان البيت الحرام هو أول بيت وضع للناس كما جاء النص القطعي به، فإنّه ـ بلا ريب ـ بدأ تأريخه بتاريخ الوجود البشـــري فـــي الأرض، وإنمـــا تجـــدد رفـــع قواعـــده علـــى يـــدي إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام كما ذكره الله في كتابه.

ولا يكاد الحاج يبصر بعينيه شـــبح البيت المحرم، ويزحف إليه ليشرف بطوافه به، حتى تتجدد في نفسه ذكريات شتى، فيشعر أنه بطوافه هذا ينخرط في سلك عباد الله تعالى، الذين شرفوا بخلوص عبوديتهم وعبادتهم له، فكانوا من حزبه المفلحين، وهنا تتفاعل في نفســـه ذكريات شـــتى ومشاعر متعاقبة، فيتراءى له مظهر أولئك الذين حجّوا هذا البيت وطافوا به من الأنبياء والأمم، ويتصور كيف كان إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام معنيين برفع قواعد هذا البيت من أجل أن يكون رمزًا للتوحيد، ومركزًا للموحدين، ومتجهًا للمؤمنين، وملتقى لهم عندما يفدون إليه من أصقاع الأرض، وكيف كانت ألسنتهما تعج بالدعاء الخالص إلـــى الله تعالـــى: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ

ٱلرَّحِيمُ ۝ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [البقرة: ١٢٧ ـ ١٢٩].

وترد على نفسه ذكريات نبي الرحمة عليه أفضل الصلاة والسلام، الذي بدأت دعوته تصدع صمت الوجود لترد الناس إلى الحق الذي فارقوه، وتعرفهم بربهم الذي جهلوه، إذ لم يقدروه حق قدره عندما جعلوا له الأنداد والشركاء، وما صحب ذلك من انزعاج الشرك وأهله بهذه الدعوة، التي قامت لتردي الشرك وحزبه، وتخسئ الباطل وأهله، وترفع منار الحق بين العالمين.

وفي تفاعل هذه الذكريات تجديد لعزائم الإيمان وهمم الخير في نفوس الذين تحيا في قلوبهم، وتتجدد في أحاسيسهم، وتكون لهم زادًا دعويًا يتزودونه في قيامهم بهذا الواجب وحملهم لهذه الأمانة وأدائها، وأينما ولى الحاج وجهه فيما بين تلك المشاعر المعظمة والمعالم المقدسة تتجدد في نفسه ذكريات الخير، وتقوى في نفسه عزيمته، وتنبعث فيها همّته، ليواصل سبيل حياته متأسيًا بأفضل أسوة حسنة في القيام بتجديد رسالاتهم بين الناس ليشعشع نورها، ويتوالى عطاؤها في كل حين.

وبجانب هذه الفيوضات الإيمانية التي تتوالى على نفسه تتهيأ له المشاركة في مشروع النهوض بالأمة، عندما يلتقي بوفود الله الذين أقبلوا من شرق الأرض وغربها، وشمالها وجنوبها، وكل منهم يحمل في تضاعيف نفسه هموم مجتمعه، ويسعى إلى حل مشكلاته، ومشكلات الأمة جميعًا، بتعاونه مع إخوانه في رحاب الإيمان، حيث تصفو الأرواح، وتتزكى الطباع، وترهف الحواس، فتتلاقح أفكارهم جميعًا بما يعود على أمتهم بالخير والصلاح والعز والرقي عندما تكون كلمة الله هي العليا، وكلمة الذين كفروا هي السفلى، ويتمتن الرابط بين الأمة التي يمثلونها.

وكم يكون لوفود الرحمن في تلك البقـاع من حافز إلى الألفة والمودة والشفقة والحنان والوئام والانسجام، ناهيك بالمظهر الذي يوحدهم جميعًا عندما يتخلى كل منهم عن زيه الخاص، الذي يستمده من بيئته في أرضه ووطنه، ويتجرد في ثوبي إحرامه كما يتجرد سائر الوفود، ويرددون جميعًا بلسان واحد صوت التلبية، الذي يوحد بينهم جميعًا عندما يعجون بها في تلك العراص، من غير فرق بين أبيض وأسود، وعربي وأعجمي، وشرقي وغربي، لأن الإسلام صهر هوياتهم جميعًا في هويته التي تجمع ولا تفرق، وتوحد ولا تشتت، وتؤلف ولا تنفر، فلا يكاد أحدهم يعود إلى أهله إلا وقد انسلخ من طباعه، وتخلى عن أفكاره، فلا يحمل إلا فكرًا واحدًا، وهو فكر الإيمان الخالص الذي يصلهم جميعًا برب العالمين ويربطهم بسائر المؤمنين وهذا ما يجعلهم يحملون جميعًا همًا واحدًا، وهو هم النهوض بهذه الأمة، لتصبح الأمة عزيزة الجانب نافذة الإرادة، صلبة العزيمة، مهيبة محترمة عند الجميع.

ولا يكاد أحدهم يعود إلى أهله ومجتمعه حتى يكون رسول رحمة ورائد إحسان، يفيض على من حوله من هذا الخير الذي جاء به من هنالك.

وإذا كانت هذه هي أركان الإسلام، وهذه هي آثارها في المتمسكين بها الذين يمارسونها بدراية وعناية، ويحرصون على توظيفها في حياتهم الشخصية والأسرية والاجتماعية، وفي علاقتهم بسائر أمتهم وبالجنس البشري كله، فهل يبقى في نفسك أيها القارئ الكريم ما يجعلك تبغي بنظام الإسلام بديلًا، أو يسوّل لك أن تحاول ترقيعه بأسمال من نسيج سائر الأنظمة؟! أولم يكفك أنّ الإسلام كله هو شريعة الله المحكمة، ومنهجه القويم، فكيف تبغي بديلًا عنه، أو تحاول أن تشك في أي جزئية مما احتواه؟! أولا يكفيك ما تشاهده بعينيك وتدركه ببصيرتك مما منيت به جميع الأنظمة سواه من

الفشـــل في حل مشـــكلاتها، وما عاد على أهلها من تشتت الأوضاع، وتقطع العلاقات، وفســـاد الأحوال ومعاناتهم التي لم يجدوا لها حلًا؟.. أولم تسمع بجانب ذلك هذه الصيحـــات المدوية من عقلاء هذا العالـــم ومفكريه الذين يلتمسون الحل مما جاء به الإسلام بعد تجاربهم المريرة وفشلهم الذريع، فما بالك أيها المسلم تزهد في هذا الكنز العظيم الذي أوتيته؟!.

فلعمر الحق؛ لـــو أنّ الباحثين عن مشـــكلات العالم يمموا نحو شـــطر الإســـلام، لوجدوا حلًا لكل مشـــكلة ودواء لكل علة، وإصلاحًا لكل فساد، وتقويمًا لكل اعوجاج، ولـــو أنّ الملاحدة فكروا في مصلحتهم في المســـير والمصيـــر، وأطلقوا عقولهم من أســـر الأهواء لداســـوا إلحادهـــم بأقدامهم، وحطموه بفؤســـهم، ونادوا بالإســـلام حلًا، وجعلوه تيجانًا علـــى هاماتهم، واستمدوا من شعاعه ما يبدد ظلماتهم، ولولا العقد النفسية وإخلاد الناس إلى العمى، وتســـارعهم إلى الردى، لمدوا جميعًا أيديهم إلى الإسلام مستجدين رفده، ومستمدين هداه.

وفي هذا ما يضاعف مسؤليتك أيها المسلم، فأنت مطالب بأن تبدد هذه الشبهات التي رانت على هذه القلوب فأعمتها، واستحكمت في هذه النفوس فأردتها، وزاغت بهذه البصائر فحجبتها عن الإبصار.

المبحث الثامن

في مزايا الإسلام

من المعلوم أنّ الإسلام الحق هو ما تضمنه القرآن والسنة النبوية الثابتة الصحيحة عن النبي ﷺ، والقرآن الكريم محفوظ بحفظ الله تعالى لم تمتد إليه يد عابث لتحرفه وتبدله، كما نصّ عليه تعالى في قوله: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩]، وقد تلقته الأمة عن نبيها ﷺ كما تلقاه النبي ﷺ عن جبريل عليه السلام، كما هو مرسوم في اللوح المحفوظ، من غير تحريف ولا تبديل، وقد توالت حلقات الأمة عبر أجيالها يتلقاه كل جيل منها عن الجيل الذي سبقه، متواترًا في نقله، قطعيًا في ثبوته، فلا يتصور بحال أن يكون فيه ما لم يوحه الله تعالى إلى نبيه صلوات الله وسلامه عليه.

وقد تضافر على حمله ونقله وحفظه في كل عصر من العصور ما لا يحصى عدّه من الناس، فكان بذلك أصح كُلّ ما يروى، وأقوى كُلّ ما يحتج به ويعتمد عليه، وقد نال القرآن من عناية الناس به في حفظهم إياه وشرحهم لقراءاته ووجوهها وتفسيره وسائر ما يتعلق به من العلوم مَا لم تقاربه في ذلك أي وثيقة علمية في التاريخ البشري كله، وقد اعتني به أيما عناية في العصور الخالية كلها، وهو معتنى به في هذا العصر، وستمتد هذه العناية في جميع العصور الآتية إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

وما هذه التهيئة لذلك من القدر الإلهي إلا لأجل أن يمتد للناس هذا الدين الذي ارتضاه لهم ورضيه حتى يكون واصلًا بينهم وبينه، ويكون المنهج الصحيح الذي يسيرون عليه في الحياة إلى أن يأذن الله ﷻ بطي سجلها، ويكون المنقلب إلى الله ليلقى كُلٌّ جزاء ما عمل.

وأما السنة النبوية فهو ما ثبت عن النبي ﷺ من أقواله وأفعاله وتقريراته، وثبوتها إما أن يكون قطعيًا وذلك فيما تلقي بالتواتر القطعي منها، وهو ما رواه جماعة عن جماعة لا يمكن تواطؤ مثلهم على الكذب عادة، وهذا حجته قطعية كقطعية حجة القرآن، فيعول عليه في إثبات العقائد، وإلحاق الأحكام بمرتبة القطعيات، بحيث لا يسوغ فيها النظر والاجتهاد إن كان ثبوتها بنص قطعي الدلالة منها أو من القرآن، وإما أن يكون ثبوتًا ظنيًا، وذلك فيما نقل بطريق الآحاد، وهو لا يرقى إلى مرتبة القطعي فلا يعول عليه في أصول الدين، أي في إثبات العقائد ولو كانت دلالته نصية، وإنما يؤخذ به في المسائل الفرعية العملية إن لم يعارض ما هو أقوى منه في الثبوت أو الدلالة، ولا يمنع من النظر فيه والترجيح بينه وبين غيره من الأدلة إن كان الناظر في ذلك عالمًا ربانيًا، مخلصًا لله وجهته، ضليعًا في العلوم الشرعية، جامعًا للوسائل التي تمكنه من الاجتهاد التي هي مذكورة في مظانها.

ولا ريب أنّ ما ثبت بالقرآن، أو ما ثبت بحديث الرسول ﷺ، لا مساغ للعدول عنه إلى هوى النفس، والتأثر بمزاجها، وإنما يجب له التسليم المطلق والطاعة المطلقة كما قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴾ [الأحزاب: ٣٦]، وقال سبحانه: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ [النساء: ٦٤]، وقال ﷻ: ﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴾ [النساء: ٨٠]، وقال تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ

لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٢١]، وحصر تعالى رحمته التي وسعت كل شيء فيمن آمن به ﷺ واتبعه، عندما قال: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ۝ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَـٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَـٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [الأعراف: ١٥٦ ـ ١٥٧]، وجعل تعالى اتباع النبي ﷺ تجسيدًا لحب الله تعالى من العباد، ووسيلة إلى نيلهم حبه، ووصولهم إلى مغفرته ومرضاته، حيث قال: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [آل عمران: ٣١].

وعزّز الله سبحانه ما يصدر عن النبي ﷺ؛ إذ عدّه وحيًا ربانيًا أوحاه إليه، وذلك في قوله: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴾ [النجم: ٣ ـ ٤]، ولذلك كان اتباعه وطاعته ﷺ في أمره ونهيه انقيادًا لحكم الله تعالى وطاعة لأمره، فقد قال سبحانه: ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ [الحشر: ٧].

وبيّن تعالى بالنص القطعي أنّ الإعراض عن القرآن إنما هو إعراض عن الله، ويبوء المعرض عنه بسخط الله تعالى وعقابه، فقد قال تعالى: ﴿ وَقَدْ ءَاتَيْنَـٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ۝ مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وِزْرًا ۝ خَـٰلِدِينَ فِيهِ ۖ وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ حِمْلًا ﴾ [طه: ٩٩ ـ ١٠١]، وقال ﷻ: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ۝ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ۝ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَـٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴾ [طه: ١٢٤ ـ ١٢٦].

وعليه؛ فإنّ الإسلام الذي يعتد به، ويعول عليه، وتلتقي عليه الأمة وتسلم له أمرها هو الإسلام المتلقى عن الله سبحانه بواسطة رسوله الأمين ﷺ، سواء ما ثبت بالوحي الظاهر وهو القرآن، أو ثبت بالوحي الباطن وهو السنة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام، ولا يسوغ في هذا أن يتعقب بنظر من أي أحد من الناس، ولا أن يبدل ويعدل في أي ظرف من الظروف.

وبهذا؛ تدرك أنّ كل ما ألصق بالإسلام من هوى المنتسبين إليه ليس هو من الإسلام في شيء، وإنما هو مروق من الدين وتنكر له كما جاء في الحديث الشريف عن النبي عليه أفضل الصلاة والسلام أنه قال: «**أما بعد؛ فإنّ أصدق الحديث كتاب الله، وأفضل الهدي هدي محمد، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار**»[1].

ويتضح بهذا التباين والافتراق بين الإسلام الحنيف، وبين النصرانية التي صبغت بصبغة أهواء من اتبعها من أباطرة الرومان، فأقر في مجمع نيقية ما الدين والوحي بريئان منه؛ من عقيدة التثليث ونسبة الولد إلى الله ـ ﷻ كما تقدم ذلك ـ واستمرت المجامع التي تعقد حينًا بعد حين تأتي كل يوم بجديد من التبديل والتغيير، وتدخل ذلك في صميم الدين، وتعده قربة ومرضاة لرب العالمين، حتى وصل الأمر في زماننا هذا إلى إقرار أقبح فاحشة وأشنع جريمة، تشمئز منها الفطر، وترفضها العقول، حتى فطر البهائم العجماء، وهي الزواج المثلي..!! حيث أصبح عندهم مشروعًا يقره الدين، وتناصره الكنيسة..! بعد أن كان فعل هذه الفاحشة الشنيعة في القرون السابقة جريمة عظمى يقتل مرتكبها إحراقًا بالنار.

---

(١) أخرجه أحمد؛ **مسند أحمد**، (رقم: ١٤٢٧٠، ٤١٩/١١)، ومسلم؛ **صحيح مسلم**، كتاب (٧) الجمعة، باب (١٣) تخفيف الصلاة والخطبة، (رقم: ٨٦٧ [٢٠٠٥]، ص ٨١٣)، وابن ماجه؛ **سنن ابن ماجه**، كتاب السنة، باب (٧) اجتناب البدع والجدل، (رقم: ٤٦، ص ٢٤٧٩)، والنسائي؛ **السنن الصغرى**، كتاب (١٩) صلاة العيدين، باب (٢٢) كيف الخطبة، (رقم: ١٥٧٩، ص ٢١٩٣).

ومن العجب أن تجدهم يرفضون أي حـوار في هذا، فقد أصبح نقد هذه الجريمة عندهم خطًا أحمر لا يحام حول حماه..! ولا يسـوغ المسـاس به، ومراجعتهم في هذا الأمر تثير حفائظهم في حين أنها لا تثور بانتقاد ما هو من مسـلمات الدين عندهم..! ولم يكن هذا أمرا نقل إليّ وإنما كانت لي تجربة خاصة معهم في هذا.

ففي فتـرة من الزمن غير بعيـدة وفد إلي جماعة من القسيسـين ومعهم تلاميذهم وتلميذاتهم، وعندما كنا نتجاذب أطراف الحديث تطرقت معهم إلى نقد بعض ما اشـتمل عليه الكتاب المقدس، وأوضحت لهم تناقضه في أهم قضية وهي طبيعة المسـيح عليه السلام التي هي من أهم ركائـز عقيدتهم، أو أهمّها على الإطلاق، فلم يحرك ذلك ساكنًا منهم بل سكتوا سكوت المُسلِّم، ولكن عندما تطرقت إلى نقد الزواج المثلي واعتراف الكنيسة به غلى مرجلهم ففاح غيظهم! وعارضوا هذا النقد بشـدة، حتى أني سـألتهم: أرأيتـم أن لو كان المسيح عليه السلام موجودًا بيننا أكان يقر هذا الأمر؟! فأجابوا بصوت واحد: نعم..! فرددت عليهم بأنكم بهذا تنزلون المسيح إلى دركة متدنية هي أسوأ من منازل الحيوانات العجم، فإنها تأنف هذا الأمر بفطرتهـا، وتأباه كل الإباء، فأصروا على موقفهم، وسألتهم: كيف كان موقف الكنيسـة قبل عشرة قرون من هذا الأمر؟ فقالوا: بأنهـا كانت تحكم حتى في القـرون القريبة على من وقع فيه بقتله إحراقًا بالنار، فسـألتهم: وكيف عدلتم عن ذلـك الموقف إلى موقف نقيض له؟ فأجابوا: بأن ذلك الموقف كان قاسيًا قسوة بالغة، وفيه تجن على الإنسانية ومصادرة لحرياتها.

وهكذا أصبح الديـن ألعوبة بحيث يتأثـر بموجات السياسـة المتقلبة، وتيارات الأهواء المختلفة، وأصبح يبيح ما كان من أشـد المحظورات، ولله الأمر من قبل ومن بعد.

ومهما يكن من قبل المحسوبين على الإسلام من تلاعب بالدين حسب الأهواء وتأثر بما كانت تفرزه السياسة الغاشمة الجائرة المستبدة من ظلم وفساد، كقصة أربعين شيخًا تقربوا إلى يزيد بن عبد الملك لترسيخ جوره واستبداده بشهادتهم وقسمهم بالله أن الخليفة مرفوع عنه القلم لا يحاسب على ما فعل وما قدمه وأخره، ولو كان منه ما كان، ولا يؤاخذ بشيء من ذلك[1]، فإنّ حقيقته تبقى واضحة ناصعة وديباجته نقية صافية ببقاء القرآن

---

(١) ينظر؛ ابن عساكر: **تاريخ مدينة دمشق**، ترجمة: يزيد بن عبد الملك بن مروان، (رقم الترجمة: ٨٣١٣)، ٣٠٤/٦٥، وابن منظور: **مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر**، ٣٨٠/٢٧، تحقيق: روحية النحاس، ومحمد مطيع الحافظ، دار الفكر ـ دمشق، ط١: ١٤١١هـ/١٩٩٠م، والذهبي؛ محمد بن أحمد: **سير أعلام النبلاء**، ترجمة: يزيد بن عبد الملك، (رقم الترجمة: ٨٠٣)، ٩٠/٥، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية ـ بيروت، ط١: ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م، وأيضًا؛ **تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام**، المجلد الثالث، الجزء الأول، (رقم الترجمة: ٢٨٤)، ١٨٢/٥، حققه وضبط نصه وعلق عليه: بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي ـ تونس، ط٢: ٢٠١١م، وكذلك؛ **المنتقى من منهاج الاعتدال في نقض كلام أهل الرفض والاعتزال**، ص٤٢٧، حققه: محب الدين الخطيب، الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة ـ الرياض، ط٣: ١٤١٣هـ/١٩٩٣م، واليافعي؛ أبو محمد عبد الله بن أسعد بن علي اليمني المكي: **مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان**، ١٧٨/١، وضع حواشيه: خليل المنصور، دار الكتب العلمية ـ بيروت، ط١: ١٤١٧هـ/١٩٩٧م، وابن كثير: **البداية والنهاية**، ٦١/١٠، والسيوطي؛ عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد الخضيري: **تاريخ الخلفاء**، ص٢٧٥، ضبط وتحقيق: رضوان جامع رضوان، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع ـ القاهرة، ط١: ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م، والدمشقي، ابن العماد؛ أبو الفلاح عبد الحي بن أحمد بن محمد العكري الحنبلي: **شذرات الذهب في أخبار من ذهب**، ٢٨/٢ ـ ٢٩، حققه وعلق عليه: محمود الأرنؤوط، دار ابن كثير ـ دمشق/بيروت، ط١: ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م، والمناوي: **فيض القدير شرح الجامع الصغير من أحاديث البشير النذير**، (رقم: ٦٢٨، ٤٥٥/١)، و(رقم: ٢١٩٠، ٥٣١/٢)، ضبطه وصححه: أحمد عبد السلام، دار الكتب العلمية ـ بيروت، ط: ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م، والحراني، ابن تيمية؛ أحمد بن تيمية: **منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة والقدرية**، ٢٢٩/٦ ـ ٢٣٠، خرج أحاديثه وعلق عليه وقدم له واعتنى به: محمد أيمن الشبراوي، دار الحديث ـ القاهرة، ط: ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م.

الكريم، وإمكان معرفة الصحيح الثابت من سنة النبي ﷺ، فالقرآن الكريم بحججه القاطعة يستأصل شأفة هذا الإفك، والسنة النبوية الصحيحة المتواترة تفضح هذه المهزلة كما بينت ذلك في غير هذا الموضع.

وفي الناس ـ بحمد الله تعالى ـ من فضح هذه المؤامرة وعرّى هذا الخزي بنصوص القرآن، والحديث الشريف الثابت، فسطعت حجة الحق، ودُمِغَت شبهة الباطل.

ومن ناحية أخرى فإنّ مراجع الإسلام لم تتبدل ولم تتحول، وأهم مرجع هو القرآن، ثم السنة النبوية، التي يتضح الثابت منها من الزائف الذي زور وأُلحق به ﷺ بالرجوع إلى القرآن الكريم، كما أرشد إلى ذلك النبي ﷺ في حديث ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «**إنكم ستختلفون من بعدي، فما جاءكم عني فاعرضوه على كتاب الله، فما وافقه فعني وما خالفه فليس عني**»[1].

وقد وعى الصحابة رضي الله عنهم هذا المنهج الصحيح في التمييز بين الثابت وغيره من أحاديث النبي ﷺ، فاعتمدوه وعولوا عليه، فلم يبالوا أن يردَّ بعضهم رواية بعض عندما يشمون مما رووا أي رائحة لمخالفة القرآن الكريم، مع ما كان منهم من توقير بعضهم لبعض وإيقانهم ببراءتهم من الكذب، وإنما ذلك لأن الإنسان عرضة للنسيان والوهم والخطأ واللبس، والقرآن هو الأصل الثابت بالقطع، ومع احتمال ما ذكرناه في الراوي لا وجه للعدول عما دلّ عليه القرآن والأخذ بالروايات الشاذة، وإن جلت منزلة رواتها.

---

(١) رواه الإمام الربيع بن حبيب في مسنده، **الجامع الصحيح**، باب (٦) في الأمة أمة محمد ﷺ، (رقم: ٤٠، ص ١٧).

ومن أمثلة ذلك ردّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه حديث فاطمة بنت قيس؛ أن النبي ﷺ لم يجعل لها نفقة ولا سكنى، إذ طلقت ثلاثًا، حيث قال: «ما كنا لندع كتاب ربنا وسنة نبينا لقول امرأة لا ندرى أحفظت أم لا»[1].

وردت عائشة رضي الله عنها رواية عمر وابنه عن النبي ﷺ أن الميت يعذب ببكاء أهله[2] عليه مستندة في ذلك على قوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام: ١٦٤].

---

(١) أخرج مسلم عن الأسود بن يزيد أنّ عمر بن الخطاب قال: «لا نترك كتاب الله وسنّة نبيّنا ﷺ لقول امرأة لا ندري لعلّها حفظت أو نسيت، لها السكنى والنّفقة، قال الله عز وجل: ﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ﴾؛ صحيح مسلم، كتاب (١٨) الطّلاق، باب (٦) المطلّقة البائن لا نفقة لها، (رقم: ١٤٨٠ [٣٧١٠]، ص ٩٣٢).
وأخرج أبو داود عن الأسود بن يزيد أن عمر قال: «ما كنا لندع كتاب ربّنا وسنّة نبيّنا ﷺ لقول امرأة لا ندري أحفظت ذلك أم لا»؛ سنن أبي داود، كتاب (١٣) الطلاق، باب (٣٨) من أنكر ذلك على فاطمة، (رقم: ٢٢٩١، ص ١٣٩٣).
وأخرج الترمذي عن إبراهيم النخعي أن عمر قال: «لا ندع كتاب الله وسنّة نبيّنا ﷺ لقول امرأة لا ندري أحفظت أم نسيت»؛ سنن الترمذي، كتاب (١١) الطّلاق واللّعان، باب (٥) ما جاء في المطلّقة ثلاثا لا سكنى لها ولا نفقة، (رقم: ١١٨٠، ص ١٧٦٨).
وأخرج أحمد عن فاطمة بنت قيس أن زوجها طلّقها ثلاثا فأتت النبي ﷺ تشكو إليه فلم يجعل لها سكنى ولا نفقة قال عمر بن الخطّاب: «لا ندع كتاب الله عز وجل وسنّة نبيّه ﷺ لقول امرأة لعلّها نسيت»؛ مسند أحمد، (رقم: ٢٧٢١٢، ١٨/٥١٣).

(٢) (ردها لحديث عمر) أخرجه عبد الرزاق؛ المصنف، كتاب (٧) الجنائز، باب (٨٣) الصبر والبكاء والنياحة، (رقم: ٦٧٠٤، ٣/٣٦٥ ـ ٣٦٦)، وأحمد؛ مسند أحمد، مسند عمر بن الخطاب، (رقم: ٢٨٨، ١/٢٨٧)، والبخاري؛ صحيح البخاري، كتاب (٢٣) الجنائز، باب (٣٢) قول النبي ﷺ يعذّب الميّت ببعض بكاء أهله عليه...، (رقم: ١٢٨٨، ص ١٠٠)، ومسلم؛ صحيح مسلم، كتاب (١١) الجنائز، باب (٩) الميّت يعذّب ببكاء أهله عليه، (رقم: ٩٢٩ [٢١٥٠]، ص ٨٢٤)، والنسائي؛ السنن الصغرى، كتاب (٢١) الجنائز، باب (١٥) النّياحة على الميّت، (رقم: ١٨٥٩، ص ٢٢١٠).
(ردها لحديث ابن عمر) رواه الربيع بن حبيب؛ الجامع الصحيح، كتاب الجنائز، باب (٢٠) في القبور، (رقم: ٤٨٣، ص ١٢٧)، وأحمد؛ مسند أحمد، مسند ابن عمر، (رقم: ٤٨٦٥، ٤/٤٢٨ ـ ٤٣٠)، والبخاري؛ صحيح البخاري، كتاب (٦٤) المغازي، باب (٨) قتل أبي جهل، =

وردّ ابن عباس حديث الحكم بن عمرو الغفاري أنّ النبي ﷺ نهى عن أكل لحوم الحمر الأهلية وتلا قول الله تعالى: ﴿ قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الأنعام: ١٤٥][1].

ولم يُعْرف من أحدٍ من الصحابة أنه خطأ هؤلاء في العمل بهذه القاعدة.

وبجانب هذا فإنّ النظر في الأسانيد والرجوع إلى ما قاله أهل الجرح والتعديل في حلقاتها يعزز النظر في المتون، هذا مع غربلة ما قاله أهل الجرح والتعديل؛ لتفادي ما كان من ذلك بتأثير الأهواء التي طغت على النفوس، فانعكست على ما دونوه.

وبالرجوع إلى هذين الأصلين العظيمين مع استلهام الحق مما مضى عليه السلف الصالح رضي الله عنهم، يتبين ما هو الصحيح وما هو الزائف مما نسب إلى الإسلام العظيم، وتتكشف الحقائق.

= (رقم: ٣٩٧٨، ص ٣٢٥)، ومسلم؛ صحيح مسلم، كتاب (١١) الجنائز، باب (٩) الميّت يعذّب ببكاء أهله عليه، (رقم: ٩٢٨، [٢١٥٠] ص ٨٢٣)، وأبو داود؛ سنن أبي داود، كتاب (٢٠) الجنائز، باب (٢٤) في النّوح، (رقم: ٣١٢٩، ص ١٤٥٩)، والترمذي؛ سنن الترمذي، (٨) أبواب الجنائز، باب (٢٥) ما جاء في الرّخصة في البكاء على الميّت، (رقم: ١٠٠٤، ص ١٧٤٧)، والنسائي؛ السنن الصغرى، كتاب (٢١) الجنائز، باب (١٥) النّياحة على الميّت، (رقم: ١٨٥٦ ـ ١٨٥٩، ص ٢٢١٠).

(١) أخرج البخاري عن عمرو بن دينار قال: قلت لجابر بن زيد: يزعمون أنّ رسول الله ﷺ نهى عن حمر الأهليّة فقال: قد كان يقول ذاك الحكم بن عمرو الغفاريّ عندنا بالبصرة ولكن أبى ذلك البحر ابن عبّاس وقرأ ﴿ قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا ﴾؛ صحيح البخاري، كتاب (٧٢) الذّبائح والصّيد، باب (٢٨) لحوم الحمر الإنسيّة، (رقم: ٥٥٢٩، ص ٤٧٦)، وأخرجه أبو داود بمعناه؛ سنن أبي داود، كتاب (٢٦) الأطعمة، باب (٣٣) في أكل لحوم الحمر الأهليّة، (رقم: ٣٨٠٨، ص ١٥٠٤)، وأحمد مثله؛ مسند أحمد، حديث الحكم بن عمرو الغفاري رضي الله عنه، (رقم: ١٧٧٨٨، ٥٣٠/١٣).

وقد وجد في كل عصر ـ بحمد الله تعالى ـ من ينادي بالرجوع إلى الحق، ولو كان ذلك على حساب رغبات السواد الأعظم من الناس، فالحق أحق أن يتبع، والباطل مردود على قائله.

وإنّ من أهم ما يتميز به الإسلام هذه السعة في التشريع والدقة في الأحكام والعمق في الحل، والعدل والإنصاف بين الناس جميعًا، وعدم إقامة أي وزن للعنصرية والعصبية، كما قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ﴾ [الحجرات: ١٣]، ولم يكن ما شرع فيه من العدل والإنصاف حكرًا على طائفة من الناس، وإنما شمل الجميع من بغيض وحبيب، وبعيد وقريب، فقد قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا ﴾ [النساء: ٥٨]، وقال سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلۡقِسۡطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ أَوِ ٱلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَۚ إِن يَكُنۡ غَنِيًّا أَوۡ فَقِيرٗا فَٱللَّهُ أَوۡلَىٰ بِهِمَاۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلۡهَوَىٰٓ أَن تَعۡدِلُواْۚ وَإِن تَلۡوُۥٓاْ أَوۡ تُعۡرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا ﴾ [النساء: ١٣٥]، وقال ﷻ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴾ [المائدة: ٨].

ولم يكن هذا تنظيرًا تحفل به دواوين العلم من غير أن يطبق في الحياة السياسية والاجتماعية في الإسلام، وإنما طبق تطبيقًا دقيقًا تحت رعاية الله ﷻ، وعلى يدي رسوله الأمين ﷺ، حتى مع ألد خصوم الإسلام بينه وبين من هو محسوب عليه، فقد وقع بعض المحسوبين على هذا الدين في ورطة، عندما سرق سرقة كادت تظهر، فأعانه لفيف من قرابته المتعصبين له على إخفائها، ودفعوا بتهمتها إلى يهودي، حيث رموا بالمسروق في بيته وأشاعوا أنه هو السارق، وما كاد يشيع هذا الخبر الآثم حتى فضح الله هذه

المؤامرة بآيات من كتابه تتلى في الصلوات وغيرها إلى أن تطوى صفحة هذا الوجود، إذ أنزل في ذلك قوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ۝ وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝ وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ۝ يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ۝ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ۝ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝ وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ۝ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ ۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١٠٥ ـ ١١٣].

فليت شعري؛ أي عدل أعظم من هذا العدل، وأي تطبيق له أدق من هذا التطبيق، ولذلك كان في العصور الذهبية للإسلام ينال كل ضعيف حقه من أي أحد، ولو كان هو غير مسلم رأسًا، وكان خصمه خليفة المسلمين الذي بيده ناصية الأمر، كما كان من الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه عندما نازل ذميًا ووقف بجنبه أمام العدالة التي يمثلها قاضي المسلمين، ولم تكن للخليفة بيّنة في دعواه، فكان الحكم لصالح الذمي.

وقد أعلن أول خليفة للمسلمين فور ما ولي الخلافة أنه سيقيم موازين القسط بين الناس جميعًا، رضي من رضي وكره من كره، ومن بينهم نفسه، إذ جعل الناس في حلٍّ من طاعته إن لم يطع الله ورسوله، فقد أخرج عبد الرزاق:

«عن معمر قال: وحدثني بعض أهل المدينة قال: خطبنا أبو بكر فقال: يا أيها الناس أني قد وليّت عليكم ولست بخيركم، فإن ضعفت فقوموني، وإن أحسنت فأعينوني، الصدق أمانة والكذب خيانة، الضعيف فيكم القوي عندي حتى أزيح عليه حقه إن شاء الله، والقوي فيكم الضعيف عندي حتى آخذ منه الحق إن شاء الله، لا يدع قوم الجهاد في سبيل الله إلا ضربهم الله بالفقر ولا ظهرت ـ أو قال شاعت ـ الفاحشة في قوم إلا عمهم البلاء، أطيعوني ما أطعت الله ورسوله فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم»[1].

أما دقته وشموليته وعمقه في حل مشكلات الحياة، فلا أدل عليها مما يجده كل من اطلع على الشريعة الإسلامية من تناولها جميع جوانب الحياة ـ السياسية والاجتماعية والأدبية والأخلاقية والاقتصادية وغيرها ـ تناولًا شاملًا دقيقًا عميقًا، يضع كل شيء موضعه، ويعطي كل أمر حكمه، ويبوئ كل دقيقة وجليلة مبوأها في نظام رتيب، لو اجتمعت العقول البشرية جميعًا منذ خلق الله البشر وإلى أن يفنوا جميعًا في عقل واحد لما كان بإمكانه أن يرقى إلى هذا القدر، ويصل إلى هذا العمق، وإنما هو تنزيل من حكيم حميد، أحاط بأحوال الناس جميعًا، وعلم ما يصلحهم وما يفسدهم، وما ينفعهم وما يضرهم، فلم يشرع لهم إلا الصالح النافع، كما جنبهم الفاسد الضار.

وقد تبين لك أيها القارئ الكريم مما ذكرته في آية البر كيف أتت على مشكلات الناس في الفكر والتصور، وفي الجوانب المالية والاجتماعية والأخلاقية، وهي آية واحدة من آيات هذا الكتاب التي تجاوزت ستة آلاف آية، وأنت ترى أنّ الذين يعدون أولي العقول الجبارة من الناس الذين ارتقوا في معارج الحضارة، وتعمقوا في الفلسفة، ودرسوا حياة الناس النفسية

---

(١) أخرجه عبد الرزاق؛ المصنف، كتاب (٣٣) الجامع، باب (٢٣٣) لا طاعة في معصية، (رقم: ٢٠٨٦٨، ٢٩٣/١٠).

والاجتماعية، وتخصصوا في مختلف الفنون من العلوم الإنسانية عجزوا جميعًا عن حل أي مشكلة من مشكلاتهم التي يرزحون تحت نيرها، ويكتوون بنارها، ناهيك بما عندهم من مشكلات الاجتماع والأخلاق حتى لم تبق صلة بين والد وولده، إذ تلاشى عندهم حنو الوالد على الولد وتوقير الولد للوالد، وبردت عندهم العواطف حتى جمدت، وتردت عندهم الأخلاق حتى هوت إلى حيث لا قرار، ولا تزال تتردى ناهيك بما ذكرته من أنّ أسوأ فاحشة وأقبح سوأة أصبحت من معالم حضارتهم، ويعدونها من أكبر المنجزات التي حققوها..!.

ولا تسأل عن انقطاع الصلة بين الخالق والمخلوق، حتى أصبح هذا المخلوق الضعيف ـ الذي لا يستغني عن أي شيء من نعم خالقه، ولو في جزء من تريليون جزء من اللحظة الواحدة ـ يرفع عقيرته مفاخرًا بإنكار الخالق والتحرر من قيود الدين.

أما الجانب الاقتصادي فهو كما ذكرته؛ يتقلبون فيه بين جهنم والحطمة، إذ لم يستطيعوا أن يوائموا بين حرية الفرد في التملك، وحقوق المجتمع فيما يملك، فإن رجحوا جانب المجتمع سلبوا الفرد حريته في التملك كما هو في المذاهب الاشتراكية، وإن التفتوا إلى الفرد وحقه نسوا المجتمع فلم يضعوا للفرد قيدًا يحجزه عن حرمان المجتمع حقوقه.

وقد أدْرَكتَ ما عانى الناس من كلا المذهبين، وما لفحهم من كلتا النارين، والإسلام بريء مما يعاب على المذهبين كليهما، فهو لم يمنع الفرد من حرية التملك، ولكنه قيد هذه الحرية بقيود من الأخلاق؛ تجعل كل فرد لا يحمل هموم نفسه فحسب، ولا تمنعه شهوة المال عن التفكير في مصالح مجتمعه وأمته وجنسه البشري جميعًا، وإنما يحمل همومهم مع هم نفسه، فيحيا في سباق إلى الخير مع بني جنسه جميعًا، يتنافسون في الإحسان، ويتبارون في نفع العباد بما آتاهم من الخير.

وبهذا؛ لا يشعر الفرد أنه ممنوع من حق فطري يتمتع به كل حي مما خلق الله حتى النملة، فإنها تسعى إلى رزقها، وتكون أحق بما أحرزت من غيرها، ومع ذلك يتحرر من روح الأثرة والاستبداد، فيعطي الحق من ماله لذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين من غير أن يشعر بمنة عليهم، لأنه يؤدي الحق الذي فرضه الله في ماله الذي آتاه.

وبهذا يصبح الإنسان في حياته الدنيا عبدًا خالصا لله تعالى، وسيدًا كريمًا بين مخلوقاته، لا تستعبده الأهواء والنزعات، ولا تسخره المادة، بل هو الذي يسخرها ليرقى بها في طبقات الخير.

وإنّ من مزايا هذا الدين الحنيف أنه يبني علاقات الإنسان بجميع الفئات من البشر، مراعيًا في ذلك الخصائص الفطرية في نفس الإنسان، فيبدأ بعلاقته بذوي قرباه وفي مقدمتهم جميعًا والداه، اللذان هما أصله وهو فرع منهما، فلهذا تكررت وصية القرآن بهما حتى لا يشغل الإنسان عنهما ما هو مقبل عليه من مستقبل حياته المتمثل فيما ينشأ عنه من ذريته؛ التي طبع على الحنو والعطف والشفقة عليها، والحرص على مصالحها، بل عليه أن يلتفت دائمًا إلى ماضيه فيراعي أصله الذي انفصل عنه، وكم ذكر القرآن الكريم الإنسان بهذا الحق العظيم الذي ينوء به، ويبوء بالسؤال عنه يوم القيامة، كما في قوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ [الإسراء: ٢٣]، وقوله: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ۝ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [لقمان: ١٤ ـ ١٥]، وقوله: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ

أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِيٓ إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ۝ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِيٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِي كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴾ [الأحقاف: ١٥ ـ ١٦].

ومن سعة الإسلام وسعة رعايته لهذا الحق لم يحرم منه حتى المشركين، الذين اتخذوا مع الله آلهة أخرى، فإنّ شـرك الوالدين لا يحرمهما من حق بر ولدهما بهما، وحسن معاملته لهما، مع التمسك بدين الله تعالى الحق، وعدم التفريط في شـيء منه ولو دعياه إلى خلافه، فإنّ طاعة الله تعالى مقدمة على طاعتهما كما نصت عليه آية لقمان.

وبعد الوالديـن تتوالى حقوق ذوي القربى فـي مقدمتها حقوق الأولاد، الذين هم قرة العين وثمرة الفؤاد، ومسرة القلب وزينة الحياة، فعلى الوالدين كليهما أن يبرا بأولادهما ليبروا بهما، وأول هذا البر تربيتهم على الإيمان بالله واتقائه وخوفه تعالى ورجائه، وإيثار مرضاته على كل شيء، وإخلاص العبادة والعبودية له، وهو مما يندرج في قول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [التحريم: ٦]، فإنّ على الإنسان أن يقي نفسه وأهله سخط الله تعالى وعذابه، وأولاده فـي مقدمة أهليه، كيف؛ وهم بضعـة منه، وحياتهم امتداد لحياته.

ومما ذكره الله مما يتصف به عباد الرحمن، الذين وعدهم حسن جزائه وكرم مثوبته ما جاء في قولـه: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾ [الفرقان: ٧٤]، وحكى الله تعالى عن إبراهيم عليه السلام أنه قال: ﴿ رَبِّ ٱجْعَلْنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴾ [إبراهيم: ٤٠]،

وحكى عنه وعن إسماعيل عليهما السلام أنهما قالا في دعائهما عندما كان يرفعان قواعد البيت العتيق: ﴿ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ۝ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [البقرة: ١٢٨ ـ ١٢٩]، وهذا يعني أن الوالدين ليسا مطالبين بأن تشمل رعايتهما ذريتهما الحاضرة القريبة، وإنما تمتد عاطفة والديتهما فتشمل الذرية البعيدة التي قد تكون بعد قرون، وذلك بحسن الدعاء والتضرع إلى الله سبحانه بأن يجعلها ذرية صالحة، تؤمن بالله، وتحافظ على حسن عبادته، واتقاء سخطه فيما تأتي أو تذر، والاضطلاع بجميع واجبات الدين.

ومن بر الوالدين بالأولاد العدالة بينهم، بحيث يمنع إيثار بعضهم على بعض بالعطايا أو الرعاية، فعن النعمان بن بشير، أن أباه أتى به إلى رسول الله ﷺ فقال: إني نحلت ابني هذا غلامًا، فقال: «**أكل ولدك نحلت مثله؟**»، قال: لا، قال: «**فارجعه**»[1].

وقد وكل القرآن الكريم إلى فطرة الوالدين الحانية الرؤم قيامهما بحقوق أولادهما في أمر تغذيتهما وما تستوجبه تربيتهما من النفقة والبذل، لأن الإنسان مطبوع على هذه الرعاية بفطرته، بل الحيوانات العجماء كلها ترعى أولادها بفطرتها، فتجد الأم تحرص دائمًا على إيثار صغارها بقوتها، ولكنه عرج على ما يجب على الوالدين من حسن التعاون والتفاهم في حضانة

---

(١) رواه البخاري؛ صحيح البخاري، كتاب (٥١) الهبة، باب (١٢) الهبة للولد، (رقم: ٢٥٨٦، ص٢٠٤)، ومسلم؛ صحيح مسلم، كتاب (٢٤) الهبات، باب (٣) كراهة تفضيل بعض الأولاد في الهبة، (رقم: ١٦٢٣ [٤١٧٧]، ص٩٦٠)، وهو في مسند الربيع من رواية جابر بن زيد قال: بلغني أنّ رجلًا يسمى بشيرًا أتى بابنه النعمان إلى رسول الله ﷺ فقال: ... إلخ؛ الجامع الصحيح، كتاب الأحكام، باب (٣٥)، (رقم: ٥٩٥، ص١٥٣).

أولادهما وإرضاعهم، فقد قال تعالى: ﴿ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ۚ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ ۚ وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ ۗ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ۗ وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [البقرة: ٢٣٣]، وقال سبحانه: ﴿ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۖ وَأْتَمِرُوا۟ بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ ۖ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ ۝ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ ۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ۚ سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴾ [الطلاق: ٦ ـ ٧]، ومع ذلك فإنّ السنة النبوية تكفلت بتفصيل ما أجمله القرآن كما في قوله ﷺ: «**أفضل الصدقة ما كان عن ظهر غنى، واليد العليا خير من اليد السفلى، وابدأ بمن تعول، تقول المرأة: إما أن تطعمني وإما أن تطلقني، ويقول العبد: أطعمني واستعملني، ويقول الابن: أطعمني إلى من تدعني؟**»[1].

ثم تأتي حقوق ذوي القربى تباعًا، بحسب مراتبهم في النسب، وصلتهم واجبة فيما بينهم، وقطعها يترتب عليه الفساد في الأرض، وتعقبها لعنة الله تعالى الماحقة لكل خير، كما قال تعالى: ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ ۝ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴾ [محمد: ٢٢ ـ ٢٣]، وقد أكدت هذا الحق نصوص في القرآن، وأحاديث عن النبي ﷺ.

وإذا كانت هذه الحقوق تترتب على العلاقات النسبية بين الأصول والفروع أو بين أطراف الفروع فيما بينها، أو بين سائر الأطراف الممتدة من

---

(١) رواه البخاري؛ صحيح البخاري، كتاب (٦٩) النفقات، باب (٢) وجوب النفقة على الأهل والعيال، (رقم: ٥٣٥٥، ص٤٦٢)، وابن حبان؛ صحيح ابن حبان، كتاب (١١) الزكاة، باب (٩) صدقة التطوع، (رقم: ٣٣٦٣، ١٤٩/٨)، والبيهقي؛ السنن الكبرى، كتاب النفقات، باب (٥) الرَّجُلِ لَا يَجِدُ نَفَقَةَ امْرَأَتِهِ، (رقم: ١٥٧١٠، ٧٧٤/٧).

الأصول ولو تباعدت، فإنّ ثم حقوقًا تجب بالسببية ولو لم تعزز من جهة النسب، وهي الحقوق الزوجية، فإنّ الزوجين كيف ما كانا في قربهما النسبي أو بعدهما يصبحان بثبوت هذه العلاقة بينهما يشكلان كيانًا واحدًا، كل واحد منهما عضو فيه وركن في بنائه، كما يوحي به قوله تعالى: ﴿ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ﴾ [النساء: ٢١]، إذ لم يقل تعالى «وقد أفضيتم إليهن» حتى يعلم الناس أنّ الزوجين ينصهران في هذه العلاقة، فتكون بها هويتهما واحدة، لأنها علاقة تداخل واندماج.

وقد أكد الله تعالى ما على الرجل من حق مقدس في علاقته بزوجه عندما قال: ﴿ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴾ [النساء: ٢١]، وبيّن سبحانه أنّ الحقوق ما بينهما مشتركة بحيث يجب لكل منهما على الآخر مثل ما له عليه، وقد نص على هذا في قوله: ﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ﴾ [البقرة: ٢٢٨]، ودرجة الرجال إنما هي درجة القوامة التي تقتضيها الفطرة ويستوجبها الانسجام بينهما، بحسب ما أودع الله تعالى في كل منهما من خصائص تميزه عن الآخر، ولو بلغا ما بلغا في الوئام والانسجام والوحدة التي تجعل حقيقتهما واحدة، كل منهما يمثل جانبًا منها.

وبما أنّ جانب الرجل هو الجانب الأقوى ـ بحسب ما جعل الله له من خصائص في تكوينه النفسي والجسمي، وما جعل له من حق تشريعي في القوامة نص عليه قوله تعالى: ﴿ ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ ﴾ [النساء: ٣٤] ـ كان التأكيد في القرآن عليه أبلغ في حسن رعايتها، والإحسان إليها، وتحمل ما عسى أن يكرهه منها، كما هو واضح في قوله تعالى: ﴿ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ [النساء: ١٩].

وبهذا تدرك أنّ العلاقة الزوجية ليست مجرد علاقة استمتاع من الزوجين بعضهما ببعض فحسب، وإنما هي علاقة ود ورحمة وانسجام ووئام، وهي علاقة إنسانية ذات جذور في الحياة الاجتماعية، وقد جعل الله من ثمارها الذرية التي يتحقق بها الانتساب، وتمتد بها الحياة، وتعمر بها الأرض، وقد امتن بهذا كله في قوله: ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً ﴾ [النحل: ٧٢]، وكذلك قوله: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الروم: ٢١].

وقد جعل سبحانه كل واحد من الزوجين للآخر سكنًا، لأن النفس تستقر وتهنأ الحياة بالزواج، وتغمرها السكينة، وتفيض مشاعرها بالرحمة، وهذه من كبريات نعم الله تعالى على الخلق.

ثم بجانب ذلك تتشعب الحقوق التي تكون بين الناس بما يكون بينهم من تلاق واشتراك في المصالح، وارتباط في الصلات، كحقوق الجيران التي نص عليها القرآن وأكدتها السنة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام، وحقوق اليتامى والفقراء والمساكين وحقوق ابن السبيل، ثم حق المسلم على المسلم بما يجمع بينهما من آصرة الإيمان ورابطة الدين، وقد مثل ذلك النبي ﷺ بالبنيان يشد بعضه بعضًا، كما في قوله: «**المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا**»[1]،

---

(١) رواه البخاري؛ صحيح البخاري، كتاب (٤٦) المظالم، باب (٥) نصرة المظلوم، (رقم: ٢٤٤٦، ص١٩٢)، ومسلم؛ صحيح مسلم، كتاب (٤٥) البر، باب (١٧) تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم، (رقم: ٢٥٨٥ [٦٥٨٥]، ص١١٣٠)، والترمذي؛ سنن الترمذي، (٢٥) أبواب البر والصلة، باب (١٨) ما جاء في شفقة المسلم على المسلم، (رقم: ١٩٢٨، ص١٨٤٦) وقال: «حسن صحيح»، والنسائي؛ السنن الصغرى، كتاب (٢٣) الزكاة، باب (٦٧) أجر الخازن إذا تصدق بإذن مولاه، (رقم: ٢٥٦١، ص٢٢٥٣)، وابن حبان؛ صحيح ابن حبان، كتاب (٥) الإيمان، باب (٥) صفات المؤمنين، (رقم: ٢٣١، ١/٤٦٧ ـ ٤٦٨).

وصور ما ينبجس من نفس المؤمن تجاه أخيه المؤمن من مشاعر تغمر قلبيهما، وأحاسيس تملأ وجدانهما بقوله: «**ترى المؤمنين في تراحمهم وتوادهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى عضو تداعى له سائر جسده بالسهر والحمى**»(١).

وفرض الإسلام على المسلم أن يرعى حقوق الجنس البشري جميعًا، وما دعوة غير المؤمنين إلى الإيمان، وتعريفهم به، وإقامة حجته عليهم إلا من هذه الحقوق، لأجل إنقاذهم من الهلكة، لذلك كان النبي ﷺ بالغ الرأفة بالناس، يخشى عليهم عاقبة الكفر، فيحرص على إنقاذهم من النار، حتى أنه كان يحمل من الهموم في ذلك ما كاد يبخعه، فعوتب من قبل الله تعالى عتابًا لطيفًا رأفة به في قوله: ﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴾ [الكهف: ٦]، وقوله: ﴿ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء: ٣]، وقد صور النبي ﷺ حاله وحال الناس في ذلك بقوله: «**مثلي ومثلكم كمثل رجل أوقد نارًا فجعل الفراش والجنادب يقعن فيها وهو يذبهن عنها، وأنا آخذ بحجزكم عن النار، وأنتم تفلتون من يدي**»(٢).

= وأخرجه أيضًا: ابن المبارك؛ **الزهد والرقائق**، بَابُ فَخْرِ الْأَرْضِ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ، (رقم: ٣٣٤، ص٣٢٥)، والطيالسي؛ **مسند أبي داود الطيالسي**، (رقم: ٥٠٣، ص٦٨)، والحميدي؛ **مسند الحميدي**، (رقم: ٧٧٢، ٣٤٠/٢)، وابن أبي شيبة؛ **مصنف ابن أبي شيبة**، كتاب (٢٣) الإيمان والرؤيا، باب (٥)، (رقم: ٣٠٣٣٩، ١٦٣/٦)، وعبد بن حميد؛ **مسند عبد بن حميد**، (رقم: ٥٥٦، ص١٩٦)، والبزار؛ **البحر الزخار**، (رقم: ٣١٨٢، ١٦٠/٨)، وأبو يعلى؛ **مسند أبي يعلى**، (رقم: ٧٢٩٥، ٢٧٩/١٣)، والروياني؛ **مسند الروياني**، (رقم: ٤٤٥، ٣٠١/١)، والقضاعي؛ **مسند الشهاب**، (رقم: ١٣٤، ١١٢/١)، والبيهقي؛ **السنن الكبرى**، كتاب الغصب، باب (٢) نَصْرِ الْمَظْلُومِ وَالْأَخْذِ عَلَى يَدِ الظَّالِمِ عِنْدَ الْإِمْكَانِ، (رقم: ١١٥١١، ١٥٦/٦ ـ ١٥٧)، والديلمي؛ **فردوس الأخبار**، (رقم: ٦٨٤٦، ٤٦٧/٤).

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه الطيالسي؛ **مسند أبي داود الطيالسي**، (رقم: ١٧٨٤، ص٢٤٦ ـ ٢٤٧)، وأحمد؛ **مسند أحمد**، (رقم: ١٥١٥١، ٩٩/١٢)، ومسلم؛ **صحيح مسلم**، كتاب (٤٣) الفضائل، باب (٦) شفقته ﷺ على أمته، (رقم: ٢٢٨٥ [٥٩٥٨]، ص١٠٨٣).

وقد شرع الإسلام الرفق في كل شـــيء حتى في القتل والذبح، كما نص على ذلك قوله ﷺ: «**إنّ الله كتب الإحسان على كل شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبح، وليحد أحدكم شـفرته وليرح ذبيحته**»[1]، وفي هذا ما يدل على أنّ الإسلام يرعى حقوق جميع مخلوقات الله تعالى في هذا الجانب، فكم نجد في الإســلام مــن الدعوة إلى الإحســان إلى البهائم العجم، كما في قوله ﷺ: «**دخلت امرأة النار في هرة ربطتها فلم تطعمها ولم تدعها تأكل من خشــاش الأرض حتى ماتت**»[2]. وقوله: «**بينما رجل يمشــى**

---

(١) أخرجه الطيالسي؛ **مسند أبي داود الطيالسي**، (رقم: ١١١٩، ص١٥٢)، وابن أبي شيبة؛ **مصنف ابن أبي شيبة**، كتاب (٢٠) الديات، باب (١٩٨) المثلة في القتل، (رقم: ٢٧٩٢٢، ٤٥٤/٥)، وأحمد؛ **مسند أحمد**، (رقم: ١٧٠٥٢، ٢٦٩/١٣)، والدارمي؛ **سنن الدارمي**، كتاب (٦) الأضاحي، باب (١٠) في حسن الذبيحة، (رقم: ١٩٧٠، ٧٠/٢)، ومسلم؛ **صحيح مسلم**، كتاب (٣٤) الصيد، باب (١١) الأمر بإحسان الذبح والقتل، (رقم: ١٩٥٥ [٥٠٥٥]، ص١٠٢٧)، وأبو داود؛ **سنن أبي داود**، كتاب (١٦) الضحايا، باب (١٠) في النهي أن تصبر البهائم والرفق، (رقم: ٢٨١٤، ص١٤٣٣)، والترمذي؛ **سنن الترمذي**، (١٤) أبواب الديات، باب (١٤) ما جاء في النهي عن المثلة، (رقم: ١٤٠٩، ص١٧٩٤) وقال: «حسن صحيح»، والبيهقي في شعب الإيمان؛ **الجامع لشعب الإيمان**، الشعبة (٧٥) من شعب الإيمان وهو باب في رحم الصغير وتوقير الكبير، (رقم: ١٠٥٦٠، ٤١٢/١٥ ـ ٤١٣).
وأخرجه أيضًا: ابن ماجه؛ **سنن ابن ماجه**، (٢٧) أبواب الذبائح، باب (٣) إذا ذبحتم فأحسنوا الذبح، (رقم: ٣١٧٠، ص٢٦٦٩)، والبزار؛ **البحر الزخار**، (رقم: ٣٤٦٨، ٣٩٤/٨)، والنسائي؛ **السنن الصغرى**، كتاب (٤٣) الضحايا، باب (٢٢) الأمر بإحداد الشفرة، (رقم: ٤٤٠٥، ص٢٣٧٥)، والطبراني؛ **المعجم الكبير**، (٦٨٧) شداد بن أوس الأنصاري، (رقم: ٧١١٤، مج (٤) ٢٢٩/٧)، والديلمي؛ **فردوس الأخبار**، (رقم: ٦٢٢، ٢٠٩/١).

(٢) أخرجه عبد بن حميد؛ **مسند عبد بن حميد**، (رقم: ٧٨٩، ص٢٥٢)، وأحمد؛ **مسند أحمد**، (رقم: ٧٦٣٥، ٣٧٩/٧)، والبخاري؛ **صحيح البخاري**، كتاب (٥٩) بدء الخلق، باب (١٦) خَمْسٌ مِنَ الدَّوَابِّ فَوَاسِقُ يُقْتَلْنَ في الْحَرَمِ، (رقم: ٣٣١٨، ص٢٦٧)، ومسلم؛ **صحيح مسلم**، كتاب (٤٥) البر، باب (٣٧) تحريم تعذيب الهرة ونحوها، (رقم: ٢٦١٩ [٦٦٧٩]، ص١١٣٥)، وابن ماجه؛ **سنن ابن ماجه**، (٣٧) أبواب الزهد، باب (٣٠) ذكر التوبة، (رقم: ٤٢٥٦، ص٢٧٣٥)، وأخرجه أيضًا: ابن حبان؛ **صحيح ابن حبان**، كتاب (٤٤) الحظر والإباحة، فصل (٣) فيما يتعلق بالدواب، (رقم: ٥٦٢١، ٤٣٨/١٢ ـ ٤٣٩).

وهو بطريق؛ إذ اشتد عليه العطش، فوجد بئرًا، فنزل فيها فشرب ثم خرج، فإذا كلب يلهث يأكل الثرى من العطش، فقال: لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي بلغني، فنزل البئر فملأ خفه ماء ثم أمسكه بفيه حتى رقى به، فسقى الكلب، فشكر الله له فغفر له» قالوا: يا رسول الله وإن لنا في البهائم لأجرًا، فقال رسول الله ﷺ: «في كل ذات كبد رطبة أجر، مالك؟»[1].

وبالجملة؛ فإنّ الإسلام بلطفه الغامر ورحمته الواسعة وإحسانه الفياض يملأ الوجود كله، ويغدودق على الكائنات بأسرها، وقد ربط الله تعالى بين حقوقه وحقوق خلقه، فكما فرض على عباده حسن عبادته فرض فيما بينهم الإحسان، وأوجب حسن التعامل بينهم، وكفى بهذه الآيات التي تأتي شفاء للنفوس وتقويمًا لاعوجاجها وإصلاحًا لأحوالها، وهي قوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ۝ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ۝ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُوا۟ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ۝ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ

---

(١) أخرجه مالك؛ الموطأ، كتاب (٤٩) صفة النبي ﷺ، باب (١٠) جامع ما جاء في الطعام والشراب، (رقم: ١٧٧٥، ص٣٩٧)، ومن طريق أبي هريرة أخرجه أحمد؛ مسند أحمد، (رقم: ٨٨٦٠، ٣٢/٩)، و(رقم: ١٠٦٤٧، ٥٤٢/٩ ـ ٥٤٣)، والبخاري؛ صحيح البخاري، كتاب (٤٢) المساقاة، باب (٩) فضل سقي الماء، (رقم: ٢٣٦٣، ص١٨٥)، وكتاب (٤٦) المظالم، باب (٢٣) الآبار التي على الطرق إذا لم يتأذ بها، (رقم: ٢٤٦٦، ص١٩٤)، وكتاب (٧٨) الأدب، باب (٢٧) رحمة الناس والبهائم، (رقم: ٦٠٠٩، ص٥٠٩)، وأيضًا؛ الأدب المفرد، باب (١٧٦) رحمة البهائم، (رقم: ٣٧٨، ص١٤١ ـ ١٤٢)، ومسلم في صحيحه من طريق قتيبة بن سعيد عن مالك به بتمامه؛ صحيح مسلم، كتاب (٣٩) السلام، باب (٤١) فضل ساقي البهائم المحترمة وإطعامها، (رقم: ٢٢٤٤ [٥٨٥٩]، ص١٠٧٦)، وأخرجه البغوي في شرح السنة من طريق أحمد بن أبي بكر، بهذا الإسناد؛ شرح السنة، كتاب الصلاة، باب صلاة العشاء والفجر جماعة، (رقم: ٣٨٤، ٢٢٩/٢).

ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ۝ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ۝ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ۝ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ۝ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ۝ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ۝ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ۝ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ۝ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۚ وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ۝ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ۝ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ۝ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ۝ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ۝ ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ ۗ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴾ [الإسراء: ٢٣ ـ ٣٩].

فكم تجد في بيانها العذب وتوجيهها الراشد وإصلاحها للفاسد من أحوال الناس، ما لو طبق في الأرض اليوم لغمرت الناس جميعًا السكينة والطمأنينة، وتوطدت بينهم العلاقات، وحسنت بينهم الصلات، وانحلت بينهم المشكلات، سواء ما كان يعود إلى الفكر والاعتقاد، أو إلى السلوك والأخلاق، أو إلى روابطهم الاجتماعية أو معاملاتهم التجارية، وأين هذا كله مما تفرزه الفلسفة المادية من انقطاع صلة الإنسان بخالقه، وتقطع العلائق بين الناس، حتى بين الوالد وولده، والزوج وزوجه، والجار وجاره، فضلًا عما يكون من عدم الالتفات من قبل الأغنياء والأقوياء إلى الفقراء والضعفاء؟.

هذا؛ وإنّ المزية العظمى لهذا الدين الحنيف أن يقوم فكره ومنهجه على دعائم العلم والعقل، وأن تكون حججه وبراهينه منبثقة من أصولهما، ولذلك

يدعو إلى النظر في خلق الإنسان وخلق الكائنات بأسرها، فالكون بكل ما اشتمل عليه هو ـ بحسب معايير الإسلام ـ مسرح لنظر الإنسان وتدبره، بل هو كتاب مفتوح يقرأ فيه الإنسان آيات الله تعالى العظمى، ويستدل بكل حرف منه على وجود الله تعالى واتصاله بالكمالات، وتنزهه عن النقائص، ناهيك أن الله ﷻ عندما أثبت أقدس حقيقة وأثقلها في الموازين، وأعظمها في العقول، وهي وحدانيته، عزز ذلك بآياته في الكون، فقد قال تعالى: ﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴾ [البقرة: ١٦٣]، ثم أتبعه بيانًا أنّ هذه الوحدانية تتجلى في آياته الكونية، فحيثما رمى الإنسان ببصره يشاهد آيات الله تعالى الدالة على أنه إله واحد، ذلك لأن الكون مع سعته التي اشتملت على الدقائق والجلائل، والظواهر والخفايا، كل جزء منه مرتبط ببقية الأجزاء، ومكمل له، فمن الذرات الدقيقة ـ وأجزائها التي تعجز الحواس عن تصورها وتصويرها ـ إلى المجرات الواسعة وما وراء المجرات، تترابط هذه الكائنات بأسرها برباط الوحدة الطبيعية، فالكون جميعًا وحدة متكاملة كل شيء منه يكمل ما عداه، فيستحيل مع ذلك أن تكون نشأته من أكثر من مُكَوِّن، إذ لو كان كذلك لكانت لكل منهم إرادة مستقلة تزاحم إرادة غيره، ومع تعدد الإرادات يقع الخلاف في المراد، وهذا ما يؤدي إلى فساد الكون وعدم انتظامه، ولكننا نشاهده منظومة متكاملة، فهو يدل قطعًا على وحدانية مكونه، وانفراده بالخلق والأمر، فمنه وجد هذا الكون وبيده وحده تدبيره، وهذا ما أثبته قوله تعالى على أثر إثباته وحدانيته: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة: ١٦٤]، وفي هذا كله آيات لقوم يعقلون، لأنهم يشاهدون في ذلك وحدانية الخالق العظيم.

وكم عززت هـذا آيات بينـات كقوله تعالـى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢]، وقوله: ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ۝ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ۝ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝ أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [النمـل: ٥٩ ـ ٦٤]، فإنّ هذا كله يدل على الانتظام العجيب الناشـيء عن الوئام والانسـجام بين جميع الموجودات وتحركاتها من مكونات الذرات مـن النيوترونات والإلكترونات وغيرها، مع مراعاة اختلاف عناصرها إلى أوسع ما يمكن أن يتصوره العقل، وينتهي إليه الفكر.

وكم دعا القرآن إلى الغوص في أعماق أسرار الخلق، واستجلاء الحقائق منها واسـتلهام النتائج العظمى من هذا الغوص إلى غير حد، كما في قوله تعالـى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْىدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ۝ وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ ۝ وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات: ٤٧ ـ ٤٩]، وقوله: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ۝ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢٠ ـ ٢١]، وقوله: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ۝ مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۝ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ۝ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ۝ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ۝ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ۝ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ ۝ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ۝ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ۝ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ۝ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ۝ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ۝ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ۝ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ۝ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ۝ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾ [عبس: ١٧ ـ ٣٢]، وقوله: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ

خُلِقَتْ ۝ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ۝ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ۝ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴾ [الغاشية: ١٧ ـ ٢٠].

فالإسلام لا يدعو إلى إغلاق النظر وإطفاء جذوة الفكر، بل يدعو إلى إشعاعها، وملء النظر بآيات الله المتجلية في حقائق الوجود، وإذا كان من أهل الأديان من يدعو إلى إغماض العين وسد الأذن وتغليف العقل، ليبقى الإنسان مسلمًا لحقائق الدين التي لا يجد لها تفسيرًا، فإنّ الإسلام بخلاف ذلك، يقوي حجته، ويُشِعُّ نوره بالنظر في آيات الله التي تدعم الإيمان بحقائقه، وبهذا يتبين بأنّ ما اختلق من خصومة بين العلم والدين لا يمكن أن ينطبق بحال على الإسلام.

وقد أدرك عمالقة رادة الفكر الحديث في الغرب أن العلم والدين الصحيح لا بد من انسجامهما، وتعاونهما على دفع الخرافات، ورفع اللبس عن العقول، فنجد الفيلسوف الحكيم هكسلي ينادي بضرورة الانسجام بين العلم والدين عندما يقول: «الدين والعلم كتوأمين متلاصقين فصلهما يؤدي إلى موتهما. فإنّ العلم ينمو متى كان دينيًا، والدين يثبت متى كان علميًا»[1].

وممن جرى في هذا المجرى الفيلسوف الألماني الكبير **ماكس بلانك** الفيزيائي الذي هزَّ الأوساط العلمية كلها عندما أعلن عن طاقة الموجات الضوئية أنها تقفز بصورة غير متصلة، وأنها مكونة من أكمام ـ جمع كم ـ حيث صدمت هذه النظرية الاعتقاد السائد في ذلك الوقت. وقد وضعت نظريته قواعد نظريات الكم التي أدت إلى ثورة في الفيزياء، جعلت العلماء يقتربون كثيرًا من فهم أعمق لطبيعة المادة والإشعاع، وقد استعان **أينشتاين**

---

(١) محمد رشيد: مجلة المنار، (العدد الصادر يوم الإثنين ١٦ شعبان ١٣٢٠هـ والموافق ١٧ نوفمبر ١٩٠٢م)، (مج ٦٢٢/٥).

في سنة ١٩٠٥م بهذه النظرية في شـــرح أجزاء من نظرية النسبية، واستعان بها نيلس بوهر في سنة ١٩١٣م في تفسير بناء النواة للذرة[١].

فقد قال في اجتماع العلم والدين: «إنّ الدين والعلوم الطبيعية يقاتلان معًا في معركة مشـــتركة ضد الشـــك والجحـــود والإلحـــاد والكفر الذي لا يستسلم»[٢].

وقال أيضًا: «اعتبر أنه من إحسان الســـماء لي بأني منذ طفولتي زرع في الإيمان، إيمان بالله القدير والنافع، ولن يتزعزع إيماني لأي شيء»[٣].

وقال أيضًا: «لا يوجد أي تعـــارض حقيقي بين الدين والعلم، فكل منهما يكمل الآخر، يدرك كل شـــخص جاد ومتأمل ـ كما أظن ـ أنّ العنصر الديني في الطبيعة يجب أن يميز ويغرس إذا كانت كافة قوى روح الإنسان معًا بتوازن وتجانس تامين»[٤].

وقال **آرثرشاولو**: «إنّ مقام الدين أساس واسع لممارسة العلم، وفي عبارة المزمور ١٩: (السماوات تحدث بمجد الله، والفلك يخبر بعمل يديه) ولذلك فالبحث العلمي فعل مفعم بالعبادة، حيث إنه يكشف أكثر فأكثر عن عجائب خلق الله»[٥].

---

(١) ينظر؛ الطائي؛ محمد باسل: **أوهام الإلحاد العلمي**، ص٣٦ ـ ٤١، مركز دلائل ـ الرياض، ط١: ١٤٣٨هـ/٢٠١٧م.

(٢) نخبة من العلماء الأمريكيين: **الله يتجلى فـــي عصر العلم**، وجود الله حقيقة مطلقة، ص١٦٨، ترجمه: الدمرداش عبد المجيد سرحان، راجعه وعلق عليه: محمد جمال الدين الفندي، دار القلم ـ بيروت.

(٣) ليدنر؛ جوردون: **الإيمـــان بالخالق والعلم، اقتباســـات موثقة لمشـــاهير العلماء في العصر الحديث**، ص٣٥، ترجمة ونشر: مركز دلائل ـ الرياض، ط١: ١٤٣٨هـ/٢٠١٧م.

(٤) المرجع السابق، ص٥٤ ـ ٥٥.

(٥) المرجع السابق، ص٣٦.

ويقول **فرانسيس كولينز**: «أجد من الصعوبة تخيل صراع بين الحقيقة العلمية والحقيقة الروحية، فالحقيقة هي الحقيقة»[١].

ويقول **روبرت أ. ناومان**: «لا أرى أنّ العلم والدين يتعارضان، وكل منهما ينبع من أفعال الإيمان، وأوافق بشدة على أن الأسئلة الحالية تبدأ من علم الكون، والجسيمات الفيزيائية الأولية، وأنّ علم الجراثيم له محتوى غيبي أو ديني واضح»[٢].

ويقول **جون ج فليبس**: «لا أرى أي تعارض بين العلم والدين، فكلاهما يسألان أسئلة مختلفة فالعلم يسأل: كيف؟ والدين يسأل: لماذا؟»[٣].

ويقول **تشالز هـ. تاونز**: «يريد العلم أن يعرف آلية الكون، والدين لديه الجواب، فلا يمكن فصل الإثنين»[٤].

ويقول **روبرت ميليكان**: «يمكنني عند هذا الحد أن أقول بكل تأكيد أنه لا يوجد أساس علمي لرفض الدين، ولن يوجد في حكمي أي سبب يدعو للتعارض بين العلم والدين»[٥].

وقال أيضًا: «إنّ استحالة العلم الحقيقي والدين الحقيقي متعاكسين أصبحت دومًا دليلًا عندما يبحث الفرد عن هدف العلم وهدف الدين، إنّ هدف العلم هو تطوير ـ دون إجحاف أو تحامل من أي شكل ـ معرفة حقائق وقوانين وعمليات الطبيعة، وإنّ المهمة الأكثر أهمية للدين ـ من ناحية أخرى ـ هي تطوير الضمير والمثاليات، وغايات الجنس البشري»[٦].

---

(١) المرجع السابق، ص٤٧.
(٢) المرجع السابق، ص٤٩.
(٣) المرجع السابق، ص٥٠.
(٤) المرجع السابق، ص٥٠.
(٥) المرجع السابق، ص٥٠.
(٦) المرجع السابق، ص٥٦.

وقال آرثر كومبتون: «لا يوجد تعارض جوهري بين العلم والدين، فالعلم طريقة معتمدة لمعرفة الحقيقة، والدين بحث لإرضاء أساس الحياة»[١].

وقال ويليام فليبس: «أومن أنّ العلم والدين يتعاملان مع نوعين مختلفين من الأسئلة، باستخدام طريقتين مختلفتين (ولكنه ليس اختلافًا تامًا) يناقش العلم أسئلة من مثل كيف تعمل الأشياء، وتاريخ تطور الكون، وما يشبه ذلك، ويناقش الدين أسئلة حول المعنى المطلق وحول كيف تكون العلاقة بين الناس، وبين الناس والله، كما أعتقد أيضًا أنّ وجود الله ظاهر لنا عبر ملاحظتنا للخلق»[٢].

ويقول جوزيف هـ. تايلور: «إنّ الاكتشاف العلمي، هو اكتشاف ديني أيضًا، إذ لا يوجد تعارض بين العلم والدين، وتزداد معرفتنا بالله عند كل اكتشاف علمي نصنعه حول العالم»[٣].

وهناك مئات من النصوص من الذين تبحروا في العلوم المعاصرة، تدور حول هذا المحور، لا يمكننا استيفاؤها، وإنما أوردنا منها ما يدل على مرادنا.

وإذا كانت عقول هؤلاء العمالقة وصلت إلى هذه الحقيقة، فيا ترى أي دين هو الذي يتصف بهذه المزايا، أهو الدين الذي يعتقد بأن الله تعالى يصارع إنسانًا فيصرعه ويلقيه في الأرض، ويصفه تعالى بأرذل ما في خلقه من صفات كالجهل والغباء والبخل والحسد؟!! أم هو الدين الذي يعتقد أن الإله حملته امرأة من البشر جنينًا في أحشائها وولدته كما يولد الناس!! وأنه تعدى عليه فيما بعد طائفة من الناس، فقتلوه وصلبوه؟!! إلى غير ذلك مما تمجه العقول، وتنبو عنه الأفهام؟!!.

---

(١) المرجع السابق، ص٥٦.

(٢) المرجع السابق، ص٥٧.

(٣) المرجع السابق، ص٥٧.

أم هو الدين الإسلامي الحق الذي يعلن للناس جميعًا أن الله ما اتخذ صاحبة ولا ولدًا، وليس له شريك في الملك ولا ولي من الذل، وأنه القادر على كل شيء وأنه حي لا يموت، لا تأخذه سنة ولا نوم، وأنه ليس كمثله شيء، ويأمر الكل بأن يستهدوا بما وصف الله به نفسه في قوله: ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾ [الإخلاص: ١ ـ ٤]؟.

لندع العقول وحدها تحكم في ذلك، وحسبنا هذا فمن لم ينفعه قليل الحكمة ضره كثيرها، والله المستعان.

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

الباب الثاني

في الإلحاد

وفيه أربعة فصول:

- الفصل الأول: الإلحاد أسبابه وعلاجه.
- الفصل الثاني: في استشراء داء الإلحاد في الأمم.
- الفصل الثالث: في نقض الداروينية بأدلة البرمجيات ولغاتها.
- الفصل الرابع: في نقض الداروينية بأدلة الأحافير.



الفصل الأول

الإلحاد أسبابه وعلاجه

وفيه مقدمة ومبحثان:

- المقدمة: في تعريف الإلحاد.
- المبحث الأول: في أسباب الإلحاد.
- المبحث الثاني: في علاج مشكلة الإلحاد.



المقدمة

في تعريف الإلحاد

الإلحاد لغة هو بمعنى الميل، ومنه اللحد لأنه بخلاف الشق يمال به إلى جانب من القبر، يقال: ألحد ولحد بمعنى، قال في اللسان: «ولحد إلى الشيء يلحد، والتحد: مال. ولحد في الدين يلحد وألحد: مال وعدل، وقيل: لحد مال وجار. ابن السكيت: الملحد العادل عن الحق المدخل فيه ما ليس فيه، يقال قد ألحد في الدين ولحد أي حاد عنه، وقرئ: ﴿لِّسَانُ ٱلَّذِى يَلْحَدون إِلَيْهِ﴾ [النحل: ١٠٣]، والتحد مثله. وروي عن الأحمر: لحدت جرت وملت، وألحدت ماريت وجادلت. وألحد: مارى وجادل. وألحد الرجل أي ظلم في الحرم، وأصله من قوله تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ﴾ [الحج: ٢٥]؛ أي إلحادا بظلم، والباء فيه زائدة؛ قال حميد بن ثور:

قدني من نصر الخبيبين قدي ... ليس الإمام بالشحيح الملحد

أي الجائر بمكة»[1].

ولما كان الحق هو الاعتدال على سواء الصراط من غير جنف إلى جانب كان الخروج عن الحق إلحادًا لأنه ميل عن الوسط الذي يلتزمه الحق وأهله، ومنه قوله تعالى: ﴿لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَـٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾ [النحل: ١٠٣]، فإنّ أولئك المكابرين في دفع الحق ونكران الحقيقة

(١) ابن منظور: لسان العرب، مادة (لحد)، ١٣/١٧٦ ـ ١٧٧.

زاغوا عن قصد الصراط، فوصفوا الشيء بغير صفته، إذ زعموا أنّ النبي ﷺ يتعلم القرآن من بشر، وقد رد عليهم الحق سبحانه بأنّ الذي يلحدون إليه بزيغهم عن الحق هو أعجمي، لا يمكن أن يعلم النبي ﷺ القرآن العربي.

لأجل هذا كان الإلحاد في المصطلح الشرعي هو: الميل عن الحق بقول أو فعل، وهكذا استعمله القرآن الكريم في كل زيغ عن منهج الرشد، كما في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٠]، قال القرطبي: «والإلحاد يكون بثلاثة أوجه أحدها: بالتغيير فيها كما فعله المشركون، وذلك أنهم عدلوا بها عما هي عليه فسموا بها أوثانهم، فاشتقوا اللات من الله، والعزى من العزيز، ومناة من المنان قاله ابن عباس وقتادة. الثاني: بالزيادة فيها. الثالث: بالنقصان منها، كما يفعله الجهال الذين يخترعون أدعية يسمون فيها الله تعالى بغير أسمائه، ويذكرونه بغير ما يذكر من أفعاله، إلى غير ذلك مما لا يليق به»[1].

وقال الراغب: «والإلحاد في أسمائه على وجهين: أحدهما أن يوصف بما لا يصح وصفه به. والثاني: أن يتأول أوصافه على ما لا يليق به»[2].

قلت: مما يدخل في الإلحاد في أسمائه تعالى الاستخفاف بها وعدم تعظيمها كما يجب، ولهذا نجد في القرآن الكريم الأمر بتسبيح أسمائه تعالى كما تسبح ذاته العلية، لأن أسماءه إنما تدل على ذاته، وجاء الأمر بتسبيحها في قوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الواقعة: ٧٤]، وقوله: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ [الأعلى: ١]، وكذلك أسند التبارك إلى أسمائه تعالى كما أسند إليه، فقد

---

(١) القرطبي: **الجامع لأحكام القرآن**، سورة الأعراف (الآية ١٨٠)، ٣٢٨/٧.

(٢) الأصفهاني، الراغب؛ الحسين بن محمد: **المفردات في غريب القرآن**، حرف (ل) ـ لحد، ص٧٣٧، تحقيق: صفوان عدنان داوودي، دار القلم ـ دمشق، ط ٥: ١٤٣٣هـ/٢٠١١م.

قال سبحانه: ﴿ تَبَارَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴾ [الرحمن: ٧٨]، ومخالفة ذلك إلحاد في أسمائه ﷻ، لأنه خروج عما أمرنا به فيها.

والتسبيح: هو التنزيه المطلق، وكل ما خالفه بالقول أو الفعل فإنه يعد إلحادًا في أسمائه تعالى الله وتقدست أسماؤه.

ونصّ في القرآن على الإلحاد في آيات الله تعالى، وذلك في قوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ ﴾ [فصلت: ٤٠]، قال القرطبي: «وهذا يرجع إلى الذين قالوا: ﴿ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ ﴾ [فصلت: ٢٦]، وهم الذين ألحدوا في آياته ومالوا عن الحق فقالوا: ليس القرآن من عند الله، أو هو شعر أو سحر، فالآيات آيات القرآن. قال مجاهد: ﴿ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا ﴾ أي عند تلاوة القرآن بالمكاء والتصدية واللغو والغناء.

وقال ابن عباس: هو تبديل الكلام ووضعه في غير موضعه. وقال قتادة: ﴿ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا ﴾ يكذبون في آياتنا. وقال السدي: يعاندون ويشاقون. وقال ابن زيد: يشركون ويكذبون. والمعنى متقارب»[1].

وقد يطلق الإلحاد على الأفعال التي تأتي على خلاف ما أمر الله به، كالظلم في الحرم، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [الحج: ٢٥]، فعن ابن زيد أنه قال: «الإلحاد: الظلم في الحرم»[2]، وعن حبيب بن أبي ثابت، قال: «هم المحتكرون الطعام بمكة، وقال آخرون: بل ذلك كل ما كان منهيًا عنه من الفعل، حتى قول القائل: لا والله، وبلى والله.

ذكر من قال ذلك: حدثنا ابن المثنى، قال: ثنا محمد بن جعفر، قال: ثنا شعبة، عن منصور، عن مجاهد، عن عبد الله بن عمرو، قال: كان له فسطاطان:

---

(١) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، سورة فصلت (الآيات ٤٠ ـ ٤٣)، ٣٦٦/١٥.

(٢) الطبري: جامع البيان، سورة الحج (الآية ٢٥)، (رقم: ١٨٩٢٢، مج (١٠) ١٨٥/١٧).

أحدهما في الحل، والآخر في الحرم، فإذا أراد أن يعاتب أهله عاتبهم في الحل، فسئل عن ذلك، فقال: كنا نحدث أن من الإلحاد فيه أن يقول الرجل: كلا والله، وبلى والله»[١].

قال القرطبي: «ولذلك كان له فسطاطان، أحدهما في الحل والآخر في الحرم، فكان إذا أراد الصلاة دخل فسطاط الحرم، وإذا أراد بعض شأنه دخل فسطاط الحل، صيانة للحرم عن قولهم: كلا والله، وبلى والله، حين عظم الله الذنب فيه»[٢].

ولا يخفى أنّ التجرؤ على معاصي الله تعالى ميل عن سواء القصد وخروج عن منهج الاعتدال، فإنّ طاعة الله هي مقتضى الفطرة التي فطر الله الناس عليها، ومعصيته عدول عنها.

وإذا كان الإلحاد في المصطلح الشرعي يشمل كل ميل عن الحق، سواء كان بالقول أو الاعتقاد أو العمل فلا عجب أن يكون إنكار وجود الله تعالى على رأس الإلحاد، لأنه أقبح ميل إلى الباطل، وأبعد ما يكون عن الحق، إذ جحود وجوده ﷻ ـ مع أنّ دقائق الوجود شاهدة على وجوده، تقوم الحجة به من كل ما يحفل به الوجود، من أدق أجزاء الذرة إلى أوسع ما تشتمل عليه المجرات ـ هو بلا ريب مكابرة للعقل، وتكذيب للحس والوجدان، كيف وجاحد وجوده تعالى تكذبه كل جزيئة في جسمه، بل كل ما اشتملت عليه وتنادي عليه بالضلال البعيد، والخيبة والخسران.

وقد اشتهر الإلحاد بهذا المعنى عند المسلمين والكفار، بل عند الملاحدة أنفسهم، فهم يطلقون على أنفسهم وصف الإلحاد من غير استحياء، ولا مبالاة،

---

(١) المرجع السابق، سورة الحج (الآية ٢٥)، (رقم: ١٨٩٢٤ ـ ١٨٩٢٥، مج (١٠) ١٨٥/١٧ ـ ١٨٦).

(٢) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، سورة الحج (الآية: ٢٥)، ٣٤/١٢.

بل بلغ بهم عمى البصائر أنهم صاروا يفاخرون بهذا الوصف، وكفى بذلك شهادة على أنفسهم بالظلم والكفران.

ولا يخفى على كل ذي فطرة سوية أن جحوده ﷻ هو أقبح الميل عن الحق، وأسوأ تجاهل للحقيقة، وأعظم نكران للنعم وكفران للمنعم، ناهيك أنّ الكل تواضعوا على تسمية هذا الجحود بالإلحاد، وهي تسمية تدل على التقبيح والتنفير، وقد عرج على هذا المعنى الزمخشري في قوله: «ومنه الملحد، لأنه أمال مذهبه عن الأديان كلها، لم يمله عن دين إلى دين»[1].

فالملحد إذًا ـ حسب الاصطلاح المعاصر ـ هو من جحد وجود الله تعالى، ونبذ الدين وراءه ظهريًا، فلم يعد للدين سلطان على نفسه ولا تأثير على حياته، لأنه يعده مظهرًا من مظاهر التخلف والرجعية، وقد شاعت عند الشيوعيين مقولة إمامهم ماركس: «الدين أفيون الشعوب»، وأصبحت شعارًا عندهم يتردد على ألسنتهم جميعًا، وتسود به صفحاتهم، وتنشق به حناجرهم في مؤتمراتهم التآمرية ضد الإيمان.

وليس الإلحاد الذي تنادي به اليوم فئة واسعة الانتشار في الغرب إلا صورة من هذا الإلحاد البلشفي الشيوعي نفسه، وإن تنوع الأسلوب في الدعوة إليه، فهم يلبسونه في كل وقت ثوبًا يرونه ملائمًا له لأجل تجديد الدعوة إليه بعد بِلاهَا، وقد أوضح ذلك الكُتَّاب الذين سلطوا الضوء على الإلحاد لأجل استئصال أعراقه، وقطع دابره كما جاء في مقال الدكتور عبد الرحمن بن عبد الخالق عندما قال: «نعني بالإلحاد الكفر بالله والميل

---

(١) الزمخشري؛ محمود بن عمر: **تفسير الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل**، سورة النحل (الآية ١٠٣)، ٦١٠/٢، رتبه وضبطه وصححه: محمد عبد السلام شاهين، دار الكتب العلمية ـ بيروت، ط ٤: ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م.

عن طريق أهل الإيمان والرشـــد. وظهور التكذيب بالبعـــث والجنة والنار وتكريس الحياة كلها للدنيا فقـــط، والإلحاد اليوم ظاهـــرة عالمية، فالعالم الغربي في أوربا وأمريكا، وإن كان وارثًا في الظاهر للعقيدة النصرانية التي تؤمن بالبعث والجنة والنـــار إلا أنه ترك هذه العقيـــدة الآن، وأصبح إيمان الناس هناك بالحياة الدنيا فقط، وأصبحت الكنيسة مجرد تراث وأثر من آثار الماضي، ولا تشكل في حياة الناس وعقولهم إلا شيئًا تافهًا جدًا، وقد أصبح (الإلحاد) هو الدين الرسمي المنصوص عليه في كل دساتير البلدان الأوربية والأمريكية، ويعبر عن ذلك (بالعلمانية) تارة، و(اللادينية) تارة أخرى وكل ذلك يعني الإلحاد والكفر بالله»[١].

ولا يخفى على ذي بال أنّ الإلحـــاد ـ بكل صوره هو مرض عضال، سريع الانتشار، عميق التأثير ـ أشد خطرًا على النفوس من السرطان على الأجسام، وإذا كان السرطان يصيب الأجســـام لأسباب شتى، أهمها عدم صون الأجسام من مضار الطبيعة، وعدم المبالاة بما تتغذى به من أنواع الأطعمة، فإنّ آفة الإلحاد تصيب النفوس التي لم تَتَوَقَّ من شـــره برسوخ الإيمان، وعمق اليقين، فأصبحت عرضة لأن تهب عليها رياح ســـامة من الأفكار الموبـــوءة، وقد صدق من قـــال: «الإلحاد انحـــراف عن الفطرة الإنســـانية، وطمس لما في البصيرة»[٢]، «ذلك أن الإلحـــاد نتيجة لازمة لحالة النفس التي اســـتنفذت كل إمكانياتها الدينية، فلم يعد في وسعها بعد أن تؤمن»[٣].

---

(١) عبد الرحمن بن عبد الخالق: **الإلحاد، أســـباب هذه الظاهرة وطرق علاجها**، ص٦، الرئاسة العامة لإدارة البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، ـ الرياض، ط٢: ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.

(٢) مجموعة باحثين: **الموسوعة العربية العالمية**، حرف (أ) ـ الإلحاد، ٥٢٨/٢.

(٣) الشـــرباصي، عبد الرحمن بدوي بـــن بدوي: **تاريـــخ الإلحاد في الإســـلام**، ص٧، المركز الأكاديمي للأبحاث ـ العراق، ط٢: ١٤٣٧هـ/٢٠١٦م.

وما ذلك إلا أنها ضيقت على نفسها الخناق، وآثرت حبسها في مضايق الفكر الموبوء العفن، بدل أن تسبح في فسيح ملكوت الله تعالى الواسع، وتستروح نسائم رياح الفطرة المنعشة الصافية من كل الأوباء والأكدار، وتشاهد في كل شيء آياته تعالى العظمى، وتسمع من كل دقيق وجليل صوت الفطرة الذي يعج بتسبيح الخالق العظيم، فلا تملك إلا أن تتجاوب بفطرتها مع هذه الأصوات جميعًا بتسبيح من تسبح بحمده ذرات الوجود، ويتجلى شهوده في كل شاهد ومشهود.

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى

المبحث الأول

في أسبـاب الإلحـاد

وفيه مطلبان:

المطلب الأول: في الأسباب النفسية

علمت مما تقدم أنّ الإلحاد إنما هو نتيجة انحراف الطبع، وفساد الفطرة، وإظلام الفكر، فهو لا ينشـأ إلا فـي النفوس المريضـة، ولا يترعرع إلا بين الأفكار الخسيسة، ولا يستمد إلا من الطبائع المرذولة، فمنشؤه غرور النفس وما تشعر به من مركب النقص فتجنح إلى سد فراغها بما فيه غرابة وشذوذ، ولا تجد أغرب من فكر الإلحاد الذي يهوي بالإنسان في دركات الهون؛ حتى يجرده من إنسانيته، ويجعله مخلوقًا غريب الأطوار، عجيب الأحوال، يرتكب كل حماقة، ويتسنم كل شـذوذ ليصل إلى مبتغاه؛ من لفت الانتباه إليه، من أجل أن يملأ غروره بما يتصوره من إعجاب الناس به وعجبهم من أحواله.

ولذلك يبدأ بجحد أكثر الحقائق ظهورًا، وأسـطعها نـورًا، فيرفع عقيرته بإنكار الله تعالى، ثم يتطـاول على الدين الحق؛ بتسـفيهه والحط من قدره، والنداء على من تمسـك به بالحماقة والضلال، والتطاول على ثوابته بنقدها وتزييفها، والوثوب على براهينه السـاطعة وحججه الدامغـة بمحاولة إطفاء سنائها وإضعاف قواها.

كَناطِحٍ صَخـرَةً يَومًـا لِيَفلِقَها فَلَم يَضِرها وَأَوهى قَرنَهُ الوَعِلُ

ولا يخفى أنّ الإلحاد إنما هو أثر لاضطراب النفس لسبب داخلي أو خارجي، فقد يكون نتيجة لضيق الصدر، وعدم قدرة النفس على استيعاب ما يفرزه القدر من الأحداث خصوصًا عندما يكون المصاب بذلك لم يمر بتربية دينية وخلقية سليمة، وإنما كان شاذ الطبع منحرف الأخلاق قنوطًا كنودًا ينظر إلى كل شيء نظر الحقد والشنآن، فهو كما يصفه صاحب كتاب **الشيوعية وليدة الصهيونية**: «لم يكن من أولئك الذين يمتازون بالخلق الإنساني الرفيع، ولم يكن من أصحاب المواهب البناءة التي تعمل للخير، ولم يكن من أصحاب المدارس الفكرية وإن كان له أتباع وأنصار، وكل ما له أنه أدخل بعض آرائه المنبعثة من نفسيته السوداء الكنود على النظرية المادية، وجعلها أمًا لكل عمل عقلي أو فني أو شعوري، وجعل المادة هي كل شيء، وأنكر وجود الله»[1].

على أنّ من يصفه بذلك ـ وهو ماركس منظر الشيوعية الملحدة ـ لم ينشأ على الإلحاد من أول أمره، وإنما كان من قبل موصولًا بدينه اليهودي، وكان يهدف إلى خدمة الإنسانية حسبما كان يقول، فقد أثر عنه أنه قال: «إنّ خير الناس وأجدرهم بالتكريم من يعمل لخير الناس، والدين أساس الحياة الإنسانية، وهو نفسه يلقننا الحكمة والخير»[2].

وقال أيضًا: «إنّ المثل الأعلى الذي يجب أن يسعى إليه كل فاضل في الوجود هو أنّ نضحي بأنفسنا في سبيل خير الإنسانية وإسعادها»[3].

هكذا أثر عنه، ولا يبعد أن تكون هذه الكلمات وأمثالها ـ مما يدل على تعاطفه مع البشر وسعيه إلى خيرهم ـ أراد بها التمهيد لدعوته والإرهاص

---

(١) عطار؛ أحمد عبد الغفور: **الشيوعية وليدة الصهيونية**، ص ٥٨، المكتبة العصرية ـ بيروت، ط ١: ١٣٩٤هـ/١٩٧٤م.

(٢) المرجع السابق، ص ٥٨.

(٣) المرجع السابق، ص ٥٨.

لتأسيس فكره، كما يقدم الصياد لصيده ما يدفعه إلى الوقوع في شباكه، على أنّ الرجل عاش كما عاش غيره من اليهود في الغرب منبوذًا محرومًا من كل ما يتمتع به البشر من الحقوق، فأورثه ذلك حقدًا دفينًا على الإنسانية، وكراهية متأصلة للحياة بأسرها، هذا بجانب ما يطغى على النفسية اليهودية من الحسد والكراهية لكل من لم يكن من جنسهم.

ولا يخفى أنّ النظام الرأسمالي القاسي الذي كانت له قبضة حديدية ما كان يرق لضعف ضعيف، ولا يلتفت إلى حاجة محتاج، فكل أحد بمقتضاه يسعى إلى توفير المصالح المادية لنفسه، ولا يعرج على من سواه، وقد عاش ماركس في هذه الظروف القاسية والأجواء المكفهرة، كما تصور ذلك قرينته ـ جيني ـ فيما كتبته لأحد أصدقائها واصفة مأساتها هي وزوجها وأولادها، فقد جاء فيه: «ائذن لي أن أصف لك يومًا من أيام هذه الحياة، وسترى أنّ غيرنا لم يقاس ما قاسينا، فأنا مريضة سقيمة، ومع أنّ ما بظهري وثديي من أوجاع وآلام ممضة؛ فإني مضطرة على أن أرضع طفلي الرابع الحديث الولادة من ثديي، لأنني لا أستطيع أن أدفع أجر مرضعة، ولكن طفلي كان يرضع الحزن والألم والسقم فيتلوى من الوجع ليل نهار، ومنذ أن ولد لم ينم إلا ساعتين أو ثلاثًا في اليوم كله، ومع كل هذا الفقر والحاجة دخلت علينا صاحبة المنزل وطلبت ما تجمع لها من أجرة ونقود اقترضناها منها، والإيجار والقرض خمسة جنيهات، ولما كنا عاجزين عن الدفع، وقد أحضرت سمسارين استوليا على كل ما نملك من أثاث وفراش وملابس، حتى مهد الطفل استوليا عليه، وخرجنا إلى الشارع، وكان المطر ينهمر بغزارة والبرد قارس لا يرحم، وبذل زوجي كل ما بوسعه من جهد، فلم نجد من يقبل إضافتنا أو إيواءنا»[1].

---

(١) المرجع السابق، ص٥٩.

وكتبت أيضًا واصفة ما كانوا يعانونه من بؤس، ويقاسونه من حرمان قائلة: «أحست ابنتنا بنزلة شعبية وصارعت الموت ثلاثة أيام ثم ماتت، وأخذنا نبكي عليها ولم يكن لدينا ما نجهزها ونكفنها، وأبقينا الجثة ريثما نجد ما نستعين به على دفنها، ومضيت إلى جار فرنسي مهاجر، فأعطاني جنيهين، وا أسفاه؛ وفدت ابنتنا إلى الدنيا فلم تجد مهدًا، وعندما غادرتها لم تجد كفنًا»[1].

كل هذه العوامل الضاغطة على النفس وصروف الحياة المريرة ـ مع عدم وجود تربية سليمة وفكر مهذب مستقيم ـ أدت بماركس إلى أن يجحد وجود الله تعالى، وأن يسعى إلى تدمير كل شيء؛ بما نَظَّر له من نظام جهنمي يأتي على الأخضر واليابس، ويلتهم الطارف والتليد، ويهلك الحرث والنسل، وقد تحقق له ذلك على أيدي الذين كانوا من جنسه كلينيين وستالين وماوتسي تونج وأضرابهم، فكانوا بلاء على جميع الناس، شقيت بهم الأرض ردحًا من الزمن بما ماج بها من فتنهم التي لفح سعيرها القاصي والداني.

ولم يكن ماركس أول من ألحد من أسرته، فقد قيل إن أباه سبقه إلى ذلك[2]، والولد ـ كما قيل ـ سر أبيه، وهذه الملابسات التي أحاطت بماركس إن دلت على شيء فإنما تدل على أنّ السياسة العقيمة هي التي تلقح هذا البلاء وتولده عندما تنهج نهج الاستبداد، وتحرم الناس من حقوق الإنسانية، وتدعهم كأسماك البحر يبتلع كبيرها صغيرها، من غير شفقة ولا رحمة.

وأسوأ ما في الأمر أن ترد هذه التصرفات الرعناء إلى الدين وتلز به، فإنّ ذلك يولد ردة فعل عنيفة لا تنتهي إلا بانفجار مدمر يقضي على كل ما له علاقة بالدين، والله المستعان.

---

(١) المرجع السابق، ص٥٩.

(٢) ينظر؛ المرجع السابق، ص٥٨.

هذا؛ وقد تتبع بول فيتز في كتابه **نفسية الإلحاد** أحوال الذين ارتكسوا في الإلحاد، وما عانوه من فقدان آبائهم في مرحلة مبكرة من أعمارهم، وحرمانهم من رعاية الأبوة الحانية، وما ولد ذلك في نفوسهم من اضطراب دفع بهم إلى الإلحاد، وذلك من أمثال **ديفيد هيوم** (١٧١١ ـ ١٧٧٦م) و**بيرتراند راسل** (١٨٧٢ ـ ١٩٧٠) و**جان بول سارتر** (١٩٠٥ ـ ١٩٨٠م) و**ألبيركامو** (١٩١٣ ـ ١٩٦٠م) و**آرثر شوبنهاور** (١٧٨٨ ـ ١٨٦٠م).

وكذلك الذين ابتلوا بآباء ضعاف يسيئون معاملتهم كـ: **توماس هوبز** (١٥٨٨ ـ ١٦٧٥م) و**جان ميلييه** (١٦٤٦ ـ ١٧٢٩م) و**فولتير** (١٦٩٤ ـ ١٧٨٧م) و**جان دالامبير** (١٧١٧ ـ ١٧٨٣م) و**بارون دي هولباخ** (١٧٢٣ ـ ١٧٨٩م) و**لودفيغ فيورباخ** (١٨٠٤ ـ ١٨٧٢م) و**صمويل بتلر** (١٨٣٥ ـ ١٩٠٢م) و**سيغموند فرويد** (١٨٥٦ ـ ١٩٣٥م) و**هـ ج ويلز** (١٨٦٦ ـ ١٩٤٦م).

وكذلك عدد كثيرًا من الملاحدة القاصرين كـ: **جون تولاند** (١٦٧٠ ـ ١٧٢٢م) و**ريتشارد كارلايل** (١٧٩٠ ـ ١٨٤٣م) و**روبرت تايلور** (١٧٨٤ ـ ١٨٤٤م).

كما ذكر أيضًا من الملاحدة المعاصرين **مادلين موراي أوهاير** (١٩١٩ ـ ١٩٩٥م) و**إلبرت إليس** (١٩١٣ ـ ٢٠٠٧م).

وبيّن في تراجمهم جميعًا ما صاحب حياتهم من الاضطرابات النفسية، وما كان وراء رفض الدين من صروف شاذة أدت بهم إلى الهيام في بوادي الإلحاد[1].

---

(١) ينظر؛ فيتز؛ بول: **نفسية الإلحاد، إيمان فاقد الأب**، ص ٤٥ ـ ٨٧، ترجمة ونشر: مركز دلائل ـ الرياض، ط ١: ١٤٣٧هـ/٢٠١٦م.

المطلب الثاني: في العيوب التي تعزى إلى الأديان

لا ريب أنّ ما لُز بالأديان من الخرافات والأباطيل كان له دور بارز في إبعاد الناس عن الدين، وإغراقهم في بحر الإلحاد العميق عندما تصبح المفاهيم الدينية تنبو العقول عن إدراكها، ويكذبها العلم، وتأباها الفطرة، وكم روج لهذه المفاهيم من قبل قوم لا يعقلون، حتى عدت من مسلمات الدين، وكم تجد من النصوص الدينية عند أهل الكتابين مما لا يقبله العقل ولا يتصوره العلم، ولا ينسجم مع الفطرة، وما هو إلا نتيجة تلاعبهم بالكتاب المقدس حتى غدا كالمزبلة التي تلقى فيها كل الأقذار، وتحتوي على جميع النفايات، ناهيك ما تجده في الإصحاح الثاني والثلاثين من سفر التكوين: «أن يعقوب عليه السلام عندما عبر بامرأتيه وجاريته وأولاده الأحد عشر مخاضتي يبوق وأجازهم الوادي بقي وحده فصارعه إنسان حتى طلوع الفجر، فلما رأى أنه لا يقدر عليه ضرب حُق فخذه، فانخلع حق فخذ يعقوب في مصارعته معه، وقال: أطلقني لأنه قد طلع الفجر، فقال: لا أطلقك إن لم تباركني.

فقال له: ما اسمك؟ فقال: يعقوب، فقال: لا يدعى اسمك فيما بعد يعقوب بل إسرائيل؛ لأنك جاهدت مع الله والناس وقدرت، وسأل يعقوب وقال: أخبرني باسمك، فقال: لماذا تسألني عن اسمي؟ وباركه هناك، فدعا يعقوب اسم المكان فنيئل قائلا: لأني نظرت الله وجهًا لوجه، ونجيت نفسي»[1].

---

(١) الكتاب المقدس؛ سفر التكوين، الإصحاح ٣٢/٢٣ ـ ٣١، (الكتاب المقدس أي كتب العهد القديم والعهد الجديد ـ الترجمة العربية المشتركة من اللغات الأصلية مع الكتب اليونانية من الترجمة السبعينية، تصدرها دار الكتاب المقدس في الشرق الأوسط، جمعية الكتاب المقدس ـ لبنان، [العهد القديم ط ١: ١٩٩٣م]، [العهد الجديد ط ٤: ١٩٩٣م]).

فيا ترى أين توضع قداسة الإله بحسب هذا النص، فهل يتصور عاقل أن يكون الله ـ الذي خلق السماوات والأرض ودبر كل شيء في الوجود، وصرف كل ما اشتمل عليه الكون بغاية الإتقان ـ من العجز والضعف بحيث يسطو عليه إنسان، فيصارعه ويصرعه، ولا يقوى على الانفلات منه إلا بعد أن يسلم له ما يريد ويستكين له حسبما يأمره، فينتزع منه المباركة كارهًا..!!.

ولا تسأل عما اشتملت عليه قصة آدم من الخرافات والأباطيل التي يمجها العقل، ويمحقها العلم، وتشهد على كذبها كل ذرة من ذرات الوجود، كالمنصوص عليه في الإصحاح الثاني من سفر التكوين أنّ الله تعالى قال لآدم: «من جميع شجر الجنة تأكل أكلًا، وأما شجرة معرفة الخير والشر فلا تأكل منها، لأنك يوم تأكل منها موتًا تموت»[1].

فإنه يدل على أنّ الله خلق الإنسان ـ حسب معتقدهم ـ ليعيش في ظلام الجهل، لا يفرق بين خير وشر، فلا يتقي شرًا ولا يسعى إلى خير، كما يدل على اعتقادهم أنّ الله تعالى لا يتنزه عن الكذب، فقد قال لآدم عليه السلام بأنه إن أكل من تلك الشجرة كان بذلك حتفه، مع أنّ الواقع كان خلاف ذلك، تعالى الله عن ذلك.

وبناء على نصوص التوراة تكون الحيّة ـ التي أغرت آدم وحواء أن يأكلا من تلكم الشجرة ـ أبر بهما وأنصح، وكانت أصدق قولًا من الله، تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا، فقد جاء في الإصحاح الثالث ما نصه: «وَكَانَتِ الْحَيَّةُ أَحْيَلَ جَمِيعِ حَيَوَانَاتِ الْبَرِّيَّةِ الَّتِي عَمِلَهَا الرَّبُّ الإِلهُ، فَقَالَتْ لِلْمَرْأَةِ: أَحَقًّا قَالَ اللهُ لَا تَأْكُلَا مِنْ كُلِّ شَجَرِ الْجَنَّةِ؟ فَقَالَتِ الْمَرْأَةُ لِلْحَيَّةِ: مِنْ ثَمَرِ شَجَرِ الْجَنَّةِ نَأْكُلُ، وَأَمَّا ثَمَرُ الشَّجَرَةِ الَّتِي فِي وَسَطِ الْجَنَّةِ فَقَالَ اللهُ: لَا تَأْكُلَا مِنْهُ وَلَا تَمَسَّاهُ لِئَلَّا تَمُوتَا.

---

(١) الكتاب المقدس؛ سفر التكوين، الإصحاح ٢/١٦ ـ ١٧.

فَقَالَتِ الْحَيَّةُ لِلْمَرْأَةِ: لَنْ تَمُوتَا! بَلِ اللهُ عَالِمٌ أَنَّهُ يَوْمَ تَأْكُلَانِ مِنْهُ تَنْفَتِحُ أَعْيُنُكُمَا وَتَكُونَانِ كَاللهِ عَارِفَيْنِ الْخَيْرَ وَالشَّرَّ. فَرَأَتِ الْمَرْأَةُ أَنَّ الشَّجَرَةَ جَيِّدَةٌ لِلأَكْلِ، وَأَنَّهَا بَهِجَةٌ لِلْعُيُونِ، وَأَنَّ الشَّجَرَةَ شَهِيَّةٌ لِلنَّظَرِ. فَأَخَذَتْ مِنْ ثَمَرِهَا وَأَكَلَتْ، وَأَعْطَتْ رَجُلَهَا أَيْضًا مَعَهَا فَأَكَلَ.

فَانْفَتَحَتْ أَعْيُنُهُمَا وَعَلِمَا أَنَّهُمَا عُرْيَانَانِ. فَخَاطَا أَوْرَاقَ تِينٍ وَصَنَعَا لأَنْفُسِهِمَا مَآزِرَ. وَسَمِعَا صَوْتَ الرَّبِّ الإِلهِ مَاشِيًا فِي الْجَنَّةِ عِنْدَ هُبُوبِ رِيحِ النَّهَارِ فَاخْتَبَأَ آدَمُ وَامْرَأَتُهُ مِنْ وَجْهِ الرَّبِّ الإِلهِ فِي وَسَطِ شَجَرِ الْجَنَّةِ. فَنَادَى الرَّبُّ الإِلهُ آدَمَ وَقَالَ لَهُ: أَيْنَ أَنْتَ؟. فَقَالَ: سَمِعْتُ صَوْتَكَ فِي الْجَنَّةِ فَخَشِيتُ، لأَنِّي عُرْيَانٌ فَاخْتَبَأْتُ، فَقَالَ: مَنْ أَعْلَمَكَ أَنَّكَ عُرْيَانٌ؟ هَلْ أَكَلْتَ مِنَ الشَّجَرَةِ الَّتِي أَوْصَيْتُكَ أَنْ لَا تَأْكُلَ مِنْهَا؟ فَقَالَ آدَمُ: الْمَرْأَةُ الَّتِي جَعَلْتَهَا مَعِي هِيَ أَعْطَتْنِي مِنَ الشَّجَرَةِ فَأَكَلْتُ.

فَقَالَ الرَّبُّ الإِلهُ لِلْمَرْأَةِ: مَا هذَا الَّذِي فَعَلْتِ؟ فَقَالَتِ الْمَرْأَةُ: الْحَيَّةُ غَرَّتْنِي فَأَكَلْتُ.

فَقَالَ الرَّبُّ الإِلهُ لِلْحَيَّةِ: لأَنَّكِ فَعَلْتِ هذَا مَلْعُونَةٌ أَنْتِ مِنْ جَمِيعِ الْبَهَائِمِ وَمِنْ جَمِيعِ وُحُوشِ الْبَرِّيَّةِ. عَلَى بَطْنِكِ تَسْعَيْنَ وَتُرَابًا تَأْكُلِينَ كُلَّ أَيَّامِ حَيَاتِكِ. وَأَضَعُ عَدَاوَةً بَيْنَكِ وَبَيْنَ الْمَرْأَةِ، وَبَيْنَ نَسْلِكِ وَنَسْلِهَا. هُوَ يَسْحَقُ رَأْسَكِ، وَأَنْتِ تَسْحَقِينَ عَقِبَهُ. وَقَالَ لِلْمَرْأَةِ: تَكْثِيرًا أُكَثِّرُ أَتْعَابَ حَبَلِكِ، بِالْوَجَعِ تَلِدِينَ أَوْلَادًا. وَإِلَى رَجُلِكِ يَكُونُ اشْتِيَاقُكِ وَهُوَ يَسُودُ عَلَيْكِ.

وَقَالَ لآدَمَ: لأَنَّكَ سَمِعْتَ لِقَوْلِ امْرَأَتِكَ وَأَكَلْتَ مِنَ الشَّجَرَةِ الَّتِي أَوْصَيْتُكَ قَائِلًا: لَا تَأْكُلْ مِنْهَا، مَلْعُونَةٌ الأَرْضُ بِسَبَبِكَ، بِالتَّعَبِ تَأْكُلُ مِنْهَا كُلَّ أَيَّامِ حَيَاتِكَ. وَشَوْكًا وَحَسَكًا تُنْبِتُ لَكَ، وَتَأْكُلُ عُشْبَ الْحَقْلِ، بِعَرَقِ وَجْهِكَ تَأْكُلُ

خُبْزًا حَتَّى تَعُودَ إِلَى الأَرْضِ الَّتِي أُخِذْتَ مِنْهَا. لأَنَّكَ تُرَابٌ، وَإِلَى تُرَابٍ تَعُودُ، وَدَعَا آدَمُ اسْمَ امْرَأَتِهِ حَوَّاءَ لأَنَّهَا أُمُّ كُلِّ حَيٍّ وَصَنَعَ الرَّبُّ الإِلهُ لآدَمَ وَامْرَأَتِهِ أَقْمِصَةً مِنْ جِلْدٍ وَأَلْبَسَهُمَا.

وَقَالَ الرَّبُّ الإِلهُ: هُوَ ذَا الإِنْسَانُ قَدْ صَارَ كَوَاحِدٍ مِنَّا عَارِفًا الْخَيْرَ وَالشَّرَّ، وَالآنَ لَعَلَّهُ يَمُدُّ يَدَهُ وَيَأْخُذُ مِنْ شَجَرَةِ الْحَيَاةِ أَيْضًا، وَيَأْكُلُ وَيَحْيَا إِلَى الأَبَدِ، فَأَخْرَجَهُ الرَّبُّ الإِلهُ مِنْ جَنَّةِ عَدْنٍ لِيَعْمَلَ الأَرْضَ الَّتِي أُخِذَ مِنْهَا، فَطَرَدَ الإِنْسَانَ، وَأَقَامَ شَرْقِيَّ جَنَّةِ عَدْنٍ الْكَرُوبِيمَ، وَلَهِيبَ سَيْفٍ مُتَقَلِّبٍ لِحِرَاسَةِ طَرِيقِ شَجَرَةِ الْحَيَاةِ»[1].

وكافيك ما في هذا النص من كون الله تعالى أخبر آدم وحواء أنهما إن أكلا من تلك الشجرة كان حتفهما في الأكل منها، مع أنّ الحقيقة خلاف ذلك، وإنما أراد الله سبحانه أن يواريها عنهما، لأن أكلهما منها يورثهما معرفة الخير والشر، وقد أراد الله أن يكونا جاهلين بذلك، ومع ذلك فإنّه لم يحط علمًا بأكلهما منها، كما أنه لم يعلم المكان الذي توارى فيه آدم في الجنة، فلذلك كان يناديه..! ولم يكن قادرًا على منع الإنسان من أن يأكل من شجرة الحياة، فلذلك أقام الحراسة عليها، وحسبك من هذا كله أن تعرف ما هي حقيقة اعتقادهم في الله سبحانه، وما يصفونه به من النقائص التي تكون في أراذل الخلق، فأين ذلك مما يدل عليه العقل ويؤكده العلم؛ من أنّ الله تعالى قادر على كل شيء، وعالم بكل شيء، وأنه متصف بالكمال المطلق، وما يقوله هو أصدق القول، وما يفعله هو أحسن الفعل.

ولا يخفى أنّ عقيدة تقوم على وصف الله تعالى بصفات النقص تذهب بهيبة الربوبية، كما تقطع علاقة الإنسان بالله سبحانه، فلا ينظر الإنسان إلى

---

(١) الكتاب المقدس؛ سفر التكوين، الإصحاح ٣/١ ـ ٢٤.

جانب الألوهية إلا نظرة استرابة واحتقار، وبهذا تمهد الطريق للإلحاد والعياذ بالله تعالى.

ولا تسأل عما في التوراة المحرفة ـ التي يتمسك بها اليهود، ويؤمن بها النصارى أيضًا ضمن الكتاب المقدس عندهم ـ من وصف أنبياء الله تعالى بأسوأ الصفات، ونسبة أردأ الأفعال إليهم، من الولع بقتل الأنفس، ونهب أموال الناس، وارتكاب الفواحش والاستئسار للشهوات، وعدم المبالاة بحقوق الله تعالى وحرمات دينه، إلى حد عبادة الأصنام في سبيل اتباع الشهوات ـ كما عزوا ذلك إلى سليمان عليه السلام ـ وإدخال الجرائم العظمى ضد البشرية ـ كقتل الأطفال والحيوان وإثارة الرعب في قلوب الناس جميعًا في سبيل ترسيخ السلطة والتشفي من الآخرين ـ في صميم الدين..!.

فهذه جميعًا أمور يرفضها العقل وتأباها الفطرة، فإذا فسر بها الدين كان ذلك سببًا لردة فعل تتمخض عن رفض الدين جملة وتفصيلًا، فلا تعجب مع هذا أن يتفشى الإلحاد في أمة لا تعرف الدين إلا بهذه التصورات الباطلة في العقيدة، والانحطاط في الأخلاق، والقسوة والعنف ضد الإنسانية، وغلبة العنصرية والاستبداد في السياسة.

ولا تسأل عما في الإنجيل المعتمد لدى البابوية والمعترف به في الكنائس على اختلاف اتجاهاتها من الطلاسم التي لا يجد العقل لها تفسيرًا، ولا يتصور معتقدها لها معنى، حسبك من ذلك ما تجده بين الأناجيل الأربعة من التناقض والاختلاف في تحديد شخصية المسيح عليه السلام، فهو ملك في **إنجيل متى**، وخادم في **إنجيل مرقس**، وإنسان في **إنجيل لوقا**، وهو الله في **إنجيل يوحنا**، وقد حرصوا على جمع هذه التناقضات، فزعموا أن هذه الأوصاف: «لا تختلف في الجوهر، وإن اختلفت في الشكل بعض الاختلاف، ففي الجوهر تجمع كلها أن يسوع شخص فريد»، وزعموا أن: «الملك في

إنجيل متى هو أيضًا الخادم والإنسان والله..! والخادم في **إنجيل مرقس** هو أيضًا الملك والإنسان والله..! والإنسان في **إنجيل لوقا** هو أيضًا الملك والخادم والله..! والله أو الابن الأزلي هو أيضًا الملك والخادم والإنسان..!»[1].

فليت شعري؛ بأي تفسير يمكن أن تحلّ هذه الطلاسم المعقدة، وكيف يمكن أن يتقبلها أولو العقول، وأن تستقر في الألباب، وتطمئن إليها النفس؟! أولا تنتاب من يعتقد أنّ هذا هو الدين شكوك تطوح به في مهاوي سحيقة من الإلحاد.

وكذلك التثليث واعتقاد أنّ الثلاثة واحد، فإنه لا تجد له العقول ولا علم الرياضيات تفسيرًا، وكذلك اعتقاد أنّ المسيح عليه السلام ـ مع كونه في اعتقادهم هو الله وابنه ـ يتصل نسبه بأبٍ من البشر وهو يوسف النجار..! الذي جاء نسبه إليه موصولًا بسلسلة آباء إلى آدم عليه السلام كما هو في إنجيل لوقا.

وليت شعري؛ كيف يستساغ أن يظن بالله سبحانه وتعالى أن لا يغار بالمشاركة من أحد من خلقه في نسب ابنه إليه، وإذا كان ذلك تأباه النفوس الأبية من البشر، فكيف يتصف به الله سبحانه وتعالى ؟؟! والأعجب من ذلك أن يكون هذا الابن هو الله نفسه، وأنى يتصور أن يكون يوسف النجار الموصول نسبه بآدم هو أبا لله سبحانه وتعالى ؟!.

وكذلك ما ذكروه في المسيح عليه السلام ـ مع كونهم يعتقدونه ربًّا، وتارة يقولون هو الله ـ من كونه اعتدي عليه من قبل طائفة من المجرمين فعذبوه ونكلوا به ثم قتلوه وصلبوه وتم دفنه ثم عرج إلى السماء بعد أن بقي ثلاثة أيام في قبره، فكيف يتصور أن يكون الرب عاجزًا عن الدفاع عن نفسه ورد كيد الكائدين عنه، سواء قالوا بأنه هو الله، أو أنه ابنه تعالى الله عن ذلك.

---

(١) ينظر؛ الكتاب المقدس، العهد الجديد، ص٢، الترجمة العربية من اللغة الأصلية، جمعيات الكتاب المقدس المتحدة.

فإنه لا يخفى أنّ لَزَّ هذه المفاهيم الحائرة المضطربة بحقيقة الدين وإدخالها في جوهره تزعزع الإيمان وتقوض اليقين، فإن لم يكن أمام من يعتقدها تصور للدين غير هذا كان اعتقاده هذا أقوى دافع له إلى رفض الدين من أساسه، والتردي في دركات الإلحاد.

فلا تعجبوا مع هذا إن أصبح الدين عند أصحاب هذا الفكر أهون شيء في نفوسهم، وكان مدعاة للسخرية والاستخفاف، وبقي محنطًا في متاحف التأريخ، ولم يعد له سلطان على النفوس ولا تأثير في الحياة، ولا أثر في الأدب والسياسة والأخلاق وإنما يتخذ وسيلة ـ في وقت الحاجة ـ لاستغلاله من أجل إشاعة الظلم وابتزاز الحقوق، والتسلط على رقاب البشر.

دعك من تدخل البشر في سياسة الدين وإباحة ما كان محرمًا أو تحريم ما كان مباحًا، ونقض المفاهيم حتى يغدو الحق باطلًا، والباطل حقًا، والحقيقة خيالًا، والخيال حقيقة، والصدق كذبًا والكذب صدقًا، كأن الدين إنما هو للبشر، يتصرفون فيه وفق هواهم، وليس هو لله؟!.

وإنّ من أخطر ما نكب به التدين في الغرب ذلك الموقف السلبي الذي وقفه الدين ضد الانفتاح على الاكتشافات العلمية، وذلك يرجع إلى خوفهم الشديد من أن تتبخر مفاهيم الدين حسبما ألفوها بوهج حرارة العلم حتى تصبح شيئًا منسيًا، وذلك لما أدركوه من التناقض الصارخ بين معطيات العلم وثوابت الدين عندهم، فكشروا عن أنيابهم العصل لمواجهة العلم وحركته، وقد صور هذه المعركة الحاسمة بين الجانبين المفكر الإسلامي العلامة أبو الحسن الندوي، حيث قال:

«ولكن من أعظم أخطاء رجال الدين في أوربا ـ ومن أكبر جناياتهم على أنفسهم وعلى الدين الذي كانوا يمثلونه ـ أنهم دسوا في كتبهم الدينية

المقدسة معلومات بشرية ومسلمات عصرية عن التاريخ والجغرافية والعلوم الطبيعية، ربما كانت أقصى ما وصلوا إليه من العلم في ذلك العصر، وكانت حقائق راهنة لا يشك فيها رجال ذلك العصر، ولكنها ليست أقصى ما وصل إليه العلم الإنساني، وإذا كان ذلك في عصر من العصور غاية ما وصل إليه علم البشر فإنه لا يؤمن عليه التحول والتعارض؛ فإنّ العلم الإنساني متدرج مترق، فمن بنى عليه دينه فقد بنى قصرًا على كثيب مهيل من الرمل. ولعلهم فعلوا ذلك بنية حسنة ولكنه كان أكبر جناية على أنفسهم وعلى الدين، فإنّ ذلك كان سببًا للكفاح المشئوم بين الدين والعقل والعلم الذي انهزم فيه ذلك الدين المختلط بعلم البشر الذي فيه الحق والباطل والخالص والزائف ـ هزيمة منكرة، وسقط رجال الدين سقوطًا لم ينهضوا بعده، وشر من ذلك كله وأشأم أنّ أوربا أصبحت لا دينية.

ولم يكتف رجال الدين بما أدخلوه في كتبهم المقدسة، بل قدسوا كل ما تناقلته الألسن واشتهر بين الناس وذكره بعض شراح التوراة والإنجيل ومفسريها من معلومات جغرافية وتاريخية وطبيعية، وصبغوها صبغة دينية وعدوها من تعاليم الدين وأصوله التي يجب الاعتقاد بها ونبذ كل ما يعارضها، وألفوا في ذلك كتبًا وتآليف، وسموا هذه الجغرافية التي ما أنزل الله بها من سلطان الجغرافية المسيحية (**Christian Topography**) وعضوا عليها بالنواجذ وكفروا كل من لم يدن بها»[1].

هذا؛ وقد حميت نار المعركة بين الجانبين والتهب وطيسها، فأتى على كثير من النفوس المتحررة من مفاهيم الدين الخاطئة، كما يصور ذلك العلامة الندوي بقوله: «وكان ذلك في عصر انفجر فيه بركان العقلية في أوربا، وحطم علماء الطبيعة والعلوم سلاسل التقليد الديني فزيفوا هذه النظريات الجغرافية

---

(١) أبو الحسن الندوي: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، ص ١٣٨ ـ ١٣٩.

التي اشتملت عليها هذه الكتب وانتقدوها في صرامة وصراحة، واعتذروا عن عدم اعتقادها والإيمان بها بالغيب، وأعلنوا اكتشافاتهم العلمية واختباراتهم، فقامت قيامة الكنيسة، وقام رجالها المتصرفون بزمام الأمور في أوربا وكفروهم واستحلوا دماءهم وأموالهم في سبيل الدين المسيحي، وأنشأوا محاكم التفتيش التي تعاقب ـ كما يقول البابا ـ أولئك الملحدين والزنادقة الذين هم منتشرون في المدن وفي البيوت والأسراب والغابات والمغارات والحقول، فجدت واجتهدت وسهرت على عملها، واجتهدت أن لا تدع في العالم النصراني عرقًا نابضًا ضد الكنيسة، وانبثت عيونها في طول البلاد وعرضها، وأحصت على الناس الأنفاس، وناقشت عليهم الخواطر حتى يقول عالم نصراني: (لا يمكن لرجل أن يكون مسيحيًا ويموت حتف أنفه)، ويقدر أن من عاقبت هذه المحاكم يبلغ عددهم ثلثمائة ألف، أحرق منهم اثنان وثلاثون ألفًا أحياء كان منهم العالم الطبيعي المعروف برونو، نقمت منه الكنيسة آراء من أشدها قوله بتعدد العوالم، وحكمت عليه بالقتل، واقترحت بأن لا تراق قطرة من دمه، وكان ذلك يعني أن يحرق حيًا، وكذلك كان.

وهكذا عوقب العالم الطبيعي الشهير غاليليو (Galilio) بالقتل لأنه كان يعتقد بدوران الأرض حول الشمس»[1].

ولا يشك ذو بال أن مثل هذا التصرف قاد المتحررين إلى عدم الإيمان بالدين الذي يحرم عليهم العلم، ويحول بينهم وبين معطياته العظيمة ونتائجه الهائلة، ويحرم عليهم الاستمرار في البحث واستقصاء حقائق الكون الذي هم جزء منه، ولم يجدوا أمامهم إلا أن يقفوا موقف العداء من كل دين، لأنهم سحبوا الحكم الذي استنتجوه من موقف رجال الدين عندهم ـ ضد العلم والاكتشاف ـ على جميع الأديان، حتى وصل الأمر عندهم إلى أن يصوروا

---

(١) المرجع السابق، ص١٣٩ ـ ١٤٠.

الدين بأنه لا يتفق مـع حقائق العلم أو مدركات العقـل، وقد حكى العلامة المفكر **محمد عبد الله دراز** في كتابه **الدين** عن **ماكس ميلر** بأنه قال في كتابه **نشـأة الدين ونموه** إنّ «الدين هو محاولة تصور ما لا يمكن تصوره والتعبير عما لا يمكن التعبير عنه.. هو حـب الله»[1]، وقد علق العلامة دراز على ذلك بقوله: «فهذه العبارة لا تنطبق في حرفيتها إلا على نوع من الأديان يفصل بين العقيدة والعقل فصـلًا تامًا، ويفرض علـى معتنقيه أن يؤمنـوا بما لا تقبله عقولهم، ولا تتصوره أذهانهم»[2].

وكان ذلك ـ بلا ريب ـ عاملًا مهما في نشر مبادئ الإلحاد فيما بينهم وإن كانت في بداية أمرها لم تكن قاسـية على الدين والمتدينين، وإنما كان منهم الإعراض عن مفاهيم الدين كما تجده في هذه القصـة التي يحكيها العلامة الندوي حيث يقول: «قال الأسـتاذ جود (Joad) رئيس قسـم الفلسـفة وعلم النفس في جامعة لندن في كتابه: (Guide to Modern Wickedness):

سألت عشـرين طالبًا وتلميذة كلهم في أوائل العقد الثاني من أعمارهم: كم منهم مسـيحي بأي معنى من معاني الكلمة، فلم يجب بـ (نعم) إلا ثلاثة فقط، وقال سـبعة منهم: إنهم لم يفكروا في هذه المسـألة أبدًا. أما العشـرة الباقية فقد صرحوا أنهم معادون للمسـيحية، ـ ثم يضيف الأسـتاذ جود إلى ذلك: ـ أنا أرى أنّ هذه النسـبة بين من يؤمن بالمسيحية ويدين بها وبين من لا يؤمن في هذه البلاد ليست شـاذة ولا غريبة، نعم إذا وجّه هذا السؤال إلى مثل هذه الجماعة قبل خمسين سنة أو عشـرين، كانت الأجوبة مختلفة. بناء على ذلك الذين يتفقون في الـرأي مـع (Canon Barry) ويزعمون أنّ نهضة

---

(١) دراز؛ محمد عبد الله: **الدين ـ بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان**، ص٣٢، الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ القاهرة، ط: ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م.

(٢) المرجع السابق، ص٣٤ ـ ٣٥.

مسيحية كبيرة يمكن أن تنقذ العالم سيكونون قليلًا جدًا، فإني لا أرى لرأيه هذا مؤيدًا ومبررًا إلا أن يكون ذلك رغبته وهواه، فإن الأهواء كثيرًا ما تخلق الأفكار، ولكنها لا تولد الشهادات والوثائق، ـ وأضاف إلى ذلك ـ وإنّ الأحوال والآثار في هذه البلاد لتدل على أنّ الكنيسة النصرانية ستموت في القرن الآتي، وإليك ما يؤيد هذا الرأي نقلًا من صحيفة يومية:

اخترع رجل في السابعة والسبعين من عمره طريقة تحول بها نسخ الكتاب المقدس العتيقة إلى حشو البنادق والحرير الصناعي واللدائن وأوراق النقد الثمينة، وإنّ آلته قد نصبت في (Cardiff Factory)، وفي ثمانية مصانع أخرى، وتصنع بنسخ التوراة القديمة أسلحة حربية، وقد استثمر المخترع بالآلة ثروة عظيمة بعد ما عاش في ضنك من العيش»[1].

وإذا كانت دعوة الإلحاد بدأت في تلك المراحل المتقدمة هادئة لطيفة ـ وإن اكتسحت السواد الأعظم منهم ـ فإنها اليوم أصبحت عنيفة شديدة كما وضح ذلك مما تقدم ذكره.

هذا؛ وقد أدركت مما ذكرته أنّ الصدام بين الدين والاكتشافات العلمية كان من العوامل القوية المؤثرة في نجاح هذه الدعوة وتمكنها من زعزعة الدين والتطويح به هنالك.

وبهذا أصبح الدين في المجتمع الغربي لا أثر له في حياة الناس الفكرية والثقافية والأدبية والأخلاقية، وصار أمرًا تراثيًا مركونًا في متاحف التأريخ، وإنما يستغل لبسط النفوذ وإغراق الناس في الضلالة والعمى، كما قال **زويمر** ـ الذي تولى في القرن الماضي أكبر الحملات التنصيرية في الشرق الإسلامي ـ مخاطبًا دعاة التنصير في البلاد الإسلامية في المؤتمر التنصيري

---

(١) أبو الحسن الندوي: **ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين**، ص ١٤٤ ـ ١٤٥.

الذي انعقد بمدينة القدس الشريف إبان الاستعمار البريطاني، في محرم ١٣٥٤هـ - إبريل (نيسان) ١٩٣٥م: «أيها الإخوان الأبطال، والزملاء الذين كتب الله لهم الجهاد في سبيل المسيحية، واستعمارهم لبلاد الإسلام، فأحاطتكم عناية الرب بالتوفيق الجليل المقدّس، لقد أدّيتم الرسالة التي نيطت بكم أحسن أداء، ووفقتم لها أسمى توفيق. وإن كان ليخيل إليّ أنه مع إتمامكم العمل على أكمل الوجوه لم يفطن بعضكم إلى الغاية الأساسية منه. إنني أقركم على أنّ الذين دخلوا من المسلمين في حظيرة المسيحية لم يكونوا مسلمين حقيقيين، لقد كانوا كما قلتم أحد ثلاثة:

- إما صغير لم يكن له من أهله من يعرّفه ما هو الإسلام.
- أو رجلٌ مستخف بالأديان لا يبغي غير الحصول على قوته، وقد اشتدّ به الفقر، وعزت عليه لقمة العيش.
- وآخر يبغي الوصول إلى غاية من الغايات الشخصية.

ولكن مهمة التبشير التي ندبتكم دول المسيحية للقيام بها في البلاد المحمّدية ليست هي إدخال المسلمين في المسيحية، فإنَّ في هذا هداية لهم وتكريمًا، وإنما مهمتكم أن تخرجوا المسلم من الإسلام، ليصبح مخلوقًا لا صلة له بالله، وبالتالي فلا صلة تربطه بالأخلاق التي تعتمد عليها الأمم في حياتها، وبذلك تكونون أنتم بعملكم هذا طليعة الفتح الاستعماري في الممالك الإسلامية. وهذا ما قمتم به خلال الأعوام المائة السالفة خير قيام، وهذا ما أهنئكم عليه، وتهنئكم الدول المسيحية والمسيحيون جميعًا عليه كل التهنئة.

لقد قبضنا أيها الإخوان في هذه الحقبة من الدهر من ثلث القرن التاسع عشر إلى يومنا هذا على جميع برامج التعليم في الممالك الإسلامية، ونشرنا في تلك الربوع مكامن التبشير والكنائس والجمعيات والمدارس المسيحية

الكثيرة التي تهيمن عليها الدول الأوربية والأمريكية، والفضل إليكم وحدكم أيها الزملاء. إنكم أعددتم له بوسائلكم جميع العقول في الممالك الإسلامية إلى قبول السير في الطريق الذي مهدتم له كل التمهيد.

إنكم أعددتم شبابًا في ديار المسلمين لا يعرف الصلة بالله، ولا يريد أن يعرفها، وأخرجتم المسلم من الإسلام، ولم تدخلوه في المسيحية، وبالتالي جاء النشء الإسلامي طبقًا لما أراده له الاستعمار، لا يهتم للعظائم ويحب الراحة والكسل. ولا يصرف همّه في دنياه إلا في الشهوات فإذا تعلم فللشهوات، وإذا جمع المال فللشهوات، وإن تبوأ أسمى المراكز فللشهوات، ففي سبيل الشهوات يجود بكل شيء.

إنّ مهمتكم تمت على أكمل الوجوه، وانتهيتم إلى خير النتائج، وباركتم المسيحية، ورضي عنكم الاستعمار، فاستمروا في أداء رسالتكم فقد أصبحتم بفضل جهادكم المبارك موضع بركات الرب»[1].

وما عليك أيها القارئ الكريم إلا أن تقارن بين هذا الهدف في حملات التنصير، وبين الهدف الأسمى الذي كان ينظر إليه دعاة الإسلام في دعوتهم الأمم إلى دين الله تعالى، ذلك الهدف الذي ترجمه المسلم الغيور المجاهد في سبيل الله ربعي بن عامر ﷺ عندما التقى برستم قائد الجيش الفارسي، فسأله ما الذي جاء بكم؟ ورد عليه بقوله: «الله ابتعثنا والله جاء بنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام»[2].

---

(١) الميداني: **أجنحة المكر الثلاثة وخوافيها**، ص٩٩ ـ ١٠٠، وينظر: التل: عبد الله: **جذور البلاء**، ص٢٧٥ ـ ٢٧٦، دار الإرشاد ـ بيروت، ط١: ١٣٩٠هـ/١٩٧١م.

(٢) الطبري: **تاريخ الأمم والملوك**، ٤٠١/٢، والكلاعي: **الإكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء**، ١٩٢/٤، وابن كثير: **البداية والنهاية** ١٣٤/٧، وصفوت: **جمهرة خطب العرب**، ٢٤٢/١.

فشتان ـ لعمر الله ـ بين من يدعو الناس إلى ما يقطع صلتهم بالله، ويغمسهم في الشهوات، ويرديهم في الموبقات لأجل التمكن من استعبادهم..! وبين من يدعوهم إلى الله تعالى وحسن عبادته، وإلى التحرر من العبودية للناس، أو لأي غرض دنيوي لتخلص عبوديتهم لله ﷻ، ويتبوأوا من دينه الحنيف مكانًا عليًا.

هذا؛ ونجد في الغربيين كثيرًا من العلماء الباحثين الذين اهتدوا بدراساتهم العلمية إلى ضرورة الإيمان بوجود الله سبحانه ـ وأنه تعالى هو الذي يصرف الوجود كما أنشأه من العدم ـ تحرروا من السلطات الكهنوتية وما تمليه عليهم من عقائد لا تتقبلها العقول، فوصفوا الله سبحانه بالتنزه عن كل شبه بخلقه، فنجد مثلا **جورج هربرت بلونت**[1] يقول في مقاله **منطق الإيمان**: «وتدل الشواهد على أنّ هنالك نوعًا من الإجماع بين الفلاسفة والمفكرين على أنّ لهذا الكون إلهًا، ولكن لا يوجد هنالك اتفاق على أنّ هذا الإله هو ذاته إله الكتب المقدسة»[2].

وهذا يرجع إلى أنّ التفكير السليم والنظر في حقائق الوجود كل ذلك شاهد على أنّ الله خالق هذا الكون لا يشبهه شيء من مخلوقاته ولا تشبهه مخلوقاته، فهو ليس كمثله شيء، قد كان قبل الزمان والمكان، وهو الآن على ما عليه كان، فلا تحصر ذاته في مكان لأن وجوده ليس وجودًا ماديًا تعالى الله عن ذلك.

وقال أيضًا: «فإذا قارنا بين الشواهد التي يستدل بها المؤمنون على وجود الله، وتلك التي يستند إليها الملحدون في إنكار ذاته العلية، اتضح لنا أنّ

---

(١) جورج هربرت بلونت ـ أستاذ الفيزياء التطبيقية ـ حاصل على درجة الماجستير من معهد كليفورنيا التكنولوجي ـ كان كبير المهندسين بقسم البحوث الهندسية بجامعة كاليفورنيا.

(٢) نخبة من العلماء الأمريكيين: **الله يتجلى في عصر العلم**، منطق الإيمان، ص ٨٤.

وجهة نظر الملحد تحتاج إلى تسليم أكثر مما تحتاج إليه وجهة نظر المؤمن، وبعبارة أخرى نجد المؤمن يقيم إيمانه على البصيرة، أما الملحد فيقيم إلحاده على العمى.

وأنا مقتنع أنّ الإيمان يقوم على العقل وأنّ العقل يدعو إلى الإيمان، وإذا كان الإنسان يعجز أحيانًا عن مشاهدة الأدلة فقد يكون ذلك راجعًا إلى عدم قدرته على أن يفتح عينيه.

ومجرد الاقتناع بوجود الله، لا يجعل الإنسان مؤمنًا، فبعض الناس يخشون من القيود التي يفرضها الاعتراف بوجود الله على حريتهم. وليس هذا الخوف قائمًا على غير أساس، فإننا نشاهد أنّ كثيرًا من المذاهب المسيحية، حتى تلك التي تعتبر مذاهب عظمى ـ تفرض نوعًا من الدكتاتورية على العقول، ولا شك في أنّ هذه الدكتاتورية الفكرية إنما هي من صنع الإنسان، وليست بالأمر اللازم في الدين»[1].

وهؤلاء الباحثون قد أدركوا بتجردهم في البحث بأنّ الله تعالى يستحيل أن يكون وجوده ماديًا فيفتقر إلى الزمان أو المكان ويتصف بالحدود، وإنما وجوده ﷻ وجود قداسة وتعال عن كل ما يتصف به خلقه، وهذا الذي أثبته **أندرو كونواي إيغي** العالم الفيسيولوجي في مقاله **وجود الله حقيقة مطلقة**، إذ جاء فيه: «والبرهان الذي يتطلبه الملحدون لإثبات وجود الله هو نفس البرهان الذي يطلب كما لو كان الله تعالى شبيهًا بالإنسان أو شيئًا ماديًا، أو حتى تمثالًا من التماثيل أو صنمًا من الأصنام، ولو كان لله مثل هذا الوجود المادي لما وجد هنالك مجال للشك في وجوده، ولكن الله أراد ضمن ما أراد أن يختبر عقولنا حول الإيمان به، فترك لنا حرية الاختيار لكي يؤمن به من يؤمن،

---

(١) المرجع السابق، منطق الإيمان، ص ٨٧ ـ ٨٨.

وينكره من ينكر؛ فالإنسان يستطيع إذا شـــاء ـ بخداع نفسه ـ أن ينكر وجود الله، وعليه أن يتحمل النتائج، ومعظم الملحدين والمارقين من الأديان ينظرون إلى الله كما لو كان بشرًا يمكن التعامل معه تعامل الأنداد فيقولون مثلًا: سوف أعتقد في وجود الله إذا شـــفاني من مرضي، أو إذا أنـــزل المطر أو إذا قضى حاجتي أو إذا أوقف الفيضان أو إذا محا الشر والظلم من الكون... إلخ. وقد يقول بعضهم: إذا كان هنالك إله عادل ما أصابني وجع في أســـناني، ومعنى ذلك بعبارة أخرى أنني أؤمن بالله إذا بنى الكون أو عدله تبعًا لخطتي الخاصة التي تقوم على الأنانية وتبعًا لصالحي الشخصي.

ولا مناص من الوصول إلى الله، ولكي يفكر الإنسان فيه تفكيرًا مستقيمًا لا عوج فيه، ولا نفور، عليه أن يحرر عقله من الأنانية ومن الأحقاد ومن كل ما يعوق التفكير الصافي الســـليم حتى يتســـنى له أن يصل إلـــى الله ويحبه، وبذلك يسهم في محاربة الشـــرور والظلم الذي يتحدث عنه من يشكون في أمره ووجوده تعالى، فلقد اقتضت حكمة الله أن يستخدم الإنسان عقله وإرادته وحريته في اتخاذ القرارات اللازمة لمحاربة هذه الشرور حتى يصير حكم الله في الأرض مثل حكمه في السماء»[1].

وقال أيضًا: «إنّ اعتقادي بوجود الله الذي خلق كل شـــيء، والذي يوجد داخل الكـــون وخارجه، والذي يرعانـــي ويرعاك، يقوم أولًا على اســـتخدام العقل، ثم يقوم بعد ذلك على الإيمان والأمل والمحبة، فأنا لا أســـتطيع أن أمتلك الإيمان والأمل والمحبة إلا إذا كانت كلها قائمة على أساس العقل، ولا يجوز للإنسان أن يتخلى عن عقله، بل لا بد من اســـتخدامه استخدامًا دقيقًا قويًا، والإيمان الذي لا يسبقه العقل يعتبر إيمانًا ضعيفًا هزيلًا، ويكون عرضة للهجمـــات الفتاكة والهزيمة الســـاحقة، والإيمان الديني الـــذي لا يقوم على

---

(١) المرجع الـسابق، وجود الله حقيقة مطلقة، ص١٥١ ـ ١٥٢.

العقل يؤدي إلى الأخلاق السيئة والسلوك الشائن، ولذلك ينبغي ألا يتخلى الإنسان عن عقله أبدًا، ولا عن المبادئ الفكرية التي تقوم عليها الأعمال والأفكار التي يستخدمها الناس في حياتهم اليومية، والتي يقوم عليها جميع ما أحرزه علماؤنا من انتصارات في الميادين العلمية»[1].

ومراده بقوله: «الذي يوجد داخل الكون وخارجه» أنّ وجوده تعالى ليس وجودًا ماديًا حتى يحد بحدود، فوجوده سابق على وجود الكون، ولم يؤثر خلقه للكون في ذاته شيئًا حتى يكون وجوده محدودًا بحدود كما تحد الموجودات المادية.

ومثل ذلك ما قاله **بول كليرانس ابرسولد** أستاذ الطبيعة الحيوية في مقاله المعنون بـ **الأدلة الطبيعية على وجود الله**: «أما من وجهة نظر العلم؛ فإنني لا أستطيع أن أتصور الله تصورًا ماديًا بحيث تستطيع أن تدركه الأبصار، أو أن يحلّ في مكان دون الآخر، أو يجلس على كرسي أو عرش، إنّ الكتب المقدسة عندما تصف لنا الإله، وتتحدث عن ذاته وكنهه تستخدم كثيرًا من الألفاظ الدنيوية التي نألفها في وصف حياة الإنسان وتاريخه على الأرض، ولكنّ الله تعالى كائن روحاني لطيف، بل هو فوق ذلك إن كان وراء الروحانية من وراء في مرتبة الصعود، ونحن لا نستطيع أن نصفه وصفًا روحانيًا صرفًا، فالإنسان رغم أنه يتكون من جسد وروح لا يستطيع أن يدرك هذه الصفات الروحانية، أو أن يعبر عنها إلا في حدود خبرته، ومع ذلك فإننا نستطيع أن نصل إلى أن الله تعالى يتصف بالعقل والحكمة والإرادة، وعلى ذلك فإنّ لله وجودًا ذاتيًا، وهو الذي تتجلى قدرته في كل شيء، وبرغم أننا نعجز عن إدراكه إدراكًا ماديًا أو وصفه وصفًا ماديًا، فهنالك ما لا يحصى من الأدلة المادية على وجوده تعالى، وتدل أياديه في

---

(١) المرجع السابق، وجود الله حقيقة مطلقة، ص١٥٢.

خلقه على أنه العليم الذي لا نهاية لعلمه، الحكيم الذي لا حدود لحكمته، القوي إلى أقصى حدود القوة.

ولما كان إدراك كنه الله من الأمور الغامضة علينا، فإننا لا نستطيع أن ندرك لماذا وجد الإنسان، أو لماذا وجد هذا الكون الذي لا يعدو أن يكون الإنسان ذرة ضئيلة من ذراته، التي لا يحصيها عقل أو وصف.

إنّ الأمر الذي نستطيع أن نثق به كل الثقة، هو أنّ الإنسان وهذا الوجود من حوله لم ينشآ هكذا نشأة ذاتية من العدم المطلق، بل إنّ لهما بداية، ولا بد لكل بداية من مبدئ، كما أننا نعرف أنّ هذا النظام الرائع المعقد الذي يسود هذا الكون يخضع لقوانين لم يخلقها الإنسان، وأن معجزة الحياة في حد ذاتها لها بداية، كما أنّ وراءها توجيهًا وتدبيرًا خارج دائرة الإنسان. إنها بداية مقدسة وتوجيه مقدس وتدبير إلهي محكم»[1].

وهذا يدل على أنّ هؤلاء الباحثين الذين هدتهم بحوثهم العلمية إلى معرفة الله تعالى واعتقاد وجوده، تحرروا أولًا من الخلفيات العقدية التي أملتها الكتب المقدسة عندهم، وأطلقوا لعقولهم العنان، فأوصلتهم مداركها ـ وما غذوها به من الحقائق العلمية التي اكتشفوها من دراساتهم المعمقة ـ إلى أنّ الله خالق هذا الوجود، لا يمكن أن يكون وجوده ماديًا فينحصر وجوده في حدود معينة، وأنه ليس جسمًا ولا ينقسم إلى أبعاض، وعليه فهو أجل من أن تدركه الأبصار أو غيرها من الحواس الظاهرة، وهو أعظم من أن تكيفه الأفكار أو يتصوره الخيال، وإنما الإيمان به هو إيمان بواجب الوجود لذاته، الأزلي الأبدي الذي لم يسبق وجوده عدم، ولا يتسلط عليه الفناء، لأن كل موجود سواه إنما وجوده أثر لوجوده، فوجود ما سواه مما يدخل في حيز الممكنات، ووجوده تعالى واجب لذاته.

---

(١) المرجع السابق، الأدلة الطبيعية على وجود الله، ص ٤٣ ـ ٤٤.

ووجود كل شيء عداه دال على وجوده تعالى، فكل مشاهد الوجود هي آيات بينات دالة على حدوث هذه الموجودات جميعًا سواه تعالى، فكل الماديات الموجودة تظهر عليها آثار صنع الله تعالى، فقد ركبت من أجزاء متعددة، وهذا يعني افتقار بعضها إلى بعض، أما هو سبحانه فله الغنى المطلق، ولذلك يستحيل عليه أن يتبعض إلى أبعاض، إذ لو كان كذلك ـ تعالى الله ـ لكانت أبعاضه مفتقرًا بعضها إلى بعض، ولكانت شاهدًا ودليلًا على حدوثه وافتقاره إلى من أحدثه.

وفي انتظام الموجودات وتناسقها وانسجامها مع تركبها من أجزاء متعددة ذات طبائع مختلفة شاهد ودليل على أنه تعالى له الكمال المطلق، فهو متصف بكل الكمالات، ومنزه عن جميع النقائص، وبهذا جاءت نصوص وحي الله تعالى كما في القرآن الكريم، ويفهم مما ذكره أولئك الباحثون على أنّ هذا مما أدركوه مما توصلوا إليه من البحوث العلمية والمدارك العقلية، وذلك يختلف تمامًا عما نجده فيما يسمى بالكتاب المقدس؛ من وصف الله تعالى بالجهل والغباء والحسد والعجز، كما سبق فيما أوردته من النصوص، وكذلك ما وصف به من التعددية، واتخاذه ولدًا، واندماجه مع الولد حتى يظهر بشرًا عاديًا، ويجري عليه ما يجري على البشر من تسلط الأشرار عليه، وعجزه عن الدفاع عن نفسه، وموته على أيديهم..!.

ولما كان دهماء الناس ـ الذين ينشأون في البيئات التي تسودها هذه الأفكار ـ لا يكلفون أنفسهم عناء البحث واستقصاء الحقائق، فإنه كثيرًا ما تحدث عندهم ردة فعل عنيفة تؤدي بهم إلى الإلحاد وشن هجوم شرس على الإيمان بالله وما اتصف به، وهم ـ بلا ريب ـ يجدون فيما تضمنته الكتب المقدسة عندهم ما يدعم مواقفهم ويعزز دعاياتهم، كما كان ذلك من ريتشارد دوكنز الملحد الوقح العنيد في جميع كتبه الملحدة، لا سيما كتابه القذر الذي

سماه وهم الإله ففي سياق نقده للأديان بدأ باليهودية وقال فيها: «من البداية كانت على شكل عبادة قبلية لإله خشن وغليظ جدًا مهووس بالقيود الجنسية بشكل سقيم وبرائحة اللحم المحترق، وبتفوقه على جميع الآلهة المنافسة، وبمستوى تلك العشيرة الصحراوية التي اختارها له»[١].

وقال أيضًا: «في البداية أريد أن أقوم بتطوير تعريفي لنظرية الوجود الإلهي التي بدأت فيها هذا الفصل، وأزيل أي سوء فهم عن تعريف الإله الإبراهيمي، أنه ليس الذي خلق الكون فقط، بل إنه إله شخصي موجود ضمنه أو خارجه (مهما عنى ذلك) ويمتلك تلك الصفات الإنسانية الغليظة التي أشرت إليها أعلاه»[٢].

وكم تجد فيما اتكأ عليه ريتشارد دوكينز في كتابه هذا ـ في تجنيه على الذات الإلهية المقدسة وسبابه الذي وجهه للإله المذكور بالكتاب المقدس ـ صفات وصف بها الله سبحانه إما في التوراة، وإما في الإنجيل، كثير منها أكاذيب نسبت إلى الله سبحانه وهو منها براء، ولربما كان من بينها ما هو في ذاته حق ككراهة المثليين لشذوذهم عن الفطرة، ولكنه أدرج مع الباطل فظهرت من ذلك صورة مشوهة من صفات قبيحة نسبت إلى الله تعالى، والله منزه عنها، ولأجل إثبات ما أقوله بالدليل أذكر بعض ما ذكره لأجل أن يدرك الناس أنّ هذا هو سبب انتشار الإلحاد في عالم الغرب، فقد جاء في كتابه المذكور ما نصه:

«لا جدال بأنّ إله العهد القديم هو من أسوأ الشخصيات الأدبية غيور وفخور بذلك ويدقق بالتوافه وظالم وغير عادل، ومتسلط قاس، ومنتقم

---

(١) ريتشارد دوكنز: الكتاب المسمى وهم الإله، ص٣٩.

(٢) المرجع السابق، ص٤٠.

ومتعطش للدماء، ومميت للأعراق، وكاره للنساء والمثليين، وعنصري قاتل للأطفال والشعوب، وقاتل للأبناء ومسبب للأمراض، ومصاب بجنون العظمة، وسادي وماسوشي ونزوي، وحقود شرس يضرب بذات اليمين والشمال دون حساب، العديدون منّا والذين تم تلقينهم منذ الطفولة عنه اعتادوا على إرهابه، لو أخذنا وجهة نظر طفل ما قد نعتبره ساذجًا بأمور الدين لرأيناها أوضح بعض الشيء بشكل ما استطاع راندولف نجل ونستون تشرشل تدبر أمره ليبقى جاهلًا بالنصوص المقدسة، حتى اليوم الذي راهنته إيفلين فوش، وضابط آخر معه في الخدمة خلال الحرب بأنه لن يستطيع قراءة الكتاب المقدس كله خلال أسبوعين، وعن ذلك يقول الضابط: (لخيبة الأمل لم نحصل على النتيجة التي أملناها، إنه لم يقرأ أيًا من الكتب الدينية سابقًا، والآن يواظب على القراءة بحماس، وأحيانًا بصوت عال، أراهن بأنك لم تكن لتعرف بأنّ هذا مذكور في الكتاب المقدس) أو يضرب على ساقه براحة يده ويتأفف...» ـ ثم بعد ذلك يحكي عنه عبارة في حق الله تعالى ما أقبحها وأقبح قائلها، وقد تجنبت ذكرها تعظيمًا لله سبحانه ـ.

ثم يواصل كلامه فيقول: «توماس جفرسون ـ قارئ أفضل عن هذا الموضوع ـ كان رأيه مشابهًا: (الإله الإنجيلي شخصية مرعبة؛ قاس ومنتقم ونزوي وظالم)»[1].

وكما وجه سهام نقده في أكثر هذا الذي ذكرناه إلى التوراة، فإنه أشار أخيرًا إلى التخبط في وصف الله تعالى في الإنجيل، وقد أضاف إلى ذلك نقدًا للنصرانية من وجوه أخرى، ومن بينها ما يكون فيها من تحول وتقلب في المواقف، وفي هذا يقول:

---

(١) المرجع السابق، ص٣٢.

«هاكم بعض ملاحظات جفرسون مثل: (المسيحية هي أكثر الأنظمة التي عرفها الإنسان تحولًا وتقلبًا) تتوافق مع الربوبية والإلحاد أيضًا. والشيء ذاته ينطبق على ملاحظات جيمس ماديسون المناهضة للكهنوت: (تجربة المؤسسة المسيحية الرسمية امتدت حتى الآن لخمسة عشر قرنًا. ماذا حصدنا منها؟ على كافة المستويات بنسب متفاوتة فخر وكسل رجال الدين، تجاهل وذل العلمانيين المضاعف بسبب الغيبيات وتعرضهم للاضطهاد والملاحقة). وينطبق الشيء نفسه على بنجامين فرانكلين (المنارات أكثر فائدة من الكنائس) وجون آدامز (لو لم يوجد الدين لكان هذا العالم أفضل ما يمكن أن يكون) آدامز له بعض المقولات اللامعة والأكثر تهكمًا على المسيحية: (المسيحية كما فهمتها كانت ولا تزال روحانية. فما هو السبب أنّ الملايين من الخرافات والقصص والأساطير قد مزجت بالروحانية اليهودية والمسيحية لتجعلها أكثر الأديان التي وجدت دموية؟). وفي رسالة أخرى، وهذه المرة لجفرسون: (أقشعر للتفكير بالأسلوب الأكثر بشاعة حتى الآن في استخدام الحزن الذي احتفظ به التاريخ ـ الصليب ـ فكر فقط بالكوارث التي سببها هذا)»[1].

ولا تسأل عن هجمته الشرسة على الله سبحانه انطلاقًا مما وجده في التوراة من وصف الأنبياء الذين أرسلهم الله تعالى بأسوأ ما يكون في البشر من أخلاق ذميمة كالحسد والكبر، ومقارفة الكبائر من القتل العدواني والفجور حتى مع ذوات المحارم، والعدوان على أموال الناس وأعراضهم بجانب العدوان على دمائهم، وإقرار عبادة الأوثان في بيوتهم استئسارًا لشهواتهم، التي دفعتهم إلى نسيان عهد الله إرضاء لنسائهم الوثنيات، وغيره مما تقشعر منه الأبدان، وتجف منه القلوب، وتتمعر منه الوجوه حياء وخجلًا.

---

(١) المرجع السابق، ص٤٥.

وقد استند في هجومه هذا إلى كون الرسول عنوان المرسل، وما كان اختيار الله تعالى ـ حسب زعمه ـ لهؤلاء الأشرار رسلًا إلا لكونه هو منبع الشر، تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا.

وفي هذا ما يكفي شاهدًا ودليلًا على أنّ الإلحاد في الغرب اتكأ في حربه للإيمان وعداوته للتدين على تلك الخرافات التي امتلأ بها ما يسمى بالكتاب المقدس، بحيث لم يَعْدُ أن يكون الإله عندهم بشرًا عاديًا، تسيطر عليه الوساوس، ويتحكم فيه الاستبداد، ويطغى فيه الحقد والتعصب، هذا بجانب ما فيه من وصفه تعالى بأنه قد يتعرض لإنسان، فتكون بينهما المصارعة، فيتغلب عليه الإنسان حتى يلقيه أرضًا..! ويتوسل إليه أن يفلته فلا يفلته إلا بشروط يمليها عليه..! وما فيه من وصفه تعالى بأنه غمر يخدع من عباده، وقد يندم على توصل العباد إلى ما لم يكن يريدهم أن يصلوا إليه من الإدراك والفهم..!.

فإنّ هذا الملحد الحاقد الدجال ـ عندما يرى أمثال هذه الترهات في كتاب يعزى إلى الله سبحانه أنه أنزله لتبصير عباده بالحق ـ لا يتردد في أن يتخذ أمثال هذه الخرافات سلاحًا يفري به أديم الدين، ويقطع به أوصاله، فماذا عسى أن يجدي الناس إيمانهم بإله يغلبه أحد البشر الذين خلقهم في المصارعة حتى يلقيه أرضًا، ويفرض عليه إرادته كما شاء، فضلًا عما يجده في تضاعيف ذلك الكتاب من أوهام يفرض على الناس اعتقادها في الكون وهي مناقضة للعلم ومنافية لما يتوصل إليه الإنسان من اكتشاف لحقائق الوجود، وإذا عرف السبب بطل العجب، فلا غرو أن ينتشر الإلحاد في بيئة هذا وضعها.

وقد صارحت بهذا د. إروين تانر تيزياني الأمين العام لمجلس الأساقفة بسويسرا وأمين مؤتمر الحوار مع المسلمين عندما زارني بمكتبي في يوم

الثلاثاء ١٠ ربيع الثاني ١٤٤٠هـ ـ ٢٠١٨/١٢/١٩م، وقلت له بأنّ وجود مثل هذه الثغرات فيما يسمى بالكتاب المقدس هو الذي يفتح الباب للملاحدة على مصراعيه لنقد الدين وتحطيمه، عندما لا يفهمون الدين إلا بحسب المفاهيم المتداولة في الكتب المقدسة، فكان من جوابه: «إني أشكرك على هذه الصراحة المفقودة عندنا، فنحن قد نستقبل أحدًا بالأحضان وبالابتسامة العريضة، ونحن لا نضمر له إلا الكراهية».

تسرب الخرافات إلى المسلمين فتح باب الإلحاد على مصراعيه:

إذا كانت المفاهيم الوهمية عن الحياة والكون التي تبناها أهل الكتابين أدت عندهم إلى الصدام بين العقل والعلم من ناحية، وبين الدين الذي آمنوا به من ناحية أخرى، وكانت نتيجة ذلك هذه الهزيمة التي لحقت الدين، ومرغت به في الرغام، فإنّ ما تسرب إلى بعض الفئات من المسلمين من عقائد ناشئة عن الوهم، لا نصيب لها من العقل والعلم العاضدين لما جاء به الوحي الإلهي هي ـ بلا ريب ـ من أعظم الأسباب في زعزعة مكانة الدين من أولئك الذين لم يتصوروه إلا وفق تلك المفاهيم، عندما فرضت عليهم فرضًا، وقيل لهم بأنّ من لم يؤمن بها فهو ليس من الدين في شيء، وهناك أمثلة عدة لهذه الأفكار البعيدة عن الإسلام، التي أصبحت عند أولئك من المسلمات التي لا تقبل الجدل.

منها: دعوى أنّ الله ﷻ ينزل نزولًا حقيقيًا في بداية الثلث الأخير من الليل إلى السماء الدنيا من العرش الذي يعتقدون أنّ الله حال به ومستقر عليه..! وفي نهاية الثلث الأخير يعود إلى العرش الذي هو مستقره عندهم..! فكم ترى في هذه العقيدة من أسباب تفتح الأبواب على مصاريعها للإلحاد، ناهيك من ذلك أن يدرك الناس جميعًا أن كل لحظة من اللحظات التي تمر بالأرض

ومن عليها هي عند قوم بداية الثلث الأول من النهار، وعند غيرهم نهاية الثلث الأول وبداية الثلث الثاني، وعند آخرين نهاية الثلث الثاني وبداية الثلث الأخير، وعند طائفة هي نهاية النهار وبداية الثلث الأول من الليل، وعند غيرهم نهاية الثلث الأول من الليل وبداية الثلث الثاني، وعند طائفة أخرى هي نهاية الثلث الثاني وبداية الثلث الأخير من الليل، وعند غيرهم هي آخر الليل وبذلك ينتهي الثلث الأخير منه، فإنّ الليل والنهار لا تخلو لحظة من اللحظات من أي جزء منهما تكون في جزء من الأرض، لأنهما يتعاقبان باطراد، كما قال تعالى: ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا﴾ [الأعراف: ٥٤]، وقال سبحانه: ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ﴾ [الحج: ٦١].

وقد أصبح علم ذلك ضروريًا يدركه الصغير والكبير والعالم والجاهل، كيف والفضائيات تصور تعاقب الليل والنهار واختلافهما في الكرة الأرضية، فماذا عسى أن تكون حالة الذي يفرض عليه أن يعتقد بأنّ الله ينزل بذاته في بداية الثلث الأخير من الليل من العرش إلى السماء الدنيا، وأنه يرتفع بنهايته..؟! فأي ليل هو المعتبر في ذلك، وأي نقطة من الأرض هي التي يعول على توقيتها في بداية الثلث الأخير ونهايته؟؟ مع أنّ الله تعالى قريب من جميع خلقه، وكل الذين يعيشون في الكرة الأرضية هم عباده، يتقرب المؤمنون منهم إليه بالدعاء في الثلث الأخير من الليل، ويتقرب إليهم بالإجابة، ويلهجون بالاستغفار فيمن عليهم بالمغفرة، ولا يخلو مكان من مسلم يعبد الله تعالى ويدعوه، فهل في جميع اللحظات يكون بين نزول وعروج؟!.

لا يخفى أنّ فرض هذه المفاهيم بتفسيرها هذا على الناس، وتصويرها لهم أنها من صميم الإسلام، وأنّ من حاد عنها فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه؛ يؤدي حتمًا بمن لم يفهم الإسلام إلا كذلك إلى الانسلاخ منه وإيثار

الإلحاد عليه ـ والعياذ بالله ـ، عندما يجدها متصادمة كل التصادم مع نظام الكون وحقائق العلم، فتبنيها ونشرها لا يعودان بالسلب على أهلها فحسب، وإنما ينعكسان سلبًا على الإسلام نفسه.

هذا؛ بجانب ما في هذا المعتقد من إثبات جريان الأحوال على الله ﷻ، بحيث يتنقل بين العرش والسماء الدنيا، مع أنّ جريان الأحوال إنما هو من شأن الخلق لا من شأن الخالق، وبهذا احتج إبراهيم عليه السلام على قومه الذين كانوا يقدسون الأجرام الفلكية ويعبدونها من دون الله، ويعتقدون في كل منها أنه إله يصرف الناس ويدبر الكائنات، وقد بدأ أولًا بمجاراتهم فيما يزعمونه، فعندما جن عليه الليل ورأى أحد الكواكب ـ وهو الزهرة فيما قيل ـ قال: هذا ربي، فلما أفل، قال: لا أحب الآفلين، على أن أفول الكوكب لم يكن يعني انعدامه، وإنما كان اختفاءه وراء الأفق الذي واراه، وهكذا أبطل ألوهية القمر والشمس بأفولهما كما حكى الله ذلك في قوله: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ۞ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيۡهِ ٱلَّيۡلُ رَءَا كَوۡكَبٗاۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ ۞ فَلَمَّا رَءَا ٱلۡقَمَرَ بَازِغٗا قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمۡ يَهۡدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلضَّآلِّينَ ۞ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمۡسَ بَازِغَةٗ قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكۡبَرُۖ فَلَمَّآ أَفَلَتۡ قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ۞ إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ حَنِيفٗا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾ [الأنعام: ٧٥ ـ ٧٩].

ومن المستحيل عقلًا وشرعًا أن يكون الله تعالى متصفًا بالأوصاف التي أبطل إبراهيم عليه السلام بها ألوهية الكوكب والقمر والشمس، إذ لا يمكن لنبي من أنبيائه أن يحتج في إبطال ألوهية شيء مما يعبد من دون الله بحالة يتصف الله بها، كيف؛ وقد بيّن ﷻ أن هذا الاحتجاج منه لم يكن اعتباطًا، وإنما كان إلهامًا من الله، وهو واضح في قوله: ﴿ وَتِلۡكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيۡنَٰهَآ إِبۡرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦۚ نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ ﴾ [الأنعام: ٨٣].

على أنّ العقل السليم لا يمكن أن يتقبل أنّ يكون الله تعالى محصورًا في مكان حالًا بشيء من مخلوقاته، فإنه تعالى قد كان قبل خلق الزمان والمكان، وهو الآن على ما عليه كان، لم يؤثر عليه خلق مخلوقاته تغيرًا في ذاته ولا في صفاته وإلا كان شأنه شأن الأجرام الفلكية التي أبطل إبراهيم عليه السلام ألوهيتها، وأنى يكون ذلك وهو الإله الحق الذي ليس كمثله شيء، فالله تعالى لو كان مستقرًا على عرشه كما زعموا لكان هو أحوج إلى العرش، ولزم من ذلك إما أن يكون العرش قديمًا أزليًا، فيكون الله تعالى من أزله مستقرًا عليه، وإما أن يكون حادثًا فانيًا، فيتوجه السؤال عنه تعالى قبل خلقه إياه على أي شيء كان استقراره، وكذلك بعد فنائه فيما يفنى من الكون؟!.

ولا يخفى أنّ الزجّ بالعقول في هذه المتاهات بفرض اعتقاد هذه المعتقدات على الناس يؤدي بأصحابها إلى الاضطراب في اعتقادهم بوجوده تعالى، ويلز بهم في مضايق الإلحاد عندما لا يتصورون الإسلام إلا بهذا، خصوصًا في هذه الأوقات التي انفتح فيها الناس بعضهم على بعض، وانهالت الشبهات حول الإسلام من قبل المروجين لها، لأجل هذا كان من المتعين أن تحمل النصوص الشرعية الثابتة فيما يتعلق بالله وصفاته على المحامل الصحيحة، التي تتفق مع صريح العقل وصحيح النقل، لا على المحامل الملتوية، التي هي أشبه بالطلاسم المعماة، التي لا يوجد لها حل.

ومن هذا ما تجده من المبالغة في وصف الله تعالى بصفات خلقه والاستدلال على ذلك بالروايات الباطلة التي تعزى تارة إلى رسول الله ﷺ، وتعزى تارة أخرى إلى أصحابه رضي الله عنهم وكلهم منها براء كالذي رواه الطبراني عن عبد الله بن مكرز أو عبيد الله بن مكرز، قال: قال عبد الله بن مسعود: «إنّ ربكم تعالى ليس عنده ليل، ولا نهار، نور السماوات والأرض من نور وجهه، وإنّ مقدار كل يوم من أيامكم عنده اثنتا عشرة ساعة، فتعرض عليه أعمالكم

بالأمس أول النهار اليوم فينظر فيها ثلاث ساعات فيطلع فيها على ما يكره فيغضبه ذلك، وأول من يعلم غضبه حملة العرش يحمدونه يثقل عليهم فتسبحه حملة العرش، وسرادقات العرش، والملائكة المقربون، وسائر الملائكة، ثم ينفخ جبريل عليه السلام بالقرن فلا يبقى شيء إلا سمع صوته، فيسبحون الرحمن عز وجل ثلاث ساعات حتى يمتلئ الرحمن رحمة فتلك ست ساعات، ثم يؤتى بالأرحام فينظر فيها ثلاث ساعات، فذلك قوله في كتابه: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ [آل عمران: ٦]، ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ۝ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ [الشورى: ٤٩ ـ ٥٠]، فتلك تسع ساعات، ثم يؤتى بالأرزاق فينظر فيها ثلاث ساعات قوله في كتابه: ﴿يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ [الرعد: ٢٦] ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩]، قال: هذا من شأنكم وشأن ربكم»[(١)].

فقد طار المشبهة بهذه الرواية فرحًا، وانتشوا بها طربًا، لإثبات معتقدهم في تجزئة الله تعالى إلى أجزاء، ووصفهم بما في خلقه من أعضاء[(٢)]، مع أنّ

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير؛ المعجم الكبير، (٧٧٢) عبد الله بن مسعود الهذلي، (رقم: ٨٨٨٦، مج (٥) ١٤٤/٩).

(٢) ينظر؛ النجدي؛ أحمد بن إبراهيم بن عيسى: توضيح المقاصد وتصحيح القواعد في شرح قصيدة الإمام ابن القيم، ٣٠٢/٢، تحقيق: زهير الشاويش، المكتب الإسلامي ـ بيروت، ط ٣: ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م، وينظر؛ الزرعي، ابن قيم الجوزية؛ أبو عبد الله بن أبي بكر الدمشقي: الوابل الصيب من الكلم الطيب، ٧٣/١، تحقيق: سيد إبراهيم، دار الحديث ـ القاهرة، ط ٣: ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م، وأيضًا؛ اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجهمية، ص ٣٨٧، تحقيق: زائد بن أحمد النشيري، دار عالم الفوائد ـ مكة المكرمة، ط ١: ١٤٣١هـ/٢٠١٠م، وكذلك؛ مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، ١٢٧/٣، تحقيق: محمد المعتصم بالله البغدادي، دار الكتاب العربي ـ بيروت، ط ٣: ١٤١٦هـ/١٩٩٦م، وأيضًا؛ طريق الهجرتين وباب السعادتين، ص ٢٧٨، تحقيق: عمر بن محمود أبو عمر، دار ابن القيم ـ الدمام، ط ٢: ١٤١٤هـ/١٩٩٤م، وأيضًا؛ مختصر الصواعق المرسلة، ص ٣٣٨ ـ ٣٣٩، اختصره: محمد بن الموصلي، دار الكتب العلمية ـ بيروت، ط ١: ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.

هذه الرواية ـ بغض النظر عن إسنادها المتهالك، الذي أجمع المحدثون على فساده وسقوطه كما بينته في **برهان الحق والحقيقة الدامغة**[1] ـ يكفي الإنسان متنها دلالة على فسادها.

من ذلك ما جاء فيها من قوله: «نور السماوات من نور وجهه»، فبناء على استدلالهم بها على إثبات الوجه الحقيقي لله ﷻ وحملهم الألفاظ على ظواهرها يلزمهم أن يكون النور المقصود بنور السماوات هو نورها الحسي، ويترتب عليه أن يكون نور الشمس والنجوم من نور وجهه تعالى، مع أن الشمس والقمر والنجوم والكواكب وكل ما في السماء وما في الأرض هو حادث خلقه الله تعالى بعد عدمه، وما يسطع منها أو عليها من أنوار هو من مخلوقاته تعالى، فلو كان ذلك من نور وجهه لزم إما أن يكون نور وجهه مخلوقًا كسائر المخلوقات، وعليه فيكون وجه الله في أزله مسلوب النور، وإما أن يكون أزليًا فيلزم أن تكون هذه الأنوار كلها أزلية؛ لأنها أبعاض للنور الأزلي.

ومثله قوله: «فتعرض عليه أعمالكم بالأمس أول النهار اليوم فينظر فيها ثلاث ساعات فيطلع فيها على ما يكره فيغضبه ذلك» فإنّه لا معنى له إلا أن يكون الله تعالى قبل هذا العرض غير عليم بأعمال عباده إلى أن يطلع عليها بعد عرضها عليه، ويظل في مطالعتها ثلاث ساعات، هناك يتبين له ما عملوا، فيثور غضبه بما يجده مما لم يكن به عليمًا من قبل..!! وفي هذا من التشبيه الهزيل ما لا يخفى على ذي لب، وأشد منه وصفه تعالى بأنه أحاط به الجهل فلم يكن خبيرًا بأعمال عباده، مع أنّ براهين العقل كلها تدل على استحالة أن يكون خالق الوجود ـ الذي يدبر كل شيء فيه من الذرات الدقيقة إلى

---

(١) ينظر؛ الخليلي: **برهان الحق**، ١٥٢/٦ ـ ١٥٤، وأيضًا؛ **الحقيقة الدامغة**، ص١٣٨ ـ ١٤٠، مكتبة مسقط ـ مسقط، ط١: ١٤٣٦هـ/٢٠١٥م.

المجرات العظيمة ـ تخفى عليه حالة من أحوال ذرة من ذرات الكون، فكيف يخفى عليه ما يعمله العباد..؟!!.

وقد تأكد ما دلّ عليه العقل المطبوع في هذا بما نص عليه الشرع المسموع، كما في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ۝ هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ ﴾ [آل عمران: ٥ ـ ٦]، وقوله: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴾ [ق: ١٦]، وقوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ [آل عمران: ١١٩]، وقوله: ﴿ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٩]، وقوله: ﴿ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ [يونس: ٦١]، وقوله: ﴿ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ [البقرة: ٣٣]، وقوله: ﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [الحديد: ٤]، وقوله: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [المجادلة: ٧]، إلى غير ذلك من الآيات، على أنّ ما تعلمه الملائكة إنما هو بتعليم الله تعالى لهم، فهم الذين: ﴿ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [البقرة: ٣٢].

وكذلك قوله: «فيسبحونه ثلاث ساعات حتى يمتلئ الرحمن رحمة»!!، فإنّه يعني أنّه تعالى وعاء يتعاقب على ملئه غضبه ورضاه، بحسب ما يكون من خلقه وتأثيرهم عليه..!! وفي هذا سلب للكمال عن حقيقته تعالى، فإنّه سبحانه منزه أن يكون لشيء من مخلوقاته أي تأثير عليه، فهو الذي يصرفها كما يشاء ويحكمها كما يريد، وما كان لها أن تؤثر عليه بحال، ولا ريب أنّ حمل صفاته سبحانه على ما تدل عليه هذه الرواية وأمثالها يذهب بهيبته

تعالى من قلوب عباده، ويقلص تعظيمه من نفوسهم، بل يؤدي ذلك إلى التشكيك فيه، تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا.

ومثل ذلك فرض معتقدات تناقض مسلمات العقل وثوابت الشرع كاعتقاد أن صوت من يتلو القرآن ليس بمخلوق، وكذلك لفظه بالقرآن وكتابته إياه، مع أنّ تاليه نفسه لا يشك في خلقه وكذلك كاتبه، وكل ما يصدر عن الإنسان من أفعاله فهو مخلوق بالنص الصريح، وهو قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٦]، وقد رد الباحث العلامة الأستاذ الدكتور محمد علي البار هذه الأفكار إلى تأثر المسلمين بما عند اليهود من أفكار عجيبة، ففي كتابه القيم **العلمانية جذورها وأصولها** ما نصه:

«وقد اعتقد اليهود أنّ كلمة الله وحكمته الأزلية الأبدية تتمثل في التوراة، وقد أخذت التوراة بهذا المفهوم أبعاد كلمة اللوغوس، والتوراة عندهم هي كلام الله القديم الأزلي الأبدي، فهي ليست منفصلة عن ذات الله، وليست مخلوقة له..! بل هي قديمة كقدمه، أزلية كأزليته، نورانية كنورانيته، وبالتالي لا يمكن الوصول إلى الله إلا بها أو بواسطتها».

ثم قال: «ونجد صدى هذه الأفكار عند المسلمين في القرن الثاني من الهجرة (الثامن الميلادي) حيث نجد المعركة تحتدم بين أهل السنة وبين المعتزلة الذين يقولون بأن القرآن محدث مستدلين بقوله تعالى: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنبياء: ٢]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ﴾ [الشعراء: ٥]. وأهل السنة الذين يقولون بأنّ القرآن كلام الله القديم الأزلي الأبدي غير منفصل عن ذاته ولا صفاته، وأنّ الموجود في المصاحف وتلاوتنا له مخلوقة، أما هو فهو كلام الله وكلام الله لا ينفك عن ذاته، أبدي أزلي نوراني، ثم إنّ بعض العلماء فسّق البخاري صاحب الصحيح وبدعه لأنه يقول بأن: تلاوتي أنا للقرآن محدثة،

وكتابتي له محدثة، وهم يقولون بأنّ الكتابة والتلاوة أزلية خالدة، ومات البخاري مطرودًا من بلده بسبب قوله ذاك»[١].

وهذه القضية شغلت بال الأمة واحتلت جانبًا مهمًا من أوقاتهم وجهودهم، وتبلبلت فيها الآراء، واشتد فيها الخصام، حتى أنّ أصحاب مذهب واحد وهم يتبعون إمامًا واحدًا قد يصل بهم الخلاف في جوانبها إلى تكفير بعضهم بعضًا، فضلًا عن التبديع والتفسيق، كما قد يصل بهم التشتت في الآراء إلى أن يتنازعوا في شيء واحد إلى نحو خمسين قولًا..! كل قائل يزعم أنه هو المحق، وكل من عداه مبطلون، وقد بينت هذا موثقًا من مراجعه في الجزء الثالث من **برهان الحق**[٢] فارجع إليه تجد عجبًا.

على أنّ غالب ما قيل فيها لم يكن له أي نصيب من المعقول أو المنقول، وإنما كان تخيلًا لأوهام أنها حقائق أفرزتها العقول الثاقبة والبصائر النيرة، وأقرتها النصوص الشرعية:

يزعم الكل أنه في طريق ... سار فيه الرسول بالأصحاب
فرقوا الدين ثم جاءوا بشيء ... ليس في سنة ولا في كتاب

ولا يخفى أنّ إقحام جماهير الناس في مثل هذا الاختلاف الذي لا جدوى وراءه، ولا دليل عليه لا ينتهي بهم إلا إلى كراهة الدين والرغبة في التنصل منه.

لأجل هذا كثيرًا ما نسمع ـ ويا للأسف ـ أنّ الإلحاد يتنامى في المجتمع الذي يسوده هذا الفكر، على الرغم من وجود أكبر مركز لمقاومة الإلحاد في

---

(١) البار؛ محمد علي: **العلمانية جذورها وأصولها**، ص ٣٧٧ ـ ٣٧٨، دار القلم ـ دمشق، ط١: ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م.

(٢) ينظر؛ الخليلي: **برهان الحق**، ١٤٨/٣ ـ ١٧٧.

هذا المجتمع نفسه، اشتكتب مئات من الكتاب لأجل هذا الغرض، ونَشَرَ مؤلفاتهم في أرجاء العالم، وترجم مئات من الكتب التي ألفت باللغات الأجنبية في مكافحة الإلحاد إلى اللغة العربية، ونشرها بين القاصي والداني، ولكن كل ذلك لم يجد شيئًا في وقف هذا المد الوبائي الخطير، وما ذلك إلا لأنهم لم يعالجوا المشكلة من أساسها، باستئصال الفكر التشبيهي الذي يصور الله ﷻ في جلاله وكبريائه كأنّه أحد من الناس، تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا.

تشبيه الخلق بالله لا يقل خطرًا عن تشبيه الله بخلقه:

إذا كان تشبيه الله تعالى بخلقه تأباه العقول وتشمئز منه الفطرة، فإن لم يُحَط من يطلع عليه بعناية الله تعالى وتوفيقه حال وجدانه ذلك مفسرًا به الدين الحنيف كان ذلك ـ والعياذ بالله ـ من أسباب إباء الدين كله ورفضه، وتخلصه منه إلى الإلحاد، فإنّ تشبيه الخلق بالله تعالى ـ بحيث تجعل لهم خصائص الألوهية والربوبية من البسط والقبض، والرفع والخفض، والعطاء والمنع، والإسعاد والإشقاء ـ لا يؤدي إلا إلى هذه الغاية نفسها، لأن ذلك ـ بالقطع ـ لا يبقي لله ﷻ هيبة في النفوس، ولا إجلالًا في القلوب عندما تتعلق النفوس بغيره تعالى.

على أنّ الله ﷻ لم يجعل لأحد من عباده شركة في الخلق، ولا نصيبًا في الحكم، فقد قال تعالى: ﴿ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأعراف: ٥٤]، وقال: ﴿ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [يوسف: ٤٠]، وقال: ﴿ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ ﴾ [الأنعام: ٥٧]، وقال عز من قائل: ﴿ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ ﴾ [الأنعام: ٦٢]، وقال لنبيه ﷺ الذي هو أرفع خلقه قدرًا، وأجلّهم شأنًا: ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ

شَيْءٌ ﴾ [آل عمران: ١٢٨]، وقال لـه: ﴿ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ﴾ [الأعراف: ١٨٨].

ونادى ﷻ بالضلال المبين على كل من يدعو سواه لقضاء حاجته أو كشف كربته، كما في قوله سبحانه: ﴿ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ ۗ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴾ [الرعد: ١٦]، وقال تعالى: ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الأنعام: ١٧]، وقال: ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [يونس: ١٠٧]، وقال: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ [الزمر: ٣٨].

وهذا يعني أنّ البسط والقبض والعطاء والمنع والرفع والخفض والإسعاد والإشقاء إنما هي جميعًا من خصوصيات الله تعالى، الذي لا شريك له في خلقه، لأنه وحده الذي خلق السماوات والأرض، ولم يكن لغيره شركة فيهما حتى مثقال ذرة مما اشتملا عليه، وقد أكدت ذلك نصوص في القرآن، منها قوله تعالى: ﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴾ [الإسراء: ٥٦]، وقوله: ﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴾ [سبأ: ٢٢]، وكذلك قوله: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ۖ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ ۚ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ

بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴾ [فاطر: ٤٠]، ثم أتبع ذلك أنّ الله تعالى وحده هو الذي يمسك السماوات والأرض أن تزولا، وليس لأحد غيره أي دخل في ذلك، حيث قال: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّن بَعْدِهِ ۚ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ [فاطر: ٤١]، ومثله قوله: ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ ۖ ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [الأحقاف: ٤]، وبيّن على أثره ضلال الذين يدعون من لا يملك استجابة لدعائهم، وذلك في قوله: ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ﴾ [الأحقاف: ٥]، وأتبعه أن الذين يدعونهم ينقلبون عليهم خصومًا يوم القيامة: ﴿ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴾ [الأحقاف: ٦].

وقال تعالى: ﴿ قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ ۖ قُل لَّا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ ۙ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴾ [الأنعام: ٥٦]، وقال سبحانه: ﴿ قُلْ أَنَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الأنعام: ٧١].

وهذه النصوص كلها واضحة صريحة في أنّ الله تعالى وحده هو المنفرد باستحقاق الدعاء، كما أنه منفرد باستحقاق العبادة، ولذلك قرن الله تعالى بين العبادة والاستعانة فيما قاله تعليمًا لعباده: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ [الفاتحة: ٥]، أي لا نعبد إلا إياك ولا نستعين إلا إياك، فهذه المفاهيم الصحيحة هي التي يجب أن ترسخ في عقول الناس جميعًا، وإلا زاغت العقول واضطربت النفوس، وتراكمت عليها الشكوك، وحار الإنسان في حياته والعياذ بالله، فإن تعرض لشبهات الملحدين لم يجد ما يجيب به عليها، فكان له أسرع

انقيـادًا؛ لأن عقيدته لم تقم على أسـاس متين من حقائـق تقتضيها العقول وتؤكدها النصوص.

انتهاك حقوق الإنسانية باسم الدين من أهم عوامل انتشار الإلحاد:

إنّ الإنسان ذو قدر عال ومكانة سامقة وشأن رفيع عند الله تعالى، إلا إذا أسقط الإنسـان قدره بإعراضه عن الله، وقد جاءت النصوص القرآنية مؤكدة ما يقتضيه العقل، ويدل عليه الواقع من قدر الإنسـان، ناهيك أنّ الله سبحانه عندما أرد أن يخلق الإنسـان آذن الملأ الأعلى بهذا الحدث العظيم، ليكونوا على استعداد للتفاعل معه وفق ما يقتضيه أمر الله، فقد قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ۝ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ [البقرة: ٣٠ ـ ٣٣].

ففي هذه الآيات ما هو أقوى دليل وأجلى برهان على مكانة الإنسان في موازين الله، كيف وقد اختاره الله تعالى من بين سائر خلقه ليكون خليفة في الأرض، ومعنى استخلافه فيها تمكينه في جميع أرجائها؛ لتعود إليه منافعها ويسخر كل شـيء فيها لما يعود إليه وإلى جنسه بالمصلحة، وهذا ما جسده قوله تعالـى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ [البقرة: ٢٩]، فإذا كان ما في الأرض مخلوقًا لـه فهو أولـى بالانتفاع به، وتصريفـه بما يتفق مع مسـئوليته في هـذه الأرض، على أنه لـم يقف تمكينه في حـدود الأرض وحدها، بل منح الانتفاع بما في أرجاء الوجود، كما هو صريح قوله تعالى:

﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ﴾ [الجاثية: ١٣]، على أنّ هذا التشريف الذي شُرّفه هو مصحوب بتكليف منه تعالى بأن يضطلع بأمانته سبحانه.

فإنّه الأمين على ما خوّله لتوجيهه إلى الغايات المثلى، وما كان الله تعالى ليأتمن الإنسان على هذا كله إلا بسبب ما أودعه في تكوينه من طبيعة تميزه، وملكات تمكنه، وقدرات على تصريف ما تحت يده تصريفًا أمينًا إن استلهم منهجه في الحياة ممن استخلفه فيها وآتاه من فضله، وأغدق عليه كرمه المدرار.

وقد بيّن تعالى هذه المكانة العالية التي بوأها الإنسان عندما قال: ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ [الإسراء: ٧٠]، ولأجل هذا كله كان العدوان على أي حق من حقوقه انتهاكًا لحق الله تعالى الذي شرع هذه الحقوق للجنس الإنساني، لا سيما حق الحياة، ومما يدل على جسامة هذا العدوان وفحشه وسوء عاقبته قوله تعالى: ﴿ مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ﴾ [المائدة: ٣٢]، وقد قرن تعالى بين عقوبة الشرك به وعقوبة العدوان على النفس البشرية في قوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ۝ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴾ [الفرقان: ٦٨ ـ ٦٩].

وكذلك شدد الله سبحانه في انتهاك أي حق من حقوق الإنسان سواء كان حقًا ماليًا أو حقًا اجتماعيًا، كما هو صريح قوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ ۚ وَلَا

نَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ۝ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴾ [النساء: ٢٩ ـ ٣٠]، وأنتم ترون كيف قرن الله تعالى في هاتين الآيتين بين حق الإنسان في الحياة وحقه في التملك، وجعل انتهاك أي حق من الحقين ينتهي بالمنتهك إلى صلي النار وبئس المصير.

وبيّن تعالى عظم الحقوق الاجتماعية للجنس البشري ووجوب رعايتها على الكل عندما قال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلْأَلْقَٰبِ ۖ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ۝ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [الحجرات: ١١ ـ ١٣].

ولا ريب أنّ ما في القرآن الكريم من التوجيه إلى رعاية الحقوق الإنسانية هو شريعة الله تعالى العادلة؛ التي خاطب بها جميع الأمم فيما أوحاه إلى رسلها، كما هو واضح في قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ۝ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ۝ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ۚ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن

يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [البقرة: ٨٣ ـ ٨٥]، ولكن هل روعيت هذه الحقوق عند الأمم، وهل حوفظ عليها في أحكامها ونظمها، أم أنها ديست بالأقدام وبدلت أحكام الله تعالى التي شرعت فيما أنزله على رسله، بنُظُم الجور وانتهاك حرمات الإنسانية، التي رفعها الله تعالى وأعلى من قدرها، فقد وصل الأمر إلى تحريف ما أنزل وتبديل موازين القسط التي شرعها الله ﷻ بما لم يأذن به الله، فكم تجد في التوراة المحرفة التي بأيدي اليهود من تشجيع على إبادة الرجال والنساء والأطفال والبهائم، واستباحة جميع الحرمات، وإهلاك الحرث والنسل، حتى أنّ فيها أن داود عليه السلام أمهر امرأته بنت طالوت مائة ذكر جَبُّها من الفلسطينيين الذين قتلهم..! وكان ذلك بحسب اشتراط أبيها، ويا لها من مهزلة لا تدل إلا على سخافة العقول، وفساد الفطرة، وقسوة القلوب، وقد عزوا إلى موسى عليه السلام أنّه يأمر قومه أن لا يبقوا على أحد من الرجال والنساء والأطفال والدواب، فأين الرحمة وأين الرفق بالعباد؟!.

دعك مما في التوراة من نسبة أبشع الجرائم إلى الأنبياء، حتى في حق نصرائهم الذين هم أخص خاصتهم وأكثرهم لهم إخلاصًا ولمقامهم تعظيمًا..! كما جاء في الإصحاح الحادي عشر من سفر صموئيل الثاني وهذا نصه:

«وكان عند تمام السنة في وقت خروج الملوك، أنّ داود أرسل يوآب وعبيده معه وجميع إسرائيل، فأخربوا بني عمون وحاصروا ربة، وأما داود فأقام في أورشليم، وكان في وقت المساء أن داود قام عن سريره وتمشى على سطح بيت الملك، فرأى من على السطح امرأة تستحم، وكانت المرأة جميلة المنظر جدًا، فأرسل داود وسأل عن المرأة، فقال واحد: أليست هذه بثشبع بنت أليعام امرأة أوريا الحثي. فأرسل داود رسلًا وأخذها، فدخلت إليه فاضطجع معها وهي مطهرة من طمثها ثم رجعت إلى بيتها، وحبلت المرأة

فأرسلت وأخبرت داود، وقالت: إني حبلى. فأرسل داود إلى يوآب يقول: أرسل إلي أوريا الحثي. فأرسل يوآب أوريا إلى داود فأتى أوريا إليه، فسأل داود عن سلامة يوآب وسلامة الشعب ونجاح الحرب، وقال داود لأوريا: انزل إلى بيتك واغسل رجليك، فخرج أوريا من بيت الملك، وخرجت وراءه حصة من عند الملك، ونام أوريا على باب بيت الملك مع جميع عبيد سيده ولم ينزل إلى بيته فأخبروا داود قائلين: لم ينزل أوريا على بيته. فقال داود لأوريا: أما جئت من السفر، فلماذا لم تنزل إلى بيتك؟ فقال أوريا لداود إنّ التابوت وإسرائيل ويهوذا ساكنون في الخيام، وسيدي يوآب وعبيد سيدي على وجه الصحراء، وأنا آتي إلى بيتي لآكل وأشرب واضطجع مع امرأتي، وحياتك وحياة نفسك لا أفعل هذا الأمر، فقال داود لأوريا: أقم هنا اليوم أيضًا وغدًا أطلقك. فأقام أوريا في أورشليم ذلك اليوم وغده، ودعاه داود فأكل أمامه وشرب وأسكره، وخرج عند المساء ليضطجع في مضجعه مع عبيد سيده، وإلى بيته لم ينزل.

وفي الصباح كتب داود مكتوبًا إلى يوآب، وأرسله بيد أوريا، وكتب في المكتوب يقول: اجعلوا أوريا في وجه الحرب الشديدة وارجعوا من ورائه فيضرب ويموت، وكان في محاصرة يوآب المدينة أنّه جعل أوريا في الموضع الذي علم أنّ رجال البأس فيه، فخرج رجال المدينة وحاربوا يوآب، فسقط بعض الشعب من عبيد داود، ومات أوريا الحثي أيضًا، فأرسل يوآب وأخبر داود بجميع أمور الحرب وأوصى الرسول قائلًا: عندما تفرغ من الكلام مع الملك عن جميع أمور الحرب فإن اشتعل غضب الملك وقال لك: لماذا دنوتم من المدينة للقتال، أما علمتم أنهم يرمون من على السور من قتل أبيمالك بن يربوشث، ألم ترمهم امرأة بقطعة رحى من على السور فمات في تاباص؟ لماذا دنوتم من السور؟ فقل قد مات عبدك أوريا الحثي أيضًا.

فذهب الرسول ودخل وأخبر داود بكل ما أرسله به يوآب، وقال الرسول لداود قد تجبر علينا القوم وخرجوا إلينا إلى الحقل، فكنا عليهم إلى مدخل الباب، فرمى الرماة عبيدك من على السور فمات البعض من عبيد الملك، ومات عبدك أوريا الحثي أيضًا، فقال داود للرسول: هكذا تقول ليوآب، لا يسوء في عينيك هذا الأمر، لأن السيف يأكل هذا وذاك، شدد قتالك على المدينة وأخربها وشدده.

فلما سمعت امرأة أوريا أنه قد مات أوريا رجلها ندبت بعلها، ولما مضت المناحة أرسل داود وضمها إلى بيته، وصارت له امرأة وولدت له ابنًا»[1].

وحسبك ما في هذا النص من وصف داود عليه السلام بأقصى ما يتصور من القسوة والعنف وعدم المبالاة بكرامة الإنسان، حيث يعرض عن عمد رجلًا من جنده ومن أكثر الناس برًا به وإخلاصًا له، وتفانيًا في خدمته، للقتل بعدما يتعقبه في أهله بالفجور، وما ذلك إلا من أجل أن يستأثر بحليلته..! فأي رعاية في هذه الموازين لقيمة الإنسانية وحرماتها؟ أوتعجب بعد هذا كله أن تجد ريتشارد دوكينز رأس ملاحدة العصر ـ ومن معه من قطيع الملحدين ـ يصفون الإله المذكور في التوراة والإنجيل الذي أقر هؤلاء الأنبياء على هذه التصرفات بأسوأ التهم بالظلم والقسوة، وعدم المبالاة بحقوق الإنسان؟!.

على أنّ هذا الظلم لم يكن تنظيرًا فحسب؛ بل كان مطبقًا في حياة الأمم تنوء تحت وطأته الشديدة باسم الدين، الذي فرض على الناس قبول الظلم، والخضوع للظالمين، وقد ذكر الأستاذ الشهيد سيد قطب الصراع الذي كان بين الأباطرة وأتباعهم من ناحية وبين البابوات والكرادلة والقساوسة من ناحية أخرى، وكيف انتهى إلى الوفاق على أن يكون جماهير الناس هم

---

(١) الكتاب المقدس؛ سفر صموئيل الثاني، الإصحاح ١/١١ ـ ٢٧.

الضحايا من أجل ضمان مصلحة الفريقين، وكان مما قاله في هذا: «ثم وقع الوفاق ـ كما لا بد أن يقع ـ بين هاتين السلطتين لالتقاء مصلحتيهما في تسخير الجماهير، واستغلال الدهماء ما دامت مصالح مادية واقتصادية في حقيقتها، وما دام النزاع في أصله على السلطة الزمنية، وكان هذا، وقيل إنّ الدين مسخر لإخضاع الملايين للمستبدين ورجال الدين، لأنه هكذا كان عند الأوروبيين»[1].

على أنّ هذا كله تم باسم الدين كما أنشئت باسمه محاكم التفتيش التي أبيد كل من ألصقت به تهمة من قبلها، فأبيد جماهير أهل الأندلس المسلمين بعدما تسلمت الصليبية السلطة فيها، وبدلًا أن يرعوا للمسلمين حقوقهم ويكافؤهم ـ على ما قدموه للغربيين عندما كانت السلطة بأيديهم من إنجازات حضارية هائلة لم يكونوا يحلمون بها ـ كشروا لهم عن أنيابهم العصل، وعاملوهم شر معاملة، فأبادوا كل من تسلطوا عليه من غير أن يرعوا لهم ذمامًا، وهكذا كان الأمر عندما انطلقوا إلى الشرق في حملتهم الصليبية التي قادها أوفونسو دلبو كيرك الطاغية المجرم، وكان متعطشًا إلى سفك الدماء ونهب الأموال، وانتهاك الحرمات، وطمس المعالم الحضارية، كما اعترف بذلك في مذكراته التي نشرت أخيرًا مترجمة إلى العربية في مجلدين كبيرين يبلغ كل واحد منهما ٨٠٠ صفحة، وكان يفاخر بجرائمه التي ارتكبها، وعندما ترجم الكتاب قبل أكثر من قرن من الزمن إلى اللغة الإنجليزية كان مترجمه فخورًا بما قدمه الطاغية المذكور، مما يعده إنجازات هائلة تحسب للغرب.

على أنّ ما ارتكبوه من الجرائم باسم الدين وبقيادة الصليب المقدس شمل أممًا وادعة مسالمة، لم تكن بينهم وبينهم أية سوابق، وما كانوا

---

(١) الشاربي، سيد قطب؛ إبراهيم حسين: **العدالة الاجتماعية في الإسلام**، ص٩، دار الشروق ـ بيروت/القاهرة، ط ١٦: ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م.

يتلقونهم إلا بغاية الإذعان والتسليم، كما كان ذلك عندما شنوا حروبهم ضد الهنود الحمر في العالم الجديد الذي اكتشفوه، فقد كانت كتائب الإبادة مصحوبة بحملات التنصير، ولم يكن في أي الحملتين من ينبض قلبه بالرحمة أو تجد الشفقة إلى نفسه سبيلًا، ما عدا المطران **بيرتوا لومى دى لاس كازاس** الذي ولد في إشبيلية في عام ١٤٨٤م، وخرج لما كان في الثامنة عشرة من عمره في الحملات الأسبانية إلى العالم الجديد، وشاهد بأم عينيه تلك المذابح الوحشية التي أوقعها الأسبان بالسكان المحليين، وأزعجه ما رآه هناك من فظائع يندى لها جبين الإنسانية، وجه أخيرا كتابًا في عام ١٥٤٢م إلى الملك **فليب الثاني** ملك أسبانيا، ليطلعه على ما يرتكب باسم الدين من جرائم لا تحتملها النفوس السوية من البشر، وقد نشر كتابه هذا ضمن منشورات المعهد الدولي للدراسات الإنسانية في الولايات المتحدة الإمريكية تحت عنوان **من أجل الحقيقة**، وترجم إلى لغات متعددة ومن بينها العربية، وقد صدر كتابه هذا بهذه المقدمة:

«إلى سمو أمير بلاد إسبانيا المعظم مولانا دوق فيليب.

إنني أريد أن أحدثكم يا سمو مولاي عن الشرور والآثام، وعن الدمار والخراب في هذه الممالك الكبيرة، أقصد هذا العالم الجديد الشاسع المسمى ببلاد الهنود (الحمر) التي وهبها الله لملوك قشتالة وناطها بهم ليسوسوها ويصلحوا أمرها ويهدوا أهلها إلى المسيحية فينعموا عليها بأمل الدنيا والآخرة.

وإنّ المرء لا يستطيع أن يتخيل أبدًا أنّ في قدرة البشر أن يقوموا بمثل هذا التخريب، لقد عشت في بلاد هذه الشعوب الهندية أكثر من خمسين عامًا وشاهدت بأم عيني ما ارتكبوه من فظاعات وجور، ولو أنّ سموكم علم بالنزر اليسير من هذه الفظائع لتوسل إلى جلالتها أن تمنع الطغاة من طغيانهم باسم

الفتوحات، إن كل سماح باستمرار الفتوحات يعني سماحًا بتكرار الفظاعات، فما تلقاه الشعوب الهندية المسالمة المتواضعة المرهفة ليس إلا طغيانًا وجورًا يدينهما كل قانون، وضعيًا كان أم إلهيًا، إنها أفعال مرذولة ملعونة، ولهذا عزمت على أن أبرئ ساحتي من هذه الجريمة بأن لا أسكت عنها، وأن أحدثكم عما جناه الطغاة وعما أزهقوه من أرواح وآذوه من أجساد.

عزمت أن أكتب عن النزر اليسير منها لأنني عاجز في الحقيقة عن أن أكتب عنها كلها، ولقد أردت أن أوجز لأجعل أمر قراءتها يسيرًا على سموكم.

وكان رئيس أساقفة طليطلة قد طلب مني رواية هذه الأحداث، وقدمها إلى سموكم، ولعلكم لم تطلعوا عليها، أو لربما نسيتموها في غمرة مشاغلكم الملكية المتعددة، أو أسفاركم الطويلة في البر والبحر.

ثمة استهتار وطيش يتعاظمان في أنفس هؤلاء الذين يسفكون كل هذه الدماء، ويستأصلون هذه الأراضي الشاسعة من أهلها وأصحابها بقتل مليار من البشر، وبنهب الكنوز التي لا تقدر بأثمان، إنهم يحتالون بأساليب مختلفة من أجل أن تسمحوا لهم بالمضي في الفتوح التي لا يمكن السماح بها من غير الاعتداء على حرمات الله، واختراق القوانين الطبيعية، ومن غير اقتراف الخطايا المنكرة التي تستأهل العذاب الشديد.

لهذا رأيت لزامًا عليّ أن أقدم لسموكم رواية شديدة الإيجاز لتاريخ طويل من الأذى والدمار، ولا بد من كتابة هذا التاريخ ذات يوم، إنني أتوسل إلى سموكم أن تقرأوا هذا الكتاب وأن تولوه بالعطف والرعاية اللتين تولونهما رعيتكم الوفية، وإنني أتمنى عليكم أن تسترحموا جلالتها وتقنعوها بوقف هذه الفتوح الشنيعة، وذلك بعد أن تقرأوا هذه الرواية الموجزة وتصيروا على علم بوحشية الظلم المستفحش بهذه الكائنات البريئة التي نمثل بها ونقطعها

إربًا إربًا من أجل الجشع والطمع ليس إلا، إنني استرحمكم أن تقنعوا جلالتها بوقف الفتوحات والتخويف من استمرارها تخويفًا لا يجرؤ بعد ذلك أحد على طلب الإذن بها، إن ذلك يا مولاي المبجل أمر جلل لا بد منه، إذا كنا نريد أن يوفق الله مملكة قشتالة ويسبغ عليها السعادة والرخاء... آمين»[1].

ثم عرَّج بعد هذا على وصف ذلك الشعب الذي تمكنوا منه ووداعته وطيب نفسه وبعده عن الشر، وما كان يقابل ذلك من بطش المتسلطين عليه، وما فعلوه به من أمور لا يتصور أن تكون من البشر، فقال في ذلك: «خلق الله هذه الشعوب الغفيرة راضية لا تعرف الشر والرياء، إنها شعوب طيعة بالغة الوفاء لأسيادها الطبيعيين وللمسيحيين الذين تخدمهم، بل إنها أكثر الشعوب تواضعًا وصبرًا ومسالمة وسكينة، إنها لا تعرف الضغينة ولا الصخب والعنف والخصام، شعوب تجهل الحقد وسوء الطوية، وتعف عن الثأر والانتقام، شعوب مرهفة رقيقة الحاشية ناحلة هزيلة لا تطيق أجسادها الرهق، وسرعان ما يهلكها المرض مهما كان، إنّ أبناء أمرائنا ونبلائنا الذين ترعرعوا في ظل الرفاهية والرخاء وخضرة الحياة أقوى عودًا منها، بل أشد بأسًا من فلاحيها. شعوب فقيرة لا تملك الوفر بل تعف عن متاع الدنيا؛ لهذا لا تعرف الكبر والجشع والطموح، وليس طعامها بأحسن أو أكثر أو أتعس من طعام الرهبان في الصحاري، وتراهم عراة يمشون لا يسترون إلا عوراتهم، ويغطون أجسادهم بغطاء من القطن، يفترشون الحصير، وينامون فيما يشبه الشبكة المعلقة.

إنّ لهم ذهنًا ثاقبًا شديد الوضوح، وهم أذكياء منفتحون لكل عقيدة صالحة وتراهم يلحون على معرفة الشاردة والواردة، إنّ كثيرًا من الإسبان

---

(١) كازاس؛ برتولومي دي لاس: **مذابح الهنود الحمر** (رسائل المطران برتولومي دي لاس كازاس)، ص٣٢ ـ ٣٣، راجعه وصدر له: د. محمد بن أحمد بن خلف الحسيني، دار الفضيلة ـ القاهرة، ط: ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م.

ـ غير الكهنة ـ يعترفون بأنهم لا يستطيعون أن ينكروا طيبة أنفسهم وحميد خصالهم، ولربما كانت هذه الشعوب أسعد أهل الأرض لو أنها عرفت الله.

لقد غشى الإسبان هذه الخراف الوديعة غشيان الذئاب والنمور والأسود الوحشية، التي لم تجد طعامها أيامًا وأيامًا، ومنذ أربعين سنة وهم يقطعون أوصالها ويقتلونها ويروعونها، ومنذ أربعين سنة وهم يفتكون بها ويعذبونها ويبيدونها، كل يوم فظاعة جديدة غريبة مختلفة لم نسمع ولم نقرأ عن مثلها من قبل، ولسوف أتحدث عنها لاحقًا، كانت هذه الفظائع شديدة لم تبق في الجزيرة الإسبانية اليوم سوى مائتي هندي من أصل ثلاثة ملايين.

إنّ جزيرة كوبا التي تبلغ مساحتها ما يفصل روما عن **فاللادوليد** خاوية على عروشها لم يبق من أهلها دَيَّار، أما جزيرتا سان خوان وجامايكا الآمنتان المطمئنتان فجزيرتان سعيدتان كبيرتان، ولكن أقفرت من أهلها بالحرب، وهنالك ستون جزيرة مثلهما على تلك الحال، إنّ أبشع جزيرة فيها أكثر خصبًا وأبهى جمالًا من حدائق ملك أشبيلية، كانت أسلم بلاد الله وأكثرها أمنًا وطمأنينة، وكان يسكنها نصف مليون من البشر لم يبق منهم اليوم أحد، فقد أفنى الإسبان أهلها وهم يطردونهم إلى الجزيرة الإسبانية التي أبيد سكانها، لقد جاب مركب إسباني وطاف على هذه الجزر ثلاثة أيام بحثًا عمن لعله نجا من أهلها بعد الحصاد، فلم يعثر على غير أحد عشر ناجيًا، وهنالك أكثر من ثلاثين جزيرة مجاورة لـ (سان خوان) كلها أقفرت وأفني أهلها.

أما على اليابسة فإننا على يقين من أنّ رجالنا الإسبان قد اجتاحوا ونهبوا أراضي كانت عامرة بأهلها الطيبين فصارت اليوم صحراء، لقد نهبوا أكثر من عشر ممالك أكبر من كل إسبانيا وأراغون والبرتغال مجتمعة، وتبلغ مساحتها ضعف ما بين إشبيلية والقدس، أي أكثر من ألفي فرسخ، وطوال هذه

السنوات الأربعين أبيد أكثر من اثني عشر مليونًا من الرجال والنساء الأطفال ظلمًا وعدوانًا، جراء طغيان المسيحيين وأعمالهم الجهنمية، هذا رقم مؤكد على الرغم من أنني أعتقد مطمئنًا إلى اعتقادي أنّ عدد الضحايا يتجاوز خمسة عشر مليونًا.

إنّ الذين ذهبوا إلى هناك من أدعياء المسيحية أبادوا الشعوب الهندية الوادعة ومحوا ذكرها من وجه الأرض، إما بالاجتياحات الدموية المتوحشة، وإما باستعباد من تبقى استعبادًا فظًا غليظًا شنيعًا لم يشهد مثله البشر ولم تعرفه الدواب، أما من كان يحلم بالحرية أو يفكر فيها أو يحاول الخلاص من عذاباته كما يفعل ذلك كل إنسان فمصيره القتل، عد من ذلك إلى أنواع منوعة من الجور والطغيان الجهنمي والتخريب.

قتل المسيحيون كل هذه الأنفس البهية وفتكوا كل ذلك الفتك باسم الدين ليحصلوا على الذهب ويكتنزوا الثروات، ويصلوا إلى مراكز أكبر من أشخاصهم، إن جشعهم وتطاول شهواتهم الجامحة أودى بهم إلى احتقار هذه الشعوب المتواضعة الحالمة الودودة، ونهب ثروات هذه الأراضي الخصبة البهيجة.

إنني أقول الحقيقة لأنني شاهدتها بأم عيني، كان المسيحيون ينظرون إلى الهنود الحمر لا كما ينظرون إلى الحيوانات ـ ويا ليتهم اعتبروهم حيوانات ـ بل أقل قدرًا من الدواب وأحط شأنًا من الزبل.

هكذا كانت حياة هؤلاء الناس وأرواحهم ـ في أعين الإسبان ـ ولهذا مات منهم العدد الغفير قبل أن يعرفوا حلاوة الإيمان ومن غير أن يتذوقوا القربان المقدس، ثمة حقيقة مؤكدة أجمع عليها الإسبان بطغاتهم ومجرميهم وهي أنّ الهنود في كل تلك البلاد لم يمسوا مسيحيًا بسوء، وكان الهنود في البداية

يظنون أنّ المسيحيين قد نزلوا عليهم من السماء، كان ذلك إلى أن عذبهم المسيحيون ونهبوهم وفظعوا بهم ونكبوهم مرارًا وتكرارًا»[١].

ثم تعرض لما كان ينزلونه بهذه الشعوب الوادعة من الويل وصنوف العذاب، فقال: «كانت فنون التعذيب لديهم أنواعًا منوعة، بعضهم كان يلتقط الأحياء فيقطع أيديهم قطعًا ناقصًا لتبدو كأنها معلقة بأجسادهم، ثم يقول لهم: (هيا احملوا الرسائل)، أي: هيا أذيعوا الخبر بين أولئك الذين هربوا إلى الغابات، أما أسياد الهنود ونبلاؤهم فكانوا يقتلون بأن تصنع لهم مشواة من القضبان يضعون فوقها المذراة، ثم يربط هؤلاء المساكين بها، وتوقد تحتهم نار هادئة من أجل أنّ يحتضروا ببطء وسط العذاب والألم والأنين.

ولقد شاهدت مرة أربعة من هؤلاء الأسياد فوق المشواة، وبما أنهم يصرخون صراخًا شديدًا أزعج مفوض الشرطة الإسبانية الذي كان نائمًا (أعرف اسمه، بل أعرف أسرته في قشتالة) فقد وضعوا في حلوقهم قطعًا من الخشب أخرستهم، ثم أضرموا النار الهادئة تحتهم، رأيت ذلك بنفسي، ورأيت فظائع ارتكبها المسيحيون أبشع منها، أما الذين هربوا إلى الغابات وذرى الجبال بعيدًا عن هذه الوحوش البشرية الضارية فقد روض لهم المسيحيون كلابًا سلوقية شرسة لحقت بهم، وكانت كلما رأت واحدًا منهم انقضت عليه ومزقته وافترسته كما تفترس الخنزير، وحين كان الهنود يقتلون مسيحيًا دفاعًا عن أنفسهم كان المسيحيون يبيدون مائة منهم لأنهم يعتقدون أن حياة المسيحي بحياة مائة هندي أحمر»[٢].

واستطرد بعد ذلك في وصف استحواذهم على أموالهم واغتصابهم لنسائهم ـ ومن بينها نساء حكامهم ـ وجبرهم على أن يأتوهم بالذهب الذي

---

(١) المرجع السابق، ص٣٤ ـ ٣٧.

(٢) المرجع السابق، ص٣٩ ـ ٤٠.

يسيل من أجله لعابهم، باستخراجه من معادنه في الأرض، ومواصلتهم جرائمهم البشعة أينما حلوا من الأرض التي حلوا فيها، واسترقاقهم لأحرارهم وتسخيرهم في الأعمال الشاقة رجالًا ونساء حتى الحوامل منهم، فكن يضعن حملهن بسبب ما يلقينه من التنكيل والعذاب وأثقال الأحمال التي يحملنها، هذا مع تجويعهم وحرمانهم من أي راحة.

وبعد استطراد طويل في شرح هذه الجرائم عبر المطران عن عجزه عن شرح هذه الجرائم، لأن اللغات تعجز عن شرحها، فقال: «ليس هناك لغة أو قدرة أو براعة بشرية تستطيع سرد هذه الوقائع المخيفة التي تجري في بلاد الهند يوميًا على أيدي هؤلاء الزوار الذين جاؤا إلى هذه البلاد، هؤلاء الذي يعتبرون عدوانًا خطيرًا على بني الإنسان.

والواقع أنّ تفسير بعض هذه الأعمال الوحشية مستحيل، مهما بذلت له من جهود، وصرفت له من وقت، لكنني سوف أتحدث عن ذلك في المقاطع اللاحقة مقسمًا أنني لا أذكر إلا معشار معشار معشار ما جرى»[1].

ولربما كان الهنود الحمر في بعض مجتمعاتهم ساهين لاهين؛ غير عارفين ما حاق بإخوانهم، ولا مدركين ما يراد بهم فلذلك كانوا يستقبلون هؤلاء الغازين استقبال الوافدين بالخير، الحاملين لرسالة السلام، ظنًا منهم أنهم جاؤهم بالخير، الذي لم يكن لهم به عهد من قبل، فقد وصف المطران كيف استقبلوا في مدينة **شولولا**، فقال: «حين علم الهنود بمجيء الإسبان خرج زعماء المنطقة جميعًا لاستقبالهم وكان معهم الكهنة ورئيس الكهنة، وقد سار الموكب للقاء المسيحيين تظلله الهيبة ويحيط به الجلال، ودعا الهنود ضيوفهم الأسبان لينزلوا في بيوتهم وقصورهم، غير أن الإسبان كانوا مصممين على المجزرة التي كانوا

---

(١) المرجع السابق، ص٥٥.

يسمونها (عقابًا) لبسط الهيبة وترويع السكان وتخويفهم، وكانت هذه سياسة الفتح الإسباني: أول ما يفعلونه عندما يدخلون قرية أو مدينة هو ارتكاب مجزرة مخيفة، مجزرة جماعية ترجف منها أوصال هذه النعاج المرهفة.

ونادى الإسبان كل أسياد المدينة ونبلائها ليسجنوهم فورًا، ومن غير أن يعلم بذلك أحد من الطلقاء، ثم طلب الإسبان ستة آلاف هندي ليحملوا بضائعهم، وحين جاءوا سجنوهم كذلك في باحات المنازل، إن مشهد هؤلاء الهنود وهم يستعدون لحمل حقائب الإسبان وبضائعهم يثير الشفقة والأسى، فهم يجيئون عراة ليس عليهم إلا ما يستر عوراتهم، ويحملون معهم شباكًا صغيرة فيها طعامهم المتواضع، ثم يقرفصون جميعًا كالخراف الوديعة، وحين تجمع الهنود أغلق عليهم الإسبان الأبواب، وشددوا عليها الحراسة، ثم استلوا خناجرهم وبدأوا بذبح هذه النعاج، فلم ينج منهم إلا القليل، وبعد يومين أو ثلاثة رأينا بعض الهنود يخرجون أحياء ملطخين بالدم، وكان هؤلاء الناجون قد اختبأوا تحت القتلى (ونجحوا في الاختفاء لكثرة القتلى)، وراح هؤلاء الناجون يسترحمون الإسبان ويستعطفونهم أن لا يقتلوهم... سدى، فالإسبان لا يعرفون الشفقة أو الرحمة ولهذا قطعوهم إربًا إربًا»[1].

وأضاف إلى ذلك: «بعد قتل ستة آلاف هندي أمر القبطان بإخراج الأسياد الذين كانوا موثقين بالنير، وعددهم أكثر من مائة، ثم أمر جنوده بإحراقهم أحياء»[2].

ومن حيث إن الهنود الحمر طبعوا على اللطف والليـن، وكانوا أغمارًا لا يدرون ما هي دخائل هؤلاء الغازين، فإنهم استقبلوهم في كثير من أرجاء

---

(١) المرجع السابق، ص٥٥ ـ ٥٦.

(٢) المرجع السابق، ص٥٦.

بلادهم بغاية الترحاب والكرم، ولكنْ هؤلاء الغازون لم يكن ليرقق ذلك شيئًا من مشاعرهم أو ليحد شيئًا من حقدهم وقسوتهم، فكانوا سرعان ما يقلبون لهم المجن، وهم في غفلة عن شأنهم، كما حصل ذلك في مكسيسكو، ويصور ذلك المطران في رسالته الاستعطافية التي وجهها إلى القيادة الإسبانية لعلها تحد شيئًا من هذا الإجرام، فبعد أن ذكر مجزرة أخرى قام بها الأسبان في مدينة تيباكا أتبع ذلك قوله:

«ومن هناك توجهوا إلى مكسيكو فأرسل إليهم ملكها الكبير مونتيزوما بألوف الهدايا، وأمر بإحياء الحفلات على طول الطريق المؤدية إلى مكسيكو، ثم أوفد إليهم أخاه ليستقبلهم بالترحاب قبل وصولهم إلى مكسيكو بفرسخين، وكان معه عدد من الأشراف المحملين بهدايا الذهب والفضة والملابس، وعندما وصلوا مدخل المدينة جاء مونتيزوما لاستقبالهم بنفسه، تصحبه حاشيته، ثم اصطحبهم إلى قصره وأنزلهم ضيوفًا عنده، وقد علمت أنّ الإسبان انقضوا على الملك في اليوم نفسه وأوثقوه بسلاسل الحديد، كان الملك يجهل الحذر.

وحين علم الهنود بذلك قرروا إحياء الحفلات حول القصر إكرامًا لملكهم الموثق بالسلاسل، فعسى أن تشفع لهم آلهتهم، كما أقاموا الرقصات والاحتفالات في كل أنحاء المدينة، ولبس الهنود في هذه المناسبة أجمل ثيابهم وأغلى حليهم، واشترك في ذلك أكثر من ألفي شريف ونبيل: صفوة القوم، عندها وجه القبطان الإسباني رجاله إلى مختلف أنحاء المدينة حيث كانت الاحتفالات بحجة أن الجنود يرغبون في مشاهدتها، وأمر جنوده بالانقضاض على الهنود في ساعة معلومة. وبينما كان الهنود يرقصون ويغنون صرخ القبطان: (عليهم يا قديس جاك، يا قديس جاك عليهم!) وابتدأ المسيحيون بتمزيق تلك الأجساد اليانعة البضة

بسيوفهم، وسفك تلك الدماء الكريمة، لم يتركوا هنديًا واحدًا على قيد الحياة، وكذلك فعل باقي الجنود.

مثل هذه الأفعال نشرت الرعب وأشاعت الذهول في هذه الشعوب البريئة، وأصابتهم الحسرة والمرارة، ولسوف تبقى هذه الشعوب تنشد أساها في أغانيها الوطنية ورقصاتها حتى نهاية العالم، ولسوف تندب ما أصاب سلفها الشريف النبيل من فجائع»[1].

وبعد استطراده في ذكر هذه الفظائع أضاف إلى ذلك قوله: «وأذكر فظاعة أخرى ارتكبها هذا القبطان من بين ما ارتكبه من فظائع، كان ذلك في مقاطعة **كوزكاتان** حيث توجد اليوم مدينة **مان سلفادور** تقريبًا كانت أرضًا سعيدة تشرف على معظم الساحل الذي يمتد ٤٥ فرسخًا على بحر الجنوب، ولقد خرج أكثر من ثلاثين ألف هندي من العاصمة **كوزكاتان** لاستقبال الإسبان، كانوا يحملون معهم الدجاج والأغذية، وبعد أن أخذ الإسبان الهدايا أمر القبطان بتوزيع الهنود على الجنود عبيدًا، فكانت حصة كل جندي ١٥٠ عبدًا هنديًا، وبذلك تشتت أسر هؤلاء الهنود الأبرياء بين هذا الجندي الإسباني وذاك»[2].

وبلغت بهم الوحشية أن استباحوا أكل لحوم فرائسهم من البشر، كما ذكر ذلك المطران في قوله: «وكان القبطان لا يقدم لرجاله الطعام، لكنه سمح لهم بأن يأكلوا الهنود الذين معهم أو الذين يلتقطونهم أثناء الغارات على المدن والقرى، هكذا صار معسكره أشبه بمسلخ يتراكم فيه لحم البشر، كان الرجال يقتلون الأطفال ويشوونهم، وكانوا يقتلون الإنسان من أجل أن يأكلوا لحم

---

(١) المرجع السابق، ص ٥٧ ـ ٥٨.

(٢) المرجع السابق، ص ٦٣ ـ ٦٤.

كفيه وقدميه قائلين إنها أشهى لحم الإنسان، وحين عرف سكان المناطق القريبة بهذه الأعمال البهيمية أصيبوا بالهلع ولم يعرفوا أين يختبئون»[١].

ثم أضاف إلى ذلك: «وقتل هذا الطاغية من الهنود عددًا كبيرًا بطريقة أخرى، كان يحمل عليهم قطع الخشب الكبيرة ليبني منها السفن، كانوا يحملونها مسافة تبلغ ١٣٠ فرسخًا، كما كان يحمل عليهم قطع المدفعية الثقيلة، فكانوا يموتون على الطرقات، وكان يملأ السفن بالهنود الذي يموتون جوعًا وعطشًا، والحق أقول إنني إن وصفت كل فظائع هذا الطاغية لأرعبت العالم.

لقد شيد هذا الطاغية أسطولين أحرق بهما كل هذه الأراضي وكأن السماء كانت تمطر نارًا، آه، كم ترك من أيتام، وكم سرق أطفالًا من أهلهم، وكم حرم رجالًا من زوجاتهم، ونساء من أزواجهن.

وآه.. كم ارتكب جنوده الزنا والفسق والدعارة والعنف، كم استعبد بشرًا، وكم أهرق دمًا، وأسال دموعًا»[٢].

وبعد أن ذكر دخول الغزاة **بانوكو وجاليسكو** وما رزئ به أهلهما من تقطيع أوصالهم والاستئثار بأموالهم، واغتصاب نسائهم وأطفالهم، وإبادة جماهيرهم واسترقاق من بقي منها، وإحراق قراهم، وقطع ألسنتهم وإطعامها الكلاب، عرج على ذكر أنّ هذا كله كان يفعل باسم الدين، ويعزى ذلك إلى أمر الله سبحانه، فقال في ذلك: «كان الإسبان طوال هذه السنين يكتبون ويزعمون أنّ الله أرسلهم لفتح هذه البلاد التي كانت آمنة مطمئنة، وأنّ الله هو الذي نصرهم على هذه الأمم، وكانوا يحمدون الله في صلواتهم ويشكرونه لأنه أعطاهم كل هذه الخيرات، ولأنهم قاموا بكل هذا الطغيان، إنهم يفعلون

---

(١) المرجع السابق، ص٦٥.

(٢) المرجع السابق، ص٦٥.

ذلك كما كان الطغـاة اللصوص الذي قـال عنهم النبي زكريـا: (مبارك هذا الرب.. لقد صرنا أغنياء)»[١].

وحسـبك من هذا دليلًا قاطعًا أن ما يرتكب باسـم الديـن من الجرائم لا يؤدي إلا إلى كراهـة الدين، والفرار منه إلى الإلحـاد، وبغض الإله الذي يعزى إليه أنه شـرع هذه الجرائم، وأنه يباركها ممـن ارتكبها، بل يؤدي بهم ذلك إلى كراهة الجنة التـي وعد بهـا المتدينون وإيثار عـذاب النار عليها ـ والعياذ بالله ـ كما أثبت ذلك المطران بروتولومي في رسالته المذكورة عندما صوَّر كيف كان جنود النصارى الأسبان يعذبون الهنود الحمر تعذيبًا يفوق كل تصوُّر حتى إذا أشـرف أحدهم على الموت أتاه راهب ليُنَصِّرَه؛ فقد جاء في رسـالته ما نصُّه: «ثم جاءه راهب من إخوة القديس فرانسو يهديه إلى الإيمان المسيحي قبل موته، ولم يكن زعيم القبيلة قد سمع عن ذلك من قبل، وقال له الراهب: إنّ عليه أن يغتنم هذا الوقـت القصير قبل موته ويؤمن لأن إيمانه سـوف يدخله الجنة وإلا إلى النار، وسـأل زعيم القبيلـة الراهب: هل هناك مسيحيون في الجنة؟ قال الراهب: معظمهم هناك، عندها قال الزعيم الهندي من غير تردد: إنني أفضل دخول النار عن أن ألتقي بكم في الجنة، أرسـلني إلى النار» ثم علق على ذلك المطران: «هكذا صارت سـمعة المسيحيين في بلاد الهند بفضل ما ارتكبوه من فظائع»[٢]، والله المستعان.

وقد استطرد المطران في ذكر الفظائع الوحشية التي ارتكبوها هنالك من غير أيِّ مرحمة وهو يؤكد أنَّ ما تضمنته رسالته لا يساوي أي نسبة مما قارفوه في حق الإنسـانية، فهل تبقى في نفس من يعامل هـذه المعاملة ميلولة نحو الدين أو بقية من الإيمان به إن كان سبق له أن آمن به وتقبله؟.

---

(١) المرجع السابق، ص٦٨.

(٢) المرجع السابق، ص٤٥ ـ ٤٦.

وقد علمت أنّ النظام الرأسمالي الجائر قام على تجاهل حق الضعفاء الكادحين، وكان ذلك يجري على مسمع ومرأى من ساسة الدين، ولم يحرك منهم هاجسًا، أو يحيي لهم ضميرًا، أو يوقظ في نفوسهم شعورًا تجاه المحرومين، فكانت نتيجة ذلك استهداف سياسة المستبدين، ونقض مبادئ الدين عند الملحدين الثائرين.

تشويه الإسلام الجميل بجرائم تشوهه وهو براء منها:

مع كون الإسلام قائمًا على العدل والإنصاف، وصوت الحق يجلجل ليل نهار من ألسنة التالين لكتابه القرآن، غير أنّ المتمسحين بهذا الدين من الذين هيأوا أنفسهم لأن يكونوا أبواقًا لسياسة المستبدين أبوا إلا أن يكابروا تعاليم القرآن وأن يشرعوا من تلقاء أنفسهم في الدين ما لم يأذن به الله، فبلغ بهم الأمر إلى أن يطلقوا أيدي الظلمة لتمتد كيف شاءت إلى حياة الناس وأموالهم وأعراضهم، وتعيث فسادًا في الأرض رافعين عنها المسئولية باسم الله واسم الدين..!!.

فقد أشاعوا بين الناس أنّ من يسمى بالخليفة إذا تبوأ هذا المنصب سقطت عنه المسئولية بينه وبين ربه، حتى ولو انتهك ما انتهك من الحرم وارتكب ما ارتكب من الظلم، لأنه صار في مكان من لا يسأل عما يفعل، حتى أنّ أهل الدنيا إن أرادوا أن يرعووا عن غيهم وانبعث في أنفسهم هاجس يدعوهم إلى الرجوع إلى الله صرفوه عن ذلك بهذه الدعوى الفاجرة، وردوه إلى الظلم والفجور، كما كان ذلك منهم تجاه يزيد بن عبد الملك الذي ولي السلطة بعد عمر بن عبد العزيز ﷺ، وكانت راقت له سيرة عمر، فأراد أن يحذوها، ولكن هؤلاء المحترفين صدوه عن ذلك، ومنوه أن يفوز برضوان الله، ولو لم يأت حسنة وقارف كل الجرائم والخطايا، وقد أثبت هذا من أثبته من الرواة والمخبرين، حتى أهل الحديث أنفسهم، كما قال ابن عساكر:

«أخبرنا أبو عبد الله الحسين بن عبد الملك، أنا أبو طاهر ابن محمود، أنا أبو بكر بن المقرئ، نـا أبو العباس بن قتيبة، ثنا حرملـة، أنبأ ابن وهب، نا عبد الرحمن ابن زيد ابن أسـلم، قال: لما توفي عمر بـن عبد العزيز، وولي يزيد بن عبد الملك، قال: سيروا بسيرة عمر، قال: فأتي بأربعين شيخًا فشهدوا له ما على الخلفاء حساب ولا عذاب»[1].

وقد أشـيعت هذه العقيدة الباطلة في عهد بني أمية في أوسـاط الناس، فكان عليها السـواد الأعظم منهم، وقد نص على ذلك ابن تيمية ـ مع تعصبه المقيت لهم واستماتته في الدفاع عنهم وتسويغ ضلالهم ـ وذلك في قوله:

«وأيضًـا، فكثير من أتباع بني أميـة أو أكثرهم، كانوا يعتقـدون أن الإمام لا حساب عليه ولا عذاب، وأنّ الله لا يؤاخذهم على ما يطيعون فيه الإمام، بل تجب عليهم طاعة الإمام في كل شـيء، والله أمرهم بذلك، وكلامهم في ذلك معروف كثير، وقد أراد يزيد بن عبد الملك أن يسير بسيرة عمر ابن عبد العزيز، فجاء إليه جماعة من شـيوخهم، فحلفوا له بالله الذي لا إله إلا هو، أنه إذا ولى الله على الناس إمامًا، تقبل الله منه الحسنات، وتجاوز عنه السيئات»[2].

وليت شعري؛ أين هذا الفكر المظلم المنتن من الفكر النير النظيف الذي جاء به القرآن؟! فانظر كيف خاطب الله تعالى داود عليه السلام وهو من أنبيائه الذين

---

(١) ابن عسـاكر: تاريخ مدينة دمشـق، ترجمة: يزيد بن عبد الملك بن مروان، (رقم الترجمة: ٨٣١٣)، ٣٠٤/٦٥، وينظر؛ ابن منظور: مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر، ٣٨٠/٢٧، والذهبي: سير أعلام النبلاء، ترجمة: يزيد بن عبد الملك، (رقم الترجمة: ٨٠٣)، ٩٠/٥، وأيضًا؛ تاريخ الإسـلام، المجلد الثالث، الجزء الأول، (رقم الترجمة: ٢٨٤)، ١٨٢/٥، وكذلك؛ المنتقى من منهاج الاعتدال، ص٤٢٧، واليافعي: مرآة الجنان، ١٧٨/١، وابن كثير: البداية والنهاية، ٦١/١٠، والسيوطي: تاريخ الخلفاء، ص٢٧٥، والدمشقي: شـذرات الذهب، ٢٨/٢ ـ ٢٩، والمناوي: فيض القدير، (رقم: ٦٢٨، ٤٥٥/١)، و(رقم: ٢١٩٠، ٥٣١/٢).

(٢) ابن تيمية: منهاج السنة، ٢٢٩/٦ ـ ٢٣٠.

اصطفاهم واجتباهم؛ ليكونوا قدوة للخلق، وأمثلة حية للرشد والحق، فقد قال تعالى لـه: ﴿ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴾ [ص: ٢٦]، وقد شدّد الله تعالى الخطاب تجاه نبيه ﷺ، وهو صفوته من جميع الخلق، ورحمته للعالمين، محذرًا إياه عن الخروج قيد شعرة عن منهج الرشد وسبيل الحق، كما في قوله له: ﴿ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ۞ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴾ [الإسراء: ٧٤ ـ ٧٥]، وقال في قضية الأسارى: ﴿ مَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۞ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [الأنفال: ٦٧ ـ ٦٨]، وقال له: ﴿ قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [الأنعام: ١٥]، وإذا كان هذا الخطاب بشدته يوجه إلى من اصطفاه الله تعالى بين جميع خلقه، فكيف يكون حال أولئك الأنذال الذين هم أحقر عند الله من التراب الذي يداس بالأقدام، ويحشرهم يوم القيامة كأمثال الذر لينالوا جزاءهم عنده؟!.

وإذا كان مجرد الركون إلى الظالمين متوعدًا عليه بعذاب النار، كما نص عليه قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾ [هود: ١١٣]، فكيف بالظلم نفسه يرفع عن الظالمين عقابه؟!.

وإنّ مما يؤسف له أن يظل هذا الفكر المنحرف يلقي بظلاله السوداء الحالكة على الفقه السياسي في هذه الأمة، وأن تصاغ وفقه السياسة الشرعية حتى غدت طاعة المتسلطين في الأرض هي طاعة الله تعالى، وهو مما أدى إلى أن تعطل شريعته سبحانه من أجل اتباع أهواء الظلمة

المستبدين، وقد سوغ من أجل ذلك أن يبيد الحاكم ثلث رعيته لأجل أن يصلح بذلك الثلثين الآخرين[1].

وأطلقت يد الحاكم بناء على ذلك لتسفك دماء بريئة لم يتحمل أهلها أي وزر، ولم يقارفوا أي خطأ، وإنما كان المسوغ لسفك تلك الدماء المحافظة على أن لا يأتي شيء ـ ولو في المستقبل البعيد ـ يزعزع كراسي الحكم أي زعزعة، ولم يكن هذا مبنيًا على مقدمات يقينية تؤدي إلى هذا التوجس من أولئك الذين تسفك دماؤهم، كما حصل ذلك من قبل سلاطين آل عثمان؛ بتسويغ وإقرار من قبل الفقهاء الذين أشربت عقولهم ذلك الفكر المنحرف، من عهد الأربعين الذين شهدوا ليزيد بن عبد الملك بما شهدوا به، وإليك صورة من ذلك مما قاله د. رضا الطيب، الأمين العام للجمعيات الشرعية وعضو هيئة علماء الجمعية:

«كانت هناك عادة وحشية بربرية وهمجية، صاحبت بعض سلاطين آل عثمان، في عصر التخلف والتأخر، وتم فيها سفك دماءٍ بريئة كثيرة، بلا ذنب ولا جريرة حيث كان السلطان الجديد حين يرتقي العرش يقوم بقتل إخوته

---

(١) ينظر؛ الجويني؛ أبو المعالي عبد الملك بن عبد الله بن يوسف: **البرهان في أصول الفقه**، ٧٨٥/٢، تحقيق: د. عبد العظيم محمود الديب، دار الوفاء ـ المنصورة / مصر، ط ٤: ١٤١٨هـ/١٩٨٨م، وأيضًا؛ **غياث الأمم والتياث الظلم**، ص ١٦٣، تحقيق: د. فؤاد عبد المنعم، د. مصطفى حلمي، دار الدعوة ـ الاسكندرية، ط ١: ١٤٠٠/١٩٧٩م، والغزالي: **المنخول من تعليقات الأصول**، ص ٤٥٤، و ص ٦١٢، تحقيق: د. محمد حسن هيتو، دار الفكر ـ دمشق، ط ٣: ١٤١٩هـ/١٩٩٨م، والمرداوي؛ علاء الدين أبو الحسن علي ابن سليمان الحنبلي: **التحبير شرح التحرير في أصول الفقه**، ٣٣٩٢/٧، تحقيق: د. عبد الرحمن الجبرين، د. عوض القرني، د. أحمد السراح، مكتبة الرشد ـ الرياض، ط ١: ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م، والنفراوي؛ أحمد بن غنيم بن سالم المالكي: **الفواكه الدواني على رسالة ابن أبي زيد القيرواني**، ١١٨/٢، و ١٨١/٢، دار الفكر ـ بيروت، ط: ١٤١٥هـ/١٩٩٥م، والمالكي، محمد بن أحمد بن محمد عليش: **منح الجليل شرح على مختصر سيد خليل**، ٥١٣/٧ ـ ٥١٤، دار الفكر ـ بيروت، ط: ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م.

الذكور حتى لا ينافسوه على الحكم، وكمثال على ذلك، فإنّ السلطان السابع عشر، (مراد الرابع) قتل أخاه وولي عهده بايزيد، وكان في الثالثة والعشرين من عمره، ثم قتل أخاه الثاني سليمان، ثم الثالث قاسم، ولم يبق من إخوته الذكور سوى الأخ الرابع إبراهيم، الذي أصبح وليًا للعهد بعد قتل إخوته الثلاثة، وكانت الخلافة في البيت العثماني تنتقل بعد وفاة الخليفة إلى أكبر إخوته، وليس أكبر أبنائه، فإن مات إخوته جميعًا أو قُتِلوا انتقلت الخلافة إلى أكبر أبنائه، وشاءت إرادة الله أنه كلما أنجب السلطان (مراد الرابع)، ابنًا تُوفي بعد فترة، فلم يعش له أي من أولاده ليكون وليًا للعهد، وقد بلغت الحماقة به أنه عزم على قتل أخيه الرابع إبراهيم، لكن والدته السلطانة نصحته بتأجيل ذلك، حتى يُرْزَق بابن يجعله وليًا للعهد، ولكن ذلك لم يتحقق وهكذا نجا إبراهيم من القتل، وأصبح الوحيد من آل عثمان الذي بقي على قيد الحياة، وتولى الخلافة بعد وفاة أخيه السلطان (مراد الرابع)، ولو كان قد قُدّر له أن يُقتل لكانت ذرية عثمان قد انقرضت، وسلسلة رجالهم قد انقطعت، ودولتهم قد اندثرت»[1].

ولم يقف الأمر عند قتل إخوة السلاطين فحسب، بل تجاوزه إلى قتلهم لأفلاذ أكبادهم إيثارًا لبعضهم على بعض بما يكون من التأثير عليهم من الجواري اللاتي يستأثرن بقلوبهم، وتحرص كل واحدة منهن على أن يكون ابنها هو الذي يبقى ويتولى مقاليد السلطة بعد أبيه، وتسعى بناء على ذلك إلى أن يقضي السلطان على غيره من أبنائه حتى لا ينافسوا ذلك الابن الأثير، ابن الجارية الأثيرة في الأمر عندما يفضي إليه، كما كان ذلك في عهد السلطان سليمان القانوني، الذي قتل ولده مصطفى الذي كان برًا به إرضاء

---

(١) الطيب؛ رضا: دولة الخلافة العثمانية (عصر الفاتحين، السقوط والانهيار، الإسلاميون الجدد)، ص ٥٠، (المكتبة الشاملة).

لمحظيته، حتى يؤول الأمر من بعده إلى ابنها سليم، ولم تكتف بقتل مصطفى، وإنما أرسلت إلى طفله الرضيع من يقتله في قراره[١]. وكان للسلطان محمد الثالث تسعة عشر أخًا، أمر بخنقهم جميعًا يوم تولى السلطة بعد وفاة أبيه، قبل دفن السلطان السابق فدفنوا معه[٢].

ومع كل هذا الذي يجري فإنّ فقهاء السلطة كانت قريرة أعينهم، هادئة أعصابهم، لا تستفزهم هذه الجرائم، فيحركوا ساكنًا من أجل وقفها، وإنما يعنيهم أن تكون الأمة كلها تخضع وتستكين لمن تسلط على رقابها كيفما كان تصرفه تجاهها، وكيف كان سلوكه في نفسه وعلاقته بربه، لأن ذلك معدود من طاعة الله تعالى ومن صميم الإسلام، وهذا ما سجله أحد المؤرخين للدولة العثمانية، حيث قال: «وكان العلماء والأدباء لا يهتمون إلا بالدين وحده، هذا على الرغم من بعض التصرفات التي كان يقوم بها بعض الخلفاء والتي تخالف الإسلام صراحة مثل قتل الأقرباء خوفًا من المنازعة على الحكم أو للتفرد بالسلطة أو إباحة شرب الخمور»[٣].

بل لم يكتف الفقهاء بالتخاذل والإعراض عن هذا الذي يجري، وإن فدح به الخطب، وعظمت المصيبة في الدين والدنيا، وإنما كانوا يعدون هذه الجرائم مناقب تثبت في سجل آل عثمان، كما نص على ذلك صاحب كتاب **قلائد العقيان في فضائل آل عثمان** وهو معدود من رموز العلماء وأعلام الشريعة في زمانه..! فقد عد سفك هذه الدماء البريئة من الفضائل التي تعزى إلى هذه الأسرة..! عندما قال: «ومن فضائل آل عثمان قتل أولادهم الذكور

---

(١) ينظر؛ بك، محمد فريد بن أحمد فريد باشا: **تاريخ الدولة العلية العثمانية**، تحقيق: إحسان حقي، ص٢٤٦ ـ ٢٤٥، دار النفائس ـ بيروت، ط١: ١٤٠١هـ/١٩٨١م.

(٢) المرجع السابق، ص٢٦٧.

(٣) علي حسون: **عوامل انهيار الدولة العثمانية**، ص١٣٩، المكتب الإسلامي ـ دمشق، (بدون ط).

خوفًا من الفتن، وفساد ملكهم، واختلاف الكلمة وشق العصا بين المسلمين، وهذا الأمر لم يسبقهم إليه أحد فيما أعلم، وهو وإن كان أمرًا ينفر منه الطبع السليم بحسب الظاهر، لكنه في نفس الأمر خير كبير ونفع كثير، ومع ذلك فلم يظهر لي جواز ذلك على سبيل الإطلاق؛ لأنهم أطفال لا ذنب لهم أصلًا، وكون يحصل منهم بغي، إثارة فتن فيما بعد، فهو أمر غير محقق، وترك القتل في ذلك أليق. ولعل من أفتى من العلماء بالجواز واستحل قتلهم، وأجاز محتجًا بجواز قتل الثلث لإصلاح الثلثين، نزل الظن منزلة اليقين على ما فيه من البعد بلا حين، ويحتمل أن يقال يجوز قتلهم سياسة لا شريعة، وباب السياسة أوسع من باب الشرع، فقد قال العلماء المحققون: للسلطان سلوك سبيل السياسة، ولا تتوقف السياسة على كل ما نطق به الشرع، قال العلامة ابن عقيل الحنبلي وهو الجزم عندنا. وقال العلامة القرافي: ولاية المظالم أول من أحدثها في الإسلام عبد الملك بن مروان، فكان يجلس للمظالم يومًا يخصها ويرد مشكلاتها لإدريس الأودي. قال القرافي: وله الأخذ بالقرائن وشواهد الأحوال وغير ذلك مما لا يأخذ به القضاء، انتهى كلام القرافي، ونقل شيخ الإسلام بن تيمية أن شرائع الأنبياء قاطبة جاءت بتحصيل المصالح وتكميلها وتعطيل المفاسد وتقليلها؛ فهي تأمر بما تترجح مصلحته، وإن كان فيه مفسدة مرجوحة، كتناول المحرمات من الخمر وغيره... إلخ»[1].

وحسبك من هذا أن أولئك الفقهاء ما كانوا يرون حرجًا في أن يداس شرع الله تعالى بأحذية سياسة الحكام عندما يقف الشرع في وجوه أهوائهم، ويعارض وجهتها، وهل يبقى في نفسك شك ـ أيها القارئ الكريم ـ أنّ هذه

---

(١) الكرمي؛ مرعي بن يوسف الحنبلي: **قلائد العقيان في فضائل آل عثمان**، ص١٣٥ ـ ١٣٦، دراسة وتحقيق: الدكتور إبراهيم فاعور الشرعة، كلية الآداب ـ الجامعة الأردنية، طبع بدعم من الجامعة الإردنية، ط: ٢٠٠٨/٢٠٠٩م.

السياسة الرعناء وهذه الفتاوى المنحرفة كانت هي شعلة النار التي فجرت فيما بعد تلك الثورة المشـئومة التي قادها أتاتورك، وكانت هـي المناخ الملائم لدعاياته الفاجرة التي بثها ضد الإسـلام، وكانت هي الحربة التي استطاع أن يوجهها من بعد إلى نحر الدين والفضيلة عندما تسنى له أن يقود ذلك الشعب إلى هاوية الإلحاد.

ولست فيما أقوله متأثرًا بتحسس من الدولة العثمانية، فكم وقف أسلافنا معها في حربها مع قوى الكفر المنقضة على الإسـلام، سواء في المشرق أو في المغرب، ولكني آسف أيما أسـف أن تكون هذه الدولة التي وقفت سدًا منيعًا ضد تآمر أمم الكفر على دين الله تعالى، يسري في أوصالها هذا الفساد، بتحريض من فقهاء السلطة الذين لا يرعون لله حرمة، ولا يرقبون في الناس إلًا ولا ذمة، وذلك مما أدى إلى إنهاك قواها وذهاب ريحها؛ حتى وصل أعداؤها إلى ما كانوا يسـعون إليه فيها، وقد علمت أنّ ذلك إنمـا يرجع إلى انحراف الفكر السياسي في الأمة منذ تَرَبَّعَ بنو أمية ـ بعد انتهاء الخلافة الراشدة ـ على عرش السلطة، وانحرفوا بالأمة في فكرها وسـلوكها، وفي وجهتها السياسية عما كان عليه رسول الله ﷺ وما كان عليه الخلفاء الراشدون، حتى وصل الأمر إبان الحكم العثمانـي أن يقتل الخليفـة أفلاذ أكباده لأجـل ما يتصوره من المكاسـب السياسـية.! وأن يقف وراءه الفقهـاء يصفقون لـه مؤيدين لهذه المواقف المخزية، فأين الرحمة وأين الفطرة فـي الأبوة الحانية تجاه ثمرات الأفئدة وأفلاذ الأكباد، وأين تقوى الله في القول والعمل ممن يرتكب ذلك أو يحض عليه ويسوغه؟!.

وليت شـعري؛ بأي وجه يسـتباح قتل من لم يقارف ذنبًا، ولم يرتكب جرمًا، لمجرد وهم بأنه قد ينقلب إلى مصدر للضرر؟! وكيف استساغ الفقهاء أن يحولوا ذلك من جرم إلى مبرة يحمدونها، ومنقبة يشـيدون بها؟! فالقتل

على الإطلاق لا يشرع في الإسلام إلا بسبب قضاء على مفسدة متيقنة أو مجازاة لمن يحكم عليه به بمثل صنيعه، وحسبنا تنفيرًا عنه وتحذيرًا من مقارفته بغير حق قول الله تعالى: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ...﴾ [المائدة: ٣٢]، ولا فرق في هذا بين أن يكون المقتول قريبًا أو بعيدًا، فكيف إذا كان هذا المقتول أخًا حميمًا أو ولدًا تقر به العين وتسعد به الحياة، فإنّ هذا مما يأباه كل أحد بفطرته، بل الحيوانات العجم تشمئز منه وتنفر عنه.

أما ما كانوا يتقونه بإقدامهم على هذا الأمر من مفسدة يتخيلونها، فإنّ اتقاءه إنما يكون بتقوى الله تعالى ومراعاة حرماته وبسط العدل بين عباده وإيتاء الحقوق لأهليها وعدم مؤاخذتهم إلا بالحق لا بارتكاب هذه الحماقات، فإنّ الظلم كله محرم قليله وكثيره، وهو مدعاة للانتقام عاجلًا أو آجلًا، كما انتهى الأمر أخيرًا بهذه الدولة، وقد علمت أن الملاحدة المتربصين هم أكثر الناس استغلالًا لهذه العثرات من أجل الوصول بها إلى قضاء مآربهم وبلوغ مناهم فيمن تورط بها، كما حصل ذلك من قبل الثوار البلشفيين، الذين اتخذوا من تعسف القياصرة وقسوتهم على الشعوب التي تحت أيديهم وسيلة لهم إلى إثارة الجماهير ضدهم، فأين المصلحة المدعاة في ذلك؟.

وكم ترى بين هذا السلوك وبين سلوك رسول الله ﷺ والخلفاء الراشدين، تجاه الناس جميعًا، فضلًا عن أولادهم؟ كما جاء عن عائشة رضي الله عنها قالت: جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال: تقبلون الصبيان؟ فما نقبلهم، فقال النبي ﷺ: «**أوأملك لك أن نزع الله من قلبك الرحمة**»[1]، وعن أبي هريرة، أن الأقرع بن

---

(١) أخرجه أحمد؛ مسند أحمد، (رقم: ٢٤١٧٢، ١٧/٢٨٤)، والبخاري؛ صحيح البخاري، كتاب (٧٨) الأدب، باب (١٨) رحمة الولد وتقبيله ومعانقته، (رقم: ٥٩٩٨، ص٥٠٨)، ومسلم؛ صحيح =

حابس أبصر النبي ﷺ يقبل الحسن، فقال: إنّ لي عشرة من الولد ما قبلت أحدًا منهم؛ فقال رسول الله ﷺ: «إنه لا يُرحم من لا يرحم». وقال يونس: «من لا يرحم لا يرحم»[1]، وقد جاءت هذه الرواية من طريق عائشة وأنس ﷺ، وقد استبعد عمر ﷺ أحد عماله وعزله عن عمله بسبب ما لمس فيه من قسوة على أولاده، فعن محمد بن سلام قال: «استعمل عمر بن الخطاب ﷺ رجلًا على عمل، فرأى عمر يقبل صبيًا له، فقال: أتقبله وأنت أمير المؤمنين؟ لو كنت أنا ما فعلته، قال عمر ﷺ: فما ذنبي إن كان الله نزع من قلبك الرحمة إن الله لا يرحم من عباده إلا الرحماء، ونزعه عن عمله، فقال: أنت لا ترحم ولدك فكيف ترحم الناس؟»[2].

= مسلم، كتاب (٤٣) الفضائل، باب (١٥) رحمته ﷺ الصبيان والعيال، (رقم: ٢٣١٧ [٦٠٢٧]، ص١٠٨٧)، وابن ماجه؛ سنن ابن ماجه، (٣٣) أبواب الأدب، باب (٣) بر الوالد والإحسان إلى البنات، (رقم: ٣٦٦٥، ص٢٦٩٦).

(١) أخرجه أحمد؛ مسند أحمد، (رقم: ٧٢٨٧، ١١٨/٧)، و(رقم: ٧٦٣٦، ٣٧٩/٧)، و(رقم: ١٠٦٢١، ٥٣٤/٩)، والبخاري؛ صحيح البخاري، كتاب (٧٨) الأدب، باب (١٨) رحمة الولد وتقبيله ومعانقته، (رقم: ٥٩٩٧، ص٥٠٨)، ومسلم؛ صحيح مسلم، كتاب (٤٣) الفضائل، باب (١٥) رحمته ﷺ الصبيان والعيال، (رقم: ٢٣١٨ [٦٠٢٨]، ص١٠٨٧)، وأبو داود؛ سنن أبي داود، كتاب (٤٠) الأدب، باب (١٤٤) في قبلة الرجل ولده، (رقم: ٥٢١٨، ص١٦٠٤)، والترمذي؛ سنن الترمذي، (٢٥) أبواب البر والصلة، باب (١٢) ما جاء في رحمة الولد، (رقم: ١٩١١، ص١٨٤٥)، وابن حبان؛ صحيح ابن حبان، كتاب (٦) البر والإحسان، باب (٦) الرحمة (رقم: ٤٥٧، ٢٠٢/٢)، والبيهقي؛ السنن الكبرى، كتاب النكاح، باب (٨٩) ما جاء في قبلة الرجل ولده، (رقم: ١٣٥٧٦، ١٦٢/٧).

(٢) ينظر؛ الهندي؛ علي المتقي بن حسام الدين: كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، كتاب النكاح/قسم الأفعال، بر الأولاد، (رقم: ٤٥٩٤١، ٢٤٦/١٦)، تحقيق: محمود عمر الدمياطي، دار الكتب العلمية ـ بيروت، ط٤: ١٤٣٧هـ/٢٠١٦م، والدينوري؛ أحمد بن مروان المالكي: المجالسة وجوهر العلم، (رقم: ٢٧٢٩، ٢٦/٣)، تحقيق: السيد يوسف أحمد، دار الكتب العلمية ـ بيروت، ط١: ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م.

وقد علمت من أين سرى إلى هذه الأمة هذا الداء العضال، وأين مكمن هذه العلة، وعليه فإنّ على هذه الأمة أن تراجع فقهها السياسي، وتعرضه على أصول الإسلام الثابتة بنصوص القرآن الكريم وهدي الرسول عليه وعلى آله وصحبه أفضل الصلاة والتسليم، وما كانت عليه هذه الأمة في عهدها الذهبي الرائع؛ الذي مثلت به عدالة الإسلام تمثيلًا بهر أعداءها، حتى انطلقت ألسنتهم تعبر عما تكنه نفوسهم من إكبارهم وإكبار خصالهم، التي كانوا بسببها كأنما خلقوا خلقًا آخر غير خلقة البشرية المعهودة، وعلى فقهاء الأمة اليوم أن يتحرروا من أسر تلك الأوهام التي سيطرت على عقلية الأمة ردحًا من الزمن، فأردتها في الحضيض، ومزقتها كل ممزق، وهذا مما يؤدي بالملحدين إلى أن يلجوا إلى هذا الدين من هذه الثغرات الواسعة، فيجهزوا عليه من الداخل، وهذا يعني أنه يجب أن تتسارع الأمة إلى سد هذه الثغرات وتحويل مجراها في الفكر والأخلاق، والسياسة والآداب، إلى ما كان عليه السلف الصالح.

فليت شعري؛ أين ذلك الفكر الضال العفن ـ الذي يطلق يد المتسلط ليفعل ما يشاء من غير خوف حساب ولا عقاب ـ من هدي النبي ﷺ القائل: **«ما من عبد يسترعيه الله يموت يوم يموت وهو غاش لرعيته إلا حرم الله عليه الجنة»**[1]، والقائل: **«ما من عبد استرعاه الله رعية، فلم يحطها بنصيحة، إلا لم يجد رائحة الجنة»**[2]، والقائل: **«ما من عبد يسترعى رعية إلا سئل يوم القيامة أقام فيهم أمر الله أم أضاعه»**[3]، والقائل: **«اسمعوا إنه سيكون عليكم أمراء**

---

(١) رواه مسلم من طريق معقل بن يسار؛ صحيح مسلم، كتاب (١) الإيمان، باب (٦٣) استحقاق الوالي الغاش لرعيته النار، (رقم: ١٤٢، [٣٦٣]، ص٧٠١).

(٢) رواه البخاري من طريق معقل بن يسار؛ صحيح البخاري، كتاب (٩٣) الأحكام، باب (٨) من استرعي رعية فلم ينصح، (رقم: ٧١٥٠، ص٥٩٥ ـ ٥٩٦).

(٣) أخرجه أحمد؛ مسند أحمد، (رقم: ٤٦٣٧، ٣٤١/٤)، وتمام في فوائده؛ الفوائد، (رقم: ١٧٥٧، ٢٨٤/٢).

فلا تعينوهم على ظلمهم، ولا تصدقوهم بكذبهم، فإنه من أعانهم على ظلمهم وصدقهم على كذبهم فلن يرد علي الحوض»[١]، والقائل: «اسمعوا هل سمعتم إنه سيكون بعدي أمراء فمن دخل عليهم فصدقهم بكذبهم وأعانهم على ظلمهم فليس مني ولست منه، وليس بوارد علي الحوض، ومن لم يدخل عليهم ولم يعنهم على ظلمهم ولم يصدقهم بكذبهم فهو مني وأنا منه، وهو وارد علي الحوض»[٢]، والقائل: «أعيذك بالله يا كعب بن عجرة من أمراء يكونون بعدي، فمن غشي أبوابهم فصدقهم فى كذبهم وأعانهم على ظلمهم فليس مني ولست منه، ولا يرد علي الحوض، ومن غشي أو لم يغش فلم يصدقهم في كذبهم ولم يعنهم على ظلمهم فهو مني وأنا منه، وسيرد علي الحوض»[٣]، والقائل: «اسمعوا»، ـ قلنا: سمعنا ـ قال: «اسمعوا ثلاثًا، إنه

---

(١) أخرجه أحمد؛ مسند أحمد، (رقم: ٢١٠٩٧٢، ٣٩٦/١٥)، وابن حبان؛ صحيح ابن حبان، كتاب (٦) البر والإحسان، باب (١) الصدق والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، (رقم: ٢٨٤، ٥١٨/١ ـ ٥١٩)، والطبراني؛ المعجم الكبير، باب الخاء، (٣٦٤) خباب بن الأرت بدري، (رقم: ٣٦٢٧، مج (٢) ٥٢/٤)، والحاكم؛ المستدرك، كتاب (١) الإيمان، (رقم: ٢٦٢، ١٥١/١)، وقال: «صحيح على شرط مسلم».

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة؛ مصنف ابن أبي شيبة، كتاب (٢٧) الفضائل، باب (١) ما أعطى الله تعالى محمدا ﷺ، (رقم: ٣١٦٧٣، ٣١٤/٦)، وأحمد؛ مسند أحمد، (رقم: ١٨٠٤٤، ٧٨/١٤)، والترمذي بلفظ قريب؛ سنن الترمذي، (٣١) أبواب الفتن، باب (٧٢) في التحذير عن موافقة أمراء السوء، (رقم: ٢٢٥٩، ص ١٨٧٩)، وقال: صحيح، والنسائي؛ السنن الصغرى، كتاب (٣٩) البيعة، باب (٣٦) من لم يعن أميرا على الظلم، (رقم: ٤٢١٣، ص ٢٣٦٣)، وابن حبان؛ صحيح ابن حبان، كتاب (٦) البر والإحسان، باب (١) الصدق والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، (رقم: ٢٧٩، ٥١٣/١)، والطبراني؛ المعجم الكبير، باب الكاف، كعب بن عجرة، (رقم: ٣٥٦، مج (٨) ١١٦/١٩)، والبيهقي؛ السنن الكبرى، كتاب قتال أهل البغي، باب (١٨) ما على الرجل من حفظ اللسان عند السلطان وغيره، (رقم: ١٦٦٦٩، ٢٨٦/٨).

(٣) أخرجه أحمد؛ مسند أحمد، (رقم: ١٤٣٧٨، ٤٤٩/١١)، قال الهيثمي: «رواه أحمد والبزار ورجالهما رجال الصحيح» (الهيثمي: مجمع الزوائد، ٢٤٧/٥)، وعبد بن حميد؛ مسند عبد بن حميد، (رقم: ١١٣٨، ص ٣٤٥)، وأبو يعلى؛ مسند أبي يعلى، (رقم: ١٢٨٦، ٤٦٥/٢)، =

سيكون عليكم أمراء يكذبون ويظلمون، فمن دخل عليهم فصدقهم بكذبهم وأعانهم على ظلمهم فليس مني ولا أنا منه، ولن يرد علي الحوض، ومن لم يدخل عليهم ولم يصدقهم بكذبهم ولم يعنهم على ظلمهم فهو مني وأنا منه، وهو وارد علي الحوض»[١]، والقائل: «أيما راع غش رعيته فهو في النار»[٢]، والقائل: «من ولي من أمر المسلمين شيئا فأمر عليهم أحدًا محاباة فعليه لعنة الله، لا يقبل الله منه صرفًا ولا عدلًا حتى يدخله جهنم، ومن أعطى أحدًا حمى الله فقد انتهك في حمى الله شيئًا بغير حقه فعليه لعنة الله، أو قال: تبرأت منه ذمة الله»[٣]، والقائل: «من ولي من أمر المسلمين شيئًا فاحتجب من ضعفة المسلمين وأولي الحاجة احتجب الله عنه يوم القيامة»[٤]، والقائل:

= وابن حبان؛ صحيح ابن حبان، كتاب (٢١) السير، باب (١) الخلافة والإمارة، (رقم: ٤٥١٤، ٣٧٢/١٠)، والحاكم؛ المستدرك، كتاب (٥٠) الفتن والملاحم، (رقم: ٨٣٠٢، ٤٦٨/٤ ـ ٤٦٩)، وقال: «صحيح الإسناد»، والطبراني؛ المعجم الكبير، باب الكاف، كعب بن عجرة، (رقم: ٣٠٩، مج (٨) ١٠٢/١٩ ـ ١٠٣)، وأبو نعيم في الحلية؛ حلية الأولياء، (٤١٠) يوسف بن أسباط، (رقم: ١٢١٧٤، ٢٧١/٨)، والبيهقي في شعب الإيمان؛ الجامع لشعب الإيمان، الشعبة (٦٦) من شعب الإيمان وهو باب في مباعدة الكفار والمفسدين والغلظ عليهم، (رقم: ٨٩٥٢، ٤٣٧/١٣ ـ ٤٣٨).

(١) أخرجه الترمذي؛ سنن الترمذي، (٣١) أبواب الفتن، باب (٧٢) في التحذير عن موافقة أمراء السوء، (رقم: ٢٢٥٩، ص ١٨٧٩)، وأخرجه أيضًا؛ أحمد؛ مسند أحمد، (رقم: ٢٣١٥٣، ٥٧١/١٦).

(٢) أخرجه ابن عساكر من طريق معقل بن يسار؛ تاريخ دمشق، ترجمة: عبيدالله بن زياد، (رقم الترجمة: ٤٤٤٣)، (٤٥٠/٣٧)، وأبو عوانة؛ مسند أبي عوانة، كتاب (٢٧) الأمراء، باب (٨) بيان عقاب الوالي الذي يلي أمر الناس ولا ينصح لهم ويغشهم ولا يحتاط لهم، (رقم: ٧٠٤٨، ٣٨٧/٤)، والطبراني؛ المعجم الكبير، (رقم: ٥٣٣، مج (٩) ١٦٠/٢٠)، وابن منده؛ الإيمان، باب (٩٠) ذكر ما يدل على أن النفاق ضروب (رقم: ٥٦٠، ٦٢٠/٢).

(٣) أخرجه أحمد بلفظه؛ مسند أحمد، (رقم: ٢١، ١٧٧/١ ـ ١٧٨)، والحاكم؛ المستدرك، كتاب (٣٢) الأحكام، (رقم: ٧٠٢٤، ١٠٥/٤).

(٤) أخرجه عن معاذ أحمد؛ مسند أحمد، (رقم: ٢١٩٧٥، ١٨٨/١٦) قال الهيثمي (الهيثمي: مجمع الزوائد، ٢١٠/٥): «رجاله ثقات»، والطبراني؛ المعجم الكبير، (رقم: ٣١٦، مج (٩) ١٠٧/٢٠).

«من ولي من أمر المسلمين شيئًا فلم يحطهم بنصيحة كما يحوط أهل بيته فليتبوأ مقعده من النار»[١].

والأحاديث في ذلك أكثر من أن نحصيها، فهذا هو هدي النبي ﷺ ولكن كثيرًا من الناس جانبوه، وآثروا عليه هدي الشيطان، فمهدوا للظلم وطوعوا الناس للظالمين، فقد استطاع الظلمة أن يروجوا ذلك في الأمة؛ حتى تمكنوا من الدس في أحاديث رسول الله ﷺ ما يسخر الناس لهم ويوطئ لهم أكنافهم، وإن ارتكبوا فيهم كل مظلمة، وداسوا على قيم الإسلام، وانتهكوا حرمه، فقد عزوا إلى النبي ﷺ أنه قال: «يكون بعدي أئمة لا يهتدون بهداي، ولا يستنون بسنتي، وسيقوم فيهم رجال قلوبهم قلوب الشياطين في جثمان إنس»، قال: قلت: كيف أصنع يا رسول الله، إن أدركت ذلك؟ قال: «تسمع وتطيع للأمير، وإن ضرب ظهرك، وأخذ مالك، فاسمع وأطع»[٢].

هكذا عزوا إلى رسول الله ﷺ أنه دعا الناس إلى أن يكونوا للظلمة أخنع من نعالهم، وأتبع من ظلالهم، كأنما هو عليه أفضل الصلاة والسلام كانت رسالته للناس عذابًا ولم تكن رحمة، وكأنما بعث ليرسخ الظلم في الناس لا ليقضي عليه، وقد روج لهذه الرواية وأمثالها، مع أن بطلانها يدرك من متنها فضلًا عما في إسنادها، مما يقدح في صحتها، فهو عند مسلم من رواية زيد بن سلام عن جده أبي سلام عن حذيفة، ولم يثبت سماع أبي سلام من حذيفة، فقد قال أبو زرعة: «قال العلائي: روى عن

---

(١) أخرجه عن معقل بن يسار الطبراني؛ المعجم الكبير، (رقم: ٥١٣، مج (٩) ١٥٥/٢٠).

(٢) رواه مسلم؛ صحيح مسلم، كتاب (٣٣) الإمارة، باب (١٣) وجوب ملازمة جماعة المسلمين...، (رقم: ١٨٤٧ [٤٧٨٥]، ص ١٠١٠)، والطبراني في الأوسط؛ المعجم الأوسط، باب من اسمه إبراهيم، (رقم: ٢٩١٤، ٢٦٨/٣)، والحاكم؛ المستدرك، كتاب (٥٠) الفتن والملاحم، (رقم: ٨٥٣٣، ٥٤٧/٤ ـ ٥٤٨) وقال: «صحيح الإسناد».

حذيفة وأبي مالك الأشعري وذلك في صحيح مسلم، وقال الدارقطني: لم يسمع منهما»[١].

ولكون هذه الرواية هي موافقة لهوى البغاة المتسلطين روج لها، وبنيت عليها الأحكام في الفقه السياسي، وتجوهل ما جاء به القرآن من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، اللذين يستأصلان شأفة كل فساد، ويقطعان دابر كل ظلم، ويجتثان كل علو واستكبار، وهو المعروف من هدي النبي ﷺ وهدي صحابته ﷺ، كما جاء عن عبد الله بن مسعود، قال: قال رسول الله ﷺ: **«إنّ أول ما دخل النقص على بني إسرائيل، كان الرجل يلقى الرجل، فيقول: يا هذا، اتق الله ودع ما تصنع، فإنه لا يحل لك، ثم يلقاه من الغد، فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده، فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض»**، ثم قال: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: ٧٨]... إلى قوله: ﴿فَٰسِقُونَ﴾ [المائدة: ٨١]، ثم قال: **«كلا والله لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر، ولتأخذن على يدي الظالم، ولتأطرنه على الحق أطرًا، ولتقصرنه على الحق قصرًا»**[٢].

ومهما قيل في سند هذه الرواية نظرًا إلى أن أبا عبيدة لم يسمع من أبيه ابن مسعود ﷺ، فإنها هي التي تتفق مع الهدي النبوي، وتنسجم مع ما أصله القرآن من شمول الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر للقوي والضعيف، والحاكم والمحكوم، وذلك يعتضد بقول النبي ﷺ: **«إذا رأيت أمتي تهاب الظالم أن تقول له إنك ظالم فقد تودع منهم»**[٣].

---

(١) العراقي، أبو زرعة؛ أحمد بن عبد الرحيم بن الحسين: **تحفة التحصيل في ذكر رواة المراسيل**، ص٣١٦، تحقيق: عبد الله نوارة، مكتبة الرشد ـ الرياض، ط١: ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) من طريق عبد الله بن عمرو: أخرجه أحمد؛ **مسند أحمد**، (رقم: ٦٧٨٤، ٦/٣٠٨)، والبزار؛ **البحر الزخار**، (رقم: ٢٣٧٥، ٦/٣٦٣)، وابن عدي؛ **الكامل في الضعفاء**، ترجمة: محمد بن مسلم بن =

وقد أدى الإعراض عن هذا الهدي النبوي المنبني على تعاليم القرآن إلى اضطراب عجيب في تفريع مسائل الفقه حسبما يهوى الظلمة المتسلطون، فمع القول بأنّ القيام على الظالم لا يجوز بحال كيفما كان حاله ولو ارتكب من المظالم ما ارتكب، إلا أنهم جعلوا القيام على أي حاكم ـ ولو كان من أعدل الحكام ـ إن وقع ممن ينقم عليه عدله وبره مؤديًا ذلك إلى وجوب طاعة هذا القائم المتمرد على الحاكم الشرعي، بحيث يصبح بقيامه وتمرده هو الحاكم الشرعي الذي تجب له الطاعة، ويحرم الخروج عليه، كيفما كان فجوره وعسفه وظلمه، وهذا مما اشتهر عند الفقهاء المنساقين في هذا التيار الذي يرسخ طاعة الظلمة، ويوجب على الناس جميعًا أن يخضعوا لهم رقابهم، ويمنحوهم الولاء، كما تجد ذلك واضحًا في قول ابن قدامة يقول: «ولو خرج رجل على الإمام، فقهره وغلب الناس بسيفه، حتى أقروا له، وأذعنوا بطاعته، وبايعوه، صار إمامًا يحرم قتاله، والخروج عليه؛ فإنّ عبد الملك بن مروان خرج على ابن الزبير، فقتله، واستولى على البلاد وأهلها، حتى بايعوه طوعًا وكرهًا، فصار إمامًا يحرم الخروج عليه»[1].

= تدرس، (رقم الترجمة: ١٦٢٩)، (١٢٣/٦)، والحاكم؛ **المستدرك**، كتاب (٣٢) الأحكام، (رقم: ٧٠٣٦، ١٠٨/٤) وقال: «صحيح الإسناد» ووافقه الذهبي، والبيهقي في شعب الإيمان؛ **الجامع لشعب الإيمان**، الشعبة (٥٢) من شعب الإيمان وهو باب في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، (رقم: ٧١٤٠، ٢٢٨/١١ ـ ٢٢٩)، وأيضًا؛ **السنن الكبرى**، كتاب الغصب، باب (٢) نصر المظلوم والأخذ على يد الظالم عند الإمكان، (رقم: ١١٥١٦، ١٥٨/٦)، والحارث كما في بغية الباحث؛ **بغية الباحث عن زوائد مسند الحارث**، كتاب (٢٧) الفتن، باب (٣) الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، (رقم: ٧٦١، ٧٦٣/٢)، والديلمي؛ **فردوس الأخبار**، (رقم: ١٠٢٧، ٣٢٥/١)، وقال الهيثمي (**مجمع الزوائد**، ٢٦٢/٧): «رواه أحمد، والبزار بإسنادين، ورجال أحد إسنادي البزار رجال الصحيح، وكذلك رجال أحمد». وقال في (**مجمع الزوائد**، ٢٧٠/٧): «رواه أحمد، والبزار، والطبراني، وأحد أسانيد البزار رجاله رجال الصحيح».

(١) المقدسي، ابن قدامة؛ عبد الله بن أحمد بن قدامة: **المغني على مختصر الخرقي**، ٧٥/٨، ضبطه وصححه: عبد السلام محمد علي شاهين، دار الكتب العلمية ـ بيروت، ط١: ١٤١٤هـ/١٩٩٤م.

ثم قال: «ويدخل الخارج عليه في عموم قوله ﷺ: «**من خرج على أمتي وهم جميع فاضربوا عنقه بالسيف، كائنًا من كان**»»[١].

وأنت ترى ما في هذا القول من الاضطراب، فمع تحريمهم خروج أحد عن طاعة الظالم الجائر المبدل لحكم الله الناكث لعهده يقولون لو قام أحد ظلمًا وعدوانًا باغيًا على إمام شرعي حتى تمكن منه فقتله..! أو سلب السلطة منه، واستحل بيضته.. كان بقيامه هذا هو الإمام الشرعي، الذي أصبحت طاعته واجبة على كل من وقع تحت إمرته..!.

فليت شعري؛ كيف يصبح هو الإمام الشرعي الذي تجب له الطاعة ويحرم القيام عليه، مع أنّ توصله إلى السلطة كان ببغيه وظلمه، وفساده في الأرض؟! فكيف يكون بغيه وظلمه وسيلة له إلى أن يكون هو الإمام الشرعي، الذي تجب له الطاعة ويحرم عصيانه؟!.

ليت شعري؛ كيف يكون الباطل سبيلًا إلى حق؟! والظلم وسيلة لاستحقاق الطاعة؟! مع أن فعله ذلك باطل من أساسه، وقد قال النبي ﷺ: «**من عمل عملًا ليس عليه أمرنا فهو رد**»[٢]، وجاء بلفظ: «**من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد**»[٣]، وإن من أعجب العجب أن يكون عمل

---

(١) المرجع السابق، ٨/٧٥ ـ ٧٦.

(٢) رواه الربيع من طريق ابن عباس؛ **الجامع الصحيح**، باب (٧) في الولاية والإمارة، (رقم: ٤٩، ص١٩)، وأخرجه من طريق عائشة أحمد؛ **مسند أحمد**، (رقم: ٢٥٠٠٨، ٥٢١/١٧) ومسلم؛ **صحيح مسلم**، كتاب (٣٠) الأقضية، باب (٨) نقض الأحكام الباطلة ورد محدثات الأمور، (رقم: ١٧١٨، [٤٤٩٣]، ص٩٨٣)، وأبو عوانة؛ **مسند أبي عوانة**، كتاب (٢٥) الأحكام، باب (٥) بيان رد حكم الحاكم إذا حكم بغير الحق، (رقم: ٦٤٠٩، ١٧١/٤)، والدارقطني في السنن؛ **سنن الدارقطني**، كتاب في الأقضية والأحكام، (رقم: ٤٤٩١، ١٤٥/٤).

(٣) رواه من طريق عائشة رضي الله عنها: البخاري؛ **صحيح البخاري**، كتاب (٥٣) الصلح، باب (٥) إذا اصطلحوا على صلح جور فالصلح مردود، (رقم: ٢٦٩٧، ص٢١٤)، ومسلم؛ **صحيح مسلم**، =

مناف للإسلام، بعيد عن الحق، وسيلة إلى شرعية الحكم واستحقاق الطاعة..!.

والمتأمل لما جرى عليه السلف الصالح ﷺ يجد أنهم كانوا بعيدين عن هذا التعسف، بريئين من هذا التناقض، كما أوضحت ذلك في كتاب **الاستبداد**[1].

ولا يخفى أنّ أمثال هذه التعسفات لا تؤدي إلى النظرة السلبية تجاه الذين صدرت عنهم، وإنما توجه هذه النظرة إلى الإسلام، ويجد الملحدون من أمثالها ما يقدحون به في صميم الدين، ويروجون به لدعاياتهم الكاذبة المزورة، وذلك عندما يسوغ الظلم ويروج له باسم الدين، والدين من ذلك براء.

وإذا كان هذا في مطلق الظلم والحيف على أي أحد من الناس، فإنّ الحيف عندما يكون باسم الدين على المرأة فتحرم من حقوقها وتهان كرامتها، وتحتقر أنوثتها، لا ريب أنّ ذلك يجد منه الملحدون سبيلًا إلى الطعن في الدين والتدين، ودعوة النساء إلى التمرد على الدين واعتناق الإلحاد، وعندما تتفشى هذه الدعوة في اللائي لم يجدن حظًا من التربية الدينية، ولا تبصيرًا بقيم الإسلام، ولا معرفة بأصول الدين، لا يبعد أن يتساوقن إلى الاستجابة لهذه الدعوة، وركوب هذه الضلالة، شفاء لغيظهن.

وكم حاول الملحدون أن يجدوا بين الفتيات المسلمات والنساء المسلمات ـ الجاهلات بدينهن، وما يضفيه على الجنس اللطيف من حسن

= كتاب (٣٠) الأقضية، باب (٨) نقض الأحكام الباطلة ورد محدثات الأمور، (رقم: ١٧١٨، [٤٤٩٢]، ص٩٨٢)، وأبو داود؛ **سنن أبي داود**، كتاب (٣٩) السنة، باب (٥) لزوم السنة، (رقم: ٤٦٠٦، ص١٥٦١).

(١) ينظر؛ الخليلي: **الاستبداد مظاهره ومواجهته**، ص٨٣ ـ ٨٥، ط١: ١٤٣٤هـ/٢٠١٣م.

الرعاية، وكريم الإحسان، وما يأمر به من برهن، وحسن معاملتهن ـ من يأسرونهن بحبائل خداعهم الكاذبة، خصوصًا عندما يتعرضن للظلم والاضطهاد من قبل آبائهن أو أزواجهن، وقد سجل الباحثون في هذا قضايا من هذا القبيل، من ذلك ما ذكره د. هشام عزمي في كتابه **الإلحاد للمبتدئين**، فقد جاء فيه: «من أبرز وأكبر أسباب الإلحاد بين الفتيات خصوصًا أن دعاة الإلحاد يستهدفون المرأة بدعاياتهم الإلحادية بزعم التحرر من سلطة الآباء، وقهر الذكور وغيرها من الشعارات، فإذا انضمت إلى هذه الدعاية ما تلاقيه المرأة من اضطهاد وظلم وقهر في مجتمعها وأسرتها كان هذا داعيًا قويًا في الوقوع في فخ الإلحاد».

ثم يقول: «أنا شخصيًا تعرفت إلى قصة فتاة مصرية من أسرة ثرية جدًا، كان أخوها الأكبر ضابط شرطة، وكان هذا الأخ الضابط يمارس عليها ألوانًا كثيرة من الضرب والعنف إذا خالفته، وكأنما هي أحد المجرمين الذين يتعامل معهم في قسم الشرطة، وفي نفس الوقت كانت هذه الفتاة تتواصل عن طريق مواقع التواصل الاجتماعي مع عدد كبير من الشباب الملحدين، الذين أداروا رأسها بمعسول الكلام عن التحرر من السلطة الأبوية الذكورية، بالإضافة إلى عبارات الغزل والغرام، وأنهم على استعداد لتهريبها إلى إحدى دول شمال أوروبا كلاجئة ملحدة هاربة من الاضطهاد الديني في بلدها، ولا يخفى على القاريء الكريم كيف يمكن أن تصبح فتاة مثل هذه فريسة سهلة لأي أحد في بلد غريبة.

وأسوأ من هذا الأمر أن يتم تبرير هذا الاضطهاد والقهر للمرأة دينيًا، بحيث تكتشف المرأة أنّ الإسلام هو سبب اضطهادها وظلمها، فيكون هذا داعيًا إلى تركها له، يحكي الأستاذ منير أديب قصة طبيبة مصرية ملحدة؛ كان أول ما دفعها للإلحاد هو أنّ زوجها السلفي ضربها على وجهها، فلما شكت

لوالدها أخبرها أنّ الله أعطى لزوجها هذا الحق، وتلا الآيات القرآنية في ذلك، تقول الطبيبة: (كنت في غاية العجب من تفسير كلام والدي إن صح أن تكون وصية الخالق ضرب وإهانة المرأة خاصة، وأنّ الإسلام يحرم ضرب الحيوان ذاته، فهل المرأة هنا أقل من الحيوان؟!)»[1].

وليست هذه التصرفات الرعناء تعود إلا إلى الجهل المركب بالإسلام وتعاليمه سواء ما كان من قبل الزوج، أو كان من قبل الأب، فالمرأة لم تخلق لتهان، وإنما خلقت لتكرم، فقد أكرمها الله تعالى بما وجّه إليها من خطابه الشرعي، فهي شقيقة الرجل وشريكته، يشتركان في مسئوليات الحياة وتحمل أعباء تكاليفها والنوء بتبعاتها، وكل منهما مرهون مصيره في الآخرة بمسيره في هذه الدنيا، وربّ امرأة تسبق جماهير من الرجال في ميادين الخير، وتحرز دونهم حسن الجزاء وكريم المنقلب، فإنّ كلًا من الرجل والمرأة إنما هو رهين عمله، وسيكون جزاؤه في الآخرة بحسب حاله في الدنيا، كما قال تعالى: ﴿ فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ﴾ [آل عمران: ١٩٥]، وقال: ﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴾ [النساء: ١٢٤]، وقال: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل: ٩٧]، وقال عز من قائل: ﴿ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّآئِمِينَ وَٱلصَّآئِمَٰتِ

---

(١) عزمي؛ هشام: **الإلحاد للمبتدئين، دليلك المختصر في الحوار بين الإيمان والإلحاد**، ص٤٠ ـ ٤١، مركز براهين لدراسة الإلحاد ومعالجة النوازل العقدية، دار الكاتب للنشر والتوزيع ـ مصر، ط٢: ١٤٣٦هـ/٢٠١٥م، وينظر؛ أديب؛ منير: **الإلحاد بين أفكار أصحابه وهجرة أتباعه**، ص٩٦، دار مقام للنشر والتوزيع ـ مصر/الجيزة، ط: ٢٠١٣م.

وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٣٥]، وقال جل جلاله: ﴿ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [غافر: ٤٠].

وهذا لأن الحياة ميدان سباق إلى الخيرات، من أحرز فيه قصبات السبق كان أولى بعقبى الدار، سواء كان ذكرًا أو أنثى، فالمرأة لا تقعد بها أنوثتها إن جدت في الخير، والرجل لا تنهض به ذكورته إن عثر حظه، فتوانى عن الخيرات وأعطى نفسه هواها، وهما يشتركان في العبودية لله تعالى، ولا يتفاوت جزاؤهما على ما يأتيانه من خير أو شر.

وقد بيّن تعالى أنّ اصطفاءه لمن شاء من خلقه لا ينحصر في الذكور وحدهم، بل يشمل معهم الإناث اللاتي وفقن للخير والصلاح والرشد، فقد دل القرآن الكريم على أنّ الله تعالى اصطفى مريم عليها السلام وطهرها وبوأها مبوأ التكريم، وأنّ الملائكة بشّرتها بهذا، فقد قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴾ [آل عمران: ٤٢ ـ ٤٣]، وقد كانت عناية القرآن الكريم بالمرأة عناية لا نظير لها من أجل صونها ورفع قدرها، وتطهير عرضها، وتقديس ذكرها، ناهيك أنّ الله سبحانه أنزل في كتابه آيات تتلى في الصلوات وفي غيرها ما بقي لله ذكر في هذه الأرض لأجل تهمة باطلة ألصقت بامرأة صالحة، وذلك عندما طعن الطاعنون في عرض أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، فبرأها بقوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ۝ لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ

بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَآءِ فَأُولَٰئِكَ عِندَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ ۝ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝ إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ ۝ وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَا أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَانَكَ هَٰذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ ۝ يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَن تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝ وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ ۚ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [النور: ١١ ـ ١٨].

واستجاب الله لشكوى امرأة تعرضت من قبل زوجها لتصرف خشيت منه ما عسى أن يضر بها وبأولادها، فأوحى إلى عبده رسول الله ﷺ في ذلك ما أوحى مما يحل عقدة مشكلتها، ومشكلات بنات جنسها اللاتي يقعن فيما وقعت فيه، وذلك في قوله تعالى: ﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا ۚ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾ [المجادلة: ١]، وما تبعه من الآيات التي شرع فيها حل تلك المشكلة.

وقد اعتنى القرآن الكريم بصون عرض المرأة صونًا يقطع عنها ألسنة المتطاولين، حيث فرض عليهم عقابين صارمين، عقابًا بدنيًا وهو الحد الشرعي، بجلدهم ثمانين جلدة، وعقابًا أدبيًا اجتماعيًا، وهو حرمانهم من قبول الشهادة، وذلك في قوله: ﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [النور: ٤]، ومع ذلك توعدهم بشر المصير في الدار الآخرة عندما قال: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ ﴾ [النور: ٢٣ ـ ٢٥]، والرجل في الأمرين جميعًا إنما هو تبع للمرأة في ذلك.

وقد كرم الله تعالى المرأة إذ امتن بالإناث فيما يهبه لعباده من قرة أعين قبل امتنانه بالذكور، في قوله: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ ۝ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا﴾ [الشورى: ٤٩ ـ ٥٠]، ونعى على أهل الجاهلية الذين كانوا يحتقرون الإناث، ويسوؤهم أن يبشروا بهن، عندما قال: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ۝ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [النحل: ٥٨ ـ ٥٩].

وقد أمر الله تعالى بأن تربى الأنثى كما يربى الذكر على الخلق الفاضل والأدب الرفيع، والتوقي من كل ما يؤدي إلى سخط الله تعالى، فهي من جملة الأهلين، وقد قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦]، وهذا يعني أن تشملها الرعاية الكريمة من الأب، وأن يغمرها بعطفه وحنانه، وبره وإحسانه، لا أن يجفوها، وقد كان النبي ﷺ هو المثل الأعلى في ذلك، كما صح عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها، قالت: «ما رأيت أحدًا من الناس كان أشبه بالنبي ﷺ كلامًا ولا حديثًا ولا جلسة من فاطمة، قالت: وكان النبي ﷺ إذا رآها قد أقبلت رحب بها، ثم قام إليها فقبلها، ثم أخذ بيدها، فجاء بها حتى يجلسها في مكانه، وكانت إذا أتاها النبي ﷺ رحبت به، ثم قامت إليه فأخذت بيده فقبلته»[1].

---

(١) أخرجه ابن حبان؛ صحيح ابن حبان، كتاب (٦١) إخباره ﷺ عن مناقب الصحابة، باب (١)، (رقم: ٦٩٥٣، ١٥/٤٠٣)، والحاكم في مستدركه؛ المستدرك، كتاب (٣١) معرفة الصحابة، (رقم: ٤٧٣٢، ٣/١٦٧)، والبيهقي؛ السنن الكبرى، كتاب النكاح، باب (٨٩) ما جاء في قبلة الرجل ولده، (رقم: ١٣٥٧٨، ٧/١٦٢)، والآجري؛ الشريعة، باب (١٨٤) ذكر إكرام النبي ﷺ لفاطمة رضي الله عنها وعظم قدرها عنده، (رقم: ١٦٠٩، ٥/٢١٢٠).

فهذه هي مكانة البنت في قلب النبي ﷺ، وكان ﷺ يجسد مشاعره تجاهها، بتعبيره عن تأذيه مما يؤذيها، فقد ثبت عنه قوله: «**إنها فاطمة بضعة مني، يؤذيني ما آذاها، وينصبني ما أنصبها**»(١)، ولم يكن فعله ﷺ هذا استجابة لعاطفة عارضة، وإنما كان تشريعًا لأمته، ليعرفوا كيف يعاملون بناتهم بالبر والإحسان ويغمرونهن بالعطف والرحمة والحب والحنان، وأين هذا من تصرف ذلك الأب القاسي الجهول الذي رد على ابنته ـ التي تعرضت للقسوة من زوجها ـ بذلك الرد الجافي الذي فتنها في دينها، وصدها عن الحق، فما أعظم فتنة الناس من الذين يجهلون الدين، ويتحدثون باسمه، والدين براء من كل ما يقولون وما يفعلون.

وأما العلاقة الزوجية بين الزوجين؛ فإنها تقوم على حسن العشرة، وكريم الصحبة، وتدفق الرحمة واللطف، وعظيم الرعاية والتقدير، وواسع البر والإحسان فيما بينهما، فإنّ الله ﷻ امتن بها في قوله: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ

---

(١) أخرجه عن عبد الله بن الزبير؛ أحمد؛ مسند أحمد، (رقم: ١٦٠٦٨، ٤٦٢/١٢)، والترمذي؛ سنن الترمذي، (٤٦) أبواب المناقب، باب (٦٠) ما جاء في فضل فاطمة، (رقم: ٣٨٦٩، ص ٢٠٤٨)، والطبراني؛ المعجم الكبير، (رقم: ١٠١٣، مج (١٠) ٢٨٤/٢٢)، والحاكم؛ المستدرك، كتاب (٣١) معرفة الصحابة، (رقم: ٤٧٥١، ١٧٣/٣).

ورواه بمعناه المسور بن مخرمة: أخرجه أحمد؛ مسند أحمد، (رقم ١٨٨١٣ ـ ١٨٨١٥، ٣٠٩/١٤ ـ ٣١٠)، والبخاري؛ صحيح البخاري، كتاب (٦٢) فضائل الصحابة، باب (١٢) مناقب قرابة رسول الله ﷺ، (رقم: ٣٧١٤، ص ٣٠٣)، ومسلم؛ صحيح مسلم، كتاب (٤٤) فضائل الصحابة، باب (١٥) من فضائل فاطمة، (رقم: ٢٤٤٩ [٦٣٠٧ ـ ٦٣٠٨]، ص ١١٠٨)، وأبو داود؛ سنن أبي داود، كتاب (١٢) النكاح، باب (١٢) ما يكره أن يجمع بينهن من النساء، (رقم: ٢٠٦٩، ص ١٣٧٥)، وابن ماجه؛ سنن ابن ماجه، (٩) أبواب النكاح، باب (٥٦) الغيرة، (رقم: ١٩٩٩، ص ٢٥٩٦)، وابن حبان؛ صحيح ابن حبان، كتاب (٦١) إخباره ﷺ عن مناقب الصحابة، (رقم: ٦٩٥٦، ٤٠٧/١٥)، وروي من طرق متعددة.

لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الروم: ٢١]، فهي علاقة قوامها الود الخالص، والرحمة الغامرة، لا البغضاء والقسوة والجفاء، وقد أمر تعالى حتى مع عدم انسجام المشاعر بين الزوجين أن يعامل الرجل امرأته بالمعروف، وذلك في قوله: ﴿ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ۚ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ [النساء: ١٩]، وبيّن سبحانه أنّ الحقوق بين الزوجين متعادلة، فلها عليه مثل الذي له عليها، وإنما يختص دونها بالقوامة التي تجعله مسئولًا عنها، وقائمًا بشئونها، ومراعيًا لأحوالها، وموجهًا لها في تصرفاتها، فقد قال تعالى: ﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ ۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ﴾ [البقرة: ٢٢٨].

وليس اختصاصه بالقوامة دونها من أجل أن يتسلط عليها كما يشاء، وإنما من أجل أن يسوسها باللطف والحكمة، لا بالعنف والغلظة، وذلك مما يتناسب مع طبيعة الرجل، الذي يتسع تفكيره عند توقد العاطفة وهياج المشاعر، ما لا يتسع له تفكيرها، بسبب ما فطرت عليه من غلبة جانب العاطفة على جانب التفكير في حال جيشانها.

وقد بيّن الله ﷻ أن المرأة أخذت من الرجل ميثاقًا غليظًا بدخولها في كنفه، ووقوعها تحت مسئوليته، ولم يكن هذا الميثاق الغليظ إلا عهدًا بينه وبينها، أن يسعها ببره، ويغمرها بحنانه، ويرعاها بلطفه، وهو مسئول عن ذلك كله يوم الحساب، فليس له أن يتوانى في القيام بهذا الحق، ويهمل هذا الواجب، وجسد القرآن الكريم ذلك كله مع بيان حقيقة العلاقة الزوجية في قوله تعالى: ﴿ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴾ [النساء: ٢١].

وهذا يعني أن الرابطة الزوجية بينهما هي اشتراك في الحياة، وانسجام في المشاعر واتحاد في الأحاسيس حتى تكون نفساهما كنفس واحدة، يسر كل

منهما بسرور الآخر، ويسوء كلًا منهما ما يسوء قرينه، وذلك مما يوحيه هذا التعبير الذي لا يصور إلا حسن عشرتهما، وأقصى ما يمكن أن يدور بالبال من انسجامهما، فقد عبر تعالى عن هذا بقوله: ﴿وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾، فكأنهما بهذا الرباط المقدس بينهما يغدوان نفسًا واحدة، ولذلك لم يقل (وقد أفضيتم إليهن) ليوقظ حس كل واحد منهما تجاه الآخر، فلا يتباين الحِسَّان، ولا تفترق المشاعر.

أما الميثاق الغليظ فهو عبارة عن تلك المسئولية التي ينوء بها الرجل تجاه امرأته، وقد أكدها القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ﴾ [البقرة: ٢٢٩]، كما أكدها قول النبي ﷺ: «**اتقوا الله في النساء، فإنكم أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله تبارك وتعالى**»(١)، وهو ميثاق تشريعي مبني على حالة فطرية، فسر بها الميثاق بعض جهابذة العلماء المتأخرين، فقد حكى صاحب المنار عن شيخه الإمام محمد عبده أنه ذهب إلى: «أنّ هذا الميثاق الذي أخذه النساء من الرجال لا بد أن يكون مناسبًا لمعنى الإفضاء في كون كل منهما من شؤون الفطرة السليمة، وهو ما أشارت إليه الآية الكريمة ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم: ٢١]، فهذه آية من آيات الفطرة الإلهية هي أقوى ما تعتمد عليه المرأة في ترك أبويها وإخوتها وسائر أهلها، والرضا بالاتصال برجل غريب عنها تساهمه السراء والضراء، فمن

---

(١) أخرجه عبد بن حميد في المنتخب؛ مسند عبد بن حميد، (رقم: ١١٣٥، ص ٣٤٣)، ومسلم؛ صحيح مسلم، كتاب (١٥) الحج، باب (١٩) حجة النبي ﷺ، (رقم: ١٢١٨ [٢٩٥٠]، ص ٨٨١)، وأبو داود؛ سنن أبي داود، كتاب (١١) المناسك، باب (٥٦) صفة حجة النبي ﷺ، (رقم: ١٩٠٥، ص ١٣٦٤)، وابن ماجه؛ سنن ابن ماجه، (٢٥) أبواب المناسك، باب (٨٤) حجة رسول الله ﷺ، (رقم: ٣٠٧٤، ص ٢٦٦٣).

آيات الله تعالى في هذا الإنسان أن تقبل المرأة بالانفصال من أهلها ذوي الغيرة عليها، لأجل الاتصال بالغريب، تكون زوجًا له ويكون زوجًا لها تسكن إليه ويسكن إليها، ويكون بينهما المودة والرحمة أقوى من كل ما يكون بين ذوي القربى، فكأنه يقول: إنّ المرأة لا تقدم على الزوجية وترضى بأن تترك جميع أنصارها وأحبائها لأجل زوجها إلا وهي واثقة بأن تكون صلتها به أقوى من كل صلة، وعيشتها معه أهنأ من كل عيشة، وهذا ميثاق فطري من أغلظ المواثيق، وأشدها إحكامًا، وإنما يفقه هذا المعنى الإنسان الذي يحس إحساس الإنسان، فليتأمل تلك الحالة التي ينشئها الله تعالى بين الرجل وامرأته يجد أنّ المرأة أضعف من الرجل، وأنها تقبل عليه تسلم نفسها إليه، مع علمها بأنه قادر على هضم حقوقها، فعلى أي شيء تعتمد في هذا الإقبال والتسليم؟ وما هو الضمان الذي تأخذه عليه، والميثاق الذي تواثقه به؟ ماذا يقع في نفس المرأة إذا قيل لها: إنك ستكونين زوجًا لفلان. إنّ أول شيء يخطر في بالها عند سماع مثل هذا القول، أو التفكر فيه، وإن لم تسأل عنه هو أنها ستكون عنده على حال أفضل من حالها عند أبيها وأمها، وما ذلك إلا لشيء استقر في فطرتها وراء الشهوة، وذلك الشيء: هو عقل إلهي[1]، وشعور فطري أودع فيها ميلًا إلى صلة مخصوصة لم تعهدها من قبل، وثقة مخصوصة لا تجدها في أحد من الأهل، وحنوًا مخصوصًا لا تجد له موضعًا إلا البعل، فمجموع ذلك هو الميثاق الغليظ الذي أخذته من الرجل بمقتضى نظام الفطرة الذي يوثق به ما لا يوثق بالكلام الموثق بالعهود والأيمان، وبه تعتقد المرأة أنها بالزواج قد أقبلت على سعادة ليس وراءها سعادة في هذه الحياة، وإن لم تر من رضيت به زوجًا، ولم تسمع له من قبل كلامًا، فهذا ما علمنا الله تعالى

---

(١) مراده بالعقل الإلهي هو الركيزة المعرفية التي أودعها الله سبحانه فطرة الإنسان، فصار يفكر في حاله ومآله، ويبحث عما فيه مصلحته، فإن العقل منحة من الله وحده.

إياه، وذكرنا به ـ وهو مركوز في أعماق نفوسنا ـ بقوله: إن النساء قد أخذن من الرجال بالزواج ميثاقًا غليظًا، فما هي قيمة من لا يفي بهذا الميثاق، وما هي مكانته من الإنسانية؟»[١].

هذا؛ وقد كان النبي ﷺ مثالًا وأسوة لأمته في حسن معاملة النساء، فكما كان برًا لطيفًا ببناته، كان محبًا عطوفًا لنسائه، فكان أحسن الرجال معشرًا، وألطفهم معاملة، فقد جاء عنه من عدة طرق أنه قال: «**خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي**»[٢]، ومن طريق علي كرم الله وجهه جاء عنه ﷺ أنه قال: «**خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي، ما أكرم النساء إلا كريم، ولا أهانهن إلا لئيم**»[٣]، وقال: «**استوصوا بالنساء خيرًا، فإنّ المرأة خلقت من ضلع**

---

(١) محمد رشيد: **المنار**، سورة النساء (الآيات ١٩ ـ ٢١)، ٣٧٥/٤ ـ ٣٧٦.

(٢) من طريق عائشة: أخرجه الترمذي؛ **سنن الترمذي**، (٤٦) أبواب المناقب، باب (٦٣) فضل أزواج النبي ﷺ، (رقم: ٣٨٩٥، ص ٢٠٥٠) وقال: «حسن غريب صحيح»، وابن حبان؛ **صحيح ابن حبان**، كتاب (١٤) النكاح، باب (٨) معاشرة الزوجين، (رقم: ٤١٧٧، ٤٨٤/٩)، والبيهقي في شعب الإيمان؛ **الجامع لشعب الإيمان**، الشعبة (٦٠) من شعب الإيمان وهو باب في حقوق الأولاد والأهلين، (رقم: ٨٣٤٤، ٥٣٩/١٢)، وأخرجه أيضًا: الدارمي؛ **سنن الدارمي**، كتاب (١١) النكاح، باب (٥٥) في حسن معاشرة النساء، (رقم: ٢٢٦٠، ١٣١/٢).
ومن طريق ابن عباس: أخرجه ابن ماجه؛ سنن ابن ماجه، (٩) أبواب النكاح، باب (٥٠) حُسْنِ مُعَاشَرَةِ النِّسَاءِ، (رقم: ١٩٧٧، ص ٢٥٩٥)، وابن سعد؛ **الطبقات الكبرى**، ذكر ضرب النساء، (٢٠٥/٨).
ومن طريق عبد الله بن شداد: أخرجه ابن سعد؛ **الطبقات الكبرى**، ذكر ضرب النساء، (٢٠٥/٨).
ومن طريق أبي هريرة: أخرجه الخطيب؛ **تاريخ بغداد**، ترجمة: إدريس بن جعفر العطار، (رقم الترجمة: ٣٤٧٩، ١٣/٧).
ومن طريق معاوية: أخرجه الطبراني؛ **المعجم الكبير**، باب الميم، معاوية بن أبي سفيان، (رقم: ٨٥٣، مج (٨) ٢٥٧/١٩).

(٣) أخرجه ابن عساكر؛ **تاريخ دمشق**، ترجمة: الحسن بن علي بن عيسى الأزدي، (رقم الترجمة: ١٣٩٢)، (٣١٣/١٣).

أعوج، وإن أعوج شيء في الضلع أعلاه، فإن ذهبت تقيمه كسرته وإن تركته لم يزل أعوج، فاستوصوا بالنساء خيرًا»[١].

وظل النبي ﷺ يوصي بحسن معاشرة النساء إلى آخر عمره فكان مما قاله في خطبته بحجة الوداع: «ألا واستوصوا بالنساء خيرًا، فإنما هنّ عوان عندكم، ليس تملكون منهن شيئًا غير ذلك إلا أن يأتين بفاحشة مبينة، فإن فعلن فاهجروهن في المضاجع، واضربوهن ضربًا غير مبرح، فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلًا، ألا وإنّ لكم على نسائكم حقًا، ولنسائكم عليكم حقًا، فأما حقكم على نسائكم فلا يوطئن فرشكم من تكرهون، ولا يأذن في بيوتكم لمن تكرهون، ألا وإن حقهن عليكم أن تحسنوا إليهن في كسوتهن وطعامهن»[٢].

أما الأم فقد حظيت في الإسلام بمكانة عالية في الاحترام والتقدير، ونصيب وافر من الحقوق لم يصل إليه أي إنسان، فإنّ الله تعالى قرن حق الوالدين بحقه في قوله: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ۞ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٣ ـ ٢٤]، ومع ذلك بيّن مزية الأم في قوله: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ

---

(١) من طريق أبي هريرة أخرجه البخاري؛ صحيح البخاري، كتاب (٦٠) أحاديث الأنبياء، باب (١) خلق آدم وذريته، (رقم: ٣٣٣١، ص٢٦٩)، ومسلم؛ صحيح مسلم، كتاب (١٧) الرضاع، باب (١٨) الوصية بالنساء، (رقم: ١٤٦٦ [٣٦٤٣]، ص٩٢٦)، والنسائي في الكبرى؛ السنن الكبرى، كتاب (٦٨) عشرة النساء، باب (٤٦) الوصية بالنساء، (رقم: ٩٢٩٢، ١٥٩/١١).

(٢) أخرجه ابن ماجه؛ سنن ابن ماجه، (٩) أبواب النكاح، باب (٣) حق المرأة على الزوج، (رقم: ١٨٥١، ص٢٥٨٨)، والترمذي؛ سنن الترمذي، (٤٤) أبواب تفسير القرآن، باب (٩) ومن سورة التوبة، (رقم: ٣٠٨٧، ص١٩٦٣) وقال: «حسن صحيح»، والنسائي في الكبرى؛ السنن الكبرى، كتاب (٦٨) عشرة النساء، باب (٦١) كيف الضرب، (رقم: ٩٣٢١، ١٨١/١١ ـ ١٨٢).

حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [لقمان: ١٤]، وقوله: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ﴾ [الأحقاف: ١٥]، وجاءت السنة النبوية مصرحة بما أشار إليه القرآن، فعن بهز بن حكيم، عن أبيه، عن جده، قال: قلت: يا رسول الله من أبر؟ قال: «**أمك**»، قلت: ثم من؟ قال: «**أمك**» قلت: ثم من؟ قال: «**أباك**» قلت: يا رسول الله ثم من؟ قال: «**ثم الأقرب فالأقرب**»[(١)].

وأين هذا كله من تصرف جهلة الرجال، الذين يتصورون تمام الرجولة في القسوة على النساء وسوء معاملتهن، والأسوأ من ذلك أن يعزوا ذلك إلى الدين، فيجد الملحدون من ذلك سهمًا مسمومًا يصمون به الإسلام، ويوجهونه إلى نحر الدين؟!.

على أنّ مثل هذا التصرف ليس هو إلا من مواريث الجاهلية، التي كانت تجعل النساء كالمتاع المملوك تتداوله الأيدي بالإرث، ويتحكمون في حياتهن كما يملي عليهم هواهم، فالمرأة عندهم هي بين كونها عرضة للوأد عند أبيها وللهوان والذل في بيت زوجها، حتى أنهم كانوا يعدون دفن البنات من المكرمات..! وجاء الإسلام الحنيف برحمته الواسعة وبره الشامل فغمر

---

(١) أخرجه أحمد؛ مسند أحمد، (رقم: ١٩٩٣١، ١١٢/١٥)، وأبو داود؛ سنن أبي داود، كتاب (٤٠) الأدب، باب (١١٩، ١٢٠) في بر الوالدين، (رقم: ٥١٣٩، ص١٥٩٩)، والترمذي؛ سنن الترمذي، (٢٠) أبواب البر والصلة، باب (١) ما جاء في بر الوالدين، (رقم: ١٨٩٧، ص١٨٤٣)، وقال: «حسن»، والطبراني؛ المعجم الكبير، (رقم: ٩٥٧، مج (٨) ٢٨٥/١٩)، والحاكم؛ المستدرك، كتاب (٣٥) البر والصلة، (رقم: ٧٢٤٢، ١٦٦/٤) وقال: «صحيح الإسناد»، والبيهقي؛ السنن الكبرى، كتاب الزكاة، باب (١٢١) الاختيار في صدقة التطوع، (رقم: ٧٧٦٣، ٣٠٠/٤).
ومن حديث أبي هريرة: أخرجه أحمد؛ مسند أحمد، (رقم: ٨٣٢٦، ٢٨٣/٨ ـ ٢٨٤)، وابن ماجه؛ سنن ابن ماجه، (٣٣) أبواب الأدب، باب (١) بر الوالدين، (رقم: ٣٦٥٨، ص٢٦٩٦).

المرأة بحسن رعايته، وانتشلها من ضياعها، وأعاد إليها قيمة الإنسانية التي فقدتها في موازين الجاهلية، فعادت مكرمة وليدة وطفلة ويافعة وكهلة وعجوزًا، بل ظلت مكرمة في الحياة وبعد الممات، يرعاها بعد موتها زوجها وأبناؤها بالدعاء الصالح والذكر الحسن، وفيما كان عليه رسول الله ﷺ أسوة حسنة للناس في ذلك، فقد كان ﷺ كثيرًا ما يذكر خديجة رضي الله عنها بعد موتها، ويثني عليها خيرًا، ولم تنسه النساء اللاتي كن في كنفه من بعدها ذكرها أبدًا، بل كانت مقدمة في قلبه على جميع نسائه، كما جاء عن عائشة، قالت: كان النبي ﷺ إذا ذكر خديجة أثنى عليها، فأحسن الثناء، قالت: فغرت يومًا، فقلت: ما أكثر ما تذكرها حمراء الشدق، قد أبدلك الله ﷻ بها خيرًا منها، قال: «**ما أبدلني الله ﷻ خيرًا منها، قد آمنت بي إذ كفر بي الناس، وصدقتني إذ كذبني الناس، وواستني بمالها إذ حرمني الناس، ورزقني الله ﷻ ولدها إذ حرمني أولاد النساء**»[1].

وسبب ذلك ما جاء أيضًا في إحدى الروايات عنها، قالت: استأذنت هالة بنت خويلد ـ أخت خديجة ـ على رسول الله ﷺ، فعرف استئذان خديجة فارتاع لذلك، فقال: «**اللهم هالة**». قالت: فغرت، فقلت: ما تذكر من عجوز من عجائز قريش، حمراء الشدقين، هلكت في الدهر، قد أبدلك الله خيرًا منها[2].

وهذا إن دل على شيء فإنّه يدل على أنها رضي الله عنها كانت ملء سمعه وبصره وقلبه ووجدانه ﷺ، فكان لا يبالي بمشاعر نسائه اللاتي كنّ معه وغيرتهن

---

(١) أخرجه أحمد؛ مسند أحمد، (رقم: ٢٤٧٤٥، ١٧/٤٥٠).

(٢) رواه البخاري؛ صحيح البخاري، كتاب (٦٣) مناقب الأنصار، باب (٢٠) تزويج النبي ﷺ خديجة وفضلها، (رقم: ٣٨٢١، ص ٣١٠)، ومسلم؛ صحيح مسلم، كتاب (٤٤) فضائل الصحابة، باب (١٢) من فضائل خديجة أم المؤمنين، (رقم: ٢٤٣٧ [٦٢٨٢]، ص ١١٠٥).

بحسن ثنائه عليها، والإعراب عن مكانتها في نفسه، ولهذا كان يتأثر بكل ما يذكره بها، فتأثر باستئذان أختها هالة في بيته ﷺ، وكان يرعى من ترعاه، فعن عائشة رضي الله عنها، قالت: ما غرت على أحد من نساء النبي ﷺ ما غرت على خديجة، وما رأيتها، ولكن كان النبي ﷺ يكثر ذكرها، وربما ذبح الشاة ثم يقطعها أعضاء، ثم يبعثها في صدائق خديجة، فربما قلت له: كأنه لم يكن في الدنيا امرأة إلا خديجة، فيقول: «**إنها كانت، وكانت، وكان لي منها ولد**»[1].

وأين هذه الرعاية الكريمة التي تحظى بها المرأة في الإسلام من وضعها عند الملاحدة وأتباعهم الذين لا يريدونها إلا لقضاء أوطارهم الشهوانية منها، فلذلك دفعوها دفعًا إلى الرذيلة والفحشاء، وجردوها من ثوب العفة والفضيلة، فغدت عندهم بضاعة رائجة في سوق الخنا والفجور ووسيلة دنيئة لجمع المادة على حساب شرفها وكرامتها.

ونحن لا نجد عبر التاريخ صيانة تحققت للمرأة، وتكريمًا ارتقت منصته، وتبوأت ذروته كما كان لها ذلك في الإسلام، سواء عند المتقدمين أو عند المتأخرين، وهذا لا يعني بحال أنّ شرائع المرسلين من قبل كانت تحط من قدرها، وإنما الانحراف بتلك الشرائع هو الذي أدى بها إلى أن تكون هملًا لا قيمة لها في موازين الناس.

«فلو نظرنا إلى الأمم الأخرى قبل مجيء الإسلام لرأيناها ـ في مجملها ـ تحط من مكانة المرأة، وتحرمها أبسط حقوقها. فاليهودية المحرفة: تعتبر حواء والمرأة عمومًا سببًا في شقاء الإنسانية لأنها أخرجت آدم ـ بزعمهم ـ من الجنة.

---

(١) رواه البخاري؛ صحيح البخاري، كتاب (٦٣) مناقب الأنصار، باب (٢٠) تزويج النبي ﷺ خديجة وفضلها، (رقم: ٣٨١٨، ص ٣١٠).

وجاءت النصرانية المحرفة: فتبعت اليهودية في احتقارها للمرأة، حتى أن المجتمعات الأوربية النصرانية ـ حتى نهاية العصور الوسطى ـ كانت تشك في إنسانية المرأة هل هي إنسان أم لا؟!.

وبلغ من ظلم بعض المجتمعات للمرأة أن أوجبت عليها إحراق نفسها إذا مات زوجها كما في البرهمية بالهند»[١].

«وهي في الشريعة الهندوسية لا أهلية لها، كما جاء في تشريع مانو: لا يحق للمرأة في أي مرحلة من مراحل حياتها، أن تجري أي أمر وفق مشيئتها، حتى لو كان ذلك الأمر من الأمور الداخلية لمنزلها، ففي مراحل طفولتها تتبع والدها، وفي مرحلة شبابها تكون تابعة لزوجها، فإذا مات زوجها تنتقل الولاية عليها إلى أبنائه»[٢].

«وتبيح الهندوسية نكاح الاستبضاع الذي حرمه الإسلام، كما تبيح أن يشترك في المرأة الواحدة عدد من الأزواج إذا كانوا إخوة، كما تبيح تعدد الزوجات للزوج الواحد، والهندوسية تحرم الزواج على القديسين من رجال الدين. وتضع الهندوسية نظامًا للميراث، حيث يرث الابن أباه، ولا ترث البنت»[٣].

وهذا يعني أن المرأة عندهم كالحيوان المركوب الذي يمكن أن يتعاقب على ظهره عدد من الركاب، ولا يتجاوز قدرها قدر الحيوان فلذلك تورث

---

(١) مجلة البيان، تصدر عن المنتدى الإسلامي، العدد (٨) صدر في صفر ١٤٠٨هـ /أكتوبر ١٩٨٧م، صفحة المقال (٥١).

(٢) مجموعة أساتذة: الأديان والمذاهب، الدرس الرابع عشر، أديان الهند الكبرى، ص ٣٢٣، جميع الحقوق محفوظة لجامعة المدينة العالمية ـ ماليزيا، ط: ٢٠١٠م.

(٣) المرجع السابق، ص ٣٢٤.

عندهم ولا ترث، لأنها ليست في موازينهم ذات أهلية لأن تملك شيئًا، وإنما هي التي تُمْلَك كما يملك المتاع.

وأين هذا مما تجده من إنصاف المرأة في نحو قوله تعالى: ﴿ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ ۚ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴾ [النساء: ٧].

ولم تكن لها أيضًا عند البوذيين قيمة، «فإنّ بوذا يقصد تكريمَ الإنسان البوذي من الرجال منهم دون النساء، ويرى أنّ المرأة خطر على المجتمع، ولا يصح قبولها في طائفة البوذيين. سـأله مرة أحد أتباعه: كيف نعامل النساءَ أيها السـيد؟ فأجابـه: (لا تنظر إليهن، ولا تخاطبهن، وكن منهن على حذر).

وهذا الموقف من بوذا يشير إلى جعله المرأة طبقةً منبوذةً، مع أنها إنسان تتساوى مع الرجل في التكريم والحقوق»[1].

أما الملاحدة فإنهم يأخذون المرأة من غير جريرة حقيقية ولا وهمية، فقد تزين لهم أنفسهم أن يتخلصوا من أتباعهم الأقربين لئلا ينافسوهم في سـلطاتهم، ولا يكفيهم ذلك حتى يتخلصوا أيضًا من نسـائهم، كما فعل السفاح **ستالين** بعائلة **تروتسـكي** عندما ألحقهم به في الإعدام، كما سبق ذكر ذلك.

على أنا لو قدرنا أنّ **تروتسكي** نفسه أقدم على أمر يستحق به الإعدام عند **سـتالين**، فما يعني من ذلك عائلتـه التي لم ترتكب جرمًـا؟! وكم بين هذا التصرف وما فرضه الإسلام من عدم مؤاخذة البريء بجريرة المجرم، كما نص عليه قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ [الأنعام: ١٦٤].

---

(١) المرجع السابق، الدرس الخامس عشر، تابع أديان الهند الكبرى، ص٣٣٦ ـ ٣٣٧.

أثر الجانب الأخلاقي والتهاون به في تحقير الدين ونصرة الإلحاد:

لا يخفى ما للأخلاق من أثر كبير على أسوياء الفطرة في إقناعهم بالحق وردهم إليه عندما تكون مراعاة عند الدعاة إليه، فكم اقتنع الناس بدين الله تعالى الحق بسبب ما لمسوه فيه من أخلاق عالية تنسجم مع الفطرة وتتقبلها العقول وتنجذب إليها النفس كما كان ذلك من أكثم بن صيفي عندما تلي عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠]، فقال: «إني قد أراه يأمر بمكارم الأخلاق، وينهى عن ملائمها، فكونوا في هذا الأمر رءوسًا، ولا تكونوا فيه أذنابًا»[1].

وهذا يعني أنَّ الدين قوامه الحق وسلطانه العدل وزينته الأخلاق، ولذلك تنجذب إليه الفطر السليمة وتأنس إليه الأرواح الراقية، وتستجيب له النفوس الزكية، وعليه فلا شك أنَّ الأخلاق عندما تداس وتمتهن باسم الدين لا تبقى للناس ثقة بذلك الدين، وقد علمت فيما تقدم ذكره كيف انحدر الفكر الديني في الغرب تجاوبًا مع شهوات النفوس وتفاعلًا مع انحراف التيَّار حتى وصل

---

(١) الأصبهاني، أبو نعيم؛ أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق بن مهران: **معرفة الصحابة**، ترجمة: أكثم بن صيفي، (رقم الترجم: ٢٢١)، ٣٤٢/١، تحقيق: عادل بن يوسف العزازي، دارالوطن ـ الرياض، ط١: ١٤١٩هـ/١٩٩٨م، والنمري، ابن عبد البر؛ يوسف بن عبد الله بن محمد: **الاستيعاب في معرفة الأصحاب**، ١٤٦/١، تحقيق: علي محمد البجاوي، دار الجيل ـ بيروت، ط١: ١٤١٢هـ/١٩٩٢م، والعسقلاني، ابن حجر؛ أحمد بن علي بن حجر الشافعي: **الإصابة في تمييز الصحابة**، ترجمة (٤٨٥) أكثم بن صيفي، ٣٥٠/١ ـ ٣٥١، دراسة وتحقيق وتعليق: عادل أحمد عبد الموجود، وعلي محمد معوض، دار الكتب العلمية ـ بيروت، ط٢: ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م، والجزري، ابن الأثير؛ علي بن محمد الشيباني: **أسد الغابة في معرفة الصحابة**، ترجمة (٢١٨) أكثم بن صيفي، ١٧١/١، اعتنى به عادل أحمد الرفاعي، دار إحياء التراث العربي ـ بيروت، ط١: ١٤١٧هـ/١٩٩٦م.

بهم الأمر إلى أن يتقبلوا الزواج المثليّ ويعترف به رسميًّا في الكنائس ويسجل فيها، فمثل هذا الأمر لا شك أنه يؤدي إلى الاستخفاف بالدين ويهيئ للملاحدة المناخ الملائم لنشر دعوتهم.

وإذا كان الله سبحانه بفضله علينا حفظ لنا الإسلام بحفظه للقرآن الكريم الذي هو وعاؤه المصون وحماه المقدس، وقد عجز المغرضون أن يتدخلوا تدخلًا سافرًا في القرآن فيحرفوه عن وجهته السليمة؛ فإنَّ المصيبة التي لحقت هذا الدين إنما هي من انحراف المحسوبين عليه لا سيما قادة فكره وأوتاد صرحه وهم علماء الأمة، وقد عرفت مما تقدم كيف طوحت بهم الأهواء فألقتهم في مكان سحيق بما كان منهم من تجاهل لنصوص القرآن حتى وصل بهم الأمر أن يرفعوا عن المتسلطين في الأرض القابضين على نواصي عباد الله ورقابهم كل مسؤولية مهما ارتكبوا في حق العباد كما تقدم في شأن الأربعين الذين شهدوا ليزيد بن عبد الملك أنّ الخليفة لا حساب عليه ولا عقاب متجاهلين نصوص القرآن وهدي النبي ﷺ، وقد أدى ذلك إلى الانحراف الشاسع في الوجهة السياسية، وكابدت الأمة من ذلك ما كابدته ولا تزال تكابده.

وقد علمتَ أنَّ هذا كلَّه إنَّما يرجع إلى سريان عقيدة الإرجاء في هذه الأمة الدائرة بين (سيغفر لنا) وبين (لن تمسنا النار إلا أياما معدودات) فكم كان لهذه العقيدة التي أنكرها الله في كتابه ونعاها على من تمسك بها من أثر كبير في الانحراف الفكري والخلقي والتدنّي إلى الحضيض الأسفل في دركات الرذيلة والتخلّي عن الفضيلة وزينتها، والنفس البشرية لا تختلف طباعها عندما تتحد تصوراتها فبانتشار هذا الفكر في هذه الأمة انحدرت إلى الحضيض الأسفل كما انحدر من قبلها تصديقًا لقول النبي ﷺ: «**لتتبعن سنن من قبلكم شبرًا بشبرٍ، وذراعًا بذراعٍ، حتى**

لو سلكوا جحر ضبٍّ لسلكتموه»، قلنا يا رسول الله: اليهود والنصارى؟ قال: «فمن»[1].

فكم اتبعت الشهوات وهوت في حضيض الرذيلة ولم تبال أن تدوس على الفضائل والقيم بما سولت لها هذه العقيدة من العفو عن جرائرها ومهما أوخذت بها فإنّ ذلك لا يتجاوز أن يكون زمنًا محدودًا وبعد اجتيازه تنقلب إلى النعيم المقيم، ومما ساعد على انتشار آثار هذا المعتقد ثقة الناس المطلقة بالظلمة المستبدين وإسلاس القياد لهم وعدّهم رموزًا في الحياة ومعالم في التاريخ، وقد استعبدت أولئك الظلمة الشهوات وروجوا لها لأجل أن لا ينكرها الناس عليهم من ناحية وأن يلهوهم بها حتى لا يطالبوهم بشيء من حقوقهم المشروعة من ناحية أخرى.

وقد انقلبت بسبب ذلك المفاهيم وانعكست المعايير حتى أصبح الباطل حقًّا والحق باطلًا، والرذيلة فضيلة والفضيلة رذيلة، وأخذ ذلك ينتشر في أوساط الأمة كما تفعل النار في الهشيم.

ودأب النفوس السوء من حيث طبعها ... إذا لم يصنها للبصائر نور

---

(١) رواه البخاري عن أبي سعيد الخدريّ؛ صحيح البخاري، كتاب (٦٠) أحاديث الأنبياء، باب (٥٠) ما ذكر عن بني إسرائيل، (رقم: ٣٤٥٦، ص٢٨٢)، ومسلم عن أبي سعيد الخدري بلفظ: لتتّبعنّ سنن الّذين من قبلكم شبرا بشبر وذراعا بذراع حتى لو دخلوا في جحر ضبّ لاتّبعتموهم، قلنا: يا رسول الله آليهود والنّصارى؟ قال: فمن؟؛ صحيح مسلم، كتاب (٤٧) العلم، باب (٣) اتباع سنن اليهود والنّصارى، (رقم: ٢٦٦٩ [٦٧٨١]، ص١١٤٢). وأحمد بلفظ: «لتبعتموهم»؛ مسند أحمد، (رقم: ١١٧٣٩، ١٠/٢٦٦ ـ ٢٦٧). وأخرج ابن ماجه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: لتتّبعنّ سنّة من كان قبلكم باعا بباع وذراعا بذراع وشبرا بشبر حتى لو دخلوا في جحر ضبّ لدخلتم فيه، قالوا: يا رسول الله اليهود والنّصارى؟ قال: فمن إذا؟؛ سنن ابن ماجه، (٣٦) أبواب الفتن، باب (١٧) افتراق الأمم، (رقم: ٣٩٩٤، ص٢٧١٦). وأخرج الطبراني عن سهل بن سعد قال: قال رسول الله ﷺ: لتتّبعنّ سنن من كان قبلكم شبرا بشبر وذراعا بذراع حتى لو دخلوا جحر ضبّ لاتّبعتموهم، قلنا: يا رسول الله اليهود والنّصارى؟ قال: فمن إلا اليهود والنّصارى؛ المعجم الكبير، (٥٩٢) سهل بن سعد الساعدي، (رقم: ٥٩٤٣، مج (٣) ٦/١٥٩).

على أنَّ الأمر تجاوز حدود الفطرة ـ التي تشترك فيها الكائنات الحية في انجذاب الجنس إلى الجنس الآخر ـ إلى الشذوذ، بحيث يتعلق الجنس بجنسه وينسى الجنس الآخر مع ما في ذلك من التمرد على الفطرة وتجاوز حدود ما أذن الله تعالى به من العلاقة الفطرية بين الجنسين عندما تكون مؤطرة في إطار شرع الله تعالى وذلك بأن تتم هذه العلاقة في حدود الزواج الشرعي، فقد وصل الأمر إلى الاستخفاف بهذه العلاقة الشرعية المأذون بها والاندفاع إلى ما يعاكسها.

وإذا كانت آداب الأمم هي المرايا التي تعكس أحوالها النفسية وتطلعاتها القلبية وما يدور في محيطها من صلاتها الاجتماعية فإنه مما يؤسف له حقًا أن يتلوث الأدب الإسلامي أو بالأحرى الأدب الذي ينسب إلى الأمة الإسلامية بأمثال هذه الأرجاس النتنة الكريهة، فكم شاع فيه تغزُّل الذَّكَر في الذكران حتى امتلأت دواوين الأدب بذلك فصار الأدب عنوانًا على فساد الأخلاق وسوء الأدب وعدم الاكتراث بالفضائل.

وكثيرًا ما آلمني هذا الأمر ودعوت إلى تنقية التراث الأدبي من أمثال هذه الترهات التي كثيرًا ما تعزى إلى رجال يعدون قممًا في العلوم ولهم من التراث ما يدعو إلى الاعتزاز به والافتخار، فكم عثرنا على ترجمة إمام من هؤلاء الأئمة الأفذاذ وإذا بها بجانب ذكر مآثره الدينية وآثاره العلمية تشوه ترجمته بما يعزى إليه من هذه الدنايا، ولربما صُدِّرَتْ بهذه التراجم آثارهم العلمية، وكثيرًا ما وقفت وِقفة المحتار من هذا الأمر، ما هي فائدة ذكر هذه المخازي في تراجم العلماء ولمصلحة مَن يُعَدُّ ذكرها؟!.

ومن عجيب ما في الأمر أن يذكر بعض هؤلاء الذين يعزى إليهم أنهم كانوا مفتونين بحب الغلمان ومنهمكين في الدنايا معهم ـ وهم من قمم العلم ـ ثم يضاف إلى ذلك أنَّ بشائر منامية لحقتهم بعد مماتهم تدل على أنَّ

الله سبحانه بوأهم مبوأ الرحمة وأنهم هيأ لهم في الآخرة مثل الذي كانوا يتوقون إليه في الدنيا، فقد قالوا عن أحدهم: إنه رؤي بعد موته في النوم فقيل له: ما فعل الله بك؟ فقال: أوقفني الله بين يديه وقال: يا شيخ السوء فعلت وفعلت، وقال: فأخذني من الرعب ما يعلم الله، ثم قلت: يا رب ما هكذا حدثت عنك. فقال: وما حدثت عني؟ فقلت: حدثني عبد الرزاق عن معمر عن الزهري عن أنس عن نبيك ﷺ عن جبريل عليه السلام أنك قلت: «أنا عند ظن عبدي بي فليظن بي ما شاء» وكنت أظن بك أن لا تعذبني، فقال الله ﷻ: «صدق جبريل وصدق نبيي وصدق أنس وصدق الزهري وصدق معمر وصدق عبد الرزاق وصدقت» قال: فألبست ومشى بين يدي الولدان إلى الجنة، فقلت: يا لها من فرحة[1].

وليت شعري على ماذا يدل إيراد هذه القصة مصحوبة بهذه البشارة، أولا يعد هذا تشجيعًا ضمنيًا على الاقتداء بالعالم الذي تعزى إليه ما دام الأمر

---

(١) ينظر: البرمكي، ابن خلكان: حمد بن محمد بن إبراهيم الإربلي: **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، ١٤٧/٦ ـ ١٦٤، حققه: إحسان عباس، دار صادر ـ بيروت، (بدون ط)، والغزالي: **إحياء علوم الدين**، ١٧٨/٤، أشرف على التحقيق والتصحيح: هيئة التحقيق بدار الوعي العربي، دار الهلال ـ بيروت، ط١: ٢٠٠٤م، والمكي، أبو طالب: محمد بن علي بن عطية الحارثي: **قوت القلوب في معاملة المحبوب ووصف طريق المريد إلى مقام التوحيد**، ٣٩١/١ ـ ٣٩٢، ضبطه وصححه: باسل عيون السود، دار الكتب العلمية ـ بيروت، ط١: ١٤١٧هـ/١٩٩٧م، وابن الجوزي: أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد: **صيد الخاطر**، ص١٥٣، المكتبة السلفية ـ المدينة المنورة، (بدون ط)، والقرطبي: **التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة**، ٢٤١/١، تحقيق ودراسة: الصادق بن محمد بن إبراهيم، دار المنهاج ـ الرياض، ط١: ١٤٢٥هـ، وابن الجزري: محمد بن محمد بن يوسف: **الزهر الفائح في ذكر من تنزه عن الذنوب والقبائح**، ص٤٢، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية ـ بيروت، ط١: ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م، والبغدادي، الخطيب: أحمد بن علي: **تاريخ بغداد أو مدينة الإسلام**، ترجمة: يحيى بن أكثم القاضي، (رقم الترجمة: ٧٤٨٩)، ٢٠٣/١٤ ـ ٢٠٤، دار الكتب العلمية ـ بيروت، (بدون ط)، وابن عساكر: **تاريخ دمشق**، ترجمة: يحيى بن أكثم بن محمد، (رقم الترجمة: ٨١٠٨)، ٩٠/٦٤ ـ ٩١.

سيؤول إلى الفوز والسعادة بعد اجتياز مرحلة النجاح في الحوار بينه وبين ربه حتى أمكنه أن يفحمه الحجة ـ تعالى الله عن ذلك ـ فكم من مرضى النفوس عبيد الشهوات من سوف تسول له نفسه أن يأتي هذه الدنايا راجيًا أنه سيتمكن من محاجة الله تعالى بمثل ما حاجه به ذلك العالم العملاق حيث يستلهم الحجة من كلامه الذي أدلى به بين يدي الله تعالى ففلجت حجته.

ومما يدعو إلى العجب أن نجد في الأدب الموظف في الموعظة والذكرى والتزهيد في الدنيا والترغيب فيما عند الله في بعض الأحيان استرسالًا من الأديب في بسط محاسن الغلمان كأنما كلامه مختص بالغزل فيهم، هذا مع الأمر بالصدود عن المرأة وعدم المبالاة بها كما نجد ذلك في اللامية الوعظية لابن الوردي التي يقول فيها:

اعتَزِلْ ذكر الغواني وَالغَزَل ... وَقُلِ الفصل وجانبْ من هَزَلْ
ودع الذكرى لأَيَّام الصبا ... فلأَيَّام الصِّبَا نجمٌ أَفَلْ
إن أهْنا عِيشةٍ قَضَيْتَهَا ... ذَهَبتْ لَذَّاتُهَا وَالإثْمُ حَلْ
واترك الغادة لَا تَحْفَل بِهَا ... تُمْس فِي عِزّ رَفِيْعٍ وَتُجلْ

ولكنه عندما ذكر الأمرد عزب عن ذهنه الوعظ الذي هو بصدده فإذا به يندفع في التغزل في محاسن الأمرد:

والله عن آلة لهو أطربت ... وعن الأمرد مرتج [...]
إن تبدى تنكسف شمس الضحى ... وإذا ما ماس يزرى بالأسل
فاق إذ قسناه بالبدر سنا ... وعدلناه برمح فاعتدل

ولا يخفى ما في هذا الكلام من انقلاب الموازين رأسًا على عقب، فبينما الواعظ يأمر بهجر المرأة على الإطلاق وعدم الاعتداد بها إذا به يندفع في مقام الوعظ في الغزل المهيج للغرائز تجاه المرد بما ذكره من محاسنهم التي

تسبي نفوس الضعفاء الشاذين عن الفطرة، مع أنه من المعلوم أنَّ المرأة تنجذب إليها النفس بالفطرة وقد جعلها الله ﷻ سكنًا للرجل، وشرع العلاقة بها استجابة لداعي الفطرة بما حث عليه وامتن به من الزواج الشرعي الذي يتكامل به الزوجان وهو منشأ ما يرزقانه من قرة الأعين التي يكون بها امتداد الحياة وعمارة الأرض والحفاظ على شرع الله تعالى، فكم من آية في كتاب الله تنص على ذلك كما في قوله تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الروم: ٢١]، وقوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ﴾ [النحل: ٧٢]، وقد امتنّ تعالى على الناس أن خلقهم من نفس واحدة وجعل منها زوجها فكان ذلك سببًا لانتشارهم في الأرض كما في قوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ﴾ [النساء: ١]، وجعل الصلة الزوجية ما بين الذكر والأنثى سنة طيبة في الحياة سبق إليها الرسل الكرام عليهم السلام، فقد قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً ﴾ [الرعد: ٣٨]، وحث على الاقتداء بهم في ذلك كما في قوله: ﴿ فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ﴾ [النساء: ٣]، وقد كان مسك ختام الأنبياء وبدر تمام الرسل عليه وعليهم الصلاة والسلام على هذا النهج كما ثبت من قوله: «حُبِّبَ إِلَيَّ مِنَ الدُّنْيَا النِّسَاءُ وَالطِّيبُ، وَجُعِلَ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ»[1]، وقال

---

(١) أخرجه أحمد؛ مسند أحمد، (رقم: ١٢٢٣٣، ٤١٢/١٠)، والنسائي؛ السنن الصغرى، كتاب (٣٦) عشرة النساء، باب (١) حب النساء، (رقم: ٣٣٩١، ص ٢٣٠٧)، وابن سعد؛ الطبقات الكبرى، ذكر ما حبب إلى رسول الله ﷺ، (٣٠٤/١)، وأبو يعلى؛ مسند أبي يعلى، (رقم: ٣٥٣٠، ٢٣٧/٦)، والحاكم في مستدركه؛ المستدرك، كتاب (٢٣) النكاح، (رقم: ٢٦٧٦، ١٧٤/٢)، وقال: «صحيح على شرط مسلم»، والبيهقي؛ السنن الكبرى، كتاب النكاح، باب (٥٩) الرغبة في النكاح، (رقم: ١٣٤٥٤، ١٢٤/٧ ـ ١٢٥).

حاضًا على الاقتداء به في ذلك ومحذرًا من العـــزوف عن منهجه: «النِّكَاحُ مِنْ سُنَّتِي، فَمَنْ لَمْ يَعْمَلْ بِسُـــنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي، وَتَزَوَّجُوا، فَإِنِّي مُكَاثِـرٌ بِكُمُ الْأُمَمَ، وَمَنْ كَانَ ذَا طَوْلٍ فَلْيَنْكِحْ، وَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَعَلَيْهِ بِالصِّيَامِ، فَإِنَّ الصَّوْمَ لَهُ وِجَاءٌ»[1]، وقال: «يَا مَعْشَرَ الشَّبَابِ مَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمُ البَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ فَإِنَّهُ لَهُ وِجَاءٌ»[2]، وترى أنه ﷺ قدم النكاح حتى على الصيام في هذا الحديث الشـــريف، وما ذلك إلا لأنه يسكن جائشة النفس ويلبي مطلب الفطرة وبـــه يتحقق مـــا أراده الله تعالى مـــن عمارة الأرض بتعاقب أجيال البشر عليها.

وأين هذه العلاقة الشـــريفة النظيفة من العلاقة بالمرد التي يتقزز منها كل طبع وتحرم في كل شـــرع اللهم إلا عند من تعفنت طباعهم فكانوا أسوأ من الحيوانات العجم إذ هي تأبى على نفســـها أن تنحدر إلى قيعان هذه الرذيلة النتنة الكريهة، وقد جعلها الله ﷻ سببًا لســـخطه وحلول عذابه في الدنيا قبل

---

(١) أخرجه ابن ماجه؛ سـنن ابن ماجه، (٩) أبواب النكاح، بـاب (١) ما جاء في فضل النكاح، (رقم: ١٨٤٦، ص ٢٥٨٧). والديلمي؛ فردوس الأخبار، (رقم: ٧١٧٤، ٥٨/٥).

(٢) أخرجه أحمد؛ مسند أحمد، (رقم: ٣٥٩٢، ٥٠٣/٣)، والبخاري؛ صحيح البخاري، كتاب (٦٧) النكاح، باب (٢) «من اسـتطاع منكم الباءة فليتزوج..»، (رقم: ٥٠٦٥، ص ٤٣٨)، ومســـلم؛ صحيح مسلم، كتاب (١٦) النكاح، باب (١) استحباب النكاح لمن تاقت نفسه إليه ووجد مؤنة واشتغال من عجز عن المؤونة بالصوم، (رقم: ١٤٠٠، [٣٣٩٨]، ص ٩١٠)، وابن ماجه؛ سنن ابن ماجه، (٩) أبواب النكاح، باب (١) ما جاء في فضل النكاح، (رقم: ١٨٤٥، ص ٢٥٨٧)، وأبو داود؛ سـنن أبي داود، كتاب (١٢) النكاح، باب (١) التحريض على النـكاح، (رقم: ٢٠٤٦، ص ١٣٧٣)، والترمذي؛ سنن الترمذي، (٩) أبواب النكاح، باب (١) ما جاء في فضل التزويج والحث عليه، (رقم: ١٠٨١، ص ١٧٥٥)، وقال: حســـن صحيح، والنســـائي؛ السنن الصغرى، كتـاب (٢٢) الصيام، بـاب (٤٣) ذكر الاختلاف علـى محمد بن أبي يعقـوب في حديث أبي أمامة في فضـل الصيـام، (رقـم: ٢٢٤١، ص ٢٢٣٣)، وابن حبان؛ صحيـح ابن حبان، كتاب (١٤) النكاح، (رقم: ٤٠٢٦، ٣٣٥/٩).

الآخرة كما حاق ذلك بقوم لوط الذين كانوا هم قدوة الفساق في ارتكاب هذا المنكر، وقد بيّن الله عاقبة أمرهم في قوله: ﴿ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ۝ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴾ [هود: ٨٢ ـ ٨٣]، وكم عنّف لوط عليه السلام قومه الفجرة الفساق بما أتوه من هذا المنكر الفظيع وإعراضهم عن نهج الفطرة كما حكى الله ذلك عنه في قوله: ﴿ أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴾ [الشعراء: ١٦٥ ـ ١٦٦]، وبيّن أنهم كانوا أسبق الناس إلى هذه الرذيلة بل أسبق كل من في العالم كما حكاه عنه في قوله: ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [العنكبوت: ٢٨].

ومع ذلك دعاهم إلى الفطرة وذكرهم بها كما ذكره الله في قوله: ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِيٓ هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴾ [هود: ٧٨]، فالعجب كيف يدعو واعظ إلى الإعراض عن الغادة مع أنّه لم يبال أن يهيج الغرائز المنحرفة تجاه المرد بما ذكره من محاسنهم!؟

وقد كنت أتمنى من هذه الأمة أن تنتبه لخطورة هذا الأمر وتتدارك شبابها بصرفهم عن هذه الفحشاء وتجنيبهم الإعجاب بهذا الأدب الهابط الرذل، ولكن مما يؤسف له أنه بدلًا من أن تنقى منه دواوين الأدب عندما تنشر إذا بهذا الأمر يصبح في متناول الأيدي ميسرًا لكل أحد بإدراجه في المكتبة الآلية فأصبح الشاب بإمكانه أن يطلع على كل هذا الغثاء بمجرد ضغط زر على هاتفه.

وقد تفاءلت خيرًا بما صدر عن ندوة الأدب الإسلامي المنعقدة في شهر جمادى الثانية ١٤٠١هـ الموافق نيسان (إبريل) ١٩٨١م بمقر دار العلوم

بـ(لكنهو) ندوة علماء المسلمين بالهند، فقد أوصت بتنقية الأدب الإسلامي من كل الشوائب وتجريده من كل ما يشوه الإسلام حتى الغزل الرخيص الذي شاع على ألسنة الشعراء فضلًا عن الغزل الشاذّ الذي ينم عن هيام الجنس بجنسه، ولكن مع الأسف الشديد لم يكن لهذه التوصيات صدى في نفوس الأدباء، ومع ذلك ظلّت دور النشر تزود المكتبات الأدبية كل يوم بجديد مما تضمنه التراث الأدبي من هذه الهزليات.

ففي الأيام الأخيرة فاجأتنا إحدى المؤسسات الخيرية التي يقوم عليها أحد المحبين لأعمال الخير الباذلين جهودهم في المحافظة على كنوز العلم ونشرها بين الناس بنشر كتاب يعزى إلى مرجع من مراجع الفقهاء الذي جالوا بأقلامهم في شتى فنون العلم؛ فقد احتوت ترجمته المذكورة في صدر كتابه المنشور على ذكر مؤلفاته وهي تناهز مائة مؤلف، أكثرها في العلوم الشرعية المتنوعة، ولكنني أسفت على أن الكتاب الذي نشر معزوًّا إليه يحوي نماذج هابطة من هذا الأدب الرخيص، وكان مما قاله فيه: «وقد تغزل في المرد كثير من الأفاضل والأئمة الأماثل كما هو معلوم لمن وقف عليه في كلامهم»[1]، ثم أتبع ذلك مقاطع من أبيات عزاها إلى كبار علماء الأمة الذين لا يشق لهم غبار في تحرير العلوم وتحقيق مسائلها، وإنني لأستحيي أن أسرد الأسماء التي سردها فضلًا عن الإتيان بنماذج مما عزاه إليهم، وترى كيف كان في هؤلاء الشذوذ عن الفطرة والدين معًا؛ إذ كان من قول بعضهم:

أهوى الغزال الذي قد تم عارضه ... كأنه عنبر من فوق كافور

ولا أحب فتاة الحيّ قط ولو ... كانت من الآنسات الخرّد الحور

---

(١) الكرمي: منية المحبين وبغية العاشقين، ص١٥٦، دراسة وتحقيق: د. عباس هاني الجراخ، مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث ـ دبي، ط١: ١٤٣٧هـ/٢٠١٦م.

ومثله ما عزاه إلى بعضهم من قوله:

طوبى لمن رفض الفتاة وقد غدا حبُّ الفتى أبدًا لمهجته إذا
ما قالت العرب الفصاح إذا ارتضت في الدهر شيئًا حبذي بل حبذا[1]

فانظر كيف يعزفون عن البهكنات الحسان إلى المرد من الغلمان، مع أنّ الله سبحانه امتنّ عليهم بما خلق لهم من النساء وجعل لهم إليهن سبيلًا بالعلاقة الزوجية التي هي وعاء الحب ومصدر هيام كل واحد من الزوجين بالآخر، ويا ترى هل يمكن أن يكون ذلك إلا أثرًا من آثار عقيدة الإرجاء التي سربها اليهود إلى هذه الأمة فتدافعت إليها ظانة أنها بذلك تدرأ عن نفسها وعيد الله تعالى الذي لا تبديل لقوله متصاممة عن نذره تعالى في نحو قوله: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٢٣].

وهل تشك ـ أخي القارئ الكريم ـ أنَّ هذه الدنايا عندما يراها الشخص الغمر الجاهل بالدين معزوة إلى الذين يعدون في الدين قممًا وللشريعة أئمة قد يؤدي به الإحباط إلى عدم الثقة بالدين فتكون عاقبة ذلك الارتماء في أتون الإلحاد والعياذ بالله.

---

(١) المرجع السابق، ص ١٦٠.

المبحث الثامن

في علاج مشكلة الإلحاد

ليس لهذه المشكلة من علاج إلا الإيمان الذي يجب أن تغذى به نفوس الناس منذ نشأتهم، وذلك بترسيخ مفاهيم العقيدة الصحيحة القائمة على مسلمات العقل وثوابت الشرع، بحيث يدرك الإنسان أنّ الله تعالى وحده هو رب الوجود، وأنّه المبدئ المعيد، الفعّال لما يريد، القابض الباسط، المعطي المانع، الرافع الخافض، له الآخرة والأولى، وله الحكم في السماوات والأرض، كل ذرة من ذرات الكون هي سفر حافل بكلماته الشاهدة له بالخلق والحكم، وأنّ كل من في السماوات ومن في الأرض إنما هم عباده، يصرفهم بمشيئته وينشرهم ويطويهم بقدرته، ويدبر جميع أمورهم بحكمته، ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ۞ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ۞ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا﴾ [مريم: ٩٣ ـ ٩٥].

وإذا كان الكل عباده وما كان لأحدهم أن يُجْعل له شيء من خصوصيات الألوهية أو الربوبية، فما كان لأحدهم أن يدعى من دونه لأن الدعاء إنما هو لرب العباد لا للعباد، كما يوحي به قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٤]، وما كان للعبودية الحادثة الضعيفة المقهورة أن تزاحم الربوبية الأزلية القوية القاهرة في أي شيء.

وبهذا يستقر الإيمان، ويرسخ الإيقان، وتستقيم الأحوال، وتهدأ النفوس، وتطمئن القلوب، ويسود الناس الوئام والانسجام، لأنهم جميعًا عباد الله وهو أولى بهم جميعًا، وقد استقر في نفوسهم أجمعين حبه ورجاؤه وخوفه، وهو أمر يجب أن تعتني به جميع وسائل الإعلام والثقافة، ويرسخ في المناهج العلمية منذ بداية التلقين إلى نهاية التحصيل.

ومع ذلك يجرد الاعتقاد من كل تشبيه لله تعالى بخلقه كما ينقى من تشبيه الخلق به، فإنّ التشبيه في صورتيه جميعًا هو أعمل معول في هدم الإيمان واستلاله من النفوس، ولأجل ذلك جاءت نصوص القرآن الكريم مؤكدة قداسة الألوهية ونزاهتها عن كل ما ينزلها إلى أوصاف الخلق أو يرفع مراتب الخلق إلى أوصافها، ناهيك بسورة الإخلاص وما نصت عليه من أحديته تعالى وتنزيهه عن الوالدية والمولودية وعن أن يكون له كفؤ من خلقه، فإنّ أحديته تعالى تعني عدم مشابهته بحال، لأنها تعني تنزهه عن كل ثنائية في الذات أو الصفات وقداسته عن التركيب والتجزؤ، وهذا يعني تعاليه تعالى عن الحد والعضوية، إذ لو كانت له أعضاء متعددة لما كان أحدًا، فإنّ ما ينقسم إلى أعضاء لا يكون أحدًا، وإن كان في مجموعه واحدًا، والأحدية هي أبلغ في التنزيه من الواحدية، ولذلك كانت صفة خاصة بالله تعالى.

وأحديته تعالى تقتضي أيضًا تنزيهه سبحانه عن تشبيه غيره به في الذات أو الصفات أو الأفعال، فهو تعالى ـ كما أنه واحد في ذاته ـ هو واحد في صفاته، وواحد في أفعاله، فصفات الخلق كلها دون صفاته، بل هي عكسها وإن اتصف بعض الخلق بمظاهر من صفاته سبحانه، كالعلم والقدرة والإرادة والسمع والبصر، ولكنها تباينها أي مباينة، فصفاته سبحانه لا تحد بحد، ولا تقيد بقيد، وليست لها بداية ولا نهاية، فهي أزلية أبدية، لأنها كمالات وسلبها يعني سلب كمالاته ﷻ، فلو انتفى عنه العلم بشيء لكان جاهلًا به، وكذلك

لو انتفت قدرته على شيء لكان موصوفًا بالعجز، والمخلوق كل صفاته ـ من العلم والقدرة والإرادة والحياة والسمع والبصر وغيرها ـ هي محدودة بمحدودية مخلوقيته، فعلمه بعد جهل، وقدرته بعد عجز، وما يعلمه أو يقدر عليه لا يساوي شيئًا بجانب ما يجهله وما يعجز عنه، وكذلك إرادته مقيدة إذ لا تنفذ في كل شيء إلا إن أراد الله تعالى نفاذها، ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [التكوير: ٢٩]، وحياته تكون بعد موت، ويتبعها الموت، ولو كان يحيا حياة أبدية في الدار الآخرة، إلا أن تلك الحياة إنما هي بإحياء الله تعالى له، بعكس حياته تعالى فإنّها حياة ذاتية لا يتصور فقدها، وما يراه أو يسمعه لا يساوي شيئًا بجانب ما لا يراه ولا يسمعه، فسمعه وبصره محدودان بمحدودية مخلوقيته.

أما أفعاله؛ فهي أيضًا قاصرة مقيدة بقيود، ومحدودة بمحدودية قدرته القاصرة، وأفعال الله تعالى لا يقيدها قيد ولا تحد بأمر، ولا تعلق على معونة من غيره، ولم يكن للمخلوق أن يشارك الله تعالى في أفعاله، كخلق الخلق، وإفاضة مواهبه عليهم، وإحيائهم وإماتتهم، ومهما كان شيء من ذلك كما كان للمسيح عليه السلام إذ يخلق من الطين كهيئة الطير فينفخ فيه فيكون طيرًا، وكذلك إحياؤه الموتى فإنّ ذلك كله إنما هو بأمر الله ﷻ، وما كان المسيح في ذلك إلا آلة منفذة لإرادة الله، ولذلك نيط هذا كله بإذنه سبحانه كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى ۖ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى﴾ [المائدة: ١١٠].

أما السعادة والشقاوة فما كان لأحد أي نصيب في الحكم على غيره بأحدهما، إذ لا شركة لأحد من خلق الله تعالى فيما يتعلق بالدار الآخرة، ولذلك وصف الله نفسه بقوله: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٤]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ۝ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ۝ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ

وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾ [الانفطار: ١٧ ـ ١٩]، ولله سبحانه الآخرة والأولى، ففي هذه الدنيا مع ما أوتي الناس من حظوظ فيها ليس لأحد من خلق الله شيء من الأمر إلا ما قدره الله تعالى له، وليس يشارك الله تعالى في علم الغيب فيها، وحسبنا أن يكون النبي ﷺ لا يملك شيئًا من ذلك ـ مع علو قدره وجلالة منزلته ـ كما قال تعالى: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٨]، وإذا كان هو ﷺ لا يملك شيئًا من ذلك، فكيف بمن عداه؟!.

لذلك يجب تطهير العقول من جميع العقائد التي تشوب الإيمان بالله الواحد الأحد الذي له الخلق والأمر، وبيده ملكوت كل شيء، وبهذا تسد جميع النوافذ، وتقطع جميع الطرق على دعوات الملحدين، والله المستعان.

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى



الفصل الثاني

في استشراء داء الإلحاد في الأمم

وفيه ثلاثة مباحث:

- المبحث الأول: فيما مرّ على الأمم من أفكار ملحدة.
- المبحث الثاني: تأصيل الفكر الداروينى.
- المبحث الثالث: في صدى الفكر الداروينى.

المبحث الأول

فيما مرّ على الأمم من أفكار ملحدة

ليس الإلحاد في الناس وليد اليوم أو الأمس، وإن رفع ملحدو هذا العصر عقيرتهم مفاخرين بأنهم في تقدمهم الفكري وصلوا إلى نقطة الإلحاد، فقد دلّ القرآن على وجود الإلحاد بين الناس منذ عصور سحيقة، فقد حكى حوار الأنبياء الذين أرسلهم الله تعالى لإنقاذ الأمم من ضلال العقول، والارتكاس في التصور إلى حضيض الباطل مع أقوامهم الذين أرسلوا إليهم، كما في قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ۛ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۛ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ ۖ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ۝ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [إبراهيم: ٩ ـ ١٠]، فإنّ فيه ما يدل على أنّ أولئك بلغ بهم انطماس البصائر وفساد العقول إلى عدم الاعتراف بالله سبحانه، ولذلك احتجت عليهم رسلهم بآيات الله تعالى الدالة عليه في الآفاق، ودعتهم إلى النظر في خلق السماوات والأرض، فإنّ كل ما فيها إنما هو شاهد ودليل على الله تعالى.

على أنّ هذا الفكر المظلم الحائر قد امتد في تاريخ الأمم، كما نجد ذلك فيما دل عليه قوله تعالى: ﴿ وَقَالُواْ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾ [الجاثية: ٢٤]، فإنّ هؤلاء الذين

عزوا إهلاكهم إلى الدهر أبعدوا عن عقولهم اعتقاد كون الله تعالى مبدئًا للخلق ومعيده، فهم كملاحدة العصر يعتقدون أنّ الطبيعة هي التي تصرف الكون، فهي التي تنشئ المعدوم، وتعدم الموجود كما قيل: (أرحام تدفع وأرض تبلع).

وكثير من هؤلاء غدوا في اضطراب بين داعي الفطرة وعناد الجحود، فالفطرة تدعوهم إلى الاتصال بالغيب، والتعلق بسلطة وراء ما يشاهد ويعرف بالحس، والجحود يَدُعُّهُم في حضيض الجهل، ويدفعهم إلى الإنكار لما وراء الحس، فلذلك اختلقوا لأنفسهم ما يتعلقون به، فاتخذوا لهم آلهة شتى من الأوثان، ووزعوا بينها الأدوار في الإنشاء، فقالوا بأن منها ما هو إله الحب، ومنها ما هو إله الجمال، إلى غير ذلك، كما كان ذلك في الحضارة اليونانية، وتبعتها وريثتها الحضارة الرومانية.

ويبيّن ذلك د. **جستون باريت** في كتابه **فطرية الإيمان**، إذ يقول: «هل تذكرون من المرحلة المدرسية زيوس (كبير آلهة اليونان) أبولو (إله النور ابن زيوس) هيرميس وفينوس (ربة الحب والجمال)؟ أم لعلكم تذكرون أنوبيس (إله العالم السفلي عند المصريين) راع (إله الشمس) أوزيريس (إله محاسبة الموتى في العالم السفلي)، إيزيس (ربة الخصب)؟ إنّ الأزتيك القدامى والبابليين والمصريين واليونان والأنكا والرومان لديهم جميعًا تشكيلة واسعة من الآلهة متعددة المهام والوظائف، من آلهة الشمس، وآلهة الخصب، وآلهة الموت، وهكذا. وبالمثل يوجد في الهندوسية مئات من الأرباب والربات، كما أنّ لقبائل المايا هيكلًا ضخمًا من الآلهة»[1].

---

(١) د. جستون باريت: **فطرية الإيمان، كيف أثبتت التجارب أن الأطفال يولدون مؤمنين بالله**، ص ١٧٥، ترجمة: مركز دلائل، دار وقف دلائل للنشر ـ الرياض، ط ١: ١٤٣٨هـ/٢٠١٧م.

وقد وقع بنو إسـرائيل في هذه الورطة، فهم عموا عن الحقيقة أو تعاموا عنها، فلم يكادوا يجتازون البحر بعد أن وجدوا فيه طريقًا يبسًا، وينقذهم الله من شر فرعون وآله، ويهلك أولئك بما أنقذ به هؤلاء، حتى هفت قلوبهم إلى ما كان عليه الآخرون من التعلق بالأوثان، وتجاهل الخالق الذي بيده ملكوت كل شـيء، كما حكاه الله تعالى في قوله: ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ۝ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝ قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ١٣٨ ـ ١٤٠].

وكذلك ما كادوا يودعون موسـى عليه السلام عندما غادرهم إلى ميقات ربه، حتى اتخذوا بأنفسهم وثنًا صنعوه من حليهم، وزعموا أنه إلههم وإله موسى، كما قال تعالـى: ﴿وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ﴾ [الأعـراف: ١٤٨]، وقال سـبحانه: ﴿فَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ ۝ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۝ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى ۝ قَالُوا۟ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ﴾ [طه: ٨٨ ـ ٩١].

وقد شاع الإلحاد عند فلاسفة اليونان، فلذلك قالوا بقدم العالم وهم وإن كانوا يقولون بخلـق الجزئيات في العالم، إلا أنهم يفسـرون خلقها بأنه كان عفويًـا، وأن الكائنات تكونت خلال سلسـلة طويلة من عمليـات المحاولة والخطأ، وهذا ما نسب إلى الفيلسـوف اميدو قليس (Empedocle) الذي كان يسمى بأبي نظرية النشوء، ومثل ذلك ما أعلنه أرسطو (٣٨٤ ق. م ـ ٣٢٢ ق. م): «أن الإنسان هو ذروة عملية ارتقاء طويلة ومستمرة»[1].

---

(١) الغاياتي منيرة علي: مذهب النشوء والارتقاء في مواجهة الدين، ص ٨، مكتبة وهبة ـ مصر، (بدون ط).

وقد وجدت من يعزو إلى ابن مسكويه أنه كان يقول بمذهب النشوء والارتقاء، فقد قال الشيخ نديم الجسر ـ الذي كان مفتيًا لطرابلس ولبنان الشمالي ـ في كتابه **قصة الإيمان بين الفلسفة والعلم والقرآن** ما نصه: «ولابن مسكويه في وصف تسلسل المخلوقات ونموها وارتقائها رأي بديع يشير فيه إلى مذهب النشوء والارتقاء إشارة صريحة لم يزد عليها المتأخرون إلا في التفاصيل، حيث يقول: (إنّ الموجودات مراتب وكلها سلسلة متصلة... وكل نوع من الموجودات يبدأ بالبساطة ثم لا يزال يترقى ويتعقد حتى يبلغ أفق النوع الذي يليه، فالنبات في أفق الجماد ثم يترقى حتى يبلغ أعلى درجة، فإذا زاد عليها قبل صورة الحيوان، وكذلك الحيوان يبدأ بسيطًا ثم يترقى حتى يصل مرتبة قريبة من الإنسان، ثم يخلص ابن مسكويه من هذا إلى القول بأنّ الإنسان نفسه لا يزال يترقى ويزداد ذكاء، وصحة في التفكير، وجودة في الحكم، حتى يبلغ الأفق الأعلى الذي يتعرض به لإحدى منزلتين؛ إما أن يديم النظر في الموجودات ليتناول حقائقها، فتلوح له الأمور الإلهية، وإما أن تأتيه تلك الأمور من الله تعالى من غير سعي منه، وصاحب المنزلة الأولى هو **الفيلسوف**، وصاحب المنزلة الثانية هو **النبي**، الذي يتلقى فيضًا من الله تعالى، فإذا التقى من وصل من أسفل بالتفلسف ومن تلقى من أعلى بالفيض اتفق رأيهما، وصدق أحدهما الآخر بالضرورة، لاتفاقهما في تلك الحقائق)»[1].

وهو كلام باد تهافته لما سيأتي من أنّ الإنسان خلقه الله من أول الأمر إنسانًا، ليكون خليفة في الأرض مفضلًا على ما فيها بما اختص به من ملكات، وما أفيض عليه من مواهب، ولا يمكن أن يكون الأنبياء والفلاسفة في مرتبة واحدة من الهداية، فكم امتلأت الفلسفة بضلالات شتى، والنبوة لا تحوم حولها ضلالة، وسيأتي بيان ذلك مستقبلًا إن شاء الله.

---

(١) الجسر؛ نديم بن حسين أفندي: **قصة الإيمان بين الفلسفة والعلم والقرآن**، ص٦٤، طبع في لبنان.

وبعد هذا؛ اطلعت على ما في كتاب ابن مسكويه **تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق** فوجدته قد أطال النفس في بحث هذه القضية، ولكنه لم يأت بدليل يمكن أن يعول عليه من قرآن أو سنة، أو حقيقة علمية صالحة لأن يهتدى بها، وإنما عوّل على منهج فلسفي، ودراسة أحوال الناس في المجتمعات البدائية والمتقدمة[1].

وقد تعلق بكلامه وكلام غيره ممن عزي إليهم القول بنظرية النشوء والإرتقاء من الإسلاميين كثير ممن أعجبوا بهذه النظرية، سواء الذين أخذوا بها واعتمدوها، أو الذين سوغوها فأرادوا أن يتكئوا على شيء مما يعزى إلى علماء الإسلام وفلاسفته، ليثبتوا أن المسلمين سابقون في الأخذ بهذه النظرية، وسيأتي بيان هذا مفصلًا ـ إن شاء الله ـ.

مع أن ما قاله ابن مسكويه لا يدل على صحة ما ذهب إليه من تمسك بكلامه لإثبات هذه النظرية، ذلك أن الكائنات الحية هي متباينة من حيث الخلقة والطبيعة، وإن تشابهت في بعض الأحوال.

هذا؛ وقد شرح د. عبد الرحمن بن غالب عواجي الوضع الإلحادي في العصر اليوناني وتعدد أنظار فلاسفة اليونان إلى العالم ووضعه في كتابه **الإلحاد الحديث** فقال ما نصه: «تقف الدراسات الغربية في الحكم على تفشي الإلحاد في العصر اليوناني على موقفين:

ـ موقف يرى أنّ الإلحاد لدى الإغريق لم يكن ذا طابع شعبي أو ظواهر شعبية متفشية، وإنما كان على شكل أفراد من الفلاسفة وغيرهم، تجرأوا بوضع نظريات إلحادية تقوم على أفكارهم.

---

(١) ينظر؛ الرازي، ابن مسكويه؛ أبو علي أحمد بن محمد بن يعقوب: **تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق**، ص٧٢ ـ ٧٩، مكتبة الثقافة الدينية ـ القاهرة، ط٢: ١٤٣٧هـ/٢٠١٦م.

ـ وموقف آخر يرى وجود النظريات الإلحادية اليونانية ظاهرة معروفة لدى بعض فلاسفتهم، وهذا الرأي هو الأقرب إلى الحقيقة من وجهة نظري.

والعارف لطبيعة المجتمع اليوناني يدرك بوضوح أنّ معظم ذلك المجتمع كان يرى الفلاسفة بعين الإجلال، وكان للفلاسفة تلاميذ وأتباع، كما كان لهم مناوئون وأعداء، ولذلك انتشرت نظرياتهم وحفظها لنا التاريخ، فظهورها على شكل آراء فلسفية لبعض الفلاسفة لا يعني عدم وجود موجة جماهيرية عارمة لها وأتباع مناصرين.

فقد ظهرت نظريات يونانية فلسفية إلحادية قديمة ـ كان كثير منها مصدر إلهام لدى بعض أصحاب النظريات الحديثة ـ كالنظريات التي تقوم على مبدأ تحليل الكون تحليلًا لا يرتبط بقوة عليا أو إله مبجل، كنظرية **ديميكريتوس**؛ الذي يرى أنّ منشأ التدين هو الخوف البشري من الظواهر السماوية.

وكانت نظريته قائمة على مبدأ الذرة، حيث أرجع كل الموجودات إلى ذرات صغيرة يقوم بعضها على بعض لتتخذ بعد ذلك شكلًا معينًا، وأنّ الأشياء تتخلق من تصادم الذرات، ثم تكتسب كيفياتها، ولذلك يعتقد أنّ نشوء الكون وفساده يرجع إلى عامل الذرة لا إلى خالق.

وكذلك نظرية **طاليس** التي تقوم على اعتماد أنّ المادة هي أصل العالم، وأنّ أصلها هو الماء، وأنكر أن يكون ثمة خالق.

كذلك نظرية **أبيقور** ـ صاحب مبدأ اللذة ـ الذي كان يشير إلى عدم وجود إله أو بوجوده، لكنّه لا يستطيع أن يغير الشرور الواقعة في العالم.

ولقد زاد من تأزم الدين في العصر اليوناني ظهور الاتجاه السفسطائي في الفلسفة اليونانية، حتى كاد أن يعصف بكل الثوابت الدينية وغير الدينية من

مجمل العقلية اليونانية، ولذلك عُدّ بعض أساطين السفسطائية من الملاحدة الفيلسوف بروتوجوراس.

فلقد بنى السفسطائيون نظرياتهم على إنكار أي حقيقة موضوعية ثابتة في هذا الوجود، وتشككوا في إمكان العلم اليقيني بأي موضوع من موضوعاته، لأن هذا العلم لا بد أن يكون علمًا بحقائق ثابتة مستقرة تمامًا، وليس في هذا الوجود ثبات أو استقرار في نظرهم، ويمكن حصر اتجاه السفسطائية العام فيما يلي:

١ ـ أنه لا وجود إلا للمحسوسات، وهي في تغير وحركة مستمرة، فالوصول إلى أي حقيقة متعذر ومستحيل.

٢ ـ وأنه ما دامت الحقيقة الموضوعية الثابتة غير متحققة في هذا الكون، فالحق بالنسبة لكل إنسان هو ما يبدو له، فالحقيقة تتعدد بتعدد الأفراد. إذن، فقد كانت السفسطة عاملًا مهمًا في نشأة الفكر الإلحادي لدى الكثيرين من المتأثرين بها، إذ زرعت مبدأ الشك في كل المسلمات المحسوسة فضلًا عن الغيبيات، إلى جانب ظهور بعض النظريات الآحادية كنظرية ديكريتوس، ونظرية طاليس، ونظرية أبيقور... وغيرهم»[(١)].

ثم عرّج بعد ذلك على الغنوصية، وبيّن أنها انتهت إلى الإلحاد، وهي دائرة بين الإلحاد المطلق والإلحاد النسبي بحسب تفاوت نظرات منظريها[(٢)].

وهكذا ظل الإلحاد يطرق نفوس البشر في مجتمعاتهم نتيجة فقدان الإيمان الحق والبصيرة المتقدة الموصلة بالله ﷻ، إلى أن جاء العصر

---

(١) عواجي؛ عبد الرحمن بن غالب: الإلحاد الحديث، تاريخه وأبرز نظرياته وآثاره، وسبل مواجهته، ص٣٧ ـ ٤٠، مركز دلائل ـ الرياض، ط١: ١٤٣٩هـ/٢٠١٨م.

(٢) ينظر؛ المرجع السابق، ص٤٠ ـ ٤٢.

الحديث، وبدأت النهضة العلمية في الغرب، فبدأ الإلحاد يلقي بذور الشك في الدين، ويسعى إلى نقض مسلمات الأديان في المجتمعات التي تدين بها، وقد دخل في هذا المعترك بعض رجال السياسة، الذين كانوا ينظرون إلى الدين نظر احتقار بسبب ما يتكشف من معطيات هذه النهضة على خلاف معتقدات الدين، وكان بادئ الأمر يتم ذلك في الخفاء، لأن السلطة الكهنوتية كانت قائمة، وللكنيسة مكانتها وقدسيتها عند الناس، ولا تزال موضع تقدير واحترام عند الساسة.

وفي هذه الفترة دخل الإلحاد في صراعه مع الدين منعطفًا جديدًا، عندما حاول ترسيخ قدميه ببيان ما ينقض المسلمات الدينية المعتد بها في الكنائس، ولعل القنصل الفرنسي **بنواديماييه** ـ الذي عينه ملك فرنسا في عام ١٦٩٢م قنصلًا لفرنسا بمصر، مع قيامه بمهمة التجسس لصالح المملكة الفرنسية، وظل بها ستة عشر عامًا ـ وجد فيها فرصة لإرضاء طموحه بدراسة لغات متعددة وتتبع ما أمكنه الوصول إليه من أحوال البلد الجيولوجية، وبعد خمس سنوات من استقراره في مصر، شرع في تأليف كتابه الذي سماه **تلیامد** وهو يرمز إلى حوار بين فيلسوف هندي ومنصر، حول تناقص البحر، وتكون الأرض، وأصل الإنسان والحيوان، وقد دعاه هذا إلى تتبع ما أمكنه الوصول إليه من عينات وكتب وأوراق وأحافير وهو يطمح من وراء ذلك إلى أن يسجل اسمه مع المشاهير، مثل **كوبرنيكوس وغاليلو**.

ولا ريب أن استقصاء هذه المعلومات حسب طموحه سينتهي به إلى الصدام مع الكنيسة، وما كانت تعتقده من تحديد عمر الأرض بزمن محدود، فلذلك حرص على تعمية أمره هذا، حيث عزا كتابه هذا لمجهول لينجو من المساءلة أمام سلطة الكنيسة، وقد صاغ أفكاره هذه في صورة حوار يبثه الفيلسوف الهندي من استقصائه لأحوال الأرض والبحار، وتتبعه الآثار التي

يستنتج منها المعلومات، ولم يعرج في أي موضع من كتابه هذا على وجود إله، وصدور الكون عنه، وإنما كان يرد ذلك إلى الصدفة، وبعد أن أمضى أربعين عامًا في بحثه وتأليفه تطلع إلى نشر نتاج فكره، لا سيما كتابه **تليامد** الذي ضمنه نظرته إلى وجود العالم، وكان كتابه هذا يتداول سرًا بنسخته المخطوطة عند المتحررين في **باريس ومارسيليا**، وقد بدأ فيه بوضع الأسس لفكرة التطور والارتقاء، التي وصلت إلى منتهاها على يدي **تشارلز داروين**.

وكان كتابه هذا شدّ انتباه **لاماسغييه** على رغم كونه قسّا، ولكنه يبدو أنه كان متمردًا على تعاليم النصرانية، وطموحًا إلى اكتشاف الجديد، وقد تدوول الكتاب سرًا، وبدأ يشتهر في أوساط المثقفين الفرنسيين، وفي عام ١٧٤٨م، بعد وفاة **بنواديماييه** بعشر سنوات سنحت الفرصة لطبع الكتاب خارج فرنسا، لأن الرقابة في فرنسا كانت تلقي بظلالها، وتحول دون حرية النشر، فكانت طباعته في هولندا، ومع ذلك لم يعز الكتاب في النشر إلى مؤلفه، وإنما عزي إلى مؤلف مجهول المحامي الهولندي **جون أنطوان**.

هذا؛ مع أنه لم يكن لناشره **لاماسغييه** مناص عن القيام بتعديل بعض عباراته، فحذف كلمة الصدفة، وجعل عمر الأرض آلاف السنين بدلًا من ملياراتها، كما أنه أشار إلى الخلق لأجل التلطيف وبعد مضي عشرين سنة من طباعة الكتاب بدأ ينتشر بقوة، فتقبله قوم ورفضه آخرون، وكان من رافضيه **فولتير** الذي أغضبه الكتاب غضبًا شديدًا.

وبعد ذلك سار في هذا الاتجاه الشاب **دينس ديدغو (Denis Dideroit)** مؤلف **رسالة الأعمى** وقد سبق للضابط**جوزيف ديمغي** المسئول عن مراقبة الكتب في باريس أن حذره من ذلك، وقد بلغ التوتر آنذاك في فرنسا منتهاه، إذ كانت بوادر الثورة تلوح في الأفق، فلذلك كان كل شيء تحت المراقبة حتى الحديث المعتاد بين الناس، وكانت نظرة ذلك الضابط إلى ذلك الفتى

في منتهى الارتياب، وكان يتصور أنه من أخطر الناس في فرنسا، وقد أحرق كتابه هذا، وكان هذا من أسباب انتشار شعبيته.

وقد ضمن ديدغو ما كتبه تنقيصًا لقدر الكنيسة بأسلوب عبقري، يتمكن بالتوائه أن ينفلت من المسئولية، وفيه تساؤل عن نشأة الإنسان، وعن طبيعة الأرض، كما احتوى على إشارات إلى أنّ المخلوقات جاءت من أشياء ليس لها شكل محدد، وأنها أصولها انقرضت تدريجيًا، فالكائنات تتعاقب في أنواع متتالية مستمرة على مدى ملايين السنين، وقد عرج من كلامه هذا إلى الحديث عن الألوهية، وقرر الاستغناء عنها بأحوال الطبيعة التي تطور المخلوقات من طور إلى آخر.

وهكذا أخذ الأمر ينفلت ويتسع الخرق على راقعه، فقد توالت الأصوات التي تعيب الدين، وتشكك في ثبوته وصحته، وتفسر الحياة والطبيعة تفسيرًا ماديًا لا يتفق مع ثوابت الإيمان، ورغم القسوة ـ التي قوبل بها هؤلاء الفلاسفة المتحررون من أمثال ديدغو الذي نكل به في السجن برهة من الزمن ـ ازدادوا نشاطًا وأخذوا يتكاثرون شيئًا فشيئًا ويمتد نفوذهم.

وقامت على أثر ذلك الثورة الفرنسية، وهزت كنائس الكاثوليك في أرجاء فرنسا هزًا، وسيق كثير من القساوسة إلى السجن، ونفي بعضهم وقتل آخرون، وأتت الثورة على سجن الباستيل الذي كانوا يعدونه شبحًا مخيفًا أمام الأحرار، الذين يرومون التحرر من السلطة الدينية أو السياسية.

وتمخضت هذه الأحداث الفكرية والسياسية عن ظهور إرازموس داروين الذي كان طبيبًا، واتخذ من خبرته الطبية مركبًا له للوصول إلى أغراضه الفكرية في البحث عن أصل الحياة ونشأتها، وألف كتابه زونوميا الذي أودعه أفكاره، واستغل الثورة الفرنسية لنشر هذا الكتاب المثير للجدل، وكان بفكره

الجدلي يضع الأسس لنظرية حفيده تشارلز داروين الذي اشتهر بنظرية النشوء والارتقاء، ودوى صوته في أرجاء الأرض، وقد جاء بعد إرازموس ابنه روبرت وكان على خطى أبيه في الإلحاد، ولكنه لم يكن له حماسه، وكانت له نظرة خاصة فيما يتعلق بالإلحاد، حيث كان يراه حكرًا على النخبة، بينما الجمهور والنساء يجب أن يكونوا متدينين لتفادي الفوضى والانفلات، ولذلك دفع بابنه تشارلز داروين إلى طلب العلم في مدرسة للقساوسة، كما سبق ذكر ذلك.

غير أنّ ابنه الطموح تمرد على هذه التعليمات، وشق نهجه غير عابئ بشيء، ولا لاو إلا على وجهته، فكان فتنة للناس بما طرحه من أفكار في أصل الحياة والطبيعة بلبلت الناس، وكانت لها ردة فعل مختلفة بين معجب بها ورافض لها، وهي مهما كانت مفلسة من الحجة عارية من الدليل، فإنها لقيت هوى في أفئدة الناس، الذين مقتوا الدين وسئموا تعاليمه، وسعوا إلى التحرر من سلطة الكهنوت، فلذلك كانت تيارًا عارمًا في الغرب، حتى أصبحت مخالفتها أو انتقادها من دواعي المقت والازدراء، بل أحيطت بخطوط حمر حتى لا تمس بشيء.

ومن حيث إن الغرب أصبح سيد الموقف الذي لا ينازع، وهو الذي يفرض على العالم إرادته وينفذ فيه سياسته، والعالم كله يطأطئ له رأسه، ويحني له ظهره، كانت نظرية داروين مما صدره إلى العالم فاهتز بسبب ذلك فكر الناس، وآثروا تعطيل العقول وإطفاء جذوتها، حتى لا يوصموا بالتخلف إن هم رفضوا هذه الفكرة، أو انتقدوها.

المبحث الثاني

تأصيل الفكر الداروينى

ألقى داروين نظريته التي تلقاها ممن سبقوه إلى وضع أسسها، بإصداره كتابه أصل الأنواع الذي أصدره في عام ١٨٥٩م، وحاول فيه أن يوجد تصورًا شاملًا مفسرًا نشوء الحياة على الأرض وانتشار الأحياء وتكاثرها وتنوعها، حتى وصلت إلى ما انتهت إليه اليوم من تنوع أجناسها، وكانت محاولته هذه آتته حظًا في انتشار نظريته وقبولها عند فئة من الناس فور نشرها، وذلك يعود إلى أسباب عدة، منها:

بساطة نظريته مع قدرته على عرضها بأسلوب يشد الانتباه، وقد جاءت في وقت سئم فيه الناس ـ في المحيط الغربي الناهض ـ تعاليم الدين، وأصبحوا يقيسون الإنسان في عقله وتطوره بقدر انسلاخه منه!! وقد وقر في نفوسهم أنّ العلم والدين ضدان لا يلتقيان..!.

وصادفت نظريته هذه هوى في أفئدة الذين اشتد عداؤهم للدين، وتصوروا أن خلاصهم في الإلحاد الذي يحررهم من تبعات الدين، ويخلصهم من أفكاره التي عدوها تخلفية، فآثروا كل ما يعزز جانب الإلحاد، ولو لم يكن قائمًا على دليل من العقل، ونصيب من الفهم.

وقد قامت نظريته على أسس ثلاثة:

أولها: أن الكائنات لها أصل مشترك، فكلها تنحدر من كائنات حية بسيطة بدأت بها الحياة على وجه الأرض، ولم يكلف نفسه عناء البحث عن كيفية ظهور الحياة أول مرة.

ثانيها: أن تغير الظروف الطبيعية والبيئية المحيطة بالكائنات الحية يؤدي إلى ظهور صفات جديدة تفرضها عليها تلك التغيرات.

ثالثها: ـ وهو الأساس لفكره هو ـ الاصطفاء الطبيعي الذي يختار من الكائنات ما تؤدي تغيراته إلى تحسين في نوعه، وإلى قدرة أكبر على البقاء في الظروف المحيطة الجديدة، بحيث تبقى الكائنات التي حظيت على اكتساب صفات تساعدها على العيش في البيئة المتغيرة، وعلى مقاومة الظروف المحيطة، وتتكاثر، وتنقل صفاتها المتميزة الجديدة إلى ذريتها، وذلك إبان انقراض الكائنات الأضعف، أو ذوات الصفات الأدنى، وقد افترض داروين أن الصفات المكتسبة المتميزة يمكن أن تنتقل من الكائن الحي إلى ذريته.

وهذا يعني أنّ التدافع بين الكائنات من أجل البقاء أمر حتمي ينتهي بانتصار الأقوى على الأضعف وأن الأقوى دائمًا هو الأصلح، فهو أولى بالبقاء، وعليه فإنه يستمر بقاؤه، وتتنامى قوته، بينما الأضعف يظل في انحسار حتى يتلاشى نهائيًا، ومعنى هذا أن التطور في الكائنات إنما هو إلى الأحسن والأصلح والأقوى.

ومهما يكن فإنّ هذه النظرية لا تعدو حدود النظريات في كونها بحاجة إلى التمحيص والنظر فيما يدعمها أو ينقضها، وما من شيء أقنع للعقول وأولى بالقبول من الحق، الذي تعززه البراهين، وتدعمه الحقائق، فليست الحقائق كالأوهام ولا الشبه كالبراهين، وقد استغلت نظرية داروين عند فئات

متعددة لترسيخ وجودها والأخذ بأسباب القضاء على منافسها، فقد استغلها الاستعماريون الغربيون لترسيخ وجودهم في العالم؛ بدعوى أنهم هم الأولى بأن يبسطوا سلطانهم فيه، ويستولوا على خيراته، لأنهم العنصر الأفضل والأقوى، وكذلك الماركسية فإنها تبنت فكرة التدافع بين العمال وأصحاب رؤس المال، ورأوا أنهم لهم الحق المطلق في القضاء على من بيدهم رأس المال، وتبنتها الحركات العنصرية، ومنها الصهيونية التي مهدت لنفوذ اليهود باعتبارهم الشعب الأفضل والأولى بأن يستأثر بالأرض وخيراتها، ولا يدع لغيره مجالًا في ذلك، وكل حملها على ما لا يعارض منهجه ويقاوم فكره.

وقد ثبت بما لا يدع مجالًا للشك أن ما طرحه داروين مفلس من الدليل وعار من الحجة، وإنما تُلُقِّيَ عَصَبيةً لأنه صادف تيارًا يجنح إلى الإلحاد، فسار في اتجاهه وحمله إلى الناس.

وكم من أنصار هذه النظرية من اعترف بهذه الحقيقة كما في قول سير أرثر كيث (Sir Arthur Keith): (إن نظرية النشوء لا زالت حتى الآن بدون براهين، وستظل كذلك، والسبب الوحيد في أننا نؤمن بها، هو أنّ البديل الممكن لها هو الإيمان بالخلق المباشر، وهذا الأمر غير وارد على الإطلاق)، ومثله قول البروفيسور واطسون (Watson) من جامعة لندن: (إن علماء الحيوان يؤمنون بالنشوء لا كنتيجة للملاحظة أو الاختبار، أو الاستدلال المنطقي، ولكن لأن فكرة الخلق المباشر فكرة بعيدة عن التصور)، وقال البروفيسور بيتسون (Bateson): (إننا بالرغم من إيماننا بالنشوء، لكننا لا نعلم كيف حدث)[1].

وهل هذا يعني إلا أنهم يفرون من الواضح إلى المشكل، ومن البينة إلى الشبهة، ومن الحقيقة إلى الوهم؟ فهم في عتوهم في الكفر وإصرارهم على

---

(١) ينظر؛ منيرة الغاياتي: مذهب النشوء والارتقاء في مواجهة الدين، ص٦ ـ ٧.

الإلحاد وحميتهم للباطل يرون أن اعتقاد خلـق الله تعالى لهذا الوجود خرافة يجب أن تكتسـح من الأذهان بأي ثمن كان، ولو كان ذلـك معززًا ببراهين العقل وأدلة الآثار وشـواهد الكائنات، وأن يصدق هـذا الهراء الذي لا دليل عليه، بل تنقضه جميع الأدلة العقلية والكونية وتـرد عليه، وما ذلك إلا لأن العصبية للإلحاد تدفعهم إلى هذا الرفض العنيد لقبول الحق.

ولكن ما سطرته أقلامهم هو شاهد ودليل على أنهم يقولون ما لا يعلمون، ويهيمون في حلقة مفرغة لا يجدون سبيلًا إلى الخروج منها، وهذا ما يتعزز بقول الجيولوجي سير ج. و. داوسون (J. W. Dawson): (هذا الاعتقاد هو لون مـن الإيمان الأعمـى الممتزج بالسـذاجة والخرافـة)، ويبين البروفيسـور د. هـ. سـكوت (D. H. Scott) هذه العصبية والإصرار عليها ـ ولو فضحتهم الحقائق ـ إذ يقول: (إنّ نظرية النشوء جاءت لتبقى، ولا يمكن أن نتخلى عنها حتى ولـو أصبحت عملًا مـن أعمال الاعتقـاد)، ويؤكد ذلك البروفيسـور ت. س. مور (T. O. Moore) من جامعة سينسـناتي بقولـه: (كلما تعمقنا في دراسـة البليونتولجيا اكتشـفنا أنّ نظرية النشـوء ترتكز على الاعتقاد نفس الاعتقاد التي تتطلبه الأسرار العظمى للدين)[1].

وسـيتبين لك أخي القارئ الكريم كيف صدف هؤلاء عن الحقيقة التي تعززها الأدلة العلمية على اختلافها، وآثروا الإخلاد إلى الوهم مكابرة وعنادًا، مع أن العلم كلما تقدم باكتشـاف طوايا الوجود وبروز خفايـا الطبيعة قوّى داعي الإيمان بخلق الله تعالى لكل ما في هذا الوجود، وتكشفت هذه المؤامرة عن فضائح لو شعر الذين يتمسـكون بها لواروا وجوههم عن الناس استحياء وخجلًا، ولأدركوا أنهم أحاط بهم الخزي، وهووا في دركات الهوان، ولكنهم

---

(١) ينظر: المرجع السابق، ص٧.

قوم فقدوا الإحساس بإيثارهم الإلحاد على الإيمان، فلم يبالوا بالتضحية بسمعتهم في سبيل ترسيخ الإلحاد، ومحاولة طمس وجه الحقيقة المشرقة، ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [التوبة: ٣٢].

وكان داروين يعلق أمله الكبير على تعزيز نظريته بالأحافير التي تكتشف في المستقبل، ولكن هذا الأمل خاب، إذ دلّت الأحافير جميعًا على خلاف ما قال، هذا ما سوف تجده إن شاء الله في تضاعيف الحجج الدامغة الناقضة لهذه النظرية.

هذا؛ وقد بدا داروين متناقضًا مع نفسه، فهو مع إصراره ـ على الاعتماد على الفلسفة المادية، وعدم الاكتراث بجانب الدين ـ يدعوه هاجس الفطرة أحيانًا إلى الاعتراف بالخالق، على رغم ادعائه أن الكائنات تطورت، وذلك في قوله: (يبدو أن كل الكائنات قد انحدرت من مخلوق بدائي جاء إلى الحياة لأول مرة بواسطة الخالق) فمهما يكن من مجانبته الحقيقة في دعواه هذه، أن الكائنات جميعًا انبثقت من مخلوق بدائي، إلا أنه يعترف أنه مخلوق، وأن من ورائه خالقًا، ولكن أتباعه اليوم لا يستسيغون إثبات الخالق، فهم يخلدون إلى القول بأنّ الصدفة هي منشأ الكون.

المبحث الثالث

في صدى الفكر الداروينـي

لقد كان لهذا الفكر رغم عيوبه وثغراته صدى واسع، فقد تجاوب معه كثير من الناس هروبًا من الإيمان بالله ـ كما ذكرنا ـ واستجاب له جمهور من الناس، فسلموا له تسليمًا ضاربين بعرض الحائط جميع القواعد العلمية في تمحيص النظريات ونقدها، بل بلغ بهم الأمر أنّ كل من عارض هذه النظرية أصبح معرضًا للسخرية والاستخفاف، مع أنّ داروين نفسه لم يقطع بصحتها، وإنما كان طامعًا في تصحيحها مما يكتشف من الأحافير، وهو نفسه القائل: «إذا كانت نظريتي صحيحة، فكل تأكيد أن أنواعًا متوسطة لا تحصى التي تربط بشكل وثيق جميع الأنواع من نفس المجموعة مع بعض كانت موجودة، ونتيجة لذلك فإنّ الدليل على وجودها السابق يمكن أن توجد بين الرفات الأحفوري»[1]، فأنت تراه يعلق صحة نظريته هذه على دليلها الأحفوري الذي تخيله ولم يأت وفق ما كان يهوى، بل جاء بعكسه.

وقد صرح المتحررون في فكرهم بأنّ هذه النظرية مليئة بالعيوب كما في قول **كريستوفر بوكر** في صحيفة لندن تايمز: «إنها نظرية سهلة الفهم وتجذب

---

(١) هارون يحيى: **الديانة الداروينية**، ص٢٥، ترجمة واختصار: مبارك عامر بقنة، مركز الفكر المعاصر، دار الوعي للنشر والتوزيع ـ الرياض، ط١: ١٤٣٧هـ/٢٠١٦م، نقلا عن:
The Origin of Species: A Facsimile of the first Edition, p179.

دارسها بسهولة، غير أنّ عيبها هو أنها مليئة بثغرات كبيرة وكثيرة، وهذا أمر لم يكن خافيًا على داروين نفسه»[1].

ولكن رغم كل ذلك فإنه وجد في العالم الذي يرفع شعار حرية الفكر من ممارسة الإرهاب ضد من يعترض هذه النظرية ما يفوق كل تصور، فكم حورب من راعى أمانة العلم وأمانة الكلمة في نقلـه، حتى مُنِعُوا من أداء رسالتهم العلمية، لا لشـيء إلا وقوفهم ضد هذه النظرية كالذي حدث مع البروفيسـور دين كينيون عالـم بيولوجيا التطـور، مع أنّـه كان أولًا من المدافعين عن هذه النظرية والباحثين فيها، وكانت له آنذاك مكانة كبيرة في الأوساط العلمية والأكاديمية، إلا أن ذلك كله تلاشى بعد أن أعلن عن رأيه الذي كان نتيجة بحث وتمحيص وتجارب ودراسات، تمخضت عن عيوب هذه النظرية، فأعلن في ١٩٨٥م أنه يؤيد القول بالتصميم الذكي الذي يؤدي إلى الاعتـراف بخالق الكـون، وكان ذلك في المؤتمـر العلمي في ولاية دالاس الأمريكية وأخذ يحاضر في المؤتمرات العلمية حول هذا الأمر، وقد واجه مأزقًا كبيرًا عندما شـرح لطلابه في الجامعة أن المعلومات الموجودة في الحمض النووي تعطي دليـلًا قاطعًا على أنه نتيجـة التصميم الذكي، فاتهم بأنه نبذ العلم وحاول زرع مفاهيم غيـر علمية في أذهان طلابه ذات علاقة بالدين، وعزل عن التدريس، وعين أمين مختبر، مع أنه عالم مشهور على المستوى العالمي.

بل بلغ الأمـر ذروته عندما أصـدر جون جونز حكمًـا قضائيًا ـ لا يكاد يصدق أن يكون في دولة تعلن حريـة الفكر وحرية العلـم، وهي الولايات المتحدة الأمريكية ـ يقضى بموجبه أن يمنع المدرسون في إحدى المدارس

---

(١) غالغي؛ روبرت جميس: خرافة التطـور، ص١٣، ترجمة: فداء ياسـر الجندي، مركز الفكر المعاصر، دار الوعي للنشر والتوزيع ـ الرياض، ط١: ١٤٣٦هـ/٢٠١٥م.

بمدينة دوفر بولاية بنسلفانيا عن إخبار الطلاب بأن في مكتبة المدرسة كتابًا عن التصميم الذكي للكون والكائنات بذريعة أنّ التصميم الذكي ليس فكرة علمية، بل هو عقيدة دينية بثوب العلم، وهذا غلو في محاربة العلم فضلًا عن محاربة الدين، إذ لم يقف الأمر عند المنع من تدريس ما يسمونه بالتصميم الذكي، وإنما تعداه إلى أن يمنع منعًا باتًا أن يخبر الطلاب بوجود كتاب يدل عليه، فلم تتسع الحرية العلمية والفكرية لهذا، بينما تمنح الحرية للإباحية المطلقة في المؤسسات العلمية..! في حين أن المدارس توزع فيها على المراهقات حبوب منع الحمل، تشجيعًا لهن على ممارسة الرذيلة.

وقد حاولوا أن يمارسوا الضغط على من أتاهم من بعيد محاضرًا حتى يعدل عن موقفه من قضية النشوء، وهو البروفيسور ج. شين العالم الصيني الشهير على مستوى العالم ـ وهو متخصص في علم الأحافير والكيمياء الحيوية، وله يد طولى في الاكتشافات العلمية في العصر الحديث، وقد أضافت أبحاثه رصيدًا ضخمًا إلى علم الجيولوجيا وتأريخ الأحياء، وحلت كثيرًا من الألغاز التي لم تحل من قبل، لهذا احتل غلاف أحد أعداد مجلة تايم ـ ولما أحرزه من صيت ذائع في المجالات العلمية، استدعته إحدى المؤسسات العلمية الأمريكية ليكون محاضرًا زائرًا في قسم الجيولوجيا بجامعة واشنطن، ليتكلم عن اكتشافه الفريد في هذا، وقد فوجئ الجمهور الحاشد الذي حضر محاضرته ليستفيد منها، بأنه أخذ يشرح ما توصل إليه في بحوثه واكتشافاته من حقائق تهدم نظرية داروين، فقاطعه بروفيسور أمريكي ـ كان من بين الحضور ـ بخطاب لا يخلو من التحذير، قال له فيه: أليس عجيبًا أن يقوم عالم صيني بنقد داروين ونظريته؟! وهو يلمح إلى أن الصين دولة مغلقة لا يتمتع فيها بحرية فكرية، فابتسم الدكتور شين، ورد عليه بقوله: نحن في الصين لا نستطيع أن ننتقد الحكومة، ولكن نستطيع أن ننتقد داروين

ونظريته، وأنتم في أمريكيا تستطيعون أن تنتقدوا الحكومة، ولكن لا تستطيعون أن تنتقدوا داروين ونظريته[1].

وهكذا؛ غيبت الحقيقة عن العقول بقوة النفوذ وهدير الإعلام وتزوير الحقائق، وأبدلت بالوهم الذي فرض على العقول فرضًا، ولكن مع ذلك ظلت الحقيقة مرفوعة الرأس شامخة الأنف، تتجلى من كل بحث علمي نزيه، وينادي بها المكتشفون للحقائق العلمية، الحريصون على عدم طمس الحقيقة، بل على تصويرها كما هي رغم التحديات، ورغم ما يمارس من إرهاب فكري عليهم، وهم ـ والحمد لله ـ يتكاثرون يومًا بعد يوم، وتعلو أصواتهم رغم الضجيج من حولهم لأجل إخفات صوتهم الحر النزيه، ورغم المحاولات الجادة المتواصلة من أجل تشويه صورة الحقيقة وتكريهها إلى النفوس.

ولست هنا في مقام الإحصاء لهذه الأصوات الحرة؛ التي ناصرت الحق وعززت الحقيقة وزعزعت الباطل وبددت الأوهام، وإنما أذكر من بينها صوت العالم الإنجليزي **روبرت جميس غالغي** في كتاباته القيمة، ومن بينها كتابه **خرافة التطور** الذي كان فيه جريئًا إلى أقصى الحدود على نقد داروين ونظريته، وتحطيمها بالأدلة العلمية، وكذلك **مايكل بيهي** العالم الأمريكي في كتاباته القيمة، ومن أهمها كتابه **صندوق داروين الأسود** (تحدي الكيمياء الحيوية لنظرية التطور)، وكتابه **حافة التطور**، و**وليم ديمبكسي** العالم الأمريكي الذي صدع بكلمة الصدق في تبديد أوهام داروين وحزبه، ومن أعماله كتاب **التصميم الذكي**، وكتابه **دليل التصميم**، وكتابه ـ الذي اشترك فيه مع **جوناثان ويلز** ـ **تصميم الحياة**، و**ستيفين ماير** العالم الأمريكي الذي درس في بريطانيا

---

(١) ينظر؛ الجندي؛ فداء ياسر: **العلم يؤكد شكوك داروين، الكون مادة وطاقة... وشيء آخر**، ص ٧٥ ـ ٧٧، مركز الفكر المعاصر، دار الوعي للنشر والتوزيع، ط ١: ١٤٣٧هـ/٢٠١٦م.

في جامعة كامبريدج وله أنشطة علمية جيدة، ومن آثاره **شك داروين**، **والتوقيع داخل الخلية**، وكذلك العالم الفلكي **غييرمو غونزاليز (Guillermo Gonzalez)** وزميله **جاي ريتشاردز** في كتابهما **الكوكب المميز** (كيف صمم موقعنا في الكون للاكتشاف)، والدكتور **مايكل دنتون** أستاذ علوم الوراثة والكيفية الحيوية في كتابه **قدر الطبيعة** (قوانين الحياة تفصح عن وجود الغاية في الكون)، وكتابه الآخر **التطور: (لا تزال النظرية في أزمة)**، **وكيسي لسكين** في كتابه **التصميم الذكي ومراجعة الأقران**، وكتابه **الانتواع الخادع**: (خرافة رصد تغيرات على مستوى التطور الأكبر)، وكتابه ـ الذي اشترك فيه مع **آن جوجر ودوجلاس أكس ـ العلم وأصل الإنسان**، و د. **جون لينكس** في كتابه **فصول عن التطور**، **وجوناثان ويلز** في كتابه **أيقونات التطور**، والدكتور **كارل ويرنر أو فيرنر** في كتابه **التطور: (التجربة الكبرى ـ البحث عن إجابة)**، **وجيري بيرجمان**، **وجورج هاو** في كتابهما **الأعضاء الضامرة كاملة الوظيفة**، وللدكتور **جيري بيرجمان** كتاب بعنوان: **الجانب المظلم لشارلز داروين** (تحليل نقدي لأحد أيقونات العلم) يستعرض فيه الجوانب غير المشهورة، والمعلومة من حياة داروين؛ كمرضه الذي أثر عليه عصبيًا ومزاجيًا.

وكذلك **دين كانيون وبرسيفال ديفيس** في كتابهما **بين الباندا والناس** (السؤال المركزي للأصول البيولوجية)، وهو أول كتاب مدرسي يطرح فكرة التصميم الذكي علميا بصورته المعروفة اليوم وخصوصًا بعد تراجع أحد كاتبيه وهو **دين كانيون** عن تبني فرضية الحتمية الكيميائية في تكون البروتينات والأصول البيولوجية للحياة، **وويرنر جيت** في كتابه **في البدء كانت المعلومات**، **وفيليب جونسون** في كتابه **محاكمة داروين**، وهو مناظرة فعلية جرت عن التطور والخلق، ويعد **فيليب جونسون** قائدًا لحركة التصميم الذكي في أمريكا رغم أنه بروفيسور في القانون، وله أكثر من مناظرة وكتاب

عن التطور، وغيرهم كثير ولا يزالون بحمد الله يتكاثرون بما يتجدد في كل لحظة من آيات الله الشاهدة عليه فيما يكتشف من آياته العظمى في الأنفس وفي الآفاق، فكلما تقدم العلم خطوة قويت حجة الحق ودحضت شبهة الباطل، ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴾ [الأنبياء: ١٨].

ونجد من المفكرين الإمريكيين من يصرح بأنّ السواد الأعظم في الولايات المتحدة الإمريكية نفسها يرفضون هذه النظرية من أساسها، ويعارضون تدريسها لأطفالهم، فقد ذكر الفيلسوف الأمريكي الشهير **ألڤين كارل بلانتينغا** أنّ ٨٥٪ من الشعب الإمريكي يؤمنون بالتدين، ويرفضون نظرية داروين، ويعدونها مصيبة على العلم، كما سيأتي إن شاء الله نص كلامه موثقًا في مقدمة الباب الثالث من أبواب هذا الكتاب.

أما المفكرون المسلمون الذين عنوا بنقض هذا الفكر فهم بحمد الله كثير، بل أستطيع أن أقول إن كل مسلم راسخ الإيمان ثابت العقيدة لا يتقبل ما يناقض إيمانه ويهدم عقيدته من الأوهام، التي هي ليست إلا نتيجة مكابرة الحق والإيمان، والتعامي عن براهين العقل وحجج العلم، وقد انبرى كثير من هؤلاء لنقض هذا الفكر وتعرية شبهه وإقامة الأدلة على عيوبه وثغراته، فلهم الشكر على ما قدموا، وإنما أردت أن أعرج على ما قاله غير المسلمين، لأن ذلك أبلغ في إقناع الذين أسرتهم هذه النظرية وطوحت بهم في مهاوي من الضلال.

وإنما يلاحظ على ما كتبه المتخصصون في الكيمياء الحيوية وفي الفلك وعلم طبقات الأرض وغيرها من العلوم الكونية أنهم عدلوا عن التعبير بالخلق إلى التعبير بالتصميم الذكي، مع أن حججهم جميعًا تدل على أن هذا الكون خلقه الله تعالى من عدم، وبيده وحده تصريفه، فكل ما فيه شاهد على

وجوده تعالى، ولكن بسبب العداوة المستحكمة في نفوس جماهير من الناس للدين؛ صار كل تعبير يؤيد جانب التدين، ويعزز الإيمـــان بالله تعالى، منفرًا للناس من الإنصات إليه وتقبله، فهم ينفرون عن كل ما يشير إلى الإيمان بالله ـ ولو من بعيد ـ، ويشـــمئزون من كل ما يمت بصلة إلى الدين، فلذلك عدل هؤلاء عن التعبير بالخلق إلى التعبيـــر بالتصميم الذكي، مع أنّ هذا التصميم هو بنفســـه دليل على من صممه، وليس هو غير خالق السماوات والأرض، الذي يسبح بحمده الوجود، ويشهد بجلاله وعظمته كل مشهود.

ونحن وإن كنا نعجب من تصامم الذين أوتـــوا حظًا من الفكر، وبصيصًا من بصيرة، وتعاميهم عن آيات الله تعالى، ولو عاشوا في أجواء إلحادية عفنة لا يشم فيها عرف للإيمان، ولا يسمع فيها صوت يدعو إلى الحق، لأن آيات الله تعالى هي أقوى من أن يزعزعها الإلحاد، أو تطمسها مؤامرات الملحدين، غير أننا يدهشنا العجب أن يكون هذا التصامم والتعامي في طائفة من الناس نشـــأوا في المحيط الإســـلامي، وســـمعوا كلمة التوحيد تتردد على ألســـنة المؤذنين في منارات مساجده، وتشنفت مســـامعهم بسماع صوت القرآن من المذياع أو في الحفلات، كيف يصد هؤلاء عن الحـــق اليقين، ويركنون إلى الباطل الزاهق، ويتعصبون للوهم ضد الحقيقة، فيستنكرون بشدة أن يقوم أحد بنقد هذه النظرية، ويتوارثون التســـليم لهـــا بغير روية ولا فكـــر، ولو أتاهم منتقدها بكل دليل علمي، وبصرهم بكل حقيقة تنادي بلسان حالها بزيغ هذا الفكر، وضلال هذا الاتجاه، بـــل يبلغ بهم التعصب الأعمـــى أن يصفوا كل رافض لها بالغباء والتخلف العقلي والانحدار الفكري؟!.

فكم وجد من بين هؤلاء من يتميز غيظًـــا ويتفجر غضبًا عندما تنتقد هذه النظرية، ناهيك بردة الفعل العنيفـــة غير المتوقعة التي كانت على أثر نشـــر الأستاذ المهندس فداء ياسر الجندي مقالًا له في موقع الجزيرة، بعنوان نظرية

التطور ثبت بطلانها فلماذا يتمسكون بها؟ ينقد فيه هذه النظرية ويبين تهافتها، فانهالت الردود عليه بأقلام عربية من قوم يحملون أسماء إسلامية، مع حملهم على الجزيرة حملة شعواء، وقد ذكر بعض عباراتهم العنيفة في كتابه **العلم يؤكد شكوك داروين**، مع حذفه الشتائم القاذعة، التي كانت من نصيبه ونصيب الجزيرة بسبب ذلك، وإليك بعض هذه العبارات:

(الجزيرة عادت لتنعق عن بطلان نظرية داروين) ـ (الجزيرة تمارس دورها الفاعل بنشر هكذا خرافات) ـ (لم يبطل حقيقة داروين أحد، العلم أثبتها، لا يمكن نقض أدلة علمية بفلسفة كلامية، مثل ما فعل كاتب الموضوع) ـ (للأسف لم أر في المقال ما يفيد رؤية ساذجة للتطور، وربط بينه وبين الإلحاد، إنها أفضل الرؤى الممكنة للكون حاليًا، قد تبطل لاحقا أو لا) ـ (نظرية داروين مثبتة بـ ٢٠٠ ألف بحث علمي، عار على قناة إخبارية تحترم نفسها بث الخرافات والتشجيع على الخرافة، الأولى قراءة الأبحاث العلمية ودحضها الواحد تلو الآخر قبل التسرع في الحكم) ـ (إنكار الكاتب لتطور الحيوان هو إنكار للعلم) ـ (بخلاف عنوان مقالتك **نظرية داروين ثبت بطلانها** فأنت لم تثبت بطلانها إطلاقًا، أنت فقط عرضت أفكارك وآراءك الشخصية الفلسفية) ـ (ستبقى نظرية التطور نظرية علمية أساسية، وهي الأقرب للمنطق من جميع النظريات الخرافية الأخرى)[1].

هكذا وصل الأمر بهؤلاء الناس أنهم تصاموا عن القرآن، وما بثه من حقائق في خلق الله للإنسان، وتكريمه إياه وتفضيله على كثير ممن خلق تفضيلًا، واستخلافه في الأرض من أول فرد من جنسه، وهو آدم أبو البشر الذي اصطفاه الله تعالى، وكرمه تكريمًا، إذ أمر ملائكته أن يسجدوا له، وآذنهم بذلك قبل أن يخلقه، وعلمه الأسماء التي لم يعلموها.

---

(١) ينظر: المرجع السابق، ص٢٩ ـ ٣٠.

نعم؛ عد هؤلاء كل هذه الحقائق أوهاما وخرافات، وآثروا تصديق نظرية ساقطة متهافتة تدحضها نصوص الوحي، وينقضها العلم بكل فروعه، كما سيأتي بيانه إن شاء الله، وقد اختاروا لأنفسهم أن يكونوا متسلسلين من قردة وحيوانات أخرى دونها، وهي التي تسلسلت منها القردة، بدلًا من أن يكونوا منحدرين من نسب رفيع ينتهي إلى آدم صفي الله تعالى، الذي اجتباه ورفع من شأنه، فيالخيبة العقول وضلال المسعى!!.

وأعجب من ذلك أن ينفر هؤلاء من مجرد ذكر الله تعالى كما ذكر الكاتب المشهور أنه كتب في إحدى مقالاته: «أقول وبالله التوفيق» ثم شرع في شرح الموضوع وكان شرحًا علميًا بحتًا، ففاجأه أحد المعلقين بقوله: «قرأت مقدمة مقالك، وهممت بقراءة الشرح، فلما وجدتك تذكر الله علمت أن مقالك غير علمي، فلم أكمل القراءة»[1].

وليت شعري؛ على مَا يدل هذا الأمر؟! أليس في ذلك دليل على أن الناس بلغ بهم التعمق في الضلال ومعاداة الحق إلى أن أصبحوا تضيق صدورهم من ذكر الله تعالى، ويرونه يتنافى مع العقل والعلم، ولا ينسجم مع التقدم الحضاري؟! وهو ـ بلا ريب ـ دليل الانسلاخ من جميع القيم الدينية واستبدال الإلحاد بها، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [الزمر: ٤٥]، فيا لضلال هذه العقول ما أعماها عن الحق وأسرعها إلى الباطل، والله المستعان!.

هذا؛ وإنّ أعجب ما في الأمر أن يكون شيوع هذه النظرية له أثر على نفوس بعض علماء الأمة، فلم يجرؤا على مواجهتها، وإنما حاولوا التلفيق

---

(١) المرجع السابق، ص١٥٢، تعليق رقم (٢).

بينها وبين دلالة القرآن، وزعموا عدم التناقض بينهما، وما ذلك إلا بسبب عجزهم عن التصدي لتيارها الكاسح، فلذلك سلكوا هذا المسلك، كما كان ذلك من الإمام محمد عبده عندما تأول قصة آدم عليه السلام بأنه يراد به الجنس البشري، فهو كناية عن جميع البشر! وأن المراد بسجود الملائكة له تجاوب الملكات الطبيعية معه واستجابتها لضروراته!! كما بسطت القول في ذلك في **جواهر التفسير**، وفي الجزء العاشر من **برهان الحق**[1].

وقد ظل الإمام محمد عبده يراعي هذا الجانب في تفسيره في العديد من المواقف، كل ذلك لئلا يصطدم بأصحاب هذه النظرية، ويؤدي ذلك إلى أن يتزعزع الإيمان في نفوس المؤمنين، فكثيرًا ما كان يحمل نصوص القرآن على محامل بعيدة عن سياقها ودلالاتها، كقوله في تفسيره قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾ [النساء: ١]: «ليس المراد بالنفس الواحدة آدم بالنص، ولا بالظاهر، فمن المفسرين من يقول: إنّ كل نداء مثل هذا يراد به أهل مكة، أو قريش، فإذا صح هذا جاز أن يفهم منه بنو قريش أنّ النفس الواحدة هي قريش أو عدنان، وإذا كان الخطاب للعرب عامة جاز أن يفهموا منه أن المراد بالنفس الواحدة يعرب أو قحطان.

وإذا قلنا: إنّ الخطاب لجميع أهل الدعوة إلى الإسلام، أي لجميع الأمم، فلا شك أنّ كل أمة تفهم منه ما تعتقده، فالذين يعتقدون أنّ جميع البشر من سلالة آدم يفهمون أن المراد بالنفس الواحدة آدم، والذين يعتقدون أن لكل صنف من البشر أبًا يحملون النفس على ما يعتقدون»[2].

---

(١) ينظر؛ الخليلي: **جواهر التفسير أنوار من بيان التنزيل**، ٧٢/٣ ـ ٩٣، وزارة الأوقاف والشؤون الدينية ـ سلطنة عمان، ط ٢: ١٤٣٣هـ/٢٠١٢م، وأيضًا؛ **برهان الحق**، ١٢٤/١٠ ـ ١٣٢.

(٢) محمد رشيد: **المنار**، سورة النساء (الآية ١)، ٢٦٣/٤.

ثم قال: «والقرينة على أنه ليس المراد هنا بـ (النفس الواحدة) آدم قوله: ﴿وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ [النساء: ١] بالتنكير: وكان المناسب على هذا الوجه أن يقول: وبث منهما جميع الرجال والنساء. وكيف ينص على نفس معهودة والخطاب عام لجميع الشعوب.

وهذا العهد ليس معروفًا عند جميعهم، فمن الناس من لا يعرفون آدم ولا حواء ولم يسمعوا بهما. وهذا النسب المشهور عند ذرية نوح مثلًا هو مأخوذ عن العبرانيين، فإنهم هم الذين جعلوا للبشر تاريخًا متصلًا بآدم، وحددوا له زمنًا قريبًا. وأهل الصين ينسبون البشر إلى أب آخر، ويذهبون بتاريخه إلى زمن أبعد من الزمن الذي ذهب إليه العبرانيون.

والعلم والبحث في آثار البشر مما يطعن في تاريخ العبرانيين، ونحن المسلمين لا نكلف تصديق تاريخ اليهود، وإن عزوه إلى موسى عليه السلام، فإنّه لا ثقة عندنا بأنه من التوراة، وأنه بقي كما جاء به موسى.

قال: نحن لا نحتج على ما وراء مدركات الحس، والعقل إلا بالوحي الذي جاء به نبينا عليه السلام، وإننا نقف عند هذا الوحي لا نزيد، ولا ننقص كما قلنا مرات كثيرة، وقد أبهم الله تعالى ههنا أمر النفس التي خلق الناس منها، وجاء بها نكرة فندعها على إبهامها. فإذا ثبت ما يقوله الباحثون من الإفرنج من أنّ لكل صنف من أصناف البشر أبا كان ذلك غير وارد على كتابنا كما يرد على كتابهم التوراة لما فيها من النص الصريح في ذلك، وهو مما حمل باحثيهم على الطعن في كونها من عند الله تعالى ووحيه.

وما ورد في آيات أخرى من مخاطبة الناس بقوله: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ﴾ [الأعراف: ٢٦]، لا ينافي هذا، ولا يعد نصًا قاطعًا في كون جميع البشر من أبنائه، إذ يكفي في صحة الخطاب أن يكون من وجه إليهم في زمن التنزيل من أولاد

آدم، وقد تقدم في تفسير قصة آدم في أوائل سورة البقرة أنه كان في الأرض قبله نوع من هذا الجنس أفسدوا فيها، وسفكوا الدماء»[١].

وقد عزز تلميذه السيد رشيد رضا هذا الذي ذهب إليه في تفسيره للآية، ثم أشار إلى ما سبق من كلامهما في تفسير سورة البقرة، من كون قصة آدم إنما أريد بها التمثيل[٢].

ومثل ذلك صنيع الأستاذ محمد فريد وجدي، عندما قال: «نقول ولسنا نجزم بصحة مذهب داروين، ولكنا نهدئ روع الذين يخشون من تحقق هذا المذهب في يوم من الأيام على الإسلام، وما ورد في أمر آدم عليه السلام فنقول لهؤلاء ليهدأ روعكم فإنّ كل ما ورد في خلق آدم عليه السلام يمكن صرفه عن ظاهره على مقتضى أسلوب القرآن نفسه، فإن قام الدليل المحسوس في يوم من الأيام على صحة مذهب داروين فلا يتزعزع من العقائد إلا ما كان جامدًا منها، أما الذين هداهم الله بنور العلم وبث فيهم روح الإسلام بمعناه الحق فلا يخشى على عقائدهم من شيء.

هنا يمكن أن يقال: إذا ثبت مذهب داروين وتحقق الناس أنهم عريقون في الأصل الحيواني ألا يستتبع ذلك سقوط أقدارهم في أعينهم، ويجر ذلك إلى انهماكهم في الملاذ البدنية. والإفراطات الجثمانية ومضارعتهم للحيوانات في خستها وانحطاط همتها؟.

نقول: لا. فإن الحيوان أشرف من التراب، والإنسان يعلم أنه من هذا الأخير ومع هذا فهو يردده لنفسه ويجعله أكبر زاجر له عن الكبرياء والغطرسة.

---

(١) المرجع السابق، سورة النساء (الآية ١)، ٤/٢٦٣ ـ ٢٦٤.

(٢) ينظر: المرجع السابق، سورة النساء (الآية ١)، ٤/٢٦٤.

يقول معترض: نعم؛ إنه لا يأنف أن يكون أصلـــه من التراب، ويأنف أن يكون أصله من الحيوان، لأنه يعتقد أن التراب غلاف ظاهري لروح استمدها من الخالق مباشرة، بخلاف اعتقاده بأنه من أصل حيواني، إذ يشعره ذلك بأن جسده من سلسلة حيوانية وأن روحه مستمدة من روح بهيمية صرفة.

نقول: إنّ للواقفين مع العادات والظواهر أن يقولوا ما شاءوا ولكن الواقع أن روح الله ممدة لكل شيء حتى للجمادات، فإذا ثبت أن الإنسان مترق عن الحيوان وأن روحه هي روح حيوانية مرتقية فلا يقـــدح ذلك في كرامته عند أهل التحقيق، ولماذا لا يأنف الإنسان أن يكون روحه روح طفل مترقية؟ وهو يرى أنه كان طفلًا يفضله الحيـــوان بكثير من الصفـــات الروحية، ويأنف أن تكون روحه روحًا حيوانية مترقية؟! أليس العبرة بالنهاية؟.

هنا يمكن أن يقال: إذن فالحيوان مخلد كالإنســـان، لأن طبيعة روحيهما واحدة، وهو استنتاج خطأ لأنه ثبت أن الإنسان أصله حيوان، فتكون روحه قد ارتقت رقيًا يناسب درجته التي وصل إليها، فانفتقت أمامها الحجب، وزالت الستر، واستعدت للبقاء في عالم العلى والجمال. بخلاف روح الحيوان فهي مجرد قوى لم يرد واهبها أن تستأهل البقاء فلم يجعل لها من القدر ما تسري به في سرائر الأشياء، أو ترقى به عن عالم الطبيعة المنحطة.

الخلاصة: أن على علماء المسلمين ومرشديهم أن لا ينقطعوا عن مجموع الأمة. بل عليهم أن يشـــاركوا العصريين في أبحاثهم، وأن لا يجعلوا نصيبهم من المناقشـــة مجرد التكذيبات والاستشـــكالات الخالية من القيمة العلمية، فيتغلب عليهم خصومهم فيسقطون ويسقط الدين معهم معاذ الله»[1].

---

(١) وجدي؛ محمد فريد: دائرة معارف القرن العشرين، ٧٣٤/١ ـ ٧٣٥، دار المعرفة ـ بيروت، ط ٣: ١٩٧١م.

وكثير من العلماء المسلمين ـ الذين بهرهم انتشار هذه النظرية وقبول الناس لها، وما نالت من زخم إعلامي هائل، ودعاية بأساليب مؤثرة خلبت العقول وزعزعت النفوس ـ وجدوا أنفسهم مضطرين إلى إلانة القول في نصوص القرآن الدالة على خلق الإنسان خلقًا مميزًا في فطرته وتكوينه العقلي والنفسي والجسدي ليتلاءم ذلك مع وظيفته في هذه الحياة، وهي الخلافة في الأرض، والسيادة في الكون، فحرصوا على تأويل هذه النصوص؛ تأويلًا لا يفقدها قداستها، ولكنه لا يخلو من تطويع لتنسجم مع هذه النظرية..!.

وكثيرا ما عززوا ذلك بآراء لعلماء غابرين كانوا قبل داروين بقرون، جمعوا بين العلوم الشرعية والفلسفية، وقد وجد في كلامهم ما يوطئ لهذا الجمع بين هذه النظرية وبين مسلمات الدين الإسلامي، وعقيدته في خلق آدم من سلالة من طين، وأنه النفس الواحدة التي خلق الله منها زوجها، فبث منهما رجالًا كثيرًا ونساء.

وهذا كله مبني على افتراض صحة هذه النظرية وثبوتها، والكل يسلم على أن هذه الفكرة غير مبنية على اكتشاف حقائق في خلق الإنسان، تؤدي إلى القطع بصحتها فالحقائق لم تطاوع المتعصبين لها، وداروين نفسه يعترف بأنه لم يتوصل إلى الدليل الذي يمكنه به أن يثبت لنظريته حجة يقهر بها عناد أصوله الرافضين لها، وإنما كان يتوهم أوهامًا بأن الحلقات المفقودة التي يمكن بها ترتيب هذه النظرية بطريقة مقبولة يسلم لها العقل سوف تكتشف في الزمن المقبل، كما سبق أن ذكرنا كلامه الذي يتطلع فيه إلى أن يكون دليله يوجد بين الرفات الأحفوري.

وسيتبين لك أيها القارئ الكريم؛ أن الأحافير جاءت دلالتها بعكس ما كان يطمح إليه داروين، ونجد العلامة محمد فريد وجدي الذي حاول في الكلام المنقول عنه آنفًا أن يوجد مسوغًا لما قاله داروين وأن يوائم بينه وبين

النصوص الشرعية في خلق الإنسان يرجع إلى التصريح بأن هذه النظرية ـ وإن اندفع الناس إليها وكاد العلماء الماديون يجمعون عليها ـ لا يمكن إثباتها بشيء من الحس، وإنما نزعوا إليها لأنهم تصوروها أقرب إلى حل المعضلات العلمية، وهذا نص قوله: «أصبحت نظرية التسلسل عقيدة لدى العلماء إلا أفرادًا منهم، وليس إجماعهم عليها لأنها أصبحت من المعلومات الممكن إثباتها بالحس، ولكن لأنها أقرب لحل المعاضل العلمية»[1].

وهذا لا يوطد لثبوتها، وإنما يدل على قصور البشر عن تصور الحقائق العلمية، وقد كان حريًا بهم عندما يعضلون بما يحيرهم عن تصور كنهه أن يقفوا عند حدودهم، كما حكى الله عن ملائكته أنهم قالوا: ﴿ سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [البقرة: ٣٢]، وعن أنبيائه قولهم: ﴿ لَا عِلْمَ لَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴾ [المائدة: ١٠٩]، لا أن يقتحموا اللجج ليسلموا لافتراضات لم يقم عليها دليل.

هذا؛ وقد بيّن العلامة وجدي ما تقوم عليه هذه النظرية بقوله: «أسس داروين مذهبه على نواميس أربعة كلها طبيعية، وهي ناموس (تنازع البقاء)، وناموس (الانتخاب الطبيعي)، وناموس (المطابقة)، وناموس (الوراثة).

أما ناموس (تنازع البقاء) فمعناه أن الأحياء الأرضية كلها متنازعة في البقاء كل منها عامل على توفير وجوده، وإن عدا على وجود غيره.

وأما ناموس (الانتخاب الطبيعي) فمعناه أن نتيجة هذا التنازع كله بقاء الأصلح للبقاء، وهلاك غير الأصلح أو زيادة ضعفه. كأن الطبيعة تنتخب الأقوى والأكمل فتبقيه، وتلاشي الأضعف الأنقص وتبيده، ليكون نتيجة ذلك الارتقاء بمعناه الأعم.

---

(١) المرجع السابق، ٣٠/٤.

أما ناموس (المطابقة) فمعناه أن لنوع الأغذية وطرق الوصول إليها دخلًا كبيرًا في إحداث الاختلافات بين الأنواع، مثلا:

المعروف عن الأسد الآن أنه حيوان من أكالة اللحوم، مفترس، له أنياب حادة، وبراثن قوية، لاضطراره لتمزيق فريسته بأنيابه وأظفاره، فلو أوجدت الأسد آلافًا من السنين متوالية في بيئة لا يمكنه من الافتراس، ويجبره على تعاطي الأغذية النباتية، اضطر بحكم الضرورة لتعاطيها، فتبطل وظيفة أنيابه الحادة وأظفاره الماضية، فتضعف على توالي الأحقاب، وتضمر وتوجد فيه آلات أخرى أصلح لمعيشته الجديدة ظاهرًا وباطنًا، كأن يتغير تدريجًا شكل أسنانه وتطول أمعاؤه لتحاكي أمعاء أكلة الحشائش من الحيوانات، إلى غير ذلك من التنوعات، ولو فرض أن تلك النباتات لا تتسنى له إلا بخوض نهر أو بالتسلق على الأشجار تخلقت فيه على توالي الأحقاب أعضاء تناسب السباحة أو التسلق إلخ.

وأما ناموس (الوراثة) فمعناه أن الصفات العرضية التي تحدث في الآباء بواسطة اختلاف الأحوال والأوساط المعيشية تنتقل إلى الأبناء فتنشأ تلك الأبناء مختلفة فيما بينها، ولا يزال هذا الاختلاف يقوى على مر الأجيال حتى تستحيل تلك الاختلافات العرضية إلى اختلافات جوهرية توهم الرائي لها أنها اختلافات نوعية من أصل الخلقة.

وهي في الحقيقة اختلافات بسيطة في مبدئها توالت عليها الحقب حتى ازدادت تأصلًا في الكائن الحي، ونمت فيه فأدته إلى مباينة الأصل الذي نشأ منه تمام المباينة حتى أن الرائي لهما يظنهما من نوعين مستقلين، وهما من نوع واحد. كما ترى ذلك بين الحمار والحصان فإنهما على مقتضى مذهب داروين من نوع واحد، وإنما اختلف الحمار عن الحصان هذا

الاختلاف تبعًا لمقتضيات البيئة التي عاش فيها الحمار والجهاد المعيشي الشديد الذي بلي به»[1].

وقد جرى هذا المجرى كثير من المفكرين الذين يحسب لهم حساب في الأمة، وهذا كله عائد إلى ما ذكرته من كون هذا الطرح ـ الذي طرحه داروين ـ صادف هوى في نفوس الغربيين، وكان لهم إبان ذلك نفوذ سياسي وفكري وثقافي في أمة الإسلام، وهم الذين روجوا ما بين هذه الأمة لهذه النظرية بقوة وصخب شديدين، وقد صحب ذلك رجوع طائفة من المبتعثين إلى الغرب ليتلقوا معارفهم، فرجعوا وهم مشحونون بهذه الفكرة، وكان تراجعهم عنها من أصعب الأمور، لأنهم يعدونه انتكاسًا إلى الأدنى ورجوعًا إلى الوراء، وقد وقر في نفوسهم أن عدم الإيمان بهذه النظرية إنما يرجع إلى بلادة الذهن وتحجر العقل، فوجد رجال العلم والفكر ـ الذين انفتحوا على العالم الجديد وحضارته ـ أنفسهم مضطرين إلى مسايرة هؤلاء، لئلا يؤدي الصدام بهم إلى انهزام روح الإيمان، فلذلك حاولوا تأويل الآيات الكريمة لتكون قابلة لتفسيرها بما يتواءم مع هذا الطرح الجديد، وكانوا في ذلك بين مغال ومقتصد.

ونجد من أدباء الأمة من تصبته هذه النظرية حتى عدّ إنكارها استنادًا إلى نصوص القرآن أمرًا منكرًا، كما نجد ذلك في قول الأستاذ العقاد: «والذين أنكروا مذهب التطور يحق لهم أن ينكروه من عند أنفسهم، لأنهم لم يطمئنوا إلى براهينه ودعاواه، ولكنهم لا يجوز لهم أن ينكروه استنادًا إلى القرآن الكريم، لأنهم لا يملكون أن يفسروا خلق السلالة الآدمية من الطين على نحو واحد يمنعون ما عداه، وكل ما يجوز لهم أن يوجبوا الإيمان بأنّ الله ﷻ سوى الطين وبث فيه روح الحياة، فصنع منه السلالة التي نشأ منها آدم عليه السلام، فأما

---

(١) المرجع السابق، ٤/٣٠ ـ ٣١.

أن يحكموا كيفية التسوية وكيفية النفخ وكيفية خلق السلالة والزمن التي خلقت فيه، وهو ادعاء على القرآن الكريم لا يقبل منهم على وجه من وجوه النفي أو وجوه الإثبات، ويجوز أن يكون مذهب التطور مذهبًا ناقصًا في تطبيقه على الحياة، وعلى الكائنات العضوية، وبخاصة في قول أتباعه بتحول الأنواع، ولكن لا يجوز أن يقحم الآيات القرآنية في إنكار النشوء والتطور، فإنه إنكار أخطر من إنكار القائلين بتكفير الفلكيين، لأنهم ذهبوا إلى استدارة الأرض، ودورانها حول الشمس في الفضاء»[1].

وقد بالغ الشيخ نديم الجسر ـ الذي كان مفتيًا لطرابلس ولبنان الشمالي ـ في تعزيز مذهب داروين والتعصب له، والوقوف في وجه خصومه بحدة حتى ذكر أن ما أشاعوه عنه كان جهلًا وبهتانًا، وأتبع ذلك قوله: «الحقيقة التي لا ريب فيها أن داروين مؤمن بوجود الله»[2].

وقال بعد ذلك: «لقد كانت الحملة على داروين قاسية وهَوْجَاء إلى الحد الذي خرج به أعاظم رجال اللاهوت في العالم، وكثير من رجال العلم والسياسة والصحافة عن أدب النقاش العلمي، من السب والشتم والتهجم والأذى والتكفير، ويكفيك أن تعلم من أخبار هذه الحملة الهوجاء التي استمرت في ضراوتها إلى نهاية القرن التاسع عشر مثلًا أن أسقف أوكسفورد، وهو من أكبر العلماء أعلن في خطبة ألقاها أمام مجمع تقدم العلوم البريطاني: (أن داروين ارتكب أشنع جريمة، حينما حاول أن يحدد مجد الله في فعل الخلق) وأن الكاردينال مانِّنْغْ قال: (إن مذهب داروين هو فلسفة وحشية تؤدي عقلًا إلى إنكار الإله)، وأن الدكتور به ريٍّ كبير أساقفة مالبورن وضع كتابًا

(١) العقاد؛ عباس محمود: **المجموعة الكاملة، الإسلاميات ٣، الفلسفة القرآنية**، ٢٠٠/٧، دار الكتاب اللبناني ـ بيروت، (بدون ط).

(٢) نديم الجسر: **قصة الإيمان**، ص ١٨٧.

حمل فيه على داروين، واتهمه بأنه يزرع في قلوب الناس بذرة الكفر وإنكار الكتب السماوية، وأن الموفسنيور **سهغور** في فرنسا قال عن مذهب داروين: (إنه من المذاهب المرذولة التي لا يؤيدها إلا أحط النزعات وأسفل المشاعر، فأبوها الكفر وأمها القـذارة...)، وفي ألمانيا أعلن بعـض العلماء أن مذهب داروين يناقض كل فكرة موجودة في الكتب المقدسة، وأعلن **لوتاردت** أستاذ اللاهوت في **لايبزيغ** (أنّ فكرة النشـوء تناقض الحكمة الإلهية مناقضة تامة، وأن فكرة الخلق ملك للدين لا للعلم الطبيعي، وأن كل الهيكل الأعلى للدين إنما يقوم علـى مذهب الخلق)، ودعا أحد علماء اللاهوت في سويسـرا إلى القيام بحرب صليبية ضد هـذا المذهب الخاطئ المفسـد...، وقالت مجلة جامعة **دبلن**: (إن داروين يبحث كيف يخلع الله عن عرشـه) ووصف العلامة الدكتور **قسطنطين جمس** في كتابه **الداروينزم أو الإنسان القردي** الذي نشر في باريس سنة ١٨٧٧م مذهب داروين بأنه: (أسطورة وأضحوكة)، وتهكم الوزير **غلادسـتون** نفسـه على المذهب في إحدى خطبه، وقال الدكتور **هديج** من جامعة **برنستون** (إنه يجب منع نشـر أمثال هذه المذاهب التي تنافي الكتب المقدسة)، وقال الدكتور **دوفيلد**: (إن التوفيق بين مذهب النشوء وبين التنزيل غير ممكـن، وإن من يؤمن به ـ ولو ثبـت علميًا ـ يكون كافـرًا بالله)، وقال د. **لي**: (إنه لا يمكن بأي أسـلوب من أسـاليب التفسـير أن نؤول الكتاب المقدس بتوسـع يحتمل القول بهذا المذهب)، ونعت داروين وأتباعه بأنهم مبشرو البلاليع القذرة، وفي الكلية الإميريكية في بيروت طرد الأساتذة الذين ظهر أنهم يقولون بمذهب داروين»[1].

وهذا الدفاع الحميم عن هـذا المذهب ما هو إلا دليل على تشـبع هذا المدافع به واقتناعه بما انطوى عليه، وقد حكى ذلك عن والده وشيخه حسين

---

(١) المرجع السابق، ص ١٩٣ ـ ١٩٤.

الجسر، إذ نقل عنه أنه ألف كتابًا جاء فيه: «مذهب داروين عند ثبوته لا يتعارض مع أحكام القرآن ولا مع الإيمان بوجود الله»[1].

---

(١) المرجع السابق، ص ١٩٤، وما ذكره الشيخ نديم الجسر عن والده الشيخ حسين الجسر من أنه كان يسوغ نظرية التطور التي قالها داروين، ذكره عنه أيضًا بعض المعاصرين المؤيدين لنظرية داروين ـ مع كونه يرد على الملاحدة بقوة ـ وقد تعقب ذلك د. هشام عزمي في كتابه **التطور الموجه بين العلم والدين**، واستنكر جدًا هذا الذي نسباه إلى الشيخ حسين الجسر، وناقش ذلك نقاشًا موضوعيًا مستندًا فيه إلى نصوص كلام الشيخ حسين نفسه، منه ما هو في كتابه **الرسالة الحميدية في حقيقة الديانة الإسلامية وحقيقة الشريعة المحمدية**، فقد عزا إليه أنه تعرض فيه لقضية التطور، فذكر أنه بخصوص خلق أنواع وأصناف الكائنات الحية أنّ النصوص الواردة فيها ما يقبل التفسير بالخلق أو بالتطور كخلق كل دابة من ماء، وأنه جعل من الماء كل شيء حي، أما سائر النصوص فالمعنى الظاهر المباشر منها هو الخلق لا التطور، وعزا إليه أنه قال: «أما بقية النصوص المذكورة بالمعنى الظاهر المتبادر منها هو أنّ الله تعالى أوجد أنواع العوالم بطريق الخلق، أي أنه أوجد كل نوع مستقلًا عن غيره، ليس مشتقًا من سواه، أعم من أن يكون بإيجاد دفعي أو متمهل، كما لا يخفى على من يدري أساليب الكلام العربي، لأن من يقول مثلًا (قدمت لضيفاني من الأطعمة أنواعًا) يتبادر من كلامه أنه اصطنع كل نوع مستقلًا عن البقية وقدمه إليهم، وأما كونه اصطنع جملة الطعام جنسًا واحدًا، ثم فرع منه الأنواع بترقيه في صناعة الطبخ واشتقاق نوع من نوع، فهو معنى بعيد عن الإرادة لا يخطر في بال، وإن كان جائز الوقوع».

ثم ذكر أنه بعد مناقشة قصيرة لبعض الأحاديث الواردة في الخلق قرر تقريرًا مؤصلًا محكمًا، وقد نقله د. هشام عزمي كاملًا لقوته ونفاسته، وها هو ذا بنصه: «فعلى ما تقدم من ظاهر هذه النصوص وبحسب القاعدة المتقدمة من أن الواجب في الشريعة المحمدية أن يعتقد اتباعها المعاني المتعينة أو المعاني الظاهرة من نصوصها المتواترة أو المشهورة، ما لم يعارض المعاني الظاهرة دليل عقلي ظاهر يلجئ إلى تأويلها.

يجب أن يكون اعتقاد أتباع محمد ﷺ أن الله خلق كل نوع من عوالم الأرض مستقلًا ابتداء عن البقية، ولم يخلقه بطريق النشوء، واشتق نوعًا من نوع، وإن كان قادرًا على كلتا الصورتين، وأما أنّ كل نوع خلقه دفعة واحدة أو بتمهل وترق بسبب نواميس وضعها الله له فهذا سبيله عندهم التوقف، حيث لم يرد في شريعتهم ما يفيد القطع بأحد الأمرين، ولا يسوغ لهم بمقتضى حكم شريعتهم ـ كما تقدم ـ أن يعدلوا عن اعتقاد هذا الظاهر إلى الاعتقاد بخلافه من نحو النشوء واشتقاق بعض من بعض كما تقولون أيها الماديون، لأن هذا بخلاف =

ومما يستغرب منه أن يوجد حتى من بين الدعاة المسلمين إلى وقتنا هذا من يهون من أمر هذه النظرية، ولا يرى فيها أي تناقض مع نصوص القرآن، بل منهم من يتعصب لها ويدافع عنها حتى من بين الذين يواجهون

= ظاهر النصوص المتقدمة، ولم يقم عليه دليل قاطع يضطرهم إلى تأويلها والأدلة التي تذكرونها في كتبكم على النشوء ما هي إلا ظنون وفروض لم تخرج عن دائرة الاحتمال الذي يسقط به الاستدلال، كما يظهر من الاطلاع عليها مع خلو الغرض.

وما دام الحال كذلك فأتباع محمد لا يصرفون تلك النصوص عن ظواهرها ولو مع اعتقادهم بأنّ هذه النشوء بخلق الله تعالى، بل لا يسوغ لهم الصرف ما دام الحال كذلك، نعم لو قام الدليل القطعي القاطع على خلاف ظاهر تلك النصوص كان عليهم حينئذ أن يؤولوها للتوفيق بينها وبين ما قام عليه ذلك الدليل جريًا على القاعدة المتقدمة (وإخال أن دون ذلك خرط القتاد) ينظر؛ د. هشام عزمي: **التطور الموجه بين العلم والدين**، ص١٥١ ـ ١٥٣، مركز براهين لدراسة الإلحاد ومعالجة النوازل العقدية، دار الكاتب للنشر والتوزيع ـ مصر، ط١: ١٤٣٧هـ/٢٠١٦م، والجسر؛ حسين أفندي: **الرسالة الحميدية في حقيقة الديانة الإسلامية** ص٢٤٨ ـ ٢٥٠، تقديم وتحقيق: خالد زيادة، مكتبة مدبولي ـ القاهرة، ط١: ٢٠١١م.

ويعلق على كلامه د. هشام عزمي فيقول: «فأدلة نصوص الوحي على الخلق قطعية يقينية لا يجوز تأويلها لأجل أدلة التطور الظنية والمحتملة، ثم يضع الشيخ الجسر احتمالًا بأنه لو قام الدليل اليقيني القطعي على صحة حدوث التطور لجاز لنا تأويل هذه النصوص، لكنه يستدرك قائلًا إنه يخال ذلك دونه خرط القتاد، أي مستحيل تماما، لماذا؟ لأن كيفية أي حدث لا يمكن أن نعرفها إلا بطريق من ثلاث طرق، إما مشاهدته (دليل حس) أو مشاهدة نظيره (دليل قياس عقلي) أو خبر الوحي الصادق، ومن الواضح الجلي أننا لم نشهد خلق أي نوع من أنواع الكائنات الحية، ولم نشهد كذلك أي شيء مثيل أو نظير ذلك من وقائع التطور الكبير لنقيسه عليه، كنشوء نوع من نوع آخر، وقد سبق في مقالات سابقة أن تكلمنا بالتفصيل عن كون خلق أنواع الكائنات الحية ليس من جنس الأحداث الحيوية المشاهدة المعتادة التي تجري في الأحياء ويمكن استقراؤها والقياس عليها، فلا يبقى لنا على هذه الحال إلا خبر الوحي الصادق، وهو قد جاء بخلاف التطور الداروينى، فحقيقة الحال أنّ نشوء الأنواع بعضها من بعض ليس عليه دليل أصلًا فضلًا أن يكون دليلًا قطعيًا في يوم من الأيام».

ثم يتابع بعد ذلك نقل النصوص التي تضمنها كتاب الشيخ الجسر، وهي كلها تؤكد أنه يرد على القائلين بأن خلق الإنسان بطريقة النشوء والارتقاء حسب المذهب الداروينى. ينظر؛ د. هشام عزمي: **التطور الموجه**، ص١٥٣ ـ ١٥٤.

الإلحاد بحزم وعزم، ويردون على شبه الملاحدة، ولكنهم فاتهم أن هذه النظرية هي بعينها محضن للإلحاد، وتجد هذا التعصب الأعمى لها في هذا الوقت الذي وضح فيه الصبح لذي عينين، فأصبح من المسلم حتى عند كثير من الملاحدة، أنها أفلست من كل دليل مادي أو معنوي يمكن أن تستند إليه.

ونرى في هذا العصر أيضًا العلامة الداعية الأستاذ الدكتور محمد علي البار لا يرى في هذه النظرية ما ينافي توحيد الله تعالى واعتقاد أنه خالق كل شيء وأنه مدبر جميع الكائنات، فقد نظر إليها نظرة إيجابية عندما قال في كتابه **العلمانية جذورها وأصولها**: «إن نظرية التطور عند المسلمين استخدمت لتدعيم الإيمان بالله وبالوحي وبالرسالات، وهو مناقض تمامًا لما فعلته أوربة في العصر الحديث، حيث استعملت نظرية التطور لإثبات الكفر والإلحاد ومحاربة الدين»[1].

وقال أيضًا: «لقد استخدم كثير من فلاسفة المسلمين ومفكريهم نظرية التطور لإثبات النبوة، ولم تكن نظرية التطور عندهم مدعاة للكفر والإلحاد كما فعل اليهود بنظرية داروين، حيث جعلوها معولًا لهدم الأديان، وخاصة المسيحية التي يحتقرونها ويعادونها (سرًا) أشد العداء.

ولم ير علماء الشريعة والدين في هذه النظرية مدعاة للكفر، بل وقفوا منها موقفا محايدًا»[2].

واستطرد بعد هذا في ذكر نصوص لعلماء الأمة من الغابرين والمعاصرين دلالة بعضها على هذا المعنى ليست على طرف الثمام، وبعضها من المحتمل

---

(١) البار: **العلمانية جذورها وأصولها**، ص٣١١.

(٢) المرجع السابق، ص٣١١ ـ ٣١٢.

أن يحمل على ذلك[١]، وذكر بعد ذلك طائفة من معارضيها ومنتقديها، سواء كانوا من المسلمين أو غيرهم[٢]، ومع ذلك فإنه ذكر كيف اتكأت أوربا على هذه النظرية في انتهاكها لحقوق الإنسان، واستعبادها للبشر، وفرض سيطرتها على العالم، كما سيأتي ذكره من كلامه إن شاء الله.

كما أنه عرج على الغش عند أصحاب نظرية التطور فذكر **إنسان جاوة** الذي سيأتي الكلام فيه ـ إن شاء الله ـ وكيف كان التزوير لإيهام الناس أن جمجمته المكتشفة هي جمجمة إنسان انتقالي، ما بين جنس القردة وجنس البشر ـ كما سيأتي بيانه ـ وعزز ذلك بما ذكره كثير من الغربيين في هذا[٣].

ومثل ذلك ما ذكره في مقدمة كتابه **خلق الإنسان بين الطب والقرآن**، فقد ألقى فيه بثقله في مساندة هذه النظرية ومحاولة دعمها وتعزيزها بما ذكره جماعة من العلماء الإسلاميين، وكان مما قاله في ذلك: «ولقد حاولت محاولة جادة وطويلة دراسة هذه البداية.. وتعلقها بنظرية التطور.. ودرست ما جاء في كتب علماء الإسلام، وأعلام المفسرين من أمثال الفخر الرازي والطبري وغيرهما.... وكيف اتجه بعض علماء الإسلام إلى أنّ خلق الإنسان مر بمراحل وأطوار من الطين إلى صورة آدم، وكان من أصرحهم في ذلك ابن خلدون في المقدمة، حيث يقول: (ثم انظر إلى عالم التكوين كيف ابتدأ من المعادن، ثم النبات ثم الحيوان على هيئة بديعة من التدرج.. آخر أفق المعادن متصل بأول أفق النبات، مثل الحشائش وما لا بذر له، وآخر أفق النبات مثل النخل والكرم متصل بأول أفق الحيوان، مثل الحلزون والصدف.. ولم يوجد لهما إلا قوة اللمس فقط.. ومعنى الاتصال في هذه المكونات أنّ آخر أفق

---

(١) ينظر؛ المرجع السابق، ص٣١٢ ـ ٣٣٤.

(٢) ينظر؛ المرجع السابق، ص٣٣٥ ـ ٣٤٤.

(٣) ينظر؛ المرجع السابق، ص٣٣٦ ـ ٣٣٨.

كل منها مستعد بالاستعداد الغريب بأن يصير أول أفق الذي بعده، واتسع عالم الحيوان وتعددت أنواعه، وانتهى في تدريج التكوين إلى الإنسان صاحب الروية، ترتفع إليه من عالم القردة الذي اجتمع فيه الحس والإدراك. ولم ينته إلى الروية والفكر بالفعل، وكان ذلك أول أفق من الإنسان بعده.. وهذا غاية شهودنا)».

وعلق الدكتور البار على كلامه هذا قائلًا: «وأنت ترى مما جاء في كلام ابن خلدون تصريحًا أقوى مما جاء في نظرية داروين في كتاب النشوء والارتقاء، وكذلك فعل الدميري والبلخي والفخر الرازي.. وإخوان الصفا.. وغيرهم.. من أعلام الفكر في تاريخ الإسلام، مثل الفارابي والقزويني وابن مسكويه...».

ثم أتبع ذلك قوله: «وذهبت إلى متحف التاريخ الطبيعي بلدن.. وهو مشيد على أساس فكرة التطور، ويحتل تمثال داروين مكان الصدراة فيه، ومكثت فيه ساعات طوالًا.. وترددت عليه بعد ذلك مرات ومرات، وقرأت العديد مما صدر حول نظرية التطور من كتابات القدماء والمحدثين مؤيدين ومعارضين....

ولم ينشرح صدري لما توصلت إليه، ولعل الله يشرح لي صدري وييسر لي أمري ويحل عقدة من لساني، فأقول فيها قولًا يرضي لله ورسوله.. وأرجو أن يكون ذلك في كتاب مستقل...»[1].

وأنت تراه في كلامه هذا يجنح بقوة إلى تسويغ هذه النظرية وعدها غير منافية للدين، ولا مصادمة للقرآن، وإن كان في النهاية لم يستطع البت فيها،

---

(١) البار: خلق الإنسان بين الطب والقرآن، ص١٦ ـ ١٨، الدار السعودية للنشر والتوزيع ـ جدة، ط٤: ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.

وقد حاول تعزيزها بما ذكره عن علماء المسلمين وفلاسفتهم، مما يدل على أنهم كانوا ينحون نحو ما جاء فيها، وقد علق في ذيل كتابه على هذا بقوله: «لم تكن آراء هؤلاء المفكرين مدعاة للكفر، بل على العكس من ذلك، جعلوها مدعاة للإيمان، فابن خلدون ذكر كلامه الذي نقلناه في معرض حديثه في إثبات النبوة، وكيف أن الإنسان المختار يرتقي في لحظة من اللحظات إلى مستوى الملائكة بحيث يستطيع أن يتلقى الوحي عن الملك.. إلخ»[1].

والذي يبدو أنّ كثيرًا من نصوص علماء المسلمين ومفكريهم التي سيقت لتعزيز هذه النظرية؛ حملت من المعاني ما لا تتحمله، فإنّ كثيرًا ممن عزي إليهم هذا التوجه في التحليل تجد في كلامهم ما يتباين مع هذه النظرية كما سوف تجده ـ إن شاء الله ـ فيما يأتي.

أما ما وجد منها متقاربًا معها أو منسجمًا، فهو مما استوحي من نظريات الفلاسفة المتقدمين، الذين كانت لهم بصمات واضحة في التراث الإسلامي بسبب اندفاع كثير من علماء المسلمين ومفكريهم إلى العب من مناهلهم حسن ظن بهم، ورغبة في مزيد من الفائدة فيما لم يطلعوا فيه على نصوص شرعية واضحة كاشفة لما هم متسائلون عنه، وقد جاءت الحقائق العلمية مدكدكة لكثير من النظريات التي تلقوها عن أولئك الغابرين، وهذا مما يقتضي غربلة هذه النقول، وإبقاء الصحيح منها ونفي الزائف.

ولا يخفى أن لنظرية داروين جذورًا في التراث الفلسفي القديم.

هذا؛ وإن عجبتُ فإنني أعجب من العلماء والباحثين في عصرنا هذا، كيف لا يتجرأون على نقض هذه النظرية من أساسها، وإنكارها من رأسها إلى قدميها مع أنّ الدلائل العلمية سواء كانت مادية أو معنوية شاهدة على

---

(١) المرجع السابق، ص١٧، تعليق رقم (١).

بطلانها، فلم يبق لها ما تتشبث به من شبهة يمكن أن يموه بها على الناس، فيخالوها حجة ودليلًا على صحتها وثبوتها، وهذا ما أدى بكثير ممن كانوا يتعصبون لها، ولا يرضون أن يفرطوا فيها، إلى أن ينثنوا عن موقفهم وينقلبوا ضدها، كما سيأتي ذلك ـ إن شاء الله ـ في ثنايا الكلام عليها، مع أنّ أولئك لم يكونوا على صلة بأمر الدين، وإنما أدى بهم البحث العلمي المجرد وحده إلى نقضها وفضحها بعد أن كانوا من أشد الناس تعصبًا لها..!

ونحن نرى من بين علمائنا الأفذاذ شيخنا العلامة الإمام أبا إسحاق إطفيش رحمه الله يواجه هذه النظرية بصرامة بالغة، وهو في موقف يتحدى فيه الجمود وأهله، وينتصر فيه لتحديث المناهج العلمية من أجل مواكبة التطور الثقافي والعلمي في العالم، حتى لا تكون أمة الإسلام في مؤخرة الأمم تقتات بما يتساقط من أيدي الآخرين من فتات موائدهم، فقد خرج من مسقط رأسه وادي ميزاب من القطر الجزائري المجاهد ومعه مجموعة من الطلاب؛ من أجل أن يرتووا من مناهل العلوم المعاصرة بتونس، ولقي معارضة حادة من الذين لا يروق لهم ذلك بسبب إخلادهم إلى ما ألفوه من العادات، فكانوا يرون كل تحديث منكرًا وبدعة وضلالة..! وظل في صراع وعراك معهم، ثم خرج بعد ذلك مرغمًا من قبل السلطات الفرنسية المستعمرة، إلى أرض الكنانة.

وقد احتك بذوي الحركات الإصلاحية في القطرين جميعًا، وشاركهم في محاولاتهم النهوض بالأمة الإسلامية لتترقى من حضيضها، وتتقدم عن تخلفها، ولكنه مع ذلك وقف من نظرية داروين موقف صلبًا لا مداهنة فيه ولا مهادنة، مع أنّ أصوات الكثير ممن حوله لها جلبة بتسويغ هذه النظرية حتى لا يعود الفشل على الدين الإسلامي لو أنها أصبحت حقيقة ثابتة، غير أنّ

ذلك لم يثنه عن رأيه فيها، وقد أبان عنه في قوله: «وأما ما يزعمه أهل مذهب النشوء والارتقاء من أنّ الإنسان متناسل من القرد، وإنما صار إلى درجته بحكم النشوء والارتقاء فكلام سخيف ساقط، صار الآن بين العقلاء ضحكة وهزءًا، وكذا القائلون بمذهب الاشتقاق. وليس كتابنا محل البسط فكل هذه لا تحوم حول أهل القرآن إلا من أضله الله ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ [الرعد: ٣٣]»[١].

وكان نقده لهذه النظرية في سياق رده على الجامدين الذين كانوا يستنكرون دراسة كثير من العلوم النافعة كالتاريخ والجغرافيا والهندسة وعلم الطبيعة وعلم الكيمياء وعلم النبات والعلوم الرياضية والإنشاء ـ لا سيما ما تحتويه الصحافة ـ فضلًا عن اللغات الأجنبية، وكان إبداء هذه الصرامة من شيخنا ضد نظرية التطور قبل زهاء قرن من الزمن من الآن، وقد وصفها بالسخافة والسقوط، وأنها بين العقلاء ضحكة وهزء، وكان ذلك في ذلك العصر قبل أن تتكشف الحقائق وينصع الدليل بفشلها من كل حجة، وإفلاسها من كل بينة، فلا أعجب مع هذا إلا ممن يسوغها في عصرنا أو ينتصر لها مع هذا الدوي الهادر من الأدلة الفاضحة لها.

وهناك مجموعة أخرى من علماء الأمة ومفكريها رفضوا هذه النظرية، ولم يلووا عليها قط لما أدركوه من مصادمتها لدلالة القرآن الكريم، كما نجد ذلك في قول الإمام ابن عاشور: «فأما آدم فهو أبو البشر باتفاق الأمم كلها إلّا شذوذًا من أصحاب النزعات الإلحادية الذين ظهروا في أوروبا واخترعوا نظرية تسلسل أنواع الحيوان بعضها من بعض وهي نظرية فائلة»[٢].

---

(١) أطفيش؛ أبو إسحاق إبراهيم: **الدعاية إلى سبيل المؤمنين**، ص٣٢، مكتبة الضامري ـ السيب، ط ٣: ١٤٣٦هـ/٢٠١٥م.

(٢) ابن عاشور: **التحرير والتنوير**، سورة آل عمران (الآيتان ٣٣، ٣٤)، ٨٢/٣.

ومن العجيب أن نرى الباحث العلامة الأستاذ الدكتور محمد علي البار ـ مع ما عرف به من التحمس البالغ في الدفاع عن الإسلام، وعقيدته الإيمانية، وتصديه لكل مساس بها ـ يقف من هذه النظرية موقفًا محايدًا، ولا يقوم بمثل ما عهد منه من الحماس لأجل نقدها، كما نقد نظائرها من النظريات الباطلة التي تنافي عقيدة الإيمان، بل علق الأمر على ما يتكشف في المستقبل من أمرها، ويتضح من نجاحها أو فشلها، ورأى أنها إن نجحت لن تكون منافية ومعارضة لما جاء به القرآن، كما أنه مهد لقبولها بذكر بعض النصوص لعلماء الأمة الغابرين كالفخر الرازي وابن خلدون، وكذلك ابن مسكويه، الذي سبقت الإشارة إلى كلامه، وبجانبها ذكر بعض النصوص للعلماء المعاصرين من أمثال الأستاذ الشهيد سيد قطب، وقد أورد من كلامه قوله في تفسير قوله تعالى ﴿ ٱلَّذِىٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَىۡءٍ خَلَقَهُۥۖ وَبَدَأَ خَلۡقَ ٱلۡإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴾ [السجدة: ٧]:

«وقد يكون ذلك إشارة إلى بدء نشأة الخلية الأولى في هذه الأرض، وأنها نشأت من الطين، وأنّ الطين كان المرحلة السابقة لنفخ الحياة فيها بأمر الله، وهذا هو السر الذي لم يصل إليه أحد لا ما هو؟ ولا كيف كان؟ ومن الخلية الحية نشأ الإنسان، ولا يذكر القرآن الكريم كيف تم هذا، ولا كم استغرق من الزمن ولا من الأطوار، فالأمر في تحقيق هذا التسلسل متروك لأي بحث صحيح، وليس في هذا البحث ما يصادم النص القرآني القاطع بأنّ نشأة الإنسان الأولى كانت من الطين. وهذا هو الحد المأمون بين الاعتماد على الحقيقة القرآنية القاطعة وقبول ما يسفر عنه أي تحقيق صحيح»[1].

---

(١) سيد قطب: في ظلال القرآن، سورة السجدة (الآيات ١ ـ ٣٠)، ٢٨٠٩/٥، دار الشروق ـ القاهرة، ط ٨: ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م، وينظر؛ البار: العلمانية جذورها وأصولها، ص ٣٣٠.

وأتبع ذلك قوله: «ثم ينبه سيد قطب رَحِمَهُ اللَّهُ إلى أنّ القول بأنّ الأنواع تسلسلت من الخلية الواحدة إلى الإنسان في أطوار متتالية، وأنّ هناك حلقات متصلة نشوء وارتقاء متصلة تجعل أصل الإنسان المباشر حيوانًا فوق القردة العليا، ودون الإنسان.. إنّ هذا القول غير صحيح في هذه النقطة، وأن كشف عوامل الوراثة التي لم يكن داروين قد عرفها، فتجعل هذا التطور من نوع إلى نوع ضربًا من المستحيل، فهناك عوامل وراثية كافية في خلية كل نوع تحتفظ له بخصائص نوعه، وتحتم أن يظل في دائرة النوع الذي نشأ منه، ولا يخرج قط عن نوعه، ولا يتطور إلى نوع جديد، فالقط أصله قط، وسيظل قطًا على توالي القرون، والكلب كذلك، والثور والحصان والقرد والإنسان، وكل ما يمكن أن يقع حسب نظريات الوراثة هو الارتقاء في حدود النوع نفسه، دون الانتقال إلى نوع آخر، وهذا يبطل القسم الرئيس في نظرية داروين، فَهِمَ ناس من المخدوعين باسم العلم أنها حقيقة غير قابلة للنقض في يوم من الأيام»[1].

وأنت تدري أن ما نقله عن الأستاذ الشهيد من كلامه هذا لا يعزز نظرية داروين من قريب ولا بعيد، بل هو على العكس من ذلك، يؤكد بأن الارتقاء إنما هو يكون في حدود النوع نفسه، ولا يمكن أن ينتقل نوع إلى نوع آخر، بل يعد ذلك ضربًا من المستحيل، كما يؤكد أن كل خلية في أي نوع تنطوي على عوامل وراثية كافية تحتفظ له بخصائص نوعه وتحتم أن يظل في دائرة النوع الذي نشأ منه، ولا يخرج قط عن نوعه ولا يتطور إلى نوع جديد، وزاد ذلك تأكيدًا بذكره أن القط سيظل قطًا، على توالي القرون، وكذلك الكلب والثور والحصان والقرد والإنسان، فأين ما يمكن أن يفسر هنا بأنه يمكن أن يكون تعزيزًا لنظرية النشوء والارتقاء، ودعما لقبولها؟! بل نصوص كلامه

---

(١) ينظر؛ البار: العلمانية جذورها وأصولها، ص ٣٣٠ ـ ٣٣١.

كلها تدل على عكس هذا، ومن ذلك قوله في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ﴾ [المؤمنون: ١٢]: «وهذا النص يشير إلى أطوار النشأة الإنسانية ولا يحددها. فيفيد أنّ الإنسان مرّ بأطوار مسلسلة، من الطين إلى الإنسان. فالطين هو المصدر الأول، أو الطور الأول. والإنسان هو الطور الأخير.. وهي حقيقة نعرفها من القرآن، ولا نطلب لها مصداقًا من النظريات العلمية التي تبحث عن نشأة الإنسان، أو نشأة الأحياء.

إنّ القرآن يقرر هذه الحقيقة ليتخذها مجالًا للتدبر في صنع الله، ولتأمل النقلة البعيدة بين الطين وهذا الإنسان المتسلسل في نشأته من ذلك الطين. ولا يتعرض لتفصيل هذا التسلسل لأنه لا يعنيه في أهدافه الكبيرة. أما النظريات العلمية فتحاول إثبات سلم معين للنشوء والإرتقاء، لوصل حلقات السلسلة بين الطين والإنسان. وهي تخطئ وتصيب في هذه المحاولة التي سكت القرآن عن تفصيلها، وليس لنا أن نخلط بين الحقيقة الثابتة التي يقررها القرآن.. حقيقة التسلسل.. وبين المحاولات العلمية في البحث عن حلقات هذا التسلسل، وهي المحاولات التي تخطئ وتصيب، وتثبت اليوم وتنقض غدًا، كلما تقدمت وسائل البحث وطرائقه في يد الإنسان.

والقرآن يعبر أحيانًا عن تلك الحقيقة باختصار فيقول: ﴿... وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ﴾.. دون إشارة إلى الأطوار التي مر بها. والمرجع في هذا النص الأكثر تفصيلًا، وهو الذي يشير إلى أنه ﴿مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ﴾ فالنص الآخر يختصر هذه الأطوار لمناسبة خاصة في السياق هناك.

أما كيف تسلسل الإنسان من الطين فمسكوت عنه كما قلنا لأنه غير داخل في الأهداف القرآنية. وقد تكون حلقاته على النحو الذي تقول به النظريات العلمية وقد لا تكون؛ وتكون الأطوار قد تمت بطريق آخر لم

يعرف بعد، وبسبب عوامل وعلل أخرى لم يكشف عنها الإنسان.. ولكن مفرق الطريق بين نظرة القرآن إلى الإنسان ونظرة تلك النظريات أنّ القرآن يكرم هذا الإنسان؛ ويقرر أنّ فيه نفخة من روح الله هي التي جعلت من سلالة الطين إنسانًا، ومنحته تلك الخصائص التي بها صار إنسانًا وافترق بها عن الحيوان. وهنا تفترق نظرة الإسلام افتراقًا كليًا عن نظرة الماديين. والله أصدق القائلين.

ذلك أصل نشأة الجنس الإنساني.. من سلالة من طين.. فأما نشأة الفرد الإنساني بعد ذلك، فتمضي في طريق آخر معروف»[1].

وقال أيضًا: «وعلى أية حال، فإنّ مجموع النصوص القرآنية في خلق آدم عليه السلام، وفي نشأة الجنس البشري، ترجح أنّ إعطاء هذا الكائن خصائصه الإنسانية ووظائفه المستقلة، كان مصاحبًا لخلقه. وأنّ الترقي (الإنساني) كان ترقيًا في بروز هذه الخصائص ونموها وتدريبها واكتسابها الخبرة العالية. ولم يكن ترقيًا في (وجود) الإنسان.. من تطور الأنواع حتى انتهت إلى الإنسان.. كما تقول الداروينية.

ووجود أنواع مترقية من الحيوان تتبع ترتيبًا زمنيًا بدلالة الحفريات التي تعتمد عليها نظرية النشوء والإرتقاء هو مجرد نظرية (ظنية) وليست (يقينية) لأن تقدير أعمار الصخور ذاته في طبقات الأرض ليس إلا ظنًا! مجرد فرض كتقدير أعمار النجوم من إشعاعها. وليس ما يمنع من ظهور فروض أخرى تعدّلها أو تغيرها!

على أنه على فرض العلم اليقيني بأعمار الصخور ليس هناك ما يمنع من وجود (أنواع) من الحيوان، في أزمان متوالية، بعضها أرقى من بعض، بفعل

---

(١) سيد قطب: **في ظلال القرآن**، سورة المؤمنون (الآيات ١ ـ ٢٢)، ٤/٢٤٥٧ ـ ٢٤٥٨.

الظروف السائدة في الأرض ومدى ما تسمح به من وجود أنواع تلائم هذه الظروف السائدة في حياتها. ثم انقراض بعضها حين تتغير الظروف السائدة بحيث لا تسمح لها بالحياة (وظهور أنواع أخرى أكثر ملاءمة للظروف السائدة)... ولكن هذا لا يحتم أن يكون بعضها متطورًا من بعض.. وحفريات دارون وما بعدها لا تستطيع أن تثبت أكثر من هذا، لا تستطيع أن تثبت في يقين مقطوع به أنّ هذا النوع تطور تطورًا عضويًا من النوع الذي قبله من الناحية الزمنية وفق شهادة الطبقة الصخرية التي يوجد فيها ولكنها فقط تثبت أنّ هناك نوعًا أرقى من النوع الذي قبله زمنيًا.. وهذا يمكن تعليله بما قلنا من أنّ الظروف السائدة في الأرض كانت تسمح بوجود هذا النوع. فلما تغيرت صارت صالحة لنشأة نوع آخر، فنشأ. ومساعدة على انقراض النوع الذي كان عائشًا من قبل في الظروف الأخرى، فانقرض»[1].

ولا يخفى ما في كلامه هذا من التأكيد الذي يلي التأكيد بأنّ تطور الإنسان بفعل الطبيعة من نوع آخر من أنواع الكائنات الحية، حتى انتهى إلى ما انتهى إليه من الرقي إلى مرتبة الإنسانية أمر غير متقبل دينًا ولا علمًا ولا عقلًا، فمن ناحية الدين لأن النصوص القرآنية تؤكد خلق الإنسان خلقًا مستقلًا من أول الأمر، وإنما تطور في مراحل تكوينه من الطين حتى وصل إلى ما انتهى إليه من ظهوره بشرًا سويًا، أكرمه الله تعالى بنفخ الروح فيه وجعله ممتازًا على غيره بخصائصه، كما لا يخفى ما في كلامه من رفض النظرية الداروينية من أساسها، وهذا ما عرج عليه أولًا في قوله:

«وأيًا كانت نشأة الحياة ونشأة الأحياء؛ فإنّ الخلق الإنساني يتفرد بخاصية أخرى هي التي ورد بها النص القرآني.. خاصية الروح الإلهي المودع فيه.. وهي الخاصية التي تجعل من هذا الإنسان إنسانًا، يتفرد بخصائصه عن كل

---

(١) المرجع السابق، سورة الحجر (الآيات ٢٦ ـ ٤٨)، ٤/٢١٤٣ ـ ٢١٤٤.

الأحياء الأخرى. وهي قطعًا ليست مجرد الحياة. فهو يشترك في (الحياة) مع سائر الأحياء. ولكنها خاصية الروح الزائد عن مجرد الحياة.

هذه الخاصية كما يلهم النص القرآني لم تجئ للإنسان بعد مراحل أو أطوار من نشأته كما تزعم الداروينية، ولكنها جاءت مصاحبة لخلقه ونشأته. فلم يجئ على هذا الكائن الإنساني زمان كان فيه مجرد حيّ من الأحياء بلا روح إنساني خاص ثم دخلته هذه الروح، فصار بها وهو هذا الإنسان!

ولقد اضطرت الداروينية الحديثة على يد **جوليان هاكسلي** أن تعترف بشطر من هذه الحقيقة الكبيرة؛ وهي تقرر (تفرد الإنسان) من الناحية الحيوية والوظيفية. ومن ثم تفرده من الناحية العقلية، وما نشأ عن ذلك كله من تفرده من الناحية الحضارية..

ولكنها ظلت تزعم أن هذا الإنسان المتفرد متطور عن حيوان!

والتوفيق عسير بين ما انتهت إليه الداروينية الحديثة من تفرد الإنسان، وبين القاعدة التي تقوم عليها الداروينية قاعدة التطور المطلق وتطور الإنسان عن الحيوان، ولكن الداروينيين ومن والاهم لا يزالون مصرين على ذلك الاندفاع غير العلمي الذي صبغوه بصبغة العلم في دفعة الانسلاخ من كل مقررات الكنيسة! والذي شجع اليهود على نشره وتمكينه وتثبيته، وإضفاء الصبغة (العلمية) عليه لغرض في نفوسهم؛ ولغاية في مخططاتهم!»[1].

وأكد مرة أخرى أن نشأة النوع الإنساني مستقلة استقلالًا تامًا عن نشأة سائر أنواع الكائنات الحية، فهي ليست أصلًا له، كما هو ليس أصلًا لها، وإن كان الكل يرجع إلى أصل واحد، وهو الماء؛ الذي جعل الله تعالى منه كل كائن حي، فقد قال على أثر ما تقدم: «وعندئذ تكون نشأة النوع الإنساني

---

(١) المرجع السابق، سورة الحجر (الآيات ٢٦ ـ ٤٨)، ٤/٢١٤٢ ـ ٢١٤٣.

نشأة مستقلة، في الزمن الذي علم الله أنّ ظروف الأرض تسمح بالحياة والنمو والترقي لهذا النوع. وهذا ما تؤكده مجموعة النصوص القرآنية في نشأة البشرية.

وتفرد (الإنسان) من الناحية البيولوجية والفسيولوجية والعقلية والروحية. هذا التفرد الذي اضطر الداروينيون المحدثون ـ وفيهم الملحدون بالله كلية ـ للاعتراف به، دليل مرجح على تفرد النشأة الإنسانية، وعدم تداخلها مع الأنواع في تطور عضوي»[١].

وقد اعتمد كلامه هذا الداعية الأستاذ سعيد حوى اعتمادًا كليًا في تفسيره **الأساس**[٢].

كما اعتمد أيضًا على هذا النص من قوله: «والحقيقة الثانية المستلهمة من قصة النشأة الإنسانية: هي كرامة هذا الكائن الفريد في العوالم الحية؛ وضخامة دوره المنوط به؛ وسعة الآفاق والمجالات التي يتحرك فيها؛ وتنوع العوالم التي يتعامل معها ـ في حدود عبوديته لله وحده ـ مما يتناقض تمامًا مع المذاهب الحسية الوضعية المادية التي تهدد قيمته كعامل أساسي مؤثر في الكون، حيث تسند الأهمية كلها للمادة وتأثيراتها الحتمية. ومع مذهب النشوء والارتقاء الذي يلحقه بعالم الحيوان ولا يكاد يحفل بخصائصه الإنسانية المتميزة، أو مذهب التحليل النفسي الفرويدي الذي يصوره غارقًا في وحل الجنس حتى ما يتسامى إلا عن طريق هذا الوحل نفسه!»[٣].

---

(١) المرجع السابق، سورة الحجر (الآيات ٢٦ ـ ٤٨)، ٢١٤٤/٤.

(٢) ينظر؛ حوى؛ سعيد: **الأساس في التفسير**، سورة الأعراف (الآيات ١٠ ـ ٥٨)، ١٨٧٣/٤ ـ ١٨٧٤، دار السلام ـ القاهرة، ط ٢: ١٤٠٩هـ/١٩٨٥م.

(٣) سيد قطب: **في ظلال القرآن**، سورة الأعراف (الآيات ١٠ ـ ٢٥)، ١٢٧٢/٣، وينظر؛ سعيد حوى: **الأساس في التفسير**، سورة الأعراف (الآيات ١٠ ـ ٥٨)، ١٨٧٥/٤.

هذا؛ وقد حرص الأستاذ الدكتور محمد علي البار على أن يزيح أي معارضة إسلامية عن طريق نظرية النشوء والإرتقاء، فقد حرص على تصوير أن التراث الإسلامي العتيق والجديد يتفق مع هذه النظرية ولا يصطدم معها، كما في قوله:

«وهناك العديد من كتّاب المسلمين في العصر الحديث الذين تعرضوا لهذه النظرية، وقد أوضح الكثيرون كما أسلفنا أنّ نظرية التطور والنشوء والإرتقاء ليست جديدة، بل هي قديمة جدًا، ثم إن كثيرًا من علماء المسلمين القدامى قالوا بها، وجعلوها دليلًا لإثبات النبوة، مثل أحمد بن سهل البلخي وابن مسكويه وابن خلدون، وهم ربطوا بين الموجودات من الجماد إلى النبات إلى الحيوان إلى الإنسان إلى التلقي عن الملك..».

ثم قال: «ولا شك أنّ نظرة علماء الإسلام إلى التطور أعمق وأشمل من نظرة النشوئيين المعاصرين، إذ تمتد نظرة هؤلاء العلماء من المسلمين، الذين قالوا بهذه النظرية عبر الزمان والمكان فتصل بين جميع العوالم السفلية والعلوية في سلسلة متصلة من التدرج والترقي، حتى ترتفع من عالم المادة البحت والتراب الخالص إلى عالم الروح الألق الممتد عبر الكون على رحابته،.. وشتان ما بين النظرتين على ما بينهما من اتصال في بعض الحلقات»[1].

ومهما يكن فيما نسب إلى علماء المسلمين من إثبات التطور والارتقاء، فإنّ ذلك لا يعدو أن يكون في النوع نفسه ـ كما سبق بيانه ـ، وأما ما بين سائر الأنواع فإنّ أقصى ما ذكروا بينها هو الانسجام والتآخي بما جعله الله ﷻ في جميع هذه الأنواع من الدلالة عليه وبما فطرها عليه من التسبيح بحمده،

---

(١) البار: العلمانية جذورها وأصولها، ص٣٣١.

والانقياد لأمره والتواضع لجلاله، والسجود لعزته، وهي ـ كما قلت ـ ترجع أحياؤها إلى أصل واحد في كونهـــا مخلوقة من ماء، غير أن لكل منها صبغته ونسيجه الخاص الذي تكون منه، فلا يمكن أن يلحق بعضها ببعض.

وإذا كان لـــي أن أتعجب مـــن بعض هـــذه المواقف من علمـــاء عصرنا ومفكريهم في تسويغهم لصحة هذه النظرية، فإنني أعجب أن يكون ذلك في هذا العصر الذي تكشفت فيه عيوبها، وتعرت فيه ســـوءاتها، وانبرى لنقضها ونقدها جماعة ممن نشـــأوا عليها، وتربوا على تعاليمها، ولكن تكشف لهم زيفها، فلم يبالوا أن ينقدوها نقدًا مجتثًا لأصولها، وما كان نقدهم لها إلا مبنيًا على أســـس علمية ثابتة، وتجربة بحثية متجردة، ناهيك بما كان من د. **كارل ويرنر** الذي نشـــأ عليها، حتى أنه كان يعد من يرفضها في عـــداد المجانين، ولكنه اصطـــدم بالحقيقة التي كانت مـــرّة بدايتها، وحلـــوة نهايتها، إذ تجرد للبحث الموضوعي فيها، وتفرغ لها ثلاثين عامًا، قســـمها بين دراســـة نظرية جال فيها بين رفوف المكتبات العلمية، ودراسة ميدانية طاف فيها أنحاء العالم بين الأحافير ومتاحفهـــا، فكانت نتيجة ذلك كله ما أثبته في موســـوعته التي سماها **المهمة الكبرى**، وقد وثق فيها المعلومات بصورها، وسيأتي بيان ذلك في موضعه إن شاء الله.

ومثله عالم النبات الســـويدي **هيربت نيلســـون** (**Hirbert Nilsson**) الذي أمضى أربعين عامًا في تتبع الأحافير، وقد صدمته النتيجة إذ اكتشـــف عكس ما كان يأمل، وصرح بذلك مبديًا أسفه الشديد، كما سيأتي إن شاء الله.

على أنّ مـــن بين الذيـــن انتقدوها من لـــم تكن له أي علاقـــة بأي دين كالدكتور **مايـــكل دانتون** الذي اشـــتهر بأنه ملحد من فئة الـــلاأدري، ولكنه أخلص للبحث فيها فانتهى إلى أنها في أزمة، كما أثبت ذلك في كتابه **التطور نظرية في أزمة**، ثم بعد دراسة واسعة استغرقت منه ثلاثين عامًا أتبع كتابه هذا

بكتاب آخر عنوانه **التطور نظرية ما تزال في أزمة**، وقد عرفت من بعض ما تقدم كيف نقدها الناقدون من الباحثين المتجردين في الغرب، وكذلك في الشرق، وهم غير مسلمين فكيف تبقى هذه العقدة في بعض المسلمين بحيث لا يجرؤن على نقدها وردها، وكيف تفوت هذه الحقيقة أمثال الدكتور البار في سعة مداركه وعمق بحثه وإخلاصه في الدفاع عن الإسلام! فإنّ نقد الداروينية من أساسها هو حلقة مفقودة في منظومة أعماله الجلى في الدفاع عن الحق، وتصديه لكل ما يناقضه، كما هو واضح فيما ألّفه في المجالات الفلسفية والعلمية والأخلاقية والاقتصادية وغيرها، فكم نتمنى أن يسارع إلى إنجاز هذه الحلقة لتنتظم في سلسلة أعماله المشهود لها بالتفوق والنجاح.

هذا؛ وإذا كانت عند الغربيين ظروف ألجأتهم إلى قبول هذه النظرية على علاتها، وفرضها فكريًا وفلسفيًا وهي ما يعانونه من عقدة نفسية من التدين، لأنهم يتراءى لهم من ورائه شبح الكهنوتية التي تحرروا من سلطتها بقوة البحث العلمي، فمن أي عقدة يعاني المسلمون الذين رضخوا لهذه النظرية مع إفلاسها من كل حجة وظهور زيفها، وإخفاق داروين وأتباعه في وصولهم إلى ما يعززها من الأحافير؟ إذ دلت سجلات الأحافير جميعًا على أنها ليست من الصحة في شيء، وهذا ما صرحت به وكالات الأنباء الغربية، وبثته القناة الأمريكية المشهورة (CNN) فيما بثته أخيرًا باللغة العربية، وسيأتي إن شاء الله بيانه.

وقد تقدم إيراد كثير من النصوص عن الباحثين الغربيين تؤكد ما ذكرته من كون هذه النظرية لا يوجد ما يدعمها علميًا بحال، وإنما يتمسكون بها من أجل هذا الغرض الذي سبق ذكره.

ومن أشد ما يعجب منه أن يصل الأمر ببعض من يتعصب لهذه النظرية من المسلمين إلى قولهم بأن القرآن الكريم يعززها ويدعمها..! وأن يتأولوا

الآيات القرآنية بكل ما يتصورونه ممكنًا حتى تتفق معها، ولو كان ذلك بلي أعناقها وإخراجها عن سياقها، وتفريغها من معانيها، وهذا الذي دعا المخلصين من أبناء الأمة إلى التعرض لذلك بكل حزم وعزم، كما كان ذلك من الباحث محمود بن محمد المختار الشنقيطي في كتابه القيم **الداروينية حين تتحزم بالقرآن المفكر حاج حمد أنموذجا.**

وقد أورد في كتابه هذا كثيرًا من المغالطات التي كانت من المفكر المذكور الذي يرد عليه، من ذلك تفرقته بين مفهوم البشر، ومفهوم الإنسان حيث يصور أنّ البشر مخلوقات هي أقرب إلى البهائم أو هي بهائم، وأن منها كان تطور الإنسان حين نفخ الله سبحانه فيه من روحه، وحكى عنه أنه قال: (قد أدى نفخ الروح الإلهي في آدم إلى ضرورة تميزه العقلي والسلوكي عن البهيمية البشرية لأولئك الذين احتجت الملائكة على سلوكهم.. (...) وقتها لم يكن آدم قد خلق بعد، فوجوده لاحقًا كان بغيب يعلم الله ميقاته، فلما انكشف الغيب عن هذا الميقات ولد آدم من أبوين بشريين حيث نفخ الله فيه الروح، وعلمه الأسماء).

وقد خلص من ذلك إلى القول: (آدم هو أبو الناس وأول إنسان، وليس أبا البشر بل خلق من بشر، فله والدان من البشر خلق منهما..!!).

وبذلك يتوصل إلى التطور المزعوم من بشر إلى إنسان في خلق آدم نفسه..!.

ثم ذكر تلخيص هذه الفكرة عن محمد الشحرور، فقال: «ويرى الباحث الكريم أن هناك جنسًا بشريًا وجنسًا إنسانيًا، وهو آدم أبو الجنس الإنساني لا البشري، والروح التي حولت البشر إلى إنسان أي نقلته من المملكة الحيوانية إلى كائن عاقل واع، فقبل آدم (كان ثمة صنف من المملكة الحيوانية

يدعى البشر، ثم اصطفى الله آدم وزوجه من ذلك الصنف ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ﴾ [آل عمران: ٣٣] لقد نفخ الله الروح في البشر فتحول إلى إنسان وتطور وتقدم ولم ينفخ الروح في القرود، فبقيت كما هي)»[1].

وقد كشف زيف هذا الكلام بما حاصله؛ أنّ الصفة البشرية ملازمة لكل إنسان ناهيك أنّ الله ﷻ وصف بها أفضل خلقه، ومصطفاه من رسله، إذ قال: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِين مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٤]، بل أمره أن يعلن بشريته في قوله: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ [الكهف: ١١٠]، وقوله: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٣]، ومعنى هذا أن النبي ﷺ في حال ما كان يوحى إليه لم يتجاوز مرحلة البشرية، مع أنّه هو الصفوة من بين الناس جميعًا، ولا يخفى أنّ الذين كان يخاطبهم برسالته هم من ذرية آدم، وقد جاؤا بعده بما لا يحصى من القرون، وقد أثبت الله سبحانه بشريتهم جميعًا، إذ نص على بشرية جميع الرسل في نحو قوله: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٤]، ومثل ذلك ما ذكره من اعتراض فرعون وآله على رسالة موسى وهارون عليهما السلام، عندما حكى عنهم ذلك في قوله: ﴿فَقَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ﴾ [المؤمنون: ٤٧]، وهي التي أنكرها المفكر المذكور بعد نفخ الروح في آدم.

على أنّ النص القرآني صريح في كون أبي البشر عندما نفخت فيه الروح لم يتحول إلى جنس آخر من غير جنس البشر، كما هو واضح في قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ۝ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ [ص: ٧١ ـ ٧٢]، على أنك تجد في القرآن ما هو صريح في كون لفظي

---

(١) الشنقيطي؛ محمود بن محمد المختار: الدراوينية حين تتحزم بالقرآن، المفكر حاج حمد أنموذجًا، ص ٢٧ ـ ٢٨، مركز الفكر المعاصر، دار الوعي للنشر والتوزيع ـ الرياض، ط ١: ١٤٣٧هـ/٢٠١٦م.

الإنسان والبشر يتعاقبان على مفهوم واحد، فكما ذكر الله تعالى في آية ص أنه خلق بشرًا من طين، ذكر في آية الحجر أنّ الذي خلقه من الطين هو عين الإنسان، عندما قال: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ۞ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ۞ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ۞ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴾ [الحجر: ٢٦ ـ ٢٩]، بل امتناع إبليس عن السجود لآدم عليه السلام كان معللًا بكونه بشرًا، وهو صريح في قوله تعالى: ﴿ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾ [الحجر: ٣٣]، فأين هذه التفرقة المزعومة بين الجنسين حتى يعد أحدهما هو الأصل للآخر؟[1].

وقد تعقب الشنقيطي هذا الذي قاله المفكر بقوله: «لا شك أن هذا الكلام لا يمثل براهين علمية، ولا أدلة عقلية، ولا علاقة له ـ أصلًا ـ بأي منهج علمي، وهو من ثَمَّ لا يحمل أيَّ احترام لعقل القارئ وفكره (...) أما الآية التي أوردها المؤلف وكأنها شاهد على أنّ الله اصطفى آدم من المملكة الحيوانية، وهي قوله عز وجل: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ ﴾، فقد بترها ولم يكملها وهي كاملة: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [آل عمران: ٣٣]، وهي واضحة الدلالة، فهل كان نوح أيضًا وآل إبراهيم وآل عمران في المملكة الحيوانية المسماة بالبشر، ثم اصطفاهم الله من ذلك الصنف؟!!.

بل نقول هل كان نوح وآل إبراهيم وآل عمران يمثلون أطوارًا ثابتة في الاصطفاء من المملكة الحيوانية المسماة (البشر) بعد آدم عليه السلام على النحو الذي كان عليه انتقاء آدم نفسه، برعاية الأزمان السحيقة الفاصلة بين هؤلاء

---

(١) ينظر: المرجع السابق، ص ٢٨. «بتصرف وزيادة بيان»

الأنبياء الكرام، مما يعني استمرار وجود البشر بالتوازي مع وجود الإنسان! فهل المسألة إذن مسألة تطور نوع وفناء نوع بقانون التطور في الصراع والبقاء، أم انتقاء دوري للإنسان من ديمومة ثابتة للبشر؟ فأين هؤلاء البشر اليوم إذن؟ وقد استمر الوحي يذكرهم إلى عهد تنزيل القرآن؟.

وعلى كل حال.. يثير كثير من مثقفينا تساؤلات حول مهاجمة أطروحات المجتهدين الجدد.. وأنّ ذلك يدل على مصادرة للاجتهاد، وتجديد الفكر الديني.. والذي حصل فعلًا هو أنّ كثيرًا من المثقفين يصادرون حق من يرد على تلك الاجتهادات.. فليس لدينا في الإسلام (رجال دين).. مفكر (اجتهد) وإن كان في غير تخصصه فرد عليه آخرون.. أليس هذا من أبسط حقوقهم؟!»[1].

هذا؛ وأنت ترى في النص القرآني ما يقطع بإبطال دعوى أنّ آدم خلق من أبوين، سواء كانا من البشر كما يزعم الحاج، أو من جنس آخر، فهو يشترك مع عيسى المسيح عليه السلام في كونهما خلقا من غير أبوة وإنما زاد آدم على المسيح عليه السلام بأنه خلق من غير أب وأم، وفي هذا يقول تعالى: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [آل عمران: ٥٩].

ومما يجب التفطن له أنّ نظرية النشوء والارتقاء وما يصحبها من فكرة الانتخاب الطبيعي، وبقاء الأقوى، وزوال الأضعف، كانت هي المتكأ الذي اتكأ عليه جميع الذين مارسوا الجرائم ضد الإنسانية، وسوغوها من أجل تعزيز عنصريتهم البغيضة، فما من فئة مارست هذه الجرائم إلا وكانت هذه النظرية هي قاعدتها التي تنتطلق منها في ممارساتها، بدءًا بالاستعمار الغربي، الذي اجتاح الشعوب، وأباد ما أباده منها، واغتصب أراضيها، واستأثر بثرواتها

---

(١) المرجع السابق، ص٢٩ ـ ٣٠.

وخيراتها، ولم يعدَّ ما عدا عنصره من عناصر البشر إلا قطعانًا من الماشية أو صنوفًا من الحشرات، فإنه في جميع ممارساته كان يستند إلى ما يجده لعنصره من ميزة تخوله أن يبيد العناصر الأخرى لأجل مصلحته، لأن البقاء للأصلح وهو الأقوى والفناء لما عداه، ثم جاءت بعده الشيوعية المسعورة بجرائمها الموحشة ضد جميع فئات البشر، وما كانت تبالي في إبادة الناس من أجل تمكين سلطانها في الأرض، وبسط نفوذها في الأمم، وقد تغذت بمبادئ النشوء والتطور حتى تخمت بها، على أنّ فكرة البقاء للأصلح وذهاب ما دونه إلى الجحيم كانت تمارسها حتى فيما بين أنصارها، فما كانوا يألفون أن يبيد بعضهم بعضًا، بل كان المتسلط منهم سرعان ما يقضي على من هو من أقرب بطانته ومن أعز أنصاره لأجل استئثاره بالنفوذ.

ثم ظهرت في الميدان النازية بأحقادها الجهنمية، وخططها المسعورة، التي تقضي بإبادة كل عنصر يختلف عن عنصرها، كما تقضي على كل من يقف في سبيلها فكانت شبحًا مخيفًا أرعب الكل، ولذلك لجأ أصحاب المبادئ المتناقضة والسياسات المتباينة إلى انضمام بعضهم إلى بعض، وتشكيل جبهة واحدة في مقاومتها، فاتحد ضدها الغرب الرأسمالي والقوى الشيوعية من أجل درء خطرها عنهم، وما كانت النازية في عنصريتها المقيتة إلا صورة مما رسمته نظرية النشوء والارتقاء في خريطة أفكارها.

وأخيرًا ظهرت على الساحة الصهيونية البغيضة الحاقدة على الإنسانية بأسرها، التي لا تعدو قيمة البشر في موازينها أن تكون أدنى وأسوأ من قيمة الحشرات السامة، فلذلك لا يحسبون أي حساب لحقوق الإنسان، وهم في سبيل إرواء سعارهم الجنوني لا يبالون بإبادة شعب وسلبه كل ما يملكه، وتجريده من كل ما يحق له، ولا يخفى أنّ هؤلاء هم أساس فكرة النشوء والارتقاء، ومصدر إلهامها، وقد استغلوها أسوأ استغلال للوصول إلى مآربهم

الدنيئة، وكانوا وراء انتشارها في الأرض وفرضها على الأفكار عنوة بما لهم من نفوذ في عالم السياسة والثقافة، وما يملكونه من وسائل لتوجيه الإعلام العالمي، وقد استطاعوا بدهائهم ومكرهم أن يستقطبوا الدول الكبرى ذات السياسة المؤثرة في العالم، لتدور في فلك سياستهم غير عابئة بنتائج ذلك الوخيمة على العالم بأسره، فإنّ للصهيونية مشروعًا توسعيًا عالميًا يشمل جميع أرجاء العالم الذي يسعون إلى ازدراده جميعًا حسب خططهم التي وضعوها، في مؤتمرهم الذي عقدوه بمدينة (بال) بسويسرا قبل نحو قرن وربع من الآن، وقد سبق ذكره.

وليت شعري؛ هل هؤلاء الذين يدعمون الآن مشروعهم ويمدونهم بالوقود لإشعال نار فتنتهم في البلد التي احتلوها، هل سيكونون بمأمن من لفح هذه النار لهم عندما يتم لهم تنفيذ خطتهم ضد العالم لا قدر الله ذلك؟!.

وإذا كانت فكرة داروين هي مصدر هذه الشرور التي لفح العالم سعيرها، فهل من حقها أن تساند وتدعم من أي أحد من فئات الناس؟ فضلا عن المسلمين الذين يحملون إلى العالم رسالة الرحمة والخير والأمن والسلام؟!.

هذا؛ وكما وجد من المسلمين من انساق انسياقًا من غير تروٍّ ولا استبصار وراء هذه الفكرة، وألقى بثقله في الدفاع عنها، كذلك نجد من علماء الطبيعة ـ الذين ساقهم بحثهم المجرد الموضوعي إلى الاقتناع بأن وجود الله تعالى وخلقه للوجود وتصريفه للكون من أبرز الحقائق التي تجليها مشاهد الوجود وتدعمها العلوم الطبيعية ـ من ينساق أيضًا وراء هذه النظرية! ولا يراها مناقضة للإيمان بالله!! ومن هؤلاء الدكتور **إدوارد لوثر كيل** الأخصائي في علم الحيوانات والحشرات، فبعد أن أثبت بالحقائق العلمية ضرورة أن يكون هذا الكون راجعًا إلى خلق الله تعالى، وردّ على الشكّاك في ذلك بما فيه مقنع لمن كان له قلب، أخذ يسوغ نظرية التطور..! ويراها أنها لا تنافي الإيمان بالله

تعالى فكان مما قاله في ذلك في مقاله الذي عنونه ب**فلننظر إلى الحقائق دون ميل أو تحيز** وهو المقال الخامس في سلسلة المقالات التي جمعها كتاب **الله يتجلى في عصر العلم**:

«وكما ينبغي أن يتدبر العالم المتفتح العقل وجود الله ويسلّم به، فإنّ غير المشتغل بالعلوم ينبغي له أن يفحص هو أيضًا الأدلة ويدرك أنّ التطور الإبداعي هو وسيلة الخالق في خلقه، وأن الله هو الذي أبدع هذا الكون بقدرته وسن قوانينه الطبيعية؛ فالخلق الإبداعي هو التفسير الوحيد الذي يوضح لنا سر هذا الوجود، ويوفق بين ظواهره المختلفة التي يبسطها لنا كتاب الطبيعة التي نقرأ صفحاتها في جميع العلوم المختلفة؛ من علم التصوير العضوي (المورفولوجية) ووظائف الأعضاء، والأجنة، والكيمياء العضوية، والتوريث والأحافير، وتصنيف الأحياء، والجغرافية الحيوانية، إلخ.

والانتخاب الطبيعي هو أحد العوامل الميكانيكية للتطور، كما أنّ التطور هو أحد عوامل عملية الخلق، فالتطور إذن ليس إلا أحد السنن الكونية أو القوانين الطبيعية، وهو كسائر القوانين العلمية الأخرى يقوم بدور ثانوي، لأنه هو ذاته يحتاج إلى من يبدعه، ولا شك في أنه من خلق الله وصنعه، والكائنات التي تنشأ بطريق عملية الانتخاب الطبيعي قد خلقها الله أيضًا، كما خلق القوانين التي تخضع لها، فالانتخاب الطبيعي ذاته لا يستطيع أن يخلق شيئًا، وكل ما يفعله هو أنه أحدى الطرق التي تسلكها بعض الكائنات في سبيل البقاء أو الزوال عن طريق الحياة والتكاثر بين الأنواع المختلفة، أما الأنواع ذاتها التي ينمو فيها هذا الانتقاء فإنها تنشأ عن طفرات تخضع لقوانين الوراثة وظواهرها، وهذه القوانين لا تسير على غير هدى ولا تخضع للمصادفة العمياء، كما يتوهم الماديون أو يريدوننا أن نعتقد.

إنّ الطفرات أو التغيرات الفجائية ليست مجرد خبط عشوائي ـ كما يدّعي بعض الباحثين ـ لفترة طويلة من الزمان، فالطفرات التي تحدد أحجام الأعضاء مثلًا قد تؤدي ـ كما ثبت من بعض البحوث الحديثة ـ إلى صغر حجم الأعضاء المختصة، والانتخاب الطبيعي الذي يعتمد على الطفرات التي تتم بمحض المصادفة لا يقضي إلا على الأعضاء الضارة، ومع ذلك فإننا نشاهد أنّ الأعضاء المتعادلة التي ليس لها ضرر ولا نفع تتضاءل هي الأخرى، مما يثبت أنّ الطفرات ليست دائمًا عشوائية، وأنّ التطور لا يعتمد على المصادفة العمياء، وعلى ذلك فإنّه لا مفر من التسليم بأنّ هنالك حكمة وتدبيرًا وراء الخلق ووراء القوانين التي توجهه، ولا مفر كذلك من التسليم بأنّ التطور ذاته قد صمم بحكمة، وأنه يحتاج هو أيضًا إلى خالق يبدعه.

ولا يتسع المقام لسرد أدلة أخرى لبيان الحكمة والتصميم والإبداع في هذا الكون، ولكنني وصلت إلى كثير من هذه الأدلة فيما قمت به من البحوث المحدودة حول أجنة الحشرات وتطورها، وكلما استرسلت في دراستي للطبيعة والكون، ازداد اقتناعي وقوي إيماني بهذه الأدلة، فالعمليات والظواهر التي تهتم العلوم بدراستها، ليست إلا مظاهر وآيات بينات على وجود الخالق المبدع لهذا الكون، وليس التطور إلا مرحلة من مراحل عملية الخلق.

وبرغم أنّ صيحات الماديين والطبيعيين قد حجبت كثيرًا من الباحثين الأمناء عن الحقيقة، فإنّ فكرة التطور الخلقي لا يمكن أن تكون منافية للعقيدة الدينية، بل على النقيض من ذلك نجد من الحماقة والتناقض في الرأي أن يسلّم الإنسان بفكرة التطور ويرفض أن يسلم بحقيقة وجود الخالق الذي أوجد هذا التطور.

لقد عاش منذ عهد أوجستين العظيم في القرن الرابع حتى اليوم كثير ممن آمنوا بالله ورفضوا فكرة الخلق بمعنى الصناعة، وقبلوا فكرة الخلق على

أساس التطور، والواقع أنه بالنسبة لهؤلاء ـ وأنا من بينهم ـ نجد أنّ للتطور أهمية من الناحية الدينية، فهو يقود العقل الأمين المتجرد من التحيّز إلى فكرة وجود الله تعالى.

وأعود فأقول: إنّ دراسة العلوم بعقل متفتح تجعل الإنسان يسلم بضرورة وجود الله والإيمان به»[1].

وهكذا ترى أن الدكتور **لوثر كيل** لا يجد فرقًا بين الإيمان بالله والإيمان بفكرة التطور بما تشتمل عليه من فكرة الطفرات والانتخاب الطبيعي، ولكن كان على خلافه في ذلك نظيره **وولتر إدوارد لاميرتس** الإخصائي في علوم الوراثة بجامعة **كاليفونيا** فقد انتقد فكرة التطور في مقاله الذي عنونه بـ**ما وعاه ابن صاحب البستان** وهو المقال الرابع عشر في سلسلة المقالات المجموعة تحت عنوان **الله يتجلى في عصر العلم** وسنذكر إن شاء الله في موضعه ما أبطل به نظرية التطور.

وأنتم ترون في كلام **لوثر كيل** ما ذكره أن التطور الإبداعي هو وسيلة الخالق في خلقه، وأنتم تعلمون أن الخالق قد كان ولم يكن لغيره وجود معه، لأنه سابق على كل شيء، فالوسائل كغيرها من مخلوقات الله تعالى أوجدها لعباده، وإنما خلق الخلق بغير وسيلة لأنه الغني على الإطلاق، فلا يفتقر إلى شيء سواه، تعالى الله علوًا كبيرًا، وإنما جعل الله ﷻ نوعًا من التطور سنة من سنن الخلق، كما ذكر ذلك الدكتور **كيل** بنفسه في قوله في النص السابق: «فالتطور ليس إلا إحدى السنن الكونية أو القوانين الطبيعية، وهو كسائر القوانين الطبيعية الأخرى يقوم بدور ثانوي، لأنه هو يحتاج إلى من يبدعه، ولا شك أنه من خلق الله وصنعه».

---

(١) نخبة من العلماء الأمريكيين: **الله يتجلى في عصر العلم**، فانظر إلى الحقائق دون ملل أو تحيز، ص ٣٤ ـ ٣٦.

وأنت تدري أنه يفرق بين تطور وتطور، فالمخلوقات تنشأ متقلبة من طور إلى طور وفق حكمة الله تعالى، ولكنها لا تخرج عن كون كل منها يتطور مترقيًا إلى أن يصل إلى حده الأعلى الذي كتبه الله تعالى له، فالجنين من البشر يتدرج في مدارج التطور من نطفة إلى علقة إلى مضغة مخلقة وغير مخلقة، حتى يكتمل خلقه، وهناك تنفخ فيه الروح، فيكون خلقًا آخر بسريان هذا السر الإلهي فيه، ولكنه في هذا لا يخرج عن الجنس الإنساني إلى جنس آخر، ولا يكون في بداية أمره من جنس غير الجنس البشري، فهو منذ أن خلقه الله تعالى من طين ونفخ فيه من روحه صار بشرًا سويًا، ولكن حكمة الله تعالى اقتضت أن يكون التناسل في أعقاب الإنسان الأول بهذه الأطوار المذكورة، حتى يخرج من ضيق الرحم إلى فضاء الأرض، وهو بشر أودعت فيه جميع الخصائص البشرية.

ثم يأخذ بعد ذلك في النمو، نمو الجسم ونمو الحواس والمدارك شيئًا فشيئًا، حتى يصل إلى الطور الأعلى في النمو، وهو بلوغ الأشد الذي ذكره الله تعالى في قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرۡبَعِينَ سَنَةٗ قَالَ رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنۡ أَعۡمَلَ صَٰلِحٗا تَرۡضَىٰهُ﴾ [الأحقاف: ١٥]، وبعد هذا تبدأ مرحلة الانتكاس والرجوع إلى الضعف بعد القوة، كما قال تعالى: ﴿وَمَن نُّعَمِّرۡهُ نُنَكِّسۡهُ فِي ٱلۡخَلۡقِۖ أَفَلَا يَعۡقِلُونَ﴾ [يس: ٦٨]، وقال سبحانه: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعۡفٖ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعۡدِ ضَعۡفٖ قُوَّةٗ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٖ ضَعۡفٗا وَشَيۡبَةٗ﴾ [الروم: ٥٤]، وقال أيضًا: ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡ لَا يَعۡلَمَ بَعۡدَ عِلۡمٖ شَيۡـٔٗا﴾ [النحل: ٧٠].

ولا ينكر أحد هذه الأطوار التي يمر بها الإنسان في مراحل تكوينه، ولا في مراحل نموه إلى حد استوائه، ولكنها تختلف تمام الاختلاف عما يتصوره التطوريون من تحول الإنسان من صنف من أصناف الحيوانات إلى أن يكون إنسانًا متميزًا.

وبجانب هذا الذي ذكرته، فإنّ الدارسين للحمض النووي يفرقون بين نوعين من أنواع التطور، وهما التطور الصغير الذي ليست فيه مشكلة علمية أو دينية وبين التطور الكبير الذي ترتب عليه الشقاق الواسع والنزاع العريض، وهم يقصدون بالتطور الصغير «أنه عندما يتم التلاقح بين الذكر والأنثى من نفس النوع، فإنّ ذريتهما يكون لها نفس تركيب الحمض النووي، وتنتمي إلى نفس النوع، لكن صفات هذه الذرية تختلف عن كل من الأبوين، فلا تكون صورة طبق الأصل من الأب أو الأم بل هجين بينهما، وهذا يعني أنّ التطور الصغير يشير إلى التنوع والاختلاف داخل النوع الواحد من الكائنات الحية، وإلى التنوع والاختلاف داخل نفس تركيب الحمض النووي.

ولا بد من التنبيه بأنه يقصد بتركيب الحمض النووي الذي يميز نوعًا معينًا أنّ الحمض النووي للشريط الوراثي له نفس طول الهيكل البنائي، ونفس منظومة الجينات ومواضعها، لكن النيوكليوتيدات في الجين الواحد قد تختلف لتعطي صفات مختلفة وأنماطًا مختلفة من هذا الجين، ومثال ذلك الجين المسئول عن لون العينين، فقد يحمل اللون الأسود أو الأزرق أو الأخضر أو العسلي... إلخ، لأجل هذا قد يكون كائنان متماثلين أو مختلفين قليلًا أو مختلفين اختلافًا واسعًا، رغم انتمائهما لنفس النوع.

فالكلاب مثلا نوع من الحيوانات ولكن قد يحدث تطور صغير عند تزاوج الذكر والأنثى ـ سواء في الطبيعة أو في أنبوبة اختبار ـ فتتولد منهما ذكرية قادرة على التكاثر بدورها، وذلك أنّ الحمض النووي للأولاد يكون خليطًا من الحمض النووي للأب أو الأم، فهم يحصلون على شريط من الأب وآخر من الأم، ليكون الشريط الوراثي المزدوج الذي سيكون له نفس التركيب الحمض النووي للأبوين، والذي يميز نوع الكلاب ورغم كون هذه الذرية مختلفة عن أصليها إلا أنها تحمل نفس تركيب الحمض النووي وتنتمي لنفس النوع.

وهذا يعني أنّ التطور الصغير لا يخلق أنواعًا جديدة، لكنه يترتب عليه خلق أفراد جديدة من نفس النوع أو سلالات جديدة داخل النوع الواحد، وهؤلاء الأفراد أو تلك السلالات لها نفس التركيب الحمض النووي، وتنتمي لنفس النوع، قد يكون للذرية ألوان مختلفة أو أحجام مختلفة أو أشكال مختلفة لكنها ستظل كأصلها كلابًا من نفس نوع الكلاب، وسيظل لها نفس تركيب الحمض النووي بكل خصائصه ومواصفاته المميزة للنوع، وكذلك في سائر الأنواع.

فعندما نرى خصائص ظاهرية وسمات مميزة لمجموعتين من الحيوانات التي تحوي نفس التركيب الحمض النووي، فإننا نشير إليهما بأنهما سلالتان مختلفتان، كالكلب الدينماركي الضخم والكلب الصغير الشيواوا، فهما سلالتان مختلفتان من نوع الكلاب ولكن لها نفس تركيب الحمض النووي، وإن اختلفت في تركيب النيوكليوتيدات في الجينات داخل هذا التركيب، وقد يكون الجين في الشريط الوراثي غاية في الطول، لكنه يتكون من أربعة أصناف من النيوكليوتيدات في الحمض النووي.

ويؤدي التطور الصغير إلى وقوع تغير في تركيب النيوكليوتيدات داخل الجينات، مما قد يؤدي إلى ظهور صفات مختلفة مثل تغير لون الفراء في الكلب، لكن طول الجين وعدد النيوكليوتيدات فيه يظل ثابتًا كما هو.

وهذا يعني أنّ التطور الصغير هو عبارة عن تغير يقع في المظهر الخارجي أو الوظائف الحيوية، أو القدرة على التكاثر، أو تتابع النيوكليوتيدات داخل الجين الواحد، لكنه لا يشمل التغير في تركيب الحمض النووي المميز للنوع، وبينما يقوم تركيب الحمض النووي يقوم تركيب النيوكليوتيدات داخل الجينات بتحديد التنوع والاختلافات بين سلالات النوع الواحد، وهو المقصود بالتطور الصغير.

والخلاصة؛ أنه مع التطور الصغير لا توجد أنواع جديدة، ولكن توجد سلالات جديدة، لأن نشوء أنواع جديدة يتطلب وقوع التغير في تركيب الحمض النووي نفسه، كما سيأتي بيانه إن شاء الله.

وباختصار فإنّ مصطلحات النوع وتركيب الحمض النووي والتطور الصغير كلها تدور حول نفس الشيء وهو نفس النوع أو نفس تركيب الحمض النووي، فقد يبدو على كائنين على وجه الأرض أنهما مختلفان ظاهريًا وإن كانا من نفس النوع، وهذا يعني أنهما ينتميان لسلالتين مختلفتين.

ومن المهم جدًا استيعاب مفهوم النوع الذي يملك جميع أفراده نفس تركيب الحمض النووي، لأن ذلك يقود إلى نقطة مهمة بخصوص الذرية التي يتحقق بها التكاثر، ولو كان التزاوج بين ذكر من سلالة وأنثى من سلالة أخرى؛ فإنّ ذلك لا يمتنع عليهما، لأن تركيب الحمض النووي عند تخصيب بييضة الأنثى بالحيوان المنوي الذكري سيكون متوافقًا، والشريط الوراثي يمكن نقل صفاته لأجيال أخرى مقبلة، ولكن هل ستكون هذه الفروع كمثل أصولها؟ لا يتحتم ذلك؛ فقد تشبه أحد الأبوين، وقد يشبه واحدًا منها أحدهما في صفة أو أكثر دون بقية الصفات، وقد تكون بعض صفات الذرية مختلفة تمامًا عن صفات أصليها، وباب الاحتمالات مفتوح على مصراعيه.

وللقائمين بتربية الحيوانات والطيور وغيرها خبرة كبيرة في تزويج السلالات المختلفة وتهجينها لإخراج سلالات ذات صفات معينة مميزة مخصوصة، ولكنهم يدركون أن هنالك حدودًا لهذا التهجين الانتقائي لعدم وجود جينات جديدة يمكن إضافتها من الخارج، وهم محكومون بالجينات المتاحة في تركيب الحمض النووي للنوع.

والقضية المحورية أنّ ما يتوالد عن تزاوج الذكر والأنثى من سلالتين مختلفتين لا يخرج عن نفس النوع، وله نفس تركيب الحمض النووي

كأصليه، وسيكون قادرًا على التوالد في الظروف الطبيعية، وستكون ذريته المستقبلية من نفس النوع، لكن لا يلزم أن تكون من نفس السلالة.

ويمكن أن توضع عصافير داروين (Darwin's finches) مثالًا على التطور الصغير، فهي تنتمي لنفس النوع وتمتلك نفس تركيب الحمض النووي، لكن كل سلالة منها تحمل صفات مختلفة على جيناتها مما أدى إلى وجود اختلافات بينها في العديد من الصفات، مثل حجم ولون الريش وقوة وشكل المنقار.

ويمكن أن ينطبق الانتخاب الطبيعي أو قانون البقاء للأصلح على هذه العصافير المختلفة نظرًا إلى وجود الاختلافات بينها، ومعنى ذلك أنّ هذا القانون يصلح في إطار التطور الصغير وحده.

وقبل اكتشاف الحمض النووي لم تكن هناك وسيلة للتمييز بين التطور الصغير والتطور الكبير، ولهذا كانت عصافير داروين تتخذ أمثلة على صحة التطور في أيام داروين، أما بعد اكتشاف الحمض النووي، فلا يمكن أن تصنف إلا أنها أمثلة على التطور الصغير، فهي تقع في نفس النوع، لأن الحمض النووي فيها لا يختلف إلا في إطار التطور الصغير، وهذا مما يجب أن يتنبه له، فإنّ هذا التطور في أيام داروين كان هو الذي يطلق عليه اسم التطور، لأن الحمض النووي كان مجهولًا، ومصطلح التطور الصغير لم يظهر للوجود.

ويمكن لاختلاف تتابعات النيوكليوتيدات أن يوجد أحجامًا وأشكالًا ووظائف مختلفة لمناقير العصافير، وأنماطًا وألوانًا مختلفة للريش وغيرها من الاختلافات، لكنه لا يمكنه خلق نوع جديد تمامًا، لأن كل عصفور سيكون له نفس تركيب الحمض النووي.

ولعل التطور الصغير يمكن أن يؤدي إلى إمكانيات أفضل للبقاء والتكيف، ثم يقوم الانتخاب الطبيعي بعمله على التطور الصغير، حسب مفهوم البقاء للأصلاح، وقد أخطأ داروين في اعتبار العصافير أنواعًا مختلفة لأنه توفي قبل اكتشاف الحمض النووي، ولم يجد مصطلحًا يصلح لوصف المشاهدات إلا التطور.

ولو أمكن أن توضع أنواع مختلفة من الحيوانات ذكورًا وإناثًا على كوكب بعيد يحوي الهواء والغذاء وتركها ملايين السنين، فإنّها عندما يعاد إليها يمكن أن تكون قد تكاثرت وتنوعت إلى العديد من الأشكال والأحجام والألوان، ولكن كل نوع من الحيوانات سيكون له نفس التركيب وطول الحمض النووي الذي كان عليه أسلافه السابقة، وسيكون الحمض النووي بنفس الحجم والطول والوظائف المتقدمة، ولكن سيقع التنوع والاختلاف داخل الجينات، وليس في طول الحمض النووي أو تركيبه»[1].

وإذا كان أقصى ما يمكن أن يتم بجهود الإنسان هو التطور الصغير، وذلك باختيار السلالات المختلفة لاستخلاص هجين من بينها، فهل يمكن أن يقال بأن ذلك دليل على إمكان التطور الكبير المدعى، بحيث يتأثر الحمض النووي تأثرًا جذريًا، يترتب عليه انتقال النوع إلى نوع آخر مع تطاول الزمن وتأثير الطفرات أو الانتخاب الطبيعي كما يدعى؟؟!.

«إنّ الحقائق هي التي تؤكد إما إمكان ذلك أو تعذره، فالتطور الكبير لم يسبق رصده أو رؤيته في الطبيعة أو حتى في معامل الاختبار، وإنما هو مفهوم نظري افتراضي، يشير إلى نشوء أنواع جديدة بنشوء تركيب جديد مختلف للحمض النووي، ويدعي التطوريون أنّ التطور الكبير وقع ملايين المرات

---

(١) د. هشام عزمي: التطور الموجه، ص٣١ ـ ٣٧. «بتصرف»

على كوكب الأرض، لكنهم لم تسبق لهم رؤيته واقعًا، سواء في الطبيعة أو في المعمل، ولا يستطيعون أن يصوروا كيف حدث، وإنما كل ما في إمكانهم هو التخمين أن يكون قد حدث، وهذا لا يعني أنه حقيقة.

وقد اعترف العالم الداروينى **ثيودوسيس دوزانسكي** (**Theodosius Dobzhansky**) بأنه لا يوجد دليل متين يربط التطور الصغير بالتطور الكبير، ولا توجد طريقة لفهم آليات التطور الكبير التي تحتاج للزمن بالمقاييس الجيولوجية إلا من خلال تعميمهم آليات التطور الصغير المشهودة في فترة حياة الإنسان، وانتهى به الأمر إلى أن يقول: (لهذا السبب فإننا مجبرون على وضع علامة مساواة بين آليات التطور الصغير وآليات التطور الكبير وفق معلوماتنا القاصرة الآن للمتابعة في أبحاثنا إلى أقصى حد يمكن أن تسمح به هذه الفرضية).

فهو كما ترى كان مضطرًا إلى هذا الافتراض مع عدم وجود دليل عليه، وهذا الافتراض محل جدل ونزاع، فعالم الوراثة **ريتشارد جولد شميت** (**Richard Goldschmidt**) احتج (بعدم كفاية التطور الصغير لفهم التطور الكبير) واستنتج أنه (لا يؤدي التطور الصغير إلى تجاوز حدود النوع الواحد، وأن الناتج النموذجي عن عمليات التطور الصغير ـ الأعراق المنتشرة على أراض مختلفة ـ ليست أنواعًا طليعية).

وكذلك كتب مجموعة من علماء الأحياء في مجلة **علم الأحياء النمائي** عام ١٩٩٦: (قد يكون علم الوراثة كافيًا لشرح التطور الصغير، لكن لا تصل التغيرات التطورية الصغيرة في تواتر الموروثات لحد تحول الزواحف إلى ثدييات، أو تحول السمك إلى برمائيات، يؤدي التطور الصغير إلى التكيف مع البيئة بما يعني البقاء للأصلح، ولا يعني ظهور الأصلح) وتوصلوا إلى استنتاج أنّ (أصل الأنواع ـ مشكلة داروين ـ تبقى مشكلة غير محلولة).

وكذلك كتب عالم الأحياء شون كارول (Sean Carroll) في مجلة ناتشر عام ٢٠٠١: (المشكلة العالقة في علم الأحياء التطورية هي كفاية العمليات المشاهدة في الجماعات والأنواع الحية ـ التطور الصغير ـ لتفسير التغيرات الكبيرة التي تجري في فترات طويلة من تاريخ الحياة).

واعترف بهذا د. أحمد شوقي ـ أستاذ الوراثة بجامعة الزقازيق ـ رغم أنه من المؤيدين لنظرية التطور بقوله: (إنّ المستويات الدقيقة الأصغر يمكن مشاهدتها وإحداثها، أما المستويات الأكبر ففرضياتها أكثر من حقائقها)»[1].

وكل هذا شاهد على أنّ هذه الافتراضات لم تبن على أصل علمي يمكن أن يستند إليه وكلما تقدمت الأيام وتطورت العلوم وتوسعت الاكتشافات اتضح إفلاس هذه الافتراضات، من أي دليل يمكن أن تستند إليه ما عدا التسليم الأعمى لهذه النظرية مهما اتضح إفلاسها وتبين زيفها.

وماذا عسى أن يقولوا في تفسير التطور الكبير الذي يزعمونه وكيف يحتملون وقوعه؟.

ذكروا لذلك احتمالات:

«**أولها**: أن يحدث عن طريق حدوث طفرة في الحمض النووي الخاص لأحد الأصلين أو كليهما، فيؤدي ذلك إلى نشوء ذرية ذات حمض نووي متطفر مختلف وجديد تمامًا بتركيب، ويكون قابلًا للحياة، وهذا هو أشهر ما يعولون عليه، ولكن لم يسبق أن رصده أحد أو لاحظه من قبل.

ثانيها: أن يحدث عن طريق تزاوج ذكر وأنثى من نفس النوع، فيكون الناشيء منهما ليس من نفس نوع أصليه، بسبب حدوث طفرة في تركيب

---

(١) المرجع السابق، ص٣٨ ـ ٤٠. «بتصرف»

الحمض النووي الخاص به بعد حدوث التخصيب، ومع ذلك يكون هذا الناشيء قادرًا على التلقيح والولادة في المستقبل، غير أنه لن يكون هناك حيوان آخر يشاكله في نفس تركيب الحمض النووي فيكون قابلًا على التزاوج معه.

ثالثها: أن يحدث عن طريق تزاوج ذكر وأنثى من نوعين مختلفين، ولكنهما متقاربان جدًا فيؤدي ذلك إلى نشوء ذرية لهما بتركيب حمض نووي جديد، ونشوء نوع جديد، وسيكون الناتج عنهما في هذه الحالة قادرًا على التزاوج من الجنس الذي يملك نفس الطفرة لا غير.

ما الذي يجمع بين هذه الاحتمالات الثلاثة؟.

لا بد فيها جميعًا من نشوء تركيب جديد للحمض النووي، بخصوص الأنواع التي تحوي ذكرًا وأنثى، فإنّ الحيوان الأول الذي يملك تركيبًا جديدًا للحمض النووي لن يجد ما يتزاوج معه، إلا أن يكون مما ينتمي إلى نفس الأبوين اللذين ينتمي إليهما.

وفي حال الاحتمال الثاني؛ فإنّ من المستحيل أن ينشأ عنه نوع جديد؛ لعدم وجود المقابل، الذي يتزاوج معه الحيوان الأول، لأن الطفرة والتغير في تركيب الحمض النووي حصلا بعد الإخصاب، ولا يمكن للتوائم المتماثلة حل هذه المشكلة، لأنها جميعًا ستكون من نفس الجنس، ذكرانًا أو إناثًا.

ومع ذلك فهناك نقطة أخرى محورية وهي أنّ الحمض النووي الجديد لا بد أن يحمل على الأقل جينًا واحدًا جديدًا وأن يكون فاعلًا ـ أي يقوم بخلق بروتين جديد نافع ومفيد وظيفيًا ـ وهذا هو السبب الأول في استحالة وقوع التطور الكبير، لأنه لا يكفي أن يوجد جين جديد مميز من النيوكليوتيدات فقط، بل لا بد أن يملك القدرة على تكوين بروتينات ذات وظيفة جديدة إضافية للكائن الحي، فنحن إذا بحاجة إلى جين واحد لتجوز

تسمية هذا الناشيء بأنه نوع جديد، ولن يكون نوعًا جديدًا حتى تكون له وظائف جديدة وهي تتطلب جينات جديدة أو جينًا جديدًا واحدًا على الأقل.

وإن لم يحتو التركيب الجديد للحمض النووي على ذلك فلن يكون نوعًا جديدًا، بل مجرد طفرة لأنه لم يضف إليه جين جديد، فيكون الشريط الوراثي أطول.

وبجانب ذلك فإنه لم يسبق رصد نشوء نوع جديد يمكنه أن يستمر على التوالد، وهو يحوي تركيبًا جديدًا للحمض النووي، وهذا يعني أنّ هذه الاحتمالات هي مجرد افتراضات لا أكثر، ولم يسبق أنّ أحدًا من الناس شاهد نشوء أي نوع جديد سواء في الطبيعة أو في المعمل عن طريق أي واحد من هذه الوسائل.

فإذا اعتبارنا نشوء نوع جديد، يعني نشوء حمض نووي جديد بجين جديد على الأقل، وفي هذه الحالة تكون كل هذه الاحتمالات نظرية لم يسبق حدوثها في الطبيعة ولا في المعمل، وسنرى عند تناول المشكلات الرياضية المرتبطة بحدوث التطور الكبير أن القضية كلها أوهام وضلالات.

في الاحتمال الأول تحدث الطفرات قبل التزاوج، وفي الاحتمال الثاني بعده، وفي الاحتمال الثالث يكون النوعان مختلفين أصلًا، لكنهما متقاربان جينيًا، فهما يتزاوجان وينتجان ذرية حية.

والفكرة المحورية في التطور الكبير هي نشوء تركيب جديد للحمض النووي، فيه على الأقل جين واحد جديد نافع وفعال وظيفيًا، أي بروتين وظيفي واحد أو أكثر.

وسيكون من المطلوب أن يكون الحمض النووي الجديد أكثر طولًا من القديم؛ بسبب إضافة الجين الجديد، وإذا وضعنا في الاعتبار أنه في حالة

التطور الصغير لم يؤد أبدًا إلى نشوء نوع جديد، لأنه لم يؤد إلى نشوء تركيب جديد لحمض نووي، ففي حالة التطور الكبير لا بد من تركيب جديد للحمض النووي، مما يعني أن توجد جينات جديدة أو أطول في تتابع النيوكليوتيدات، ويفهم من هذا أن طول الحمض النووي في حالة التطور الكبير سيزداد عما كان عليه فيما تقدم من الأصول، ومن الناحية النظرية يمكن أن يكون أقصر، ولكن التطوريين يقولون إنّ الفروع تكون أرقى وأفضل من أصولها، وهذا يتطلب وجود ميزات إضافية أي جينات إضافية.

ولم يسبق لأحد من التطوريين أنه ذكر نشوء أنواع أدنى من آبائها عن طريق التطور، والحقيقة أنه لم يسبق لأحد أن شاهد أو رصد نشوء نوع جديد أصلًا عن طريق التطور، سواء كان أرقى أو أدنى، وإنما يزعمون أنّ الأنواع الجديدة تكون أرقى من أسلافها، وبناء على ذلك أن الشريط الوراثي أطول لاحتوائه على المزيد من الجينات الجديدة التي تضيف ميزات إضافية جديدة للنوع الجديد.

وهذا كله يدور في إطار نظري محض لعدم رصده من قبل أي أحد، وعليه فإنه من غير المحتمل أن تؤدي أي حالة من هذه الاحتمالات إلى نشوء ذرية قادرة على الولادة والتكاثر والاستمرار.

وبجانب هذه المشكلة الإحصائية بسبب وقوع نفس الطفرات في كل من الذكر والأنثى، هناك مشكلات عملية، فالحمض النووي موجود في الخلايا الحية، فكل حيوان وكل نبات يحمل الحمض النووي الذي يميزه في خلاياه، بحيث تحوي خلايا الكائن نفس الحمض النووي وإنما يفرق بين هذه الخلايا في الكائن الواحد الجينات التي يتم تفعيلها، فهي تختلف من خلية لأخرى، فالجينات الفعالة في الخلية العصبية تختلف عن الجينات الفعالة في الكبد، وعن الجينات الفعالة في خلايا القلب، وهكذا.

ومعظم هذه الخلايا ليست لها علاقة بعملية التزاوج والتكاثر، وإنما الخلايا المتخصصة في عملية التكاثر هي الخلايا التي يكون حمضها النووي مؤثرًا في الأجيال التالية.

فالخلية الموجودة في الجلد أو في القلب أو في المخ لم يكن لها دور في التزاوج، ولذلك لا تؤثر أي طفرة فيها في الأجيال التالية، حتى لو كانت طفرة مفيدة نافعة وظيفية، فلكي ينشأ نوع جديد لا بد أن تقع الطفرة أو الطفرات في العدد المحدود من الخلايا المختصة بعملية التكاثر، فمن بين كل خلايا الجسم توجد نخبة قليلة ونادرة من الخلايا هي التي لا بد أن تقع فيها الطفرات الصحيحة لكي تنقلها إلى الجيل القادم، فحتى لو قعت هذه الطفرات في خلية بالجلد أو القلب أو الطحال أو أي خلية غير مختصة بالتكاثر فلن يكون لها أي تأثير على الجيل القادم.

والأنواع المشتملة على الذكر والأنثى لا بد أن تقع نفس الطفرة أو الطفرات في الحيوان المنوي الذكري والبييضة الأنثوية اللذين يتم وقوع التزاوج أو التخصيب بينهما ـ لا في أي حيوان منوي وأي بييضة ـ حتى تظهر الطفرة في الجيل التالي.

وهذا يعني أن تقع الطفرة في حيوان منوي معين وبييضة معينة، وهما اللذان يتم تزاوجهما دونما سواهما، فهل هذه الكيفية الموغلة في الندرة واللااحتمالية هي التي يمكن أن تكون الآلية الطبيعية لنشوء الأنواع الجديدة؟!!»[1].

وبكل هذا يتبين ـ بلا ريب ـ أنّ التطور الكبير ليس من المحتملات التي تدخل في حدود الإمكان، ولا يمكن أن يقاس على التطور الصغير؛ لما بينهما

(١) المرجع السابق، ص٤٠ ـ ٤٤. «بتصرف»

من فروق عدة، فلا يمكن أن يلـزا معًا في قرن، والتطـور الكبير هو التطور الداروينى نفسـه، وإثباته لم يبـن على دليل علمـي ولا تجريبي، وإنما هي افتراضات أملاها خيال يسـتمد من هوى النفوس إملاءاته، وكل الشـبه التي استند إليها التطوريون تبخر والحمد لله ضبابها بإشراق شمس الحقيقة عليها بوهجها القوي.

ضرورة الكشف عن أوهام ما تعلقت به النظرية التطورية:

لما ثبت لدينا الآن من بطلان هذه النظرية من أساسها؛ كان لزامًا علينا أن نبدد هذه الشبه، وأن نزيح عن صدور الناس هذا الكابوس الثقيل، الذي جثم عليها ردحًا من الزمن، ليتمكنوا من إلقاء نظرة سليمة إلى الموضوع، فيتمكنوا من تزييف الزائف، وتصحيح الصحيـح، ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴾ [الأنبياء: ١٨].

وعليه؛ فإنا نقول بأن من الضرورة لمن أراد أن يضع الحق في نصابه، أن ينظـر أولًا في الآيات التـي تحدثت عن خلق الإنسـان مجتمعة غير متفرقة، فقد ذكر الله تعالى خلق الإنسان في العديد من الآيات في بعضها ذكر آدم عليه السلام باسـمه الصريح، وفي بعضها اقتصر على ذكر الإنسان، ففي سـورة البقرة يقول تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ۝ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ [البقرة: ٣٠ ـ ٣٣].

وفي هذه الآيات ما لا يخفى من كون الخليفة المشار إليه إنما هو آدم وذريته، وقد عرض استخلافه في الأرض على الملائكة الكرام، فردوا بما ردوا به مستلهمين ما وصفوا به هذا الخليفة مما علمهم الله تعالى من طبعه وشأنه، والسياق يدل على أنّ آدم عليه السلام لم يكن مسبوقًا في هذه الأرض بأحد من جنسه، وإن كانت قبله خلائق قامت بعمارة الأرض، فإنّها من أجناس أخرى، وقد أراد الله تعالى أن تنقرض تلك الأجناس، ويأتي آدم وذريته ليخلفوهم في عمارة هذه الأرض.

وبيّن تعالى للملائكة الكرام بأن لآدم وذريته مزايا تؤهلهم للاستخلاف في الأرض، إذ جعلهم الله تعالى مهيئين لتلقي العلم، ومقتدرين على البحث في المعلومات، واستلهام نتائجها من مقدماتها.

ثم إنّ الله تعالى كرم آدم بأمره ملائكته أن يسجدوا له، كما قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [البقرة: ٣٤].

وقد ابتلي آدم وزوجه بوسوسة الشيطان، التي أدت بهما إلى نسيان عهد الله تعالى إليهما أن يتجنبا الأكل من شجرة معينة من أشجار الجنة، وقد فرض الله سبحانه وتعالى أن يكونا دائما على ذُكْرٍ من هذه المخالفة؛ ليزدجرا عن كل ما نهاهما الله تعالى عنه، فلذلك أخرجهما من الجنة إلى الأرض التي خلقا لعمارتها، وبيّن لهما أنهما لن يتركا وذريتهما سدى، وإنما سيتحملون تكاليف تأتيهم من قبل الله تعالى، وقد آذنهم بذلك في قوله: ﴿ قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [البقرة: ٣٨ ـ ٣٩].

وهذا مما يؤذن بأنهما أساس الوجود البشري في الأرض، إذ البشر جميعًا خلقوا ليضطلعوا بتكاليف، وليبوؤا بعاقبة ما يفعلونه من خير أو شر، وما

يكونون عليه من هـدى أو ضلال، وقد تعاقبت بعدهمـا إلى محيط الجنس البشري رسالات عدة، كان كثير منها مختصًا بطوائف من الناس، كما كان من إرسال هود إلى قومه عاد، وصالح إلى قومه ثمود، ولوط إلى قومه، وشعيب إلى مدين، وكانت هذه الرسـالات جميعًا موطئة للرسـالة الخاتمة التي تعم جميع العالمين، وهي التي بعـث بها النبي محمد عليـه وعلى آله وصحبه أفضل الصلاة والسلام، فهي تعم جميع الناس، كما قال الله تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ [الأعراف: ١٥٨]، وبيّـن تعالـى أنمـا أوتيه ﷺ إنمـا هو ذكر للعالميـن، فقد قال تعالـى: ﴿ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ [القلم: ٥٢]، وقال: ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنعام: ٩٠]، وقال: ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ [يوسف: ١٠٤]، وقـال: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴾ [الفرقان: ١].

وعليه؛ فإنّ كل ما في القرآن الكريم من خطاب للناس، أو امتنان عليهم فإنه يعم جميعهم، ولا يكون خاصًا بفئة منهم، كأهل مكة، أو العرب، ويتبين بهذا أن الخطاب الموجه إلى الناس في نحو قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ٢١]، وقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ﴾ [النساء: ١]، وقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ﴾ [الحج: ١]، وقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى... ﴾ [الحج: ٥]، وقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ... ﴾ [لقمان: ٣٣]، إنما هو موجه إلى جميع الناس من غير التفات إلى جنسـياتهم وأجناسـهم وألوانهم وألسنتهم.

ومثل ذلك كل تشريع وكل امتنان في القرآن، كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ ...﴾ [الأعراف: ١١]، وفي هذا ما يدل على أنّ آدم هو الإنسان الأول، وقد تعزز ذلك بذكر خلق الإنسان مطلقًا من طين كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ ۝ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ [الحجر: ٢٨ ـ ٢٩]، ويتبين بهذا قطعًا أنّ هذا البشر الذي خلقه الله من صلصال من حمإ مسنون إنما هو آدم عليه السلام، وهو أب للبشر جميعًا، فإنّ جنس الإنسان مخلوق من هذا العنصر نفسه، كما نص عليه تعالى قبل ذلك في قوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾ [الحجر: ٢٦]، لأنهم جميعًا متسلسلون من آدم وراجعون إليه في نسبهم، ومتحدون معه في طبعهم، ويؤكد ذلك ويقويه قول الله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ ۝ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ۝ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ۝ إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ۝ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ ۝ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ۝ قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ۝ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ۝ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۝ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ۝ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ۝ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ۝ قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ ۝ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: ٧١ ـ ٨٥].

فإنّ ما فيه من توعد إبليس بإغوائهم أجمعين، إنما يعود إلى هذا الجنس البشري، الذي تسلسل من آدم المذكور في القصة بوصف البشر، ويؤكده قوله تعالى: ﴿قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا ۝ قَالَ اذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا ۝ وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ۝ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ

سُلْطَٰنٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴾ [الإسراء: ٦٢ ـ ٦٥]، فإنّ هذا التوعد من الشيطان إنما هو للجنس البشـــري جميعًا، وكذلك ما تبعه من وعيد الله تعالى لمن اتبع الشيطان، ووعده الحسن لمن كان من عباده المخلصين، فلا يمكن أن يكون الخطاب فيه منصرفًا إلى طائفة معينة من الناس، فإنّ الكل مطالبون بأن يحـــذروا مكائـــد الشـــيطان ووساوســـه، وأن يخالفوه باتبـــاع أمر الله والازدجار عن نهيه.

وقد ذكر الله ســـبحانه قصة آدم في سورة الأعراف ثم أتبعها قوله: ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ ۗ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٧]، وهذا التحذير من الله سبحانه لا يمكن أن يكون خاصًا ببعض الناس دون بعض، وإنما هو تحذير لهم جميعًا أن يفتنهم الشيطان.

ونحن علينا أن نؤمن بكل ما جاء في القرآن، وأن لا نشك في حرف منه، فهذه النصوص جميعًا تدلنا على أنّ آدم إنما هو جد الجنس البشري كله، وقد تلقينا هذا من كلام ربنا ﷻ، الذي هو أحســـن الحديث وأصدقه، ولم نتلقه من التوراة المحرفة، وما كان في التـــوراة مما هو موافق لنص القرآن الكريم فلا نشك في ثبوته وكونه مما أنزله الله على موسى عليه السلام، لأن القرآن صدقه، وهو المهيمن على ما نزل من قبله من كتاب، فلا نصغي مع هذا إلى شـــيء مما يقال خلافًا له، فدعوى الصينيين أنهـــم يرجعون إلى جد غير آدم دعوى مخالفة لنص القرآن، وكيـــف نصغي إلى ما قاله الوثنيـــون وندع ما قاله الله تعالى أصدق القائلين؟!.

ولا يخفى أنّ كل خطـــاب لبني آدم فـــي القرآن إنما يقصـــد به الجنس البشـــري جميعًا، فإنّ ما في القرآن من تشـــريع وعظة وبيان وامتنان يقصد به

الناس جميعًا، ولا تختص به طائفة دون غيرها، فقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٠]، هو امتنان على جميع الناس لأنهم جميعًا مشتركون في معنى هذا الخطاب، ولا يعقل أن يكون هذا التكريم خاصًا بجنس معين من الناس كالعرب مثلًا، إذ الكل مشتركون فيما دلت عليه الآية.

وكذلك قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِي فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [الأعراف: ٣٥ ـ ٣٦]، هو خطاب للناس جميعًا، إذ لا يمكن أن يعذر أحد منهم عندما يصدف عن خطاب الرسل، كما أنّ كل من اتقى وأصلح واستجاب لرسل الله تعالى فإنه يفوز فوزًا مبينًا.

وكما تبين أنّ ما يوجه من خطاب إلى بني آدم فهو لجميع الجنس البشري، كذلك أيضًا ما يوجه من خطاب إلى الناس لا تختص به طائفة من البشر دون أخرى، فما في فاتحة النساء وجه الخطاب فيه إلى الناس مقرونًا بالأمر بالتقوى، ولا يمكن أن يكون الخطاب لقريش وحدهم أو للعرب دون سائر فئات الناس، فإنّ جميع فئات البشر مطالبون بتقوى الله، وكل من أبى ذلك فقد تمرد على أمر الله، وتعرض لسخطه وعذابه، وما اقترن به من الامتنان عليهم بأنّه سبحانه الذي دعاهم إلى تقواه، خلقهم من نفس واحدة، وخلق منها زوجها، وبث منهما رجالًا كثيرًا، ليس هو امتنانا على طائفة من الناس، إذ لا يكون ما في هذه الآية خارجًا عما يعنيه قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۝ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١ ـ ٢٢].

فإنّه لا يخفى أنّ الخطاب بفرض عبادته موجّه إلى جميع الناس، سواء في ذلك العرب والعجم، وكذلك ما اشتمل عليه الخطاب من الامتنان عليهم بأنه خلقهم وخلق الذين من قبلهم، وأنه جعل لهم الأرض فراشًا والسماء بناء، وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقًا لهم، فإنه لا يعقل أن يكون ذلك امتنانًا على بعض الناس دون بعض، وكذلك ما وليه من نهيهم أن يجعلوا له أندادًا، فهو خطاب للجميع، والكل متعبد به.

وإذا أدركت هذا؛ علمت أنّ ما في فاتحة سورة النساء هو أيضًا خطاب للجميع، سواء من حيث أمرهم بالتقوى، أو الامتنان عليهم بأنه خلقهم من نفس واحدة، وخلق منها زوجها، وبث منهما رجالًا كثيرًا ونساء، فلا يعقل أن يكون ذلك خاصًا بطائفة من الناس دون غيرها، إذ الخطاب في الموضعين متحد، وما وليه من الامتنان فيهما تعليل للأمر يفيد تأكيده.

وقد حذر الله تعالى الناس من التعالي بالأنساب والأحساب، وذكرهم بأنه خلقهم من ذكر وأنثى، عندما قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣]، وأنت تدري أنه لا يمكن أن يكون شيء من خطاب الآية مخصوصًا به بعض الناس دون بعض، فكلهم مأمورون أن يرعوا حق كل طائفة منهم، وأن يحترموهم ولا يتعالوا عليهم، فهم جميعًا خلقوا شعوبًا وقبائل من أجل أن يتعارفوا، لا من أجل أن يتخالفوا ويتخاصموا، وميزتهم جميعًا إنما هي تقوى الله، فلا يمتاز أحد بعنصر ولا بلون، وإذا كان الخطاب في جميع الآيات بـ (يا أيها الناس) شاملًا لجميع فئات البشر، فكيف يمكن أن يخرج شيء منه، فيقصر على طائفة من البشر دون غيرها، على أن القرآن الكريم هو هدى لهم جميعًا، فهو هدى للناس، وذكر للعالمين، والله المعبود هو ربهم جميعًا.

ودعوى أن انتساب البشر إلى آدم لا يشملهم جميعًا، وإنما بعضهم هم المنتسبون إليه ـ كما ذكر الإمام محمد عبده ـ تناقض ما ذكره في تفسير سورة البقرة من أنّ آدم المذكور فيها هو رمز للبشرية جميعًا، إذ لا يخفى بين هذا الذي ذكره هنالك وبين ما قاله هنا من أن أبوة آدم عليه السلام ليست لجميع الجنس البشري تناقض صارخ.

وقد تبيّن أنّ ما ذكر في خلق الإنسان أو البشر من طين كما في سورتي **الحجر** وص، فالمقصود به آدم عليه السلام ، كيف وقد ذكر الله تعالى على أثر ذلك الأمر بالسجود له، مع نصه في أكثر من آية، وأكثر من سورة، على أنّ الأمر بالسجود إنما كان لآدم، فهو البشر المخلوق من طين، وإذا كان خلقه من طين فإنه يستحيل أن يكون مر بسلسلة من التطور تدرج فيها من حيوان إلى غيره، حتى انتهى به الأمر إلى أن يكون إنسانًا بالطبيعة البشرية، فإنّ الله آذن ملائكته بأنه خالقه من طين، ومن صلصال من حمإٍ مسنون، وأنهم مطالبون بأن يسجدوا له إذا سواه ونفخ فيه من روحه، وعليه فأين تكون هذه الأطوار المزعومة التي تدرجت به حتى وصل إلى طور الإنسانية، مع أنّ الله سبحانه آذن الملائكة أنه خالق من هذا الطين بشرًا، وبمجرد الانتهاء من خلقه وتسويته طالبهم بأن يسجدوا له؟! فهل هذه المطالبة بالسجود له كانت في مرحلة الإنسانية، أو في مرحلة الحيوانية؟ لا شك أن كل ذي بصر وبصيرة يدرك أن السجود كان تكريمًا للإنسان، ولم يكن تكريمًا لحيوان، وعليه فإنّ تكوُّنَه إنسانًا كان بمجرد خلقه من الطين، ولم يمر قبل ذلك بطور حيواني ـ كما زعموا ـ.

وإنما هذه مجادلة لم تنبن على أساس من العلم والدليل، ولكنها كانت نتيجة انهزام وتقهقر أمام هذا التيار الكاسح والصخب الهادر من الدعاية لهذه النظرية، وما كان من التعصب الأعمى لها من الذين أخذوها بتسليم مطلقٍ من غير دليل يقوم عليها.

نقض ما بنيت عليه الداروينية من النواميس الأربعة:

أما ما ذكروه من النواميس الأربعة التي قامت عليها نظرية داروين، فنحن نتعقبها إن شاء الله شيئًا فشيئًا.

أما ناموس تنازع البقاء فهو مجرد وهم، إذ الله ﷻ الذي خلق الكائنات، خلق كل شيء منها بحكمة، وقدرها تقديرًا، وبها يكون التكامل في هذه الحياة الدنيا، ومهما يَبْدُ من بعضها أنها ضرر محض، وخطر على الحياة، فإنّ الله أودع في طي هذا الضرر من المنافع ما يبهر العقول لو توصلت إليه، ففي الزواحف السامة من الدواء والعلاج من الأمراض ما فيه نفع للعباد، إذ السموم قد تعود بنفع في بعض الأحيان، وكذلك الجراثيم، أو ما يعبر عنه بالبكتيريا، فقد جعل الله فيها خزائن للمنافع مع ما فيها من الضرر، ولا يسلم أنّ الكائنات تتنازع البقاء في هذه الحياة، فلكل نصيبه منها بحسب ما قدر الله تعالى.

ولو كان القوي يذهب بالأضعف من هذه الكائنات لما بقي للعصافير وسائر بغاث الطير وجود على ظهر الأرض، لأن الغلبة للصقور والبزاة في القوة، ومثل ذلك ما بين الأسود والقطط وأمثالها، ونحن نرى أنّ هذه الأنواع تجتمع في مكان واحد وتتغذى معًا، لكن لا يتحول نوع منها إلى نوع آخر سواء في الترقي أو الانحدار، فلا يتحول الهر إلى أسد ولا يتحول الأسد إلى هر، وإنما لكل منها نصيبه ومجاله في الحياة، وهكذا سائر الوحوش، وكذلك ذوات الأظلاف من الحيوانات فلا يذهب القوي بالضعيف منها، وإلا لكان الجاموس مستأثرًا بالحياة دون الغزلان، وكذلك يقال في ذوات الأخفاف والحوافر.

ومنذ خلق الله الحياة في الأرض تجد أنواعًا من الكائنات تنطوي تحت جنس واحد، بينها التشابه، ولكن ليس بينها تزاحم، فلا يذهب بعض منها

ببعض، وإلا لما بقي للحشرات الضعيفة وجود بين هذه الكائنات القوية الضخمة، وإنما اقتضت حكمة الله تعالى أن تكون متكاملة في وجودها، كتكامل البشر مع اختلاف مواهبهم الفطرية والكسبية، وتنوع قواهم العقلية والجسمية، حتى يعد واحد بألف، وألف بواحد.

ولو كانت الحياة نزاعًا بين هؤلاء لكان أولى بها الأصحاء الأقوياء دون المرضى الضعفاء، ولكن كم يطول عمر الضعيف المريض الذي أدنفه المرض، ويقصر عمر القوي الصحيح، وقد شاهدت بنفسي من ذلك ما يثير العجب والدهشة، ولا أزال أذكر قصصًا متعددة تتعلق بذلك، من بينها أن رجلًا من المعارف اتصل بي في هزيع من الليل قبل أكثر من ثلاثين عامًا، فأيقظني من نومي، وقال لي: بأن شيخًا صالحًا من معارفي يجود بنفسه وهو في حالة احتضار، وأنّ أولاده أمروه أن يتصل بي، فاسترجعت، ولما أصبح الصباح استكشفت الأمر فإذا الرجل المريض الدنف ـ الذي يراه الكل أنه في حالة احتضار ـ تدب في جسمه الحياة بعد أن كانت ميئوسًا منها، مع أنّ الرجل اجتمعت عليه أمراض، وقد أجريت له ثلاث عمليات في نفس الوقت، وقد جاوز الثمانيين من عمره، فما لبث أن عادت إليه الصحة وغادر المستشفى إلى بيته وأهله، فأقبل شهر رمضان المبارك فكان يؤم جماعة المصلين في مسجد الحي الذي يسكنه، في الصلوات، ومن بينها صلاة التهجد، فكان يقرأ بهم في تهجده جزأين من القرآن حتى أتم رمضان، وهو بحال الصحة والعافية.

وكان من بين الأصدقاء من كان يتمتع بحيويته وشبابه وهو مفتول العضلات قوي البنية شديد المراس، وقد عرف عنه أنه قبل شهر رمضان ذلك عدا على قدميه بين الجبال مسافة تكاد تصل إلى ٣٠ كم، وقد قضى أيام العيد بين أهله في نعمة ورغد وصحة يهنؤها، وبُعَيْدَ العيد كان في سمر مع خلانه،

وأراد أن يسقيهم من المشروبات الغازية، ولكنه ذكر لهم أنه يحس بعدم ارتياح فلذلك طلب لنفسه لبنًا رائبًا، وأوعز إلى من حوله بأنه يريد أن يرتاح، ولكنه يحرص على سماع نشرة الأخبار، فأراد منهم أن يوقظوه عندما تحين النشرة، فلما جاؤا لإيقاظه وجدوه جثة هامدة، بينما ظل ذلك الشيخ ـ الذي كان دنفًا ـ يتمتع بالحياة، فليت شعري؛ أيهما كان أولى بالحياة لو كانت غرضًا للتنازع فيها؟!.

ومنذ ما يقرب من أربعين عامًا أتاني أحد المعارف فذكر لي أن أختًا له تدرس بالولايات المتحدة الأمريكية وكانت اتفقت مع أحد زملائها الطلبة العمانيين هناك أن تكون بينهما رابطة الزوجية، ولكن عكر صفو هذه الرغبة أنها أصيبت بالمرض الخبيث، وقد قرر الأطباء في الولايات المتحدة الأمريكية أنها لن تعيش إلا عامًا واحدًا إن استمر بها العيش، غير أنّ ذلك الشاب الذي واعدها الزواج قرر أن يتزوجها ولو لم تبق معه إلا يومًا واحدًا، فلذلك أراد مني أخوها أن أعقد زواجه بها حتى تكون حليلته إذا عاد إليها، فتم عقد الزواج في بيتي.

ولم يمض من الوقت إلا زمن يسير حتى بدأت الصحة تزاحم المرض، وتجري في أوصالها، فكانت النهاية أن عادت صحيحة كما كانت لا تشكو شيئًا من الأسقام، واقترن بها زوجها وهما الآن في عيش هانئ، وقد ولدت لهما ذرية، وقبل بضع سنوات ولدت لذريتهما ذرية متسلسلة، والحمد لله.

وكم في هذه الفترة فُقِدَ من الأصحاء الأقوياء الذين لم يكونوا يشكون سقمًا، ولا بلوى، وكم من آية يشاهدها الملحدون في أنفسهم لو كانوا يعقلون، ناهيك ما ظهر لهم في حياة الفيزيائي البريطاني الكبير الملحد **ستيفن وليام هوكنج** عالم الفيزياء النظرية، فعندما بلغ من العمر ٢٢ عامًا ظهرت عليه أعراض مرض ALS، وهو مرض غير قابل للعلاج يتسبب في وقف النشاط

الحركي الإرادي للإنسان، ويؤدي إلى ضمور العضلات والوفاة خلال مدة أقصاها ١٠ سنوات، وأخبره الأطباء أن ما تبقى من عمره لا يتجاوز عامين، ولكن الله أراد خلاف ذلك، فقد جاوز عمره ٧٠ عامًا، وكان يزدلف إلى الثمانين عندما وافته المنية، وفي هذا ما يدل على أن قضية تنازع البقاء وهم سرى إلى من تجاهل سر الحياة، وتعامى عن سنة الله تعالى فيها.

وبسقوط هذا الوهم يسقط ما ذكروه من الناموس الثاني وهو الانتخاب الطبيعي فإنّ الطبيعة محكومة بإرادة الله تعالى الذي يولج الليل في النهار، ويولج النهار في الليل، ويخرج الحي من الميت، ويخرج الميت من الحي، وليس للطبيعة أي أثر إلا بمشيئة الله سبحانه، فالأسباب لا تفضي إلى مسبباتها إلا بأمر الله وحده، فقد يتهيأ لأمر سبب قوي، ولكنه يقف دون أن يفضي إليه، وقد يتحقق لسبب ضعيف لا يحسب له أي حساب، على أنّ هذه الفكرة تفتح أبوابًا للشر فيما بين الناس، فكل فئة من الناس ترى أنها أولى بالبقاء وانتخاب الطبيعة لها، دون غيرها، ولذلك لا تبالي فيما تسفكه من دماء وتزهقه من أرواح، وتستحوذ عليه من أموال من أجل أن تبقى هي ويفنى غيرها، أو أن تكون لها السلطة على الغير لأنها أولى بهذا الانتخاب.

وقد سبق فيما تقدم ذكره أن الشيوعيين بنوا على هذا الفكر ما بنوا من اجتياحهم البشر وإزهاقهم الأرواح، وتسلطهم على الأموال، وذلك أن الطبيعة عندهم اختارتهم دون غيرهم بتمكنهم من رقاب الآخرين، وقد تقدم قليل من كثير فيما سبق من ذكر جرائمهم وعدوانهم على البشر، وهكذا جميع المتغلبين في الأرض، فإنهم من منطلق هذه الفكرة يرون أنهم أحق بالحياة وخيراتها، والتسلط فيها دون غيرهم، وهذا ما مكن لما يسمونه الرجل الأبيض من تنفيذ جرائمه نحو البشرية، وقد عبروا عن فلسفتهم هذه بما أسموه الداروينية الاجتماعية، وأن الأفراد والمجتمعات يتنافسون من أجل

البقاء، وأن المتفوقين من الأفراد والمجموعات والسلالات هم أولى بالنفوذ والثراء، فحسب الانتخاب الطبيعي لا يبقى إلا الأفراد الأكثر استعدادًا وهم الذين يتكيفون مع المجتمعات الجديدة بينما يفشل الآخرون الذي لا يصلحون للبقاء.

وقد بنت العولمة الجديدة نظامها على هذه الفلسفة نفسها، ولم يبال هؤلاء في سبيل تحقيق رغباتهم من الوطء على القيم الإنسانية، فضاعت بينهم الرحمة وانحسرت عنهم الأخلاق، وأدع المجال في هذا لقلم الطب الماهر الأستاذ الدكتور محمد علي البار، الذي سلط الضوء على علاقة المذهب الداروينى بالعولمة والرأسمالية والاستعمار، فقد قال ما نصه: «ويؤكد الداروينيون الاجتماعيون أنّ الأفراد الذين يستطيعون البقاء يكّدسون الثروات بأيديهم، ولذا فالفقر دليل على عدم كفاءة الفرد أو المجموعة. واعتمد «ربرت سبنسر البريطاني هذه النظرية ونشرها وفلسفها، ولقيت من الرواج ما لقيته نظريات دارون في الطبيعة، لأن منهجهما واحد ويتّجه لتبرير جرائم الرجل الأبيض والرأسمالية البشعة بوجه خاص وظهر مفهوم «Business is Business» «العمل هو العمل» ولا أخلاق فيه، وبالتالي لا بد أن يكون القوي هو الأكثر ذكاء وخداعًا وكذبًا... وهو في ذلك يحقق الطبيعة، ولا لوم عليه ولا تثريب، وإنما يقع اللوم والتثريب على المغفّلين والسذج والفقراء الذين يمتص دماءهم. ثم ظهرت العولمة. وهي تعمل لمزيد من سيطرة الأغنياء على الفقراء، حتى يزداد الأغنياء غنى وقوة، ويزداد الفقراء فقرًا وضعفًا... وإذا ثاروا أو تألموا فيكفي أن نقول لهم: إن هذه هي قوى السوق، أو قوى الطبيعة، وأن البقاء للأصلح، والطبيعة تفعل فعلها، فهناك انتخاب طبيعي قد قرره دارون منذ قرن ونصف من الزمان، وما علينا إلا طاعة عوامل الطبيعة، وعوامل السوق، وهي التي تقرر من

يبقى ومن يذهب؟ ومن يعيش ومن يموت؟ والذكي المخادع الكاذب، الذي يستخدم كافة الوسائل القذرة للحصول على الثروات والقوة هو الأحق بالحياة، وهو صاحب الفضل، لأن ذلك ما قررته الطبيعة على لسان دارون، ومن قبله مالثوس، أستاذ دارون والمؤثر فيه وفي أفكاره رغم أنهما لم يلتقيا، فبينهما نصف قرن من الزمان تقريبًا. وأما مالثوس هذا فهو قسيس أنجليزي.. الغريب حقًا أنّ كلًا من دارون ومالثوس درس اللاهوت، أما دارون فقد تركه غير آسف عليه، وأما مالثوس فاستمر فيه مع دراسته الاقتصاد والسكان.

ولد **توماس روبرت مالثوس (Malthus)** عام ١٧٦٦م، في منطقة سري ببريطانيا، ودرس اللاهوت في جامعة كمبردج، وعمل أستاذًا في كلية شركة الهند الشرقية التي استعمرت الهند، وكانت تعّد رجالاتها في هذه الكلية الخاصة التي كان مالثوس من أبرز أساتذتها، والتي بقي فيها من عام ١٨٠٥م حتى وفاته عام ١٨٣٤م، عندما كان دارون يجوب البحار في سفينة الأبحاث (بيجل).

وفي عام ١٧٩٨م نشر مالثوس مقالته عن مبادئ علم السكان، التي جعلها بعد ذلك في كتاب. وكان مالثوس يرى أنّ السكان يزدادون على هيئة متواليات هندسية (٢، ٤، ٨، ١٦) بينما لا تزداد موارد الطعام إلا على هيئة متواليات حسابية (١، ٢، ٣، ٤).

وعليه فإنّ البشرية ستواجه، حسب وجهة نظره، ندرة في الطعام، ولذا لا بد من إيجاد عوائق لهذا النمو المطرد في السكان، والعوائق الإيجابية هي الحروب والمجاعات والأوبئة... وهذه يمكن استخدامها لمواجهة الإنسان البدائي (وهو ما فعلته أوربا والرجل الأبيض بالنسبة لإفريقيا وآسيا والهنود الحمر في الأمريكيتين).

أما الرجل الأبيض المتحضر فينبغي أن يستخدم العوائق الوقائية وهي الرهبنة، وتأخير سنّ الزواج والامتناع الطوعي عن مباشرة الزوجة فترة من الزمن، وكلها كان يحبذها حسب ثقافته الكنسية، أما وسائل منع الحمل فكانت تعتبر لديه لا أخلاقية.

ومن آراء مالثوس أنّ فقر الفقراء ليس إلا نتيجة لكسلهم، وأنّ غنى الأغنياء ليس إلا نتيجة كدهم وعملهم واجتهادهم، ولهذا ينبغي أنّ نحد بصورة جليّة عدد السكان من الفقراء، وأنّ البقاء بالتالي ليس إلا للأصلح، وهم في نظره الأغنياء والأقوياء.

وأوضحت هذه النظرية الاستعمارية الرأسمالية القذرة مدى أخلاقيات رجل الكنيسة الذي سار في ركاب الرأسمالي الجشع... وكانت أفكار مالثوس هي الدافع الحقيقي لشارلز دارون الذي اعترف بتأثير مالثوس عليه تأثيرًا عميقًا، حيث أوضح مالثوس أنّ جميع الكائنات الحية تنزع إلى التكاثر بسرعة كبيرة، ولكن القليل من نسلها هو الذي يكتب له البقاء والنماء والوصول إلى سن النضج، وأوضح بجلاء أن حبوب اللقاح أو بويضات الحشرات والزواحف والأسماك والطيور من الكثرة بحيث لا يمكن أن تترك لغيرها أي مجال للبقاء لو نمت كل واحدة منها، ولهذا لا بد أن تعتريها عوامل الفناء من كل حدب وصوب حتى تُبقي المجال للبقاء للأصلح. وأخذ دارون هذه الفكرة (البقاء للأصلح) واعتمدها اعتمادًا كاملًا في نظريته، حيث وجد أن هناك صراعًا على البقاء بين الكائنات المختلفة ثم هناك صراع شديد على البقاء بين كل نوع من الأنواع مع أفراد نوعه، وخاصة إذا كانت هناك ظروف بيئية قاسية مثل الجفاف أو الثلوج أو الكوارث.

وعدّد دارون الأمثلة لهذا الصراع، وانتهى إلى القول بأنّ النظام الذي نراه في الطبيعة ليس نتيجة لتدخل قوة عليا خارجية، ولكنه نتيجة للتوافق أو للتكيّف بين أعضاء الكائن الداخلية وظروف البيئة الخارجية.

وهكذا التقت آراء مالثوس مع آراء دارون لتدعم النظام الرأسمالي الجشع البشع، وتوجد له الفلسفة النظرية التي تدعمه باسم العلم والطبيعة ونظريات البقاء للأصلح، والأصلح عندهم، دون ريب، هوالرجل الأوربي الأبيض الذي استعمر العالم وأخذ خيراته واستغلها لنفسه، ثم في داخل أوربا ذاتها هناك التفاوت بين العمال الفقراء الأغبياء والأغنياء الأثرياء الأذكياء، أصحاب رأس المال، الذين ينبغي أن تمهد لهم الطرق، أو على الأقل أن تبرر جميع سلوكياتهم المناقضة لكل الدوافع الإنسانية والخيّرة التي تنادي بها الأديان، على اعتبار أنّ هذا السلوك الإجرامي ليس إلا ما أفرزته الطبيعة ذاتها. وعلينا أن نسمع ونطيع لهذه الطبيعة بقوانينها القاسية، والتي فيها خير الأجناس كلها، في نهاية المطاف، لأنها تزيح الأضعف وتُبقي على الأقوى والأصلح!!!.

وكما استخدم الرأسماليون نظريات مالثوس وداروِن لدعم اتجاهاتهم وفلسفاتهم، كذلك استخدم كارل ماركس آراء دارون في الصراع والبقاء للأصلح في نظرياته حول الصراع الطبقي، وجعلت الماركسية دارون من أكابر مؤيديها، وكانت روسيا البلشفية تدعم بكل قوتها آراء دارون وتقيم له المتاحف الكبرى وقد بُنيت علوم الطبيعة والبيولوجيا في الاتحاد السوفيتي على آراء دارون، وتم تطويرها على يد أوبارين الروسي. والواقع أن نظرية التطور أخرجت من سياقها العلمي لتحقّق أغراضًا أخرى لا علاقة لها بالعلم، وهذه هي المأساة في نظرية التطور»[1].

هذه بعض ثمار هذه النظرية الفاشلة الباطلة التي يلتف حولها المبطلون، ويسعى كل منهم إلى أن يستغلها استغلالًا يقضي بنجاحه فيما يمارسه من

---

(١) د. البار: خلق آدم.. ونظرية التطور، سلالة من طين، ص٢٤ ـ ٢٦، مقال نشر على شبكة المعلومات بصيغة PDF.

ظلم، ويرتكبه من عدوان ضد الوجود الإنساني في الأرض، وضد القيم الإنسانية وعلاقات البشر بعضهم ببعض، والحقيقة أنّ هذه النظرية ليست هي من العلم في شيء، وإنما خدعت الناس ببريق دعاياتها الفاجرة، وإلا فإنّ شواهد العلم تجتثها من أساسها، كما سيأتي إن شاء الله.

وإذا كانت نظرية داروين هي منشأ جميع الأفكار الهدامة التي سعت إلى هتك حرمات الإنسانية والعدوان على أموال الناس وأنفسهم، وسلب جميع حقوقهم، فكيف يسوغ أن ينتصر لها أو أن يقال بأن لها في الإسلام أصلًا أصيلًا، وفي أفكار علمائه وفلاسفته ما يدعمها..؟!.

إنّ الحق في ذلك أبلج، فالإسلام بريء منها وكل الذين يسعون لخير الإنسانية وصلاحها هم برآء منها.

ومن العجيب أن ترى أصحاب المذاهب المختلفة والاتجاهات المتباينة في السياسة والاجتماع والمناهج الاقتصادية، كل طائفة منهم تجعل هذه النظرية نصب عينيها، ودليلها الذي تسلكه لتتوصل إلى تدمير الإنسانية، فالرأسمالية الجشعة اتخذت من هذه النظرية منهاجًا تسلكه؛ لإشباع نهمها وجشعها من حقوق الناس وثرواتهم، غير مبالية بهم كيف كان مصيرهم إن قضت وطرها من امتصاص دمائهم، ونهش لحومهم، وهشم عظامهم.

والشيوعية الحمراء الملتهبة تصارع من أجل شيوع بطشها وغطرستها في الأرض، وابتزاز أي حق من حقوق البشرية، ومعنى ذلك أن كل فساد في الأرض وعلو فيها مبني على فلسفتها التي لا تقيم وزنًا لحقوق الناس، ولا ترعي فيهم إلًا ولا ذمة.

على أنّ جرائم الداروينيين ضد الإنسانية لم تقف عند حدود إبادة طائفة من البشر دون طائفة، فالداروينى الإمريكي جيمس لي (James Lee) يقول:

«يجب تقليل عدد البشر قدر الإمكان، يجب إيقاف الزواج وقتل الرضع»، وقد اتخذ هذا الداروينى وسائل حقيقية لقتل البشر باعتبارهم طاعونًا، وحيوانًا طفيليًا فاسدًا، وفي سبتمبر ٢٠١٠م قُتِلَ جيمس لي حين اتجه إلى موقع قناة ديسكفوري وأخذ ثلاث رهائن، وكان معه بعض القنابل، إلا أنّ الشرطة لم تمهله وأردته قتيلًا قبل أن ينفذ مخططه الداروينى»[1].

وهذا يدل ـ بلا شك ـ أنّ الداروينية لا تبقي شيئًا من حقوق الإنسان لأي أحد طفلًا كان أو كبيرًا، فهي تسلب الإنسان أهم خصائصه الفطرية، وهي الرحمة والشفقة والحنان، وتحوله إلى سبع كاسر لا تعرف الرحمة إلى قلبه سبيلًا، وقد علق على ما سبق ذكره الدكتور هيثم طلعت، قائلًا: «هذه الرؤية الآحادية الاختزالية اعترف بواقعيتها من منظور تطوري فرنسيس فوكوياما (Francis Fukuyama) في كتابه نهاية التأريخ (End of history)، واعتبر أنّ هذه الرؤية تسقط معنى الإنسان ومعنى وجوده ككل، فهو يقرر أن (حقوق الإنسان لها مشكلة فلسفية عميقة، إذ لا بد أولًا أن نفهم الإنسان قبل أن نبحث في حقوقه، نفهم طبيعة الإنسان، فالعلوم الطبيعية الحديثة تشير إلى أنه ليس ثمة فارق بين الإنسان والطبيعة، وعندما نوسع في المساواة التي تنكر وجود أي اختلافات بين البشر، فيمكن أن يشمل ذلك إنكار وجود اختلافات هامة بين الإنسان والقردة العليا، وتنشأ عن ذلك أسئلة لا حصر لها، إذ كيف يكون قتل البشر غير مشروع، في حين قتل هذه الحيوانات ليس كذلك، وسنصل حتمًا في مرحلة ما إلى السؤال التالي: ولماذا لا تتمتع الطفيليات المعوية والفيروسات بحقوق مساوية لحقوق الإنسان؟.

---

(١) د. هيثم طلعت: إما الإيمان وإما الفوضى، ص٣٥٢، حقوق الطبع محفوظة، ط١، وينظر؛ قناة (abcNEWS) مقتل ناشط بيئي على أيدي الشرطة في مقر قناة ديسكفري:
https://abcnews.go.com/us/gunman-enter-discovry-channel-headquarters-employees-evacuated/story?id=11535128.

إنّ عدم اهتمام النـــاس بهذه المســـاواة يوضح أنهم لا يزالـــون يؤمنون بمفهوم ما عن تفوق قدر الإنسان، وحتى حماة الطبيعة وحماة الحيوانات هم فقـــط يدافعون عن الحيوانـــات، لأنهم يحبـــون بقاءها معنا، ومجـــرد إفنائها لا سبيل لتعويضه مع ضياع فوائد ربما تكتشـــف منها مستقبلًا، فحتى حماة الحيوانات هم للإفادة منها وليس من أجلها، وهذا عكس حقوق الحيوان، إنّ مفهوم التوسع في المساواة أدى إلى حيرتنا الراهنة، إننا لو كنا نؤمن حقًا أنّ الإنسان مجرد كائن في سلسلة الحيوانية يخضع لقوانين الطبيعية ليست له قيم متجاوزة، هنا كان لا بد أن تتساوى الكائنات جميعًا في الحقوق، وسيتعرض ساعتها مفهوم المساواة للبشـــر للهجوم من أعلى ومن أسفل، ولا يسمح لنا هذا المأزق الفكري الذي أوقعتنا فيه النسبية الحديثة بأن نرد على هذا الهجوم أو ذاك، وبالتالـــي لا يســـمح لنا بالدفاع عـــن حقوق المســـاواة ـ فإما طبقية متفحشة أو مساواة مستحيلة ـ)»[1].

ويعلق على ذلك الدكتور هيثم طلعت قائلًا: «إنه تحليل مدهش وحقيقي للمأزق الإنســـاني، **ففرنســـيس فوكوياما** يرى أن المساواة مســـتحيلة داخل المجتمع المادي حيث يتحول الإنســـان داخل هذا النمـــوذج إلى كائن قانع بسعادته، غير قادر على الإحساس بالخجل، عاجز عن الارتقاء فوق مستوى احتياجاته، وبالتالي فإنّ الإنسان لم يعد إنسانًا.

أليس الإنســـان الكامل في هذه الصيغـــة هو كائنًا فجًا جديـــرًا بالاحتقار ـ والكلام لـ**فرنســـيس فوكوياما** ـ كائنًا عاطلًا عن الاجتهـــاد والطموح، وهنا تضيع ملحمة الوجود الإنساني، ودراما الحياة الإنسانية.. لقد مات الإنسان في النموذج المادي.

---

(١) المرجع السابق، ص٣٥٢ ـ ٣٥٣.

بل إنّ **فرنسيس فوكوياما** يصف المؤمن بالتطور في هذه المرحلة بالكلب، يقول **فوكوياما** إنه: «داخل ذلك العالم سيصبح الناس حيوانات من جديد، كما كانوا قبل المعركة الدامية التي بدأ بها التأريخ، إنّ الكلب يقنع بالنوم في ضوء الشمس طوال اليوم ـ شرط أن يطعموه ـ وذلك لأنه هو راض بما هو عليه، ولن يقلقه أنّ غيره من الكلاب حالها أفضل من حاله، وأنّ مستقبله ككلب قد جمد، أو أن كلابًا نائية في بقعة من العالم تصادف المذلة والهوان».

ويضيف إلى ذلك الدكتور هيثم طلعت: «يتنبأ فوكوياما في صفحة ٢٧٤ من كتابه أنّ حياة مجتمع تطوري كامل هي حياة بلا فنون، ولا أدب، ولا دراما، ولا كفاءة، وقليلون سيتصدرون للخدمة العامة، وستكون مبتذلة وغير متطورة، وفي مرحلة ما سيكون هذا المجتمع عاجزًا عن الدفاع عن نفسه في وجه الحضارات الأخرى، حيث الحضارات الأخرى أصحابها على استعداد لهجر الراحة والأمن، ويخاطرون بحياتهم من أجل القيمة.

لقد صنعت الفلسفة التطورية قبرًا يكفي لدفن كل القيم البشرية، وكل الفضائل التي يؤسسون لها عبر التأريخ.

وهل لنا أن نسأل كل تطوري ونقول: ماذا لو أثبت التطور أنّ العرق الأبيض أفضل بيولوجيا من الأسود وأنهم في مرتبة أعلى في سلم التطور؟! ألسنا ساعتها مجبرين على الفصل بين البيض والسود داخل المجتمع التطوري؟! أم ستتم معاودة الانتخاب الطبيعي وإقرار المساواة بين البيض والسود، وساعتها ستكون أكبر خيانة للتطور وأكبر ضربة للماديين؟»[1].

---

(١) المرجع السابق، ص ٣٥٣ ـ ٣٥٤.

وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على أنّ التطوريين هم في صراع مع أنفسهم، إذ لم يستقروا على نظرة معينة في طبيعة البشر، وأوضاعهم الاجتماعية وحقوقهم المادية والمعنوية.

وقد استطرد الدكتور هيثم طلعت كثيرًا في وصف هذا الاضطراب في التنظير ثم أتبع ذلك ما تولد من هذه النظرية من جرائم فاحشة فقال: «إنّ الأمر الذي يجب أن لا نغفله هنا هو أنّ التطور زود الإمبريالية الغربية بإطار نظري لإبادة الملايين باسم العرقية المادية، والبيولوجية الداروينية، ولن يتجاوز التطوريون هذه الرؤية وإلا لسقط الإطار التطوري ككل، وعليهم أن يتبنوا بمنتهى الهدوء فلسفة اليد الخفية عن آدم سميث، والمنفعة عن بنتام، ووسائل الإنتاج عن ماركس، والجنس عند فرويد، وإرادة القوة عن نيتشه، وقانون البقاء للأصلح، والطفرة الحيوية عند برجسون، والروح المطلقة عند هيجل.

هذا هو التطور عند التطبيق، وهذا هو أصل معركته وشعارها ودثارها، وفي هذا السبيل العنصري الفجّ قامت حربان عالميتان أبيد فيهما قرابة ١٢٠ مليون نسمة، وكانت حروب من الدموية بحيث أرجعت كلًا من المنتصر والمهزوم ثلث قرن إلى الوراء، فالحربان العالميتان اللتان أبادتا حوالي ٥٪ من سكان العالم كانتا نزاعًا إلحاديًا ـ إلحاديًا بنكهة تطورية، حيث العرق الأرقى وتنقية الأجناس، وقام الفلاسفة بوضع مبولة في وسط باريس كناية عن نهاية الحضارة.

بل إنّ جميع الأيديولوجيات الإجرامية التي ظهرت في القرن العشرين من نازية إلى فاشية إلى ستالينية إلى ماوية كلها كانت مستندة على الرؤية التطورية والتنقية العرقية، وأنّ هناك أجناسًا أفضل من أجناس!.

وحتى يومنا هذا وحتى تاريخ كتابة هذه السطور، ما زال هاجس الجنس الأفضل والجنس الأرقى (**Favored Race**) يسيطران على العقلية الغربية بسبب التصور التطوري للبشر، وأنهم ليسوا إلا كائنات حية منفصلة جاءت نتيجة الصراع الغابي، وأن جنسًا له حق السيادة وتطهير بقية الأجناس.

وقبل شهور قليلة من كتابة هذا الكتاب اشتغلت مدنية فيرغسون بولاية ميزوري الإمريكية بسبب قتل جورج زيمرمان الأبيض للشاب تريفون مارتن الأسود، مما أثار جدلًا في أميركا بسبب بعد القضية العرقي، وامتدت المظاهرات لتشمل أنحاء في الولايات المتحدة، ففكرة تمايز الأجناس والتفاضل العرقي موجودة تحت رماد العقل الغربي، وتعود للاشتعال في أية لحظة، أقول ذلك ويحضرني كيف عانت أمريكا الأمرين من أجل وصول رئيس أسود للحكم فيها ـ باراك أوباما ـ وكأنهم قاموا بمعجزة كبرى حين وصل للبيت الأبيض، في حين أنّ مصر كان يحكمها رئيس أسود منذ قرابة نصف قرن من الزمان[1] دون أن يلفت ذلك نظر أحد، لأننا نحن المسلمين وكما قال **مالكوم إكس**: (نعاني من (عمى ألوان) بفضل تعاليم ديننا، فلا نميز بين الأبيض والأسود، ولا فضل لأحمر على أسود ولا لأسود على أحمر في ديننا، في حين اعتبر الليبرالي الشهير ـ رئيس الولايات المتحدة السابق ـ **جون كوينسي آدمز** (**Jon Quincy Adams**) أن حرب البيض ضد الهنود الحمر هو قانون الطبيعة، ولهذا القانون تطبيقاته الواسعة جدًا).

استئصال طبقة كاملة من الناس، وتفريغ قارتين كاملتين من البشر ـ تفريغ الأمريكتين من الهنود الحمر ـ ما كان ليحدث لولا الرؤية المادية للوجود

---

(١) قبل أكثر من عشرة قرون حكمت مصر من قبل بعض السود الذين كانوا أرقاء، ومن بينهم كافور الإخشيدي الذي الذي كان في القرن الثالث الهجري، العاشر الميلادي، وامتد نفوذه إلى بلاد الشام، وكان من أقوى الحكام بمصر.

الإنساني، وقد اعتبر الليبراليون الأوائل أنّ إبادة الهنود الحمر نوع من الدفاع الشرعي، ونتيجة لذلك: تقلص عدد الهنود الحمر من ١٠ مليون إلى ٢٠٠ ألف نسمة خلال سنوات قليلة، ولذلك يقول سيمون بوليفار (Simon Bolivar) محرر أمريكا اللاتينية: (يبدو أن الولايات المتحدة تسعى لتعذيب وتقييد القارة باسم الحرية).

وليست إبادة الملايين في أرخبيل الكولاج (The Gulag Archipelago) على يد الملحد لينين والملحد ستالين، إلا من خلال مبرر تطوري مادي صراعي، وليست إبادة ٢٥٪ من سكان كمبوديا إلا بمبرر إلحادي على يد بول بوت (Pol Pot)، وليست إقامة الحرب العالمية الثانية كلها إلا بمبرر قومي مادي عرقي ألماني على يد أدولف هتلر، وليست الثورة الثقافية في الصين التي راح ضحيتها عشرات الملايين إلا بمبرر تطوري قاده ماو تسي تونج (Mao Zedong).

فالحرب في التطور غاية في ذاتها، والمكاسب المادية وتفريغ القارات من البشر، وتطهير الأعراق ليست كلها إلا إفرازات داروينية مادية، ورؤى عرقية طبيعية.

يقول ريتشارد فيكارت (Richard Weikart): (لقد نجحت الداروينية أو تأويلاتها الطبيعية في قلب ميزان الأخلاق رأسا على عقب، ووفرت الأساس العلمي لهتلر وأتباعه، لإقناع أنفسهم ومن تعاون معهم، بأنّ أبشع الجرائم العالمية كانت بالحقيقة فضيلة أخلاقية مشكورة)»[1].

وأتبع ذلك صورًا متعددة مما أفرزته الداروينية من هتك لحرمات الإنسانية وإنزال الإنسان الذي كرمه الله تعالى إلى مستوى الحيوانات

---

(١) المرجع السابق، ص٣٥٦ ـ ٣٥٨.

العجماء، حتى وصل بهم الأمر أنهم كانوا يعرضون صنوفًا من البشر في حظائر أشبه بحدائق الحيوان، من أجل التفرج على البشر الذين لا تعدو أقدارهم عندهم أقدار الحيوانات، «وكانت الفترة الذهبية لحدائق حيوان البشر هي الفترة من ١٨٧٠م إلى نهاية الحرب العالمية الثانية، وكانت تعرض في حدائق حيوان البشر مجموعة واسعة من الحيوان وبينها توجد أقفاص تحتوي على بشر من مختلف الأجناس، وقد يوضع في الأقفاص بجانب السود الأقزام والمصابون بالبهاق ومحدبو الظهور».

وكانت توجد حدائق حيوان الإنسان في باريس وهامبرج وبرشلونة وأنتيورب ولندن وميلانو ونيويورك، وفي عام ١٨٧٤م قرر الألماني (**Carl Hagenbeck**) أن يحضر مجموعة من النوبيين من مصر باعتبارهم من الحيوانات التي يتم البحث عنها لملء بقية الأقفاص»[١].

وأتبع ذلك: «ربما لا يصدق الملحدون المصريون أنّ أجدادهم كانوا داخل أقفاص منذ أقل من قرن وربع باسم الداروينية الملحدة العنصرية الفجة القبيحة».

واستطرد بعد ذلك في بيان كثير من الأحداث المثيرة، التي لم يقم للإنسانية فيها أي وزن في سبيل إشباع غريزتهم العنصرية ونهمهم المادي[٢].

وساق بعد ذلك كثيرًا من أمثلة العدوان على حياة الناس بدافع من هذه العنصرية المقيتة التي نشأت عن نظرية التطور، كالذي حدث من الملحد التطوري **سلوبودان ميلوسوفيتش** الذي أذاق المسلمين الويلات وأباد قرى مسلمة بأكملها وأحرق أكباد المسلمين بطول العالم وعرضه، وأرق كل

---

(١) المرجع السابق، ص٣٦٠.

(٢) ينظر: المرجع السابق، ص٣٦٠ ـ ٣٦٤.

المصلحين وأذاب عقول أهل البوسنة وجعل من هتك الأعراض وإهلاك الحرث والنسل غاية في حياته، وهو ملحد تطوري رسمي باعترافه، ولم يحضر أي رجل دين مراسم دفنه بسبب إلحاده، فقد اتهم رسميًا بجرائم ضد الإنسانية وجرائم الإبادة الجماعية للمسلمين، وقد نصت لائحة اتهامه على أنه كان يريد تأسيس دولة قومية ـ وهي صربيا الكبرى ـ بإبادة كل الأقليات والأثنيات والأعراق في منطقة البلقان.

وقد ذاق المسلمون أنواعًا من الويل من الطاغية **سلوبودان** الذي لم يفرق بين الرجال والأطفال والنساء في الإبادة، وقد احتل الصرب مدرسة ابتدائية في سربينتشا فقتلوا فيها ٦٢ طفلًا مسلمًا، وفي فترة حكم **سلوبودان ميلوسوفيتش** قام الملحد **راتكوا ميلاديتش** بتنفيذ مجزرة سربينشا، وقد كان ملحدًا تطوريًا، ذلك بأنه قام بقتل ٨٠٠٠ مسلم بوسني في محيط سربينتشا في يوليوا من عام ١٩٩٥ بهدف التصفية العرقية والإبادة الجماعية، بحجة البقاء للأصلح والقومية الصربية، وظل يعمل في المسلمين القتل والذبح أيامًا تحت بصر العالم وسمعه، وبعد أن قتل الرجال والأطفال والنساء، وأحرق الشوارع بهدف تطهير عرقي شمولي عاقبته المحكمة الدولية بتهمة الإبادة الجماعية، والتحريض على التصفية العرقية، وجرائم ضد الإنسانية، وتم اعتقاله في ٢٦ مايو ٢٠١١م[1].

وهذا يعني ـ بلا ريب ـ أن أصحاب هذا الفكر لا يكادون يتسلطون على بقعة في الأرض حتى ينزلوا بأهلها سوء العذاب، إبادة وتعذيبًا من أجل منح فرصة البقاء لمن يتصورونه أفضل، حسب مقتضى النظرة التطورية.

---

(١) ينظر؛ المرجع السابق، ص ٣٦٥ ـ ٣٦٩.

الجرائم الأخلاقية قائمة أيضًا على أساس فكرة النشوء والارتقاء:

إذا كانت فكرة النشوء والارتقاء انبثقت عنها هذه الجرائم الكبرى ضد الإنسانية فإنّ كل فساد في الأخلاق وحرب للفضائل ونشر للرذائل إنما هو قائم أيضًا على أساسها، فسارتر الوجودي الإباحي إنما بنى فلسفته الإباحية على هذه الفكرة نفسها، وقد اتخذها الصهاينة أقوى وسيلة لتدمير الأخلاق وتحطيم الفضائل بين الناس، وقد تناول هذه الجوانب كلها الباحث الإسلامي البصير ماهر خليل في كتابه القيم **سقوط نظرية داروين في ضوء الاكتشافات العلمية الحديثة**، ونفسح له المجال ليقدم إلينا بعض ما ذكره من انتشار الفساد في الأرض، من جراء هذه النظرية، وكيف التقى المفسدون عليها ليكيفها كل منهم وفق منهجه في بث الفساد، فقد قال:

«لقد كان لاتخاذ مفهوم التطور أسلوبًا اجتماعيًا أبعد الأثر في التنكر للقيم الروحية والمبادئ الثابتة مثل العقيدة والشريعة والأخلاق.

تقول بروتوكولات صهيون: (إن داروين ليس يهوديًا، ولكننا عرفنا كيف ننشر آراءه على نطاق واسع وأن نستغلها في تحطيم «الدين والواقع»)، إنّ السر في دفع نظرية داروين ذلك الدفع القوي هو قيامها على مفهوم مادية الكون، فقد كان داروين يرى أن العالم وجد صدفة ومن هنا من وجهة نظرهم ينتفي القول بوجود قوة خالقة حكيمة مدبرة، وبالتالي تنتفي وحدانية الخالق جل وعلا.

ويقول أيضًا بمادية الكون، فيفهم الناس ويثبت في أذهان المثقفين وطلاب العلم في زمانه ومن بعده أيضًا أنّ المادة هي أساس الوجود، وأنها لا تفنى بل تتحول من صورة إلى أخرى، ولا توجد من عدم أي ليس لها بداية أو منشيء قديم. فتبدأ دعاوى الإلحاد في الظهور وكذلك اعتناقات

الوجودية والفلسفات الضالة المضلة التي تقدس المادة وتعلي من شأنها، وتهبط بالإنسان إلى درجات البهيمية البحتة، وتهمل شأن الروح فيه ولا تسمو بأخلاقياته ومبادئه وقيمه ومثله الرفيعة.

نعم.. كان داروين أول من صور الإنسان على أنه حيوان، ضاربًا الصفح عما به من ملكات قادرة ومواهب فذة ترتفع به عن كل أنواع الكائنات الأخرى، وستظل حاجزًا وأي حاجز تفصل بينه وبينها إلى يوم القيامة».

ثم عرج على دور هذه الفكرة في السياسة الجائرة التي اتبعتها الدول المتسلطة في معاملتها الشعوب، فقال: «لقد كشف الباحثون النقاب عن تأثير بعض المفاهيم السياسية التي اعتقد فيها حكام الغرب وزعماؤهم بأقوال داروين ومبادئه، فحاولوا أن يلتمسوا لأنفسهم الأسباب التي تعينهم على احتلال الشعوب من خلالها.

نعم.. استغلوها في محيط السياسة مما أدى إلى خلق جو مضطرب وحياة مكفهرة تطل منها مذاهب العبقرية، فقد كان قول داروين بأنّ العناصر الضعيفة يجب أن تموت أو تستأصل، قولًا استغلته حركة الاستعمار العالمي أيما استغلال، فجعلته نظرية مرموقة تحتاج إلى تطبيق، فطبقتها على البلاد المحتلة، وخاصة بلاد العالم الثالث، فنهبت خيراته، وأجهزت على ثرواته الطبيعية تستنزفها بقدر ما تستطيع ظنًا منهم بأنهم الجنس الأسمى بالوجود والعيش في رغد وهناء فهو بالطبع الأكثر تطورًا والأرقى فكرًا والأسمى في مشاعره وعواطفه حسب فهمهم وزعمهم، أما الجنس الأسود فهم ليسوا إخوانًا لهم في الإنسانية أو آدميين مثلهم، بل أقل مرتبة وأدنى درجة في سلم التطور الذي قال به داروين ومن سار على نهجه فأذاقوهم صنوف العذاب وألوان الهوان.

نعم.. نبت مع تلك الأفكار استغلال الإنسان لأخيه الإنسان، أو على الأقل شجعته على ذلك وزادته بما يفعل، ولكن صحوة الشعوب وثورتها على مستعمريها إنّما تدل على سقوط هذه المفاهيم وتلك الأفكار الساذجة، وتثبت أنّ الإنسان الذي استعمر واحتلت أراضيه يومًا ما، لم يكن سلبيًا أو جبانًا ولا متدنيًا في عواطفه أو مستسلمًا في إرادته، بل ربما كان أرقى عاطفة وأكثر حسًا من مثيله الأوربي، وتمر الأيام لتثبت عكس أوهام داروين وخطأ معتقداته.

لقد تركت تلك النظرية آثار الصراع من أجل البقاء في أوساط السياسة والحرب، فالبقاء للأصلح وللأقوى كما تقول وتدعي هذه النظرية، وكان لمبدأ بقاء الأصلح أثر في مخططات الاستعمار وإبادة الأجناس المغلوبة على أمرها. لقد كتب المفكر الإسلامي الدكتور **محمد عمارة** مقالًا مستفيضًا في هذا الموضوع أوضح فيه العلاقة بين الداروينية والماركسية، كتب يقول تحت عنوان **الإسلاميون الحضارة الغربية:**

الداروينية.. والماركسية: لقد كان التوازن ـ ولا يزال ـ من أهم القسمات التي تميزت وتميز بها الحضارة الإسلامية عن غيرها من الحضارات.. التوازن الذي وفقت به حضارتنا وجمعت وآخت بين ما يمكن جمعه من عناصر حسبها الكثيرون في الحضارات الأخرى أقطابًا متنافرة لا يمكن الجمع بينها، فضلًا عن التأليف والتوفيق.. لقد وازنت بين العقل والنقل.. الدين والدنيا.. المادة والروح.. الفرد والمجموع ثبات مقاصد الشريعة وتغيرات السياسة والاجتماع والاقتصاد.. إلخ.

وعلى العكس من هذه السمة الحضارية الإسلامية كان الصراع والتناقض هو المطلق شبه الوحيد في فكر الحضارة الغربية وممارستها.. قامت عليه، ودعت إليه نظرياتها العلمية الكبرى.. وفي مقدمتها الداروينية ـ العلم الطبيعي ـ الماركسية في العلوم الاجتماعية.

في التطور الطبيعي والإنساني: غدت الداروينية قسمة رئيسية من قسمات الفكر الأوربي الحديث.. وكان الناس ينظرون إليها في عصر المودودي على أنها حقيقة علمية، لا يأتيها الشك من بين يديها ولا من خلفها. ولم تكن الأبحاث العلمية التي عارضتها قد بلغت ما بلغته الآن.. وخلاصة هذه النظرية عند داروين Darwin (١٨٠٩ ـ ١٨٨٢) هي:

أن نشأة الحياة والأحياء وتطورهما محكومان بقانون تنازع البقاء وفي هذا التنازع قانون حاكم يقضي بأنّ البقاء للأصلح، والأصلح هو الأقوى.. فله البقاء والفناء للضعيف؟!..

وإذا كانت الهيجلية ـ في تفسير التاريخ ـ قد جعلت نسخ العصر الجديد لثوابت العصر القديم أمرًا مشروعًا وطبيعيًا وقانونيًا بل وتنفيذًا للحتمية.. فإنّ الداروينية تجعل نسخ القوى للضعيف، بإفنائه وإزاحته من الطريق هو القانون؟!..

وقد لعبت هذه الفلسفة الدور الأعظم في تبرير عدوانية الرجل الأوربي على غيره وعدوانية حضارته على غيرها من الحضارات.. فالاستعمار الاستيطاني، الذي يبيد السكان الأصليين ـ كما في حالة الهنود الحمر ـ أو يهجرهم أو يقذف بهم في الصحاري والأحراش ـ كما حاول الفرنسيون في الجزائر، ويحاول البيض في جنوب أفريقيا، والصهيونية في فلسطين ـ تبرره الداروينية، لأنه تنازع على البقاء، الأقوى هو الأحق والأجدر بهذا البقاء!.. والاحتلال العسكري والسيطرة السياسية والنهب الاقتصادي والنسخ والمسخ والتشويه لمواريث الفكر في حضارات البلاد التي هيمن عليها الغرب، هو تنازع على البقاء بين قوة الغرب وضعف هذه البلاد.. ولذلك فإنّ تجربة شعوب هذه البلاد المستعمرة والتابعة من مقدرات بلادها. وهو نوع من الإجلاء عنها! تبرره الفلسفة الداروينية الخاصة بتنازع البقاء. فالبقاء للأقوى،

والأقوى هو الأصلح؟! والصلاح هنا تحدده مادية الحضارة الغربية، فتجعله مرادفًا للقوة؟!.

لعبت هذه الفلسفة الداروينية الدور الأعظم في تبرير عدوانية الرجل الأبيض الأوربي وحضارته.. فوجدناه يفترس الشعوب المستضعفة.. ووجدنا حضارته تمسخ حضارات المستعمرات، تمهيدًا لإزالتها والانفراد بالساحة.

وانطلاقًا من هذه الفلسفة لم يشعر كثيرون من مفكري الغرب بالخجل وهم يباهون بما صنعت بلادهم من المستعمرات.. فـ (ماكس نوردو) (١٨٤٩ ـ ١٩٢٣م) يتحدث عن المشروع الفرنسي لاقتلاع شعب الشمال الأفريقي لحساب الاستعمار الاستيطاني فيقول: (إنّ شمال أفريقيا سيكون مهجرًا ومستوطنًا للشعوب الأوربية.. وأما سكانه الأصليون فسيدفعون نحو الجنوب إلى الصحراء الكبرى، إلى أن يفنوا هناك؟!..)

وجاء **غابرييل هانوتو G. Hanotaux** (١٨٥٣ ـ ١٩٤٤) يقول عن رسالة فرنسا في الجزائر: (إنّ شعبنا جمهوري المبادئ.. قد تقلد زمام إدارة شعب آخر، منتشر في الأرجاء الفسيحة والأصقاع المجهولة، يتبع تقاليد وعادات غير التي نعنو لها ونحترمها، من الشعب الإسلامي السامي الأصل، الذي يحمل إليه الشعب الأروبي المسيحي الجمهوري الآن: ملح وروح المدنية..؟!).

أما **سايسيمون دي** فيقول سنة ١٨٣٠م عن هذه المهمة الغريبة، مهمة غزو الجزائر: (هذه المملكة الجزائرية التي ستصبح بلدًا جديدًا يتدفق إليه الفائض من السكان ومن نشاط أبناء فرنسا..)؟!..

ولقد كتبت تقاريرهم عن اللغة القومية للجزائر، وصراع البقاء بينها وبين الفرنسية سنة ١٨٤٨م: (إنّ الجزائر لن تصبح فرنسية إلا عندما تصبح لغتنا الفرنسية لغة قومية فيها. والعمل الجبار الذي يجب علينا إنجازه هو

السعي وراء جعل الفرنسية اللغة الدارجة بين الأهالي إلى أن تقوم مقام العربية، وهذا هو السبيل لاستمالتهم إلينا، وتمثيلهم بنا وإدماجهم فينا وجعلهم فرنسين..)؟!.

أما عن الإسلام فكرية ـ إيدولوجية ـ للشعب الجزائري فلقد عبر الكاردينال لافيجري عن الموقف منه عندما أخذ الفرنسيون يحتفلون بمرور قرن على احتلالهم للجزائر فقال:

(إنّ عهد الهلال في الجزائر قد غبر، وإنّ عهد الصليب قد بدأ وأنه سيستمر إلى الأبد.. وإنّ علينا أن نجعل أرض الجزائر مهدًا لدولة مسيحية مضاءة أرجاؤها بنور مدنية منبع روحها الإنجيل..)؟!.

لقد صدرت هذه الأقوال ـ وأمثال كثيرة من هؤلاء المفكرين الغربيين ـ وأمثالهم كثيرون ـ دون أن يشعروا بالخجل، لأنهم كانوا ينطلقون من فلسفة تقول لهم: إنّ تنازع البقاء، وإفناء القوي للضعيف هو القانون العلمي الواجب النفاذ!..»[1].

وهذه، كلها شواهد لا يحوم حولها الريب أنّ هذه النظرية اختلقت ودعمت وبثت؛ من أجل غايات بعيدة عن القيم الإنسانية والتسامح بين الناس والتعامل بينهم بالعدل والإنصاف، وأنّ جميع الناس سواسية في القدر والأصل، كما رسخ الإسلام ذلك في أتباعه، إذ أزاح جميع النعرات التي تميز بين الناس، فتضع بعضهم وترفع آخرين، وتأصيل هذه المساواة بين الناس في القرآن في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ [الحجرات: ١٣]، فلا سبيل إلى استعلاء بعضهم على

---

(١) ماهر خليل: سقوط نظرية داروين في ضوء الاكتشافات العلمية الحديثة، ص ٢١٤ ـ ٢١٨، المركز العربي للناشر والتوزيع ـ القاهرة.

بعض، إذ ليست الميزة بالأنساب والأحساب أو الألوان، وإنما الميزة بالتقوى، فهي الصلة بين العبد وربه، ترفع من قدره عند الله، وهكذا يجب أن يكون عند الناس.

وأكد ذلك النبي ﷺ في قوله: «**إنّ الله قد أذهب عنكم عبية الجاهلية وفخرها بالآباء، مؤمن تقي وفاجر شقي، أنتم بنو آدم وآدم من تراب، ليدعن رجال فخرهم بأقوام إنما هم فحم من فحم جهنم أو ليكونن أهون على الله من الجعلان التي تدفع بأنفها النتن**»(١).

وقد تضافرت بهذا المعنى روايات، ومن مباديء الإسلام العدل والإنصاف بين الناس جميعًا، من غير التفات إلى عنصر أو لون أو فكر أو قرابة أو مودة أو بغضاء، فقد قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓاْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء: ١٣٥].

وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٨]، وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّواْ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ [النساء: ٥٨].

---

(١) أخرجه أحمد بتقديم وتأخير؛ **مسند أحمد**، (رقم: ١٠٧٢٧، ٥٦٥/٩)، وأبو داود بلفظه؛ **سنن أبي داود**، كتاب (٤٠) الأدب، باب (١١٠، ١١١) في التفاخر بالأحساب، (رقم: ٥١١٦، ص ١٥٩٨)، والبيهقي؛ **السنن الكبرى**، كتاب الشهادات، باب (٧١) شهادة أهل العصبية، (رقم: ٢١٠٦٢، ٣٩٢/١٠).
وأخرجه أيضًا: الترمذي؛ **سنن الترمذي**، (٤٦) أبواب المناقب، باب (٧٤) في فضل الشام واليمن، (رقم: ٣٩٥٦، ص ٢٠٥٥)، والخطيب البغدادي؛ **تاريخ بغداد**، ترجمة: إبراهيم بن موسى الجوزي، (رقم الترجمة: ٣٢٤٤)، (١٨٨/٦).

ولم يكن هذا مجـرد تنظير، وإنما كان تطبيقه في حياة الأمة الإسـلامية تحت رقابة الله تعالى وبتوجيهه ﷻ، فعندما تآمر بعض الناس من المحسوبين على الإسلام ضد أحد اليهود لأجل الستر على قريبهم الذي سرق، فخافوا أن ينكشف أمره، وألقوا بالسرقة في بيت يهودي، وأشاعوا أنه هو السارق، نزل قرآن من عند الله تعالى لتبرئة ذلك اليهودي، وكشف هذه المؤامرة الخسيسة، وهو قوله تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ۞ وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ۞ وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ۞ يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ۞ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ۞ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ۞ وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ۞ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ۞ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ ۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾ [النساء: ١٠٥ ـ ١١٣].

وإذا تبيّن لك بطلان الناموسـين المذكورين أدركت أن **ناموس المطابقة** ـ وهو التطور بسـبب الأغذية ـ **وناموس الوراثة**، لا يختلفان عن الناموسين المذكورين من قبل، فـكل ذلك وهْم ليس عليه من دليـل، فكم من دواجن الحيوانات تطعم ما يطعمه الناس من أنواع الطعـام الراقي، الذي يعد بعناية فائقة، ولكن ذلك لا يغير شـيئًا من طباعها، ولا يحول نسلها إلى جنس غير جنسها، فالكلب يبقى كلبًا، والهر يبقى هرًا، وهكذا سائر الحيوانات.

والله تعالى اقتضت حكمته أن تتنوع مخلوقاته، ويتميز بعضها على بعض بما جعل الله فيها من الخصائص الخِلْقِيَّة، وفي هذا التنوع تكامل بين مخلوقات الله تعالى، فإنّ لكل منها دوره في هذه الحياة، لا فرق في ذلك بين صغارها وكبارها حتى صغار النمل وما هو أدق منها، ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾ [الرعد: ٨].

وبقاؤها على ما هي عليه عبر هذه القرون من غير أن تنقرض الأجناس التي هي أضعف وأصغر دليل بيّن على أنّ قضية تنازع البقاء وهْم لم يبن على شيء من العلم والدليل.

على أن هناك من الأجناس التي تلاشت وانقرضت ما هو أقوى بكثير مما ظل باقيا إلى الآن، فكم بين الديناصور وبين الحشرات التي تعيش بيننا من فارق في القوة.

وقد أثبتت نتائج الأحافير وعلم الفيزياء والكيمياء الحيوية فشل هذه النظرية وبطلانها، ونؤخر الحديث في ذلك إلى ما سيأتي إن شاء الله.



الفصل الثالث

في نقض الداروينية بأدلة البرمجيات ولغاتها

وفيه مبحثان:

- المبحث الأول: في بناء الفكر الداروينى الجديد على أساس الطفرات العشوائية ونقض ذلك.
- المبحث الثاني: في انتقاض هذا الأساس بهندسة البرمجيات.

في بناء الفكر الداروينـي الجديد على أساس الطفرات العشوائية ونقض ذلك

الطفرات جمع طفرة، وهي لغة: «وثبة في ارتفاع كما يطفر الإنسان حائطًا أي يثبه. والطفرة: الوثبة»[١].

وهي في الاصطلاح عند علماء الكيمياء الحيوية: «تغير في نسق الجينوم (Genome) ـ المادة الوراثية الخاصة بالكائن الحي ـ»[٢]، وسيأتي مزيد بيان لها إن شاء الله.

من المعلوم أنّ الطفرات العشـوائية هي من الأسس التي تقوم عليها نظرية التطور، فحسـب هذه النظريـة تتعرض المخلوقـات إلى طفرات عشـوائية متلاحقة على مر الملايين من السنين، كل طفرة منها تؤدي إلى تغيير جزئي في صفات أو شـكل الكائـن الحي، حتى يتكامـل التغيير بالتعاقب المستمر إلى أن يتحول الجنس إلى جنس آخر، ولكن هل يمكن أن يتحقق بهذا التَّغْيِيرُ الذي يريدون إثباته، وهو التطور إلى الأرقى حتى يكون البقاء للأصلح كما زعموا؟.

---

(١) ابن منظور: لسان العرب، مادة (طفر)، ١٢٤/٩.

(٢) د. هيثم طلعت: ٤٠ خطأ فـي نظرية التطور، أخطاء لا يريدونـك أن تعرفها!!، ص٦٤، (بدون باقي البيانات).

يجيبنا عن هذا العلماء المختصون بالكيمياء الحيوية وعلم وظائف الأعضاء، بأنّ الغالبية الساحقة من الطفرات العشوائية[١] تؤدي إلى الضرر بالكائن الحي، وينتج عنه تشوه أو مرض، ومن يصاب بهذه الطفرات يكون نصيبه في الحياة ضئيلًا جدًا، وقد اعترف جماعة من التطوريين بهذه الحقيقة منهم العالم التطوري **دوبجانكي** القائل: «معظم الطفرات سواء في المختبرات أو في الطبيعة نتج عنها تراجع في القدرة على البقاء، أو أمراض وراثية، أو تشوهات، وتغيرات كهذه لا تصلح كي تكون أساسًا لعمليات التطور»[٢]، وهذه حقيقة أكدتها مجلة **ساينتفيك أمريكان** حين نشرت ما يلي: «أدت الطفرة في الجينات إلى أكثر من ٩٩٪ من الحالات إلى تأثيرات ضارة، وخلل في وظائف الأجهزة والأعضاء في الكائن الحي»، ويقول الدكتور **روبرت جميس غالغي**: «الأمر مشترك في معظم الطفرات، هو أنها انتكاسية أو تراجعية، أي تؤدي إلى تشوه، بمعنى آخر تكون للأسوأ لا للأفضل، والكائن الناتج عنها أقل تطورًا من سلفه»[٣].

وبناء على ما يدعيه التطوريون فإنّ الطفرة يترتب عليها ظهور وظائف جديدة في الكائن الحي، نتيجة بروز بروتينات تخصصية صادرة عن التغير في المادة الوراثية، وإذا تكاثرت الطفرات تغيرت خصائص الكائن الحي بالكلية ليتحول إلى كائن آخر.

وهذه دعوى لم تجد ما يسندها من الأدلة العلمية فمع صراع الإنسان مع

---

(١) إقرار هذا التعبير إنما هو لأجل الرد عليه فيما استخدم لأجله، وإلا فليست هنالك عشوائية، وإنما كل الذي يجري في الكون إنما هو مقدر تقديرا، كما ثبت في نصوص القرآن، وهو الذي تدل عليه الحقائق العلمية.

(٢) روبرت: **خرافة التطور**، ص٦٩.

(٣) المصدر السابق، ص٦٧.

الفيروسات نشأت (١٠ أس ٢٠) سلالة[1] فيروسات جديدة ـ وهو رقم يعادل نصف عدد الكائنات الحية التي وجدت على الأرض منذ بدء الخليقة ـ دون تكوين بروتين واحد جديد.

بل إنّ علميات ظهور سلالات جديدة لم تُظهر بروتينين جديدين صالحين في العمل في تناغم، ولم يحدث على الإطلاق تجريبيًا أو رصديًا ظهور رتب جديدة، وإذا ثبت رسميًا العجز عن رصد بروتين واحد الذي هو لبنة أي تغير وظيفي في الكائن الحي، فمعنى ذلك أن دعوى تأثير هذه الطفرات كما يزعمون لا تتعدى أن تكون خيالًا علميًا، وليس هو علمًا له احترامه التجريبي والرصدي، وإذا كانت فكرة الطفرات بهذه الهشاشة فكيف يروج لها التطوريون ـ خاصة الجدد بأنها أصل الأصول في التطور؟.

الحقيقة أنّ الأمر الوحيد الذي يرصد علميًا ويتحدث عنه التطوريون لا يعني الطفرات التي هي توليد لبروتينات جديدة، وإنما هي طفرات وظيفية في بنية بعض الجينات عندما يحدث لها خلل في ترتيب قواعدها النيتروجينية نتيجة التعرض لمؤثر ما في الغالب، فهنا لا يتشكل بروتين جديد، وإنما تختل إحدى القواعد النيتروجينية داخل أحد الجينات، فيختل البروتين الناشيء وتختل وظيفته.

وكثيرًا ما اتخذت بحوث التطفر ذبابة الفاكهة محورًا لها وعصبًا لدعاويها، حيث تعد ذبابة الفاكهة حالة ملائمة لمثل هذه الدراسة، فالجينوم الخاص بها يمكن التلاعب به بسهولة، ويضاف إلى ذلك قصر حياتها ودرواتها التكاثرية المتتابعة، فإنّ ذلك يسمح للعلماء بملاحظة وتتبع العديد من الأجيال، فخضعت ذبابة الفاكهة للعديد من التجارب، إذ قذفت بإشعاع

---

(١) هذا الرقم بحاجة إلى إثبات علمي دقيق وإنما أوردته كما جاء في الأصل المنقول عنه.

لزيادة معدل الطفرات، وعند العلماء حاليًا فكرة واضحة جدًا عن نوعية الطفرات التي يمكن أن تحصل.

وبعد رصد ملايين الأجيال تبين أنه ليس هناك أي دليل على أن الطفرات في ذبابة الفاكهة تخلق بنى جديدة، فما قامت به الطفرات ما هو إلا تغيير للبنى الموجودة، فقد أنتجت الطفرات أجنحة مجعدة أكبر من المعتاد، وأصغر من المعتاد، كما أنتجت مجموعة مضاعفة من الأجنحة، لكنها لم تخلق نوعًا جديدًا من الأجنحة.

وقد ولدت الطفرات مسوخًا ذات سيقان تنمو بحيث يجب أن تنمو قرون الاستشعار في حالة تعرف باسم سيقان الاستشعار (Antennapedia)، وحتى هذه المسوخ ليس هي إلا إعادة تركيب لبنى موجودة وإن كانت غريبة[1].

ولكن رغم هذا فإنّ التطوريين يؤكدون أنّ الطفرات هي من أهم آليات التطور ودعائمه، وأنها تشكل مع الاصطفاء الطبيعي لب عملية التطور وأساسها، وهذا يدعونا إلى مزيد من التعرف على هذه الطفرات وكيفية حدوثها وآثارها؟.

إن كلمة طفرة هي ترجمة للكلمة الإنجليزية (Mutation) وأصلها كلمة لاتينية وهي (MUTARE) ويطلق هذا المصطلح على التغير الذي قد يحصل على نواة الخلايا الحية، وبالتحديد على الحمض النووي ـ كما سبقت الإشارة إليه ـ على أن يكون هذا التغيير قابلًا للتوريث، بحيث ينتقل من الكائن الذي أصابته الطفرة إلى ذريته، وتصبح الأجيال اللاحقة مختلفة عن الأجيال السابقة، ومن الأمثال على بعض الطفرات مرض المهق، فمن يصاب بهذا المرض يختلف شكله عن بقية الناس، بحيث يبيض شعره وبشرته، وتغدو عيونه زهرية وسبب هذا المرض اختلال في الجينات أو طفرة.

---

(١) ينظر؛ د: هيثم طلعت: ٤٠ خطأ في نظرية التطور، ص٦٤ ـ ٦٧.

وكيف تحدث الطفرات؟ تجيب عن ذلك مجلة **علم الأحياء اليوم** بأن: «الطفرات تحدث غالبًا بسبب عوامل توجد عادة في الظروف المحيطة أو البيئة أشعة كونية، أو أشعاعات أيونية، أو عمليات أيض في الخلية، أو خلل في نسخ الجينات».

فمثلًا المهاق الذي تقدم ذكره، ينتمي إلى فئة الخلل في نسخ الجينات، وكذلك متلازمة داون فإنّ ذلك أيضًا ينتمي إلى تلك الفئة.

هذا؛ ولا يخفى أنّ البرمجيات التي تحتويها نواة الخلايا الحية ـ وهي الحمض النووي ـ لها العديد من الوظائف ـ كما سيأتي إن شاء الله في الباب الآتي ـ «فهذا الجزيء العجيب يحتوي على كمية هائلة من المعلومات المشفرة وهي في شكل لغة برمجية حيوية، وأسسها أربع روابط تعد بمثابة أبجدية من أربعة أحرف كما سيأتي شرحه ـ إن شاء الله ـ والشيفرة المكتوبة بهذه الأبجدية تحتوي على كل صفات الكائن الحي بالتفصيل، من أمثال لون بشرته، وشكل أعضائه الخارجية، وطوله، وسعة عينيه، وشكل أذنيه، وحكم كل عظم من عظامه، وقدرته على مقاومة الأمراض، وكل صفة من هذه الصفات يتصف بها كل عضو من أعضائه، وكل جهاز من أجهزته، وهي الصفات المشفرة في الحمض النووي، وهي تنتقل من الكائن الحي إلى ذريته عن طريق التكاثر حيث تقوم الجينات باستنساخ نفسها ذاتيًا، وتمرر النسخ الجديدة إلى الخلايا التناسلية، وعندما يحدث اللقاح، وهو التقاء الخلايا التناسلية للذكر والأنثى تتشكل الذرية وتكون جميع المعلومات الجينية التي تحتويها مورثة من آبائها وأمهاتها، لأنها ناتجة عن الجينات التي وصلتها من الخلايا التناسلية.

أما الطفرة بمفهوم الداروينية الجديدة، فهي أن يحدث تغير في المعلومات التي يحتويها الحمض النووي، لكائن من الكائنات، على أن يكون هذا التغير قابلًا للتوريث من الأسلاف إلى الذرية، فيظهر أثره عليها

على شكل تشوه أو نقص أو مرض أو غير ذلك، ويزعم التطوريون أنه يكون على شكل صفة جديدة في الكائن الحي، وهناك عوامل عدة قد تؤدي إلى مثل هذه الأخطاء، وهي ما يوجد عادة في البيئة المحيطة في الكائن الحي كتعرضه لنشاط إشعاعي أو لمواد كيميائية مؤذية، أو بسبب تناول عقار معين يؤدي إلى هذا الخلل أو إلى غير ذلك من العوامل.

وقد ينتج هذا التغير الجيني بسبب خطأ أثناء عملية نسخ هذه الجينات، وهناك أمثلة معروفة وموثقة عن الطفرات، منها على سبيل المثال التشوهات التي عانى منها الأشخاص الذين نجوا من الموت، بعد إلقاء القنبلة الذرية على هيروشيما وناغازاكي.. فقد عانى هؤلاء وذرياتهم من تشوهات رهيبة بسبب تعرضهم للإشعاعات النووية، وانتقلت بعضها لذرياتهم، ومن الأمثلة المعروفة للطفرات تلك التي سببها عقار الثاليدومايد وأدت إلى ولادة أجنة مشوهة للأهالي الذين تناولوا ذلك العقار»[1].

وكذلك الفضلات الكيميائية التي ينتهي بها الأمر إلى أن تلقى في الأنهار، فإنها تسبب طفرات مريعة على الأحياء المائية، فقد ولد بعض السمك بعين واحدة أو برأسين، بتأثير هذه الفضلات الضارة.

وقد أجرى العلماء تجارب كثيرة على الحيوانات مستخدمين مواد كيميائية مختلفة ليروا آثارها ونتائجها فنتج عن هذه التجارب دجاج دون ريش، وحشرات ذات أعين بألوان غريبة.

وقد اعتبر التطوريون أنّ الطفرات هي الإجابة عن أصل التطور، زعموا أن حدوث ملايين الطفرات على مدى ملايين السنين قد أدى إلى ظهور أشكال

---

(١) الجندي: العلم يؤكد شكوك داروين، ص٨٢، «بتصرف»، وينظر؛ روبرت: خرافة التطور، ص٦٥ ـ ٦٦.

الحياة التي نراها اليوم، ولكن هل هـذا يتفق مع الحقائق، وهل هناك براهين علمية على هذا الزعم؟.

يجيب على ذلك الدكتور **روبرت جميس** بقوله: «فكروا في الأمثلة السابقة هل حصولنا علـى دجاجة دون ريش يعـد تطورًا للأفضل بالنسـبة للدجاجة العادية؟ بالتأكيـد لا، وخاصة في برد الشـتاء! وهل سـمكة بعين واحدة أو برأسين يعد تطورًا للأفضل بالنسبة لسـمكة عادية بعينين ورأس؟! وهل طفل دون أطراف يعد تطورًا للأفضل بالنسبة لطفل عادي كامل الخلقة؟!.

الخبراء يجيبون بالنفي فتلك الطفرات قد جعلت هذه الحيوانات أسـوأ وفرصها في البقاء أقل من أسلافها، وهذا يناقض تمامًا نظرية التطور»[1].

وقد سـبق ذكر ما قالته مجلة **سـانتيفيك أمريكان** من أنّ طفرة الجينات أدت إلى تأثيرات ضـارة، وخلل في وظائف الأجهـزة والأعضاء في الكائن الحي، فـي أكثر من ٩٩٪، ويعلق علـى هذا الدكتور روبـرت جميس قائلًا: «فلنفكر بالأمر، إذا كانت ٩٩٪ من حالات الطفرة مضرة، وتجعل فرص الكائن الحي الذي يتعرض لها في البقاء أقل من سلفه، كيف إذن لأي كائن حي أن يحصل على فرصة في التطور والتحسن بسبب الطفرات؟.

الطفرات تشـبه حوادث السـير التي تحـدث فجأة دون تخطيط سـابق وبشكل عشوائي، فإذا افترضنا سيارة تعرضت لمئة حادث، فإنّ تسعة وتسعين حادثًا سـينتج عنها دمار وتخريب، وحادث واحد ينتج عنه تطوير أو تحسين في السيارة، فماذا سيبقى من السـيارات بعد كل تلك الحوادث؟ وعلى كل حال مهما حصل لها فستبقى سـيارة ولن تتحول إلى طائرة، والتغير الوحيد الذي سيحصل لها (إن سلمت وبقيت) هو أنها أصبحت أسوأ من ذي قبل.

---

(١) روبرت: خرافة التطور، ص٦٧.

والأمر نفسه ينطبق على الطفرات الجينية، إذ تنتج عنها كائنات أسوأ من تلك التي تعرضت للطفرة بالأصل، كما أنها لا تؤدي إلى تطور يفضي إلى كائن آخر، القطة تبقى قطة، والسمكة تبقى سمكة، ولن تصبح حيوانًا مختلفًا.

ولكن مهلًا، يقول التطوريون: (يجب علينا أن نسمح لبلايين السنين من الطفرات الإيجابية بالحصول لنرى الفرق)، ولكن هل يحدث هذا حقًا؟ هل هناك دليل واحد على أن كائنًا واحدًا تطور بهذه الطريقة؟.

لنسأل أنفسنا، إذا لم تقم بصيانة سيارتك بشكل دوري، ماذا سيحصل لها بمرور الزمن؟ ألن تصدأ حتى الزوال؟ حتى أمواج البحر تحول أكبر جرف صخري إلى حجارة صغيرة، الوقت يدمر يا سادة ولا يبني.

من بين كل التجارب التي أجراها العلماء على الطفرات لم ينتج عن أي منها نوع جديد من الحيوانات أو النباتات، فمهما كان التغيير الذي يطرأ على الكائن يبقى هو نفسه (الحيوان نفسه أو النبات نفسه)، هذه حقيقة علمية مثبتة بالدليل والبرهان ولا شك فيها»[1].

ولا ريب أنّ الطفرات ـ التي يعول عليها التطوريون ويعتبرونها السبب وراء التطور الذي ملأ العالم (بزعمهم) بالكائنات المتنوعة ـ هي الطفرات الناتجة عن أخطاء في نسخ الجينات، كما بين ذلك **ريتشارد داوكنز** ـ الملحد الغالي وهو من أشهر المؤيدين للتطور والمدافعين عن الداروينية الجديدة ـ فقد قال في كتابه **صانع الساعات الأعمى** عند كلامه عن الطفرات التي تسببها الأخطاء في نسخ الجينات: «عندما تقرأ كلمة (خطأ) لا يخطر على بالك إطلاقًا ما تحمله هذه الكلمة من معاني الازدراء والسلبية، فهي تعني خطأ من وجهة نظر النسخ بأمانة وبدقة عالية، ولا يستبعد أن تؤدي مثل هذه الأخطاء إلى

---

(١) المرجع السابق، ص ٦٨ ـ ٦٩.

تحسين وتطور، وأجدني أقول بجرأة إنّ أفضل أطباق المأكولات العالمية كانت بسبب خطأ ارتكبه أحد الطباخين، في إعداد طبق وفق وصفة مكتوبة»[1].

وهذا يعني أن كل الكائنات على الأرض وجدت وتطورت نتيجة أخطاء في طبخة الخلق كما قال الأستاذ فداء ياسر الجندي، فهل هذا صحيح؟.

من المعلوم أن التطوريين لا ينكرون أنّ الأغلبية الساحقة من الطفرات الجينية ليست مفيدة، ولا ينتج عنها إلا التشوهات، وهي غير قابلة للتوارث، غير أنهم يزعمون أن نسبة ضيئلة منها قد تكون مفيدة، كما يزعم ريتشارد داوكنز وقد تنتج عنها صفة أو ميزة إضافية للكائن تميزه عن أمثاله، فيحتفظ بها ثم يورثها لنسله من بعد، وعندئذ يعمل الاصطفاء الطبيعي على مر الأيام، فتبقى الكائنات التي اكتسبت الطفرة المفيدة لأنها حظيت بكونها أصلح للبقاء، بينما تنقرض الكائنات التي لا تحظى بذلك والنتيجة النهائية لذلك الحصول على نوع المحسن من هذا الكائن، وهكذا. فإذا تراكمت الملايين من الطفرات المفيدة خلال الملايين من الأجيال فستنتج أجناسًا جديدة لم تكن من قبل، وهذه آلية تطور الكائنات بعضها عن بعض حتى يؤدي ذلك في النهاية إلى ما نراه اليوم من تنوع الكائنات الحية وتعدد أجناسها، وهي جميعًا ـ حسبما يزعمون ـ ناتجة عن أصل واحد مشترك، ولكنه تطور بفعل تراكم الطفرات العشوائية ثم بفعل قانون الانتخاب الطبيعي الذي تعاقب عليها فأبقى الأصلح منها.

هذا ما يزعمونه، وكل قول بلا دليل هو دعوى بغير بينة، فهي غير مسموعة، فهل من دليل على ما يقولونه؟.

---

(١) ريتشارد داوكنز: **الداروينية الجديدة صانع الساعات الأعمى**، ص ١٨٤، ترجمة: مصطفى إبراهيم فهمي، مكتبة الفكر الجديد، دار العين للنشر ـ مصر، ط ٢: ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م. «بتصرف»

يجيب على ذلك الأستاذ فداء ياسر الجندي أن: «الأدلة التي يأتي بها التطوريون في كتبهم؛ لا تعدو أمرين:

الأول: ما يأتون به من أمثلة على تغيرات تحصل على صفات بعض الكائنات الموجودة على الأرض نتيجة لعمليات التهجين التي يقوم بها البشر للحصول على سلالات أفضل أو سلالات تتمتع بصفات مطلوبة، مثل خراف بصوف أوفر، أو نباتات بثمار أكبر، وأكثر حلاوة، أو غير ذلك.

والأمر الآخر: ما يعتبرونه تغيرًا يطرأ على بعض الكائنات نتيجة لتغير الظروف المحيطة بها، ومن الأمثلة التي لا تفتأ كتبهم ترددها وتتغنى بها التغير الذي طرأ على ألوان نوع معين من الفراشات في بريطانيا بعد قيام الثورة الصناعية وانتشار الدخان في الأجواء وتراكمه على ورق الشجر ولحائه، فأصبحت الفراشات البيضاء أو فاتحة اللون أوضح ظهورًا للطيور التي تتغذى بها، فتناقصت أعدادها، أما الفراشات الداكنة اللون فأصبحت رؤيتها أصعب فازدادت أعدادها، وشيئًا فشيئًا اختفت الفراشات الفاتحة وأصبحت جميع الفراشات في تلك المنطقة داكنة اللون، ومنها أيضًا ظهور أنواع من البكتيريا بصفات جديدة كتلك الأنواع التي تقاوم المضادات الحيوية»[1].

وتساءل بعد ذلك: هل يمكن اعتبار هذه الطفرات قد يؤدي تراكمها إلى ظهور أنواع جديدة من المخلوقات؟! وقبل الإجابة عن ذلك حدد الشروط العلمية التي ينبغي أن تكون في أية طفرة حتى تكون طفرة مفيدة تؤدي إلى تطور في الكائن الحي.

---

(١) الجندي: **العلم يؤكد شكوك داروين**، ص ٨٤.

ونقل ما ذكره الدكتور جون أشتون في كتابه **التطور المستحيل** عندما حدد التغيرات التي تطرأ على الحمض النووي للكائنات، أي التغيرات الجينية وقسمها إلى ثلاثة أنواع.

«**النوع الأول**: تغيرات تؤدي إلى تنحي أو فقدان بعض المعلومات الجينية، ومثالها تغير لون الفراشات الذي ذكرناه آنفًا بسبب انتشار الدخان الأسود الناتج عن المصانع، والذي أدى لاختفاء الفراشات الفاتحة اللون، وبقاء الفراشات ذات الألوان الداكنة، فهذا المثال ليس دليلًا على التطور ولا على حدوث طفرات تؤدي إليه لأن الذي حدث في هذه الحالة لم يكن إضافة معلومات جينية جديدة إلى الحمض النووي، بل كان تنحي الفراشات التي تحمل جيناتها شيفرة اللون الفاتح، لأنها أصبحت معرضة للافتراس من قبل الطيور التي تستطيع مشاهدتها بسهولة، ثم افتراسها، أما الفراشات الداكنة فرؤيتها أصعب لانتشار السواد على لحاء وأوراق الشجر، وهكذا يعمل الاصطفاء الطبيعي هنا، فتسود الفراشات الداكنة وتنتشر، وتختفي الفراشات الفاتحة، وعلينا هنا أن نلاحظ أمرين:

الأول: أنّ الفراشات الداكنة ما زالت تحمل في جيناتها شيفرة اللون الفاتح، وقد ينتج عنها فراشات فاتحة، ولكنها يتم افتراسها سريعًا قبل أن تتكاثر، بينما تبقى الفراشات الداكنة وتتكاثر، وهكذا تسود الفراشات ذات اللون الداكن.

والأمر الثاني: أن ما يحدث هنا لا ينتج عنه كائن جديد، فالفراشة بقيت فراشة، ولا يمكن بحال أن نتخذ هذا المثال دليلًا على أن التغير الجيني الذي حدث يمكن أن يؤدي لظهور كائنات جديدة.

والأمر نفسه ينطبق على ما يزعمونه من تطور البكتيريا، فقد قام العلماء بتجارب على عشرات الآلاف من الأجيال المتعاقبة من

البكتيريات على مدى العقود السابقة، وعرضوها بمختلف أنواع التغيرات والطفرات، فنتجت بعض أنواع البكتيريا ذات صفات جديدة، ولكنها لم تكن نتيجة معلومات جينية جديدة، بل نتيجة تنحي بعض الجينات وتغليب غيرها، وفي النهاية بقيت بكتيريا ولم تتحول إلى كائن آخر، ولا حتى إلى دودة أو وحيد خلية، رغم أنّ بعض التجارب استمرت لما يزيد على ٣١٥٠٠ جيل من البكتيريا، وقد قام بهذه التجارب الدكتور ريتشارد لينسكي مع فريق علماء الكيمياء الحيوية، العاملين في مختبرات الكيمياء الحيوية، في جامعة ميتشيغان.

النوع الثاني: تغيرات أو طفرات تحصل بسبب انتقال معلومات جينية من كائن لآخر، أي أن يتم إضافة معلومات جديدة إلى الحمض النووي (DNA) لكائن ما، ولكنها ليست جديدة بل تنتقل عنه من كائن آخر، ولهذه الحالة أمثلة عديدة من أشهرها ما يحصل في عمليات التهجين بين الحيوانات أو بين النباتات، ومثال ذلك أن يقوم المزارعون بعملية تهجين بين سلالتين من الأغنام، إحداهما ذات صوف غزير والأخرى ذات لحم وفير، فيحصلون بعد عدة أجيال على سلالة ذات صوف غزير ولحم وفير، فالذرية الناتجة عن هذا النوع من التهجين لا تحوي معلومات جينية لم تكن موجودة سابقًا في أسلافها، ولكنها تعتمد على تجميع صفات مطلوبة موجودة في أجيال سابقة للحصول على أجيال ذات صفات محسنة، وهذا النوع من الطفرات شأنه شأن النوع الأول لا يمكن أن تنشأ عنه صفات جديدة لم تكن موجودة في الأسلاف، ولا أعضاء جديدة للكائن الحي، فضلًا عن تحوله إلى كائن آخر، لأنها لا تؤدي إلى ظهور معلومات جينية جديدة، بل خلاصتها أن تقوم بتنحية الصفات غير المرغوبة، وتغليب الصفات المرغوبة عن طريق تهجين كائنات تكون الصفات المرغوبة فيها

ظاهرة، والصفات غير المرغوبة متنحية، ولم يسجل التأريخ إطلاقًا أنّ التهجين نتج عنه كائن جديد وإن حصل، (كالبغل الناتج عن تهجين الحمار والحصان)، فالناتج عقيم غير قابل للتكاثر والتوالد.

النوع الثالث: طفرات سببها تولد معلومات جديدة في الحمض النووي للكائن الحي، لم تكن موجودة من قبل، وهذه المعلومات تؤدي لظهور صفات جديدة أو أعضاء جديدة أو عمليات حيوية جديدة في الكائن الحي، كمثل أن تظهر للدودة أرجل أو للزواحف أجنحة، أو أن يتطور جهاز التنفس لكائن حي يعيش تحت الماء، بحيث يستطيع التنفس في الهواء الطلق، وهذا النوع من الطفرات هو الذي تقوم عليه الداروينية الجديدة، وقد حاولت بواسطته أن تنقذ نظرية داروين بعد أن انهار أحد أهم أساساتها مع تقدم العلم الذي أثبت أن الظروف الطبيعية لا يمكن أن تغير صفات الكائن الحي، وأن أي تغير أو تطور في صفاته لا بد أن يحدث على مستوى الجينات وفي شيفرة الحمض النووي، فاضطر التطوريون أن يعدلوا عن الدروينية القديمة التي تقول إن التطور يحدث نتيجة تكيف الكائن مع بيئته، ويحدث نتيجة لطفرات عشوائية متراكمة على مر الزمن السحيق، وهذه الطفرات ـ كما يزعمون ـ هي تغير في الحمض النووي يؤدي لإضافة صفة جديدة إلى الكائن الحي، وبما أنّ كل صفات الكائن الحي مكتوبة في الحمض النووي على شكل معلومات فلا جدال أنّ إضافة صفة جديدة لأي كائن حي لن تحدث إلا إذا تمت إضافة معلومات جديدة لم يكن الحمض النووي يحتويها، فتؤدي هذه الإضافة إلى ظهور صفة جديدة، فالتعريف العلمي الدقيق للطفرة هي أنها: (تغير على الحمض النووي يؤدي لتغير في المعلومات والبرمجيات التي يحتويها، أو لإضافة معلومات وبرمجيات جديدة إليها، وهذا يؤدي لظهور صفات جديدة أو أعضاء جديدة).

فالمعلومات كما هو واضح من أهم الأسس التي تقوم عليها الحياة، وقد اتضح أنّ الكون مادة وطاقة معلومات»[1].

وقد رأيت كيف أدت الحيرة بالتطوريين إلى أن يتشبثوا بما لا يجديهم شيئًا كدعواهم أنّ في انتشار الفراشات السوداء على حساب الفراشات البيضاء نتيجة الدخان الأسود، الذي ترك أثره على أوراق الشجر ولحائها، فتمكنت الفراشات السوداء من الاختفاء وكانت البيضاء عرضة لاصطياد الطيور لها، وأي حجة أو دليل في هذا مع أن ذلك كان نتيجة حالة اصطناعية، ولم يكن ذلك بتعاقب أيام ولا بانتخاب طبيعي، وإنما كان مسببًا بسبب معلوم، وبقاؤه مرهون ببقاء سببه، فإنّ بقي السبب بقي المسبب، وإنّ زال زال بزواله.

(١) المرجع السابق، ص ٨٥ ـ ٨٨. «بتصرف يسير»

في انتقاض هذا الأساس بهندسة البرمجيات

بناء على هذا الفكر يكون كل ما شهدته وتشهده الأرض من كائنات حية موجودة اليوم أو منقرضة بعد وجودها هو ناتج عن طفرات عشوائية على الحمض النووي للخلايا الحية، أدت إلى إضافة معلومات جديدة إليه، فمثلًا هم يقولون إن البرمائيات والزواحف تطورت من الأسماك عبر طفرات متراكمة كثيرة، استغرقت دهورًا سحيقة، فما هو المطلوب من الطفرات حتى تتحول السمكة إلى حيوان زاحف؟.

«إنّ كون السمكة سمكة أمر مرهون ـ بمشيئة الله تعالى ـ بالمعلومات والبرمجيات الموجودة في حمضها النووي، وتطورها حتى تصبح حيوانًا زاحفًا يتطلب أن يطرأ على حمضها النووي إضافات وتغييرات على البرمجيات والمعلومات الموجودة فيه، فما هي الإضافات والتغييرات التي يتوقف عليها ذلك؟.

إنّ ما يحتويه الحمض النووي للسمكة من المعلومات والبرمجيات مقدر وسطيًا بمليار ونصف مليار قاعدة نووية، أي مكتوبة بلغة القواعد النووية، وقد يزيد هذا الرقم أو ينقص بحسب أنواع السمك، فثم نوع من الأسماك يعرف بالسمك المخطط قام العلماء بوضع خارطة مفصلة لحمضه النووي، وحددوه بما مقداره مليار وأربعمائة وإثنا عشر مليون وأربعمائة

وأربعة وستون ألفا وثمانمائة وثلاثة وأربعون (١,٤١٢,٤٦٤,٨٤٣) قاعدة نووية، وهذا الرقم يزيد في البرمائيات لأنها مخلوقات متميزة على الأسماك، وقد قام العلماء بتحليل الحمض النووي لأحد أنواع الضفادع فوجدوا أن المعلومات البرمجية ـ أي عدد القواعد النووية في حمضه النووي ـ تزيد على مليار وسبعمائة مليون (١,٧٠٠,٠٠٠,٠٠٠) قاعدة نووية، ومعنى ذلك أنّ تحول السمكة إلى ضفدع موقوف على إضافة سطور برمجية تعادل ثلاثمائة مليون (٣٠٠,٠٠٠,٠٠٠) حرف من الشيفرة البرمجية إلى ما يوجد في حمضها النووي من التعليمات البرمجية!![1].

فلو فرض أنّ هذه المعلومات والبرمجيات الموجودة في الحمض النووي للسمكة أرسلت إلى فريق من أفضل وأذكى المبرمجين على وجه الأرض وأكثرهم كفاءة، وطلب منهم أن يدرسوها ويحللوها ويعدلوها، ويضيفوا إليها ما يلزم من تعليمات برمجية مقدارها (٣٠٠,٠٠٠,٠٠٠) حرف، بحيث يصبح الحمض النووي الجديد لإنتاج حيوان زاحف بدلًا من سمك، كضفدع مثلًا، فماذا عليهم أن يفعلوا؟!.

إنما ذلك يتوقف أولًا على أن يتعلموا لغة البرمجية التي يستخدمها الحمض النووي في كتابة برامجه، وأن يتوصلوا من ذلك إلى معرفة الأمر البرمجي الناتج عن كل مجموعة، مرتبة من القواعد النووية، ثم أن يفهموا ويستوعبوا تمامًا ما هو البرنامج الذي يقوم بتشكيله كل عضو من الأعضاء وكل جهاز من الأجهزة في السمكة، وكذلك البرمجيات التي تقوم بتشغيل هذه الأجهزة، كبرنامج جهاز التنفس، وبرنامج الجهاز العصبي، وبرنامج جهاز الهضم، وبرنامج عملية التكاثر، وبرنامج التحكم في النمو، وغيرها.

---

(١) هذا مع أن الفروق بين الأسماك والضفادع لا تنحصر في هذا التفاوت الرقمي، فحسب بل من الواضح أن لكل جنس طبيعته الخاصة في خلاياه.

فإنّ تجميع هذه الأجهزة والوظائف الحيوية في جسم الكائنات الحية برامج متفاوتة.

وبعد أن يحلل المبرمجون تلك البرامج جميعًا، ويعوا تمام الوعي جميع تعليماتها البرمجية وطرائق عملها عليهم أن يقوموا بتعديلها والإضافة عليها، وبلغة الحياة نفسها، حتى يأخذ كل عضو شكله الجديد، فيغيروا برامج الزعانف إلى برامج أطراف، ويحولوا التشكيل العمودي لجسم السمكة الذي يهيئها لاختراق المياه إلى شكل مفلطح محمول على الأطراف. مع تطوير عظم الحوض ليحمي الأرجل، وتطوير فقرات إضافية لتشكيل رقبة الحيوان الزاحف، لأن السمكة لا رقبة لها، وليتغير شكل الجمجمة بما يناسب حجم الدماغ الجديد، وتتغير حراشف السمكة لتصبح جلدًا أو ريشًا. ويضيفوا إلى برنامج تشكيل العين تعليمات تؤدي إلى إضافة أجفان لعيون السمك من أجل حمايتها من الغبار على اليابسة، ويحولوا الخياشيم إلى رئتين. وهكذا في جميع أعضائها.

ويتحتم على المبرمجين بعد ذلك أن يقوموا بتعديل وظائف الأعضاء والأجهزة، فعليهم أن يعدلوا برنامج التنفس بالخياشيم إلى برنامج تنفس بالرئتين، وبرنامج جهاز الهضم الذي يهضم ما تأكله السمكة تحت الماء إلى برنامج إلى ما يتلاءم في البر، وبرنامج تحريك الزعانف للسباحة إلى برنامج تحريك الأطراف للمشي، مع برامج إضافية للأصابع والمخالب، ولا بد مع ذلك من تعديلات جارية على برنامج الجهاز العصبي ليتحكم بكل هذه التغييرات الجديدة، وذلك على وظائف الهيكل العظمي لتناسب التغير الذي حصل على شكل العمود الفقري، والذي نتج عنه حوض وأكتاف تستند عليها الأطراف، وعليهم أن يجتهدوا على هذا المنوال في إجراء التعديلات البرمجية المطلوبة لتحويل السمكة إلى حيوان برمائي أو زاحف.

ولا يخفى على أحد أنّ هذا أمر في غاية التعقيد وبعيد كل البعد عن متناول عبقريات البشر وطاقات عقولهم، فتطوير برنامج التنفس بالخياشيم إلى برنامج تنفس بالرئتين ـ مثلًا ـ يتوقف على إضافة كمية هائلة من المعلومات والبرمجيات الجينية إلى الحمض النووي تقدر بمئات الآلاف إن لم تكن بملايين السطور البرمجية، فإنّ الجينات التي تحوي برنامج التنفس الجديد يجب أن تتضمن تعليمات لتغيير شكل الخياشيم وبنيتها الفيزيائية، وتغيير خلايا الخياشيم إلى خلايا جديدة لتكوين أنسجة الرئتين، وهي تختلف ـ بلا شك ـ عن أنسجة الخياشيم، وإضافة تعليمات لتزويد الرئتين بالعضلات اللازمة لحركتها من أجل التنفس، فالخياشيم لا تتحرك (وعضلة التنفس في الإنسان هي الحجاب الحاجز) ثم إنشاء أوعية دموية جديدة (أوردة وشرايين) تصل الرئتين بالقلب، وتغيير كيمياء الدم وبنيته ليتواءم مع التغيير الجديد في الجهاز التنفسي، وهو يتوقف على إضافة الكثير من الأنزيمات والبروتينات الجديدة.

وينطبق ذلك كله على كل الأجهزة الأخرى مثل جهاز الهضم والأعصاب والعضلات والتكاثر وغيرها.

ولا يخفى أنّ هذا العمل البرمجي إن قدّر له أن يتم، فإنّ له قواعد وأسسًا يعلمها مهندس البرمجيات، فهناك اختصاص كامل يدرس في الجامعات اسمه **هندسة البرمجيات (Software Engineering)** ومن قواعد وأسس هذا العلم أنّ العلماء الذين يعكفون على كتابة برامج في مثل هذا التعقيد يتحتم عليهم أن يقوموا باختبارات قاسية جدًا على كل برنامج فرعي منه، مثل برنامج التنفس ليتحققوا من عدم وجود أي أخطاء برمجية، وليتحققوا أنّ برنامجهم يغطي كل الاحتمالات التي يواجهها الكائن الحي أثناء تنفسه، لأن وجود أي خطأ في برنامج التنفس أو إهمال أي احتمال ممكن قد يؤدي إلى هلاك الكائن الحي.

ثم بعد اختبار كل برنامج على حدة يتحتم على العلماء القائمين بذلك أن يقوموا بعملية جمع هذه البرمجيات بعضها إلى بعض والتنسيق بينها والربط بين مختلف مراحلها ليضمنوا بقاء الكائن الحـــي، مثال ذلك أن يربطوا بين نظام الحركة ونظام التنفس والدورة الدموية بحيث إذا ازداد النشاط الحركي والعضلي للكائن تســـارعت حركة رئتيه، وتســـارعت نبضات قلبه، وتوسعت شـــراينه لتحمل الدم الحاوي على الأكسجين بســـرعة إلى العضلات حتى يتمكن من الحركـــة المطلوبة، وبهذا المثال يمكننـــا أن نتخيل مدى الروابط المنطقية المعقدة بيـــن مختلف برمجيات أعضاء الكائـــن الحي، التي يتحتم على أولئك المبرمجين أن يقوموا ببرمجتها واختبارها ليضمنوا للكائن الحي الجديد (وهو هنا أول كائن تطور من سمكة) حياته وبقاءه وتطوره.

وهنا سؤال يفرض نفسه هل يمكن أن يقوم البشر بهذه التغييرات كلها مع ما وصلوا إليه من التقدم فيما وصلوا إليه؟.

وهل يمكن علميًا وعقليًا ومنطقيًا أن يعطي فريق مـــن المبرمجين العباقرة شـــيفرة الحمض النووي للســـمكة حتى يدخلوا مختبراتهم، ويشغلوا أدمغتهم ويستخدموا حواسيبهم الجبارة ليعودوا لنا بحمض نووي جديد معدل نستبدل به حمضًا نوويًا لبيضة سمكة من أجل أن ينتج حيوان زاحف عن تلك البيضة؟.

الجواب ـ بلا ريب ـ واضح، وهو (لا)، كبيـــرة جدًا، وليس هو اعتباطًا، فإنّ ملك البرمجيات في العالم (بيل غيتس) أقر بنفسه بأن برمجيات الحمض النووي الموجودة حاليًا يفوق تعقيدها قدرة البشر»[1].

وقد أضاف إلى ذلك الأستاذ فداء ياسر الجندي بعدما طرح هذا السؤال وذكر الجواب عليه: «فإذا كانت عقول البشـــر وعلومهم ومعارفهم تعجز عن

---

(١) المرجع الســابق، ص٨٨ ـ ٩٣. «بتصرف»

ذلك، فهل يمكن أن نتخيل أن تتم هذه التغييرات على برمجيات الحمض النووي للسمكة بواسطة طفرات عشوائية متراكمة غير واعية تحدث على مدى أزمان سحيقة؟!.

هل يمكن أن تتم كتابة مئات الملايين من السطور البرمجية والتعليمات الحاسوبية والمعلومات الجديدة المرتبة المنسقة بطريقة عشوائية؟!.

هل يمكن أن تؤدي تغيرات عشوائية غير منسقة وغير مرتبة ناتجة عن عوامل مختلفة إلى إضافة مئات الملايين من السطور البرمجية على الحمض النووي فينتج عنها ما ذكرناه من التغييرات ويظهر مخلوق جديد؟!.

هل يمكن أن تقوم العشوائية بعمل برمجي خارق تعجز عنه أعظم العقول والعبقريات البشرية، وكل ذلك بطفرات عمياء لا إدراك لها؟! ذلك هو المستحيل بعينه.

وكم هو الفرق الشاسع بين التغييرات المطلوبة على الحمض النووي لتطوير كائن من كائن آخر، كما رأيناها آنفًا؟ وبين ما يدعيه الملحد **ريتشارد داوكنز** من أن تطور الكائنات ليس إلا نتيجة أخطاء تشبه ما يرتكبه الطباخون عندما يحضرون وصفة مكتوبة فينتج عن أخطائهم أطباق جديدة لذيذة!! أهذا هو العلم الذي يتبجح به الداروينيون؟!»[1].

إنّ شر البلية ما يضحك، وكم في هذه الدعوى ما يضحك الثكالى ويطيش بأحلام العقلاء، فإنه من المعروف عند الجميع أنّ الجنس البشري هو أرقى الأجناس الحية المعروفة بما أوتي من موهبة العقل وقوة التفكير وسعة الملكات والقدرة على التأمل والنظر والاختراع والابتكار، ولكن هذا الجنس بكل ما يحتويه من عبقريات فذة ونوابغ لا يشق لهم غبار يقف

---

(١) المرجع السابق، ص ٩٣.

حائرًا مشدوها أمام هذه المعجزة الإلهية في هذه الكائنات من كل ما يندرج في قائمة الأحياء، ولا يجد سبيلًا قط للتحكم في هذه البرمجيات المعجزة من أجل تطوير كائن إلى كائن آخر قريب من جنسه، فكيف يمكن أن تتحكم الطبيعة غير الواعية في هذا التغيير، وتطور هذه الكائنات إلى كائنات أخرى؟ على أن في كل جنس من أجناس الكائنات وفي كل نوع من أي جنس منها من المزايا ما لا يمكن أن ينتقل إلى غيره من الأنواع، وهي جميعًا مقدرة تقديرًا، ولأجل حكمة بالغة في وجود التكامل بين هذه الأجناس وأنواعها الكثيرة؛ فأنى يتصور أن تتحكم في ذلك كله طفرات عشوائية، وتحول الكائنات من جنس إلى جنس أو من نوع إلى نوع مع الإحكام والإتقان في كل ما يتطلبه هذا الأمر، فليت شعري؛ كيف يمكن أن يصدق بأن الطفرات العشوائية تتصرف بما يعجز عنه جميع العقلاء، ولا يمكنها أن ترسم جملة مفيدة من الكلام حتى ولو كانت مركبة من كلمتين، حروفهما لا تتعدى عشرة؟!.

وإذا كان بناء بيت أو نحوه لا يمكن إلا أن يكون بتخطيط، وأن يعتمد فيه الباني على خريطة مرسومة في لوحة أو مرسومة في العقل، ولا يمكن أن يكون ذلك بطريق العشوائية، فكيف يمكن أن تتطور الأشياء فتتحول من جنس إلى جنس آخر بهذه الصورة المزعومة؟!.

وإذا كان كل ما تقدم شرحه هو في تطور سمكة إلى حيوان برمائي يمكنه العيش في الماء وفي اليابسة، فما بالك بما يتبع ذلك من حلقات التطور المزعومة، حتى ينقلب هذا الحيوان الذي كان سلفه مائيًا محضًا إلى حيوان بري محض، كم يستوجب ذلك من تعديل وتغيير في البرمجة النووية في كل جزيئة مما احتوته خلايا جسمه؟ وكم يستوجب ذلك من تغيير جذري في المعلومات والبرمجيات التي كانت في سلفه الأول،

عندما انتهت به عملية التطور إلى ما وصلت إليه في هذه المرحلة المذكورة؟ وكم هي الإضافات الجديدة التي تضاف إليه من حروف الشيفرة البرمجية؟ دعك مما يزعمونه من أن التطور ينتهي به أخيرًا إلى أن يكون بشرًا سويًا، يتميز بكل الخصائص البشرية والمزايا الإنسانية، فكيف يتصور أن يتم ذلك كله بطريقة الطفرات العشوائية؟ أولا يعد هذا من الهذيان الذي لا يصدر إلا من المهوَّسين عندما تنتابهم نوبات من الأزمات النفسية الحادة والأمراض العقلية؟.

والخلاصة؛ أنّ التطوريين لا يبالون بمصادمة الحقائق الواضحة للعيان التي تكذب مزاعمهم، كما ذكر الدكتور هيثم طلعت في كتابه ٤٠ **خطأ في نظرية التطور** فقد أثبت أنّ «نظرية التطور لا تعدو أن تكون أملًا يكافح بقوة ضد البيانات التجريبية والرصدية، والهجوم عليها تعدى المناوئين لها إلى المنتظمين في سلكها، ومن الشواهد التي ذكرها ما أثبته الملحد الـ (لا أدري) الشهير أستاذ علوم الوراثة والكيمياء الحيوية **مايكل دانتون** في عام ١٩٨٥م عندما ألف كتابه **التطور نظرية في أزمة** ورصد فيه إشكالات حقيقية تواجه النظرية، من بينها أن أنواع الكائنات الحية تتعايش في استقلالية تامة، وتفصل بينها برازخ حقيقة.

وبعد ثلاثين عامًا من تأليفه هذا، وذلك في عام ٢٠١٥م ألف كتابه الثاني **التطور نظرية ما تزال في أزمة** وأوضح أنّ الإشكالات زادت والتعقيدات التي تواجهها النظرية تطورت إلى أبعاد أخرى، فأبحاث الأيفوديفو الجديدة ـ علم الأحياء النمائي التطوري (Evolutionary Developmental Biology) ـ أثبتت أنّ النظرية تعاني من مشكلات حقيقية جذرية في عمقها.

وأبحاث الإيفوديفو تختص بدراسة تطور الأعضاء داخل الكائن الحي، وقد تبيّن من هذه الأبحاث أنّ النظرية ما زالت حلمًا يداعب دعاتها، وليست

حقيقة علمية رصدية محترمة يمكن التحقق منها بالتجربة والرصد المعتبرين، فظهور الريش المفاجئ، وظهور اليدين المفاجئ، وظهور الغدد الثديية المفاجئ، وظهور الشعر المفاجئ، وظهور المشيمة المفاجئ، وظهور الأزهار مغلقة البذور المفاجئ، وظهور مخطط الجسم المفاجئ، ـ وغيرها كثير ـ مما رصدته أبحاث إيفوديفو يجعل من النظرية وهمًا كبيرًا لولا تمسك دعاة المادية بتلابيبها، لأنها الأمل الوحيد في وجه الإيمان بالخلق الإلهي المباشر الذي لا يطيقون ذكره.

وقد تلقت النظرية كمًّا غير اعتيادي من التهكمات من قبل أكبر دعاتها ومؤسسيها بسبب تلك الكشوف، فهذا **سيفين جاي جولد** صاحب أكبر المصنفات وأشهرها في تأييد النظرية طوال حياته وهو عالم البيولوجيا الملحد الـ (لا أدري)، وأحد أبرز علماء النظرية عبر القرن العشرين، يقرر في نهاية حياته أنّ الداروينية عبارة عن مجموعة من القصص الطفولية[1].

ووصف مشكلة الغياب التام للأشكال الانتقالية بين أنواع الكائنات الحية على أنه سر الصنعة الخلقية.

وهي نفس النتيجة التي توصل إليها الداروينيان الملحدان **جيري فودور (Jerry Fodor)** و**ماسيمو بياتيلي بالماريني (Massimo Piattelli-Palmarini)** حيث لم يجدا بدًا من تخطئة داروين رأسًا، وصنفا في تهافت نظرية التطور كتابهما **الأمر الذي أخطأ فيه داروين (What Darwin Got Wrong)** وكان مما صدرا به كتابهما: (هذا ليس كتابًا عن الله، ولا عن التصميم الذكي، ولا عن الخلق. ليس أي منا متورطًا[2] في شيء من ذلك. لقد ارتأينا أنه من

---

(١) ذكر هذه الكلمة في مقدمته لكتاب: Bjorn Kurten, Dance of the Tiger: A Novel of the Ice Age

(٢) ما أعجب هذا الضلال التي رزئت به هذه العقول، فقد بلغ بها العمى أن ترى أن الإيمان بالله، وأنه خالق الخلق ورطة يتبرأ منها، ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠].

المستحسن أن نوضح هذا منذ البداية، لأن رأينا الأساسي فيما سيأتي يقضي بأنّ هناك خطأ ما ـ وربما خطأ لدرجة قاتلة ـ في نظرية الانتخاب الطبيعي)[1].

أما أستاذ التطور والتنوع البيولوجي بجامعة كنساس إدوارد وايلي (**Edward O. Wiley**) فيصف الورطة التي تعاني منها النظرية بشأن ظهور الأنواع ـ الإنتواع (**Speciation**) ـ كما يلي: (لقد قتلت هذه العملية ـ أي الإنتواع ـ بحثًا، والحق أنّ إشكال ما هو النوع، وإشكال كيف ظهرت الأنواع، بعيدان عن الحل).

إنّ الراصد المنصف للواقع التطوري المعاصر يتبيّن له حقيقة الاستياء العام المنتشر لدى التطوريين من إثبات تطور كبير عبر تطورات صغيرة! والذي ينكر حقيقة أنّ التيار العام للبيولوجيا التطورية يظهر لديه مجموعة متنامية من المعارضين يكون إنكاره بمثابة تجديف ضد التيار!. فعندما تقضي عقودًا طويلة وتحفر آلاف الأطنان من الصخور من عصور الأرض المختلفة، وما زلت تعاني من عدم وجود أحافير وسيطة في أصل الاختلاف بين أنواع الكائنات الحية، فالتصرف اللائق أن تتعامل مع هذا الملف ـ ملف نظرية التطور ـ كقضية تخيلية وليس كحقيقة علمية تحاول فرضها علينا.

فلا توجد أحفورة وسيطة بين زعنفة السمكة والطرف رباعي الأرجل.

لا توجد أحفورة وسيطة بين حرشفة زاحف وريشة طائر.

لا توجد أحفورة وسيطة بين مخروط الصنوبر وزهرة مغلفة البذور.

يقول الملحد اللاأدري الشهير مايكل دانتون (**Michael John Denton**) عالم الكيمياء الحيوية البريطاني: (إنّ كل نوع من الأحياء يعد ـ على

---

(١) نقلاً عن: J. Fodor & M. Piattelli-Palmarini, (2011) What Darwin Got Wrong, p:15

المستوى الجزيئي ـ فريدًا ووحيدًا وغير مرتبط بوسطاء. ومن ثم فقد عجزت الجزيئات ـ شأنها شأن المتحجزات ـ عن تقديم الوسطاء الذين يبحث عنهم علماء الأحياء من دعاة التطور منذ زمن طويل؛ فعلى المستوى الجزيئي، لا يوجد كائن هو جد مشترك أعلى أو كائن بدائي أو راقٍ مقارنة بأقربائه... ولا يكاد يوجد شك في أنه لو كان هذا الدليل الجزيئي متاحًا قبل قرنٍ من اليوم فربما لم تكن فكرة التطور العضوي لتجد أي قبول على الإطلاق).

إنّ عالم الكائنات الحية لو كان عالمًا داروينيًا كما يقولون لك فأنت أمام مزيج عشوائي فوضوي من الطرز ومليارات الكائنات المشوهة غير المكتملة مع آحاد الكائنات المكتملة، لكن العكس هو الحاصل دومًا.

في الاحتفالية بمناسبة مرور مائة عام على أصل الأنواع قدم عميد الداروينية إرنست ماير ورقة علمية محكمة يقرر فيها نشوء الصفات المستجدة التطورية فجأة.

مشكلة التطور أنه إلى اليوم لا يملك نموذجًا واحدًا مفصلًا لظهور جزيء وظيفي واحد داخل الخلية، فضلًا عن تفسير ظهور خلية واحدة طبقًا لآليات الانتخاب الطبيعي أو الطفرات العشوائية، فضلًا عن ظهور نوع جديد من الكائنات الحية!.

يقول عالم البيولوجيا التطورية والوراثية السكانية الأمريكي الشهير **ويليام بروفاين Provine**: (الانتخاب الطبيعي لا يعمل علي أي شيء. فلا هو ينتخب لصالح شيء أو ضده، ولا هو يقهر، ولا يكثر، ولا يخلق، ولا يعدل، ولا يُشكّل، ولا يشغل، ولا يقود، ولا يصطفي، ولا يحافظ على شيء ما، ولا يدفع، ولا يكيف. الانتخاب الطبيعي لا يقوم بشيء).

ففكرة وجود نموذج واحد مفصل لظهور عضو وظيفي بالتطور أو حتى جزيء وظيفي بالتطور مجرد وهْم علمي لا أكثر!.. كل ما يمتلكه دعاة النظرية خيال واسع وفروض عقلية وتخمينات فلسفية!»[1].

وإذا أدركت استحالة وجود نموذج واحد مفصل لظهور عضو وظيفي بالتطور، بل حتى وجود جزيء وظيفي بالتطور كما اتضح لك، فما بالك بتحول الكائن الذي لم يمنح طبيعة الإنسان من الملكات العقلية والفكرية، إلى كائن عاقل مفكر الذي هو الإنسان، الذي يتصرف في هذه الحياة بعقله تصرفًا تعجز الكائنات الأخرى عن القيام به، فإنّ ذلك ـ بلا ريب ـ اشتد استحالة، ولذلك تناقض **تشارلز داروين وألفريد والاس** اللذان توصلا جميعًا إلى نظرية التطور في آن واحد، في تفسير نشأة الذكاء البشري والقدرة على الإبداع والعبقرية، حيث رد دراوين ذلك إلى آلية التطور التقليدية بناء على زعمه، وهي الانتخاب الطبيعي من بين طفرات عشوائية، بينما رأى **والاس** أنّ ذلك التفسير غير قادر على تفسير العقل البشري، ولأجل هذا أكد أنّ الذكاء الإنساني إنما هو منحة إلهية.

وقد تعرض د. عمرو شريف لخلافهما هذا بما أوضح صواب ما ذهب إليه **والاس** في هذه القضية، إذا تساءل ما مبررات **والاس** لهذا الطرح الذي يصدم الماديين؟.

وأجاب بما يلي: «يعطي **والاس** أهمية كبيرة لما أسماه بالذكاء الكامن (Potential Intelligence) فإذا أخذنا إنسانًا من قبيلة بدائية وألحقناه بمدرسة متميزة في مدينة متحضرة، فسيتعلم الرياضيات واللغات والكمبيوتر وغيرها من العلوم بنفس كفاءة أطفال المدرسة الآخرين، أي أنّ الطفل لديه ذكاء كامن

---

(١) د. هيثم طلعت: **٤٠ خطأ في نظرية التطور**، ص٧ ـ ١٢. «بتصرف»

يفوق بشكل كبير ما يحتاج إليه للتعامل مع بيئته الأصلية. فكيف نشأ هذا الذكاء الكامن؟.

إنّ الانتخاب الطبيعي يمكن أن يفسر ظهور القدرات التي يحتاجها الكائن في بيئته وقت تطوره، لكنه لا يفسر نشأة صفات تصبح كامنة ولا يحتاجها الإنسان إلا بعد عشرات الآلاف من السنين، فالانتخاب الطبيعي ليس له رؤية مستقبلية. لقد صار هذا الموقف يعرف بتناقض والاس (Wallace's Paradox) ويدور حول أنّ ما يمكله الإنسان من ذكاء يتجاوز كثيرًا مهامه الوظيفية الحياتية وجاذبيته الجنسية، فكيف يؤدي الانتخاب الطبيعي إلى ظهور وتوريث ملكات لا تستخدم ولا تفيد في البقاء، بينما ينقرض الأفراد الذين لا يملكون هذه الملكات. وبلغة أخرى؛ ما الذي يدفع جينًا ما ليتخصص في المهارات الرياضية أو الموسيقية الرفيعة دون الاحتياج إليها، ويتم توريثه للأجيال المتتالية؟ يجيب والاس نفسه بأنّ المخرج الوحيد من هذا التضاد هو القول بأن الذكاء الإنساني الكامن منحة (الذكاء الإلهي).

ولكن كيف تفسر الداروينية المادية (تناقض والاس)؟.

يعتبر الدراونة الملكات العقلية المتقدمة إحدى مظاهر وتطبيقات ما أسموه بـ (الذكاء العام ـ General Intelligence) والذي أرجعوه إلى تراكم قدرات المخ التي اكتسبها كلما كبر في الحجم وازداد في التعقيد طوال ثلاثة ملايين عام. لقد استخدم الإنسان هذا الذكاء في الصيد والزراعة والحرب والعلاقات الاجتماعية، وعندما ظهرت الحاجة استخدمه في المعارف الأعقد، كالرياضيات والموسيقى وتصميم الآلات واختراع الأجهزة، ويضرب الدراونة على ذلك مثالًا بأن المخ قد استخدم حركات اليد في الصيد والإمساك بفروع الأشجار، ثم استخدمها ـ عند الحاجة ـ في الكتابة وعزف الموسيقى وتحريك العرائس والجراحة.

إنّ تهرب الدراونة من (تناقض والاس) بطرح فكرة (الذكاء العام) لا يحل المشلكة، فـ (الذكاء العام) يواجه نفس المشلكة التي واجهها (الذكاء الكامن)؛ فالماديون لم يخبرونا لِمَ وكيف يعطي التطور العشوائي الإنسان ملكات عقلية لن يستخدمها إلا بعد مئات الآلاف من السنين، ويعبر عبقري علوم المخ والأعصاب **راما شاندران** عن رفضه لهذا الرأي بقوله: لا أتصور أنّ الذكاء الذي يستخدم لتوجيه حربه لصيد ظبي، هو الذي يستخدم في حساب المثلثات والرياضيات المتقدمة.

كذلك ثبت أن الذكاء البشري أنواع مختلفة (نظرية الذكاء المتعدد **لهاورد جاردنر**)، كل منها يضطلع بمهام محددة، وقد أمكن تحديد المراكز المخية لهذه الأنواع من الذكاء. إذًا ليس هناك ذكاء عام كامن، ولا يصمد لتفسير الذكاء الكامن إلا قول والاس بأنه منحة إلهية..»[1].

وإذا أدركت أخي القارئ الكريم أن من الملاحدة أنفسهم من عادوا لا يتقبلون فكرة التطور والانتخاب الطبيعي، وينادون بفشلها ـ على رغم أنّ ذلك يقوي الاتجاه المعاكس لهم، وهو الإيمان بالله الخالق ـ أدركت بلا ريب إفلاس هذه الفكرة من أي دليل مادي أو معنوي يمكن أن تستند إليه هذه النظرية، وما اللجوء إلى فكرة الطفرات العشوائية التي نادى بها الداروينيون الجدد إلا محاولة فاشلة منهم لإنقاذ هذه النظرية بعدما حطمتها الضربات المتوالية مما اكتشفه العلماء في تركيب الحمض النووي، وما ينطوي عليه من برمجيات علمية هائلة تقصر مدارك البشر عن سبر أبعادها، وقد علمت مما تقدم من البراهين القاطعة باستحالة أن تملك هذه الطفرات العشوائية وسيلة لتطوير أي كائن عما هو عليه، وذلك مما أفادته العلوم البرمجية الدقيقة التي انطوت عليها جميع خلايا الكائنات الحية في نواها، فأصبح فرارهم إلى

(١) شريف؛ عمرو: **خرافة الإلحاد**، ص ٣٠٤ ـ ٣٠٦، نيوبوك للنشر والتوزيع ـ القاهرة، ط ٩: ٢٠١٨م.

تعديل نظريتهم بما ذكروه كالهروب من القطر إلى الميزاب، وهذا مما يتضح مما سبق ذكره فيما نقلته لك من كلام الأستاذ الجندي.

وقد ضرب الأستاذ ـ بعدما تقدم نقله عنه ـ مثلًا لمن يزعم هذا الإفك، وهو أن: «من يزعم أنّ هذا ممكن مثله كمثل من يزعم أنّ كاتبًا نشر قصة قصيرة جميلة ثم أراد أن يصدر منها طبعة جديدة، فطلب من شخص أن يطبعها له من جديد، فلما طبعها وجد في طباعتها بعض الأخطاء غير المقصودة، وبعض الجمل الإضافية هنا وهناك، أضافها الطابع بالخطأ، ولكن يا للعجب، هذه الأخطاء كانت مفيدة، فجعلت بعض الجمل أفضل، وبعض الحوادث أجمل وأكثر تفصيلًا، وبدلًا من أن يوبخ الكاتب الطابع، شكره، ثم أعطى القصة لطابع آخر ليطبعها له، ففعل، ولكنه أيضًا ارتكب بعض الأخطاء الجديدة، فلما اجتمعت تلك الأخطاء مع أخطاء الطابع السابق، زادت القصة جمالًا إلى جمال، فراح الكاتب يعطيها لطابع بعد طابع، وبعد أن أعاد طباعتها آلاف المرات، حصل على رواية بدل القصة القصيرة، رواية جديدة متناسقة الأحداث، مترابطة الجمل، متتابعة الفصول، مختلفة في سياقها وسردها عن القصة الأولى، ذات أسلوب مغاير عن أصلها، فأرسلها إلى المطبعة فورًا، ولكن بعنوان جديد لا يمت إلى القصة الأولى بصلة.

هل يمكن للعقل والعلم والمنطق أن يتصور حدوث ذلك؟ إن تصور حدوث ذلك هو أهون بتريليون مرة من تصور تغير الحمض النووي بشكل عشوائي تراكمي لينتج عنه مخلوق جديد»[1].

ويضيف إلى ذلك: «إنّ تطور السمكة إلى حيوان زاحف يتطلب إلى إجراء تعديلات على المعلومات الموجودة في حمض السمكة النووي، وإضافة كمية

---

(١) الجندي: العلم يؤكد شكوك داروين، ص ٩٤.

من المعلومات تزيد على (٣٠٠) مليون من القواعد النووية، أي من الحروف البرمجية المستخدمة في كتابة لغة الحياة، وهذه الملايين (٣٠٠) من القواعد النووية ـ التي تجب إضافتها ـ يجب أن تكون مرتبة ومنسقة بدقة شديدة، فهي ليست معلومات عادية، هي برمجيات حاسوبية لم يكتب مثلها بشر، فماذا يقول لنا علم الرياضيات والاحتمالات، حول إمكانية أن تحدث هذه الإضافات بشكل عشوائي؟ ما هو احتمال إضافة (٣٠٠) مليون حرف إلى الحمض النووي للسمكة بشكل مرتب لكي تتحول السمكة إلى حيوان برمائي، هو ضفدع في مثالنا؟.

رأينا أنّ الحمض النووي يحتوي على أربع قواعد نووية، هي بمثابة الأبجدية التي تتم بها كتابة برمجيات ومعلومات الكائن الحي، ويخبرنا علم الاحتمالات أنّ احتمال حصولنا على حرف واحد عشوائيًا من أربعة حروف هو ٤/١، وأن احتمال اختيار وترتيب حرفين من أربعة على نسق معين هو إذا (٤/١ × ٤/١) أي ١٦/١، وهي قيمة تساوي مقسومًا على ٤ مرفوعة للقوة ٢ [٤/١٢]، أما ترتيب ثلاثة حروف من الأربعة على نسق معين فهو (٤/١ × ٤/١ × ٤/١) أي ٦٤/١، وبتعبير رياضي آخر هو ١ مقسومًا على ٤ مرفوعًا للقوة (٣) [٤/١٣]، فما هو احتمال ترتيب (٣٠٠) مليون حرف من أبجدية قوامها ٤ حروف على نسق وترتيب معين.

علم الرياضيات والاحتمالات يخبرنا أن هذه النسبة هي ١ مقسومًا على ٤، وهذه الـ ٤ مرفوعة للقوة (٣٠٠) مليون [٤/١٣٠٠٠٠٠٠٠٠٠]؟!! أي عقل بشري يستطيع تخيل ضآلة هذا الرقم؟! وأي علم ومنطق يقول إنّ إضافة ٣٠٠ مليون حرف بتنسيق وترتيب معين إلى الحمض النووي للسمك لتصبح حيوانًا زاحفًا يمكن أن تحدث بواسطة طفرات عشوائية متراكمة؟! الداروينية الجديدة تقول: ممكن!! فما رأيك عزيزي القارئ؟.

يؤكد الدكتور لي سبينتر وهو محاضر في جامعتي هارفرد وجون هو بكينز الشهيرتين أنه لم يتم تسجيل حالة واحدة ثابتة علميًا لهذا النوع من الطفرات، وقد جاء هذا التأكيد في كتابه **ليس بالمصادفة! تحطيم الداروينية الجديدة**[1]»[2].

وإذا كان هذا كله مما يتحتم في تطور سمكة إلى ضفدع ـ مثلًا ـ، فما بالك في تطور الكائنات الحية من إنسان وحيوان ونبات مما يوجد في هذه الأرض من أصوله المزعومة إلى ما انتقل إليه من طبيعته المشهودة؟! فما هو احتمال إمكان ذلك؟!.

لندع الأستاذ الجندي بنفسه يجيب عن هذا، فهو يقول: «إنّ المعلومات اللازمة لتطور سمكة إلى ضفدع هي أقل من نقطة في بحر، وأقل من ذرة في مجرة بالنسبة إلى المعلومات الموجودة على سطحنا في الخلايا الحية، فقد رأينا أنّ المعلومات التي تنبغي إضافتها لتتطور سمكة إلى ضفدع تعادل حوالي ٣٠٠ مليون حرف من المعلومات المنسقة المرتبة، فكم يا ترى كمية المعلومات التي تمت إضافتها للأحماض النووية للكائنات الحية منذ نشوء الحياة على الأرض إلى يومنا هذا، حتى حصلنا على كل ما نراه من مخلوقات وكائنات؟ هل يمكن تصور هذا الرقم؟ دعونا نحاول، علينا أولًا أن نحصي عدد الأنواع الموجودة اليوم وأن نحصي عدد القواعد النووية الموجودة في كل منها، ثم نحسب عدد الأسلاف التي تفصلها عن المخلوق الأول، وهو البكتيريا التي يزعم التطوريون أنها أصل الحياة، ثم نحسب عدد السطور البرمجية أو كمية المعلومات التي أضيفت ما بين كل سلف وخلفه على مدار

---

(١) نقلاً عن د. لي سبينتر: ليس بالمصادفة! تحطيم نظرية التطور الجديدة، ص١٠٧.
(Dr. Lee spenter: Not by chance! Chattering the modern of evolution).

(٢) المرجع السابق، ص٩٤ ـ ٩٦.

تطور كل حيوان أو نبات عاش على الأرض (على فرض صحة نظرية التطور) بما في ذلك المخلوقات التي انقرضت وهي أضعاف أضعاف المخلوقات التي تعيش اليوم، فما هي كمية المعلومات والبرمجيات التي تم إنتاجها أو كتابتها على سطح الأرض؟.

نريد من التطوريين أن يثبتوا لنا أن هذه الكمية من المعلومات التي يعجز الحاسبون عن حسابها ويعجز العقل عن تصور كميتها والتي بلغت ـ باعتراف التطوريين ـ درجة مذهلة من التناسق والإبداع والكمال أن يثبتوا لنا أنها كلها نشأت بطفرات عشوائية عمياء، وأنها حصلت على أزمان متلاحقة لا تعرف السابقة منها ما ستفعله اللاحقة، ولكن يا للعجب كانت اللاحقة منها تكمل السابقة، وكأنهما على اتفاق حتى امتلأت الأرض بما لا يكاد يحصى من المخلوقات!!!.

لقد عجز التطوريون تمامًا عن إثبات ذلك إذ لم يثبت إطلاقًا أنّ طفرة عشوائية على أي خلية أضافت معلومات جديدة على حمضها النووي، ألا يدفعنا ذلك لتساؤل لا مفر منه، هل يمكن هذه المعلومات والبرمجيات التي نشأت عنها كل الأنواع التي نعرفها من المخلوقات قد حدثت نتيجة أخطاء طباعية أثناء نسخ الجينات؟ هل نحن حقًا أمام تغيرات وإضافات عشوائية تنتج عنها هذه الكمية التي لا تحصى من المعلومات والبرمجيات (أو هي نتيجة أخطاء تشبه أخطاء الطباخين كما يزعم كبير الملحدين؟!).

إنّ من الواضح كل الوضوح أنّ ما يحدث هنا على سطح الأرض، فيؤدي إلى نشوء أنواع جديدة واستمرارها وتكاثرها ليس تكيفًا مع الظروف ـ كما زعم داروين ـ وليس طفرات عشوائية كما تزعم الداروينية الجديدة، بل نحن أمام قوة برمجية ومعلوماتية هائلة خارقة يصعب على العقل البشري تصور مدى قدرتها وخبرتها وحكمتها وتمكنها وتعقيد علمها وضخامته تعمل على

مدار الساعة منذ كانت حياة على الأرض بلا كلل ولا ملل ولا خطأ ولا تقصير فتبدع متى شاءت وأرادت دون حاجة لتدرج، تبدع من المعلومات والبرمجيات ما يتكفل بإنتاج هذا التنوع الهائل في الخلق والمخلوقات، وعلى من يدعي أنّ تلك الكمية التي تفوق التصور من المعلومات والبرمجيات ناتجة عن طفرات عشوائية ومصادفات عبثية أن يثبت قوله بالدليل العلمي والمنطقي بعد أن أثبت العلم الحديث مدى ضخامة وتعقيد وروعة وإحكام وحكمة وتصميم وتخطيط وتنفيذ هذه المخلوقات المتنوعة.

ولا نقول في نهاية هذا الفصل إلا ما يرضي ربنا سبحان الخلاق العليم القدير ﴿ٱلَّذِىٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَىۡءٍ خَلَقَهُۥ﴾ [السجدة: ٧]، ﴿وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ [الأعلى: ٣]»[1].

هذه حقائق ـ وليست أوهامًا ـ يثبتها الواقع ويؤيدها العقل والمنطق، ويؤكدها الشرع، ولكن ماذا يصنع بمن لا يلتفت إلى واقع ولا عقل ولا منطق، ولا يلوي على شرع، وإنما يتبع هواه ﴿وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيۡرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِى ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [القصص: ٥٠]، وكما قيل: «الهوى يعمي ويصم»، وإلا فأي أثر يشاهد من هذه الكائنات ـ التي لا يحصيها العدّ ولا يحيط بها الحد ـ من كل ذرات هذا الوجود التي تعج أصواتها ناطقة بأنها صنع عليم خبير، سميع بصير، واسع قدير؟ وأي حجة أبلغ في العقل وأثقل في السمع من هذه الألسنة الناطقة من كل هذه البرمجيات التي لا تخلو منها ذرة في الكون وهي شاهدة على الصنع المتقن ممن لا يعجزه شيء في السماوات ولا في الأرض؟ وأين هذا كله من زعم داروين أن كل شيء تكيف مع الظروف فتطور حتى وصل إلى حاله التي تشاهد، ومن دعاوى أخلافه الذين زعموا بأنّ الطفرات العشوائية هي التي تصرفت وفق نواميسها فأحكمت صنع هذه الأجناس والأنواع التي بهرنا صنعها؟!.

---

(١) المرجع السابق، ص٩٦ ـ ٩٨.

والعجب ممن يصدق أي واحدة من الفريتين ولا يصدق قول العليم الحكيم: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ ۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ۝ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ۝ ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ۝ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ [السجدة: ٤ ـ ٩].

هذا؛ وتنتقض نظرية التطور باستمرار الأجناس التي زعموا بأن التطور كان عنها، فلو كانت الحياة كما يزعمون تطورت من البكتيريا، وهكذا من كائن حي إلى غيره، حتى وصلت إلى مرحلة كونها أسماكًا ثم تعدت ذلك وانتقلت إلى حيوانات برمائية، ثم تدرجت في مدارج الأطوار، من جنس إلى آخر حتى تكونت منها قردة، والقرد تطور إلى إنسان..! فإنّ ذلك يقتضي أن يعم التطور جميع هذه الأجناس، وأن تتحول كلها إلى بشر، فلا تبقى القردة قردة، بل تتحول جميعًا إلى بشر، أو تتلاشى قبل هذا التحول بناء على الانتخاب الطبيعي وتنازع البقاء وأنه لا يبقى إلا الأفضل، ويتلاشى غيره، وكذلك ما دون القردة من الكائنات التي شملها التطور في مراحله التي مر بها.

فليت شعري؛ ما الذي أبقى تلك الكائنات على ما كانت عليه، ولم تتطور مع ما تطور؟ فإنّ التطوريين يزعمون أنّ الحياة بدأت بكائن حي، وهو وحيد الخلية الذي تطور إلى سمكة، وهي بدورها تطورت إلى حيوان برمائي، ثم حيوان زاحف، ثم طائر، ثم حيوان ثديي، وأخيرًا إلى إنسان، ولا ريب ـ بناء على زعمهم هذا ـ أن تكون بين كل تطور من التطورات المذكورة والذي يليه تطورات لم تذكر، فكيف يعقل أن يكون الحيوان الوحيد الخلية تطور فجأة إلى سمكة؟! وما الذي يصل بينه وبين السمكة مع أنه وحيد الخلية؟! وقد

علمت ما في السمكة من الخلايا التي تعد بملايين الملايين، ولكل خلية منها نظام برمجي مدهش كما تقدم!! فكيف لم يتطور أولًا إلى حشرة ضعيفة ثم يتدرج بعد ذلك إلى أكبر الحشرات وأقواها، ويتحول بعد ذلك إلى أنواع أخرى من الخلق الذي هو أقل من السمكة، على أنّ الأسماك أصناف، ومن بينها الحيتان الضخمة، وهي نفسها أنواع، فمنها العنبر الأزرق الذي يعد أضخم حيوان يعيش على ظهر الأرض، حيث يصل طوله أحيانًا إلى ٣٠م ووزنه إلى أكثر من ٢٠٠ طن[1].

فيا ترى هل كان وجود هذا الحوت نتيجة تطور من حيوان وحيد الخلية؟! ثم كيف لم يتطور هو بنفسه؟ أو أنه تطور إلى حيوان برمائي كالضفادع والسلاحف والتماسيح؟ وإذا كان كذلك فكيف لم يتطور إلى حيوان آخر ضخم يناسب حجمه؟ فكيف يكون هذا التطور إلى الأضعف والأصغر؟ ثم كيف يعقل بعد ذلك أن يتطور إلى حيوان زاحف ثم إلى طائر، مع أنه لا يوجد في الزواحف والطيور ما يقارب حجم الحوت؟!.

ومن المعلوم لكل أحد أنّ عالم الحيوان يزخر بأصناف من الخلق من أدق الحشرات إلى أضخم ما في البراري كالفيلة أو ما في البحار كالحيتان، فأين موقع هذه الحيوانات جميعًا في نظام التطور المزعوم؟! وكم من تنوع في هذه الكائنات، بين ما يزحف على بطنه، أو يمشي على رجلين، أو يمشي على أربع، فكيف تدرجت هذه جميعًا في نظام التطور حتى انتهت إلى ما وصلت إليه؟!.

وعلى تسليم ذلك؛ فكيف بقيت هذه الكائنات على اختلافها وفق طبيعتها لم تتغير؟! فالأسماك بقيت أسماكًا كما هي، وكذلك البرمائيات، والزواحف،

---

(١) ينظر؛ مجموعة باحثين: **الموسوعة العربية العالمية**، حرف (ح) ـ الحوت، ٥٧١/٩.

والطيور، والثدييات، والقردة التي يزعمون أنها الأصل المباشر للجنس البشري، دعك من أنواع الحيوانات التي لا تحصى من أدق الحشرات التي لا تكاد تبصر إلا بالمجهر إلى ما يفوق التصور من الضخامة والقوة، فبناء على ما تقتضيه هذه النظرية؛ إما أن تتطور، وإما أن تتلاشى إن عجزت عن التطور، ليكون البقاء للأقوى وحده، حسبما زعموا من تنافس البقاء بين الكائنات، وأنه لا يبقى إلا الأقوى.

ثم إننا نجد أنواعًا من الحيوانات تعيش في غابة واحدة قرونًا لا يعلمها إلا الله، ويبقى كل صنف منها على ما هو عليه، فالثعابين مثلًا تعيش مع الحيوانات المفترسة كالأسود والنمور والفهود والذئاب والضباع والدببة وغيرها في غابة واحدة، وهي تبقى على ما هي عليه لا تتطور إلى جنس تلك الحيوانات ولا تتطور هي إليها حتى ما تقارب منها تظل كما هي عليه، ونجد حمر الوحش والغزلان والمها والجواميس وغيرها تعيش في نفس الغابة بين الحيوانات المفترسة، وتظل تتوالد من غير أن تتحول إليها ولا تتحول تلك إلى هذه، مع أنّ البيئة التي تعيش فيها بيئة واحدة، والمناخ مناخ واحد، وكل صنف يبقى على ما هو عليه، بل كل نوع يبقى كما هو، فلا يتحول الغزال إلى مها ولا العكس، وكذلك في بقر الوحش والجواميس وحمر الوحش وغيرها.

أوليس في هذا ما ينقض هذه الدعوى التي لم تقم على حجة مادية ولا معنوية؟.

على أنّ التطور إن كان من سنته المحتومة أنه يرقى بالقوي الأصلح للبقاء ويأتي على الضعيف فيقضي عليه ـ كما يزعمون ـ فإنّه يترتب عليه أن لا يبقى من الكائنات المتطور عنها شيء، وإنما يبقى الأرقى وحده، وهذا يعني انقراض جميع أنواع الكائنات في سلسلة مدارج التطور، فتبقى الحلقة الأخيرة في هذه السلسلة وحدها، فلا يكون وجود للبكتيريا لأنها الجنس الأضعف،

وقد بدأ منها التطور قبل ما لا يحصى من ملايين السنين، وكذلك حيوانات البحر والبرمائيات والزواحف والثدييات والطيور وغيرها، وإنما يبقى الإنسان وحده لأنه الدرجة الأرقى في سلم التطور.

ومن ناحية أخرى كيف لم تتطور هذه الكائنات إلى وقتنا هذا، وبقيت على ما هي عليه، فما الذي حال بينها وبين التطور، إن كان ـ كما زعموا ـ سنة من سنن الحياة، بل هو أصل استمرار الحياة؟!.

فإن حاولوا التملص بدعوى أن التطور يتوقف على مرور ملايين السنين، وعلى سلسلة طويلة من الحلقات، يمر بها الحيوان حتى ينتقل عما كان عليه وينقلب إلى ما يؤول إليه، سألناهم ألا يلزم من ذلك أن يوجد في كل عصر ما وصل إلى حد النضج فبلغ أوجه في التطور، وأن يوجد ما هو في بداية مراحل تطوره، وما هو في وسطها، وما هو في منتهاها؟! شأن ذلك شأن الولادة التي لا تتوقف، ففي كل لحظة من الزمن تولد مواليد، وتكون أجنة في أواخر أطوار الحمل، ومنها ما يكون في بداية هذه الأطوار، ومنها ما يكون في وسطها، لأن حركة التطور ـ بناء على ما زعموا ـ يجب أن تكون مطردة لا تنحصر في عصر دون غيره، وهذا يستلزم أن توجد في كل زمن ـ ولو ضاق ميقاته ـ كائنات بدأ تطورها وغيرها توسطت مراحل التطور، وأخرى وصلت إلى منتهاها، فما هي هذه الكائنات، وأينها اليوم مع أن الأرض بأطرافها المترامية أصبحت اليوم كأنها جزء من قرية صغيرة، فما من شيء يقع فيها إلا ويكتشف سريعًا، وتتسلط عليه وسائل الإعلام بثًا لخبره، وتصويرًا لحاله، فأين هذه المتطورات؟ كيف وجدت عبر الأزمنة الخالية، ولم توجد الآن؟ هل توقفت عجلة الزمن أو تبدلت طبيعة الحياة؟!.

كل هذه الأسئلة لا نجد جوابًا عليها ولا إيضاحًا لإبهام أحوالها.

الفصل الرابع

في نقض الداروينية بأدلة الأحافير

وينقسم إلى أربعة مباحث:

- المبحث الأول: في الأحافير لغة واصطلاحا.
- المبحث الثاني: في حلم داروين أن تسند الأحافير في المستقبل نظريته.
- المبحث الثالث: في تبخر حلم التطوريين بتعزيز الأحافير لنظريتهم.
- المبحث الرابع: في عجز الداروينية عن الإجابة على الاستفهام عن أسلاف الكائنات الموجودة التي يزعمونها.

في الأحافير لغة واصطلاحا

الأحافير لغة إما أن يكون جمعًا لحفيرة أو حفير، أو يكون جمعًا لجمعها وهو أحفار، قال في **اللسان**: «والحفيرة والحَفْرُ والحفير: البئر الموسعة فوق قدرها، والحَفَرُ، بالتحريك: التراب المخرج من الشيء المحفور، وهو مثل الهدم، ويقال: هو المكان الذي حُفر؛ وقال الشاعر:

قالوا: انتهينا، وهذا الخندق الحفر .....

والجمع من كل ذلك أحفار، وأحافير جمع الجمع؛ أنشد ابن الأعرابي:

جُوبَ لها من جبل هِرشَم مُشقَّى الأحافير ثبيت الأم

وقد تكون الأحافير جمع حفير كقطيع وأقاطيع»[1].

واستعمل المعاصرون لفظة أحفورة وجمعوها على أحافير، ولم أجد من ذكرها من أهل اللغة في الغابرين، وإنما ذكرها د. أحمد مختار عبد الحميد عمر (ت: ١٤٢٤هـ) في كتابه **معجم اللغة العربية المعاصرة**، وهذا نص قوله: «أحافِيرُ [جمع]: مفرده أُحْفُورَة: (حي) بقايا الحيوانات أو النَّباتات التي عاشت في الأزمنة الجيولوجيّة السَّابقة ثمَّ تحجَّرت»[2]، وهذا الذي انتهجه

---

(١) ابن منظور: لسان العرب، مادة (حفر)، ١٦٢/٤.

(٢) د. أحمد مختار عبد الحميد عمر: **معجم اللغة العربية المعاصرة**، ٥٢٠/١، عالم الكتب - بيروت، ط١: ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م.

الكاتبون المعاصرون في علم طبقات الأرض والآثار الموجودة فيها، وقد اصطلحوا على ذلك، وبما أنّ هذا هو الاصطلاح العلمي المعاصر، فلا حرج في التعبير به، وإن لم يكن موافقًا لما درج عليه العرب، وما ذكره نقلة اللغة، على أنّ ذلك مما يندرج في المجاز لعلاقة المحل، فإنّ ما يسمونه بالأحافير محله الأحافير، وهي الحفر كما نصت عليه كتب اللغة.

وقد جاء في **الموسوعة العربية العالمية** شرح هذا المصطلح، وبيان المراد به، وهذا نص ما فيها: «الأحفورة أثر أو بقايا نبات أو حيوان كان يعيش منذ آلاف أو ملايين السنين، بعض هذه الأحافير أوراق نبات أو أصداف أو هياكل، كانت قد حُفظت بعد موت النبات أو الحيوان، وبعضها الآخر آثار ومسارات أقدام نتجت عن الحيوانات المتنقلة.

توجد معظم الأحافير في صخور رسوبية، تشكلت هذه الأحافير من بقايا نباتات أو حيوانات طمرت في الرسوبيات مثل الطين أو الرمل المتجمع في قاع الأنهار والبحيرات والمستنقعات والبحار، وبعد مرور آلاف السنين، فإنّ ثقل الطبقات العليا الضاغطة على الطبقات السفلى يحولها إلى صخور، وهناك عدد قليل من الأحافير التي تمثل نباتات أو حيوانات كاملة لأنها حُفظت في جليد أو قطران أو إفرازات الأشجار المتجمدة.

يعتقد بعض العلماء أنّ أقدم الأحافير هي لبكتيريا مجهرية عاشت قبل نحو (٣,٥) بليون سنة، وُجدت مثل هذه الأحافير في جنوب إفريقيا في نوع من الصخور يسمَّى الشَّرت وهو نوع من المرو. كما عُثر على أحافير مماثلة لبكتيريا قديمة في أستراليا. وأقدم الأحافير الحيوانية هي بقايا اللافقاريات، وهي حيوانات ليس لها عمود فقري. ويُقدر عمر صخور هذه الأحافير بحوالي ٧٠٠ مليون سنة. وأقدم أحافيرالفقاريات (وهي الحيوانات ذات العمود الفقري) هي أحافير للأسماك يقُدر عمر صخورها بحوالي ٥٠٠ مليون سنة.

والأحافير واسعة الانتشار والعثور عليها أسهل مما يعتقد الكثيرون. وتتوفر في معظم بقاع العالم. وهذا يعود لكون الصخورالرسوبية واسعة الانتشار تغطي حوالي ٧٥٪ من سطح اليابسة، ومع هذا يعتقد العلماء أنّ جزءًا يسيرًا من الحيوانات والنباتات التي عاشت على الأرض قد تم حفظها في شكل أحافير. كما يُظن أنّ أنواعًا عديدة قد عاشت واختفت دون أن تترك أي أثر في السجل الأحفوري على الإطلاق. ولكن المزيد من الأنواع الأحفورية يتم اكتشافها دائمًا.

ومع أنّ السجل الأحفوري غير مكتمل، فإنّ العديد من المجموعات النباتية والحيوانية المهمة قد ترك بقايا أحفورية، وقد مَكَّنَتْ هذه الأحافير العلماء من تصور نماذج الحياة التي وُجدت في عصور زمنية مختلفة في الماضي، وكذلك معرفة كيف عاشت أنواع ما قبل التاريخ، كما تشير هذه الأحافير لكيفية تغير الحياة مع الزمن على الأرض. توضح هذه المقالة المعلومات التي تقدمها الأحافيرعن الحياة القديمة»[١].

ويقول د. روبرت جميس غالغي عن الأحافير: «هي بقايا من كائنات قديمة حفظت في القشرة الأرضية، وقد لا تحتفظ العديد منها بموادها الأصلية، وإنما ببقايا المعادن التي تخللتها لتأخذ شكلها، فقد نجد مثلًا بقايا سمكة، وستكون شبيهة تمامًا بشكل السمكة، ولكنها مكونة من الحجر الرملي أو الصخر، بتعبير آخر هي مجرد بصمة طبعتها الأرض تحت ضغط هائل قبل آلاف وربما ملايين السنين»[٢].

---

(١) مجموعة باحثين: الموسوعة العربية العالمية، حرف (أ) ـ الأحفورة، ٢٨٦/١ ـ ٢٨٧.

(٢) روبرت: خرافة التطور، ص٧١.

المبحث الثاني

في حلم داروين أن تسند الأحافير في المستقبل نظريته

كان داروين يحلم بأنه سيجد ضالته في إثبات نظريته في الأحافير، وما لم يجده في حياته فإنّه سيكتشف من بعد؛ لتتعزز بذلك نظريته، ولذلك سعى جهده إلى البحث والاستقصاء حسب وسعه في تتبع الأحافير، وقد «وجد داروين في أمريكا الجنوبية بعض الأحافير لبعض الحيوانات المنقرضة، التي كانت تشبه إلى حد كبير الأنواع الحديثة، وفي جزر جلاباجوس في المحيط الهادئ لاحظ اختلافات كبيرة بين النباتات والحيوانات التي تنتمي إلى النوع العام نفسه في أمريكا الجنوبية، وجمع داروين الأحافير وغيرها من عينات الأعضاء لدراستها في المستقبل.

عاد داروين إلى إنجلترا عام ١٨٣٦م واستقر في لندن، وقضى بقية حياته يدرس العينات، ويجري التجارب ويكتب الملاحظات حول ما يخرج به من آراء من تلك الدراسات، وكان من بين كتبه التي ألفها في البداية **تركيب وتوزيع طبقات الفحم** (١٨٤٢م)، كما كتب يوميات حول أبحاثه عندما كان يجري أبحاثه على ظهر السفينة بيجل»[1].

وقد علق داروين أمله الوحيد في تحقيق نظريته على سجل الأحافير، وهكذا أصحابه، يقول د. **روبرت جميس**: «وقد كان الأمل الأزلي للتطوريين

---

(١) مجموعة باحثين: **الموسوعة العربية العالمية**، حرف (د) ـ داروين، ٢٢٦/١٠.

أن يكشف سجل الأحافير عن تغير تدريجي من نوع إلى آخر يثبت به نظريته، فهل أسعفتهم الأحافير؟.

قبل أن نجيب على ذلك لا بد أن ننوه أنّ داروين نفسه يعترف قائلًا: (إنّ التميز الواضح بين أنواع الحياة والكائنات المختلفة، وكذلك عدم تواصلها عبر الزمن بعدد لا يحصى من الكائنات الانتقالية هي عقبة كبيرة).

ببساطة ما يقوله داروين؛ هو أنّ نظريته تعاني من عقبة كأداء، وذلك لأن الأحافير المكتشفة واضحة ومميزة عن بعضها بطريقة تجعل التعرف عليها سهلًا، ولا لبس فيه، ولا يوجد أي دليل على وجود صلة انتقالية بين أحافير الكائنات المختلفة»[1].

لقد تصور التطوريون ـ وفي مقدمتهم داروين ـ أنّ حلمهم في تحقيق وهمهم الذي توهموه قريب المنال، وأنّ سجل الأحافير سيسعفهم بما يأملون، ولكن دون ذلك أهوال، وهذا ما ستجده إن شاء الله في المبحث الآتي.

---

(١) روبرت: خرافة التطور، ص٧١ ـ ٧٢.

ثالثًا

في تبخر حلم التطوريين بتعزيز الأحافير لنظريتهم

الحقيقة تفرض نفسها ومن راهن على مكابرتها خسر الصفقة، وليس أنجح في القول من الصدق، ولا أربح في الخصام من الحق، فعندما سارت الجهود الكشفية للأحافير في منهجها الصحيح لم توصل الناس إلا إلى الحق، ولم تُرِهِم إلا الحقيقة، ولكن مع ذلك ظل التطوريون يلاحقون السراب، ويمدون أيديهم إلى الأوهام لتنقذهم من ورطتهم التي وقعوا فيها، وفي ذلك يقول الدكتور روبرت جميس: «إنّ سجل الأحافير كان ولا يزال ذا أهمية فائقة عند التطوريين، لأنه الأمل الوحيد عندهم في إثبات نظريتهم، وفي إثبات أنّ الكائنات الحية لها بداية، ثم تدرجت إلى أن وصلت إلى ما هي عليه اليوم، إذ إنه لو تمكنوا من إيجاد أحفورة بأعضاء تطورية سواء كانت أذرعًا، أو أرجلًا، أو أجنحة، أو عيونًا، أو حتى عظامًا (والمقصود بتطورية انتقالية بين كائنين) مثل أن يجدوا أسماكًا ذات زعانف متحولة أو في طريقها إلى التحول لأرجل، أو حيوانًا برمائيًا ذا زعانف ورئة، أو شيئًا من أمثال لذلك، لو وجدوا أحافير من هذا النوع إذًا لحصلوا على الدليل الدامغ للتطور، فهل وجدوا شيئًا من هذا؟ وهل سيظهر سجل الأحافير التغير التدريجي الذي يحدث للكائنات الحية والذي ما فتئ التطوريون يبحثون عنه؟».

ثم يقول: «لنسمع الجواب من داروين نفسه: (إن الظهور المفاجئ لمجموعات كاملة من المخلوقات دفع علماء الأحافير إلى اعتباره سببًا قاطعًا لاعتراضهم على الاعتقاد بتحول وتغير الكائنات الحية)، غير أنّ داروين حاول معالجة هذا العيب في نظريته، فوصف سجل الحفريات بأنه ناقص غير مكتمل، وبأنّ الأحافير المتوفرة (في زمانه) ليست كافية لنفي أو إثبات نظريته، وتوقع أن يتم في المستقبل اكتشاف المزيد من الأحافير التي تسد الفجوات وتؤكد تدرج التطور، وفي الواقع فإنّ داروين كان محقًا في أنّ الأحافير في زمانه لم تكن كافية، ولكن هل تغير الوضع في القرن ونصف القرن التي تلت وفاته؟!.

الجواب: نعم؛ تغير، ولكن بما لا يرضي النظرية، ولا يرضي داروين، فقد شهد علم الأحافير عمليات حفر مكثف حول العالم، نتج عنها اكتشاف عدد هائل من الأحافير، ولكن هذه الاكتشافات فشلت في تأكيد نظرية داروين، ونجحت في نقضها.

وحول وفرة الأحافير المكتشفة يقول العالم بورتر كيير (**Porter Kier**): (هناك مئات الملايين من الأحافير، وكلها مصنفة ومعرفة في المتاحف حول العالم).

غير أنّ الأمر الذي حيَّر هذا العالم وغيره من العلماء هو أنّ هذا العدد الضخم من الأدلة الموجودة الآن يؤكد ما كان يفصح عنه ويدل عليه العلماء أيام داروين، بل يؤكده بشكل قاطع أنّ الأنواع الأساسية ظهرت فجأة دون أي تغيرات طرأت عليها عبر أزمان سحيقة، ولم يتم إيجاد أي أحافير انتقالية بين الأنواع المختلفة وأسلافها المزعومة، وقد كان هذا الأمر واضحًا جدًا وصادمًا لكثير من العلماء، حتى أنّ عالم النبات السويدي **هيربرت نيلسون** (**Hirbert Nilsson**) بعد أن أمضى أربعين سنة في الأبحاث عبر عن انزعاجه قائلًا:

(إنّ الحقائق التي توفرها لنا الأحافير لا تتيح لنا أن نرسم ولو رسمًا كاريكاتوريًا عن التطور، وقد اكتملت مواد الأحافير لدرجة لا يمكن معها تبرير عدم وجود الكائنات الانتقالية لنقص الأحافير، إنّ الفجوات حقيقية وواضحة، ولا يمكن سدها).

كان العلماء التطوريون يعتقدون أنّ الكائنات وحيدات الخلية التي كانت موجودة عند فجر انبثاق الحياة على الأرض تطورت، وتحولت إلى كائنات عديدة الخلايا، كما اعتقدوا أنّ الخلايا الأولى كانت بسيطة ثم تطورت إلى خلايا معقدة، فماذا تقول لنا الحقائق اليوم، هل يؤيد سجل الأحافير هذه الفرضيات؟.

يقول روبرت جاسترو (Robert Jastrow) في كتابه **عمالقة حمر وأقزام بيض**: (السنوات البليون الأولى التي سبقت ظهور الحياة كانت كصفحة بيضاء في تأريخ الأرض، وكل بقايا الأحافير التي وجدت في الأوقات اللاحقة في الصخور لا تدل على بداية بسيطة للحياة، بل تدل على العكس من ذلك، فقد كانت تضم معظم التعقيدات البيوكيماوية للخلايا الحية التي نعرفها).

ونقتبس من كتاب **التطور من الفضاء**: معظم التعقيدات البيوكيمائية في الخلايا الحية كانت موجودة أصلًا في الوقت التي تشكلت فيه أقدم صخور على سطح الأرض»[1].

ومع هذه الحقائق التي لا تقبل الجدل هل سلمت الداروينية للواقع، ووضعت أمامه أوزارها وأسلست له قيادها، أو أنها ظلت في عتو واستكبار، تشن على الحقيقة حربًا لا هوادة فيها؟!.

---

(١) المرجع السابق، ص٧٢ ـ ٧٤.

نعم؛ منيت بفشل ذريع وهزيمة ساحقة بإشراق شمس الحقيقة التي بددت بوهجها ضباب أوهام الداروينية، فلم تعـد الحقيقة في خفاء، ولكنها انقلبت إلى التدليس والتزوير، فقد حاولت أن توهم أتباعها وأن توهم الآخرين بأنهم وجدوا ما يعزز نظريتهم في تماثل ادعوه بين الجنين البشري والحيوان، وقد استخدم **إيرنست هاكل** (**Ernst Haeckel**) رسومًا لأجل إثبات التماثل بينهما، ولكنه اعترف فيما بعد بأن عددًا من رسـومه كانت تزويرًا محضًا، وأن مئات من علماء الحيـوان قد ارتكبوا نفس الخطيئة، وهـذا ما نقلته مجلة **الجماين زيتونج** ـ ميونخ (**Allgemeine Zeitung**)[1].

وقد وصل بهم التمادي في غيهم إلى اختـلاق دعوى ليس لها أصل في الواقع كاكتشاف بعض الأحافير الدالة على وجود مرحلة انتقالية للإنسان قبل أن ينتهي إلى ما هو عليه، ومن ذلك ما ذكروه عن «إنسان جاوة (**Java Man**) الذي ادعوا أنه اكتشـفه **دوبوا** (**Dubois**) سنة ١٨٩١م، وقد تبيّن أنه ليس سوى قطعة من جمجمة بها بضعة أسنان ثم قطعة من عظمة فخذ وجدت على بعد ١٥ مترًا منها، وفي المؤتمر الدولي الثالث الذي انعقد في ليد أثبت البروفيسور **فيرشو** (**Virchow**) أن عظمة الجمجمة قطعة من جمجمة شمبانزي، وأن عظمة الفخذ هي لرجل، وأن ظروف اكتشـاف هذا الإنسان نفسـها غير مقنعة، أما إنسـان **بيلتدو** (**Piltdow Man**) فقد بني من شظايا جمجمة وعظمة فك وسن واحدة، ويؤكـد التقرير الذي وضعه البروفيسـور **هيردليكا** (**Hrdlička**) عن هذه الأحجية العظيمة أنّ الشـظايا الجمجمية هي للإنسـان، أما عظمة الفك فإنها من بقايا شمبانزي، أما **أرثركيث** (**Arthur Keith**) فقد أكد أن ضم هذه الشظايا يفترض أنها لمخلوق يستحيل وجوده، مخلوق لا يستطيع أن يتنفس أو يأكل، أما فك إنسـان **هيدلبـرج** (**Heidelberg**) الكبير فإنـه مماثل لفك

(١) ينظر؛ منيرة الغاياتي: **مذهب النشوء والارتقاء في مواجهة الدين**، ص ١٣.

الإسكيمو المعاصرين، ونفس الشيء ينطبق على إنسان بكين (Peking Man) الذي تحمل عظام فكه ملامح مثيلتها في أفراد قبائل الفيدا (Veddas) الذين يعيشون اليوم في جزيرة سيلان»[1].

وفي هذا يقول الدكتور روبرت جميس: «وقد بلغت استماتة بعض التطوريين لإثبات نظريتهم حدًا جعلهم يلجأون للتزييف والتزوير بعد أن عجزوا عن إيجاد أدلة تثبتها، ومن أكثر حالات التزييف شهرة ما يعرف بقضية إنسان البيلتداون في انجلترا وبطل هذه القضية هو العالم تشارلز داوسن (Charles Dawson) الذي أخذ جمجمة إنسان معاصر وجعلها تبدو أقدم مما هي عليه حقًا، وبرد الأسنان ليبدو عليها القدم، ثم أخذ عظم فك لقرد وعالجه بثاني كرمات الصوديوم من البوتاس والحديد، ليجعله يبدو كالأحافير.

وقد أحدث اكتشاف هذا التزوير فضيحة مدوية كانت حديث الأوساط العلمية في حينها، وقد كتبت مجلة ريدردايجست عن هذه الحادثة: (لقد ثبت بالدليل القاطع أنّ كل جزء من أحفورة إنسان بيلتداون قد تم تزويره، كل الأدلة الظرفية تدلنا على أن داوسن كان مؤلف الخدعة).

والأمر المزعج حقًا في هذه القضية أنها قد اعتبرت دليلًا ثابتًا لدعم نظرية التطور، لأكثر من أربعين سنة، ولم تكن تلك أول ولا آخر قضية احتيال في هذا الباب، وهذا التصرف الشائن حري بأن يجعلنا نفكر مرتين، وأن نتأكد ونستوثق قبل تصديق ما يروج له بعض علماء التطور عما يقدمون من أدلتهم واكتشافاتهم»[2].

---

(١) المرجع السابق، ص ١٥ ـ ١٦. «بتصرف»

(٢) روبرت: خرافة التطور، ص ٤٧.

وترى السيدة منيرة علي الغاياتي: «أنّ معظم هذه الاكتشافات من ناحية الأنثروبولوجية تعتبر أحدث من أن تمثل أصل الجنس البشري، فاكتشاف عظام جمجمة مماثلة لعظام جمجمة الإنسان المعاصر يرجع عمرها إلى أبعد من الزمن الذي قدره النشوئيون أنفسهم للحلقة المفقودة المزعومة، حقيقة تسبب لهم حيرة أكبر.

يقول **بروفيسور كيث (Keith)**: إننا لا نستطيع أن ننسب الإنسان إلى أي من هذه الأنواع، أما البروفيسور **و. برانكو (Branco)** فيقول: إنّ علم الإحاثة (الباليونتولوجيا) لا يعرف للإنسان أسلافًا.

كما يذكر **ايريك واسمان (Eric Wasman)** في البيولوجيا الحديثة ونظرية النشوء **(Modern Bioglogy and the Theory of Evolution)**: أنّ البقايا المكتشفة في الحفريات لا تؤيد من وجهة نظر علم الوراثة أي نظرية عن أصل الإنسان.

ويؤكد البرفيسور **فيرشو (Virchow)** أن فكرة القرد الإنسان هي محض خرافة»[1].

وحسبك من بناء حقائق علمية على أوهام خرافية، واعتماد إثباتها على التحريف والتزوير، فأين أمانة العلم وأمانة البحث وأمانة الكلمة؟!.

---

(١) منيرة الغاياتي: **مذهب النشوء والارتقاء في مواجهة الدين**، ص١٦ ـ ١٧. «بتصرف يسير»

الرابع

في عجز الداروينية عن الإجابة على الاستفهام عن أسلاف الكائنات الموجودة التي يزعمونها

بناء على ما تقتضيه فلسفة التطور يجب أن تكون جميع الكائنات الحية الموجودة اليوم حسب وضعها وصلت إلى ما هي عليه بتطور عن أسلاف سبقتها، ولا يخفى ما تمتلئ به الأرض من أنواع من الكائنات التي تتمتع بالحياة، وإذا كانت هذه كلها تدرجت عن الحيوان الوحيد الخلية، فما هي مراحل تدرجها؟ وما هي الحلقات التي مرت بها في انتقالها من حيوان إلى حيوان آخر، حتى بلغ بها التطور إلى ما نراها عليه اليوم.

ومن المعلوم ضرورة أنّ الأرض اليوم تغص بأجناس من الأحياء تعود إلى فصائل مختلفة، ولها طبائع متباينة، وتنطوي تحت كل جنس أنواع متعددة، فهل هذه كلها وجدت نتيجة تطور متلاحق حَوَّلها من أجناس إلى أخرى، وهي الآن في طور حياتها التي هي عليها هل هي تواصل درب التطور إلى أن تتحول في المستقبل إلى أجناس أخرى غير أجناسها، وتتلبس بطباع غير طباعها؟؟!.

فبناء على مزاعم التطوريين لم تظهر هذه الأحياء فجأة كما هي اليوم، بل كانت نتيجة تطور تدرجي استغرق دهورًا سحيقة حتى وصلت إلى ما انتهت إليه، وهذا زعم تكتنفه علامات استفهام شتى، فأين هي أسلافها المزعومة؟! وما هي؟ ومتى عاشت؟.

وهذه الأسئلة تأتي على كل صنف من أصناف الكائنات الحية، فمن الحشرات الدقيقة ـ سواء الزاحفة منها أو الطائرة ـ إلى أكبر أنواع الحيوانات البرية، وفي مقدمتها الفيلة، ما هي أسلافها المزعومة، وكذلك الحيوانات البحرية، فمن أصغرها كقزم الجوبي الذي لا يصل إلى ١٣ ملم، إلى أكبرها كحوت العنبر الذي سبق أن طوله ٣٠ مترًا، ووزنه (٢٠٠ طن)، فما هو سلف كل جنس من هذه الأجناس؟ وكيف تطورت حتى انتهت إلى ما وصلت إليه؟ وهل يعقل أن يكون سلف أدق الأسماك وسلف أعظم الحيتان واحدًا؟ وإذا كان كذلك ـ كما يزعم التطوريون ـ فلماذا لم ينته بها التطور جميعًا إلى حالة واحدة، بحيث تكون متحدة في أصنافها وأحجامها وأوزانها؟ فما هو السبب لتفاوتها وتباينها في جميع ذلك، مع وحدة أصلها؟!.

والقول في هذا يستدعي ضرب عدة أمثال:

١ ـ الفيل:

وهو أكبر الحيوانات البرية المعروفة اليوم على ظهر الأرض، وله صفات خاصة، ومزايا فريدة عجيبة، لا يشاركه فيها أي حيوان آخر، وإن عاش معه في غابة واحدة، واشترك معه في الرعي والوِرْدِ.

ومن مزاياه هذه؛ خرطومه الذي يتألف من عشرات الآلاف من العضلات، ويستخدمه للتنفس وإصدار الأصوات وحمل الأشياء وشفط المياه وضخها، كما يستخدمه لفحص الهواء، وبه تميز بحدة حس الشم، ومنها أذناه العريضتان المسطحتان وحجمه الضخم، وما يحمله من أرجل مزودة بما يشبه المصدات المرنة، بحيث تتحمل وطأة قدمه حمل ربع وزنه وغير ذلك من الخصائص والمزايا التي لا يشاركه فيها غيره، فما قصة تطوره؟ كيف بدأ؟ وكيف تدرج؟ حتى انتهى إلى ما هو عليه من الضخامة،

والصفات المميزة، بدءًا من أحياء وحيدة الخلية نشـــأت ـ حسب زعمهم ـ مصادفة على وجه الأرض!!.

وما هي الأســـباب التي جعلت الفيـــل مختصًا بهذه المزايا دون ســـائر الحيوانات البرية؟ فضلًا عن بقية الحيوانات التي يزعمون أنها ناشئة عن كائن واحد الخلية!!.

أسئلة عديدة لا يوجد جواب عليها عند التطوريين، وإنما أطلقوا لخيالهم العنان ليصور لهم أصل الفيل الذي تطور عنه أخيرًا، قبل أن يصل إلى ما هو عليه، فقد اتفقـــت مراجعهم أن الفيل ينحدر من حيوان يســـمى **موبريثيريوم** وهو حسب رســـمه وفق خيال الذين تخيلوه أقرب شـــبهًا إلى الخنزير الذي يعيش اليوم، وذكروا أنه يبلغ طوله ٣ أمتار، ويرتفع عن الأرض أقل من متر، له جذع ثخين ورأس متطـــاول للأمام، وأنف طويل، وقوائمـــه الأربع رفيعة نسبيًا بالنسبة لجسمه.

وهم يؤكدون في كل كتبهم ومراجعهم أنّ هذا الحيوان هو أقدم مخلوق معروف له صلة بفصيلة الفيلة، رغم شـــبهه الكبير بالخنزير، ذلك لأنه ـ في رأيهم ـ يتصف ببعض الصفات المشـــابهة للخرطوميـــات، منها أنفه الطويل الذي اعتبروه بداية تشكل الخرطوم، وكذلك شكل جمجمته وهيكله العظمي.

وذكروا أنه كان يعيش على سطح الأرض في أواسط حقبة زمنية سحيقة تسمى بالعصر اليوســـيني[1]، وأنه ظهرت أول أحافير في طبقات تعود إلى ٣٤ مليون سنة ثم انقرض قبل ٢٤ مليون سنة[2].

(١) هو عصر يمتد من ٥٦ مليون سنة إلى ٣٤ مليون سنة.

(٢) ينظر: الجندي: **العلم يؤكد شكوك داروين**، ص٩٩ ـ ١٠٠، نقلاً عن موسوعة ما قبل التأريخ ـ التأريخ المصور الواضح للحياة على سطح الأرض.
(Prehistoric – The Definitive Visual History of Life on Earth).

وإذا كان هذا الحيوان كما تخيلوه نشأ عن تطور الحيوانات البرمائية ثم الزواحف والطيور ـ كما يزعمون ـ فكيف بقيت تلك الأصناف، مع أنها تطورت إلى غيرها وانقرض هو؟!.

وإذا كانت هذه أسئلة لا يجدون إجابة عليها إلا بضرب من التخيلات التي لم تنبن على أصل علمي يعتمد عليه، فإنّ هذه الدعوى تكتنف بالعديد من التساؤلات الأخرى، فهم ـ في زعمهم ـ يدعون أنّ هذا الحيوان كان في متوسطه يزن نحو ١٥٠ كيلوغرام، ولكنه بتحوله إلى فيل زاد وزنه حتى وصل إلى ٧٠٠٠ كيلوغرام في متوسطه، وتطوره يقتضي أنّ رقبته قصرت وازدادت ثخانتها حتى تمكنت من حمل رأس الفيل الضخم الكبير مع خرطومه، ويقتضي أيضًا أن تزداد ثخانة أرجله بشكل كبير لتتحمل وزن الفيل الضخم.

ولا يكفي ذلك، فإنّ من متطلبات وزنه الضخم أن يتغير حجم هيكله العظمي بشكل كلي ليصبح قادرًا على حمله، ولا يكفي ذلك؛ فالأرجل الضخمة والهيكل القوي الضخم لا تتحمل القوة التي تنتج عن وضع قدم الفيل على الأرض، خصوصًا عندما يجري هاربًا من أعدائه، فلا بد من تزويد أرجله بوسائل مرنة تصل ما بين عظام الساق والأرض، وتكون بمثابة ما يتم تركيبه فوق عجلات السيارات لامتصاص الصدمات، وكل ذلك يتطلب أن تتطور أحشاؤه وأجهزته الداخلية، لا سيما جهاز التنفس والدورة الدموية والقلب حتى يتمكن من ضخ ما يكفي من الدم إلى هذا الجسم الضخم الكبير، ويزوده بالطاقة اللازمة للحركة، مع العلم أن الفيل حيوان نشيط قد تصل سرعته في الجري إلى ٤٠ كيلومترا في الساعة.

ومن التطورات المطلوبة أيضًا أن ينبت له نابان طويلان قويان من العاج ليتمكن بهما من معالجة الأشجار والنباتات التي يتغذى عليها، ومن دفاعه عن نفسه ضد ما يحاول افتراسه، وكذلك من ضرورة تطوره أن يستطيل أنف

الموبريثيريوم ويتحول من عضو قصير ثابت لا وظيفة له إلا التنفس إلى خرطوم طويل مرن متحرك يتألف من ١٥٠ ألف عضلة، ويقدر على التحرك في كل الاتجاهات، وعلى الالتفاف والإمساك بالأشياء، وحملها ولو كانت صغيرة بحجم حبة البندق، أو كبيرة بحجم جذع شجرة، وعلى حمل أوزان تصل إلى ٢٧٠ كيلوغرامًا، وعلى إصدار الأصوات والتواصل بها مع الفيلة من جنسه، وعلى شفط الماء وضخه وعلى أشياء كثيرة، فيتحول الأنف الصغير الساكن يدًا وخرطومًا وفمًا ومضخة وعتلة وسلاحًا ولسانًا وبوقًا.!!

وهذا يتطلب أن يتم إعادة برمجة دماغه ليتمكن من التحكم بخرطومه العجيب والاستفادة من هذه الأداة المذهلة، كما أنّ هذا التطور يجب أن يشمل أجهزة جديدة لم تكن موجودة في سلفه المذكور كالأكياس الموجودة في منطقة بلعومه الذي يختزن فيها الماء الذي يشرب منه إذا عطش، وأذنيه المسطحتين الضخمتين المجهزتين بجهاز لتكييف الهواء، بحيث إذا ارتفعت حرارة الفيل يضخ إلى بعض الأوعية الدموية الخاصة الموجودة في أذنيه كمية كبيرة من الدم لبعض الوقت، فتنخفض حرارتها، بسبب قربها من هواء الجو المحيط، ثم تعيد ضخها ثانية إلى داخل جسمه، فتنخفض حرارته.

وحسب منهج التطوريين ونظريتهم ومذهبهم يتحتم أن يُسألوا كم من الطفرات العشوائية يجب أن تكون حتى تتم هذه التطورات؟! وكم من الزمن تحتاج إليه؟.

إن تطبيق هذه النظرية على الفيل وسلفه يعني أن هناك طفرات عشوائية حدثت على هذا المخلوق، وقد نتج عن إحدى هذه الطفرات زيادة في وزنه وتضخم في حجمه، وهل يتصور أن يكون تضاعف وزنه فجأة بطفرة واحدة؟.

وبناء على ما تقتضيه هذه النظرية فإنّ ذريته تعرضت بعد تلك الطفرة للاصطفاء الطبيعي ومبدأ بقاء الأصلح على مدى عدة أجيال، فانقرضت ذريته

ذات الوزن الأصغر وعاشت ذريته ذات الحجم الأكبر، وهنا نرى أن سؤالًا يفرض نفسه؛ كيف تمكنت ذريته من البقاء بنمو أوزانها وتضخم أحجامها مع أنها كانت تعاني من مشكلة، وهي أن أرجلها لم تكن قادرة على حملها بفاعلية، لأنها كانت في الماضي تحمل أجسامًا أصغر، فلعبت الطفرات العشوائية دورًا آخر، نتج عنها تطور أرجلها إلى أرجل أطول وأثخن، وبعد عدة أجيال تدخل مرة أخرى الاصطفاء الطبيعي؛ فانقرضت ذوات الأرجل الصغرى (وربما كان ذلك لأنها لم تكن قادرة على الهروب من الأعداء) وبقيت ذوات الأرجل الأكبر.

وبناء على زعمهم يلزم أن تتوالى أدوار الطفرات بمرور أجيال أخرى لأنه في بداية أمره لم يكن قادرًا على الوصول إلى طعامه فوق الأرض فيكون تغذيه بصعوبات، وبتوالي الطفرات تمكنت واحدة منها من إحداث استطالة في أنفه، وفي شفته العليا، فأصبحت الذرية التي حظيت بهذه الطفرة أكثر قدرة من أخواتها اللاتي حرمت منها، على تناول الطعام ويأتي مرة أخرى هنا دور الاصطفاء الطبيعي بعد مضي عدة أجيال، فإذا بتلك المخلوقات القديمة قد انقرضت، وبتلك التي تملك خريطيمًا صغيرًا تشكل من أنفها المستطيل وشفتها المتدلية تبقى وتعيش بسبب قدرتها على تحصيل الطعام.

ولينظر في هذه السلسلة الطويلة من الأطوار المزعومة ـ الناتجة عن الطفرات المدعاة والاصطفاء الطبيعي المتخيل ـ هل هي ممكنة؟ فلو أنّ هذا الحيوان زاد وزنه وبقيت أرجله الرفيعة على حالها فإنّ الذي سينقرض هو الذي أنتجته الطفرة لأن أرجله لن تكون قادرة على حمله وإن حملته فستكون سرعته بسيطة وهو مما يعرضه للافتراس، كما أنه لو زاد ارتفاعه قبل أن يزداد طول أنفه ويبدأ خرطومه بالتشكل، فما يدرينا لعل الحيوان المرتفع لن ينقرض قبل أن ينمو خرطومه لأنه بالتأكيد ستكون فرصه في البقاء أقل لعدم قدرته على التقاط الأعشاب من الأرض.

ومعنى ذلك أنّ المخلوقات الناتجة عن الطفرات هي أقل فرصة في البقاء من المخلوق الأصلي إلا في حالة واحدة وهي أن تحدث هذه الطفرات كلها معًا في آن واحد، بحيث تنتج حيوانًا ذا وزن أثقل ورجل أثخن وأقوى، وارتفاع عن الأرض أعلى، وخريطيم أطول، وهل هذا أمر ممكن في موازين العلم؟.

لنستنطق الحقائق العلمية لأجل أن تعطينا الجواب الصريح، فليست الحقيقة كالوهم، ولا البرهان كالهذيان، ولا الادعاء كالواقع، وقد تقدم أن علماء الوراثة والجينات يؤكدون أنّ الطفرات ليست سوى أخطاء في نسخ الجينات عند التناسل والتكاثر، وإنّ معظمها يكون ضارًا وليس مفيدًا، فهل يعقل أن تحدث كل هذه الطفرات المتناسقة المتزامنة في وقت واحد؟! وتتكرر هي نفسها جيلًا بعد جيل عبر ملايين الأجيال بشكل متسق متتال حتى يتحول **الموبريثيريوم** إلى فيل؟!.

إنّ العلم يؤكد أنّ هذا مستحيل كما اتضح ذلك مما سبق بحثه، ولكن يمكننا أن نغلف عقولنا عن التفكير في حقائق المعرفة، ونختم على أسماعنا حتى لا يصل إليها صوت العلم الهادر، ونندفع في التصديق بأنّ هذه التغيرات حصلت وفق ما تقدم ذكره، فكم من السنين والأجيال يمكن توفره حتى يتوصل إلى المخلوق الانتقالي الأول، وكم عدد المخلوقات الانتقالية التي ستتولد واحدا بعد الآخر حتى نصل إلى الفيل الذي تحول عن أصله المذكور؟ لا شك أنّ عدد تلك الكائنات ستبلغ المئات إن لم تعد بالآلاف.

وهنا يتوجه إلى التطوريين سؤال لم يجيبوا عليه ولن يجيبوا، وهو: أين تلك المخلوقات الانتقالية التي أحدثتها الطفرات عبر تلك القرون؟ لماذا لا يوجد لها أي أثر في طبقات الأرض الممتدة من عصر الموبريثيريوم إلى عصرنا هذا؟ فلا بد من إثبات هذه الدعوى بتحقيق أنّ الفيل الذي يعيش بيننا

اليوم له أسلاف خالية متدرجة تشبهه، ولكنها كلما أوغلت في القدم كانت أصغر منه حجمًا، وأقصر منه خرطومًا، وأقصر منه أرجلًا، وأطول منه رقبة إلى غير ذلك، حتى يتحقق الوصول إلى **الموبريثيريوم** المزعوم، فإنّ سجل الأحافير هي لغة الأرض، والأرض لا تكذب، وأمام التطوريين تحد كبير، وهو أن يأتوا بأحفورة واحدة فقط لواحد من آلاف الأجيال المفترضة من الحيوانات الانتقالية التي تفصل بين الفيل **والموبريثيريوم**.

لا ريب أنهم سيلجأون إلى ذكر أكثر من مائة نوع منقرض من الفيلة، منها مثلًا فيل الماموث الذي عثر عليه بشحمه ولحمه، فيقال لهم: نعم صحيح، ولكنها كلها أفيال ضخمة بخراطيم طويلة، مرنة مكتملة، وأرجل ثخينة، ذات وسائد حاملة، وكل ما في الفيل من خصائص تشريحية ووظيفية هي ليست إلا أنواعًا منقرضة من الفيلة، ولكنها ليست مخلوقات انتقالية، **فالماموث** مثلًا يشبه حجمه وشكله وأنيابه وخرطومه ما في فيل اليوم، والاختلاف الوحيد هو أنه مغطى بطبقة كثيفة من الشعر، غير أنه فيل وليس شيئًا آخر، وتوجد في طبقات الأرض متحجرات لأنواع كثيرة من الفيلة، وتوجد فيها أحافير كثيرة لحيوان **الموبريثيريوم**، ولكن لا توجد أحافير لمخلوقات يمكن أن تعد انتقالية بينهما، فبين انقراض آخر جيل من **الموبريثيريوم** وظهور أول جيل من الفيلة ـ كما تقول مراجع التطوريين أنفسهم ـ ما بين ٢٥ إلى ٣٠ مليون سنة، وكان المفروض أن توجد الآلاف من تلك المخلوقات متدرجة بحجمها وشكلها حتى تصل إلى فيل اليوم، وعلى القائلين أن الحيوان **الموبريثيريوم** هو سلف الفيل أن يأتوا بدليل واحد من أحافير الأرض على أقوالهم.

لا شك أنهم سيقولون بأنّ هناك تشابها جينيًا بين الموبريثيريوم والفيل، وجواب ذلك: هل هذا دليل على أن هذا من ذاك؟! هناك أيضًا تشابه جيني بين الإنسان والإسفنج، ولو صدقنا أنّ التشابه الجيني دليل فأين هي الأسلاف

المزعومة؟ أين المخلوقات الانتقالية؟ وأين الأحافير التي تصل بين الأسلاف والأخلاف؟ لماذا نجد أحافير الأسلاف وأحافير الأخلاف ولا نجد بينهما شيئًا يدل على الصلة بينهما؟.

ولا يخفى أنّ الأحافير الموجودة بيننا اليوم قد حفظت لنا آلاف المتحجرات بعشرات من أنواع الفيلة، ولكنها جميعًا فيلة لا يوجد بينها أي حيوان انتقالي، وكذلك حفظت لنا أحافير لحيوان **الموبريثيريوم**، وحفظت لنا قبله وبعده آلافا من الهياكل والمتحجرات لمخلوقات كثيرة ومتعددة، ولكنها ليست أفيالًا، ولا تمت بصلة إلى الفيلة.

ولا مكان للتكهنات والفرضيات في مجال العلم، فالعلم كاسمه إدراك يقيني سواء كان مبنيًا على حجة مادية محسوسة، أو معنوية معقولة، وفي هذا المجال لا بد من الاعتماد على دليل مادي لا على الأوهام الناشئة عن افتراضات يوحيها الخيال، والأحافير ـ كما قيل ـ لغة الأرض، والأرض ـ كما قالوا ـ لا تكذب، وإذا كانت الأرض حفظت أحافير **الموبريثيريوم** السلف والفيلة الخلف، فلماذا لم تحتفظ بأحافير ما بينهما؟!.

على أنّ ما في كتب التطوريين أنفسهم فيه غموض بالغ، وفجوات عدة فيما يتعلق بتطور الفيل، من عهد سلفه المزعوم إلى أن صار كما هو وضعه الآن، وإذا كانوا يزعمون أنه تدرج في مراحل الأطوار منذ كان **موبريثيريوم** إلى أن صار فيلًا متميزًا بخصائصه المعلومة، فإنا نسألهم عن سلفه المباشر ما هو؟ وما شكله؟ وما صفاته؟ وبأي شيء يختلف عن الفيل المعروف عندنا؟ وهل هو موجود أو انقرض؟ وإذا كان انقرض فمتى كان ذلك؟ ولماذا؟ وأين أحافيره؟.

وبناء على تصوره بصفاته فإننا نسميه السلف رقم (١) للفيل، وهو لا بد له من سلف مباشر، يكون سلفًا رقم (٢) للفيل، فما هو؟ وما شكله؟ وما

صفاته؟ وما هو عدد الأسلاف الفاصلة بين الفيل وسلفه المذكور، فبناء على آليات التطور يلزم أن تكون هناك آلاف الكائنات بين الفيل **والمويريثيريوم** يعيش كل منها آلاف الأجيال، حتى يمر عليها الانتقاء الطبيعي، وتتطور تدريجيًا وأين هذه الأسلاف؟ وأين أحافيرها؟! وهل هناك ما يثبت وجودها؟.

وهذا ينطبق على كل كائن يعيش بيننا اليوم على الكرة الأرضية، بل وعلى كل كائن عاش أو انقرض[1].

سجل الأحافير الكامل الناقص:

قد يجادل في هذا متعصب لهذه النظرية مدعيًا بأنّ سجلات الأحافير هي من أهم الأدلة على نظرية التطور، مستندًا إلى امتلاء الكتب المدرسية والجامعية والمتاحف بصور ورسومات لكائنات تتدرج في التطور، وعلى ما يزعمه علماء التطور أن ما كان مفقودًا من الأحافير في أيام داروين قد تم اكتشافه، وأن الفجوات التطورية قد تم ملؤها، وذلك باكتشاف أحافير لكائنات انتقالية بين أجيال المخلوقات.

لا ريب أنهم يدعون ذلك ولكن أين هذه الدعوى من الواقع؟ وما هي البينة التي تسندها؟.

نعم؛ إن كانوا صادقين في شيء فإنهم صدقوا في أنّه تم من بعد عهد داروين حتى يومنا هذا اكتشاف مئات الملايين من الأحافير الجديدة في مختلف بقاع العالم، وقد بلغ مجموع الأحافير المكتشفة أكثر من بليون أحفورة، وكم تمنى التطوريون أن يدعم هذا العدد الهائل من الأحافير المكتشفة نظريتهم، ولكن الذي حدث هو العكس تمامًا، فقد أكدت هذه

(١) ينظر؛ المرجع السابق، ص١٠١ ـ ١٠٧.

الاكتشافات ـ بما لا يدع مجالًا للشك ـ عدم وجود أي كائنات انتقالية بين الأسلاف والأخلاف، وأثبت سجل الأحافير أن جميع الكائنات ـ التي تعيش على الأرض اليوم، وما عاش وانقرض من قبل ـ قد ظهرت فجأة ضمن طبقات الأرض دون وجود أي أسلاف مباشرة لها، وانقرضت فجأة، حتى أنّ علماء الجيولوجيا يسمون الطبقات بأسماء الكائنات التي ظهرت فيها، وهذا الكلام ليس إنشاء أو استنتاجًا، بل هو حقيقة مستندة إلى الدليل العلمي المادي الملموس، كما اتضح ذلك فيما سبق ذكره من شأن الفيل وسلفه المزعوم، وما سيأتي بيانه ـ إن شاء الله ـ[1].

تكذيب الأرض للتطوريين:

كم فيما احتوته طبقات الأرض من أدلة تنقض الفكر التطوري من أساسه، وتكذب دعاواهم التي يدعونها، ناهيك تلك المعلومات التي قام بتوثيقها ـ بالصورة والسجل والتأريخ ـ الدكتور **كارل ويرنر** في الجزء الأول من سلسلة الكتب المعنونة **بالتطور: التجربة العظيمة**، وقد أمضى الدكتور المذكور اثنتي عشرة سنة كاملة في رحلة علمية نادرة قطع خلالها ما يقرب من (١٧٥٠٠٠) كيلومترًا، وهي خمسة أضعاف رحلة **داروين** الشهيرة، وقد أمضى رحلته هذه بين متاحف التاريخ الطبيعي حول العالم، وبين مواقع الحفريات الجيولوجية، وقد أجرى في رحلته هذه مقابلات مع عشرات من العلماء ومديري المتاحف ومسؤلي مواقع الحفريات، ووثق ذلك كله بالصوت والصورة، ووضع نتائج رحلته في السلسلة المذكورة.

وبعد هذا الجهد المضني والتتبع الدقيق أثبت بالأدلة أن سجل الأحافير يعجز تمامًا عن إثبات التطور، ويؤكد وجود فجوات هائلة بين أنواع الكائنات

---

(١) ينظر؛ المرجع السابق، ص ١٠٧ ـ ١٠٨.

الحية، وقد أورد العديد من الأمثلة، منها ما هو من **العصر الكامبري** الذي يعود إلى نحو ٥٠٠ مليون سنة، فقد اجتمع من الأحافير التي تعود إلى هذا العصر ما يزيد على (٢٠٠,٠٠٠) أحفورة من الكائن المعروف باسم **ثلاثي الفصوص**، تمثل ما يزيد على (١٥,٠٠٠) نوع من هذا الكائن بأشكال مختلفة، ولم يكتشفوا أحفورة واحدة قط لأي سلف من هذه الأنواع، كأنها ظهرت فجأة من العدم، على رغم العثور على أحافير لآلاف الكائنات التي عاشت في طبقات ما قبل **العصر الكامبري**، ولم يتمكن العلماء ـ على الرغم من محاولاتهم المستمرة، وأبحاثهم المستفيضة، واكتشافهم لعدد كبير جدًا من أحافير ما قبل **العصر الكامبري** ـ أن يحددوا أو يتعرفوا على أي كائن يمكن اعتباره سلفًا لثلاثي الفصوص في **العصر الكامبري**، وسيبقى ذلك من أكبر المعضلات التي تؤرق التطوريين[1].

٢ ـ السمك:

سبق القول في دعوى التطوريين أنّ السمك هو أصل أنواع الحيوانات التي تطورت عنه، فهو أصل الحيوانات البرمائية، وما يليها من الزواحف والطيور والثدييات، حتى انتهى الأمر إلى أن يظهر منها الإنسان، والسمك هو نتيجة تطور الحيوان وحيد الخلية، الذي تحول إلى سمك، وإذا كنت أخي القارئ أدركت بقوة الحجة وسطوع البرهان أنّ الفيل ـ وهو أكبر حيوان بري ـ لا يوجد أي دليل يمكن أن يستند إليه في كونه تطور من سلف له من الحيوانات، فإنّ هذه الحجة نفسها ظاهرة في السمك الذي هو أشهر الحيوانات المائية، وتندرج فيه الحيتان على اختلاف أنواعها.

على أنه «عثر العلماء على أكثر من نصف مليون أحفورة لأنواع مختلفة من الأسماك، والأسماك ـ كما هو معروف ـ هي أول الكائنات

---

(١) ينظر: المرجع السابق، ص١٠٨ ـ ١٠٩.

الفقارية في سلم فصائل المخلوقات، أي هي أول كائن ظهر على سطح الأرض، ولها عمود فقري يتألف من فقرات عظمية مترابطة يمر بها حبل شوكي، يحتوي على الأعصاب، وجميع الكائنات التي ظهرت قبل الأسماك هي حيوانات (لا فقارية) أي ليس لها عمود فقري، وقد ظهر العمود الفقري في الأسماك بشكل مفاجئ، ولم يتمكن علماء التطور من العثور على أي أحافير لمخلوقات انتقالية ما بين اللافقاريات والأسماك، فقد ظهر العمود الفقري في الأسماك كاملًا، بكل تفاصيله وتعقيده، والأعصاب التي يحتويها فجأة، وليس له أي أثر في كائن آخر، وجده العلماء في طبقات الأرض التي تعود إلى ما قبل ظهور الأسماك، وبعد ١٥٠ عامًا من الأبحاث والحفريات ما يزال ظهور الأسماك بعمود فقري متكامل لغزًا كبيرًا يحير العلماء، لأنهم لم يعثروا حتى الآن على أحافير انتقالية بين الأسماك ذوات الفقار وبين اللافقاريات»[1].

وهذا يعني أن السجل الأحفوري للأسماك يشكل عقبة كأداء أمام نظرية التطور.

وإذا كنت أدركت البون الشاسع بين السمك وما يدعى أنه نشأ عنه من الحيوانات البرمائية، بحيث يتعذر عقلًا ومنطقًا أن يكون هو الأصل لها؛ للفروق الهائلة فيما بينها، فإنّ كون السمك أيضًا نتيجة تحول وحيد الخلية إلى هذا الجنس أمر متعذر والأحافير دليل شاهد على أنّ ذلك لا أصل له كما أوضح ذلك فرنسيس هيتشنغ الكاتب الصحفي الذي ألف في أسرار الأرض حيث قال: «يظهر السمك في سجل الأحافير فجأة مخلوقًا مائيًا كاملًا بلا سلف، وكأنه جاء من المجهول» وعلق على كلامه هذا د. روبرت جميس بأن سجل الأحافير يثبت أن ما قاله فرنسيس هيتشنغ صحيح تمامًا، وأتبع

---

(١) المرجع السابق، ص١٠٩ ـ ١١٠. «بتصرف»

ذلك ذكر بعض الفروق التي سبق ذكرها فيما بين الأسماك والحيوانات البرمائية، بحيث يتعذر أن يكون السمك أصلًا لها[١].

وبالرجوع إلى سجل الأحافير تبين عدم وجود دليل قط على كون البرمائيات ناشئة عن الأسماك، وهذا ما أكده الكاتب البريطاني الشهير **ديفيد أتينبورور** (**Attenborough David**) في قوله: «لأن عظام جمجمة السمكة مختلفة اختلافًا تامًا عن عظام أقدم أحفورة للبرمائيات، لذا لا يمكن أن تكون إحداها أتت من الأخرى»[٢].

أما ما بين البرمائيات والزواحف فإنّ الصلة التي تجمع بينها حتى يكون بعضها أصلًا لبعض هي مفقودة على الإطلاق، وفي هذا يقول د. **روبرت جميس**: «لسوء حظ التطوريين هناك بون شاسع جدًا بين هاتين الفصيلتين، فالبرمائيات ـ مثلًا ـ تبيض بيوضًا طرية في الماء، وتخصبها خارجيًا، بينما تضع الزواحف بيوضها على اليابسة حتى لو كانت تعيش في بيئة مائية، وجنين الزواحف محاط ببيئة سائلة، ولكن مع قشرة حولها للحماية، وهذا يعني أنه يجب تخصيب البيض داخل جسم الزاحف قبل وضع البيض، وليس خارجيًا كما هو الحال في البرمائيات، وهذا يحتاج إلى أن يكون الزاحف مزودًا بأعضاء جنسية وطرق تزاوج مختلفة كليًا عن طريقة التزاوج والإخصاب في الأسماك والبرمائيات، مما يوضح سعة الهوة بين البرمائيات والزواحف.

ومن الاختلافات الجذرية المهمة بين البرمائيات والزواحف طريقة التخلص من الفضلات، إذ أجنة البرمائيات تتخلص من فضلاتها في المياه المحيطة بها، ولو تخلصت أجنة الزواحف من الفضلات بالطريقة نفسها

---

(١) ينظر؛ روبرت: **خرافة التطور**؛ ص٣١ ـ ٣٢.

(٢) المرجع السابق؛ ص٣٢.

لقتلت نفسها، فكيف يمكن تجنب ذلك؟ هنا يحدث تغيير كيميائي كبير يصفه العالم الأمريكي أرشي كار (Archie Carr) ـ وهو بروفيسور في علم الحيوان ـ في كتابه **الزواحف** فيقول: (في الزواحف تخزن الفضلات المكونة من حمض اليوريك غير قابلة للذوبان في منطقة مسماة غشاء السقاء، وهو غشاء يستقبل ويخزن الفضلات الجنينية، ويعمل كمثانة، كما أنه يحتوي على أوعية دموية تجمع الأكسجين الذي يمر عبر القشرة ويوصله للجنين)»، ويعلق على كلامه د. جميس فيقول: «هذه الاختلافات الجذرية المعقدة بين هذين المخلوقين تبيّن حقيقة أنهما لا يمتان لبعضهما بصلة، وسجل الأحافير لا يقدم أي مساعدة، كما يعترف بذلك العالم أرشي كار رغم أنه عالم تطوري، حيث قال: (من الأمور المحبطة في سجل الأحافير لتاريخ الفقاريات أنّ ما يبيّنه من معلومات عن تطور الزواحف في غاية الندرة، ويقتصر على أيامها الأولى عند ظهور بيوضها)»[1].

٣ ـ تطور الزواحف إلى طيور:

ما أعجب أسطورة تطور الزواحف إلى طيور، بحيث أصبحت بعد زحفها على الأرض تطير في فضائها بكل يسر، وقد أصبح الطيران طبيعتها التي لا تنفك عنها، وكم هناك من فرق بين طبائع الجنسين، فالكل يعرف أنّ من أهم الصفات المميزة للزواحف أنها مخلوقات من ذوات الدم البارد، فحرارة أجسامها ترتفع أو تنخفض تبعًا للحرارة المحيطة بها، والطيور على العكس من ذلك، فهي من ذوات الدم الحار، التي تحافظ على درجة حرارة داخلية ثابتة مستقرة، بغض النظر عن تغير الحرارة الخارجية، وشأنها في ذلك كشأن الإنسان.

(١) المرجع السابق، ص ٣٣ ـ ٣٤.

وكم استعصى على التطوريين أن يوجدوا تفسيرا لتطور الطيور ذوات الدم الحار عن كائنات من ذوات الدم البارد، ولا يزال هذا الأمر لغزًا عويصًا، يتحدى أكبر علماء التطور، ومنهم على سبيل المثال العالم التطوري الفرنسي لوكومت دونوي (Comte du Nouy) الذي قال: «هذا الأمر يعد حاليًا من أكبر ألغاز التطور»، ومعنى ذلك أنهم لم يجدوا سبيلًا إلى حل هذا اللغز المعمى.

وثمَّ أمر آخر وهو ما يفترضه التطوريون أنّ حراشف الزواحف تطورت إلى ريش الطيور، وأين هذه الدعوى من حقائق العلم؟! فكم في الريش ما يفصله عن الحراشف، ويميزه عنها، فالريش مذهل بتصميمه حيث يخرج من ساق الريشة ما يسمى بشعيرات، كل شعيرة منها متصلة بالشعيرات الأخرى بواسطة شعيرات أخرى أيضًا، أدق من الأولى، لتشكل ما يشبه شبكة الصيد، وكل شعيرة تضم مئات من الأوبار شديدة الدقة، وتتصل كل أجزاء الريشة مع بعضها لتُكوّن سطحًا مصمتًا قويًا، وهو في نفس الوقت في غاية الخفة من ناحية الوزن، ولا نظير لها في مجال الطيران، فمثلًا عند فحص ريشة حمامة بواسطة الميكروسكوب تبين أنها تتكون من مئات الآلاف من الشعيرات الدقيقة، وملايين من الشعيرات الأشد دقة، مع العلم أن طائرًا بحجم البجعة مزود بخمس وعشرين ألف ريشة، وكم ترى الطيور تهذب ريشها وتشذبه بمناقيرها، وهذا لسبب وجيه، فالتشذيب من فترة لأخرى يساعد على طيران أفضل، فكيف يحدث ذلك لها؟ تضغط بمناقيرها على الريش وعندما يمر الضغط على الشعيرات الدقيقة يؤدي ذلك إلى اتصالها ببعضها، كما يحدث لأسنان السحاب.

أولا يكفي هذا دليلًا على البون الشاسع بين حراشف الزواحف وريش الطيور، فكيف يمكن تطور أحدهما من الآخر؟!.

ومن أهم الاختلافات بين الجنسين كثافة العظام، فمن الطبيعي أن تكون عظام الطيور خفيفة للغاية، ولكنها في الوقت نفسه قوية تساعدها على الطيران، ولذلك تكون عظام الطيور نحيفة ومفرغة، بينما عظام الزواحف غليظة وممتلئة، وتمد عظام الطيور بالقوة دعامات صغيرة داخل العظام المفرغة، مثل الدعامات الموجودة في أجنحة جناح الطائرات، بل الأولى أن يقال إن دعامات أجنحة الطائرات هي مثل دعامات أجنحة الطيور.

وأهم ما تتميز به الطيور عن بقية الحيوانات نظامها التنفسي، فبعض أنواع الطير يمكنه أن يتنفس الهواء القليل على ارتفاع ٨٠٠٠م أو أكثر، والإنسان في هذا الارتفاع في الهواء الطلق يواجه مخاطر صحية كبيرة يسمى نقص الأكسجين، فكيف تتمكن الطيور من التنفس؟!.

وثمَّ سؤال مهم؛ وذلك أن بإمكان الطيور أن تطير لساعات بل لأيام متواصلة، وهي ترفرف بأجنحتها، فيولد بذلك حرارة عالية، فكيف تقوم بتبريد أجسامها، مع أنها ليست لها غدد عرقية؟! وإنما تعتمد على نظامها المميز من الحويصلات الهوائية المتوزعة في كل الأجزاء المهمة في أجسامها، وهذه الحويصلات تقوم بدورين، أولهما: أنها تحافظ على حرارة الجسم، وتمنعها من الارتفاع بسبب حركة الأجنحة واحتكاكها بالهواء، وثانيها: أنها تمكن جسم الطائر من امتصاص المزيد من الأوكسجين، لأن جريان الهواء فيها هو عكس جريان الدم في الرئة، فيؤدي ذلك إلى احتكاك أكبر بين الهواء فيها وبين خلايا الدم، فتمتص المزيد من الأوكسجين، وهذا ما يساعد الطيور على التنفس في الارتفاعات الشاهقة رغم قلة الأوكسجين.

ولهذه الحويصلات طريقة مدهشة في امتصاص الأوكسجين، فعندما يستنشق الطائر الهواء يذهب إلى تلك الحويصلات الهوائية، وهي بدورها

تذهب به إلى الرئة، ومرة أخرى يعود إلى الحويصلات، فتقوم بعملية الزفير، فيحصل الطير بذلك على دورة هوائية داخلية فريدة، وذلك بخلاف الزواحف التي يزعمون أنها هي أسلاف الطيور، فإنّ رئتيها تستنشقان كل الهواء اللازم ثم تزفرانه كله.

وهنا يطرح سؤال على التطوريين عن تطور هذا النظام بين الزواحف والطيور؟.

وهو كغيره من الأسئلة التي لم يجيبوا عنها.

ومما يفرق بين الزواحف والطيور وضع البيض وفقسه، فالطيور تحتضن بيضها حتى يتم فقسه، والزواحف لا تفعل ذلك، وأغلب الطيور في صدرها منطقة خالية من الريش، صممت خصيصًا لاحتضان البيض، وهذه المنطقة مزودة بجهاز تدفئة عبر شبكة من الأوعية الدموية ليبقى البيض دافئًا عند احتضانه، ومن عجيب إلهام الله تعالى للطيور أنّ التي لا توجد فيها تلك المنطقة تقوم بنتف ريش صدرها لتشكل محضنًا للبيض، وهي غريزة موجودة في الطيور دون الزواحف، كما هو الشأن في بناء أعشاشها، ووضع البيض واحتضانه، فكيف وجدت هذه الغريزة في الطيور دون أسلافها المزعومة.

وكم في الطيور من مزايا لا توجد في الزواحف، منها حدة البصر كما هو معروف عن النسور والصقور، بل إنّ أصغر عصفور يتمتع ببصر مثل التليسكوب، فخلايا البصر في الطيور هي أكثر بأضعاف مضاعفة عن مثيلاتها في الزواحف، وفي بقية الكائنات، فكم ترون تلك الطفرات التي أدت إلى تطور بصر حيوان زاحف حتى غدا بصر حيوان طائر؟!.

وهذا مما سكت عنه التطوريون ولم يجيبوا عليه.

ومما يفرق بين الزواحف والطيور الحبال الصوتية التي هي في الزواحف دون الطيور، فإنّ الطيور وإن غردت فتغريدها من حوصلتها، وليست لها حبال صوتية.

ومما يفرق بينها طبيعة القلب في كل واحد من الجنسين، فقلوب الطيور تتألف من أربع حجرات، وقلوب الزواحف لا تزيد عن ثلاث حجرات.

وهذا كله يشكل معضلة أمام التطوريين، في ادعائهم أن الزواحف هي أسلاف الطيور، وإنما تطورت عنها، وقد أحسوا بعسر الأمر وتعقد المشكلة فلم يجدوا إلا الهروب من هذه المعضلة إلى معضلة أخرى لا تقل عنها استعصاء، حيث ذهبوا أن الزواحف تطورت مباشرة إلى ثدييات دون المرور بمرحلة الطيور، توهمًا منهم أنهم بذلك يتحايلون على مشكلة الطيور والزواحف، وما هم إلا كالمستجير من الرمضاء بالنار.

فيكفي أن يكون اسم الثدييات دالًا على أكبر اختلاف بينها وبين الزواحف، وهو وجود الثدي الذي ترضع منه صغارها، فلذلك كانت صغار الثدييات تدرك بفطرتها أنها بحاجة لرضاعة الحليب من أمهاتها، وزودت بالعضلات المساعدة على ذلك، وتملك الغريزة التي تمكنها من ذلك بمجرد ولادتها، فمن الذي علم صغار الثدييات كيف تمص الحليب؟! وهذا فرق كبير بينها وبين صغار الزواحف التي لا تجد هذه الغريزة ولا القدرة على ذلك، وهذا مما يظهر في صغار التماسيح، فإنها بعد فقس بيوضها وخروج صغارها منها تتولى تلك الصغار تغذية نفسها بالبحث عن الطعام بدلًا من الاعتماد على الأم، وهذا أيضًا عمل غريزي، ولكنه مختلف عن غريزة الرضاعة.

ومما يفرق بين الثدييات والزواحف المشيمة التي في الثدييات دون الزواحف، وتعد معقدة وعالية التطور وظيفتها أن توفر للجنين التغذية التي

يحتاجها أثناء الحمل، وهي من المزايا الفارقة بين الجنسين، وكذلك لا يوجد في الزواحف الحجاب الحاجز الذي في الثدييات.

وفي آذان الثدييات ثلاثة عظام، بينما العظم الذي في آذان الزواحف هو واحد، ومن الفروق الواضحة جدًا ثبوت حرارة أجسام الثدييات، بينما درجة حرارة الزواحف تتكيف حسبما تكون في الأجواء المحيطة بها، كما سبق ذلك.

أما من حيث البنى العظمية، فإنّ أرجل الزواحف موجودة على جوانب أجسامها، وهذا مما يجعل بطونها قريبة من الأرض، بينما أقدام الثدييات أسفل الجسم، وذلك مما يرفع أجسامها عن سطح الأرض، ومن الفروق بين الجانبين ما نبه عليه العالم التطوري ثيودوسيوس دوبجانسكي (**Theodosius Dobzhansky**) في قوله: «للثدييات أسنان دقيقة ومفصلة بدل الأسنان البسيطة للزواحف والتي هي أشبه بالأوتاد، وأسنان الثدييات متنوعة لتتكيف مع مختلف المهمات المطلوبة منها، من قرض وإمساك وسحق وقطع وثقب وهرس طعامها»...[1].

وإذا أدركت أيها القارئ الكريم ما يفرق بين الصنفين ـ بل بين الأصناف كلها ـ من فوارق طبيعية بالغة في التعقيد، مؤثرة في الحياة، هل تعتقد أن الحقائق تؤيد التطوريين في دعاواهم، أو أنها بمنأى عما يدعون، وإنما هي تنقض هذه الدعاوى من أسسها؟ فكم هي الفجوات الشاسعة التي تفرق بين الأسماك والزواحف، وبين الزواحف والطيور، وبين الزواحف والثدييات، فهل يعقل أن يكون وجود أي جنس من هذه الأجناس نتيجة تطور الجنس الذي قبله إليه، أو أن هذه أوهام لا تدل إلا على التخبط والحيرة.

---

(١) ينظر؛ المرجع السابق، ص٣٤ ـ ٣٩.

٤ ـ الخفاش:

وهو حيوان عجيب غريب، وسيأتي إن شاء الله ذكر خصائصه التي لا تكون في غيره من أنواع الحيوانات سواء منها ما يزحف على بطنه أو يمشي على الأقدام أو يسبح في الماء أو يطير في الفضاء، ومن خصائصه أنه يطير بلا ريش، ويعد من الثدييات وليس من الطيور، ويتملك جهاز سمع يعمل بواسطة إرسال موجات صوتية، وحسب سرعة ارتدادها، فيضاهي بذلك أحد أنواع الرادارات الحديثة، كما سيأتي بيانه إن شاء الله في الباب الآتي، وقد وجد ما يزيد على ألف أحفورة كاملة لهذا الحيوان العجيب وكلها لخفافيش كاملة؛ بهيكلها العظمي وعمودها الفقري وأجنحة مكتملة صالحة للطيران، وتعود بعض الأحافير للخفافيش التي عثر عليها إلى أكثر من خمسين مليون سنة، ولم يعثر العلماء على أحفورة واحدة لحيوان انتقالي يمكن أن يكون سلفا للخفاش، وما يذكره علماء التطور من كون الفئران سلّفا للخفافيش دعوى فارغة من الدليل، فإنّ الفجوة بين الجانبين واسعة جدًا، ولا يوجد أي حيوان انتقالي بينهما، فهذا الفتق واسع، ولا يمكن أن يرتق بأدلة تدل عليه[1].

وكم من فرق بين الخفاش والفأر في طبيعته الخلقية، وفي غرائزه، فالفأر حيوان صغير ذو فرو رقيق وخطم (أنف) مدبّب وعينين سوداوين مستديرتين وأذنين مستديرتين وذيل طويل دقيق، وكلمة فأر ليست اسمًا لنوع واحد من الحيوان أو فصيلة من الحيوانات؛ فكثير من أنواع القوارض (الحيوانات القاضمة) يطلق عليها فأر، وهي تشمل الجرذان الصغيرة والهمستر والعضل واليربوع واللاموس والفول وفئران المحصول

---

(١) ينظر؛ الجندي: العلم يؤكد شكوك داروين، ص ١١٠.

وفئران الأياثل وفئران الجندب، كل هذه الحيوانات لها أسنان أمامية كالإزميل مفيدة في الحفر، ويستمر نمو الأسنان الأمامية للقوارض طوال حياة الحيوان.

يوجد ٨٨٠ نوعًا من الفئران تعيش في معظم أنحاء العالم، توجد في الجبال والحقول والغابات والمستنقعات وبجوار الأنهار وفي الصحراء[١].

وسيأتي إن شاء الله بيان صفات الخفافيش التي تتميز بها من حيث فطرتها، فدعوى أنها متطورة عن الفئران دعوى ساقطة.

٥ ـ الديناصور:

هو «حيوان زاحف عاش قبل ملايين السنين. وكلمة الديناصور مشتقة من كلمتين يونانيتين تعنيان السحلية المزعجة الرهيبة، ولم تكن الديناصورات سحالي ولكن حجم بعضها كان مروِّعًا، حيث إنّ الكبيرة منها كانت أضخم الحيوانات التي سكنت على اليابسة على الإطلاق، وكان وزنها أكثر من عشرات أضعاف وزن فيل كامل النمو. وهناك أنواع نادرة من الحيتان تنمو لتصبح أضخم من هذه الديناصورات.

ظهر أول الديناصورات على الأرض قبل ما يقارب ٢٢٠ مليون سنة مضت. وسيطرت هذه المخلوقات على اليابسة لما يقارب ١٥٠ مليون سنة، حيث عاشت في معظم بقاع العالم وفي أوساط متنوعة، من المستنقعات إلى السهول المنبسطة، إلا أنها انقرضت فجأة قبل نحو ٦٣ مليون سنة.

وقد اختلفت الديناصورات بدرجة كبيرة في حجمها ومظهرها وعاداتها إلا أنّ أشهر أنواعها تشمل عمالقة مثل الأباتوسورس، والدبلودوكس،

---

(١) ينظر؛ مجموعة باحثين: **الموسوعة العربية العالمية**، حرف (ف) ـ الفأر، ١٧٢/١٧.

والتيرانوسورس. وإلاباتوسورس الذي سُمّيَ أيضًا بالبرونتوسورس ويصل طوله نحو ٢١ م، في حين أنّ الدبلودوكس قد ينمو إلى أطول من ذلك، حيث بلغ نحو ٢٧ م، وقد كان كلاهما من آكلات النباتات. ولهذه الوحوش رؤس صغيرة ورقاب وذيول طويلة للغاية وكان التيرانوسورس من المفترسات آكلات اللحوم. وهو يقف بارتفاع ثلاثة أمتار عند الورك وله رأس ضخم وأسنان طويلة ومستدقة الأطراف. ولكن الديناصورات لم تكن جميعها عملاقة حيث كان أصغر أنواعها بحجم الدجاجة.

وبصورة عامة فإنّ الديناصورات كانت تشبه معظم زواحف يومنا الحاضر، فعلى سبيل المثال، كان لبعضها أسنان وعظام وجلد مثل ما لدى التماسيح وبعض الزواحف الأخرى المعاصرة، ومن المحتمل جدًا أنّ بعضها كان يتمتع بدرجة ذكاء كتلك التي عند التماسيح، إلا أنّ الديناصورات اختلفت عن زواحف يومنا الحاضر بأساليب أخرى. فعلى سبيل المثال، لم ينم أي من الزواحف الحديثة بحجم كبير يشبه كبر الديناصورات، وهناك اختلاف آخر مهم وهو شكل وقفة الديناصور، ففي حالة السحالي والسلاحف ومعظم الزواحف الأخرى، فإنّ السيقان تكون ظاهرة على جانبي الجسم، حيث إن تركيب السيقان يُعطي هذه الحيوانات شكلًا منبسطًا وغير متناسق، في حين أنّ سيقان الديناصور تبقى تحت الجسم مشابهة بذلك سيقان الحصان، وقد أدى تركيب الساق هذا إلى رفع جسم الديناصور عن الأرض، ومكّن بعض أنواعها من السير على سيقانها الخلفية»[1].

«ويعتبر السجل الأحفوري للديناصورات من السجلات الغنية من حيث عدد الأحافير المكتشفة، وقد اكتشفت عظام تعود إلى أكثر من (١٠,٠٠٠)

(١) المرجع السابق، حرف (د) ـ الديناصور، ١٠/٥٩٣ ـ ٥٩٤.

ديناصور في مختلف أرجاء الأرض، ولأنواع مختلفة من الديناصورات، وقد تُمكِّن من إعادة تركيب (٣٠٥٠) هيكلًا عظميًا من الديناصورات كاملة»[١].

«وكثيرٌ منها معروض في متاحف التأريخ الطبيعي حول العالم، ولكن ـ رغم هذا العدد الكبير من الديناصورات المكتشفة، وأن الديناصور من أضخم الحيوانات التي عاشت على سطح الأرض ـ لا يحتوي سجل الأحافير على أحفورة واحدة يمكن اعتبارها سلفًا مباشرًا لأي ديناصور عاش على سطح الأرض، وقد أثبت ذلك د. **كارل ويرنر** إذ أثبت أن كل ما يوجد في المتاحف من مخططات لشجرة نسب الديناصورات التي ترجع الديناصورات المختلفة إلى أسلاف مشتركة، تنتهي جميعها إلى أصل واحد مشترك، ولكن جميع هذه الأنساب وكذلك أصلها المشترك المزعوم لا توجد أحفورة واحدة لأي منها!!..

أليس عجيبًا إن كان التطور حصل ـ كما يزعمون ـ أن يضم سجل الأرض هذا العدد الكبير من أحافير الديناصورات الضخمة، التي عاش مختلف أنواعها في فترة زمنية تزيد على ١٥٠ مليون سنة (ما بين ٢٢٢ ـ ٦٥ مليون سنة من اليوم) ثم لا نجد قبل هذا التأريخ أحفورة واحدة لسلف من أسلافها»[٢].

هذا مما ضاقت به صدور التطوريين، لأن دعاواهم تتبخر لعدم وجود دليل عليها، ولكنهم كعادتهم يتشبثون بكل شيء ـ ولو كان كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء ـ وذلك أنهم عثروا على أحفورة لكائن أعطوه اسم **اركايوبتيريكس** وقد عدّوا العثور على هذه الأحفورة انفراجًا عظيمًا في البحث عن أدلة النظرية من سجل الأحافير، وزعموا أنّ هذا الكائن تجتمع

---

(١) الجندي: **العلم يؤكد شكوك داروين**، ص ١١٠ ـ ١١١، «بتصرف يسير»، نقلاً عن كارل ويرنر: التطور: **التجربة الكبرى**، ص ٢٢٤.

(٢) المرجع السابق، ص ١١١. «بتصرف يسير»

فيه صفات مشتركة بين الديناصورات والطيور، تجعله دون شك ـ حسبما زعموا ـ أحفورة لكائن انتقالي بينهما، فلهذا الكائن أجنحة وعلى جسمه ريش، وفيه ذيل طويل كذيل الديناصور، ورقبته ورأسه تغطيهما الحراشف لا الريش، وفي منقاره أسنان، والشكل العام لهيكله العظمي قريب الشبه من الشكل العام للهيكل العظمي للديناصور، وقد عدوه حيوانًا انتقاليًا بين الديناصور والطيور.

وإذا وضع دليلهم هذا على المحك العلمي تكشف عن الخواء، فالأرقام تحدد أن عدد أحافير الطيور المكتشفة حتى الآن يزيد على (٢٠٠,٠٠٠) وأن عدد أحافير الديناصورات المكتشفة يزيد على (١٠٠,٠٠٠)، فكم عدد أحافير الـ (**اركايوبتيريكس**) أو الـ (ديناطير) كما ينبغي أن يسمى، فالعدد الكلي لأحافيره لا يتجاوز التسعة اكتشفت على مدى قرن ونصف القرن، وقد وثقها د. **كارل ويرنر** في كتابه **الاكتشاف الكبير** ووضع صورة هذه الأحافير التسع ووضع جانب كل صورة تاريخ اكتشاف الأحفورة، ومكان اكتشافها والمتحف الذي يضمها اليوم، أولا تكون في ذلك إشارة استفهام كبيرة، هل يمكن اعتبار هذا الكائن وسيطا بين الطيور والديناصورات، وهناك مئات الآلاف من أحافيرها، ولا توجد إلا تسعة من أحافيره؟!.

أولا يكون ذلك دليلًا على أنه كائن آخر ظهر وانقرض ولا علاقة له بالطيور ولا بالديناصورات؟ وكيف يمكن أن يسوغ من الناحية العلمية والتأريخية وجود مئات الآلاف من أحافير أسلاف الديناطير ومئات الآلاف من ذريته، ولا يوجد منه إلا ما هو أقل من عدد أصابع اليدين؟! أولا يكون التسويغ العلمي المقبول هو أنه حيوان مستقل ليس هو من هؤلاء ولا من هؤلاء؟ وما المانع أن يكون قد ظهر وعاش ثم انقرض كما ظهر وعاش وانقرض غيره من ملايين الكائنات على مدى الأرض السحيق؟.

أما ما عدوه دليلًا على أن أصله ديناصور ما يزعمونه أن رقبته ورأسه تغطيهما الحراشف لا الريش، وهذه من صفات الزواحف، فإنّ هذه دعوى أنى لهم إثباتها؟ فإن ما وجد من أحافيره ليس إلا هيكلًا عظميا، وفي الأحفورة أثر من ريش على الجناحين، فتخيلوا عندما رسموا شكله الكامل أن رأسه مغطى بحراشف! ولكن الذين رسموه لم ينتبهوا لأمرين:

أولهما: أن جميع أحافير الطيور التي عثر عليها لم يكن فيها آثار لريش على رؤسها، لأن ريش الرأس والرقبة ناعم دقيق، أقرب للزغب منه إلى الريش، لذلك لا يبقى له أثر مع الزمن في الأحفورة، والديناطير ليس استثناء، ولن تحتفظ أحفورته بريش رأسه.

ثانيهما: أن أحافير الديناطير لا يظهر عليها أي أثر للحراشف، لا في الرأس ولا في أي مكان آخر، والخيال وحده هو الذي اعتمد عليه الذين رسموا شكله عندما أضافوا له الحراشف، ولأجل ذلك ترى النماذج الحديثة التي يرسمونها لهذا الكائن يرسمونها بريش على كامل الجسم مع الرقبة والرأس، ولذلك يبدو الديناطير في تلك النماذج طيرًا كاملًا، يصعب تمييزه عن أي طير حديث، ومن تلك النماذج ذلك المعروض في متحف شيكاغو، ولهذا فإنّ الجزم بأن رأس الديناطير كان مغطى بالحراشف غير صحيح.

ومما تعلق به التطوريون في إثبات أن الديناطير أصله ديناصور وجود مخالب على أجنحته، فهم يعدونها بقايا من سلفه الديناصور!! وينسبونه إلى الديناصورات آكلة اللحوم بسبب هذه المخالب، ولا متعلق لهم في ذلك، ففي الكرة الأرضية اليوم إثنا عشر نوعًا من الطيور توجد على أجنحتها مخالب، منها بعض أنواع الخفافيش، والخفاش حيوان ثديي، ولا يوجد أي نسب بينه وبين الديناصور، ومنها طيور أخرى منها النعام، والطائر النتن، وأبو منجل، ولا تزال موجودة إلى اليوم، ولا يمكن بحال أن تنسب إلى الديناصورات.

وتعلق التطوريون في إثبات دعواهم بأن الديناطير توجد في منقاره أسنان وعدوا ذلك دليلًا أنه ينحدر من ديناصور آكل اللحوم!! وهم يحددون نوعًا معينًا من الديناصورات اسمه العلمي **داينونيكوس**، وهو منقوض من وجهين:

أولهما: أن أسنان الـ **داينونيكوس** حادة كالسكين، بينما أسنان الديناطير مسطحة ملساء.

ثانيهما: أن كثيرًا من الطيور لها مميزة جدًا وفريدة ولا تدل على أي خاصية تطورية، مثل الأقدام الطويلة للقالق والرقبة الطويلة للنعام، وقدرة بعض الطيور للغوص في المياه كالأسماك، والمنقار الضخم للطائر المعروف باسم (**Great hornbill**) والمنقار العجيب للبجع الطائر، الذي يتدلى من أسفله ما يشبه الكيس أو المحفظة لحفظ الأسماك التي يصطادها، وغير ذلك من الصفات الكثيرة المميزة للطيور، فلماذا لا تعتبر أسنان ديناطير صفة مميزة، وتربط عنوة بأسنان ديناصور الـ**داينونيكوس** رغم التباين الكبير بينهما من وجوه كثيرة؟![1].

الأدلة الدالة على سقوط دعوى علاقة الديناطور بالديناصور:

إذا تبيّن لك أيها القارئ الكريم أنّ كل ما تشبث به المدعون لهذه الدعوى مما توهموه حجة ودليلًا لا قيمة له في موازين العلم، ولا يمكن أن تثبت بها حقيقة تدعى، فإنّ بجانب هذا الفشل في تعزيز هذه الدعوى توجد أدلة إيجابية تدل على إدحاضها.

منها الفرق الشاسع بين الأطراف الأمامية للديناصور وبين أجنحة الديناطير، ولا توجد أي أحفورة تحتوي على مرحلة انتقالية بينهما، وعلى فرض وجودها، فكيف كان ذلك الكائن الوسيط ينتقل؟.

---

(١) ينظر: المرجع السابق، ص ١١٣ ـ ١١٦.

فالمرحلة الانتقالية بين الرجل والجناح هي وجـود عضو يمكن اعتباره نصف جناح ونصف رجل، ولكن هذا الكائن الوسيط لا يستطيع الطيران، لأن أجنحته غير مكتملة، وكذلك لا يستطيع المشي لعدم اكتمال أطرافه.

وبجانب هـذا الدليل العضوي علـى بطلان هذه الدعوى فـإنّ ثمّ دليلًا تأريخيًا يعززه، فالتأريخ يثبت أنّ الديناصور المسمى **داينونيكوس** الذي عده كثير مـن التطوريين سـلف الديناطيـر قد عاش فـي العصر الذي يسـمى **كريتاسيوس** ويمتد ما قبل (٩٣ ـ ١١٩) مليون سنة، أما أحافير الديناطير فتعود إلى أواخر العصر **الجوراسي** أي ما قبل (١٥٠) مليون سنة، فلا يمكن أن يكون هذا الديناصور سلفًا لطائر الديناطير، وكيف يسبق الخلف سلفه في الوجود؟! فما هو إذًا سـلف الديناطير إن كان حقًا تطور من ديناصور، لا يوجد جواب على هذا السؤال عند العلماء بعد أن ثبت عندهم أن أقرب الديناصورات شبهًا بالديناطير قد عاش بعده بملايين السـنين، ولم يستطيعوا قطّ أنّ يحددوا نوع الديناصـور الذي تطـور منه الديناطير حسـب زعمهـم، بعـد أن ثبت أنّ داينونيكوس قد عاش بعد الديناطير.

والتأريخ يؤكـد أنّ العلماء عثروا على كثير من أحافير الطيور المشـابهة للطيور التـي تعيش بيننا في طبقات صخرية مسـاوية فـي عمرها التأريخي للطبقات التي وجدوا فيها أحافيـر الديناصورات، كما جـاء ذلك في كتاب **التجربة الكبرى** للدكتور **كارل ويرنر**، فكيـف يتصور أن يكون الديناطير هو الطير الأول الذي تطـورت منه الطيور، وقد انحدر مـن الديناصورات، وأنه الكائن الانتقالي بيـن الطيور والديناصورات؟! ألا يقطـع المنطق أصل هذه الدعوى بـأنّ أحافير الديناصورات والديناطير يجـب أن تكون أقدم بملايين السنين من أحافير الطيور الأخرى إذا كانت الطيور تطورت من الديناصورات ثم من الديناطير؟.

وعلم التشريح يؤكد بأنه لو وضع الهيكل العظمي للديناطير بين هياكل عظمية لأحد الطيور الحديثة لما أمكن التمييز بينها، وسبق إلى الأذهان أن هيكل الديناطير هو هيكل لأحد الطيور، إذ لا يوجد ما يميزه عنها[١].

هذا؛ وقد حاول بعض التطوريين أن يجدوا لدعواهم مستندًا فيما اكتشف في القرن المنصرم من قبل علماء الصين من أحافير قالوا إنها تعود لديناصورات مكسوة بالريش، وذلك أنهم اعتبروها طيورا تطورت من الديناصورات، غير أن هذه الدعوى انهارت كما انهار غيرها، بثلاثة أسباب:

أولها: أن العلماء حتى الآن هم مختلفون في هذه الكائنات، هل هي ديناصورات ذات ريش؟ أو أنها أنواع من الطيور التي لا تطير؟ كما هو الشأن في العديد من الطيور المعروفة اليوم، كالنعام والبط والأوز والدجاج وغيرها.

ثانيها: أنّ الطبقات الجيولوجية التي وجدت فيها هذه الأحافير تعود إلى ١٢٥ مليون سنة، في حين أن الديناطير أقدم منها بحوالي ٢٥ مليون سنة، وهذا يعني استحالة أن تكون هذه الديناصورات أسلافًا للطيور.

ثالثها: أنّ صحة اكتشاف هذه الأحافير في الصين لم تثبت إلى الآن، ومما يثير الشكوك فيها ما عثر عليه من وجود ورشات متخصصة في تزييف الأحافير، وتركيب قطع من أحافير مختلفة لتصويرها أنها أحفورة كائن واحد، وقد اكتشف العلماء التزييف بالأدلة القاطعة، بعد قيامهم بعمليات مسح بالأشعة على بعض الأحافير[٢].

وبعد هذه الجولة الطويلة بين الديناصور والديناطير والطيور المعروفة ماذا عسى أن يقال في أصول الطيور؟.

---

(١) ينظر؛ المرجع السابق، ص ١١٧ ـ ١١٨.

(٢) ينظر؛ المرجع السابق، ص ١١٨ نقلاً عن كارل ويرنر: التطور: التجربة الكبرى، ص ١٧٤ ـ ١٧٥.

ندع الإجابة في هذا للاستاذ المهندس فداء ياسر الجندي حيث قال: «يسهل الاستنتاج مما سبق أنّ الهالة الكبيرة التي اصطنعها التطوريون حول أحفورة الديناطير ليست إلا فقاعة باهتة لا تصمد أمام البحث والبرهان والدليل العلمي، رغم أنهم يعتبرونها من أقوى الأدلة على وجود الأحافير الوسيطة، التي تمثل المراحلة الانتقالية بين الأنواع، فإذا كان دليلهم الأكبر فقاعة لا رصيد علمي لها، فإنّ هذا كفيل بدحض نظريتهم، وضربها في مقتل، وهذا المقتل هو سقوط دليل يعتبرونه من أقوى أدلتهم، وفشلهم في العثور على أحفورة واحدة ـ من بين ألف مليون أحفورة مكتشفة حتى الآن ـ يستطيعون اعتمادها حلقة انتقالية بين نوعين أساسيين من الأحياء، هما في حالتنا هذه الزواحف والطيور»[1].

تخبط التطوريين فيما يفترضونه من تصورات:

لا يخفى على كل من درس هذا الموضوع أنّ التطوريين يزعمون أنّ جميع الحيوانات البرية هي متطورة عن حيوانات مائية، وبناء على ذلك فإنّ جميع الثدييات ـ ومن بينها الإنسان ـ أصلها أسماك وحيوانات مائية، خرجت من الماء إبان تطورها على مدى ملايين السنين..! فتطورت أعضاؤها لتتناسب مع حياة البر، ثم أخذت بعد ذلك تتدرج في مراحل التطور، حتى انتهى ما انتهى منها إلى الطور الأخير وهو الإنسان الذي أوتي العقل والحكمة.

والكل يدرك أنّ الحوت هو حيوان مائي يولد ويعيش في البحر كما تولد وتعيش الأسماك، وأنه يسبح فيه ويغوص مستخدمًا زعانفه وذيله كما تفعل الأسماك، ولكنه حيوان ثديي يتكاثر بالولادة، وترضع أنثاه صغارها كسائر الثدييات بما فيها الإنسان، ولكنهم اضطربوا في الحوت إذ أثبتوا له ما أثبتوه

(١) المرجع السابق، ص١١٩.

لغيره مما تطور من كونه حيوانًا مائيًا، إلى أن صار برمائيًا وصار بعد ذلك بريًا، ولكنه لم يطرد في تقدمه التطوري كغيره، وإنما تطور بعد ذلك إلى العكس..! فعاد حيوانًا مائيًا لأسباب وظروف بيئية وطبعية غير معروفة، وبرجوعه إلى أصله المائي تطورت أعضاؤه لتناسب الحياة البحرية، ومعنى ذلك أنه عاكس سنة التطور التي تدرجت فيها نظائره، فرجع إلى الوراء بدلًا من أن يتقدم إلى الأمام.

وهذا من عجيب الأمور فكيف يتقدم تارة وينكص تارة أخرى؟! فما الذي عاق تطوره إلى الأمام حتى عاد إلى ورائه؟ وكيف لم يجر ذلك لنظائره، وهي الحيوانات المتطورة المنتقلة من العيش في الماء إلى العيش في البرية؟ على أنّ هذه الدعوى تفتقر إلى ما يدل عليها من الدلائل العلمية والتجريبية، وليت شعري؛ أين الدليل على ذلك؟! فهل يوجد ما يدل عليه مما هو موجود في خزائن الجيولوجيا أو الأحافير أو الأحياء أو التاريخ الطبيعي أو التشريح أو أي علم آخر؟.

فما الذي يثبت أنّ حيوانًا ثدييًا كان يعيش على البر ثم انقلب فعاد إلى البحر ليصبح حوتًا؟!.

إنّ أول ما يواجه هؤلاء من اعتراض على هذه الدعوى هو سؤالهم عما لو كان الحوت حيوانًا بريًا ثم عاد إلى الماء، ما أصله البري الذي تطور إلى بحري؟ وهذا مما اختلفوا فيه اختلافًا واسعًا، ولم يجتمعوا على إجابة واحدة، فإنّ أول من قال إن الحوت أصله حيوان بري ثديي هو داروين، فإنّه زعم في كتابه **أصل الأنواع** أن أصله دب قطبي، وأنه كان ينزل إلى الماء ليبحث عن فرائس من الأسماك، فكان يسبح على سطح الماء فاتحًا فاه ليلتقطها، وقد أدى تكرار عمليته هذه على مدى أزمنة متطاولة إلى تطوره، فأصبح حوتًا.

وقد جوبهت هذه الأطروحة التي فرضها داروين بنقد شديد، فاضطر إلى التراجع عنها في طبعات كتابه اللاحقة، ولكن توجد نسخة من الطبعة الأولى منه في جامعة هافرد وفيها هذه الفرضية قبل حذفهـــا، غير أنّ التطوريين بعد داروين لم يتلكأوا عن البحث عن سلف الحيتان لحل معضلة وجود الثدييات في البحر، فمن بينهم باحثون في أكاديمية كاليفورنيا ادعوا أنّ الحوت تطور من حيوان من فصيلة الذئاب يشبه الضبع، وباحثون آخرون في متحف التأريخ الطبيعي في جامعة ميتشـــيغان ذهبوا إلى أنه تطور من حيوان من السنوريات يشبه القطط.

وذهب علماء الجيولوجيا في اليابان بإصرار إلى أنّه تطور من فرس النهر، محتجين بوجود بعض التشـــابه في الحمض النووي بينه وبين الحوت، وقد فاتهم أنّ فرس النهر مما يأكل النبات، وتختلف أســـنانه عن أسنان الحوت، بخلاف ما ذكروه من الحيوانات الأخرى، فهـــي آكلة للحوم، كمثل الحوت، وأسنانها شبيهة بأسنان الحوت.

وفي مقابل أولئك جميعًا ذهب التطوريون في متحـــف ملبوريو إلى أنه تطور من حيوان ثديي من فصيلة الأيائل يشبه الغزال، ومن بين التطوريين من قال إنّ الحيتان أصلها حيوانات ذات أظلاف كمثل البقر والخنازير، حتى أن مجلة ساينس الإمريكية الشهيرة نشـــرت رسمًا كاريكاتوريا عام ٢٠٠١ ظهر فيه دولفين يخرج رأسه من الماء، ويقول لبقرة على البر نحن أبناء عم إذًا.

وهكذا؛ تجدهم فـــي كل واد يهيمون بحثًا عن أصل هـــذا الحيوان الذي أعياهم تحديد أصله يوم كان يمشـــي على الأرض، قبل أن يغطس في الماء، ويصبح حوتًا، فترددوا بين كون هذا الأصل ضبعًـــا أو بقرة أو غزالًا أو فرس النهر أو قطًا وحشيًا.. واستمروا في أزمة من هذا الأمر، إلى أن جاء عام ١٩٩٣ عندما اكتشـــفوا في جبال باكســـتان أحفـــورة لحيوان زاحف طويل ســـموه

أمبيولوسيتوس (Ambulocetus) وادعوا أنه حوت يمشي، فرسموه فورًا في شجرة تطور الحوت.

وكم من فارق بينه وبين الحوت، يتضح لمن رجع إلى أحفورته أو الشكل الذي رسموه له انطلاقًا منها، فلا يجمع بينهما إلا استطالة جسميهما ولا توجد فيه زعانف الحوت ويختلف معه في كونه يمشي على أربعة أرجل، وذيله شبيه بذيل الزواحف، وليس هو كذيل الحيتان، حتى أنّ الدكتورة أناليسا بيرتا ـ المحاضرة في جامعة سان دييغو الخبيرة في تطور الزواحف ـ ذكرت في مقابلة لها ـ مع الدكتور كارل ويرنر مؤلف كتاب التجربة الكبرى ـ أنّ العلماء اعتبروا هذا الحيوان سلفًا للحوت، لأنه وضعوه على شجرة تطور الحوت.

ومما اعتبره التطوريون من أسلاف الحوت حيوان سموه رودوسيتوس (Rodhocetus) واعتبروه خلفًا لحيوان أمبيولوسيتوس وسلفًا للحوت، مع أنه يبدو من الرسم الذي رسم له أنه زاحف مستطيل له أطراف شكلها ما بين الزعانف والأرجل، وشكل ذيله ما بين شكل ذيل الزواحف والحيتان.

ولأجل التحقق من صحة نسبة هذه الأحفورة لشجرة تطور الحيتان قام الدكتور كارل ويرنر بزيارة المتحف الذي توجد فيه هذه الأحفورة، وهو متحف التأريخ الطبيعي في جامعة ميتشيغان، وتفحصها عن قرب وقام بتصويرها، فوجد أنّ الأحفورة غير كاملة، وأن عظام الأطراف والذيل غير موجودة، وأن الأطراف والذيل الموجودين على الرسم المعروض في المتحف للزوار هي من إضافة خيال الباحثين والرسامين، وتابع الدكتور ويرنر البحث والتحري حول هذا الموضوع، فحرص على أن يلتقي بالدكتور فيليب جينجريتش الذي اكتشف هذه الأحفورة، وهو يعمل في المتحف نفسه، فأكد له أنّ الأحفورة التي اكتشفها لم تكن تحتوي على عظام الزعانف

والذيل، وأكد له كذلك أنه تم فيما بعد اكتشاف بقية الأحفورة، فوجد أن لها أطرافًا وليس لها زعانف، وأن ذيلها ذيل زاحف، ولكن مع ذلك ظل المتحف يعرض على الناس ذلك الرسم الخيالي لهذا المخلوق، ولم يقم بتغييره.

وكل ما ذكر هنا عن تطور الحوت ليس إلا خلاصة موجزة عن دراسة مستفيضة موثقة بالدليل والصور، موجودة بحذافيرها في كتاب **التجربة الكبرى** الذي أثبت فيه د. **كارل ويرنر** تهافت جميع ما ادعاه التطوريون، من كون تلك الأحافير هي أحافير أسلاف الحيتان، وأكد انتفاء أي صلة تطورية مزعومة بين الحوت وأي حيوان بري معروف يزعم التطوريون أنه سلف للحيتان[1].

وبعد هذا الاستقصاء من الأستاذ فداء ياسر الجندي، حول هذه التطورات المزعومة أكد ما جاء فيه بقوله: «يتضح مما سبق أنّ الحالتين اللتين يعتبرهما التطوريون من أقوى الأدلة على وجود أحافير انتقالية وأدلة تطورية ليست كل منهما إلا كالقشة التي يتمسك بها الغريق لينجو، فكلاهما دليل باطل، ولنفرض جدلًا أننا اعتبرنا الديناطير سلفًا للطيور التي تعيش اليوم، فأين الأحافير الانتقالية بينه وبين طيور اليوم؟ أين ما يثبت علاقته بالدجاجة والبطة والطاوس والصقر والنعامة؟ هل يوجد بين مئات الآلاف من أحافير الطيور المكتشفة ما يثبت أية صلة بينه وبين أي طير يعيش اليوم؟ ولنغص في البحر بعد أن طرنا في السماء، ولنفرض جدلًا أنّ ادعاءات التطوريين حول سلف الحوت صحيحة، فهلا دلنا التطوريون على ما يملأ شجرة النسب بين أول حيوان ثديي عاد إلى الماء، وبين الحوت الأزرق الذي يعيش اليوم؟ ذاك الذي يبلغ طوله ثلاثين مترا ووزنه ١٧٠ طنًا، أين الدليل على أنّ هذا الحيوان

---

(١) ينظر؛ المرجع السابق، ص١٢٠ ـ ١٢٣، نقلا عن: كارل ويرنر: **التجربة الكبرى**، ص٢٥١ ـ ٢٧٥.

الضخم هو حفيد أول ثديي نزل إلى الماء؟ سواء كان ضبعًا أو غزالًا أو بقرة أو فرس نهر ـ على خلاف العلماء كما رأينا ـ؟ إنّ وزن أي من هذه الحيوانات لا يزيد على بضع مئات من الكيلو جرامات، فكيف تطورت؟! حتى زاد وزنها مئات المرات؟ أين الأحافير الانتقالية؟ أين الدليل العلمي؟ أين الدليل الجيني؟ أين الدليل المنطقي؟ ألا توجد أحفورة واحدة تصل بين حيوان يزن أقل من طن، وحيوان يزن مائة وسبعين طنًا، يزعم التطوريون أنّ الأول منهما سلف الثاني؟!.

أسئلة نتركها للتطوريين ليجيبوا عليها حول ما يعتبرونه أقوى دليلين أحفوريين على نظريتهم المنهارة»[1].

خرافة تطور الإنسان من بعض فصائل القردة:

إذا ثبت بالأدلة الواقعية التي لا تقبل الشك أنّ تطور حيوان إلى حيوان دعوى لم تعززها البينات، بل عاكستها، وردتها على أعقابها خاسئة، وذلك من خلال ما سبق ذكره وما يأتي من دلائل سجل الأحافير الشاهدة بأنّ هذه خرافة لا يعززها دليل قط، وكذلك من خلال الدراسات العلمية في الحمض النووي وما تحتويه الخلية ـ لا سيما نواتها ـ من برمجة عجيبة مختلفة بين حيوان وآخر، فإنّ دعوى أنّ الإنسان هو المرحلة الأخيرة في التطور، وأنّ المرحلة التي سبقته هي مرحلة القردة، أو صنف منها، هي دعوى أيضًا غير قائمة على دليل علمي أو عقلي، وإنما هي مجرد وهْم تأثرت به أفكار عقيمة فتقبلته، فكم من فارق بين الإنسان وبين القرد في التكوين الخلقي وفي الأحوال النفسية، وقد شهدت بهذا الأحافير على رغم محاولة التزوير فيها من قبل المتعصبين لهذه النظرية، عندما أفلسوا من أي دليل يدل عليها، ولندع

(١) المرجع السابق، ص ١٢٣ ـ ١٢٤.

المجال هنا لروبرت جميس غالغي ليرد على هذه الفرية معززا رده بالحقائق العلمية، التي كشـفت عنها الصحف الغربية، أو الكتـب التي جاءت نتيجة بحث واستقصاء لهذه القضية من خلال دراسة الأحافير وغيرها مما يتكأ عليه في ذلك، فقد قال ما يلي:

«يعتقد بعض التطوريين أنّ القرود هي أصل البشـر، ومن هؤلاء **جورج غايلورد سيمبسونز** حيث يقول: (السلف المشـترك للإنسان هو بالتأكيد نوع من القرود، حسب التسمية المتعارف عليها لهذا الصنف من الكائنات).

ومَن يؤيد هذا الزعـم لا يقصد أننا تطورنا من القـرود التي نراها تعيش اليوم بيننا، بل من نوع وسيط بيننا وبينها، يسميه البعض الإنسان القرد، فهل هناك أي دليل يدعم هذا الاعتقاد؟.

إذا كان ما يسمى الإنسـان القرد متقدمًا في المجرى التطوري بقدر أكبر بكثير من القرود، فكيف اختفى هذا الكائن تمامًا دون أي دليل على وجوده، بينما القردة التي هي أقل تطورًا لا تزال حية ترزق؟.

كيف يمكن للحلقـة الانتقالية أن تنقرض بينمـا المخلوقات التي تعتبر أدنى منها في مسيرة التطور موجودة؟.

لا بد أنّ هنالك خطأ ما. ولكن؛ ماذا عن العظام التي تم إيجادها وتنسب لأسلاف الإنسان أو الإنسان القرد؟

قد تفاجئكم ضآلة الأدلة على وجود أسـلاف الإنسان، وقد عبرت مجلة **ساينس دايجست** عن ذلك كما يلي:

(الحقيقة الجديرة بالملاحظة أننا لـو جمعنا كل الأدلة المادية على تطور الإنسان، لوسعها جميعًا تابوت واحد. القرود الحديثة على سبيل المثال، تبدو وكأنها ظهرت من اللاشـيء، وكأنها لا ماضـي لها، إذ لا يوجـد أي دليل

أحفوري لماضيها، والأصل الحقيقي للإنسان الحديث ـ المنتصب، العاري، صانع الأدوات، ذي الأدمغة الكبيرة ـ إذا كنا صادقين مع أنفسنا، لغز أيضًا يضاف لسابقه).

ولكن ماذا عن الرسوم التي نراها في الكتب العلمية؟ ألا تعتمد على أدلة دامغة؟.

تجيب مجلة **ساينس دايجست** أيضًا: (أغلب أعمال الفنانين تعتمد على المخيلة بدل الأدلة.. على الفنانين رسم شيء بين القرد والإنسان، وكلما طلب العلماء منهم رسم فصيلة أقدم أصبحت أكثر شبها بالقردة!).

ومن الثغرات في نظرية تطور الإنسان إلى قرد هي أنّ الإنسان القديم، رغم أنه كان يعيش أحيانًا في الكهوف، لم يكن على قدر البدائية التي نتصورها، وكان بإمكانه القيام بالعديد من الأمور التي لا تقدر عليها القرود لا من قريب ولا بعيد.

في كتابه **الإنسان، الله والسحر** يعلق الكاتب **إيفار ليسز**: (لقد اكتشفنا شيئًا فشيئًا أنّ الإنسان البدائي لم يكن متوحشًا، وبالمثل فلا بد لنا أن نقر بأنّ الإنسان الأول من العصر الجليدي أيضًا لم يكن وحشًا أو بهيمة أو نصف قرد، ولا مشوها. لذا فإنّ كل المحاولات الحمقاء لبناء تجسيد لما يسمى **النياندرتال** أو إنسان **البيكنغ** ينبغي أن تتوقف).

لا بد أنّ هنالك العديد من الأدلة على شكل هياكل عظمية للقرود والإنسان القرد، أليس كذلك؟ فلنقرأ ما تذكره مجلة **ساينتفيك أميريكان** بهذا الخصوص:

(يمكن أن نتغاضى عن فشل علماء الرئيسيات في إيجاد هيكل عظمي واحد للقرد البدائي في الفجوة التي تمتد لملايين السنين، ولكن ماذا عن

أصل الإنسان؟.. هل يعقل أن نقرأ قصة التطور البدائي من بضعة عظام وأسنان مكسورة، تم جمعها من أصقاع مختلفة حول العالم القديم؟ ألا يتركنا ذلك في حيرة؟ ألا نجد أنفسنا في النهاية نقف وسط متاهة غامضة ونسأل أنفسنا: كيف وصلنا إلى هنا؟).

إذا كان ضباط التحري العاملون في الكشف عن الجرائم يجدون صعوبة بالغة في تحديد عمر أو جنس الضحية من بضعة عظام قديمة، ألا يعني ذلك أن تشكيل الإنسان القرد من بضعة عظام وأسنان عمرها آلاف السنين ومجموعة من أماكن متباعدة هو أمر أكثر صعوبة؟.

وماذا عن كل الرسوم البيانية التي تظهر مخلوقات شبيهة بالقردة بأسماء معقدة وينسب لها أصلنا؟.

أول نموذج على الرسم البياني يسمى **بروبليوبيثيكس** وجد في مصر ويشبه قرد **الجيبون**، الثاني يسمى **دريوبيثكس** ووجد في أفريقيا. هنالك فجوة تصل إلى تسعة عشر مليون سنة بين هذين الاكتشافين، وبعض التطوريين وضعوا **بروبليوبيثيكس** في أول خط نشأة قرد **الجيبون**، **والدريوبيثكس** على أول خط القردة بدلًا من الأدعاء أنهم أصل الإنسان، ولا وجود للإنسان في هذا الخط أبدًا!.

وربما يكون من أشهر أجدادنا المزعومين حسب بعض التطوريين ذاك المخلوق المسمى **الأسترالوبيثكس** والذي يعتقد أنه كان من صانعي الأدوات، ولكن حجم مخه هو ثلث حجم مخ الإنسان المعاصر، فهل هناك دليل على أنه كان سلفًا لنا أو يشبهنا؟.

هل هنالك أي دليل علمي أنّه كان مثلنا؟.

التطوري لو غروس كلارك يزودنا بالإجابة: (لا يمكن أن نطلق على الأسترالوبيثكس مصطلح إنسان دون تحفظ، فليس هنالك أي دليل أنه كان لديه أي من الصفات المميزة للإنسان المعاصر).

قبل بضعة أعوام تم اكتشاف ثمان وخمسين تحفة حجرية في منطقة اسمها ستيركفونتين في جنوب أفريقيا، ولأنه تم اكتشاف بقايا الأسترالوبيثكس في نفس المنطقة فقد سارع التطوريون دون أي دليل إلى الافتراض أنها من صنع ذلك المخلوق، غير أن مجلة ساينس دحضت هذا الادعاء فكتبت تقول:

(إنّ الأدوات المصنوعة التي عثر عليها في ستيركفونتين تفوق قدرة الأسترالوبيثكس ولا بد أنه تم صناعتها من قبل أسلاف إنسان أكثر تطورًا).

وقد وضع العالم آشلي منتاغو النقاط على الحروف فيما يتعلق بهذا المخلوق عندما أكد في كتابه **الإنسان وسنوات حياته المليون الأولى** حيث كتب يقول:

(إنّ جمجمة الأسترالوبيثكس هي جمجمة قردة، أو تشبه القردة إلى حد كبير جدًا، ولا يمكن لمخلوقات كهذه أن تكون أسلافًا للإنسان، لأنها تتمتع بصفات كثيرة خاصة بالقرود الخاصة ما يجعل من شبه المستحيل أن تكون من أسلاف الإنسان أو على خط نشأة الإنسان).

ولكن ماذا عن إنسان النياندرتال المشهور الذي وجد في ألمانيا؟ هل هو الحلقة المفقودة بين الإنسان والقرد؟.

مما يثير الاهتمام أن مجلة تايم في عددها الصادر في ١٩ مارس ١٩٦١ أكدت أن حجم مخ النياندرتال هو ١,٦٢٥ سم مكعب، فهو أكبر قليلًا من متوسط سعة مخ الإنسان العادي المعاصر.

تعطي موسوعة العالم الوصف التالي لهذا الإنسان القديم: (في البداية ظن العلماء أنّ إنسان النياندرتال كان مقرفصًا أحدب الظهر، وحشيًا وشبيهًا بالقردة، ولكنّ الأبحاث اللاحقة بيّنت أنّ أجسام نساء ورجال النياندرتال كانت بشرية منتصبة ونامية العضلات، وكانت أدمغتها بحجم أدمغة الإنسان المعاصر)»[1].

وهكذا تتكشف محاولات التلبيس في هذه القضية عن فضائح عارية، غير أنّ ما في نفوس هؤلاء المهوسين من الهوى الأعمى جعلهم لا يبالون بما يتوالى عليهم من الفضائح المخزية في سبيل تحقيق غايتهم من إثبات هذه النظرية الفاشلة من أجل أن يتوقوا بها سلطة الكهنوت التي أصبحت من ورائهم شبحًا مخيفًا يطاردهم، وهم يرون ـ كما سبق ـ أنهم إن لم يتمسكوا بهذه النظرية فلا مناص لهم من الاستكانة والخضوع لها.

وقد والى الدكتور روبرت جميس كشف الفشل الذي مني به التطوريون في سبيل تحقيق هذه الغاية، وركوبهم كل صعب وجموح من أجل أن يصلوا إليها، وفي كل حين يكتشفون أنهم كالظامىء المسعور الذي يريد إطفاء سعاره بملاحقة السراب، فلا يزداد إلا عناء وظمأ، فقال في ذلك:

«إنّ واحدة من أهم المشاكل التي تواجه التطوريين هي كشف هويات وأصول الجماجم، فعندما يتم اكتشاف جمجمة قديمة، فإنّه من الصعوبة بمكان، إن لم يكن من المستحيل، تحديد العرق الذي تنتمي إليه هذه الجمجمة، وعلى سبيل المثال فإنّ أكثر الجماجم تميزًا بين الأعراق المختلفة هي تلك العائدة للأفارقة والإسكيمو، ولو وضعنا كلتا الجمجمتين جنبا بجنب، وأحضرنا خبراء ليحددوا أي جمجمة تنتمي لأي عرق، فهل ستكون تلك مهمة سهلة؟.

---

(١) روبرت: خرافة التطور، ص٤١ ـ ٤٦.

يجيب عن هذا السؤال العالم **لو غروس كلارك** في كتابه **دليل الأحافير على تطور الإنسان**: (تعتبر جماجم الأفارقة والأسكيمو من الجماجم المتميزة عن غيرها من الأعراق البشرية ومع ذلك يختلف الخبراء في التمييز بينها عندما تعرض عليهم، فإذا كان الخبراء لا يتفقون عندما يتم مواجهتهم بجمجمتين من تلك الأنواع، فكيف بهم إذن عندما تواجههم أجزاء مبعثرة من جماجم قديمة؟! إنّ تحديد أصلها آنذاك في غاية الصعوبة إن لم يكن مستحيلًا).

وقد بلغت استماتة بعض التطوريين لإثبات نظريتهم حدًا جعلهم يلجأون للتزييف والتزوير بعد أن عجزوا عن إيجاد أدلة تثبتها، ومن أكثر حالات التزييف شهرة ما يعرف بقضية إنسان **البيلتداون** في انجلترا وبطل هذه القضية هو العالم **تشارلز داوسن** (**Charles Dawson**) الذي أخذ جمجمة إنسان معاصر وجعلها تبدو أقدم مما هي عليه حقًا، وبرد الأسنان ليبدو عليها القدم، ثم أخذ عظم فك لقرد وعالجه بثاني كرمات الصوديوم من البوتاس والحديد، ليجعله يبدو كالأحافير.

وقد أحدث اكتشاف هذا التزوير فضيحة مدوية كانت حديث الأوساط العلمية في حينها، وقد كتبت مجلة **ريدرد ايجست** عن هذه الحادثة: (لقد ثبت بالدليل القاطع أن كل جزء من أحفورة إنسان بيلتداون قد تم تزويره، كل الأدلة الظرفية تدلنا على أن **داوسن** كان مؤلف الخدعة).

والأمر المزعج حقًا في هذه القضية أنها قد اعتبرت دليلًا ثابتًا لدعم نظرية التطور، لأكثر من أربعين سنة، ولم تكن تلك أول ولا آخر قضية احتيال في هذا الباب، وهذا التصرف الشائن حري بأن يجعلنا نفكر مرتين، وأن نتأكد ونستوثق قبل تصديق ما يروج له بعض علماء التطور عما يقدمون من أدلتهم واكتشافاتهم.

إنّ من أكبر وأهم الفروق بين الشامبانزي أو القرد وبين الإنسان هو حجم أدمغتهم، فمعظم أفكارنا وذكائنا بل وحتى دوافعنا وشخصياتنا، تأتي من قسم في الدماغ معروف باسم الفص الجبهي، ففيه مراكز التفكير والتخطيط والحكم واستخدام ضميرنا، وفي حين أنّ فصنا الجبهي كبير، فإنه صغير للغاية أو غير موجود في الحيوانات، وقد أوضحت إحدى المنشورات العلمية أنّه لو قمنا بفرد فصنا الجبهي فسيغطي أربع ورقات طباعة، بينما في الشيمبانزي سيعطي صفحة واحدة، وفي الجرذ يغطي مقدار طابع بريدي واحد، وإن الفرق الشاسع بين حجم الفص الجبهي للشامبانزي والإنسان هو دليل كاف على استحالة تطور الثاني من الأول.

وأمر آخر حاسم يميزنا عن القرود، هو استخدامنا للغة، إنها حقًا لهبة عظيمة عندما نتكلم فإننا نستخدم المئات من العضلات في اللسان والشفاه، ونستخدم الفك والحلق والصدر، ويشرح لنا الدكتور **ويلكينز إتش بيركنز** آلية الكلام قائلًا:

(نصدر ما يقارب أربعة عشر صوتًا في الثانية، وهذا أسرع بمرتين من تحكمنا بلساننا أو شفاهنا أو فكنا أو أي عضو آخر من الأعضاء المستخدمة في الكلام عندما نستخدمه بشكل منفصل، ولكن عندما تعمل معا بشكل متزامن ومناسب فيمكن تشبيه عملها معًا بتناسق وتزامن أصابع ضارب آلة كاتبة، أو عازف بيانو عندما تعزف سيمفونية رائعة ذات تناسق وتوقيت مذهل).

وهناك عضو من جسمنا ننسى عظمته وتميزه وهو أيدينا. إنّ اليد البشرية هي آلة مذهلة لا يوجد لها مثيل ولا شبيه في عالم الأحياء، وتكتسب الكثير من تميزها بوجود الإبهام المقابل لبقية الأصابع، والذي يمكننا من ضم إبرة خياطة، واستخدام المطرقة لتثبيت مسمار، وإمساك الهاتف وكتابة رسالة

والعديد العديد من المهام الأخرى التي لا تكاد تحصى، ألا نذهل عند رؤيتنا أنامل عازف البيانو وهي تتحرك ببراعة وخفة مصدرة أنغامًا تخلب الألباب؟ تخيلوا مقدار التنسيق المطلوب لهذا بين المخ والأصابع.

وهذا يقودنا إلى اختلاف آخر جوهري بين الإنسان والحيوان هو الاختلاف في قدرة الدماغ، ويشير إلى ذلك البروفيسور **غايتون** في كتابه **الفيزيولوجيا الطبية** حين يتكلم عن الفص الحركي في دماغ الإنسان ـ وهو القسم من الدماغ يخبر الجسد كيف يتحرك ـ يقول:

(الأمر مختلف تمامًا حين نقارن بين دماغ الإنسان والحيوانات التي دونه مرتبة، فالأجزاء المسؤولة عن الحركة في دماغ الإنسان تعطيه قدرة لا نظير لها على استخدام اليد والأصابع والإبهام لتقوم بمهام يدوية في قمة البراعة).

وأين براعة يد الإنسان من يد القرود، بإبهامها القصير وأصابعها الطويلة التي تعجز عن القيام بالمهام التي تتطلب براعة يدوية دقيقة، فأصابع القرود ممتازة للتأرجح من غصن إلى غصن، أما ضم خيط إبرة أو العزف على البيانو فتلك أمور مستحيلة في عالم القرود.

وختامًا للحديث عن اليد، أنقل قولًا لواحد من أعظم العلماء الذين عرفتهم البشرية، هو إسحاق نيوتن الذي قال: (لو لم يكن لدي إلا دليل واحد وهو الإبهام، لكان كافيًا لإقناعي بوجود الله).

وآخر فجوة كبرى نعرض لها بين الإنسان والقرد، هي الفروق الكبيرة في الحموض النووية (**DNA**) وهي تلك الجزيئات التي تحوي على جميع الصفات الوراثية للكائن الحي، وعلى التعليمات اللازمة لبناء البروتينات... وقد كان العلماء يظنون أنها متشابهة في الإنسان والقرد، ولكن أثبت العلم أنّ بينهما فروقًا كبيرة تميز بينهما.

وتحدثنا عن هذا الموضـــوع الدكتورة **كيلي فرايـــزر** التي عملت في الشـــركة التي قامت بدراســـة وتحليل الفروق بين الحمض النووي للقرد والإنسان فتقول:

(الفروق كبيرة بين كلا الحمضين، هناك الكثير من الإضافات والكثير من التغييرات والحذوفات، وهذه الفروق تشمل مختلف أجزاء الحمض النووي، وباختصار هنالك فجوة ضخمة بيننا وبين القرود).

ولأن الحمض النووي هو العامل الأهم في تحديد شكل وشخصية الكائن الحي على سطح الأرض، سيكون لنا معه وقفة في الفصل الثاني»[1].

والخلاصة: أنّ محاولة الجمع بين الإنســـان والقرد حتى يجعل أحدهما أصلا للآخر لا تعدو أن تكون كمحاولة الجمع بين الضب والحوت، وجعل أحدهما أصلًا للآخر مع الاختلاف في جميـــع الطبائع والأحوال، فكيف يلز بهما في قرن؟! وكم بين الإنسان والقرد من فروق عضوية وتأهيلية تدل على التباين الكبير بين طبيعتيهما، ناهيك بما طبع عليه في كل واحد منهما حمضه النووي، وقد هيأ الله الإنســـان جســـميًا ونفســـيًا لتحمل التكاليف الشـــرعية والاضطلاع بمسؤوليات الخلافة في الأرض والسيادة في الكون، وقد أوضح د. **روبرت جميس** فيما نقلناه عنه آنفا تلك الفروق الشاسعة بينهما.

وبجانب ما ذكره؛ فأيـــن القرد وأين أي حيوان آخر من الإنســـان، الذي أوتي التمكين في هذه الأرض فســـخرت له منافعها جميعًا، بل وسخرت له معها منافع هذا الكون الواسع، وأطلقت يده في الانتفاع بكل ما في الوجود، ومكّن من تسخير طاقات الكون ليســـتخدمها في مصالحه، ويوجهها لقضاء أغراضه، وهيئ فطريًا لأن يتدرج فـــي مراقي الأطوار؛ حتى يغدو ما كان يعد

---

(١) المرجع السابق، ص٤٦ ـ ٥٠.

أولًا من المستحيل أن يتحقق له جزءًا من إنجازاته الهائلة العظيمة؟! بينما جميع الكائنات الأخرى ما تنتفع به من منافع الطبيعة ومرافق الحياة محدود جدًا، ولا يمكن لأي جيل من أجيالها أن ينجز ويحقق ما لم يكن أنجزه سلفه، وأن ينتفع أكثر مما انتفع به ما سبقه من جنسه، وهذا إنما يعود إلى أنّ الإنسان صمم من أول شيء ليكون هو الكائن المميز ما بين جميع صنوف الأحياء، وأنّ ما عداه إنما خلق من أجله وسخر لمصلحته، وبسبب هذا تبوأ منصب الخلافة في الأرض ليتولى عمارتها بحسب ما تقتضيه سنة الله تعالى، وتستلزمه طاعته لتنسجم الأرض في المنظومة الكونية، ليتجاوب كل ما في الكون مع أمر الله سبحانه.

وهذا؛ المنصب لم يرق إليه أي كائن آخر، ولذلك كانت فطرة الكائنات الحية من هذه الناحية تختلف عن فطرة الإنسان، فلم يكن لشيء منها ما للإنسان من التمكين والتسخير له، كما لم يرق أي كائن منها إلى مستوى المسئولية التي ارتقى إليها الإنسان، فتحمل بسببها من أعباء التكليف مع ما أوتيه من خصائص التشريف، لأن الإنسان ميزه الله تعالى بشرف العقل، الذي لم يكن لسائر الكائنات الحيوانية منه نصيب إلا بقدر ما تسوس نفسها في جلب المصالح واتقاء المضار، وما كان الإنسان في أي زمن مضى عليه مجردًا من العقل الذي مكنه مما مكنه منه حتى أصبح بإذن الله تعالى سيدًا في هذا الكون، وخليفة في هذه الأرض، وكم نجد من اعتراف بهذا من العلماء الماديين، كما في قول ماكس موللر: «عندما نرجع بخطوات الإنسان إلى الوراء نتبين أن منحة العقل السليم الواعي كانت من خصائصه منذ أول عهده وأن القول بإنسانية متدرجة من أعماق البهيمية هو قول لا يقوم عليه دليل»[1].

---

(١) د. عمرو شريف: **خرافة الإلحاد**، ص٢٦٩.

هذا؛ وبعد نقل ما تقدم من كلام د. روبرت جميس الآنف ذكره، وقبل مراجعته والتعليق عليه ساق إلي القدر الإلهي السعيد ـ وأنا على طاولة التدوين ـ خبرًا بثته القناة الأمريكية المشهورة (CNN) باللغة العربية هذا مفاده:

«عثر العلماء في موقع أثري لقرية قديمة في جورجيا جنوب غرب العاصمة الجورجية تبليسي على جمجمة أثرية عمرها ١,٨ مليون سنة وهي الجمجمة الأكثر إكتمالًا من بين الجماجم التي تم العثور عليها خلال هذه الفترة الزمنية السحيقة وهي الجمجمة الخامسة التي يتم العثور عليها في نفس الموقع الأثري وعلي الرغم من وجود فروقات بين الجماجم التي تم العثور عليها إلا أنه يعتقد أنها جماجم للجنس ذاته عاشت في نفس الحقبة الزمنية وليس لأجناس مختلفة ويعتقد أنها تثبت خطأ نظرية داروين حول أصل الانسان.

يقول د. كريستوف زوليكوفير الباحث في معهد الأنثروبولوجي ومتحف زيوريخ في سويسرا الذي شارك في البحث العلمي:

(إنه بالإمكان مقارنة الجماجم التي عثر عليها في جورجيا مع تلك التي تعود لقبل ١,٨ مليون و١,٢ مليون سنة وعثر عليها في أوروبا وآسيا وكذلك تلك التي من الفترة الزمنية ذاتها (٢,٤ مليون سنة) في إفريقيا). مضيفًا: (الحفريات في دمانيسي تبدو مختلفة عن بعضها البعض، لذا فإنه لمن المغري أن تنشر وكأنها أصناف مختلفة).

مؤكدًا أنّ العثور عليها في نفس الموقع الجغرافي وتأريخها لنفس الفترة الزمنية يشير إلى أنها كلها عاشت في الآن ذاته وبالتالي فهي تنتمي لفصيلة وجنس بشري واحد، وتأتي من السلالة ذاتها.

معنى ذلك أنّ الاختلافات التي وجدت بين تلك الجماجم لا تعدو الفروق الطبيعية بين جماجم ٥ أشخاص أو ٥ قرود في زمننا الحالي، وأنّ ما قد يسميه العلماء أجناسًا مختلفة من البشر عاشت في مناطق متفرقة من العالم ربما لا يتعدى كونها فروقًا طبيعية تم تضخيمها لتبدو كما لو كانت كائنات من أجناس مختلفة!.

وهو ما يؤكد أيضًا نظرية وحدة الأجناس البشرية التي تم العثور عليها وأنها كلها تنتمي لجنس بشري واحد منحدر من أصول أفريقية وهو ما يتوافق مع نصوص الكتب السماوية، ويدحض نظرية التطور التي وضعها تشارلز داروين ـ على الأقل بالنسبة للإنسان ـ والتي ترى أنّ جميع الكائنات الحية قد انحدرت من سلالات أخرى أقدم وأنّ الإنسان ربما تنحدر أصوله لعائلة القرود وهو ما يتناقض مع هذا الإكتشاف العلمي المهم»[1].

وقد كان بثّ هذا الخبر في القناة المذكورة بالصورة والصوت، وانتهى إليّ في يوم الاثنين ١١ ربيع الأول ١٤٤٠هـ، وما هو إلا تعزيز من القدر للحق الذي يكابرون فيه ويحاولون طمسه، ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [التوبة: ٣٢].

قصة رحلة د. كارل ويرنر التي نقضت غزل الداروينية بالحقائق العلمية:

لم يكن د. كارل ويرنر شاذًا عن السواد الأعظم من الشباب الذين كانوا مقتنعين بفكرة داروين ونظريته، بل كان كغيره معجبًا بداروين، ومؤمنًا بنظريته، ومعجبًا بفلسفته، حتى وصل إلى الحقيقة التي كانت خافية عليه

---

(١) مقال بعنوان جماجم أثرية في جورجيا تدحض نظرية التطور فيما يخص أصل الإنسان، مجلة رؤى الإلكترونية، ينظر:
https://www.ruoaa.com/2013/10/georgia-human-skulls-darwin-theory.html

ـ كما هي خافية على كثير ممن تشـبعوا بهذا الفكر ـ وقد حكى قصته بنفسه في كتابه المسمى **التجربة الكبرى**.

وكان د. **كارل ويرنر** يعد من بين زملائـه أكثرهم نبوغًا، وأحرصهم على الاستفادة بالعلوم، فقد تخرج في كلية الطب، وهو لم يكمل الثالثة والعشرين من عمره، كان كغيره يحلم بأن يكـون تفوقه العلمي هـذا إيذانًا بنجاح في مجال الطب، وأن يتفـرغ لمهنته هذه، غير أن حوارًا بينـه وبين زميل له في الجامعة غيّر وجهته وبدل اهتمامه.

بدأ الحوار بسؤال طرحه زميله عن نظرية التطور، فأجابه بأنه مؤمن بها، فرد عليه زميله ما الذي تقوله في مشـكلة الفجوات التي يعاني منها سجل الأحافير؟ ألا يشـكك ذلك في النظرية؟ فرد عليه د. **كارل ويرنر** لم أسمع أن هناك مشكلات في سـجل الأحافير، فقال له زميله كيف يمكن أن تبدأ الحياة على الأرض إذا كان من المستحيل تشـكل البروتين بطريقة تلقائية طبيعية؟!.

هنا أدرك د. **كارل ويرنر** أنّ السؤال المطروح عليه محير جوابه، وهو من صلب اختصاصه، وذلك أنّ نظرية التطور تنص على أنّ الخلية الحية الأولى قد تشكلت بشكل طبيعي تلقائي مع أن البروتين لا يمكن أن يتشكل بتشكل تلقائي أو طبيعي بسبب تعقيده الشديد، وهذا ما درسه في كلية الطب، فكيف تنشأ الحياة إذا؟!.

وكانت الصدمة الثانية التي صدمه بها زميله أنه تحداه قائلًا: (أتحداك أنّ تثبت نظرية التطور) فأجابه على الفور قائلًا: (هذا جنون، فقد تم إثباتها) وكان في جوابه هذا منطلقًا مما كان شـائعًا في زمانه؛ من التسـليم الأعمى لهذه النظرية من غير تفكير فيما يؤيدها أو يدحضها.

وعلى رغم تلك الإجابة القاطعة بصحة النظرية المبنية على التسليم المطلق بأنها حقيقة واقعة لا سبيل إلى ردها أو نقدها، إلا أنّ د. كارل ويرنر أدرك أنّ الموقف ليس بالهين وأنّ الأمر جد، فلو كانت هذه النظرية حقًّا كيف تعجز عن حل هذه الإشكالات الأساسية؟! وقد كان ذلك بداية تحول في حياة الدكتور دفعه إلى أن يمضي ثلاثين عامًا في دراسة مضنية مرهقة بحثًا عن الحقيقة، وقد بدأها أول الأمر بقراءة نهمة لكل فروع العلم المتعلقة بتلك النظرية، كالأحياء والفيزياء والكيمياء الحيوية والجينات والوراثة والأحافير والتاريخ الطبيعي، ورغم أنّه قضى ثمانية عشر عامًا في المكتبات قارئًا ومطالعًا، إلا أنّ ذلك لم يشبع نهمه ولم يشف غلته، فأراد أن يصل إلى الحقيقة رأي العين وأن يدركها بجميع حواسه، فقرر القيام برحلة حول العالم ليستغرق اثنتي عشرة سنة من عمره بحثًا عن الحقيقة، وهي موصولة بمدة المطالعة التي قضاها في المكتبات، فكانت بذلك ثلاثة عقود شغل فيها بهذه النظرية بحثًا وتحقيقًا، وجمع نتائج بحثه المتواصل من رحلته العلمية هذه في سلسلة من الكتب والأفلام الوثائقية.

وقبل بدء رحلته وضع أهدافًا محددة وخطة واضحة المعالم، فحدد بالضبط عما يبحث عنه، وكيف يكون بحثه؟ ومن أين يكون بدؤه؟ وقد شرح ذلك فقال: «تقول نظرية التطور إنّ الأحياء من حيوان ونبات تتغير مع مرور الزمن، وتتحول إلى أنواع جديدة مختلفة تمامًا عن أصولها الأولى القديمة، ويتم ذلك بواسطة الطفرات العشوائية، وتقول لنا النظرية أيضًا إنّ هذه الأنواع المتغيرة عبر ملايين السنين، وبسبب صراع البقاء والاصطفاء الطبيعي تتعرض أسلافها التي لم تتعرض للطفرات ولم تتغير إلى الانقراض، ولكن لو نظرنا إلى الموضوع بشكل معاكس لاستطعنا أن نتنبأ بأنّ نظرية التطور لو كانت صحيحة فإنّ الأحياء والنباتات لم تتغير مع الزمن، وسنجد

على الأرض كثيرًا من الأحياء التي كانت تعيش قبل ملايين السنين، وهي لا تزال موجودة اليوم على الأرض دون أن تتغير، لأنها لم تتعرض لآليات التطور، فما علينا لإثبات عدم صحة النظرية إلا أن نثبت وجود أحافير قديمة لأحياء ما زالت تعيش بيننا اليوم».

وهذا ما قرر د. كارل ويرنر أن يكتشفه بنفسه وعلى الطبيعة، فشرع في رحلة علمية طويلة طاف خلالها على معظم مواقع الأحافير في العالم، وهي تلك التي عثر العلماء فيها على أحافير المخلوقات القديمة المتحجرة ليوثق بالتصوير ما تحتويه من أحافير، وكذلك زار جميع متاحف التاريخ الطبيعي الشهيرة في العالم، وأجرى عشرات المقابلات مع كبار علماء الجيولوجيا والأحفاير والتطور ووثقها بالتصوير المرئي، ليصل فيها إلى إجابات شافية عن حقيقة التطور.

وكان من أهم أهدافه أن يثبت وجود أحافير لكائنات عاشت قبل عشرات ملايين السنين وما زالت تعيش حتى اليوم ليكون ذلك أحد الأدلة القاطعة ببطلان هذه النظرية، وليكون بحثه مركزًا وقابلًا للتنفيذ؛ ركزه على الطبقات التي تحتوي على أحافير الديناصورات، فقام بالتنقيب في تلك الطبقات عما حوته من كائنات مع الديناصورات، فوصل إلى نتائج مذهلة، خلاصتها أنه في عصر الديناصورات كانت تعيش آلاف الكائنات التي لم تنقرض إلى اليوم، أي التي لم يطرأ عليها أي تطور خلال هذه الملايين من السنين، علمًا أن حقبة وجود الديناصورات على الأرض تشمل ثلاثة عصور جيولوجية ـ تسمى عصر الترياسيك، وعصر الجوراسيك، وعصر الكريتاسيوس ـ ويبدأ العصر الترياسي قبل ٢٤٥ مليون سنة وينتهي قبل ٢٠٨ ملايين سنة، ليبدأ عصر الجوراسيك الذي ينتهي قبل ١٤٤ مليون سنة، ليبدأ عصر الكريتاسيوس، وهذا الأخير ينتهي قبل ٦٥ مليون سنة، ويعني ذلك أنّ العصور الثلاثة التي ظهرت

فيها الديناصورات على سطح الأرض تغطي مسافة زمنية مقدارها ١٨٠ مليون سنة، وكانت معه قرينته مرافقة له في رحلته، فتولت هي التصوير والتوثيق لكل ما وصل إليه من نتائج.

هذا؛ ولم تكن رحلة الدكتور سهلة ميسرة لأنه كان فيها السابح عكس التيار، التيار الذي يعتبر نظرية التطور حقيقة مسلمة، وعليه أنّ يثبت العكس، وكانت مشكلته أنّ المعلومات التي يبحث عنها كانت في مواقع التنقيب عن الأحافير، وفي متاحف التاريخ الطبيعي، وكان يسأل في بداية بحثه العلماء والمنقبين في مواقع الحفريات، (**هل عثرتم في طبقات الديناصورات على أحافير لمخلوقات معاصرة موجودة في زماننا؟**) وبسبب تعصب الذين كان يطرح عليهم هذا السؤال للنظرية الفاشلة، كانوا يرفضون الإجابة على سؤاله، بل منهم من رفض إجراء المقابلة معه عندما اطلع على الأسئلة! ولكن شاء الله أن يحدث أمر بدون قصد أثناء الحوار مع أحد العلماء وهو د. **وليم كليمنس** من جامعة كاليفورنيا، إذ غيّر د. **ويرنر** طريقة طرحه للأسئلة.

وكان د. **كليمنس** أحد المعارضين لنظرية تتعلق بانقراض الديناصورات من على سطح الأرض، وهي أنّ الديناصورات قد انقرضت بسبب اصطدام كويكب ضخم أو نيزك بالأرض أدى إلى تغيرات مناخية وكوارث طبيعية نتج عنها انقراض الديناصورات، وكان مما قال أثناء حواره مع د. **ويرنر**:

«كيف يمكن لنيزك أن يؤدي لانقراض الديناصورات من على سطح الأرض ولا يؤدي إلى انقراض ما سواها من الفراشات والضفادع والنحل وزواحف السلمندر التي كانت تعيش أيام الديناصورات؟!».

فكان لجوابه هذا رنين خاص في سمع د. **ويرنر**؛ ضفادع؟ فراشات؟ سلمندر؟ في عصر الديناصورات؟ إذ كانت هذه هي المرة الأولى التي يقول

له أحـد العلماء بأنّ هنـاك كائنات من هـذا النوع كانت موجـودة في تلك الحقب، ومن ذلك الحوار قرر أن يغير صيغة السـؤال ليتوصل إلى الجواب، فكان سؤاله:

«يقول بعض العلماء ومنهم د. كليمنس مثلًا إن الظروف المناخية الناتجة عن اصطدام النيازك بالأرض لم تكن هي السـبب الـذي أدى إلى انقراض الديناصورات، فقد كانت هناك كائنات أخرى موجـودة آنذاك ومعرضة لهذه الظروف ولكنها لم تنقرض، مثل الفراشات والضفادع، فهل عثرتم في موقع الحفر التـي تعملون فيه على أحافيـر لمثل هذه الكائنات التي تبدو شـبيهة بالكائنات المعاصرة؟»

وقد أدى هذا التغيير في صيغة السـؤال إلى نتائج مختلفة تمامًا، وذلك لأنه يستند على قول عالم، ولأنه لا يوحي بأنّ السائل يشك في نظرية التطور، وذلك لأن السؤال هنا عن أحافير لكائنات تبدو شبيهة بالكائنات المعاصرة، وليس عن أحافير لكائنات معاصرة.

وإذا كانت هذه عقبة وقفت في سـبيل د. ويرنر كان صعبًا عليه فيما سبق اجتيازها، ولكنه اجتازها بتغييره أسـلوب السـؤال، فإنّه واجه مشكلة أخرى تتمثل في التسميات التي كان علماء الأحافير يطلقونها على ما اكتشفوه منها، لأنه في بحثهم عن الأحافير في طبقات الديناصورات لم يكونوا يتوقعون قط إطلاقًا أن يجـدوا أحافير لمخلوقـات تعيش حتى يومنا هـذا، فلذلك كانوا يسـمون ما يكتشـفونه منها بأسـماء علمية جديـدة، وهذه الأسـماء كثيرًا ما تختلف من موقع حفر لآخر، ومن متحف لآخـر، ومن عالم لغيره، وفي كثير من الأحيان يأتي عالم ليدرس أحفورة جعلوها من نوع معين، فيرى أنها من نوع آخر فيغير اسمها.

لهذا؛ وجد د. ويرنر أنه لا يستطيع أن يثق بالأسماء التي وضعها العلماء للأحافير، وفي هذا يقول: «بما أنّ الصورة تساوي الآلاف من الكلمات، فإني اعتمدت في كلامي على صور مرئية لا على الأسماء الموضوعة، وأترك للقارئ أن يحكم بعد أن يرى صور الأحافير القديمة وصور الكائنات الجديدة، هل هذه الصور دليل على التطور؟! أو أنها دليل على بطلانه؟».

ما هي نتائج اكتشافات هذه الرحلة للحقائق المستورة:

وضع د. ويرنر خلاصة بحثه هذا في الجزء الثاني من سلسلة كتبه التي أصدرها بعد مطالعات وقراءات ورحلات وأبحاث استمرت ثلاثة عقود، وكان عنوان هذا الجزء **الأحافير الحية (Living Fossils)**، وقد اتبع في عمله التوثيقي منهجًا علميًا فريدًا اعتمد فيه على الصور فقط، فوضع في كتابه هذا صورًا موثقة لأكثر من ثمانين أحفورة لمخلوقات من مملكة الحيوان، وأكثر من ثلاثين أحفورة من مملكة النبات، ووثق عمله بطريقة هي غاية في الدقة والمنهجية والموضوعية، فكان يكتب أسفل صورة كل أحفورة الاسم الذي وضعه العلماء للكائن الذي تمثله، واسم الكائن الذي يتطابق معها وهو يعيش اليوم على سطح الأرض، والطبقة الديناصورية التي وجدت فيها الأحفورة، واسم الديناصور الذي كان يعيش في تلك الحقبة، وصورة أحفورة ذلك الديناصور، وأخيرًا وضع بجانب الأحفورة صور الكائن الحي الذي يعيش اليوم، وهو يطابق تمامًا تلك الأحفورة، وذلك مما يثبت ـ بلا شك ـ أنّ الكائن الذي تمثله الأحفورة لم يتطور منذ عصر الديناصورات حتى يومنا هذا.

ومما يلفت النظر بدهشة في نتائج بحث د. ويرنر أنّ الأحافير التي وجدها في عصر الديناصورات هي شديدة التنوع، وتغطي معظم فصائل

الأحيـاء والنبات المعروفـة التي تعيش اليـوم ابتداء باللافقاريـات وانتهاء بالثدييات، وهـذا ملخص بأهـم الأحافير الحيـة التي وجدهـا في عصور الديناصورات:

من الحيوانـات البحرية: نجم البحر والإسـفنج والمرجان وسـلطعون والروبيان واللوبستر وجراد البحر والمحار وغيرها، بالإضافة إلى العديد من أنواع الأسماك.

ومن البرمائيات: السلمندر والضفدع والتمساح.

ومن الزواحف: أنواع من السحالي والأفاعي والسلاحف.

ومن الطيور: الببغاء والمشروش (فلامينغو) والبوم والبطريق والغاق (وهو طائر مائي) والقطرس.

ومن الثدييات: القنفذ وآكل النمل والسمور (القندس) والخلد وأنواع أخرى من الثدييات، وهناك أحافير كثير مكتشـفة حديثًا لثدييات لا تزال تحت البحث.

ومن النبات: العديد من أنواع الطحالب، وأنواع السرخسيات، والعديد من أنواع الورود والأزهار، مثل زهر الخشخاش والزنبق واللوتس.

ومن الأشجار: شجرة السافراس وشجرة الحور وشجرة الجحليق وشجرة البلوط وغيرها.

وقد خلص د. **ويرنر** من كل هذه الحقائق الملموسة والأحافير الحية إلى أنّ معظم فصائل المخلوقات التي كانت موجودة في عصور الديناصورات لم تطرأ عليها تغيرات تدل على أنها تعرضت للتطور الداروينى، والذي حدث أنّ بعضها قد انقرض بينما استمر البعض الآخر في الوجود والتناسل حتى يومنا

هذا دون تغيرات ملموسة عليها، وهذا ـ بلا جدال ـ يتنافى مع نظرية التطور لأن بقاء هذه الكائنات دون أن تتأثر ببيئتها ودون أن تطرأ عليها الطفرات ودون أن تعمل بها آليات التطور الداروينى أمر لا تستطيع نظرية التطور أن تسوغه إطلاقًا وهي التي تزعم أنه خلال تلك السنين نفسها تحولت بعض الكائنات تحولًا جذريًا، فأصبحت السمك زرافة والضفدع تمساحًا والدب حوتًا وغير ذلك مما يزعمون.

إنّ الأحافير الحية التي أثبت د. ويرنر وجودها بالأدلة القاطعة وبأعداد ضخمة هي أحد المسامير الأخيرة التي دقها العلم الحديث في نعش نظرية داروين[1].

هذا؛ ويكفيك ما ذكرناه من قبل من أنّ كل الكائنات ـ التي يزعمون أنها تطورت وانفصلت عنها كائنات أخرى ـ هي موجودة كما كانت من قبل بدءًا من البكتيريا وانتهاء بالقردة، فلو كان التطور حقيقة واقعة كما يزعمون لكان سنة مطردة تأتي على كل شيء، إما بالتطوير وإما بالإفناء، فيلزم في معركة التنافس من أجل البقاء مع الاصطفاء الطبيعي أن تنتهي هذه الكائنات كلها ويبقى الجنس الأرقى منها دون ما عداه، ولكن الواقع يكذب ذلك.

أما بالنسبة إلى الإنسان فحسبك النص القرآني الدال على أنّ الإنسان الأول ـ وهو آدم عليه السلام ـ بلغ مداه في تطوره إبان انتقاله في مراحل خلقه، عندما كان صلصالًا من حمأ مسنون، ولم يمر بعد هذه المرحلة بمرحلة كان فيها حيوانًا، وإنما تحول بعد ذلك إلى إنسان اجتمعت فيه خصائص الإنسانية بأسرها، ولذلك استخلفه الله تعالى في الأرض، وهذا ما يدل عليه قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ۝ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ

---

(١) ينظر؛ الجندي: العلم يؤكد شكوك داروين، ص ١٢٥ ـ ١٣٢.

وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴾ [الحجر: ٢٨ ـ ٢٩]، وقوله: ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ۝ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴾ [ص: ٧١ ـ ٧٢]، بل نجد القرآن ينص على أنّ المخلوق من الصلصال الذي هو من الحمأ المسنون هو الإنسان نفسه، كما هو صريح في قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾ [الحجر: ٢٦]، وكذلك قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴾ [المؤمنون: ١٢]، وهو مما يبطل دعوى التفرقة بين الإنسان والبشر، وأنّ الإنسان ترقى من البشر حتى تحول إلى ما هو عليه بعد مروره بالأطوار التي يزعمونها، فإنّ الآية صريحة في كون الإنسان الذي هو عين البشر خلق من أول مرة من صلصال من حمأ مسنون، أو من سلالة من طين، ومؤدى العبارتين واحد، وفي ذلك أيضًا إبطال لدعوى أنه لم يرتق إلى مرتبة الإنسانية إلا بعدما مرّ بأطوار حيوانية، تحول فيها من حيوان إلى آخر، فأنت ترى أنّ الله سبحانه آذن ملائكته بأنه خالق بشرًا من هذا الصلصال، وأنه عندما ينتهي خلقه وتنفخ فيه الروح يجب عليهم أن يعترفوا بمكانته اعترافًا فعليًا، وذلك بسجودهم له كما أمرهم الله سبحانه، وفي ذلك ما يؤذن بتفضيله عليهم وتمييزه من بين سائر الخلق، ومما يدل على أنّ هذا الأمر الموجه من الله إلى الملائكة ما كان إلا عنوانًا على تكريم الله تعالى للإنسان اعتراض إبليس على ذلك، كما حكاه الله عنه في قوله: ﴿ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء: ٦٢].

وهل ترى أنه يتصور أن يكون الإنسان الذي أمر الملائكة بالسجود له، ما كان هذا الأمر إلا بعد تنقله في مراحل الأطوار بحيث انتقل من حيوان إلى حيوان، حتى وصل إلى كونه إنسانًا، مهيأ لأن يتعلم من العلم ما لم تعلمه الملائكة، فلو كان الأمر كذلك؛ كيف لم يخاطبهم الله تعالى بأن يسجدوا له بعد ترقيته من حضيض الحيوانية إلى ذروة الإنسانية كما يزعمون؟!.

وكيف كان إيذانهم بهذا الأمر؛ أنه بعد تسويته إنسانًا مستخلصًا من هذا الطين، فلو كان الأمر كما زعموا أنه مرَّ بهذه الأطوار لكان الأحرى بذلك أن يأمرهم الله سبحانه بالسجود له بعد استخلاصه من أجناس الحيوانات التي تدرج في أطوارها، فإنّ هذا هو الأنسب في الخطاب، ولكن شيئًا من ذلك لم يكن، وإنما كان كما هو واضح في القرآن أنّ هذا إنما كان بعدما اكتمل خلقه من الطين، ونفخ فيه الله من روحه!!.

على أنّ التعبير بخلق الإنسان من صلصال من حمأ مسنون أو من سلالة من طين؛ يدل على أنّ الله تعالى خلق من أول الأمر بشرًا من هذا الصلصال أو هذا الطين، ولم يخلقه كائنًا آخر كما زعموا أنه كان أولًا بكتيريا ثم تحول إلى سمكة ثم تدرج في مدارج أطوار الحيوانات حتى تحول إنسانًا، إذ لو كان كذلك لما أخبر الله أنه خلق من الصلصال أو الطين إنسانًا، ولكان مقتضى ذلك أن يذكر أنه خلق من الصلصال أو من الطين جرثومة، ثم تدرجت في الأطوار حتى كانت سمكة، ثم حيوانًا برمائيًا، ثم حيوانًا زاحفًا... وهكذا، حتى آلت إلى إنسان، ولما لم يكن الخبر هكذا دل على أنّ الله سبحانه خلق من هذا الطين إنسانًا سويًا بكل خصائصه البشرية من أول وهلة، ولم يترق إلى مرتبة الإنسانية بتدرجه في مراقي الأطوار الحيوانية حتى صار إنسانًا.

ولعل أعظم برهان على قطع دابر هذه الفرية قوله تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴾ [الروم: ٢٠]، فإنّ (إذا) هنا هي الفجائية، وهي تدل على أنّ كونهم بشرًا كان غِبَّ خلقهم من التراب، فإنّ ما يعقب (إذا) الفجائية لا يكون إلا مترتبًا على ما سبقها كما في قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾ [العنكبوت: ٦٥]، فإنّ شركهم لا يكون متخلفًا عن تنجيتهم إلى البر، وكذلك قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴾ [الروم: ٢٥]، وقوله: ﴿ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ

عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ [الروم: ٤٨]، وقوله: ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ [الزمر: ٤٥].

ولنسمع ما يقوله في تفسير الآية الكريمة الفخر الرازي، الذي نسب إليه المعجبون بنظرية التطور أنه سابق إليها، فقد قال ما نصه: «لما أمر الله تعالى بالتسبيح عن الأسواء وذكر أنّ الحمد له على خلق جميع الأشياء وبيّن قدرته على الإماتة والإحياء بقوله: ﴿ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ ﴾ إلى قوله: ﴿ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴾ [الروم: ١٧ ـ ١٩] ذكر ما هو حجة ظاهرة وآية باهرة على ذلك، ومن جملتها خلق الإنسان من تراب وتقريره هو أنّ التراب أبعد الأشياء عن درجة الأحياء، وذلك من حيث كيفيته فإنّه بارد يابس والحياة بالحرارة والرطوبة، ومن حيث لونه فإنّه كدر والروح نير، ومن حيث فعله فإنه ثقيل والأرواح التي بها الحياة خفيفة، ومن حيث السكون فإنّه بعيد عن الحركة والحيوان يتحرك يمنة ويسرة وإلى خلف وإلى قدام وإلى فوق وإلى أسفل، وبالجملة فالتراب أبعد من قبول الحياة عن سائر الأجسام لأن العناصر أبعد من المركبات، لأن المركب بالتركيب أقرب درجة من الحيوان، والعناصر أبعدها التراب، لأن الماء فيه الصفاء والرطوبة والحركة، وكلها على طبع الأرواح، والنار أقرب لأنها كالحرارة الغريزية منضجة جامعة مفرقة، ثم المركبات؛ وأول مراتبها المعدن فإنّه ممتزج، وله مراتب أعلاها الذهب وهو قريب من أدنى مراتب النبات وهي مرتبة النبات الذي ينبت في الأرض ولا يبرز ولا يرتفع، ثم النباتات؛ وأعلى مراتبها وهي مرتبة الأشجار التي تقبل التعظيم، ويكون لثمرها حب يؤخذ منه مثل تلك الشجرة كالبيضة من الدجاجة والدجاجة من البيضة قريبة من أدنى مراتب الحيوانات وهي مرتبة الحشرات التي ليس لها دم سائل ولا هي إلى المنافع الجليلة وسائل كالنباتات، ثم الحيوان وأعلى مراتبها قريبة من مرتبة الإنسان فإنّ الأنعام ولا سيما الفرس تشبه العتال والحمال والساعي، ثم

الإنسان؛ وأعلى مراتب الإنسان قريبة من مرتبة الملائكة المسبحين لله الحامدين له، فالله الذي خلق من أبعد الأشياء عن مرتبة الأحياء حيا هو في أعلى المراتب لا يكون إلا منزهًا عن العجز والجهل، ويكون له الحمد على إنعام الحياة، ويكون له كمال القدرة ونفوذ الإرادة فيجوز منه الإبداء والإعادة.

وفي الآية لطيفتان إحداهما: قوله: (إذا) وهي للمفاجأة، يقال خرجت فإذا أسد بالباب وهو إشارة إلى أنّ الله تعالى خلقه من تراب بكن فكان لا أنه صار معدنًا ثم نباتًا ثم حيوانًا ثم إنسانًا وهذا إشارة إلى مسألة حكمية، وهي أنّ الله تعالى يخلق أولًا إنسانًا فينبهه أنه يحيي حيوانًا ونامیًا وغير ذلك لا أنه خلق أولًا حيوانًا، ثم يجعله إنسانًا فخلق الأنواع هو المراد الأول، ثم تكون الأنواع فيها الأجناس بتلك الإرادة الأولى، فالله تعالى جعل المرتبة الأخيرة في الشيء البعيد عنها غاية من غير انتقال من مرتبة إلى مرتبة من المراتب ـ التي ذكرناها ـ.

اللطيفة الثانية: قوله: (بشر) إشارة إلى القوة المدركة لأن البشر بشر لا بحركته، فإنّ غيره من الحيوانات أيضًا كذلك، وقوله: (تنتشرون) إلى القوة المحركة وكلاهما من التراب عجيب، أما الإدراك فلكثافته وجموده، وأما الحركة فلثقله وخموده. وقوله: (تنتشرون) إشارة إلى أنّ العجيبة غير مختص بخلق الإنسان من التراب بل خلق الحيوان المنتشر من التراب الساكن عجيب فضلًا عن خلق البشر»[1].

وكلامه هنا واضح في أنّ الإنسان بعد خلقه من التراب، ومروره بمراحل الخلق انتقل فجأة إلى الطبيعة الإنسانية، التي هي الغاية من هذا الخلق، فخرج من هذا التراب بشر ينتشرون، ولم يكن ذلك بتطور من جنس إلى

---

(١) الرازي: مفاتيح الغيب، سورة الروم (الآية ٢٠)، مج (١٣) ١٠٨/٢٥ ـ ١٠٩.

جنس آخر من أنواع الحيوان، وإنما كانت تلك مفاجأة بحسب ما أراد الله سبحانه، وقد تبيّن لك مما ذكره أنّ (إذا) في هذا الموضع لا تختلف دلالتها عن دلالة أخواتها في سائر الآيات من حيث مجيء ما بعدها على أثر ما قبلها.

فإن اعترض معترض على ذلك بأن العطف هنا كان بـ (ثم) الدالة على المهلة، ويمكن أن يستوحى من ذلك بأنّ انتقالهم إلى جنس البشر جاء بعد مراحل من خلقهم من تراب، وهي تلك التطورات من جنس إلى آخر كما تقتضيه النظرية التطورية.

فجوابه: أنّ دلالة (ثم) على المهلة لا يلزم منها أن تكون هذه المهلة مهلة زمنية، فهي تدل على المهلة الزمنية عندما تعطف المفردات بعضها على بعض، أما عندما يكون التعاطف بين جمل، فإنّها غالبًا تكون للمهلة الرتبية، والشواهد الدالة على ذلك كثيرة كما في قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ ﴾ [الأعراف: ١١]، فإنّ النصوص القرآنية الأخرى دالة على أنّ أمره تعالى بالسجود لآدم كان سابقًا على خلقه، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ۝ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴾ [الحجر: ٢٨ ـ ٢٩]، ومثله قوله تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ۝ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴾ [ص: ٧١ ـ ٧٢]، فإنّ كل ذلك يدل على أنّ أمره لهم بالسجود لهذا المخلوق من الطين كان سابقًا على خلقه، لأن (إذا) من أدوات الشرط تدل على الاستقبال.

ومثل ذلك سائر الشواهد في القرآن كقوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۝ ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ ﴾ [الأنعام: ١٥٣ ـ ١٥٤]، فإنّ إيتاء موسى الكتاب سابق على توصيتهم بما ذكر، ومثله قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ

﴿ فَكُّ رَقَبَةٍ ۞ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ۞ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ۞ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ۞ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴾ [البلد: ١٢ ـ ١٧]، فإنّ كون مقتحم العقبة من الذين آمنوا لا بد من أن يكون سابقًا على فكه الرقبة، وإطعامه في يوم ذي مسغبة يتيمًا ذا مقربة أو مسكينًا ذا متربة، إذ لا قيمة لشيء من أعماله ما لم يكن مؤمنًا، والإيمان هو الذي ينتج عنه كل عمل صالح كالذي ذكر.

ومجيء (ثم) دالة على المهلة الرتبية دون الزمنية هو معهود عند العرب، كما في قول طرفة بن العبد في وصف ناقته:

جُنوحٌ دِفاقٌ عَنــدَلٌ ثُمَّ أُفرِعَت لَها كَتِفاها في مُعالــىً مُصَعَّدِ

فإنّ كونها أفرعت لها كتفاها في معالى مصعدٍ لا يمكن أن يكون متأخرًا على ما وصفها به مــن قبل، فإنّ تلك صفة لها منذ بدايــة خلقها، ويأتي هذا العطف لأجل الاهتمام بما بعد ثم، كأنما العقل يتمهل في التفكير فيما قبلها وما بعدها، بسبب تفاوت رتبتي الحالين.

هذا؛ ويا ترى كيف يمكن للقرآن الذي جاء من عند الله تعالى أن يتجاهل هذه الأطوار في المراحل الحيوانية، لو كانت حقًا؟! مع أن الله سبحانه يذكر استيعاب القرآن للحقائق التي تشد الإنسان لتصله بالله ﷻ، فيقول: ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ﴾ [الأنعام: ٣٨]، ويقول: ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ [النحل: ٨٩]، فكيف يتصور أن يســكت القرآن عن جميع هذه الأطوار لو كانــت واقعة، مع أنّ الله تعالــى يصفه بتبيان كل شيء، وبعدم تفريطه لشيء؟!.

فعلى المســلمين الذين اغتروا بهــذه النظرية أن يتأملوا هــذا الأمر ولا ينســاقوا مع التيار؛ من غير أن يلتفتوا إلــى كونه إلى أي غايــة ينتهي بهم، وحسبهم ما وجد في الأمم الأخرى من شــقاق حول هذه النظرية وتردد بين

إقرارها وإسقاطها، كما سبق ذكر أمثلة من ذلك، وقد جاء في **الموسوعة العربية العالمية** ما نصه: «أوجدت نظرية داروين حول التطور عن طريق الانتخاب الطبيعي دراسات في علم الأحياء، وخاصة في علم الإحاثة) أي الأحافير)، وعلم التشريح المقارن، وخلال النصف الأول من القرن العشرين الميلادي استخدمت الاكتشافات الجينية وعلم الأحياء المتطوّر براهين لنظريات التطور التي كانت تعتبر الانتخاب الطبيعي شيئًا غير مهم، ولكن بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية سنة ١٩٤٥م، أصبحت نظريات داروين مرة أخرى ذات نفوذ في البيولوجيا، (علم الأحياء التطوري) الذي كثيرًا ما يسمى بالداروينية الحديثة، وقد قدَّمت الداروينية الحديثة توضيحًا للأصل الجيني للاختلافات داخل الأنواع المستقلة، وللطريقة التي تشكلت بها الأنواع. ومنذ بداية الستينيات في القرن العشرين استخدمت الاكتشافات في علم الأحياء الجزيئي، وعلم الإحاثة (الأحافير) لتأييد النظريات المضادة لنظرية داروين عن التطور، هناك عدد من البيولوجيين (علماء الأحياء) الذين يرفضون المبدأ الأساسي للنظرية الداروينية الجديدة في بعض أنحاء الغرب، وما زالت نظريات داروين الحديثة حتى الآن أساسًا لأكثر الدراسات البيولوجية (الأحيائية) المعاصرة في الغرب رغم ما تجده من معارضة في كثير من بلاد العالم»[1].

ولا يخفى أنّ الداروينين الذين جعلوا من نظرية داروين حقيقة قاطعة لا يقبلون الجدل فيها، قد شطوا إذ جاؤا بما لم يقل به داروين نفسه، فهو لم ينكر الخلق، بل اعترف به كما سبق نقله من كلامه، وقد أقر في سيرته الذاتية أنّه لا بد لبدء الحياة من خالق، ولكن ذلك لم يرق للمتمسكين بنظريته من بعده، فواجهوا معضلة كبيرة، كيف يفسرون تطور الكائنات تفسيرًا ماديًا كما

---

(١) مجموعة باحثين: **الموسوعة العربية العالمية**، حرف (د) ـ داروين، ٢٢٧/١٠.

يقول داروين، ثم يعزون بدء الحياة إلى إله خالق قدير، كما يقول صاحب نظريتهم نفسه، فلم يكن أمامهم من حل إلا تجاهل رأي داروين في بدء الحياة، وابتكار التأويلات حول أصل الحياة.

هذا؛ وقد أورد ابن خليفة عليوي القلعجي في كتابه القيم **الحجج العصماء في نقض نظرية داروين في النشوء والارتقاء**[1] كثيرًا من الحجج الدامغة لهذه الخرافة إذ سرد في ذلك إحدى عشرة حجة مسقطة لها، وهي في غالبها ترجع إلى ما سبق ذكره، وقد أشار إلى ما احتجّ به الأستاذ سعيد حوى في تفسيره **الأساس**[2]، وبإمكان القارئ الكريم الرجوع إلى هذين المصدرين من أجل مزيد من الفائدة، والله ولي التوفيق.

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى

(١) ينظر؛ عليوي؛ ابن خليفة: **الحجج العصماء في نقض نظرية داروين في النشوء والارتقاء**، مطبعة خالد بن الوليد ـ دمشق.

(٢) ينظر؛ سعيد حوى: **الأساس في التفسير**، سورة الكهف (الآيات ٥٠ ـ ٥٩)، ٦/٣١٩٧.





الفهرس

- **تمهيد بين يدي الكتاب** ١١

جرائم الإلحاد ٥٩

جرائم الملحدين ضد المسلمين خاصة ٧٤

الإلحاد غايته واحدة وإن تعددت شعاراته ١١٢

الباب الأول:

في تعزيز الإيمان بالغيب وبيان ضرورته في حياة الناس

- **الفصل الأول: في إثبات أن الإيمان بالله واليوم الآخر ضمان لانتظام حياة الناس في الدنيا وسعادتهم في العقبى** ١٢٥

▫ **المبحث الأول:** في تأسيس القول بضرورة الإيمان ١٢٦

▫ **المبحث الثاني:** مكانة الإنسان في هذا الكون ١٢٧

▫ **المبحث الثالث:** في طبيعة الإنسان التي لا تهدأ إلا بسكينة الإيمان ١٢٩

- **الفصل الثاني: في ضرورة الناس إلى الدين** ١٤٥

▫ **المبحث الأول:** في كون الدين مطلبًا فطريًا ملحًا ١٤٦

▫ المبحث الثاني: في طبيعة الإنسان التي تضطره إلى التدين ١٤٨
▫ المبحث الثالث: في ارتباط الأخلاق بالدين ١٦١
▫ المبحث الرابع: في كون الدين لا يمكن أن يخترع بالتجربة البشرية أو مقاييس العقول المحدودة ١٧٩
▫ المبحث الخامس: إنّ الدين عند الله الإسلام ١٨٦
▫ المبحث السادس: في سعة الشريعة الخاتمة التي جاء بها النبي ﷺ وعمقها وإعجازها ١٩٧
▫ المبحث السابع: في حقيقة الدين والإسلام اللغوية والشرعية ٢٢٨
الركن الأول: شهادة أن لا إله إلا الله وأنّ محمدًا رسول الله ﷺ ٢٣٦
الركن الثاني: إقام الصلاة ٢٤٢
الركن الثالث: إيتاء الزكاة ٢٤٧
الركن الرابع: صيام رمضان ٢٥٠
الركن الخامس: حج بيت الله الحرام ٢٥٤
▫ المبحث الثامن: في مزايا الإسلام ٢٦٣

الباب الثاني:
في الإلحاد

• الفصل الأول: الإلحاد أسبابه وعلاجه ٢٩٥
▫ المقدمة: في تعريف الإلحاد ٢٩٧
▫ المبحث الأول: في أسباب الإلحاد ٣٠٤
المطلب الأول: في الأسباب النفسية ٣٠٤

المطلب الثاني: في العيوب التي تعزى إلى الأديان ٣٠٩
تسرب الخرافات إلى المسلمين فتح باب الإلحاد على مصراعيه ٣٣٢
تشبيه الخلق بالله لا يقل خطرًا عن تشبيه الله بخلقه ٣٤١
انتهاك حقوق الإنسانية باسم الدين من أهم عوامل انتشار الإلحاد ٣٤٤
تشويه الإسلام الجميل بجرائم تشوهه وهو براء منها ٣٦٣
أثر الجانب الأخلاقي والتهاون به في تحقير الدين ونصرة الإلحاد ٣٩٧
▫ المبحث الثاني: في علاج مشكلة الإلحاد ٤٠٨
• الفصل الثاني: في استشراء داء الإلحاد في الأمم ٤١٣
▫ المبحث الأول: فيما مرّ على الأمم من أفكار ملحدة ٤١٤
▫ المبحث الثاني: تأصيل الفكر الداروينى ٤٢٥
▫ المبحث الثالث: في صدى الفكر الداروينى ٤٣٠
ضرورة الكشف عن أوهام ما تعلقت به النظرية التطورية ٤٨٨
نقض ما بنيت عليه الداروينية من النواميس الأربعة ٤٩٦
الجرائم الأخلاقية قائمة أيضًا على أساس فكرة النشوء والارتقاء ٥١٣
• الفصل الثالث: في نقض الداروينية بأدلة البرمجيات ولغاتها ٥٢٣
▫ المبحث الأول: في بناء الفكر الداروينى الجديد على أساس الطفرات العشوائية ونقض ذلك ٥٢٤
▫ المبحث الثاني: في انتقاض هذا الأساس بهندسة البرمجيات ٥٣٨
• الفصل الرابع: في نقض الداروينية بأدلة الأحافير ٥٦١
▫ المبحث الأول: في الأحافير لغة واصطلاحا ٥٦٢
▫ المبحث الثاني: في حلم داروين أن تسند الأحافير في المستقبل نظريته ٥٦٥

▫ **المبحث الثالث:** في تبخر حلم التطوريين بتعزيز الأحافير لنظريتهم ٥٦٧

▫ **المبحث الرابع:** في عجز الداروينية عن الإجابة على الاستفهام عن أسلاف الكائنات الموجودة التي يزعمونها ٥٧٣

١ ـ الفيل ٥٧٤

٢ ـ السمك ٥٨٤

٣ ـ تطور الزواحف إلى طيور ٥٨٧

٤ ـ الخفاش ٥٩٣

٥ ـ الديناصور ٥٩٤

الأدلة الدالة على سقوط دعوى علاقة الديناطور بالديناصور ٥٩٩

تخبط التطوريين فيما يفترضونه من تصورات ٦٠٢

خرافة تطور الإنسان من بعض فصائل القردة ٦٠٧

قصة رحلة د. كارل ويرنر التي نقضت غزل الداروينية بالحقائق العلمية ٦١٩

ما هي نتائج اكتشافات هذه الرحلة للحقائق المستورة ٦٢٥

• **الفهـــرس** ٦٣٧